

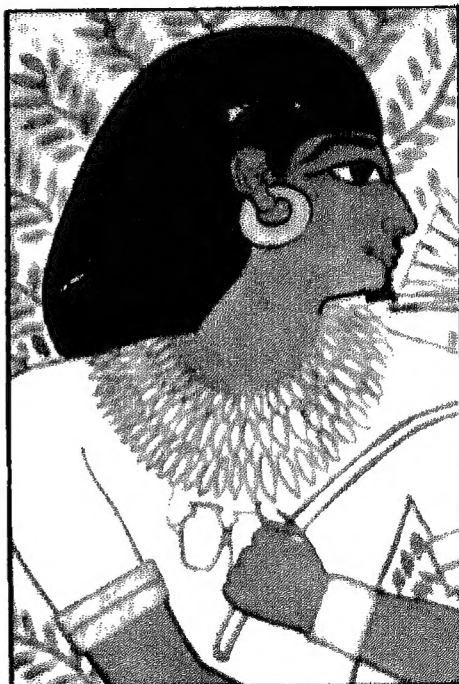
تاريخ مصر

من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي

ترجمة
الدكتور حسن كمال

تأليف
الأستاذ جيمس هنري برستد

راجعة وصححه : محمد حسنين الغمراوي بك



تاريخ مصر

من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مدبولي

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

صَفَحَاتٌ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ

(٤)

تَارِيخُ مِصْرَ

مِنْ أَقْدَمِ الْعُصُورِ إِلَى الْفَتْحِ الْفَارِسِيِّ

تَأَلَّفَ

الْأُسْتَاذُ جِيمْسُ هَنْرِي بَرَسْتَد

أُسْتَاذُ عِلْمِ التَّأْرِيخِ الْمِصْرِيَّةِ وَتَارِيخِ أَسْرِهِ بِجَامِعَةِ سِيكِلِيُو، وَمُدِيرُ دَارِ
التَّحْقِيقِ الْمِصْرِيَّةِ بِمَدِينَةِ هَايْكِل، وَالْعُضُو الْمُرَاسِلُ لِلْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ بِبِرْلِين

تَرْجَمَهُ

الدُّكْتُورُ حَسَنُ كَالِ

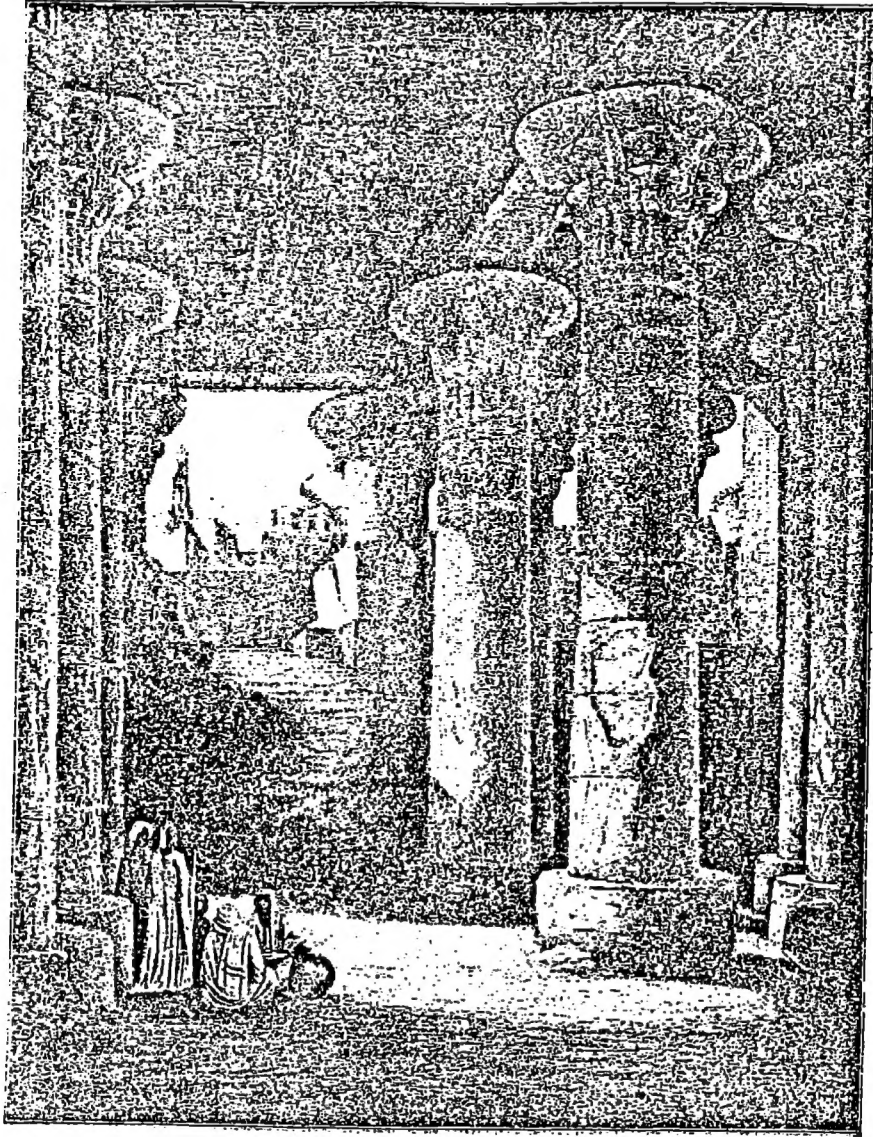
رَاجَعَهُ وَصَحَّحَهُ

مُحَمَّدُ حَسَنُ بْنُ الْغُرَاوِيِّ بَاكِي

مَكْتَبَةُ مَدْبُولِي

الْعِثَاقَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الساحة ذات العمود بمعبد إيسنا



الملك فؤاد الأول

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القديم المتعال . وبعد : فلما اشترأت نفوس المصريين الى الاطلاع على أسرار تاريخهم الجليل ، رأيت أن أقدم لهم سفرا يروون به ظمأهم ، ويشقون به أذهانهم ؛ ومن دواعي الأسف أنه لا يوجد بين مصنفاتنا العربية الحديثة ما يسد فراغ هذا السفر . نعم ان المرحومين أحمد كمال باشا وأحمد نجيب بك وضعوا كتابين قيمين في هذا الموضوع سميتهما ” العقد الثمين ” و” السفر الجليل ” منذ نحو ثلاث وأربعين سنة ، غير أن تقادم العهد عليهما ، أفقدهما ما كان لهما من المنزلة السابقة ، لكثرة توالي الاستكشافات الأثرية منذ ظهورهما .

ولما أردت القيام بهذا العمل سألت «الأستاذ برستد» مدير القسم الشرقى بجامعة شيكاغو ليسمح لي بترجمة سفره الى العربية ، فأظهر جنابه في ذلك ارتياحا واستعدادا للمساعدة . ولا يخفى أن هذا الكتاب فذ في نوعه باعتراف المؤرخين الغربيين ، فهو لذلك مرجع علمي قيم . وعلى كل حال فاننا نؤكد للقارئ مقدما أنه سيجد في هذا السفر ضالته المنشودة . وفقنا الله للصواب ما

الدكتور حسن كمال

مقدمة المؤلف

كانت الزيادة المطردة للسياح الوافدين الى القطر المصري في شتاء كل سنة باعثا لى على وضع كتاب في تاريخ هذا القطر، يتفق تماما هو والاستكشافات العصرية، والمعلومات الأثرية الحديثة؛ وليس هؤلاء السياح السعداء وحدهم هم الذين ناقت نفوسهم الى مصر، بل هناك فريق آخر من رجال العلم اشربت أعناقهم لمعرفة أهمية الشرق القديم، وتأثيره في التاريخ البشرى. ولا يخفى أن العالم الغربى مدين بكثير من علومه وآدابه الى أهالى وادى النيل، كيف لا وهم الذين زودوا أوروبا الجنوبية بالمدنية والمعارف، فأخذت هذه تنتشر شمالا متبعة سير النيل الى أقاليم البحر الأبيض المتوسط. والعقبة الواحدة التى حالت دون وصول حضارة بابل الى أوروبا هى عدم اتصال الفرات بالبحر الأبيض المتوسط، إذ لولا ذلك لأصبح العالم الغربى مدينا لبابل بمقدار ما هو مدين لمصر القديمة. وهكذا صارت مصر أقدم وأهم المراكز التى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، كيف لا وقد اجتمعت فيها السيادة الحربية والمدنية، من أقدم عصور التاريخ الى ظهور مدينتنا وحضارتنا الحديثتين. ولقد كان من أهم واجباتنا المقدسة ونحن من سلالة سكان أوروبا الأقدمين، أن نرفع الستار ونزيل الحواجز التى تحجب عنا حوادث العصور السالفة، تلك العصور التى تسلم فيها أجدادنا بدعة هذا التمدن الحديث. وهناك فريق ثالث وهم العلماء الروحانيون يهتمهم معرفة تاريخ مصر القديم، ليتبحروا في دراسة العهد القديم من الكتاب المقدس. لذلك جعلت نصب عيني عند وضع هذا الكتاب، استيفاء أغراض قارئيه على اختلاف ماربهم، لنعم فائدته فلا تقتصر على فريق دون سواه.

فى وضع هذا الكتاب اتبعت طريقة معينة ميزته عن أمثاله من كتب تاريخ مصر القديم. ولا يخفى أن معلوماتنا عن التاريخ القديم لسكان وادى النيل ضئيلة ومن الصعب علينا التوفيق بينها كما سيأتى الكلام فيما بعد (راجع صحيفة ٢٣ والفقرات ٣-٢٢ من الجزء الأول من كتابى المسمى "نصوص مصرية قديمة"). ومن السهل الحصول على معظم هذه المعلومات لأنها مطبوعة ومعروضة فى كل المكتاب الأثرية، لكن معظم هذه المطبوعات ظهرت قبل التحقق من محتوياتها، والتأكد من أخبارها وقصصها المنقولة عن القدماء^(١). وليس لي القارئ أن أذكره بأن نسخ النقوش الأثرية بدقة ليس بالأمر الهين، اذا أريد تجنب الخطأ والاحتراس من النسيان. خذ مثلا ما أتاها الأستاذ «رسكن» (Ruskin) من الخطأ الفاحش لما دؤن فى كتابه الفريد المسمى "أيام بمدينة فلورنس" (Mornings in Florence) بعض نصوص وجدها على لوح من الرخام بمقبرة استحسناها فى كنيسة "سانتا كروسى" ومع أن هذه النصوص قليلة لم تتجاوز الثمانية الأسطر لما قارنتها بالأصل، وجدت بها

(١) ما لى هذا المكان من الكلام منقول من كتابى المسمى نصوص مصرية قديمة "Ancient Records of Egypt"

(بن ١ من الفقرة ٢٧ الى الفقرة ٢٨) .

(ح)

خطأ في هجاء إحدى الكلمات وأسقاط كلمتين (et magister) من النصوص اللاتينية الأصلية التي يرجع تاريخها إلى القرون الوسطى للعهد اللاتيني . ولا يخفى أن حصول مثل هذا الخطأ من عمدة في فنه كالأستاذ «رسكن» برهان كبير على جواز ما يقع فيه غيره من العلماء المدققين وقت قراءتهم لأي نصوص قديمة . واليك مثالا آخر يزيدك تأكيدا : ذلك أنه بالرغم من طبع نصوص «بولتارخ» (Politarach) عدة مرات واختلاف كل طبعة عن الأخرى في نقط مهمة متعددة، فإنا لم نصل إلى معلومات صحيحة إلا بعد ظهور الطبعة المنقحة . وهاك مثالا ثالثا يتناول نسخ النقوش اليونانية واللاتينية التي وجدت على قطعة البرنز في قاعدة مسلة نيويورك، فإن هذه النقوش قرئت أولا خطأ من زمن بعيد، واستمر الآثريون يتداولونها بهذه الصورة حتى أتى «مومسن» (Mommssen) واتخذ تلك القراءة غير الصحيحة أساسا بنى عليه إحدى نظرياته بشأن ولاية الرومان الأولى في مصر . لهذه الأسباب قلت ثقة القوم في النقوش الهيروغليفية التي نسخت وقت حل غوامض ذلك الخط ، ما لم يكن الناسخ لها رجلا أثريا مشهورا بدقته وعنايته . والسبب في ذلك يرجع إلى عدم التدقيق بادئ الأمر، ولولا ذلك الإهمال ما بقي للخطأ أثر في مؤلفات هذا الفن، ولكن استمرار الحال كما ذكرنا أكثر من الخطأ في المصنفات الأثرية . والحق يقال إن بعضا من المصنفات الحديثة خلا من الخطأ والسهو لشدة العناية والدقة اللتين بذلتا فيها . ومن دواعي الأسف أنه ليس في كتب اللغات القديمة من الخطأ أو السهو مثل ما زحرت به مؤلفات اللغة الهيروغليفية وأثار مصر القديمة .

لهذه الأسباب الجوهرية كنت دائما أرجع في كل ما أكتبه عن تاريخ مصر القديمة إلى المظان الأصلية ، لأقترب من الحقيقة جهد الاستطاعة . ولا يخفى أن هذا العمل تطلب منى سنوات عدة، أمضيته في الفحص عن المجموعات الأثرية في عواصم أوروبا جميعها . وكان أعظم مساعد لي في ذلك ما قامت به البعثة العلمية التي صورت جميع النقوش المصرية القديمة المحفوظة بمتاحف أوروبا ، والتي كلفت هذا العمل من قبل أربعة معاهد عالمية ملكية ألمانية (هي معاهد برلين وليبتزج وجوتينجن وميونخ) للتمكن من عمل معجم تام للغة المصرية القديمة . ثم تعطف جلالته إمبراطور ألمانيا بمساعدة هذا المشروع من الوجهة المالية لسرعة إنجازه . ومن النسخ التي جمعتها هذه البعثة راجعت جميع النصوص التاريخية المصرية التي بأوروبا . أما من حيث النصوص الهيروغليفية المحفوظة بمصر، فقد اعتمدت على ما نسخته من نقوشها التاريخية، ولا سيما نصوص طيبة وتل العمارنة ودار التحف المصرية . وأما النصوص المحفوظة بمصر، التي تعذر على نسخها، فقد اعتمدت لأجلها نسخ الأستاذ «ليسيسوس» المحفوظة بدار التحف ببرلين . وتمكنت من معرفة النصوص الأثرية التي في جهات أخرى، باطلاعي على نسخ تلك النصوص، التي جمعها أعضاء البعثة الأثرية الألمانية، القائمة بعمل المعجم الهيروغليفي الضخم المشار إليه سابقا . ونسخ لي بعض الأصدقاء الأثريين نقوشا هيروغليفية كان من الصعب «دلي الوصول إليها . وطلبت كذلك صورا شمسية مكبرة لنصوص أثرية بعيدة الوصول ومستحيلة النسخ . وفي حالة تعذر وصولي إلى بعض النصوص الأثرية بالطرق السالفة، كنت أعتمد على المطبوعات الحديثة الدقيقة الحاوية لها، لأن الخطأ في مثل هذه الكتب غير متظر . هكذا تمكنت من جعل مؤلفي مطابقا لما ورد بصحيح الآثار المعروفة الآن .

(ط)

وبالرغم من تقدم علماء الآثار في اظهار غوامض اللغة المصرية القديمة ، فان معلوماتنا التاريخية لم تتأثر بذلك ، لأن هذا التقدم اللغوي لا تنتظر منه أية ثمرة تاريخية ، ما لم تراجع جميع النصوص المصرية القديمة بدقة تامة ، ثم تترجم ترجمة جديدة .

ولقد قمت بهذه الجهود فترجمت جميع النصوص التاريخية التي توصلت اليها بالطرق المذكورة ، وراغبت في ترجمتها أحدث المعلومات ، متخذا طريق الحياد التام ، فلم ألجأ الى ترجمة سابقة لأحد النصوص إلا بعد فراغى من ترجمته .

بعد ذلك جمعت هذه التراجم ورتبتها على حسب القدم ، مبتدئا بأقدمها عهدا ، ومنتهيا بنصوص العهد الذى فقدت فيه مصر استقلالها عندما غزاها الفرس عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، وشغعت هذه المباحث بمقدمات تاريخية وملاحظات تفسيرية ، وسميتها "نصوص مصرية قديمة" (١) بعد طبعها . هكذا يشرئ لكل مالم باللغة الانجليزية الاطلاع على تراجم جميع النصوص الأثرية المشتتة في مئات المطبوعات التي لا يتيسر اقتناؤها ، وسهلت عليه معرفة مرجع كل حقيقة تاريخية يريد استطلاعها . وقد جاءت هذه التراجم في أربعة أجزاء ، وانى أحيل القارئ الى الملاحظات التي بأسفل كل صحيفة ، كلما تطلب الأمر ذلك ، والأرقام السوداء تشير الى الأجزاء والصغيرة التي تليها تشير الى الفقرات . بهذه الطريقة أمكننى أن أحيل القارئ الى مراجع الكتاب الأصلية ، الموجودة بكتابى المسمى "نصوص مصرية قديمة" متجنبنا ذكر المصادر التاريخية بالطرق العقيمة المتبعة في بعض الكتب ، ومجتهدا في الوقت نفسه أن أصل ذهن القارئ بسلسلة المباحث التاريخية اللازمة .

ومن رأى أن قراء هذا الكتاب ينقسمون الى ثلاثة أقسام : قسم يطالعها بلا اهتمام الى مراجعها المدونة في أسفل صحفه ، فيفهم مضمونه بدون أن يستفيد من مراجعه . والقسم الثانى كثير الاهتمام بمراجع الكتاب فقط ، قليل الاهتمام بما حواه من الاستنتاجات والملاحظات . أما القسم الثالث فكثير الاهتمام بالتحقق والتثبت من تلك المصادر ، ومراجعة الأصول ومقارنتها بختويات هذا الكتاب . وبديهى أن القسم الأخير هو الأكثر استفادة مما بذله المؤلف من جهود الجمع والترجمة في كتابه "نصوص مصرية قديمة" لكن قراء القسم الأخير أقل عددا من القسمين السالفين . واذا أراد القارئ أن يتأكد من عظم الفائدة من جمع تلك النصوص الأثرية وترجمتها ترجمة جديدة ، وتأثير ذلك فى معلوماتنا الأثرية الحديثة ، فليقارن هذا الكتاب بكتابى المسمى "نصوص مصرية قديمة" ليتحقق أن النتائج الجديدة التي اهتدى اليها المؤلف من مباحثه العلمية ، كافية وحدها لإظهار قيمة هذا العمل الفذ .

ولم أتعرض كثيرا فى مؤلفى هذا لطرق باب علم العاديات بالإقدام والصبر اللذين بذلتهما فى نسخ ترجمة النصوص التاريخية القديمة ، لأن علم العاديات لا يزال فى حدائنه والكتب العلمية المؤلفة فيه

(١) See *Ancient Records of Egypt: The Historical Documents*, by James Henry Breasted, University of Chicago Press, Chicago, 1906. Volume I, *The First to the Seventeenth Dynasties*. Volume II, *The Eighteenth Dynasty*. Volume III, *The Nineteenth Dynasty*. Volume IV, *The Twentieth to the Twenty-sixth Dynasties*. Volume V, *Indices*.

(٥)

قليلة جدا بالنسبة لمبحثه العظيم السامى . وعلى كل فقد دوت المعلومات التى استنتجتها من النصوص القديمة . ونفس كل باحث متضلع فى علم العاديات واللغات الشرقية القديمة تتعشق الوصول الى نتائج باهرة ومعلومات قيمة عن قدماء المصريين . أما من جهة الديانة المصرية فلقلة معلوماتنا عنها لم أتمكن من استيفاء مراجعة التراجم لنصوصها القديمة . وأعلم أن البحث فى هذا الموضوع حديث المهد ولا بد أن تمضى مدة طويلة قبل الوصول الى حقائق ثابتة تمكن من التبحر والتغلغل فى ثناياه . ولم أسهب الكلام عن الديانة المصرية الا فيما يتعلق بمعهد تل العمارنة وعبادة الشمس ، لأننى نسخت النصوص المتعلقة بهذين الموضوعين وترجمتها ، وأوردت منها ما أمكننى استنتاجه . وانى أغتنم هذه الفرصة لأظهر اعجابى بكتاب الأستاذ «إرمن» (Erman) الذى وضعه فى الديانة المصرية القديمة المسمى (Handbuch) والذى سأحيل اليه القارئ مرارا لأنه مرجع وثيق فى هذا المبحث ولا يزال كتاب (Aegypten) الذى وضعه الأستاذ «إرمن» أيضا عمدة الكتب فى وصف قدماء المصريين وأحوال معيشتهم ، ولو أنه مر على ظهوره عشرون سنة ، فكان هذا المجلد خير معين لى فى وضع كتابى هذا . وهأنذا أقدم بالشكر فى هذا المقام الى الأستاذ «إدوارد ماير» (Eduard Meyer) على مساعدته العظيمة فى ضبط مواقيت التاريخ ولا سيما القديمة منها ، وعلى بياناته القيمة التى ساقها بخصوص المعهد الصاوى ، الواردة فى كتابه المسمى (Geschichte des alten Aegyptens) . ولقد كانت مؤلفات الأستاذين «ماسيرو» و«فيدمان» خير معين لى أيضا من الوجهة التاريخية والعادية ، حتى اضطررت أن أثبت ذلك فى مقدمة كتابى "نصوص مصرية قديمة" . وينهى أتى كسواى من المؤرخين مدين كثير المباحث الأستاذ «وينكلر» (Winckler) المتقنة الفذة الخالصة بخطابات تل العمارنة .

هذا وانى أقدم بالشكر الجزيل الى أصدقائى وزملايى لما أرسلوه لى من الصور الشمسية والأشكال التخطيطية وغيرها ، وأخص بالذكر منهم صديق الأستاذ «شيفر» بيرلين والأستاذة «بورخارت وشتيندورف» وهيرى وزان ومسرحمت والقس ما كرى بمدينة تامورث والدكتور كارولين رانسوم» . ولقد سمح لى أصحاب محل «أندروود وأندروود» لأثبت فى هذا الكتاب الصور الأستريوسكوبية للأثار المصرية التى استعرتها منهم فاستحقوا على ذلك شكرى الجزيل . والحق يقال ان هذه الصور جزيلة الفائدة لكل سائح تسنح له الفرص بزيارة وادى النيل لأنها تساعده كثيرا على درس تاريخ ذلك الوادى دوسا لا يقل أهمية عن مباحثه العلمية . وأخيرا أراين مضطرا لأن أعترف بما أسداه لى المستر «جون وورد» من مدينة لينوكس ثيل جهة بلقاست بارلنده من الصور الشمسية البدئية للحفائر الحديثة التى عملت بالكرنك ، والتى أثبت بعضها فى هذا الكتاب . وهى رسوم جميلة اذ كرمها على سبيل المثال صورة الشارع الفسيح المنسوب على جانبيه تماثيل الكباش ذات الرقم ١٢٩ فى هذا الكتاب .

ويرجع الفضل فى وضع الخريطتين ٦ و ١١ فى هذا الكتاب الى «الهركارل بيديك» بليزيج لأنه سمح لى باستعارتهما من كتابه الفذ "دليل مصر" الذى لا يمكن أى سائح لمصر أن يستغنى عنه اذا أراد زيارة

(ك)

وإدى النيل والوقوف على آثاره من الوجهة العلمية . وإنى مضطرب فى هذا المقام أن أبدى جزيل تشكراتى لموظفى دور التحف ببرلين ولندره (كدار تحف لندره ودار تحف جامعة لندره ومجموعة الأستاذ پترى) وپاريز (اللوفر والمكتبة الأهلية ودار تحف جويميه) وثينا (هوف ميوزيوم) وليدن وميونخ وروما (دار تحف الفاتيكان ودار تحف الكاپتولين) وفلورنس وبولونيا وناپولى وتورين ويزا وجنيف وليون وليثربول وغيرها لما قدموا لى من المساعدة فى مباحثى العلمية . وهناك شخصان تكرما على بمراجعة تجارب الطبع لهذا الكتاب وهما المستر « ر . س پدان » و «المس إيموجن هارت» ، فاستحقا لذلك جزيل الثناء . أما زوجتى فقد قامت بمساعدتى خير قيام فى كل ما أمكنها أدائه نحوى .

وإنى ليسرنى أن أتمدح بالعناية العظيمة والحرص المتناهى اللذين قام بهما متعهدو نشر هذا الكتاب ، فقد بذلوا من الجهود فى تحسينه وإبداع صوره وأشكاله ما لا يحتاج الى بيان وإيضاح ما

خليج وليمز بمقاطعة ويسكونسن جيمس هنرى بريستد

أول سبتمبر سنة ١٩٠٥

مباحث الكتاب

الكتاب الأول — المقدمة

صفحة	
١	الفصل الأول — أرض مصر
٧	» الثاني — نظرة عامة في تاريخ مصر القديم ، توقيت التاريخ ، مراجع التاريخ ...
١٧	» الثالث — مصر قبل حكم الأسرة

الكتاب الثاني — المملكة القديمة

٣٥	الفصل الرابع — الديانة القديمة
٤٩	» الخامس — المملكة القديمة : الحكومة ، المجتمع ، الصناعة ، الفنون ...
٧٣	» السادس — عصر الأهرام
٨٥	» السابع — الأسرة السادسة : اضمحلال المملكة القديمة

الكتاب الثالث — المملكة الوسطى ، عهد الاقطاعات

٩٧	الفصل الثامن — اضمحلال منف وبزوغ شمس طيبة
١٠٣	» التاسع — المملكة الوسطى أو عهد الاقطاعات : الحكومة ، المجتمع ، الديانة ...
١١٥	» العاشر — الأسرة الثانية عشرة

الكتاب الرابع — الهيكسوس : بزوغ شمس الامبراطورية

١٣٧	الفصل الحادي عشر — انهيار مصر المملكة الوسطى ، الهيكسوس
١٤٥	» الثاني عشر — طرد الهيكسوس وانتصار طيبة

الكتاب الخامس — الامبراطورية في دورها الأول

١٥٣	الفصل الثالث عشر — الحكومة الجديدة : الاجتماع ، الديانة
١٦٧	» الرابع عشر — توطيد أركان المملكة ، سطوع شمس الامبراطورية
١٧٥	» الخامس عشر — شقاق التحوتمسين وحكم الملكة حتشبسوت
١٨٧	» السادس عشر — توطيد أركان الامبراطورية : تحوتمس الثالث
٢١٣	» السابع عشر — عهد الامبراطورية
٢٣٥	» الثامن عشر — ثورة إخناتون الدينية
٢٥١	» التاسع عشر — سقوط إخناتون وتفكك مري الامبراطورية

الكتاب السادس — الامبراطورية في عهدها الثاني

٢٦٧	الفصل العشرون — انتصار آمون وتنظيم الامبراطورية
٢٨٣	» الحادي والعشرون — حروب ومسيح الثاني
٢٩٧	» الثاني والعشرون — امبراطورية رمسيس الثاني
٣١٣	» الثالث والعشرون — اضمحلال الامبراطورية النهائي : مفتاح ورمسيس الثالث

(ن)

الكتاب السابع — دور الاضمحلال

صفحة	
٢٤١	الفصل الرابع والعشرون — سقوط الامبراطورية
٣٥٣	» انقسام والعشرون — الكهنة والجنود المأجورة : سيادة الليبيين
٣٦٣	» السادس والعشرون — سيادة إتيوبيا على مصر واتساع آشور... ..

الكتاب الثامن — دور الإصلاح والنهاية

٢٨١	الفصل السابع والعشرون — دور الإصلاح
٣٩٣	» الثامن والعشرون — الكفاح النهائي : بابل وفارس

قائمة بأسماء ملوك مصر ومدد حكمهم ٤٠٣

تفسير ما يلي كل صفحة من الملاحظات

الأرقام السوداء (١ و ٢ و ٣ و ٤) تشير إلى أجزاء كتاب "نصوص مصرية قديمة". أما الأرقام الصغيرة (١ و ٢ و ٣ و ٤) التي تليها فتشير إلى رقم الفقرات بذلك الكتاب .

(ب) تشير إلى كتاب الأستاذ بروكش المسمى "Thesaurus."

(م) « ماسيرو » "Receuil de Travaux."

(ر) « ده ووجيه » "Inscriptions Hiéroglyphiques."

بيان أشكال الكتاب

حلية صدر الكتاب ، الساحة ذات العمد بمعد إسنا

شكل

صفحة

- ١ - أحد مجارى الشلال الأول ٢
- ٢ - فيضان النيل على الأرض كما يشاهد من طريق أهرام الجيزة ٢
- ٣ - منظر للنيل والصخور غرب طيه (الأقصر) ٦
- ٤ - أكواخ الأهالى وأدغال النخيل ، جوار معبد الكرنك بطيه ٦
- ٥ - منظر لوادى النيل من مدينة إدفو ٨
- ٦ - ثلاثة شواذيف مستعملة لرى الأراضى ١٠
- ٧ - منظر وادى النيل غربى طيه ١٠
- ٨ - أقدم رسوم معروفة للآتن ١٨
- ٩ - أسلحة من حجر صوان ، يرجع تاريخها الى ما قبل حكم الأسر ٢٠
- ١٠ - أوان خزفية منقوشة ، يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأمر ٢٠
- ١١ - أوان خزفية ، يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأسر تشاهد عليها قروش محفورة لسفن وحجوانات
ورجال ونساء ٢٠
- ١٢ - قبر يرجع تاريخه الى زمن سابق لحكم الأسر ٢٢
- ١٣ - قضيب من الذهب منقوش عليه اسم الملك مينا ٢٢
- ١٤ - أوان مرمرية ، يرجع تاريخها الى عهد الأسرة الأولى ٢٢
- ١٥ - أرجل كراسى مصنوعة من العاج المنحوت ، يرجع تاريخها الى زمن الأسر الأولى ٢٢
- ١٦ - أوان نحاسية ، يرجع تاريخها الى زمن الأسرة الأولى ٢٢
- ١٧ - أربع أساور على ذراع سيدة ، يرجع تاريخها الى زمن الأسرة الأولى ٢٤
- ١٨ - أحد ملوك الأسرة الأولى يشق الأرض احتفالاً بحفر قناة جديدة ٢٤
- ١٩ - لوح يدبغ النقش يعرض فى الاحتفالات مصنوع من حجر الأردواز ٢٤
- ٢٠ - صورتان شمينتان لرأس تمثال الملك خاتمم ماعوذتان من ناحيتين مختلفتين ٢٦
- ٢١ - تمثال الملك خاتمم المصنوع رأسه فى شكل ٢٠ ٢٦
- ٢٢ - جرة قبر الملك إزيب المغطاة أرضها بالنخشب والبنية باللبن ٢٦
- ٢٣ - قبر الملك يوسفائس المبنى باللبن ٣٠
- ٢٤ - جرات مخنومة لفظ المأكل والمشرب ٣٠

شكل	صفحة
٢٥ - أقدم بناء حجري في العالم	٣٠
٢٦ - لوح من العاج لآلك يوسفائيس	٣٠
٢٧ - لوح من العاج للآلك ميناء أول ملوك الأسرة الأولى، وجد بالرابنة ويرجع تاريخه الى حوالى سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد	٣١
٢٨ - الملك صمرخت من الأسرة الأولى يضرب بدويا من طورسيناء	٣١
٢٩ - حجر بالزيو	٣٢
٣٠ - البقرة المالكية	٣٧
٣١ - إلهة السموات	٣٧
٣٢ - السفينة الفلكية للعبود الشمسى	٣٩
٣٣ - صورة تمثل عدة مصاطب (مقابر) كاملة البناء، يرجع تاريخها الى عهد المملكة القديمة	٣٩
٣٤ - رسم سطحي لإحدى المصاطب	٤٥
٣٥ - صورة تمثل أهرام أبو صيروما جاورها من الأبنية الأثرية كاملة الترميم	٤٨
٣٦ - جمع الضرائب بواسطة موظفى المسالية	٥٢
٣٧ - قصر وحديقة لثبيل مصرى من عهد المملكة القديمة	٥٨
٣٨ - نبيل من عهد المملكة القديمة يصطاد وحش الطير بعضى صغيرة وهو واقف فى سفينة من القصب تمخر فى مستنقعات البردى	٥٩
٣٩ - الزراعة فى عهد المملكة القديمة	٦٠
٤٠ - قطع من البهايم يخوض غديرا فى عهد المملكة القديمة	٦١
٤١ - حرايت الساكنين فى عهد المملكة القديمة	٦٢
٤٢ - صناعة السفن فى عهد المملكة القديمة	٦٣
٤٣ - نحت الأرائى الحجرية فى عهد المملكة القديمة	٦٤
٤٤ - صيد البردى فى عهد المملكة القديمة	٦٥
٤٥ - رسم لعمودين مأخوذتين من ورقة رسمية، يرجع تاريخها الى عهد المملكة القديمة	٦٥
٤٦ - منظر لسوق فى عهد المملكة القديمة	٦٤
٤٧ - عقد، يرجع تاريخه الى الأسرة الثالثة	٦٤
٤٨ - تمثال خفرن (خفرع) مصنوع من الحجر الصوان	٦٤
٤٩ - تمثال رع نوفر مصنوع من الحجر الجيرى	٦٤
٥٠ - تمثال حم ست مصنوع من الحجر الجيرى	٦٦
٥١ - رأس تمثال خشبى لشيخ البلد	٦٦
٥٢ - تمثال لكاتب من الحجر الجيرى من عهد المملكة القديمة	٦٦
٥٣ - تمثالان لبي الأول وابنه يمثلانها بحجمهما الطبيعى مصنوعان من النحاس المعزق	٦٨
٥٤ - رأس تمثال ببي الأول المصنوع من النحاس وعينه يظهر أنها مصنوعة من البلور الصخرى	٦٨
٥٥ - رسم لإوز مأخوذة من مقبرة بميدوم، يرجع تاريخها الى عهد المملكة القديمة	٦٨
٥٦ - رسوم بارزة على جدران إحدى المصاطب من عهد المملكة القديمة يشاهد فيها قطمان البهايم وأسراب الطيور	٧٠
٥٧ - رأس أسد مصنوع من الجرانيت	٧٠
٥٨ - رأس نمرذهي وجد بمدينة الكاب	٧٠
٥٩ - صورة بارزة على لوح خشبى لشخص يقال له حسى رع	٧٠

شكل	صفحة
٦٠ - صورة عمودين للأمر الخامسة ، الأيمن مصنوع على شكل نخلة والأيسر على شكل طاعة من البردى	٧٠
٦١ - صورة تمثل نصب العبد المحيطة بساحة معبد هرم نصير الذي يرجع تاريخه الى الأسرة الخامسة ...	٧١
٦٢ - مصطبة مشيدة باللبن جهة بيت الخلاف ، يرجع تاريخها الى عهد الملك زوسر	٧٢
٦٣ - الهرم المدرج لللك زوسر يسقاره	٧٢
٦٤ - هرم جهة ميدوم ، يهزى الى الملك سفرو	٧٢
٦٥ - نصوص صخرية بوادى مغارة بطورسيناء ، يرجع تاريخها الى زمن الملك أمنمحت الثالث ، اعتبر فيها الملك سفرو أحد معبودات تلك الجهة	٧٤
٦٦ - صورة بقايا الصنخور الكاسية لقاعدة الهرم الأكبر أوضح فيها بالخطوط السوداء مواضع اتصال تلك الصنخور بعضها ببعض ويصعب رؤيتها لدقة البناء وازدياد نعومة تحت الأوجه المتلاصقة	٧٤
٦٧ - هرم الجيزة الأكبر لللك خوفو (كيويس)	٧٦
٦٨ - أهرام الجيزة	٧٨
٦٩ - ساحة مشيدة بالحرايت عند المدخل الأثرى العظيم الذى أقامه الملك خفرع	٧٨
٧٠ - أبو الهول العظيم بالجيزة	٨٠
٧١ - صورة لمعبد الشمس جهة نصير بالقرب من أبو صير ، بعد الترميم	٨١
٧٢ - نقوش بارزة بمعبد الشمس جهة نصير بالقرب من أبو صير	٨٢
٧٣ - بقايا هرم أوتيس يسقاره ، من آثار الأسرة الخامسة	٨٤
٧٤ - صورة شمسية لجزيرة الفيل (الفانتين) مسقط رأس أمراء حدود مصر الجنوبية	٨٤
٧٥ - تمثال قزم من عهد الامبراطورية القديمة	٩٠
٧٦ - مقبرة حخوف بأسوان	٩٢
٧٧ - رأس مومياء الملك مرمرع بدار التحف بالقاهرة	٩٢
٧٨ - صنخور أسوط الغربية	٩٢
٧٩ - ادارة الأمير خنوم حوتب ، بنى حسن	١٠٤
٨٠ - صورة تمثال كبير من المرمر ارتفاعه اثنان وعشرون قدما منقول على زحافة يحجزها بالحبال مائة وسبعون واثان من الرجال مصطفين أربعة صفوف	١٠٥
٨١ - صورة شمسية لنابوت ميت واثان مقبرته من عهد الملكة الوسطى	١١٠
٨٢ - سفينة لللك سيزو تريس الثالث وجدت بهرمه جهة دهشور	١١٠
٨٣ - صورة تمثل قلعى سمته وقفه ، بعد الترميم	١١٩
٨٤ - صورة شمسية لنهر النيل باقليم النوبة مأخوذة من أعلى الحصون الاسلامية المهتمة جهة إبريم	١٢٠
٨٥ - بقايا مناجم الملكة الوسطى جهة مربوط الخادم بطورسيناء	١٢٠
٨٦ - منظر بركة قارون بالجهة الشمالية الغربية بالقليوب	١٢٤
٨٧ - مملكة سيزو تريس الأول بمدينة عين شمس	١٢٤
٨٨ - تمثال خشبي للامير إوب رع بدار التحف بالقاهرة	١٢٤
٨٩ - صورة أمنمحت الثالث مأخوذة من تمثاله المصنوع ببيتة أوى الهول جهة تيس	١٢٦
٩٠ - النصف العلوى لتمثال أمنمحت الثالث بدار التحف بماصحة روسيا	١٢٦
٩١ - هرم سيزو تريس الثانى جهة اللاهون مشيد باللبن	١٢٦
٩٢ - صورة لقطع رأسى هرم هواره تظهر علاقة حجره المومياء بسائر أجزاء الهرم	١٢٨
٩٣ - منظر مأخوذ لمعبد تيس فى اتجاه محوره	١٣٠

شكل	صفحة
٩٤ - حجرقة هرم أمنمحت الثالث بدهشور	١٣٠
٩٥ - صورة شمسية لثلاثة تماثيل مصنوعة من الحجر الجيري لأمنمحت الأول وجدت مع سبعة تماثيل أخرى من نوعها بأهرام هذا الملك جهة لشت	١٣٠
٩٦ - قنارى يعزف للدهورين	١٣٤
٩٧ - اكليل لإحدى أميرات الأسرة الثانية عشرة وجد بديرها جهة دهشور	١٣٤
٩٨ - اكليل لإحدى أميرات الأسرة الثانية عشرة وجد بديرها جهة دهشور	١٣٤
٩٩ - العثور على تمثال الملك نفرخارع سيكحوتب بجزيرة أركو أعلى الشلال الثالث	١٤٠
١٠٠ - صورة شمسية لوميا ملك يقال له سكرع مصابة بكسر بالجحمة ، محفوفة بدار التحف بالقاهرة	١٤٠
١٠١ - الجزء الأسفل من تمثال مصنوع من الحجر الجيري يمثل الملك خيان جالسا	١٤٠
١٠٢ - منظر للمدينة الكاب المسورة مأخوذ بآلة التصوير الشمسي من مدخل إحدى المقابر بالصخور الشرقية المشرقة على المدينة	١٤٦
١٠٣ - أسلحة الملك أمنمحت الأول مصنوعة من البرنز	١٤٦
١٠٤ - إحدى وحدات الجيش المصرى مسلحة بالحراب من عهد الامبراطورية	١٥٤
١٠٥ - صورة لعربة من عهد الامبراطورية	١٥٤
١٠٦ - تماثيل صغيرة للاجابة عن الميت فى الآخرة يقال لها بالسان المصرى القديم "أوشيتى"	١٦٤
١٠٧ - تمثال بلعران وضع فوق قلب إسمخب رئيسة سيدات آمون المقدسة	١٦٤
١٠٨ - منظر لجهة من وادى مقابر الملوك بطيبة	١٦٤
١٠٩ - رسم تخطيطى لقبرة سبى الأول بوادى مقابر الملوك بطيبة	١٦٤
١١٠ - دهليز مقبرة رمسيس الخامس بطيبة	١٧٢
١١١ - تمثال جالس لسنوت محطى الملكة حتشبسوت	١٧٢
١١٢ - بعض المناظر العظيمة الخاصة ببلاد الصومال (بوت) منقوشة على جدران الدير البحرى بطيبة	١٨١
١١٣ - سلسلة العدد الثمانية المتصلة بالدهليز الأوسط لمعبد الملكة حتشبسوت المسمى بالدير البحرى بطيبة	١٨٤
١١٤ - مسلات الملكة حتشبسوت بالكركك	١٨٤
١١٥ - منظر لرواحة آمون المعروفة الآن بسيوه	١٩٤
١١٦ - مسلة تحوتمس الثالث	١٩٤
١١٧ - قائمة بأسماء المدن الآسيوية التى استولى عليها تحوتمس الثالث	١٩٤
١١٨ - أحد فرائع الامبراطورية المصرية يقابل رسله الآسيويين الحاملين جزيتهم	١٩٨
١١٩ - الأمرى الآسيويون بمصر فى عهد الامبراطورية	٢٠٤
١٢٠ - صورة شمسية لوميا تحوتمس الثالث	٢١٦
١٢١ - صورة شمسية لوميا أمنمحت الثانى بجبل تحوتمس الثالث	٢١٦
١٢٢ - صورة شمسية لوميا تحوتمس الرابع بجبل أمنمحت الثانى	٢١٦
١٢٣ - أحد خطابات تل الهارثة رقم ٢٩٦	٢١٦
١٢٤ - شكل يمثل ملابس عهد الامبراطورية	٢٢٥
١٢٥ - معبد صغير محاط بمعد	٢٢٦
١٢٦ - رسم هندسى يمثل تفاصيل المعابد ذات الصروح فى عهد الامبراطورية	٢٢٧
١٢٧ - جزء من امام وجد بجزيرة كريت عليه نقوش مخفورة	٢٢٨
١٢٨ - ساحة أمنمحت الثالث ذات المعبد التى على شكل باقات براعم البردى	٢٢٨
١٢٩ - عرسيح أمام معبد الكركك العظيم مقام على جانبيه تماثيل كباش عديدة	٢٢٨

شكل	صفحة
١٣٠ - عمد صحن معبد أمنتب الثالث الذى لم يكمل بناؤه ٢٣٢	٢٣٢
١٣١ - تمثالان خضمان مصنوعان من الحجر الرملى يمثلان أمنتب الثالث وويرفان الآن بتمثال عنون ... ٢٣٤	٢٣٤
١٣٢ - منظر جنازة كاهن عظيم من منف ٢٣٨	٢٣٨
١٣٣ - تمثال أسد وجد بمعبد أمنتب الثالث جهة صليب ٢٤٠	٢٤٠
١٣٤ - كرسى من عهد الامبراطورية ٢٤٠	٢٤٠
١٣٥ - مقدم عربة تحتمس الرابع الرسمية ٢٤٠	٢٤٠
١٣٦ - تمثال يوضح الهيئة الملكية فى عهد الامبراطورية ٢٤٢	٢٤٢
١٣٧ - صورة تمثال أمنتب بن سحى ٢٤٢	٢٤٢
١٣٨ - صورة يلع عائم بين زهر اللوطس ٢٤٢	٢٤٢
١٣٩ - إخناتون وملكته يقدون الإناصم على الكاهن آى وزوجته ٢٤٤	٢٤٤
١٤٠ - شاهد حجرى مين لحدود مدينة تل العمارنة ٢٤٦	٢٤٦
١٤١ - إخناتون يتقبل الأزهار من زوجته ٢٤٦	٢٤٦
١٤٢ - جسم تمثال مصنوع من الحجر الجبرى لكرمة إخناتون ٢٤٨	٢٤٨
١٤٣ - صورة رأس بمثال إخناتون ٢٤٨	٢٤٨
١٤٤ - حياة المستنقعات ٢٤٨	٢٤٨
١٤٥ - جندى حثى مسلح بيلطة ٢٥٢	٢٥٢
١٤٦ - ملك حثى قابض على ربح ومصولمان ٢٥٢	٢٥٢
١٤٧ - موظف مصرى يقابل مهاجرين ساميين ٢٥٢	٢٥٢
١٤٨ - صورة لحورحجب مثله موظفا يكافئه الملك بالذهب ٢٥٦	٢٥٦
١٤٩ - صرح حورحجب الجنون بالكركك ٢٦٠	٢٦٠
١٥٠ - صورة يمثل حورحجب فى الدار الآخرة يقوم بفلاحة الأرض ٢٦٠	٢٦٠
١٥١ - الجزء العلوى لتمثال خونسو ٢٦٠	٢٦٠
١٥٢ - نقوش بارزة على جدار الكركك تمثل معركة سبتى الأول الحربية ٢٦٤	٢٦٤
١٥٣ - سبتى الأول يهدى أزوريس تمثال الصدق ٢٦٨	٢٦٨
١٥٤ - رسم لسبتى الأول فى شبابه يمثل مهديا بتمثال الصدق ٢٧٢	٢٧٢
١٥٥ - تفقد أحوال الهام ٢٧٦	٢٧٦
١٥٦ - الصيد فى قارب من العاب فوق مياه البرك ٢٧٨	٢٧٨
١٥٧ - بعض رسوم بارزة لسبتى الأول على جدار الكركك ٢٨٠	٢٨٠
١٥٨ - رأس مومياء سبتى الأول ٢٨٤	٢٨٤
١٥٩ - شاهد حجرى لرئيس الشافى وأثر لاشورأنشى الدين بفينيقيا ٢٨٤	٢٨٤
١٦٠ - منظر من مناظر القوش البارزة لمركبة كدش ٢٩٠	٢٩٠
١٦١ - بعض أجزاء تمثال رئيس الثانى العظيم البالغ وزنه ألف طن تقريبا ٢٩٨	٢٩٨
١٦٢ - مخازن مدينة يثوم ٢٩٨	٢٩٨
١٦٣ - اثنتان من الحرس الملكى لرئيس الثانى المكون من سودانيين مأجورين ٣٠٢	٣٠٢
١٦٤ - منظر ساحة الكركك العظمى بعد الترميم ٣٠٢	٣٠٢
١٦٥ - صحن ساحة الكركك العظمى ٣٠٢	٣٠٢
٣٦٦ - الرسيوم وهو معبد قبر رئيس الثانى ٢٠٤	٢٠٤

شكل	صفحة
١٦٧ - معبد أبي سنبل الصخرى	٣٠٤
١٦٨ - تمثال رمسيس الثاني مصنوع من الجرانيت الأسود	٣٠٤
١٦٩ - منظر لمركبة كدش العظيمة التي حاربها رمسيس الثاني ، وجدت هذه الصورة مرسومة بشكل بارز على جدر الرمسوم... ..	٣٠٥
١٧٠ - صورة رأس موميا رمسيس الثاني... ..	٣١٤
١٧١ - نسيده النصر للأك مرتين... ..	٣١٤
١٧٢ - بعض الأسرى الفلسطينيين (يلست) الذين استولى عليهم رمسيس الثالث	٣١٤
١٧٣ - صورة معركة بحرية انتصر فيها رمسيس الثالث على أهالي شمال البحر الأبيض المتوسط	٣٢٤
١٧٤ - معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو	٣٣٢
١٧٥ - معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو	٣٣٢
١٧٦ - رمسيس الثالث يصطاد ثورا وحشيا	٣٣٢
١٧٧ - أمحتب رئيس كهنة آمون يقبل انعام رمسيس التاسع	٣٤٤
١٧٨ - ملاحظات كاتب على تابوت سيتي الأول	٣٤٤
١٧٩ - نجبا الدبر البحرى	٣٤٤
١٨٠ - "حقل ابراهيم"	٣٦٢
١٨١ - شاهد حجرى لآشورأنى الدين	٣٦٢
١٨٢ - شاهد حجرى للأك بسامتك الأول وجد بالسرايوم... ..	٣٦٢
١٨٣ - منظر عام لمعد الكرنك مأخوذ بآلة التصوير الشمسى جهة الجنوب	٣٧٦
١٨٤ - تمثال من المرمر للأميرة أماناديس أخت يمينى بدار التحف بالقاهرة... ..	٣٨٨
١٨٥ - رأس تيتل من البرنز وضع بمقدم سفينة	٣٩٨
١٨٦ - رأس حجرى لشخص من العهد الصاوى	٣٩٨

جدول خرائط هذا الكتاب

نخريطة	صفحة
١ مدينة اللاهوت النامة بالمساكن في حى الفقرا.	٥٧
٢ جبانة الأسرة الرابعة بالجيزة	٨٠
٣ الفيوم	١٢٤
٤ قة جبل كرم وعلاقتها بمدينة مجدو	١٨٨
٥ مدينة كدش القديمة المعروفة الآن بئل النى مندوح	١٩٨
٦ طيبه	٢٣٠
٧ امراطورية مصر بآسيا	٢٥٥
٨ مركز كدش الجفراى	٢٨٥
٩ معركة كدش	٢٨٦
١٠ معركة كدش	٢٨٨
١١ معابد الكرنك	٢٩٩
١٢ علاقة مصر الجفراة مع العالم القديم	٣٢٠
١٣ خريطة تامة لمصر و بلاد النوبة	في آخر الكتاب

الكتاب الاول

المقدمة

تاريخ مصر القديم

الفصل الأول - أرض مصر

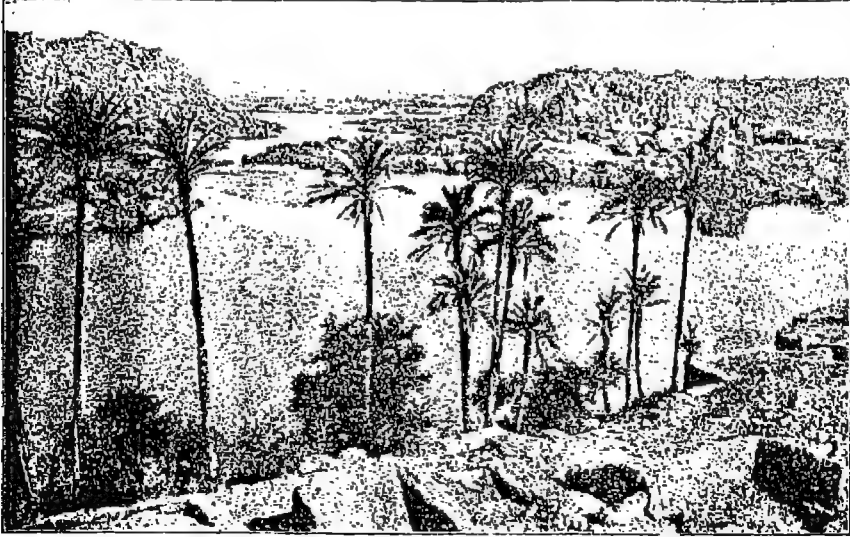
يرجع أصل المدينة الحديثة الى الأمم التي نشأت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية وإلى البلاد المجاورة لتلك الجهة وذلك منذ نحو ستة آلاف سنة تقريبا . وكانت بلاد العراق مركزا ثانيا لمدينة قديمة لكنها لم تسترك في تكوين حضارتنا الحديثة لعدم اتصالها بسكان شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويعزى ذلك الى عدم اتصال هذا البحر بنهر الفرات مع أنهما كانا متصلين قديما قبل ظهور هذه الحضارة . لذلك اعتبر المؤرخون أن حضارتنا الحالية نشأت على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من المحيط الأطلنطي الى الأراضي الصحراوية شمال إفريقيا وإلى الخليج الذي كان متصلا بالبحر الأحمر ثم الى الشمال في القارة الآسيوية . ويحترق هذا الاقليم الشاسع واديان عظيمان متجهان شمالا وجنوبا يعرف أولهما بوادي الدجلة والفرات وهو في القارة الآسيوية . أما الثاني فإفريقية ويقال له وادي النيل . وهذان الواديان هما منشأ المدينة القديمة فصارا لذلك الجهتين اثنتين يبحث فيهما عن تاريخ الانسان القديم حتى ظهور الحضارة الأوروبية الحديثة . وقد كانا أيضا المهدين الوحيدين لحضارتين مختلفتين عمما قدر يما البلاد المجاورة حتى التقنا معا بآسيا الصغرى ثم انشربنا الى جنوبي أوربا .

ومعلوم أن وادي النيل مسقط رأس قدماء المصريين يبدأ جنوبي خط الاستواء بثلاث درجات ويتجه شمالا نحو البحر الأبيض المتوسط فيبلغه على بعد ٣١,٥ درجة شمال خط الاستواء ، ويقدر طوله بأربعة آلاف ميل تقريبا فهو لذلك من أطول أنهار الدنيا وأضخمها . وينبع هذا النهر من عدة بحيرات بمنطقة خط الاستواء حيث يعرف بالنيل الأبيض . وبحوار الخرطوم وبالقرب من منطقة خط العرض السادس عشر وعلى بعد ألف وثلثمائة ميل من البحر الأبيض المتوسط يلتقي النيل من جهته الشرقية بفرعه الأكبر المعروف بالنيل الأزرق الذي يجلب اليه الغرين والمياه الغزيرة من جبال بلاد الحبشة الشاخنة . بعد ذلك بمائة وأربعين ميلا يصب فيه نهر الأبترة وهو أصغر حجما وأقصر طولاً من النيل الأزرق . ومن ثم يتعرج النيل تعرجاً عظيماً أشبه بحرف « S » اللاتيني وسط صحراء قاحلة (شكل ٨٤) وهناك تعترضه عدة شلالات صخرية غير منتظمة يبلغ عددها ستة لكنها ليست شاهقة الارتفاع كشلال نياجارا بأمریکا بل منخفضة ومكونة من عدة صخور متفرقة شاخصة أمام تيار النيل الجارف وقد شق مجرى عميق الغور فيها كما فعل بالأراضي الرملية المجاورة (شكل ١) وهذه الشلالات تعوق الملاحة النهرية . وأهم هذه الشلالات الأول والثاني والرابع . وبالقرب من بحيرة أسوان يعترض النيل شلاله الأول المعروف بشلال أسوان وهو عبارة عن صخور شاخنة من الجرانيت تعترض طريق ذلك النهر العظيم ثم يسير حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط .

أما القطر المصري فهو جزء وادى النيل شمالى الشلال الأول . والنيل سهل الجريان بهذا القطر لعدم وجود صحور رملية في تربته . ويلاحظ في اقليم ادفو — الذى يبعد عن الشلال الأول ثمانين ميلا تقريبا ، والذى يتكون الحد الشمالى لمسطح الصحراء الصخرى — أن الصخور الرملية تبدل تدريجيا الى حصى صغير مستدير الشكل رقيق السمك أشبه كثيرا بالعملة . وبما أن هذا الحصى قليل المقاومة لتيار النيل الجارف سهل على هذا النهر العظيم أن يشق لنفسه في ذلك الاقليم مجرى عميقا واسعا مخترقا القسم الشرقى من صحراء إفريقيا العظمى الى البحر الأبيض المتوسط (شكل ٣ وشكل ٧) .

ويأخذ وادى النيل في الاتساع تدريجيا ابتداء من الشلال الأول حيث يبلغ اتساعه عشرة أميال تقريبا وعند مصبه يبلغ اتساعه واحدا وثلاثين ميلا تقريبا . أما قرار النيل فتكون من مواد طينية رملية يجرى فوقها تيار المياه بسرعة تبلغ أحيانا ثلاثة أميال في الساعة . وأقصى عرض يبلغه نهر النيل هو ألف ومائة ياردة تقريبا وذلك في موضعين اثنين على طول مجراه . وبالقرب من أسبوط يتفرع من شاطئه الغربى بحريوسف البالغ طوله مائتى ميل تقريبا ويسير شمالا الى اقليم الفيوم . ويعرف هذا الفرع قديما بحر «الشمال» ثم الى الشمال الغربى من منف حتى يدرك البحر الأبيض المتوسط قرب الاسكندرية^(١) . وعلى بعد نيف ومائة ميل من البحر الأبيض المتوسط يتفرع النيل الى عدة أفرع بشكل مثلث أطلق عليه اليونان اسم الدلتا نسبة الى أحد أحرف هجاءهم المثلث الشكل . ولا يخفى أن الدلتا كانت سابقا خليجا بحريا امتلا تدريجيا بفِرْن النهر الذى أخذ يتفرع وقتئذ الى سبعة أفرع تصب مياهها في البحر الأبيض المتوسط ، لكن لم يبق الآن من هذه الأفرع الا اثنان محددان الدلتا هما فرع رشيد (الغربى) وفرع دمياط (الشرقى) .

وكان مسطح الوجه البحرى منخفضا في مبدأ تكوينه ثم علا تدريجيا برسوب الغرين عليه فتوارت آثار مدنه الكثيرة القديمة تحت الطبقات الطينية المتجددة . ولا بد أن مستنقعات الدلتا وقتئذ كانت شاملة معظم مساحتها ثم أخذ حجمها يقل تدريجيا برسوب الغرين حتى اقتربت شواطئها من البحر الأبيض المتوسط . ويتراوح سمك طبقة الأرض الطينية بمصر العليا من ثلاثة وثلاثين الى ثمانية وثلاثين قدما ، ويبلغ أقصى عرض لها حوالى عشرة أميال . وتقدر مساحة الأراضي المزروعة في القطر المصرى من الشلال الأول الى البحر الأبيض المتوسط بأقل من عشرة آلاف ميل مربع ، فهى بذلك تقرب من مساحة أرض ولاية مارى لاند وتقل عن مساحة بلاد البلجيك بنحو عشرة في المائة . ويبلغ متوسط ارتفاع سلسلتى جبال وادى النيل بضع مئات من الأقدام لكنه يبلغ أحيانا علوا شاهقا يقدر بألف قدم (شكل ٣) . وعلى هذه الجبال صحار قاحلة اخترقها النيل منذ القدم . ففى الجهة الغربية صحراء ليبيا المعروفة بالصحراء الكبرى المترامية الأطراف الكثيرة التلال والرمال والصحور ويتراوح ارتفاع مسطحها عن سطح النيل بين ستمائة وخمسين الى ألف من الأقدام . وفى وسط هذا المسطح الرملى القاحل العظيم عدة أراض صغيرة منخفضة تروى بعيون الماء الأرتوازي تعرف بالواحات وهى على خط متقطع مواز تقريبا لمجرى النيل الذى تستمد منه مياهها الراشحة بين طبقات



شكل ١ - منظر لأحد مجاري السلال الأول مأخوذة بآلة التصوير الشمسية من جزيرة فيله في اتجاه الشمال . وشاهد أسفل الصورة بعض الآثار



شكل ٢ - فيضان النيل كما يشاهد من طريق أمهرام الجيزة . ويرى الطريق المذكور الى اليمين والأهرام المشيدة فوق الهضبة الصحراوية في الوسط وكفر "زلة البان" أسفل الأهرام

الرمال . وأعظم هذه الواحات حجما هو إقليم الفيوم ، وكانت تفصله سلسلة جبال ليبيا ثم اخترقه بحر يوسف حاملا اليه ماء النيل حتى بلغه فأخصبه وأحسن تربته . وفيما عدا ذلك كانت الصحراء الغربية عديمة الفائدة الاقتصادية لقدماء المصريين . أما الصحراء الشرقية المعروفة بصحراء العرب فيقطنها الأعراب المعروفون بالعبادة وموارد الحياة بها لا تكاد تسد رمق سكانها القليلين . وهذه الصحراء سلسلة جبال جرانيتية موازية لشاطئ البحر الأحمر يكثر بين صخورها الصلبة معدن الذهب النفيس . ولا يقتصر وجود هذا المعدن على هذه السلسلة الجبلية بل عثر عليه أيضا في عدة جهات بين النيل والبحر الأحمر بالصحراء نفسها . ولكثرة الأحجار المرمرية والصخور الصلبة النارية بتلك الصحراء وجه قدماء المصريين همتهم الى حفرها وكشفها . ولوجود هذه المناجم على الطريق الموصل من موانئ البحر الأحمر التجارية الى وادي النيل أنشأ المصريون عدة طرق توصل هذه المناجم بالطريق التجارى المذكور . وقديما عثر على مثل هذه المعادن والأحجار بطورسيناء فاهتم للأمر قدماء المصريين ودرسوا جغرافية ذلك الاقليم وقاموا بالحفائر والأعمال المستجدة فيه .

والقطر المصرى في عزلة عن البلاد المجاورة ، ذلك لأن الجزء الأهل بالسكان يفصل شرقا وغربا بصحراوين شاسعتين وهو شمالا يحده شاطئ الدلتا البحرى الخالى من الموانئ والمرافى الآهلة . وأما فى الجنوب فشلال أسوان الصخرى العظيم يفصل القطر فصلا تاما عن أواسط إفريقيا . وتبع ذلك أن الغزوات الأجنبية كانت تشق على مصر عادة من طرفى الحدود الشمالية ، فمن الطرف الشرق دخلت مصر الأجناس السامية غترقة صحراء طورسيناء الشاسعة ، ومن الطرف الغربى دخل الليبيون وهم قوم يحتل أنهم من أصل أوربى . والشلال الأول وإن كان متينا لم يحل دون تدفق المصنوعات والتاج السودانى الى القطر المصرى ، فقد تأسس بالطرف الأسفل منه سوق سمي «سوان» (وهى كلمة معناها السوق) ويعرف الآن بأسوان لتشجيع التجارة بين مصر والسودان . بعد ذلك أخذت التجارة النيلية بين هذين القطرين تزيد باطراد . ومن ثم يرى أن حدود مصر الطبيعية كانت حدا متينا صعب الاختراق تمكن به المصريون من مقاومة مهاجمهم مدة كانت تكفى أن يحشدوا فى أثناءها جيشا لتلافى خطر الهجوم الأجنبى .

ولموقع مصر الجغرافى أيضا تأثير كبير فى رقيها السياسى ، لأنها عبارة عن إقليم مستطيل ضيق (ماعدا الوجه البحرى) يبلغ طوله سبعمائة وخمسين ميلا تقريبا فهو لذلك فى أشد الاحتياج الى الوسائل اللازمة لبسط نفوذ حكومته على سائر أقسامه المتفرقة . وكل قسم من هذه الأقسام يتصل شمالا وجنوبا بالأقسام الأخرى المجاورة . ولقد كان تباين الشعور وتنوع الأفكار فى تلك الأقسام عاملين شديدين مستمرين يميزان كل قسم عن الآخر . كما أن اختلاف اللهجات الكلامية كان متعبدا لدرجة تعذر فيها على ساكن الوجه البحرى أن يفهم كلام ساكن الوجه القبلى . لذلك لم تكن هناك سبيل لاتحاد أقسام القطر اللهم الا نهر النيل الذى سهل المواصلات والتعاون بالرغم من بعد المسافة بين أقسامه .

فهر النيل هو السبب الأعظم لتوطيد العلاقة بين سكان مصر وضمان سعادتهم ورفاهيتهم وعليه الاعتماد في انتاعهم وترويح تجارتهم . زد على ذلك أن كمية الأمطار التي تهطل على القطر المصرى ليست كافية لإرواء الصعيد . من ذلك يتضح أن ثروة القطر وحياته مترتبان على نيله . ثم ان خصب الأرض وقوتها الزراعية مترببان أيضا على غرين النيل وفيضانه السنوى ، لأن الفيضان الذى يأتى من بلاد الحبشة منحدرًا الى النيل الأزرق نتيجة ذوبان الجليد وهطول الأمطار الربيعية على تلك البلاد الإفريقية .

وببدأ فيضان النيل السنوى بهطول الأمطار الغزيرة على جبال الحبشة الشائعة فتتحد من المياه جارفة معها مواد طينية تعرف بالغرين ومحدثه في سيرها تيارا شديدا مخترقا بلاد النوبة . ويلاحظ عادة في أوائل شهر يونيه جهة الشلال الأول ارتفاع يسير في منسوب النيل هو نتيجة ذلك الفيضان . ثم يرتفع المنسوب تدريجيا فيبلغ أقصاه في أواخر شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر . لكن العادة أن هذا الفيضان يقف قليلا مدة شهر تقريبا ابتداء من آخر سبتمبر من كل سنة ، بعد ذلك يستمر في زيادته على الطريقة المذكورة . ويقدر الفرق جهة الشلال الأول بين أقصى ارتفاع للنيل وقت الفيضان وارتفاعه وقت التحريق بخمسين قدما . أما في القاهرة فالفرق بين هذين المنسوبين يبلغ نصف ذلك المقدار . والسبب في حفر الترعة وإقامة الجسور وغير ذلك من مشاريع الرى الجسيمة في تلك الأزمنة يرجع الى رغبة أهالى وادى النيل في حجز مياه النيل وتصريفها الى حيضان الأراضى المزروعة حيث تغمرها وتمكث فيها مدة يرسب في أثنائها على الأرض غرين النيل فيكسبها خصبا . وما أجمل منظر الأراضى وقتئذ وهى مغمورة بالماء في وسطها الغرس وأشجار النخيل الخضراء التى لا يصل اليها الانسان الا بجسور الترعة (شكل ٢) . بهذه الطريقة تستعيز التربة المصرية عزمها وخصبها من كل زراعة سنوية فتبقى الأرض يانعة خصبة على ممر السنين والدهور .

فاذا جاء وقت هبوط النيل انخفض منسوب مياه النهر والترع المستمدة منه عن مسطح الأراضى المزروعة فتهدد وقتئذ البلاد بالعطش لبعدها مياه النيل عنها . وهذا هو السبب الذى جعل الأهالى يقبلون على انشاء الترع لإرواء الأراضى أيام التحريق (شكل ٦) (١) . من ذلك يتضح أن أراضى وادى النيل الخصبة الفتية تستحث زارعها منذ العهد القديم على إبداء المهارة في توزيع مياه النيل الحيوية فلا غرابة اذا لاحظنا أن هؤلاء برعوا في هندسة الرى منذ أقدم العصور ، والحاجة أم الاختراع ، ولما كانت مصر أم الفنون الآلية وجب علينا أن نذكر في هذا المقام أن نهر النيل كان أهم الأسباب التى أنجبت ذلك الفن في القطر .

(١) وهذه الطريقة هى المعروفة بالشادوف الواردة صورتها بشكل ٦ وهو عبارة عن عرق خشبي طويل مرتكز على عمود خشبي آخر من الوسط ومنقل في أحد طرفيه بكفة حجرية أو طينية ومعلق بالطرف الآخر بجدى أو معدني ينقل به الماء في النهر أو البر الى مكان أعلى وفي حالة انخفاض مسطح الماء كثيرا عن الأرض المراد رىها تستعمل لذلك عدة شواذيف للتغلب على تلك الصعوبة . وتتراوح كمية المياه اللازمة لرى القدان الواحد لمدة ما بين ألف وستة وألف طن .

ولما كان هذا القطر زراعيا بطبيعته مستعينا على اخراج خيراتہ بمياه النيل التي تكسبه خصبا بفيضاتها السنوى فلا غرابة اذا وجدنا أن مصر لا تزال باقية كما كانت بلادا زراعية على رغم التطورات والانقلابات . وسياق الكلام على ذلك فيما بعد . أما مزروعات هذا القطر فكافية لتغذية سكانه العديدين الذين بلغوا أيام الرومان حوالى سبعة ملايين نسمة والذين يزيدون الآن على تسعة ملايين نسمة وهي كما لا يخفى نسبة عظيمة ليست في أى بقعة بالقارة الأوربية^(١) . ولما كان من الأصوب الآن عدم التعرض لموارد القطر المصرى الأخرى أرجأت ذلك الى فرصة أخرى عند الكلام على التدرج التاريخى لهذه الموارد .

معلوم أن من ميزات مصر جفاف طقسها الذى يأخذ بالباب السياح العديدين في شتاء كل سنة . أما هوائها فصحراوى لوقوعها وسط الأراضى القاحلة فهو لذلك نقي جاف . وبالرغم من شدة ارتفاع الحرارة أحيانا لا يشعر الانسان إلا بضيق يسير لسهولة تبخر العرق وقتئذ . ويبلغ متوسط درجة حرارة الوجه البحرى شتاء ٥٦° فهرنهايت والوجه القبلى ٦٦° فهرنهايت . أما في الصيف فتوسط حرارة الوجه البحرى ٨٣° فهرنهايت وأقصاها في الوجه القبلى ١٢٢° فهرنهايت .

وبالرغم من ارتفاع حرارة الصيف بهذه الكيفية فالمعيشة بمصر محتملة وقتئذ بنسبة ما يعانيه الانسان في مثل هذه الظروف بالبلاد الأخرى . ويصحب ليالى الصيف نسيم عليل بارد آت من المزارع والحقول الشاسعة يخفف حرارة الجو . وما أكبر الفرق في مصر بين البرد القارس الذى يحس به الانسان أيام الشتاء قبيل الفجر والحرارة الجميلة وقت الظهيرة في الفصل نفسه . وقد ألمعنا سابقا الى ندورة الأمطار، لكن هطولها بالوجه القبلى أحيانا نتيجة اضطرابات جوية جنوبى البحر الأبيض المتوسط أو شمالي صحراء إفريقيا العظمى، فيترتب عليه طرد السحب الثقيلة الى مصر شرقا . أما الاضطرابات الجوية الشرقية فلا تأثير لها في طقس مصر لأن الجبال الشاخنة التى على شاطئ البحر الأحمر الغربى تقاوم السحب وتشتتها فتطردها الى أعلى . وعليه فشمالى الوجه البحرى واقع ضمن منطقة الأمطار الشمالية .

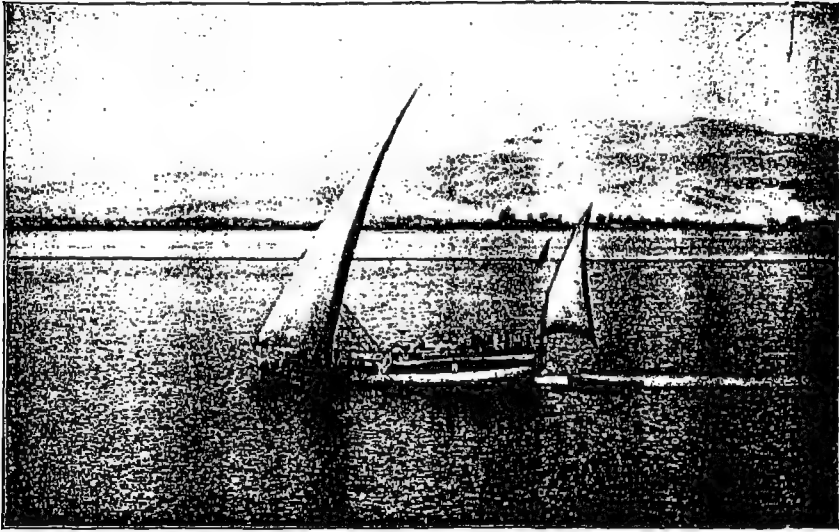
وبالرغم مما يتركه الفيضان من البرك والمستنقعات بوادى النيل فالهواء الصحراوى الجفاف الذى يهب عليها باستمرار سرعان ما يجففها فتلاشى بذلك وسائل تفشى الملاريا بجميع جهات الوجه القبلى ومعظم جهات الوجه البحرى . فمصر المناخمة للمنطقة الحارة تمتاز بنقاوة هوائها المعتدل العديم النظير الخالى من برد الشتاء القارس وقيظ الصيف الصعب الاحتمال المشاهد عادة بالمنطقة الحارة .

لا شك أن منظر القطر المصرى عموما كان ولا يزال أمام المصرى ثابتا لا يتغير لأن وادى النيل الذى هو هدية ذلك النهر عبارة عن أراض طينية يكسوها الزرع على طولها وعرضها تحده على الجانبين صخور صفراء عديمة الجبال والغابات اللهم إلا اذا استثنينا بعض النخيل الثابت على شاطئ النيل وحول القرى ذات المساكن الهادئة السوداء (شكل ٤) وكذا بعض أشجار الجوز والأثل والسنط . وتخلل هذه الأراضى شبكة من الترع أشبه كثيرا بالدورة الشريانية في الجسم الحيوانى . وقد تتعدى أحيانا رمال الصحراء حدود وادى النيل الصخرية فتحمل بعض تربته الخصبة وحينئذ يتمكن الانسان من الوقوف بأحدى قدميه فوق أرض وادى النيل المزروعة وبالأخرى فوق الأرض الرملية .

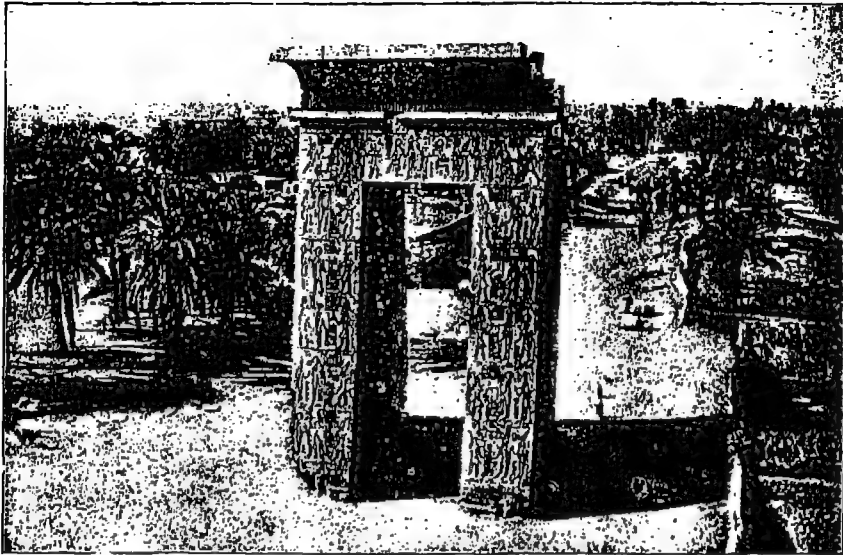
بهذا الوصف ثبت في مخيلة المصري القديم منظر معيشته الدنيوية التي تلخص في واد منخفض ضيق كثير الخصب والتعرج تحده الصحارى المقفرة القاحلة العديمة النظير التي تفصله عن جهات العالم كلها ، وما كان أعظم تأثير هذه العوامل في ذاكرته وأفكاره الخاصة بالعالم وبقوته المدبرة . لذلك ترى المصري شب متخذاً مجرى النيل مرشداً له في غدواته وروحاته فقال "صعد أو نزل مع النهر" بمعنى سار جنوباً أو شمالاً . لكنه لما بلغ نهر القرات ببلاد العراق سمى ذلك النهر بذي المياه المنعكسة المجرى التي تنزل مع النهر (أى تسير جنوباً) بدلاً من (تجرى شمالاً)^(١) . وقد قسم قدماء المصريين العالم الى "الأرض السوداء" وعنوانها وادى النيل و "الأرض الحمراء" وأرادوا بها الصحراء . ثم أطلقوا على الأولى اسم "الأرض المنخفضة" وعلى الثانية "الأرض العالية" عانين بذلك وادى النيل المنخفض وأراضى الصحراء الجبلية المرتفعة وحررت العادة وقتئذ أن يدعى الأجنبي "رجل الأرض الجبلية" وأن يقال "صعد الى كذا" بمعنى هاجر من وطنه الى مكان آخر و "هبط كذا" بمعنى آت الى بلده من الخارج . تلك أمثلة لفظية تثبت درجة تأثير الذهن المصري القديم فيما يحيط بوطنه من الصحارى الواسعة ومنها يستدل على مقدار التأثير الذى عم أحواله المعاشية والدينية .

وقسم المصري الأفق الى أفق شرق وأفق غربى وتصور لكل منهما شمساً ثم تخيل عدة معبودات مدبرة لهذا الكون أملاها عليه ضميره وصورها له ذهنه .

هذا وصف اجمالى لأهالى وادى النيل الذين كانت لهم اليد الطولى في انشاء المدنية بشرق البحر الأبيض المتوسط لما كانت أوروبا ساعية في التلمص من وحشيتها وجهالتها ، جارية وراء الحضارة والمدنية التي استضاءت بها البلاد الشرقية . وبديهي أن وادى النيل هو المكان الوحيد في العالم الذى يحوى آثاراً لمدنية عظيمة قديمة آجتت من فوق الأرض ما لها من قرار . وقد كانت الدنيا موطناً لحروب وغزوات عدة أكثر من الوجه القبلى ، ومقراً لسوب غرين النيل على مدنها الفرعونية القديمة ، ومع ذلك فإن آثارها لا تزال شاغلة مساحات عظيمة بشكل كل جرائنية ضخمة وأحجار جيرية ورملية وأجزاء مسلات وقواعد صروح شائخة ، مما يثبت تماماً عظم ثروة وقوة سكان تلك العصور الغابرة . أما الوجه القبلى فكثيراً ما يؤتمه السياح العديدون الذين أخذوا يزدادون كل سنة لكثرة آثاره الشائخة في كل بقعة حتى يخيل للرأى أنها تحييه أينما ذهب وحيثما حل على امتداد الوادى . والحق يقال انه لا يوجد في هذا العالم جهة كمصر تحوى مثل هذه المباني الحجرية الشائخة ومثل هذا الطقس البديع الجاف المصحوب بندورة المطر ، ودو الذى ساعد كثيراً على حفظ أحسن وأعظم آثار العالم القديمة ، تلك الآثار التي هي دليل العز والرفاهية والتمدن القديم . وبما لاجدال فيه أن المدنية الأوروبية مدينة بكثير من آدابها الى المصريين الأقدمين . ولما أخذت أنظار الشرق والغرب تتجه الى هذا القطر التعس الغنى بآثاره القيمة تدفقت عليه أهالى تلك الجهات من كل صوب حتى أوشكت تبثله . ومن الواجب في هذا المقام أن نعترف بتأثير مدنية القطر المصري في ذلك القطر وفى البلدان الأجنبية ، وبما كان لهذه المدنية من الفضل العظيم والمتزلة السامية . وسنتكلم فيما بعد على خيرات مصر المعاشية التي جعلتها للسابقين واللاحقين إرثاً يتغنى به المادحون .



شكل ٣ - منظر للنيل والصخور غرب طيه (الأقصر) . وفيه يشاهد ساحل النيل الواقع
الواصل الى تلك الصخور



شكل ٤ - أكواخ الأهالي وأدغال النخيل بجوار الكرنك بطيه كما تشاهد من سقف معبد شونسو ويرى
وسط الصورة صرح بطليموس الثالث (أفريجات) الذي حكم القطر من سنة ٢٤٧ الى سنة ٢٢٢ قبل
الميلاد . ويبتدى من هذا الصرح شارع كبير مقامة على جانبيه تماثيل كباش شيدا أمنتخب الثالث .
و يصل هذا الشارع معبد الكرنك بمعبد الأقصر

الفصل الثانى

نظرة عامة فى تاريخ مصر القديم ، توقيت التاريخ ، مراجع التاريخ

قبل الكلام على تاريخ الفراعنة بالتفصيل يجب أن نبحث بالاجمال فى تاريخهم لنعلمه فى ذهننا أساسا بُنى عليه المعلومات والأخبار التى ترد تباعا فى فصولها وأبوابها بلا تعب ولا عناء . ولا يخفى أن تاريخ هذه العصور يضم حوادث أربعة آلاف سنة أى منذ ابتداء ظهور الحضارة على سواحل البحر الأبيض المتوسط لما كان العالم عائشا فى ظلمات الجهل والوحشية . ولعل أهم ما يلفت نظر الباحث فى هذا الموضوع ما انتاب البلاد من غزوات الأجانب واختلاطهم تدريجيا بالمصريين وتأثير ذلك فى الأذهان والأخلاق الوطنية . أما أول عصر ذكر فيه الأوربيون فى الآثار المصرية فهو القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ومن ثم أخذت سلطة الفراعنة تضعف تدريجيا وأخذ شرف الحضارة وصوبلجان القوة يتقلدان من أبدى هؤلاء الحكام الى أهالى القارة الأوروبية الفتية حتى صارت مصر فى آخر تاريخها القديم طعمة التهمها أولا الفرس ثم اليونان ثم الرومان .

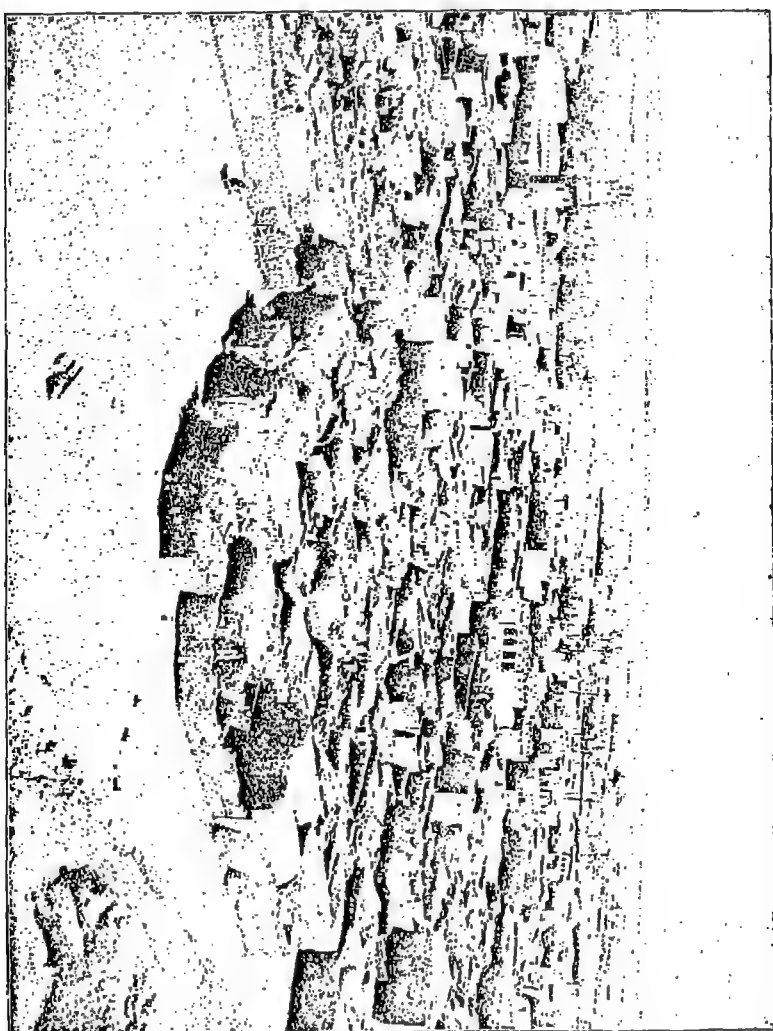
وينقسم تاريخ سكان وادى النيل الأقدمين الى عدة عصور متباعدة مرتبط بعضها ببعض بانقلابات وتطورات . ولما أتى مانيتو المؤرخ المصرى القديم قسم هذه العصور تقسيما عرقيا مفيدا مبتدئا بالعصر التاريخى وسمى هذه الأقسام بالأسرات الملكية . ومانيتو كاهن سمنودى عاش أيام بطليموس الأول الذى حكم مصر من سنة ٣٠٥ الى سنة ٢٨٥ قبل الميلاد وصنف تاريخا عن وطنه باللغة اليونانية لم تصل إلينا منه سوى مقدمته التى نقلها يوليوس أفريكانوس (Julius Africanus) ويوسيبوس (Eusebius) ولخصها جوسيفوس (Josephus) . وتاريخ مانيتو هذا قليل الأهمية لارتكائه على روايات عامية وخرافات متداولة وقتئذ خاصة بالملوك الأقدمين . وقد قسم مانيتو ملوك مصر الى ثلاثين أسرة ملكية ومع أن هذا التقسيم اصطلاحى وأنه كثيرا ما حصل نزاع بين ملوك الأسر اعتبرهم هذا المؤرخ أسرة واحدة ولقد ساعد تقسيمه كثيرا على فهم تاريخ مصر القديم . لذلك وافقه على رأيه كل من خلفه من المؤرخين حتى الحديثين منهم فلم نجد نحن بدا من اتباع تقسيم ذلك المؤرخ القديم . كان القطر المصرى فى مبدأ مدينته منقسما الى عدة إمارات صغيرة مستقلة أخذت تلتئم تدريجيا حتى تكون منها مملكتان عظيمتان احدهما بالوجه القبلى والأخرى بالوجه البحرى وامتازت المملكة الأخيرة منهما بسرعة تقدمها فى الحضارة وقد ألهمت سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد أن السنة الشمسية تتكون من ثلثمائة وخمسة وستين يوما . وهذا التاريخ (أى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد) هو أقدم تاريخ ثابت معروف للان على ظهر البسيطة^(١) ومن ذلك الوقت لقب مصر "بأرض القطرين" نسبة الى جزأىها البحرى والقبلى : وفى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد انضم هذان الوجهان تحت سلطة الملك مينا فكان هذا

الملك أول من حكم أرض مصر مجتمعة وأول ملوك الأسرة الأولى المصرية . واعتبر المؤرخون عهد مينا هذا حدا فاصلا في تاريخ مصر القديم قسمه الى عهدين : العهد الأول يرجع تاريخه الى زمن ما قبل الأسر والعهد الثاني الى حكم الأسر . وقد أثبتت لنا المباحث والحفائر الأثرية التي أجريت مدة العشر السنوات الأخيرة أن زمن حكم الأسر جاء نتيجة مباشرة لرقى وتقدم تدريجي في حضارة الزمن السابق .

والفضل في رقى القطر المصرى مدة حكم الأسر الأولى التي تقدر بحوالى أربعة قرون يرجع الى ضم سائر جهاته تحت حكم الملك مينا وسلالته الذين اتخذوا مركزهم في بادئ الأمر مدينة طينة بالقرب من العرابة المدفونة ثم انتقلوا بعد ذلك إلى منف . في هذه المدة ارتقت حضارة البلاد وزاد عمرانها وقوى نفوذها فسمى الأثريون هذا العهد "المملكة القديمة" . وصارت مدينة منف عاصمة البلاد في عهد ملوك الأسر الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة الذين تربعوا في دست الحكم من سنة ٢٩٨٠ الى سنة ٢٤٧٥ قبل الميلاد تقريبا . ويمتاز هذا العصر بارتقاء آدابه وعلومه الآلية اللذين بلغا درجة عظيمة لم تبلغها البلاد قبل ذلك العصر أو بعده . وفي هذا العهد أيضا تجلت حكومة البلاد وادارتها الداخلية بأجلى مظاهر الكمال بدرجة لم تكن معهودة . وأخذ النفوذ المصرى يمتد الى ما بعد حدود المملكة وبلغ المصريون شبه جزيرة طور سيناء . ثم واصلوا عمل الحفائر والكشف عن المعدن الذى بدأ به ملوك الأسرة الأولى بهمة ونشاط . أما التجارة المصرية وقتئذ فبلغت شواطئ فينقيا وجزر البحر الأبيض المتوسط شمالا ثم توغلت أساطيل الفراعنة حتى وصلت الى ساحل بلاد الصومال جنوبى البحر الأحمر . وتمكن فرعون مصر من بسط نفوذه على أسفل بلاد النوبة وإقرار الأمن على طريق التجارة هناك وذلك باستمرار شن الغارات والحروب . ولما تولت الأسرة السادسة الحكم سنة ٢٦٢٥ قبل الميلاد ساست القطر حتى عام ٢٤٧٥ قبل الميلاد، وفي عهدها أخذ يبدب في نفوس حكام الأقسام شعور الاستقلال والكبرياء وقد كانوا يحتفظوا بمراكزهم الادارية لأسرهم من زمن الأسرة الخامسة التي تولت زمام الحكم من سنة ٢٧٥٠ الى سنة ٢٦٢٥ قبل الميلاد . بهذه الطريقة مهد هؤلاء الحكام الطريق لتجزئة القطر المصرى الى امارات مستقلة صغيرة وشمل نفوذ السلطة المركزية بالبلاد .

هكذا تمكن حكام الأقاليم المصرية من اسقاط بيئهم الفرعونى المالك فى أواخر حكم الأسرة السادسة حوالى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد . بعد ذلك أخذت أهمية منف الادارية تضعف تدريجيا بمرور الزمن . ومن دواعى الأسف أننا لم نهتد الى كيفية تطور تلك الأمور وغاية ما وصل اليها عن ذلك العصر قائمة بأسماء ملكية اعتبر ماينتو أصحابها ملوك الأسرتين السابعة والثامنة المنفيين وقال انهم حكموا مدة لا تزيد على ثلاثين سنة .

ولما أتى زمن الأسرتين التاسعة والعاشره قويت سلطة حكام الفيوم فاغتصبوا عرش مصر وحكموا القطر جاعلين مركزهم مدينة اهناش المعروفة عند اليونان باسم هيراكليوبوليس (Heracleopolis) ويبلغ عدد ملوك هاتين الأسرتين ثمانية عشر ملكا تقريبا .



شكل ٥ - منزل لواء النيل من مدينة ادفو يشاهد فيه أنحنا. جري البر وصخر الوادي النرية

بعد ذلك أخذت شمس طيبة تنزع تدريجاً لأوّل مرة في أفق التاريخ فأخذ حكامها ينافسون ملوك أهناش ودار بين الطرفين نزاع طويل انتهى بفوز طيبة وانتقال مقاليد الحكم الى سكان الصعيد . ولم نهند بالضبط الى معرفة طول المدة التي مضت منذ سقوط المملكة القديمة الى ابتداء حكم طيبة لكننا نقدرها تقريبا بنحو مائتين وخمسة وسبعين أو ثلثمائة سنة^(١) وهذا تقدير لا يبعد أن يكون فرقته بالزيادة أو النقصان أكثر من مائة سنة .

ولما تولت الأسرة الحادية عشرة الطيبة مقاليد الحكم حوالي سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد وجدت القطر في حالة شقاق ونزاع بين أمراءه العديدين فوجه ملوك هذه الأسرة معظم همهم الى نزاع السلطة من أيدي هؤلاء الأمراء . ولما تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم (ومؤسسها أمنمحتت الأول الذي يظن أنه اغتصب الملك قهراً) أخذت تسوس الامارات الصغيرة بالحلم والدهاء فتقدم القطر كثيراً وليست البلاد ثوب التمدن والنعيم لمدة تزيد على مائتي سنة تقريباً أي من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد . ويعرف هذا العصر عند الأثريين "بعصر الآداب" لأنها بلغت فيه أعظم شأوها ، فالشعر والنثر بلغا أقصى درجاتهما من حيث المثانة والجودة كما أن الحفر والعمارة تقدمتا بدرجة مذهشة . وفاقت المصنوعات الفنية أمثالها في العصور الغابرة وزادت خيرات البلاد كثيراً لما اعتنت الحكومة بأمور النيل وفيضانه وقامت بمشروعات الري العظيمة جهة الفيوم فاستخلصت أقاليم شاسعة من الأراضي الزراعية الخصبة بالقرب من مواطن الملوك المسمى اثنان منها أمنمحتت وسينوستريس المشتمين الى الأسرة الثانية عشرة . أما شبيه جزيرة طور سيناء فتطلعت اليها النفوس للاستكشاف والحفر بمجد ونشاط وشيدت بها القلاع الحصينة وأقيمت على أرضها المعابد الهائلة وخزانات المياه الكبيرة . وشرعت مصر في هذا العصر تشن الغارات على سورية وتكثر من معاملتها ومعاملة قبائل تلك الجهات السامية . واتضح لنا أن المعاملات التجارية كانت سائرة أيضاً بين مصر وأهالي جزر البحر الأبيض المتوسط الذين أسسوا المدينة اليونانية فيما بعد . أما التجارة مع الصومال فزادت وربت عما كانت عليه . وأما النوبة فضم منها الجزء الواقع بين الشلال الأول والثاني الى مصر وصار يدفع لفرعونها الجزية سنوياً . بهذه الكيفية تمكن المصريون من تثير مناجم الذهب شرق ذلك الاقليم فتدفقت منها ثروة عظيمة في الخزانة الفرعونية .

وفي سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد سقطت الأسرة الثانية عشرة واشتعلت في البلاد نار ثورة داخلية انتهت بانقسامها وتفرق كلمتها وتطاحن أمراءها على العرش وقد اعتلى عرش مصر وقتئذ بعض حكام أقوياء لم يعيشوا طويلاً ، تمكن أحدهم من اخضاع أعالي النوبة وإبلاغ نفوذه الى أعلى الشلال الثالث ولكن هذه المشاركة عطبت بعد وفاته وبقيت الحال سيئة مدة قرن تقريباً . بعد ذلك استولى على البلاد قوم من مملكة أسبوية شاسعة سماهم مانيتو الهيكسوس حكموا القطر المصري مدة قرن تقريباً اتخذوا في أثنائه مدينة هواره الواقعة شرق الدلتا مركزاً لهم .

ثم أخذ حكام الوجه القبلي يشاكسون ملوك الهيكسوس وينازعونهم فانزعوا منهم السلطة والحكم بالصعيد . ثم أعلن أحد أمراء طيبة نفسه ملكاً على الوجه القبلي واستمر خلفاؤه يحاربون الهيكسوس حتى طردوهم من القطر المصري وأبعدوهم الى سورية .

كان حكم الهيكسوس وطردهم من مصر عظة كبيرة للمصريين أفهمتهم لأول مرة معنى الاستعمار وسياسة البطش فأنشأوا جيشاً عظيماً منظمًا استعملوا فيه العجلات الحربية مستعينين على جرّها بالخيول التي جلبها الهيكسوس إلى القطر المصري وقت غزوتهم له، فتحوّلت مصر بذلك إلى امبراطورية حربية. وأعلم أن أمراء الأقاليم المصرية قد انمحو وقتئذ من الوجود تقريباً نتيجة غزوة الهيكسوس والمنازعات الشخصية التي نشبت بينهم ولذلك لم يبق من هؤلاء إلا اليسير انضموا بعد ذلك تحت لواء ملوك طيبة الذين أسسوا الأسرة الثامنة عشرة. وتعتبر الامبراطورية المصرية في عهد هذه الأسرة من أكبر امبراطوريات العالم لأنها امتدت من سورية وأعلى نهر الفرات شمالاً إلى شلال النيل الرابع جنوباً. وكان تشييد هذه الامبراطورية المعتبرة الأولى في العالم مصحوباً بثروة باذخة وعزٍ باهر في جهاتها الشاسعة بدرجة لم تبلغها مصر في عصر آخر حتى صارت طيبة مركز التمدن العالمي وصاحبة الآثار الشاغخة. وعظمت التجارة المصرية مع البلاد الشرقية وشواطئ البحر الأبيض المتوسط ثم كثرت المصنوعات اليونانية بالقطر المصري بعد انصبغها كثيراً بالصبغة المصرية. ويقدر حكم هذه الامبراطورية بنحو مائتين وثلاثين سنة (أي من سنة ١٥٨٠ إلى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد). أما سقوط هذه الامبراطورية فيرجع سببه إلى منازعات داخلية وخارجية إثر ثورة دينية عظيمة شنها الفتى النافعة الملك إخناتون على عبادة الأصنام ثم أخذ النفوذ المصري يضعف تدريجاً على آسيا الصغرى تحت ضغط الحيثيين. وفي هذا الوقت نفسه هجمت قبائل بدوية على شمال وجنوبي ممتلكات مصر الآسيوية فزادت الطين بلة. وللاحظ أن بعض هذه القبائل انضم فيما بعد إلى بني إسرائيل ولكن المعروف أنها اتحدت وقتئذ مع الحيثيين الذين استمروا يزحفون على مستعمرات مصر حتى انفصلت عرى الامبراطورية المصرية بآسيا إلى حدود مصر الشمالية الشرقية. على أثر ذلك هبت في البلاد ثورة داخلية عظيمة انتهت بسقوط الأسرة الثامنة عشرة حوالي سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد وأسدل الستار على الدور الأول من تاريخ الامبراطورية المصرية.

ثم ظهر على مسرح السياسة قائد مصري يدعى حرمحب كان فيما سبق موظفاً في الجيش في عهد الأسرة الثامنة عشرة استعمل قوته وشدته فوطد النظام وأرجع الأمن للبلاد وأسس الأسرة التاسعة عشرة التي تسلمت مقاليد الحكم من سنة ١٣٥٠ إلى سنة ١٢٠٥ قبل الميلاد وأخذت تسترجع ما فقدته مصر من ممتلكاتها الآسيوية. لكن يلاحظ أن سلطة الحيثيين بسورية كانت عظيمة لدرجة عجز عن سحقها هجوم المصريون. نعم أن هجوم سبتي الأول وحروب رمسيس الثاني استمرت حوالي عشر سنوات لكنها لم تتجاوز حدود ممتلكات مصر الشمالية إلى ما بعد أرض فلسطين وهكذا استحال على المصريين أن يحكوا سورية حكماً مستمراً ثانية. وعظم النفوذ السامي بمصر وقتئذ. ثم ظهر الأوريون لأول مرة في تاريخ مصر القديم فأزّلوا جنودهم على ساحل غربي الدلتا واتحدوا مع الليبيين على اقتحام الوجه البحري فصدهم جيش مفتح وأبعدهم إلى بلادهم الأصلية. ثم اضطربت أحوال القطر المصري بعد ذلك ودبت فيه الفوضى وفشّوا في أهل الانقسام فسقطت الأسرة التاسعة عشرة حوالي سنة ١٢٠٥ قبل الميلاد.



شكل ٦ - ثلاثة شواذيف مستعملة لرى الأراضى
(ماخوذة عن عمل أندروود وأندروود بنيويورك)



شكل ٧ - منظر وادى النيل غربى طيبة ويشاهد أمامها الوادى
(تصوير أندروود وأندروود بنيويورك)

في هذا الوقت ظهر فرعون سِتْنَحْت وابنه رمسيس الثالث واسسا الأسرة العشرين التي حكمت البلاد من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد وحافظت في أثناء ذلك على كيان الإمبراطورية المصرية على رغم غارات القبائل الشمالية (التي أبادت الحيثيين) وعلى رغم الهجرة الليبية المستمرة داخل البلاد . ولما توفي رمسيس الثالث سنة ١١٦٧ قبل الميلاد فقدت مصر سائر ممتلكاتها عدا النوبة وأسدل الستار على الدور الثاني من عهد الإمبراطورية .

وبقيت مصر محكومة بعدة رماسة ضعاف وأخذت تتقهقر في أثناء حكمهم حتى اغتصب منهم قسس آمون عرش مصر . لكن هؤلاء الكهنة سرعان ما خضعوا لخصم آخر بمدينة تيس التي هي شرق الدلتا أسس الأسرة الحادية والعشرين المبتدئة من سنة ١٠٩٠ الى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد . وفي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد دخل الليبيون خدمة الجيش المصري وصار منهم قواد ورؤساء حربيون . وفي سنة ٩٤٥ قبل الميلاد اغتصب أحد هؤلاء القواد المسمى شيشنق الأول عرش مصر وأسس الأسرة الثانية والعشرين ، وفي عهده ارتفعت البلاد نوما وحاولت استرجاع فلسطين . لكن قواد الجيوش المأجورين قوّوا مركزهم تدريجاً في مدن الوجه البحري العظيمة فانقسم القطر المصري الى عدة امارات حربية صغيرة واضمحلت البلاد وتقهقرت في أثناء الحكم الليبي أي مدة حكم الأسرة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين (أي من سنة ٩٤٥ الى سنة ٧١٢ قبل الميلاد) .

في ذلك الوقت ظهرت بلاد النوبة في التاريخ تدريجاً نتيجة هجرة بعض أعضاء الأسرة المالكة الطيبة على الأرجح الى مدينة بنته جهة الشمال الرابع حيث أسسوا مملكة مستقلة غزت بعد ذلك مصر وحكمتها من سنة ٧٢٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد وبقي هؤلاء الأمراء مقيمين بمدينة بنته طول هذه المدة ، ولكنهم لم يتمكنوا من اخضاع أمراء الأقاليم العديدين بمصر فاستمر لذلك التراع بين الطرفين . وبينما هم كذلك أغارت جيوش اشور على القطر المصري وأخضعته وفرضت عليه الجزية فيما بين سنة ٦٧٠ وسنة ٦٦٢ قبل الميلاد . ثم ظهر بسماتيك الأول القائد المصري الماهر جهة صا الحجر غربي الدلتا سنة ٦٦٣ قبل الميلاد فطرد جيوش نينوى (الأشورية) وانفرد بالحكم وبدأ عهد الإصلاح والرقى . وساعده على ذلك عدم وجود النوبيين بالقطر المصري لأن الأشوريين طردوهم سابقاً . ويطلق الأثريون اسم "دور الاضمحلال" على المدة التي بين سنة ١١٥٠ وسنة ٦٦٣ قبل الميلاد التي تقرب من خمسمائة سنة . ويتقسم دور الاضمحلال هذا فيما بعد سنة ١١٠٠ قبل الميلاد الى العهد التيسى الأموني (المبتدئ سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد والمنتهى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد) والعهد الليبي (المبتدئ سنة ٩٤٥ والمنتهى سنة ٧١٢ قبل الميلاد) والعهد الإتيوبي (المبتدئ سنة ٧٢٢ والمنتهى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد) والعهد الأشوري الذين بدأ في أواخر العهد الإتيوبي .

وما أقل معلوماتنا عن "عهد الإصلاح" الذي كان مركزه صا الحجر بالوجه البحري ، والسبب في ذلك يرجع الى انعدام معظم آثار تلك الجهة . وبالرغم من أن هيودوت وغيره من المؤرخين اليونانيين لم يخبرونا الا بالقليل من تاريخ القطر وقتئذ وأن العهد الصاوي كان زاهياً بهيجا عظمت في أثناءه قوة مصر وكثرت اصلاحاتها لأنارها القديمة رغبة في الوصول الى "عهد الاداب" السابق

الذكر . وللاحظ أن ملوك عهد الإصلاح استعانوا على بسط نفوذهم بجنود يونانية مأجورة . أما سياسة الملوك الصاويين فكانت راقية متمشية مع سياسة العهد اليوناني ، وفي خلال هذه المدة قامت مصر بدور سياسي خطير مراعية في ذلك بعض سنتها القديمة . أما أحوال البلاد الداخلية فقد ساءت حتى حالت دون نجاحاتها من مطامع القرس ولذلك بعد ما حكم القطر المصري عدة أسراؤها مصرية تغلب عليها قبيز عام ٥٢٥ قبل الميلاد .

الى هنا انتهى ما أردنا سرده من تاريخ مصر القديم على سبيل الاختصار ومنه يظهر للقارئ العوامل الخارجية التي كان لها أعظم تأثير في تاريخ مصر المستقلة واليك بيان أهم مميزات ذلك التاريخ :

تاريخ اعتبار السنة من خمس وستين وثلثمائة يوم واستعمالها في المواقيت سنة ٤٢٤١ : قبل الميلاد .

تاريخ نهاية عهد ما قبل الأسر سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد .

تاريخ جلوس الملك مينا على عرش مصر سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الأسرتين الأولى والثانية سنة ٣٤٠٠ الى سنة ٢٩٨٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الملكة القديمة من الأسرة الثالثة الى الأسرة السادسة سنة ٢٩٨٠ الى سنة ٢٤٧٥ قبل الميلاد .

مدة حكم الأسرتين السابعة والثامنة سنة ٢٤٧٥ الى سنة ٢٤٤٥ قبل الميلاد .

مدة حكم الأسرتين التاسعة والعاشره الالهناستين سنة ٢٤٤٥ الى سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الملكة الوسطى الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة سنة ٢١٦٠ الى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد .

تاريخ الاضطراب الداخلي وحكم الهيكسوس (الرعاة) سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الامبراطورية : الجزء الأول — الأسرة الثامنة عشرة سنة ١٥٨٠ الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الامبراطورية : الجزء الثاني — الأسرة التاسعة عشرة وجزء من الأسرة العشرين سنة ١٣٥٠ الى سنة ١١٥٠ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : وهي السنوات الأخيرة من حكم الأسرة العشرين سنة ١١٥٠ الى سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد التينيسي الآموني ويشمل الأسرة الحادية والعشرين سنة ١٠٩٠ الى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد اللوبي من الأسرة الثانية والعشرين الى الأسرة الرابعة والعشرين سنة ٩٤٥ الى سنة ٧١٢ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد الإتيوبي وتدخل فيه الأسرة الخامسة والعشرون (سنة ٧١٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد) سنة ٧٢٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد الآشوري سنة ٦٧٠ الى سنة ٦٦٢ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاصلاح : ويدخل فيه العهد الصاوى زمن الأسرة السادسة والعشرين من سنة ٦٦٣ الى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد .

غزوة الفرس سنة ٥٢٥ قبل الميلاد .

ويجد القارئ في آخر هذا الكتاب جدولاً مدد حكم فراعنة مصر بشكل أوفى وأوضح من الكشف المذكور هنا . وقد استعملنا لضبط تواريخنا الأولى طريقتين : الطريقة الأولى تتلخص في جمع مدد حكم الملوك والطريقة الثانية فلكية أسامها فرق ربع اليوم بين السنة الشمسية والسنة المصرية القديمة . أما الطريقة الأولى فهي جمع أقل مدد يمكن اعتمادها لحكم الملوك ثم وضع كل منهم في العهد الموافق له بالنسبة الى وقت معين . فاستعمل هذه الطريقة مثلاً لتقدير المدة بين مبدأ الأسرة الثامنة عشرة وغزوة الفرس التي حصلت سنة ٥٢٥ قبل الميلاد يرشدنا الى مدة تبلغ ١٠٥٢ سنة على أقل تقدير^(١) مع مراعاة أحدث معلوماتنا الأثرية المذكورة فاستنتجنا من ذلك أن الأسرة المذكورة جلست على العرش المصرى حوالى سنة ١٥٧٧ قبل الميلاد على الأقل ان لم يكن قبل ذلك . ولما استعملنا الطريقة الثانية وهى الفلكية المبنية على شروق الشعري الجمانية ومبادئ الأشهر القمرية وقرق ربع يوم بين السنة الشمسية والسنة المصرية القديمة اتضح لنا أن الأسرة الثامنة عشرة المذكورة جلست على كرسى الملك حوالى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد^(٢) . ولكن الطريقة الأولى لا يمكن استعمالها وحدها لمعرفة تواريخ الحوادث التي حصلت قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة لندورة الآثار المساعدة على ذلك التقدير . ومن حسن الحظ أن مبدأ حكم الأسرة الثانية عشرة المذكورة ذكر على الآثار مصحوباً بشروق نجم الشعري الجمانية وباستعمال الطريقة الفلكية لذلك اتضح لنا أن هذه الأسرة تولت الحكم في مصر حوالى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد مع فرق طفيف يقدر بنحو سنة . بعد ذلك أمكننا معرفة تواريخ حوادث الأسرة الحادية عشرة باستعمال طريقة الجمع . ولعدم التأكد من طول مدة حكم اهتاس علينا معرفة المدة التي مضت بين عهدهى المملكة القديمة والمملكة الوسطى . ومع ذلك لو قدرنا لكل من الملوك الثمانية عشر الإهناسيين مدة ست عشرة سنة وهى مدة الحكم لأغلبية ملوك البلاد الشرقية بلغت مدة حكم ملوك اهتاس ٢٨٨ سنة^(٣) .

(١) ٤٧: ١ - ٥١ (٢) ٣٨: ١ - ٤٦ (٣) ٥٣: ١

إذا اعتبرنا هذه المدة ٢٨٥ سنة انحصر الخطأ في مدة لا تزيد على قرن واحد على وجه التقريب . أما مدة حكم المملكة القديمة فيمكن معرقتها بآثار عصورها وقوائم أسماء ملوكها الواردة على الآثار مع خطأ بين الزيادة والنقص لا يزيد على مدة جيل أو جيلين . وقد بينا فيما سبق أن غموض مدة حكم ملوك اهناس يؤثر في التواريخ السابقة له بمدة تهربية . واستدل من النقوش التاريخية التي على حجر بالرمو أن الأسرتين الأولى والثانية حكمتا مدة تقرب من ٤٢٠ سنة^(١) وأن جلوس مينا على عرش مصر وانضمام قطرى هذه المملكة حصلوا حوالى سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد . لكن يلاحظ أننا لا نزال نجعل بالضبط طول مدة حكم المملكة القديمة كما أننا نجعل مدة حكم ملوك اهناس . وعلى كل حال فهذه التواريخ جاءت موافقة لآثار عصورها التي ترجع الى ما قبل سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد . ويرجع السبب في المبالغة في المواقيت التي يجدها الباحثون في بعض الكتب التاريخية الى اتباع ما أوردهته المجلدات الأثرية القديمة التي صدقت توقيت مانيتو العظيم الخطأ الكثير الاهمال والتعقيد الذي لا يتفق مع معظم آثار عصوره . زد على ذلك أننا لو جمعنا مدد حكم الأسر التي أوردها مانيتو لوجدناها تبلغ عددا عظيما لا يصدقه العقل ولا يستحق الالتفات لحظة لأنه يقرب من ضعف التقدير المستتبع من الآثار التاريخية . لذلك كانت تواريخ مانيتو ضعيفة لا تحتمل المناقشة والجلد ومن ثم قل اعتماد الآخذين بها كثيرا حتى صاروا يعدون على الأصابع .

وكما أننا اضطررنا بحكم الحال في أثناء توقيتنا لحوادث مصر التاريخية الى الرجوع الى الآثار كذلك اضطررنا عند البحث عن تاريخ المملكة القديمة أن نلجأ الى آثار تلك الأزمنة الغابرة^(٢) لكن المعلومات الممكنة استيفؤها بهذه الكيفية قليلة من حيث الحوادث والمآثر . أما البحث في الآثار عن المدنية فسهل لوضوحها كثيرا في كل ما وصل الينا من أعمال الحفر والرسم والنقش والهندسة . وأما الاستعلام عن حياة الأفراد والطوائف الخارجية القصيرة المدة فأمر يكاد يكون مستحيلا لشدة ندرة أخباره على الآثار . من ذلك يتضح لنا أن كل مؤرخ يحاول وضع تاريخ لمصر القديمة من آثارها الباقية فقط يجد نفسه في شدة الحيرة لنقص هذه الآثار وقلة أخبارها . وهو في هذا الموقف على نقيض زميله الذي يحاول وضع تاريخ لأوروبا لأن معلومات الموضوع الأخير كثيرة . وبديهي أن قدماء المؤرخين الأوروبيين عانوا مشقات عظيمة أولا تعادل ما يعانيه مدونو تاريخ مصر القديم الآن .

وما أقل ما وصل الينا من المخاطبات السياسية والمجلات والتواريخ والسجلات الرسمية والتقارير الى يرجع تاريخها الى العصور المصرية القديمة . من ذلك يتضح للقارئ ما يقاسيه المؤرخون الذين يريدون وضع تاريخ لمصر القديمة كالذى يعانيه المؤرخ الذى يحاول وضع تاريخ الدولة اليونانية القديمة من نصوص آثارها الباقية الآن . ولعلم أننا لم نحصل الآن على تاريخ مصر القديمة لمؤرخ مصرى الا ما كتبه مانيتو وبناءه على خرافات أهل عصره في القرن الثالث قبل الميلاد . والحقيقة أن كتابة هذا المؤرخ لا تستحق أن تسمى تاريخا . وعلى كل حال فالمؤرخ القديم لم يدر بخاطره ما ستصل اليه نفوس القوم من الأخبار في الأجيال القادمة . والمعروف أن الأخبار التاريخية كانت تسجل بإيجاز

من قديم الزمان لكننا لم نهتد لان الا على سبيلين من هذا النوع أولها حجر بالرمو^(١) الشهير الحاوى لمختصر تاريخ ملوك الأسرة الأولى الى الأسرة الخامسة وثانيهما تاريخ حروب تحوتمس الثالث التى شنها فى سورية . عدا ذلك لم نعتز الا على التزير اليسير من الآثار ذات المعلومات التاريخية . ونحن فى هذا الموقف لا يسعنا الا أن نورد وصفا تقريرا لمدينة الملكتين القديمة والوسطى مع بعض اشارات الى حوادث قليلة . أما عهد الامبراطورية فقد وصلتنا عنه معلومات قديمة أمكننا بها معرفة حوادثه الخطيرة دون الطفيفة . ومع ذلك فهناك نقط عديدة بشأن تلك العصور لا تزال مجهلة ولا نعرف كيف نؤوها . وقد تمكنا من وصف نظام الحكومة وتأليف الاجتماع وأهم أفعال براطرة تلك العصور مع ذكر طرف من الروح السائدة فى هذا العصر بقدر ما سمحت به الآثار . أما دورا الاضمحلال والاصلاح فمراجعنا الأثرية بخصوصهما تكاد تماثل فى القلة مراجع العصور القديمة لذلك صار المؤرخ يتردد بين التأويل والاحتمالات وقد اضطر المؤلف أن يتبع فى كتابه هذا خطة التحفظ الشديد لقلة المراجع التاريخية الخاصة بموضوعه .

(١) انظر شكل ٢٩ و ٧٦٥-١٦٧

الفصل الثالث

مصر قبل حكم الأسر

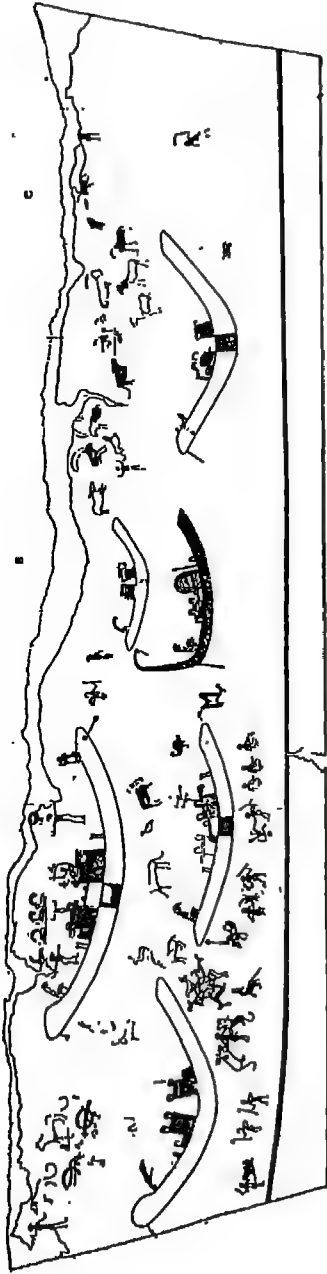
في ذلك الجزء الصحراوي القاحل الشاسع الذي يخترقه نهر النيل حاش في قديم الزمان عنصر آدمي وساعدت الأمطار الغزيرة على خصب الأرض وزيادة نتاجها . ثم تغير هذا الاقليم فقلت أمطاره وشخت زراعته وانعدمت طبقته الطينية تدريجاً فهجره أهله . ويرجع ذلك التغير الى آلاف السنين قبل ظهور المدنية المصرية القديمة التي سنتناول بحثها الآن . ولم يصل إلينا من هؤلاء الأقوام الأقدمين الذين قطنوا الصحاري المصرية قبل افقارها سوى عدّة أدوات من حجر الفلّز^(١) وجدت مبعثرة فوق الصحراء أثراً لكل الطبقة الصخرية التي كانت تغطيها . ويعتبر أقوام العهد الحجري المذكور أقدم أناس سكنوا القطر المصري . أما علاقة هؤلاء الأقوام بمدينة مصر وقت الأسر أو قبلها فلا تزال مجهولة جهلاً تاماً ولذلك اعتبرت آثار تلك الأقوام ضمن مباحث علم طبقات الأرض وروقي الانسان . أما القوم الذين سنتناول الآن تاريخهم فهم سلالة الليبيين (سكان شمال إفريقيا) وقبائل الجالّاء والصومال والبيجا (سكان شرق إفريقيا) . والمعروف أن أقواماً ساميين من عرب آسيا غزوا وادى النيل وعمموا فيه لغتهم فصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة . وبالرغم مما اعترى اللغة من تغير وتحريف باختلاط السكان فقد حافظت على ساميتها بمرور الزمن . ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن هذه اللغة وجدت كاملة على الآثار منذ أقدم عصورها . واستمر الليبيون وسكان إفريقيا الشرقية يختلطون بسكان وادي النيل مدة طويلة في العصور التاريخية، وأهم اختلاط حصل بين الليبيين وأهل وادي النيل هو الوارد ذكره في النقوش الأثرية منذ ثلاثة آلاف سنة تقريباً .

أما تاريخ الهجرة السامية الأولى فيرجع بلا مرء الى ما قبل العصور التاريخية المعروفة ، لكن الثابت أن هذه الغزوة تكررت بعد ذلك مراراً في العصور التالية ، ومحال أن نعرف تاريخ تلك الغزوة السامية والطريق الذي سلكه هؤلاء الغزاة ولكن الأقرب للذهن أنهم أتوا من برزخ السويس كما فعل العرب في بداية الاسلام . ولما دخل هؤلاء الغزاة مصر عمموا لغتهم السامية لكنهم سرعان ما تطبعوا بطابع المصريين ودانوا بدياناتهم ودليلنا على ذلك أن ديانة وادي النيل حافظت على مصرتها تماماً فلم يدخلها عوامل بدوية من الخارج . ومما يعزّز رأينا بأن هؤلاء الغزاة نشروا لغتهم فقط وجود علاقة أثرية متينة بين صناعة الأواني الخزفية المستعملة الآن بين قبائل ليبيا الحديثة والتي استعملت سابقاً بوادي النيل في مبدأ حضارته . ورسوم الصوماليين الأقدمين الواردة على الآثار المصرية كثيرة الشبه بالمصريين . لكن من دواعي الأسف أن فحص الجثث المصرية القديمة أسفر عن عدة نتائج متناقضة بين علماء جسم الانسان وانتهى بعدم الوصول الى حقائق ثابتة نحو أصل المصريين الأقدمين . أما الرأي القديم القائل بأن قدماء المصريين من العنصر الزنجي الإفريقي فقد نبذ ولم يعتد به وكل ما يمكن أن يقال عنه انه اذا وجدت مثل هذه العلاقة فهي نتيجة اختلاط قدماء المصريين بزواج إفريقية بدرجة طفيفة تماثل اختلاطهم بسائر العناصر الأخرى .

(١) الفلّز : حجر له حد كحد السكين وهو المشهور بالصوان .

الكلام على المصريين قبل حكم الاسر

لوحظ على هؤلاء القوم شعر أسود وبعض مبادئ الحضارة فربما هم كانوا يلتحفون أحيانا جلود الحيوانات فوق أكافهم أو يصنعون منها ألبسة قصيرة وتارة يلبسون المآزر الكتانية البيضاء القصيرة . أما النساء فكانن يلبسن الملابس الطويلة المنسوجة غالبا من الكتان مبتدئة من الكتفين وواصلة الى القدمين . وقد وجدت عدة تماثيل صغيرة لتلك العصور تمثل الذكور والإناث عراة واستعملت النعال أحيانا وكذا الوشم . وكان القوم يترنون بالحلى كالخواتم والأساور والأقراط المصنوعة من الحجر والعاج والعظم والحلب المصنوع من الفلز والبلور والعقيق والحجر السماوي . وكان النساء يسترحن شعورهن بالأمشاط ويستعملن لذلك الدبابيس العاجية المزخرفة . أما أصباغ الوجه وأكحال العيون الخضراء فكانت تستعمل مسحوقة موضوعة على ألواح صغيرة من الأردواز المحفور . واعتاد القوم وقتئذ تشييد مساكنهم بالعساليج^(١) الممزوجة أحيانا بالطين أو بناءها باللبن . أما أناث المساكن فبسيط تجسم فيه القنون الجميلة والمهارة الآلية . واستعمل القوم الملاعق العاجية المنقوشة التقاير والأيدى . وبالرغم من جهلهم بالآلة التي يستعملها الخراف الآن فقد صنعوا أواني خزفية عديدة مختلفة الأشكال . وما أكثر ما تحويه دور التحف بأوربا وأمريكا من هذه الأواني الحمراء أو السوداء المزخرفة بالرسوم الهندسية المختلفة ذات الرسوم المثلثة لمراكب وحيوانات وطيور وسمك وأشجار وأناس من تلك العصور القديمة (شكل ١١) ومع جهل هؤلاء القوم بصناعة الزجاج فقد فقهوا طريقة لمعان الحب والألواح الخزفية وما شاكل ذلك . وقد عثرنا على تماثيل



شكل ٨ - أقدم رسوم معروفة الآن ملونة بالألوان المائية وجدت على حائط قبر يربح تاريخه الى قبل عهد الأسر القرعونية ويشاهد في هذا الرسم صور سفن وحيوانات وخشب وصيدان وغير ذلك

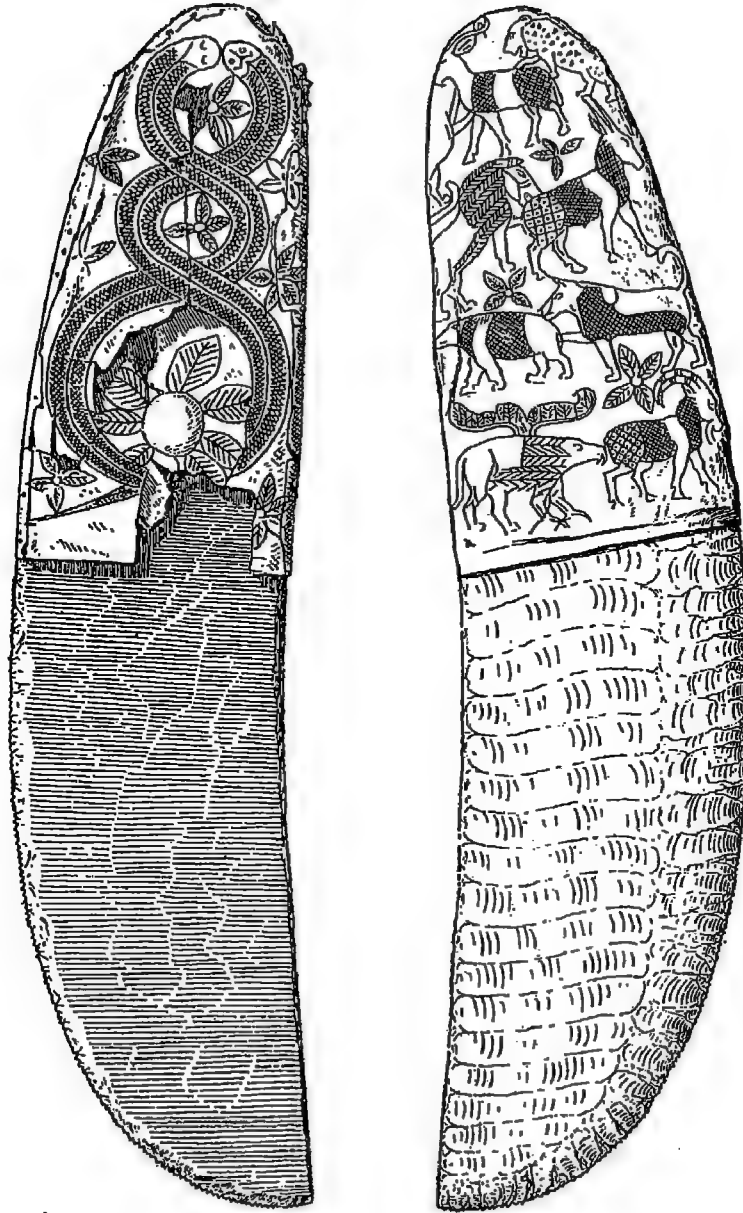
(١) العساليج واحدها عسلوج وهو ما لان واخضر من قضبان الشجر والكرم .

خشبية وحاجية وحجرية غير متقنة الصنع يتبين منها مبادئ تلك الفنون الجميلة في عصور الأسر الأولى .
 ووجد الأستاذ پترى ثلاثة تماثيل للعبود مین جهة فقط تتجسم فيها حضارة ذلك العهد السحيق الذى يرجع تاريخه الى ما قبل حكم الأسر . بعد ذلك استبدلوا بصناعة الخزف تدريجيا صناعة الحجر المتنوعة فتمكن القوم حينئذ من صناعة الأباريق والأكواز والزلم وما شاكلها باثقان زائدا مستعملين لذلك أصلب الأحجار كالصوان والسماق . وأقصى درجة بلغت صناعة حجر الظفر يرجع تاريخها الى هذا العهد . وفيه أيضا تمكن القوم من عمل الآلات المعرّجة كالمقابض العاجية المنقوشة والفؤوس الحجرية والصوانية ورماح الأسماك ذات الرؤوس النظريّة والصويلحانات والنبابت ذات الرؤوس الضخمة المماثلة في الشكل لثمرة الكثرى والتي استعملت قديما في الحروب المصرية والبابلية . وتمكن القوم أيضا من عمل الأسلحة والأدوات النحاسية . لذلك كان هذا العصر عصر الانتقال من العهد الحجري الى العهد النحاسي .
 أما المصنوعات الذهبية والفضية والرصاصية فكانت معروفة لكنها نادرة .

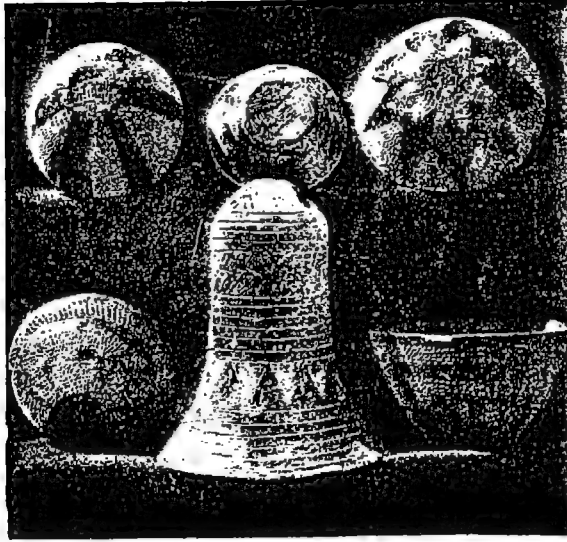
ولما كانت الزراعة الحرفة الرئيسية لسكان وادى النيل الخصيب ظهر هؤلاء القوم زراعيين ماهرين وتدينوا بديانة ملوكة بروح الزراعة . أما حقول وغابات وادى النيل غير الآهلة بالسكان فكانت مأوى لكثير من الحيوانات . واستدل من كثرة المصنوعات العاجية وتعدد رسوم الفيل على آثار تلك العصور أن هذا الحيوان كان موجودا بالقطر المصري . أما الزرافة وجاموس البحر والذئاب الوحشية (التي اعتبرها القوم بعد ذلك رمزا للعبود ^{ست}) فكانت تأوى الغابات أيضا لكنها تلاشت الآن . لذلك برع قدماء المصريين في صيد البر والبحر فاقترسوا أشد الحيوانات بأسا كالسباع والثيران الوحشية بالأقواس والرمح وخرجوا في سفينة صغيرة مسلحين بالرمح والحرا ب لصيد جاموس البحر والتمساح ، وأثبتوا ذلك بالرسوم على صخور وادى النيل مكسوة بطبقة أوكسيدية تعرف بالياتينا نتيجة تأثير الهواء فيها ، وهذه الرسوم تعتبر أقدم وأجمل ما وجد من نوعها في التاريخ القديم .

ولما زادت صناعة مصر انتشرت تجارتها في البلاد المجاورة . فقد رؤى على الآثار غير سفينة الصيد البغرية صور أخرى لسفن كبيرة مانحة في مياه النيل تدفعها الى الأمام سكاكين ^(١) ضخمة ومجاديف عديدة . أما السفن الشراعية فكانت معروفة لكنها قليلة العدد . وعلى كل سفينة علم عليه رسوم تشير الى عمل معين فمن هذه الرسوم قوسان متقاطعان يرمز بهما دائما الى المعبودة نيت الصاوية ومنها أيضا صورة الفيل يقصد بها غالبا جزيرة الفيل الواقعة جنوبى أسوان . والغالب أن هذا الحيوان كان كثير الوجود بالقطر بدليل كثرة استعمال العاج ورواج تجارته في الأسواق الجنوبية المصرية . ويفحص هذه الأعلام لوحظ أنها كثيرة الشبه بأعلام أقسام مصر التي تجزأت اليها فيما بعد ، لذلك لا يبعد أن تكون أعلام هذه السفن دليلا كافيا على تقسيم القطر المصري وقتئذ الى عدة أقسام كالتي سماها اليونانيون فيما بعد (Nomes) وسيأتى الكلام عليها بعد . فان صح هذا الرأى كان الوجه المقبلى مقسما وقتئذ الى نيف وعشرين قسما . وعلى كل حال لحضارة تلك العصور كانت راقية بدليل كثرة

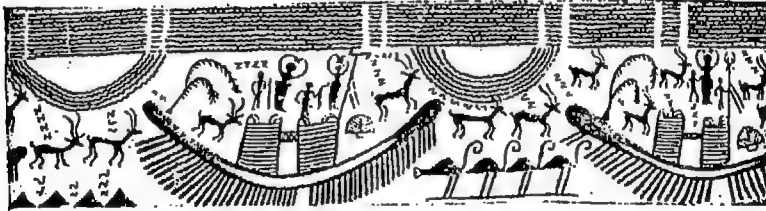
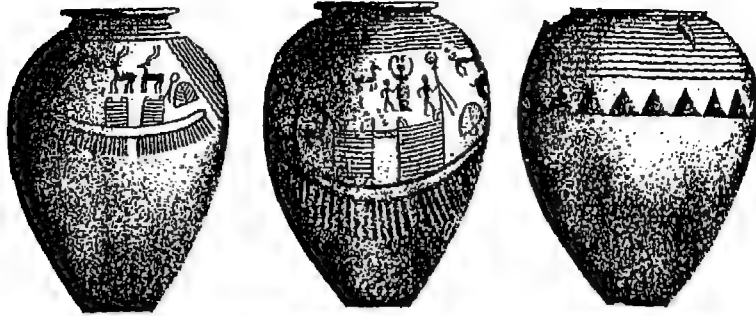
(١) السكاكين : واحدا ما سكان وعودة المركب .



شكل ٩ - أسلحة من الصوان يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأسر ٤ أيادها
مقوّم بالذهب ومزينة بالرسوم الغائرة (مأخوذة من دى مرجان)



شكل ١٠ - أوان خزفية - نقشه يرجع تاريخها الى عهد سابق
لحكم الأمر (ماخوذة عن هنري)



شكل ١١ - أوان خزفية يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأمر تشاهد عليها نقوش
محفورة لسفن وحيوانات ورجال ونساء (ماخوذة عن دي مرجان).

مدنها الكبيرة وعواصم أقطاعاتها كما كانت الحالة في بلاد بابل . وكان لكل مدينة وما جاورها من القرى حاكم قوى ومعبد مستقل ومعبد ساذج وسوق عام تتعامل فيه أهالى البلاد المجاورة . أما كيفية تكوين وترتيب أقسام مصر وقتئذ فتشبه غالبا ما هو حاصل بالبلدان الأخرى . ويرجع تاريخ تكوين الامارات الصغيرة والمدن الكبيرة المستقلة التى نشأت منها المملكة المصرية الى زمن بعيد جدا يصعب الاهتداء اليه بخلاف الحال في مملكة بابل الحديثة .

واتحاد هذه الامارات الصغيرة والمدن الكبيرة بعضها مع بعض وتكوين مملكتين منهما بالوجهين البحرى والقبلى شئ لا يمكننا البحث فيه الآن أو في المستقبل . والمرجح أننا لن نسمع شيئا عن أبطال تلك العصور وغزاتها وحروبها فتوحاتها وأزمانها والغالب أن هذا التطور الحكومى العظيم تم قبل سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد . وما أقل معارفنا عن المملكتين البحرى والقبلىة اذ كل ما يمكننا ذكره عنهما أن الوجه البحرى كان دائما عرضة لهجوم الليبيين القاطنين غربيه وأنه لكثرة هجرة هؤلاء القوم اليه انصبغ الجزء الغربى منه بالصبغة اللبية التى بقيت ظاهرة حتى زمن هيرودوت المؤرخ اليونانى الشهير . وتشير أقدم أخبار الوجه البحرى الى منازعات ومشاحنات مستمرة مع الليبيين لذلك لا يبعد أن كانت المملكة البحرى وقتئذ تحت حكم ملوك ليبيا . وأنها لذلك انصبغت بصبغة هؤلاء القوم ودليلنا على ذلك أن معبد مدينة صا الحجر (سايس) الواقعة غربى الدلتا والمعتبرة مركز النفوذ الليبى سمي قديما "بقصر ملك الوجه البحرى" ثم ان رمز معبودة ذلك المعبد وهى نيت استعمل في الوشم كثيرا على أذرع الليبيين . ولا يبعد أن صا الحجر كانت وطننا لملك لىي قديم . ووجدت رسوم بارزة على جدر معبد هرم ساحورع ببو صير تمثل أربعة أمراء لبيين واضعين على جباههم أصلال الفراغة يغلب أنها وصلت اليهم لصلبة دموية بينهم وبين ملوك ليبيا الذين حكموا الوجه البحرى سابقا . واتخذت المملكة البحرى نبات اللوطس رمزا لها لكثرة وجوده بمستنقعات ذلك الاقليم ورمزت للملكها بالزنبور وتوجته بالتاج الأحمرذى الشكل المخصوص . وتشاهد هذه الشارات بكثرة في النصوص الهيروغليفية الحديثة . بعد ذلك اعتبر اللون الأحمر خاصا بمملكة الوجه البحرى فأطلق على خزانته اسم "البيت الأحمر" .

واختفت آثار الوجه البحرى بتغلب رسوب الغرين عليها سنويا فضاء بذلك أملنا في العثور عليها لسمك الطين الذى يعلوها . والمظنون أن سكان الوجه البحرى سبقوا سكان الوجه القبلى في الحضارة لأنهم تنهوا في القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد الى أن السنة الشمسية تكون من ثلثمائة وخمسة وستين يوما وأزخوا مبتدئين بالسنة التى ظهر فيها نجم الشعرى الياضية مع شروق الشمس . ودلتنا المباحث الفلكية أن هذا الحادث حصل حوالى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد . ويعتبر هذا الاستكشاف الميقانى واستعماله في الشؤون الدنيوية خطوة كبيرة نحو الرقى وشرقا عظيما للوطن الذى كشف فيه . ولم تستكشف دولة من دول العالم منذ أقدم الأزمنة حتى مبدأ العصر الأوروبى المتوسط توقيتا سنويا مثله يتخطى الصعوبات الناجمة من استعمال السنتين القمرية والمصرية الشمسية وعدم تقسيم الأشهر القمرية للسنة المصرية الشمسية بالتساوى . لذلك قسم سكان الدلتا سنتهم الى اثنى عشر شهرا

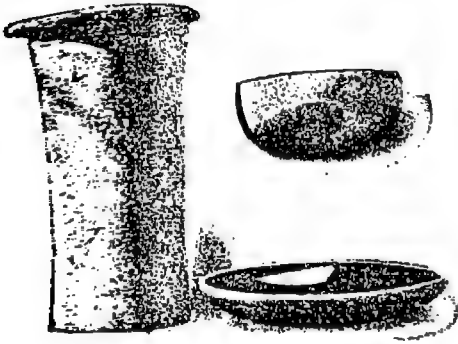
وجزءوا كل شهر ثلاثين يوما حفظا للنظام وتسهلا للدولات . وهكذا اعتقد سكان الدلتا أن التوقيت شيء عرقي يصطلح عليه القوم بلا مراعاة لتغيرات الطبيعة عدا الأيام والسنين . فقسموا السنة الى أشهر وأيام كما ذكرتم أضافوا الى آخر ذلك خمسة أيام قدسوها وأقاموا فيها الأعياد مع العلم بأن تاريخ استعمال السنة المصرية القديمة ابتداء بظهور نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس . وقد بحث عنه فليكا فوجد أنه حصل في التاسع عشر من شهر يولييه سنة ٢٤١٠ قبل الميلاد^(١) ولما كانت السنة المصرية أقل من السنة الشمسية الحقيقية ربع يوم لوحظ أن الفرق يبلغ يوما كاملا كل أربع سنوات ويبلغ سنة كل ١٤٦٠ سنة وأنه بعد مرور هذه المدة (أى ١٤٦٠ سنة) يتفق ظهور الشعرى اليمانية مع شروق الشمس . من ذلك يتضح للقارئ أنه لو عثر على أخبار لهذا التوافق الفلكي (بين شروق الشعرى والشمس) أمكننا معرفة تاريخ تلك الأخبار باستعمال الطرق الفلكية فلا يزيد الخطأ فيه على نحو أربع سنوات . ولعلم أن يوليوس قيصر الرومان هو أول من أدخل التوقيت المصرى امبراطوريته ثم عم استعماله العالم . من ذلك يتضح أن استعمال التوقيت المصرى عمر مائة ستة آلاف سنة تقريبا وأن الفضل في ذلك يرجع الى سكان الوجه البحرى الذين عاشوا في القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد . وللاحظ أن تقسيم التوقيت المصرى أفضل كثيرا من التوقيت الرومانى لأنه أسهل استعمالا فهو يقسم الى اثنى عشر شهرا والشهر الى ثلاثين يوما أما الثانى فيقسم السنة الى اثنى عشر شهرا غير متساوية الأيام .

ومملكة الوجه القبلى أكثر امعانا في المصرية من الدلتا وعاصمتها مدينة الكاب ويقال لها بالمصرية نخب وشعارها نبات البردى وتاج ملكها أبيض لذلك أصبح البياض اللون الرسمى للصعيد . أما الملك فكان يقطن إحدى ضواحي مدينة الكاب المسماة نخبن وهى على الشاطئ الغربى للنيل والمعروفة عند اليونان باسم (Hieraconpolis) . أما عاصمة الوجه البحرى فيقال لها بوتو ولها ضاحية يقال لها ب . ولكل من هاتين العاصمتين معبودة تدرأ عنها الضرر والمصائب . فمعبودة بوتو كان يرمز لها بأفعى تدعى بوتو أيضا . أما معبودة نخب أو الكاب فترسم نسرا وتدعى نخب كذلك . وقد عبد في كل من هاتين العاصمتين المعبود حوريس مناضلا عن المملكتين الشمالية والجنوبية . واعتقد أهالى تلك العصور في البعث والحياة الأخرى بشكل يمانل الحياة الدنيوية، واتخذوا مقابرهم عادة في سلسلة الجبال الغربية على حافة الصحراء . وقد كشفت حديثا آلاف من هذه المقابر فوجدت



شكل ١٢ - قبر يرجع تاريخه الى زمن سابق لحكم الأسر

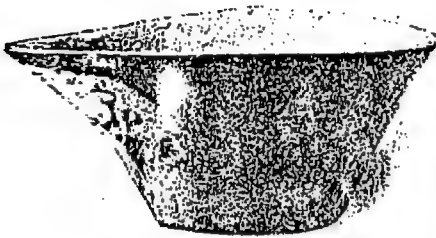
(١) بحوليان .



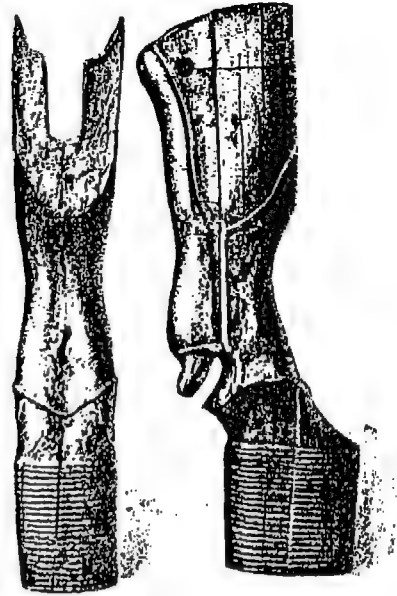
شكل ١٤ - أوان مرمرية يرجع تاريخها الى
عهد الأسرة الأولى (مأخوذة عن بترى)



شكل ١٣ - قضيب من الذهب منقوش عليه
اسم الملك مينا (٣٤٠٠ قبل الميلاد)
وهو أقدم حلى منقوش



شكل ١٦ - أوان نحاسية يرجع تاريخها الى
زمن الأسرة الأولى (مأخوذة عن بترى)



شكل ١٥ - أرجل كراسي من نوع من العاج المنحوت
يرجع تاريخها الى زمن الأسرة الأولى (دارتحف برلين)
(المعروفة الآن بدارتحف هاسكل)

بيضية أو مستديرة الشكل مسطحة القرار حاوية لجثث متحنية المنحاء الجنين في رحم أمه . وأقدم هذه الجثث ملفوفة في جلود الحيوانات ثم استبدل بهذه اللقائف الجلدية أقمشة منسوجة . أما التحنيط فلم يستعمل وقتئذ . ووجد تحت هذه الجثث حصير من القش المضفور وعثر في أيديها وعلى صدورهما على ألواح أودوازية صغيرة لسحق الحجر الملكي الأخضر بقصد استعماله لتحسين الوجه والهيئة في الآخرة ووجد هذا المسحوق محفوظا في أكياس صغيرة بجوار الجثة مع أدوات العطر والزينة وشوهدت حول ذلك أوان خزفية وحجرية حاوية لبقايا أغذية أو أشربة أو أدهان تخص الميت في الآخرة . ووجدت أيضا في قبور تلك العصور أسلحة من الطر وأسهم ملبسة بالعلاج يستعملها المتوفى للصيد الذي يقتات من لحمه . ولوحظ أيضا مع هذه الجثث أغنودجات خشبية لمراكب عديدة تمسد حاجات صاحبها بعد وفاته . أما أسقف تلك القبور فمصنوعة من أفرع نباتية تعلوها طبقة رملية أو حجرية تبدو منها معالم الحضارة . بعد ذلك استعمل اللبن في تشييد المقابر . وعثر في بعض الجهات على أوان خزفية كبيرة مقلوبة فوق جثث الموتى تؤدي وظيفة السقف .

ويرجع معظم معلوماتنا التاريخية والأثرية عن عصور ما قبل حكم الأسر إلى هذه المقابر . ففيها عثرنا على الدعوات الدينية والعزائم السحرية التي اتخذت صيغة مخصوصة بمرور الأيام . وقد اهتمنا إلى صيغ هذه الدعوات والعزائم في نقوش أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة اللتين يرجع تاريخهما إلى ألف سنة تقريبا بعد ابتداء حكم الأسر . وقد أخبرنا بيبي الأول أحد ملوك الأسرة السادسة أنه شيد معبدا جهة دندره بمائلا لمعبد هناك أقامه سابقا أحد ملوك الوجه القبلي قبل حكم الأسر ومنه استنتج أن أهالي تلك العصور العتيقة شيدوا معابد على نمط المعبد المذكور .

وزيادة على ما بلغه هؤلاء القدماء من مبادئ المدنية والرقى فاتهم نجحوا في اختراع الكتابة والقراءة . وأستدل من المباحث التي عملت لكشف طريقة التوقيت المصرية أن قدماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة وأن كتاب الأسرة الخامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دونوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحري وبعض ملوك الوجه القبلي من الذين يرجع تاريخهم إلى ما قبل حكم الأسر (شكل ٢٩) كما نسخوا أيضا عدة نصوص دينية من كتاب الموتى يرجح أنها نقلت سابقا عدة دفعات . ولا يخفى أن الخط الهيروغليفي الذي استعمل في الوجه البحري لاجراءات الحكومة والملك والخزانة لم يكشف بقاء وقت اعتلاء الملك مينا العرش المصري بل كان مستعملا قبل ذلك بمدة طويلة ، ودليلنا على هذا أن الخط الهيراطيقي كان مستعملا في مبدأ الأسرة الأولى وهو كما لا يخفى اختزال لخط الهيروغليفي فلا بد إذن أن يكون هذا الأخير مستعملا قبل حكم الأسر بزمان طويل ولكن لم تصل إلينا معلومات تاريخية عن متأثر ملوك الوجه البحري والقبلي الذين يرجع تاريخهم إلى ما قبل القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد ، والسبب في ذلك هو عدم عثورنا على نقوش تاريخية بمقابرهم . وغاية ما اهتمنا إليه من تلك العصور هو مقابر فقراء القوم العاطلة من الآثار والنقوش المفيدة . ولا نعرف من أسماء هؤلاء الملوك الأقدمين سوى سبعة من ملوك الوجه البحري أمثال : سكا وخايو وثيس . أما ملوك الوجه القبلي فلا نعلم من أسمائهم شيئا لكن يقال إن هناك ملكا

كان يلقب بالعقرب اعتبره بعض الأثريين ذا نفوذ عظيم على الوجه القبلي لكثرة وجود اسمه على الآثار خلافاً لغيره من ملوك تلك الأوقات^(١). والظاهر أن كتاب الأسرة الخامسة لما أرادوا إحياء ذكرى هؤلاء الملوك بعد وفاتهم (بحوالى ثمانمائة سنة) ولم يتمكنوا من سرد أعمالهم اقتصروا على ذكر الأسماء فقط^(٢). ودلنا الآثار على أن هؤلاء الملوك نعتوا بأنهم "عباد حوريس" ثم قدسوا فنسبت إليهم كثير من الصفات الإلهية ثم قُربوا من منزلة المعبودات فاعتبروا وزناً للمعبودات التي حكمت مصر قديماً. وهذا يعني أن المصريين القدماء اعتبروا حكم هؤلاء الملوك وسطاً بين عهد الآلهة القديم وبين حكم الأسر البشرية. ونعت مايتوفى تاريخه هؤلاء الملوك "بالموتى" ومنه يتضح أن أهميتهم التاريخية تلاشت تدريجاً وتبدلت وقامت على أنقاضها أهميتهم الدينية فاعتبروا آلهة في عواصم أقسام مصر.

والمعروف أن التقدم البطيء المطرد في الملكتين الشمالية والجنوبية تكفل في آخر الأمر باتحادهما. وقد أثبتت لنا الآثار المصرية صدق الرواية اليونانية القائلة بأن الملك مينا هو أول ملك مصرى ضم إلى حكمه الوجهين القبلي والبحري. ومنه يتضح أن هذا الملك الذى كان معتبراً حتى عهدنا هذا فرداً من "عباد حوريس" هو فى الحقيقة رجل ذو مركز تاريخى عظيم. والظاهر أنه كان حربياً ماهراً لأنه ضم موارد الوجه القبلي في قبضته بقوة وأخضع بها الوجه البحرى فأنتم بذلك مجهودات أسلافه وكوّن للقطر المصرى قوة مركزية حكومية. ومينا هذا من مدينة طينة وهى بلدة قريبة من العرابة لا تكاد تعرف. قال هيرودوت أن عدم حلول هذه المدينة في منتصف القطر المصرى دفع مينا إلى إنشاء خزان عظيم حوّل به مجرى النيل إلى شرق منف ليتمكن من تخطيط هذه المدينة في محلها الحالى. فإذا صححت هذه الرواية كانت هذه المدينة مركزاً لمينا ومقر إدارته ومنها استمد نفوذه بسهولة على سائر أنحاء القطر. وقد بسط سلطته في الخارج فأرسل جيشاً إلى الجزء الشمالى للنوبة^(٣) الذى هو بين الشلال الأول ومدينة ادفو. قال مايتروان هذا الملك تنعم بحكم طويل وسجل له التاريخ ذكراً مخلصاً وهو أمر واضح جلى. ودفن بالصعيد بالقرب من طينة مسقط رأسه (جهة العرابة) أو شمالى ذلك بقليل جوار قرية نجاده الحديثة حيث عثر على مقبرة مشيدة باللبن يحتفل أنها له وفي هذه المقبرة وفي أمثالها بالقرب من العرابة عثر على عدة آثار من عهد الأسرة الأولى كـ بعض الحلى الواردة صورتها بهذا الكتاب والمنقوش اسم الملك مينا مؤسس الدولة المصرية القديم عليها (شكل ١٣).

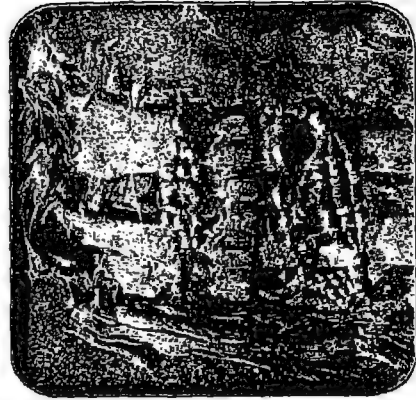
لقد عرفنا الآن كثيراً من أخبار ملوك الأسر الأولى المصرية بعد ما كنا نجهد عنهم كل شئ سوى أسمائهم. أما معلوماتنا عنهم فعمومية لكنها قيمة وليس منتظراً أن نصل يوماً من الأيام إلى تاريخ كل أفراد هذه الأسر ولا يسع الباحث في مآثر هؤلاء إلا أن يعترف بأنهم صرفوا كل همهم نحو تأسيس المملكة المصرية وإصلاحها وتقدمها. أما الملك فكان يلقب وقتئذ "حوريس" نسبة إلى ما ورثه من هذا المعبود في عرش مصر. وقد رسم الباز (ومن حوريس) فوق الآثار الملكية بشكل

(١) ويحتفل وجود اسم آخر على حجر بالرمو بمقبرة من (Methen) راجع ١ : ١٦٦

(٢) ٩٠ : ١ (٣) Newberry Garstang, History, 20 (from unpublished evidence ?)



شكل ١٨ - أحد ملوك الأسرة الأولى يشق الأرض
احتفالاً بحفر قناة جديدة (مأخوذة من المستر كويل)



شكل ١٧ - أربع أساور على ذراع سيدة يرجع
تاريخها إلى زمن الأسرة الأولى - عثر عليها الأستاذ
بترى بجهة المراية - محفوظات الآن بدار تحف القاهرة



شكل ١٩ - لوح يدعى النقش يعرض في الاحتفالات مصنوع من حجر الأردواز
أهداه الملك نارمر (من الأسرة الأولى) إلى معبد مدينة نخن (هيراكونبوليس)
(مأخوذة من كويل)

مستطيل يمثل باب القبر الوهمي (الذى تخرج وتدخل منه الروح) ويدخله اسم الملك الرسمي . أما اسم الملك الشخصي فيكتب مسبقا برسم الزنبور (رمز الوجه البحري) وفرع البردى (رمز الوجه القبلي) إشارة الى أن هذين القطرين قد خضعا له . ويصحب هذه الرموز غالبا رمزان آخران هما العقاب (وهو رمز نخب معبودة مدينة الكاب عاصمة الوجه القبلي) والصل (رمز بوتو معبودة عاصمة الوجه البحري) . ويشاهد النسر على رءوس التماثيل الملوك تلك الأزمنة مرفقا بجناحيه ليحميهم من الأذى . ثم أخذت الملوك بمرور الزمن توضع فوق الجباه صلا (معبود الملكة البحرية) مشيرين بذلك الى بسط نفوذهم على الدلتا . ويرسم أحيانا المعبود ست مع المعبود حوريس قبل اسم الملك الشخصي إشارة الى ضم القطر المصري تحت معبودى وجهيه البحرى والقبلى . وجرى العادة أن يتوج الملك أحد تاجى الوجهين ويطلق عليه اسم "صاحب السيادةتين" . ومنه يتضح أن قدماء المصريين لم يجدوا وسيلة للدلالة على حكم ملوكهم لقطرى مصر الا اتباعوها . وقد عثر على ألواح حجرية بها رسوم تمثل بعض الملوك مشتركين فى احتفالات رسمية يتقدمهم أربعة أشخاص حاملين الأعلام أما الملك فيصحبه فى هذه الاحتفالات مستشاره وخادمه الشخصى أو أحد كتابه أو اثنان من حاملى المراوح . ويشاهد جلالة أحيانا متوجا تاج مصر العليا أو السفلى أو التاج المزدوج . أما الزى الملكى فهو رداء يشبه فوق الكتف وينتهى من الخلف بذيل أسد . بهذه الكيفية احتفل الملوك بانتصار انهم الحربية أو بحفر الترع (شكل ١٨) أو تشييد العمارات العمومية . وجرى العادة أن يحتفل الملك احتفالا عظيما بمرور ثلاثين عاما على جلوسه فوق العرش وأن يعرف هذا الاحتفال باسم سبأ أى الذنب إشارة على الأرجح الى مرور تلك المدة على ارتدائه الثوب ذا الذنب . واشتهر ملوك تلك العصور بالصيد وبرعوا فيه وبأهوا بصيد جاموس البحر واستعملوا لذلك الأسلحة الثينة المتقنة كما سترى بعد . وأطلق على القصور أسماء مخصصة وأحيطت بالبساتين اليانعة والكروم الكثيرة المختلفة الأسماء وتعهدها خدمتها ومحصولاتها موظفون اخصائيون . أما أثاث هذه القصور فكان غاية فى الأبهة والجمال وسلامة الذوق فمنه الأواني البديعة المتقنة المصنوعة من أحجار ذات عشرين نوعا ومن أهمها المرمر (شكل ١٤) ولم تعق القوم صلابة بعض الأحجار كالصوان فصنعوا منها الأواني الشفافة التى تأخذ بالألوان وقد عثرنا على أوان عديدة مصنوعة من أحجار بلورية غاية فى الجمال . أما صناعة الخزف فأنحطت عما بلغت قبل حكم الأسر لكثرة استعمال الأحجار فى صنع الأواني وغيرها . وعثر على صناديق صغيرة من الآبنوس والعاج وبعض المقاعد ذات الأرجل العاجية المصنوعة على مثال أرجل الثيران (شكل ١٥) . وكفى بما ذكرناه دليلا على تقدم عظيم فى مصنوعات ذلك العصر . أما الأثاث الهش فبلى معظمه . والمعروف أن أهل ذلك العصر برعوا فى تلميع الأواني الخزفية ونجحوا فى ترصيع ألواح الحلى الحجرية والعاجية وصناعة الأواني والطاسات والأباريق النحاسية للقصر الملكى (شكل ١٦) وكذا الآلات النحاسية العديدة التى ساعدت الصناع كثيرا على إتقان الأواني الحجرية . وبلغت الصياغة شأوا عظيما من حيث سلامة الذوق وبراعة الاتقان كما هو ظاهر فى حلى الملك ونساء

الأسرة الملكية حيث تشاهد جمال الصنع وكثرة الترصيع بالأحجار الكريمة (شكل ١٣) و (شكل ١٧) (١) بشكل يحاكي أعمال صاغت الحديثين . أما المصنوعات اليدوية فتقدمت كثيرا لأن فن الحفر والرسم تحسنا بعد ما كانا في مبدئهما قبل الأسر فظهرت الرسوم البارزة البديعة والتماثيل الجميلة التي تشهد لصانعيها بالمهارة والاجتهاد .

وعثر في معبد حوريس بمدينة الكاب على ألواح حجرية للزينة وصو لجانات وأوان بارزة النقوش أهداها الملوك وقتئذ الى المعابد تتجسم فيها مهارة الصانع وطول باعه (شكل ١٩) (٢) . وبالأمان في صور الحيوانات والأدميين من رسم تلك العصور يتضح لنا مهارة هؤلاء القوم في الرسم ودرجة رقيهم التي بلغوها فيه والتي تمرنوا عليها عدة سنوات . ولما حكمت الأسرة الثالثة أخذت المصنوعات المصرية تتحسن على مرور الزمن فنجم عن ذلك أن تقيدت حرية الصانع في فنه حتى اضطر أن يتبع في ذلك أسلوبا واحدا لا يحد منه . ويشاهد هذا الأسلوب الفني في تماثيل الملك خننم التي روعيت في صناعتها هيئة الجلوس وسحنات الوجه وهي تقط فنية احتذيت في التصوير بعد ذلك (شكلي ٢٠ و ٢١) .

ويرجع الفضل في اظهار معظم آثار تلك الأزمنة القديمة الى الأستاذ فلندرس پتري الذي قام بعدة مباحث جهة العراة بذمة شريفة وهمة صادقة فكشف مقابر ملوك الأسرتين الأوليين . وبفحص هذه المقابر اتضح لنا أن هندسة العمارة تقدمت كثيرا فأخذت المقابر شكلا مستطيلا وكبرت في الحجم وكسيت أرضها باللبن ثم غطيت بعد ذلك بطبقة خشبية . وأحجم القوم عن وضع أواني الغذاء والشراب حول الجثة فشيّدوا لذلك حجرا صغيرة مجاورة ومتصلة بحجرة الميت . ومن دواعي الأسف أننا لم نعر على جثث ملوك تلك الأزمنة لعبث اللصوص بها (شكل ٢٢) و (شكل ٤٢) . لكننا وجدنا بالجهة الشرقية لمقابر العراة الملكية شاهدين طويلين كتب عليهما اسماء ملكين مدفونين هناك . ويوجد على أحد جانبي الغرفة الوسطى بهذه المقابر سلم مبنى باللبن يوصل الى الخارج (شكل ٢٣) . وجرى العادة أن يدفن مع الملك حاجاته من الأثاث المزخرف والأواني الثمينة والخوابي والدنان والأوعية والأباريق المعدنية وأدوات الزينة الشخصية وغير ذلك مما يقتضيه المقام الملكي في الآخرة . واستعملت الحجر الصغيرة المحيطة بلحد الجثة لتخزين كل ما يحتاج اليه المتوفى من غذاء ونحر في أوان خزفية كبيرة مسدودة بصمامات محكمة من طين النيل المزوج بالقش والمختم وقت رطوبته باسم الملك

(١) الدمايج المرسومة في شكل ١٧ مصنوعة من الذهب المطعم بالفضة والفيروز ولا يحفظ في الدمليج العلوي رسم ورده من الذهب بديعة للغاية . ولم نعد لان الى قائمة القوس الذهبي الوارد رسمه في شكل ١٣

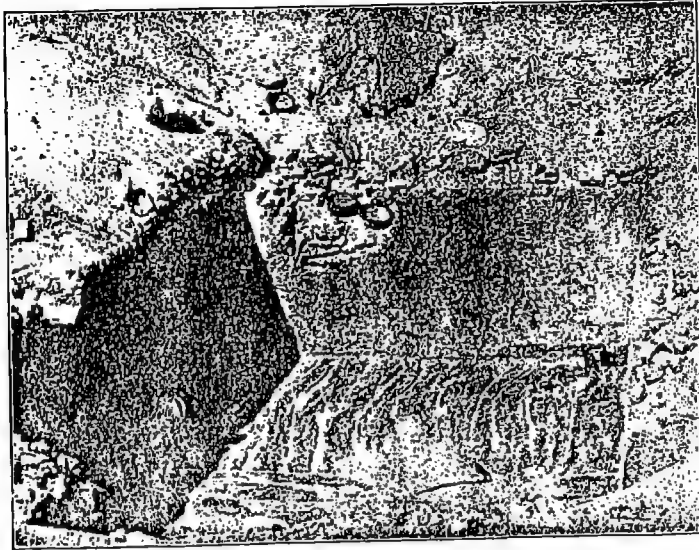
(٢) يشاهد في شكل ١٩ رسم وجهي أكبر هذه الألواح الأردوازية . ففي الصف الأول بالصورة اليسرى يشاهد الملك منبوعا بحامل عليه ومسبوقا بأربعة من حملة الأعلام ووزيريه وقد أقم هذا الاحتفال بمناسبة الاطلاق على رموس الأسرى المقطوعة . أما الصف الأوسط فيحوى رسمين لحيواتين خياليين لا ندرى كنههما . وأما الصف الأسفل فيحوى رسما لملك على شكل ثور يحطم مدينة مسقورة ويدوس عدوه . ويشاهد في الصورة اليمنى الملك يصعد عدوا له . ثم رسم باز (الملك) قابضا باحدى ذراعيه على إشارة الوجه البحري الحاوية رأس انسان موثق الفم . ولا يحفظ أسفل الصورة رسم الأسرى ساقطين .



شكل ٢١ - تمثال الملك خاتشم المصور
رأسه في شكل ٢٠



شكل ٢٠ - صورتان شمستان لراس
تمثال الملك خاتشم مأخوذة من ناحيتين
مختلفتين . ويرجع تاريخ هذا الملك الى
زمن الأسرة الأولى (مأخوذة عن كويل)



شكل ٢٢ - جيرة قهر الملك إيزيب المنطى أرضها بالخشب والمشيدها باللبن .
موجودة بجهة العراة المدفونة ويرجع تاريخها الى الأسرة الأولى (مأخوذة عن هتري)

وعنوان المصنع . واعتاد الملوك أن يلقوا جزءا كبيرا من مزارعهم لشراء غذاء وثيبد وقر بانات تقدم لهم بعد الوفاة على موائد القبور كي يأكلوا منها هم وأهلهم وأتباعهم المدفونون حولهم والبالغون أحيانا مائة أو مائتين . وكان المتبع وقتئذ أن يدفن في جوار الملك أقرانه الدنيويون كزوجته وحرسه حتى مضحكة القزم ظنا منهم أن هؤلاء سيقومون بخدمة سيدهم في الآخرة كما فعلوا في دنياهم . هكنا صار نظام المقابر الملكية من قديم الزمان وهو كما لا يخفى مقام على أساس ضمان النعيم الأثروى .

ورغب القوم في الاحتفاظ بمسكن أبدي بلحث ملوهم فائز ذلك كثيرا في فن العمارة . فقابر الأسرة الأولى تثبت استعمال الجرانيت بلاطا ويشاهد ذلك بأرض مقبرة الملك يوسفائس . وفي نهاية الأسرة الثانية استعمل الحجر الجيري المنحوت في تشييد الحجرة الوسطى من مدفن الملك خاسنموى ولذلك اعتبرت هذه الغرفة أقدم بناء حجري معروف للآن (شكل ٢٥) . وورد في الآثار أن سلف هذا الملك (ويرجح أنه والده) شيد معبدا حجرييا وقد عثرا على عضادة باب من الجرانيت لمعبد بمدينة الكاب شيدته الملك خاسنموى ومنه يتضح أن فى الهندسة والعمارة بلغا فى تلك العصور درجة عظيمة . وجاء فى الآثار أن القصر الملكى خصص لعمارتة مهندسون عديدون ولكننا لا نزال نجعل الكثير عن ذلك لضالة آثار تلك الدهور .

وكان مستشار الملك أعظم مساعد له فى الحكم فرسم عادة تابعا له فى الاحتفالات الرسمية كما ألمعنا سابقا . وكان للحكومة موظفون عديدون على اتصال بالقصر الملكى بمدينة (ب) و(نخن) بالوجهين البحرى والقبلى عهد اليهم فى حفظ العدالة والنظام فى الدولة . وشغل الأمراء فيما بعد هذه الوظائف وسيأتى الكلام على ذلك . واستدل من أختام الموظفين على صامات أوانى المقابر ومن قائمة حساب أحد الكهنة التى وجدت بمقابر العراة الملكية أنه كان هناك موظفون ملكيون مهمتهم الاشراف على مصروفات الموتى . وكثيرا ما يشاهد هذا التدقيق والاعتناء فى أوقاف مقابر المصريين ومنه استدل على شدة المراقبة المالية على خيرات وقرابين الموتى وقتئذ . ووجد بأختام تلك القرابين ما يشير الى وجود عدة ادارات "كادارة التموين" غرضها الأول التأكد من صحة توزيع الأوقاف الخيرية بالطرق المشروعة . ولما كانت مالية الدولة المصرية تتكون من مالية الوجه البحرى المعروفة "بالبيت الأحمر" ومالية الوجه القبلى المسماة "بالبيت الأبيض" فان الباحث يجد بين النقوش الملكية ما يشير مثلا الى "حديقة البيت الأحمر من الأملاك الملكية" . والظاهر أن ضم الوجه البحرى للقبلى كان تحت اشراف الملك مباشرة . ثم أبطلت ادارة "البيت الأحمر" وأتبعت "للبيت الأبيض" فأصبح هذا الأخير فى ذلك الوقت مركز البلاد المالى الحقيقى . أما مالية الوجه البحرى فكانت تذكر على الآثار اسميا من قبيل الرسميات فقط . ومنه يستنتج أن ضم الوجه البحرى تحت ادارة الوجه القبلى كان متذرا فى بادئ الأمر على الملك مينا وأن ذلك تطلب مدة طويلة . واعتبر القوم ملكهم صاحب الحق المطلق فى التصرف بأراضى الدولة المصرية لذلك كان يقسمها ويوزعها على الأمراء ليشرفوا عليها ويديروا أعمالها كما كانت الحال فى العصور التالية لكننا لا نزال نجعل نوع السلطة التى منحت لهؤلاء الأمراء . والمظنون أن معظم أهالى تلك المقاطعات (عدا الصناع والتجار)

اعتبروا عبيدا للامراء يعيشون في مدن مسورة باللبن الثقيل ويخضعون لأوامر رؤسائهم . وأهم مدن ذلك الوقت الكلاب و بوتو وضاحتها نَحْنِ المعروفة عند اليونان باسم (Hieraconpolis) و(پ) وكذا مدينة الحائط الأبيض المعروفة فيما بعد بمنف ومدينة طينه (Thinis) مسقط رأس ملوك الأسرتين الأوليين ثم العراة ومدينة عين شمس وإهناس وهى المعروفة باسم (Heracleopolis) وصا الحجر (سايس) وغيرها من المدن أخذت تزداد فى الأهمية منذ حكم الأسرة الثالثة .

وجرت العادة أن يقوم موظفو الحكومة المليون باحصاء عام للأُملاك الفرعونية كافة كل سنتين وأن يُتخذ هذا الإحصاء وسيلة لتوقيت الحوادث فكان يقال مثلا ان حادثة كذا وكذا حصلت فى "سنة الإحصاء الأول" أو فى "السنة التالية للإحصاء الأول" أو "سنة الإحصاء الثانى" وهكذا على حسب ما تقتضيه الحال . واعناد المصريون أن ينسبوا شؤونهم الى وقت معين ذى حوادث هامة كسنة قتال الأعناد المعروفين عند الأثريين باسم (Troglodytes) وهذه القبائل سحقت اثرتالهم مع المصريين . ولما كان الإحصاء يعمل سنويا سهل على القوم توقيت شؤونهم بالنسبة اليه . أما الأعمال التجارية والمالية فكانت تصنى كل شهر بحساب الشهر القمري رغم عدم استعمال السنة القمرية فى الشؤون الرسمية . ولا يخفى أن مثل هذا النظام الإدارى استلزم تدوين كل كبيرة وصغيرة فلا عجب اذا بلغ الخط الهيروغليفى وقتئذ درجة كبيرة من حيث الدقة والاتقان وقد اختزل هذا الخط يسيرا فسهل تداوله بين الكُتَّاب (شكل ٢٧) . ورغمما عما يحتويه الخط الهيروغليفى من الحروف المركبة فهو يحوى أيضا حروفا هجائية بسيطة . والفضل فى كشف حروف الهجاء يرجع الى قدماء المصريين الذين توصلوا الى معرفتها منذ نحو ألفين وخمسمائة سنة قبل سائر الأمم . ولما كان المصرى بطبيعته شديد التعلق بالعادات ثابر على استعمال الحروف الهيروغليفيه المركبة على الرغم من وجود أربعة وعشرين حرفا هجائيا لذلك الخط ومرور ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة على كشف هذه الحروف . والحق يقال ان ترجمة نصوص تلك العصور ليست بالأمر الهين لأننا لا نزال نجهل معنى معظمها . وقد دون أبناء ذلك الوقت بعض معلومات طبية ودينية صار لها فيما بعد تأثير عظيم عند العامة وسجلوا أيضا حوادث تلك العصور باختصار فى كل سنة الى آخر أيام كل ملك . لكننا لم نعثر الا على صورة واحدة من تلك السجلات مدونة على حجر أثري يعرف بحجر بالرمو^(١) (نسبة الى دار التحف بمدينة بالرمو المحفوظ بها)^(٢) (شكل ٢٩) .

ولما كانت معلواتنا عن العقائد الدينية لأبناء تلك العصور لا تذكر لغتها أصبحت معارفنا مقصورة على ديانة الحكومة وقتئذ ومن دواعى الأسف أنه لم يصل إلينا الا النادر من عقائد الأهالى فى زمن الأسر التالية لعدم اعتناء القوم بتدوينها وتدويننا ثابتا . والمعروف أن معبد الملك مينا الرسمى

(١) ١٦٧ - ١٦٨ (٢) أوردنا بشكل ٢٩ صورة لمقدم هذا الحجر ومنها يتضح أن النصوص الواردة بعد السطر الأول تقع فى أشكال مستطيلة كل مستطيل يمثل سنة . ويرى أعلى كل سطر اسم الملك الذى يخصه صف السنوات المذكورة أما مقدم الحجر فيحوى تواريخ ملوك مصر قبل عهد الأسر (السطر الأعلى) وملوك الأسر الأولى والثانية والثالثة . وأما المؤخر فيحوى تواريخ الملوك حتى الأسرة الخامسة .

كان بسيط التركيب مكونا من حجرة خشبية لاقامة شعائر الدين يحيط بها حاجز من الحصر (شكل ٢٧) وكان للعبد حوش ينصب فيه سار تعلوه شارة المعبود . ثم ساريان يظن أنهما أصل المسلات التي شيدت في الأزمنة التالية أمام المعابد . وفي النصف الأخير من حكم الأسرة الثانية شيد الملوك معابدهم بالجحر^(١) وسجلوا على آثارهم اهتمامهم بتلك المعابد وشدة عنايتهم بإقامتها ووضع أساسها وتخطيطها . أما آلهة ذلك الوقت فاهمها أزوريس وست وحوريس وأنوبيس وتحت وسوكار ومن وآبيس (أحد أشكال بتاح) . وأما الإلهات فاهمها حاتحور ونيت . وبقيت منزلة هؤلاء الآلهة شاخنة في نفوس القوم حتى العصور التالية . وترجع عبادة بعض هذه الآلهة مثل حوريس الى ما قبل عهد الأسر الفرعونية وتكون مملكتي الوجه البحرى والقبلى . وحوريس أكبر الآلهة مقاما وشأنا عند المصريين أيام الأسر الأولى وقبلها ، ولبه في المنزلة المعبود رع . وكان لحوريس جهة الكاب معبد له روعة يقيمون فيه كل سنتين احتفالا عظيما يعرف "بتقديس حوريس" ورد ذكره في النصوص الملكية (شكل ٢٩) (٢) واستمرت عبادة حوريس مدى التاريخ فلقب القراعنة أنفسهم "خلفاء حوريس" مدة حكم العهد الطينى . لكن لما تولت الأسرة الثالثة المنفية انحطت عبادة حوريس وأهملت . أما كهنة تلك العصور فكانوا عمالا وفعلة مقسمين الى أربعة درجات واستمروا كذلك الى العصور التالية .

وكانت مدة حكم الأسرتين الأوليين التي تقرب من أربعمائة سنة مقرونة بنمو مطرد في قوة المملكة الداخلية وحضارتها . ولأن لم نعلم شيئا عن تاريخ الملوك السبعة الذين خلفوا مينا في الحكم لمدة مائتي سنة تقريبا الا ما يخص اثنين هما ميبيس ويوسفائس وكذا بعض آثار لاثني عشر ملكا من بين الثمانية عشر ملكا الذين حكموا تلك المدة وكان كل هم هؤلاء الملوك ارضاء الوجه البحرى والاحتفال على ضمه نهائيا للصعيد . لكن هذا الأمر لم يكن بالهين فقد ألمعنا سابقا الى أن هذين الوجهين كانا في الحقيقة مستقلين استقلالاً داخليا تحت اشراف ملك الوجه القبلى . بعد ذلك أخذ الملوك يحتفلون بتوحيدهم بعيد "ضم الأرضين" (أى الوجهين البحرى والقبلى) (٣) وأطلقوا هذا الاسم على السنة الأولى من حكم كل منهم . ومع ذلك فلم يتمكنوا من اقناع الأمة بهذا الضم بسرعة لحدائته في الأذهان وقتئذ ولهذا السبب شق الوجه البحرى عصا الطاعة على الوجه القبلى مرارا ، مثال ذلك ما ورد على الآثار من أن الملك نَارِمِر الذى يرجع تاريخه غالبا الى مبدأ حكم الأسر شن الغارة على الليبيين غربى الدلتا وأسر منهم حوالى مائة وعشرين ألف نسمة عدا مليون وأربعمائة وعشرين ألفا من الأغنام وأربعمائة ألف من البهائم . وكانت هذه الغارة بمثابة طرد عام لهم . وعثر أيضا بمعبد مدينة الكاب على لوح أردوازى لهذا الملك (شكل ١٩) مصحوبة برأس صولجان بديع الصنع مرسوم عليه احتفالات في مصر قام بها الملك . وورد أيضا على الآثار أن الملك تِرِمُو حارب مدينة "شمرغ" ومدينة "بيت الشمال" (٤) الموجودتين بالوجه البحرى . وجاء أيضا أن الملك خاسم من الأسرة الثانية حارب

(١) ١٣٤: ١ (٢) ١٦٧-٩١: ١ (٣) ١٤٠: ١ (٤) ١٢٤: ١

الوجه البحرى فى سنة سماها "عام حرب وقصاص الوجه البحرى" أسرف فيها حوالى سبعة وأربعين ألفا ومائتين وتسعة أسرى ودون ذلك فى معبد حوريس بمدينة الكاب حيث قدم اناء مرمريا^(١) نقش عليه اسمه الملكى واسم ذلك العام وكذا تمثالين يعين له سجل عليهما عدد أسراه^(٢) (شكلى ٢٠ و ٢١). بعد ذلك ورد فى الآثار الدينية أن الوجهين البحرى والقبلى اتفقا نهائيا أمام المعبود أزوريس^(٣).

ورغما عما أصاب مالية الوجه البحرى من النقص والضعف أثر حملات الوجه القبلى فان موارد القطر عامة زادت وتقدمت بدليل زيادة الأوقاف الملكية وكثرة المعابد والقصور والقلاع والاحتفالات بجفر الترع (شكل ١٨) وإقامة أسوار للندن كنف . كل ذلك يثبت بلا مرأى ما بلغه القطر من الرقى العظيم فى الهندسة والإدارة . ولا يخفى أن المصريين أول من زاول التعدين إذ ورد على الآثار أن الملك سيمريخت الذى يرجع تاريخه (غالبا) الى الأسرة الأولى أوفد بعثة لاستخراج النحاس من مناجمه بوادى مغارة بشبه جزيرة طورسيناء رغما عن أخطار البدو المتوحشين التى اعترضت تلك المشاريع وقد أخبرنا الملك المذكور أنه عاقب هؤلاء البدو وأثبت ذلك على صخور وادى مغارة (شكل ٢٨)^(٤) واستدل من نقوش قطع عاجية أن الملك يوسفائس من الأسرة الأولى أغار على سكان وادى مغارة المذكور وانتصر عليهم انتصارا باهرا ورسم نفسه قاتلا أحد أبناء تلك الجهة الملقب (بشرقي) جاثيا على ركبته (شكل ٢٦) . وما جاء فى هذا اللوح أن هذه الغزوة أول غزوة للشرقيين ومنها فهم ضمنا أن هذه الغارة تكررت فى عهد فرعون وأن الملك يوسفائس انتظر القيام بغزوة ثانية . ووجد على نقوش حجر بالرمو^(٥) ما يشير الى أن الملك مايبيس (Miebis) من الأسرة الأولى شن الغارة على أهالى سكان تلك الجهات المعروفين لدى الإغريق باسم (Troglydytes) ولم يقتصر نفوذ الأسرة الأولى على طورسيناء بل تعداه بدليل ما وجد فى مقابر هؤلاء القوم من أجزاء أوان خزفية أجنبية كثيرة الشبه بمصنوعات جزر البحر الأبيض المتوسط . فلو صح أن هذه الأوانى صنعت حقيقة وقت دفن هؤلاء الملوك لثبت أن العلاقات التجارية بلغت أرنخيل اليونان فى الألف الرابع قبل الميلاد . ورغما عما قام به ملوك الأسرة الأولى من الغزوات الشرقية والتجارة الشمالية فقد وردت نقوش على أسطوانة من العاج^(٦) تفيد أن الملك نأرمير اضطر أن يغزو الليبيين القاطنين غربى مصر كما ذكرنا سابقا . ووجد ما يدل على أن الملك يوسفائس شن الغارة على سكان جنوبى الصحراء الشرقية لىسط الأمن فى تلك الجهة كى يتمكن من استخراج الجرانيت من محاجرها ليلط أحدى حجر قبره بالعراية .

Welli, Rev. Arch., 1903, II, p. 231, and (٤)

Recueil des Inscr. Égypt. du Sinaï, p. 96.

I, 104, (٥)

Hierac, I, pl. XV, No. 7. (٦)

Hierac. I. pl. XXXVI-VII. (١)

Ibid., pl. XXIX-XLI. (٢)

Louvre Stela C. 2. (٣)



شكل ٢٤ - جرات خنوخية لحفظ المأكـل والتربـ وحدثت بقبر من بيت
من عهد الأسرة الأولى بجهة المراءة المدفونة (ماخوذة عن بيري)



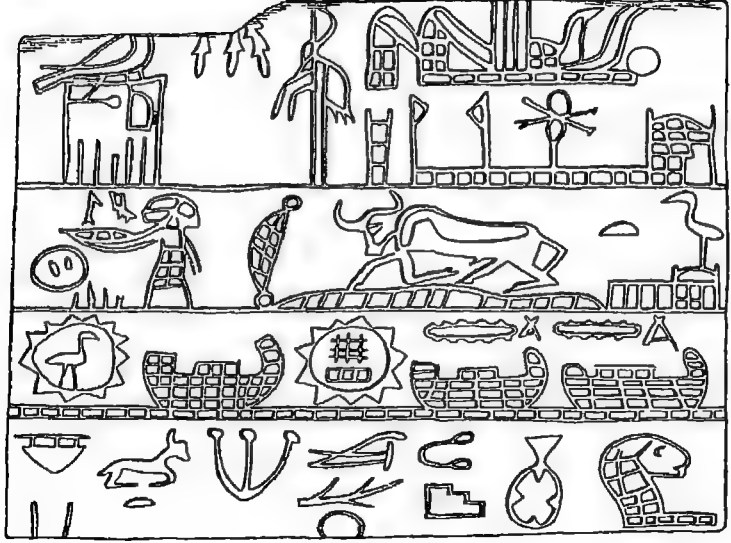
شكل ٢٦ - لوح من العاج للـك يوسفائـس يـا حـم
"ديزيبا"، من الأسرة الأولى (مجموعة آثار مالك جرجور)



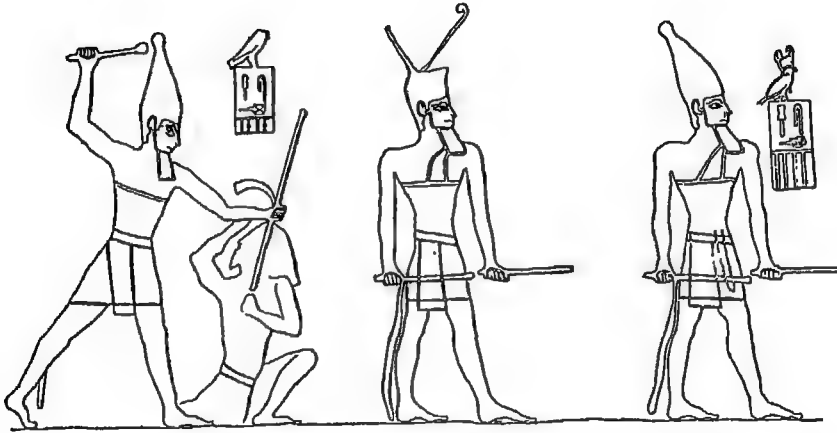
شكل ٢٣ - قبر الملك يوسفائـس الشـيد بالـين والمراءة
المدفونة من الأسرة الأولى (ماخوذة عن بيري)



شكل ٢٥ - أقدم ما عثر في العالم . حجرة مسيدة بالطوب الجيري بقبر الملك
خاخووي من الأسرة الثانية بجهة المراءة المدفونة (ماخوذة عن بيري)



شكل ٢٧ - لوح من الباج للآل مينا أول ملك الأسرة الأولى وجد بالعرابة يرجع تاريخه إلى حوالي سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد تشاهد عليه نقوش تعتبر من أقدم النقوش الهيروغليفية المعروفة الآن . وهو مقسم إلى أربعة أقسام : فالقسم العلوى يحوى في طرفة الأيسر رسم الباز الملكى اختاص بالملك مينا وفى طرفة الأيمن رسم معبد منصوب فى حوشه رمز المعبودة تيت وتملو هذا الرسم سفينة . أما القسم الثانى فيشاهد فى طرفة الأيسر الملك مرسوما قابضا على وعاء ميم باسم "منبيج الذهب والفضة" ومقدما القرابين أربع مرات ويشاهد فى الطرف الأيمن رسم ثور داخل حوش يحمل واحد أطرافه طائر (الفينكس) . والقسم الثالث يحوى رسم النيل مخترقه السفن وتشرف عليه المدن وتعرض بحراه الجزر . والقسم الرابع يحوى رسوما هيروغليفية قديمة غير مفهومة



شكل ٢٨ - الملك سهرخت من الأسرة الأولى يهاجم "بدويا" من طور سيناء . وجدت هذه النقوش محفورة على صخور وادى مغارة وهى أقدم آثار تلك الجهة وأقدم الرسوم الكبيرة المعروفة الآن (مأخوذة عن فيل)

هكذا أسس الفراعنة الطييزون بشاء الملكة المصرية ورقوا أخلاقها ومدنيتها ورغما عن قلة آثارهم فإن أعمال ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة كافية لاثبات ما بلغته حالة البلاد الاقتصادية من العظم والقوة مدة حكمهم. وقد كشف الى الآن في جهة العراية تسعة مقابر لملوك هاتين الأسرتين ومنها لاحظنا أنه بعد انقضاء نحو ألف سنة على دفنهم نسي القوم تاريخ تلك المقابر وتفرسوا في مقبرة زرر أحد ملوك الأسرة الأولى فظنوها مقبرة أزوريس^(١) لذلك وجدت أوان كثيرة بتلك المقبرة قدمها القوم هدايا وقربانا الى المعبود أزوريس . ومن دواعي الأسف أن جثث هؤلاء الملوك انتشلها لصوص شرهون بترؤا أعضاءها كي يحصلوا على مصاغها وأججارها الكريمة. وكل ما وصل إلينا منها هو ذراع جافة لزوجة الملك زرر وجدت بحفرة داخل حائط قبرها حيث أخفاها أحد اللصوص وقت ارتكاب الجريمة قصد انتشالها فيما بعد في الوقت المناسب . ووجد على هذه الذراع حل بديع وأثواب جميلة تكسوها (شكل ١٧) ولا يبعد أن سارق هذه الذراع اتضح أمره وقتئذ فأعدم لذلك وبقيت الذراع شاهدة على جنايته الشنيعة . والفضل في العثور على هذا العضو يرجع الى الأستاذ پترى الذى وجده بمساعدة عماله المهرة عام ١٩٠٢ ميلادية .



شكل ٢٩ - حجر بالرمو . منقوش عليه بعض تاريخ الملوك الأقدمين الذين يقع زمنهم قبل حكم الأسر
الفرعونية ومتصف حكم الأميرة الخامسة . ويرجع تاريخ هذا الأثر إل منتصف الأسرة الخامسة

الكتاب الثاني

المملكة القديمة

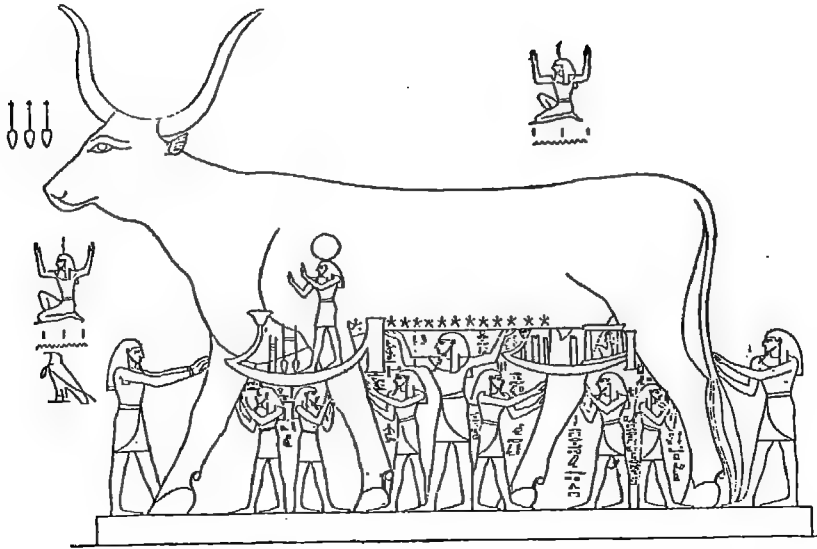
الفصل الرابع

الديانة القديمة

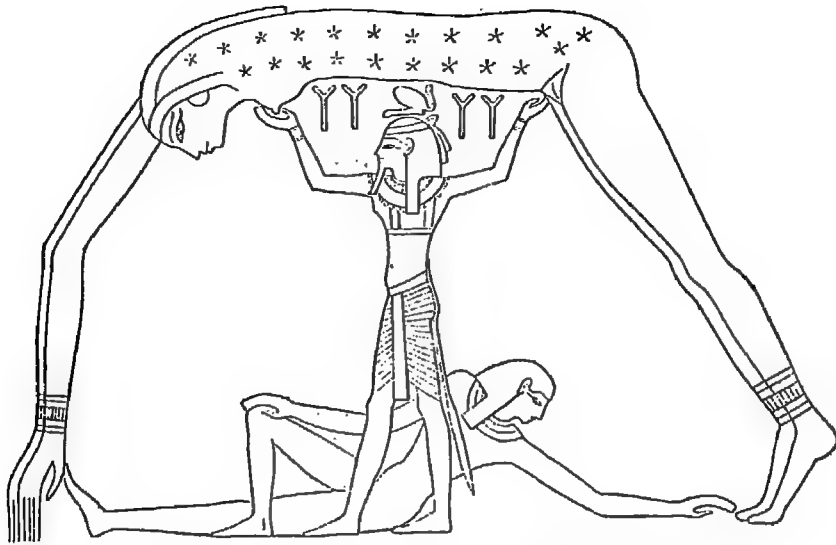
الدين أعظم العوامل تأثيرا في نفوس قدماء الآدميين لأنه يفسر لهم سر هذا الكون بتعاليمه الجذابة ويردعهم بزواجره الرهيبة ويشجعهم بأماله المستدبة ويؤرخ لهم أوقاتهم بأعياده ويقدمهم في الفنون والآداب والعلوم بارشادهم نحو الطريق المستقيم . والمصرى القديم كغيره من الأقوام المعاصرين له رأى قوة آلهته مجسمة فما حوله من المخلوقات كالأشجار والأعين والصخور والتلال والطيور والوحوش فاعتقد هذه الكائنات رموزا للقوة العجيبة والسلطة الخالقة البعيدة عن ادراكه والحال أنها مخلوقة مثله . ثم نظر أيضا الى أرواح بعض هذه المخلوقات نظرة صديق فظنها مدافعة تدرك عنه الأذى والضرر . واعتقد أن أرواح البعض الآخر أعداء له تعمل لخداعه والكيد له وتتسم الفرص للاضرار به وتوجيه الأمراض اليه ولذلك سهل عليه تأويل سبب كل ضرر يصيبه أو مرض يعتريه . واعتقد أيضا أن كل مكان في القطر المصرى تسكنه أرواح معينة معروفة من السهل ارضائها والانتفاع بمساعدتها بطرق سهلة . وما أندر ما وصلنا عن هذه الاعتقادات أيام المملكة القديمة لكننا سنتكلم عنها يسيرا في عهد الامبراطورية . وللاحظ أن المصرى لم يقتصر على اعتقاد وجود الأرواح على الأرض بل تخيلها أيضا في السماء وفي الأرض . ولما كانت المعيشة في وادى النيل على نسق واحد بديعة المنظر أحيانا كانت تخيلات المصرى وقتئذ مقصورة عليها . والمصرى بطبيعته بطيء التأثر بمحاسن الطبيعة على عكس اليونان الذى أثرت فيه محاسن بلاده أعظم تأثير . لذلك نرى أن بعض قدماء المصريين من الرعاة والزراعى الذين يرجع تاريخهم الى مبدأ حكم الأسر تخيلوا السماء على شكل بقرة كبيرة قائمة في الفلك على أرجلها الأربع متجهة الرأس نحو الغرب ، ثم تصوّروا الأرض بين رجلها الأماميتين والخلفيتين واعتبروا السماء بطن البقرة مزدانة بالنجوم (شكل ٣٠) . وتخيل فريق آخر السماء على شكل امرأة منحنية الجسد مستندة الى الأرض شرقا بطرفى رجلها وغربا بطرفى يديها (شكل ٣١) . وترأى لطائفة أخرى أن السماء محيط مائى عظيم مرفوع فوق أربعة عمد في أركانها الأربعة . ولما اختلط الناس بعضهم ببعض تبادلو الآراء فانهمت عليهم حقيقة الأمر وصعب على الباحث الاهتداء الى الأصل . واعتقد الذين تخيلوا السماء بقرة أن الشمس تشرق بهيئة عجيلة واعتقد الذين تخيلوا السماء امرأة أن الشمس تشرق بشكل طفلة مولودة تجوب السماء في سفينة سماوية ميممة نحو الغرب حيث تأفل بشكل رجل هرم موشك على الهلاك (شكل ٣٢) . ورأى البعض سرعة طيران النسر فأعجب به وتخيل للشمس جناحين مثله تطير بهما في الأفق ، لذلك صار قرص الشمس رمزا دينيا هاما .

أما الأرض — التي تنحصر في نظر المصريين الأقدمين في وادي النيل — فتخيلها القوم بشكل رجل منبسط على بطنه ينو على ظهره النبات ويتحرك الحيوان ويعيش الانسان . والذين تخيلوا السماء محيطا مائيا تنحرف فيه الشمس والالآئ السماوية غربا تصورها طريقا مائيا شبيها بالنيل واصلا طرفي المحيط السماوي الشرق والغربي بعضهما ببعضا بذلك انتقال الشمس من الغرب الى الشرق . وتخيلوا أيضا أن هذا النيل الأسفل ينحرق في سيرة عدة مغارات ومفاوز وعرة وأنه يمد النيل الأرضي بالمياه اللازمة لحياة المصريين آتية من كهفين كبيرين جهة الشلال الأول . من ذلك يتضح أن أصحاب هذا المذهب اعتقدوا أن الدنيا تنتهى عند الشلال الأول حيث يبدأ الم العظيم المتصل بالنيل جنوبا وبالجرا الأبيض المتوسط شمالا . من أجل ذلك لقبوا هذا المحيط ”بالحلقة العظمى“ (١) . ولما سرى هذا الرأي الى اليونانيين أطلقوا على المحيط المذكور اسم أقيانوس (Okeanos) وهو لفظ يقابله بالانجليزية (Ocean) . ويتلخص اعتقاد قدماء المصريين في منشأ معبوداتهم أن هذا الكون كان في ابتداء الأمر يما عظيمًا ثم ظهرت فوقه بيضة (في اعتقاد البعض) أو زهرة (في اعتقاد الآخرين) ومنها خرج المعبود الشمسى الذى ولد بعد ذلك أربعة آلهة هم : (شو) و (تفتوت) و (كب) و (نوت) . وعاش هؤلاء الآلهة الخمسة نائمين فوق المحيط مدة ثم توسط كل من شو وتفتوت (الذين يمثلان الجزء) بين كب ونوت ففصلاهما بعضهما عن بعض واطمئن بقدميهما كب ورافعين بذراعيهما نوت فصارت نوت سماء وكب أرضا . ثم حملت نوت من كب ووجاءت بأربعة آلهة وهم أزوريس وإزيس وست وفتيس فأصبح جميع الآلهة مع عبدة الشمس منهم تسعة . لذلك لقبوا بالتسيع المقدس وهو المعروف عند الافرنج باسم (Ennead) . وشاهد هذا التسيع ممثلا بشكل من الأشكال في كل معبد من المعابد المصرية القديمة . ثم انتشرت فكرة الثلاثين بين المعبودات على توالى الزمن وأصبح لكل مكان بالقطر تثليث ثانوى مقدس ركب منه بعد ذلك تسيع على الطريقة المعروفة آنفا . لكن تشعب الآراء عن مبدأ الخليفة لم يقتصر على ما ذكرناه بل تعداه بدليل ما ورد عن بعض المصريين أنهم اعتقدوا أن هذه الدنيا سكنها في بادئ الأمر أناس تحت سلطة المعبود رع . وطال حكم هذا المعبود فكبروهم فأخذ عبيده يكيدون له فسلط عليهم المعبودة حاتحور التي فتكت بهم فتكا ذريعا . لكن رع ندم على ذلك في آخر الأمر فوقف المعبودة المذكورة عن الفتك بالخلق بحيلة ابتكرها بعد ما أفنت عددا عظيما من البشر . ثم ان البقرة السماوية رفعت المعبود رع فوق ظهرها فتخلى هذا عن الدنيا الناكرة للجميل طالبا النعم في السماء العلوى .

وزيادة على هذه الآلهة الأرضية والهوائية والسماوية تخيل المصري القديم آلهة أخرى ساكنة الدنيا السفلى المظلمة ومسيطر على النيل الأسفل الذى يعبره قرص الشمس مبتدئا من الغرب ومنتها الى الشرق . واعتقد المصريون قديما أن أرواح الموتى تقطن هذه الدنيا السفلى محكومة بأزوريس . وأزوريس هذا معبود حكم الأرض بعد رع وساعدته إزيس وزوجته وأخته في الوقت نفسه فأجبه الخلق كثيرا لعدائته وشفقته ، لكن حكمه لم يدم طويلا لأن أخاه ست كاد له حتى قتله . فأجهدت



شكل ٣٠ - الثور الفلكية . يستند أعضاء عدة آلهة ويرفعونها . في الوسط إله الهواء شو
وقد تخيل المصريون بطن البقرة أفقا ذا نجوم عديدة تتجازه سفينة رع
الحاملة في مقدمتها قرص الشمس

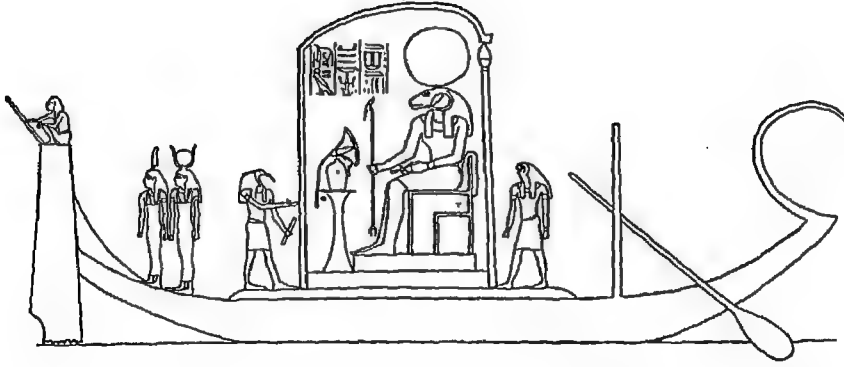


شكل ٣١ - إلهة السموات مثبتة في جسمها النجوم يحملها معبود الهواء شو
وأسفلها معبود الأرض كب مشحيا يسيرا

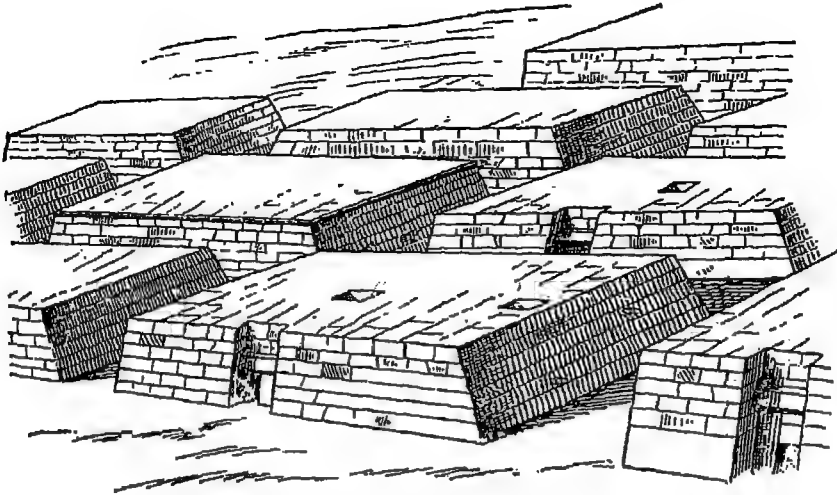
إزيس نفسها حتى أهدت جثة أزوريس ثم حنطتها بمساعدة أنوبيس أحد آلهة الآخرة الذي يرسم دائما بشكل ابن آوى والمعتبر عند المصريين إله التحنيط . بعد ذلك تلت إزيس كثيرا من التعاويذ السحرية القوية على جثة أزوريس فأحييها ثانية وحزكت أعضائها ، إلا أن أزوريس عجز عن استرجاع مركزه الديني فعكف على الآخرة محترما . في ذلك الوقت حملت إزيس من أزوريس بابن سمته حوريس ربته في الخفاء بين أعشاب مستنقعات الوجه البحري على أن يثار لأبيه ، فلما بلغ رشده فاضل ست نضالا شديدا امتد من أول القطر الى آخره أصيب فيه كل منهما بجروح بليغة ، وانتهى القتال بانتصار حوريس واعتلائه عرش أبيه . بعد ذلك اتهم ست المعبود حوريس أمام محكمة الآلهة بأنه ليس ابنا شرعيا لأزوريس فلا حق له في الوراثة . ودافع المعبود تحوت إله العلم عن حوريس وأخيرا حكمت المحكمة بأن حوريس ” صادق القول “ ” متصر “ .

وجاء في رواية أخرى أن الحكم المذكور صدر لحق ” أزوريس “ على خلاف المذكور آنفا . ومن هذه المعبودات من مثلها المصريون بتماثيل عديدة واعتبروها آلهة مصر العظمى ومنها من بقي محفوظا في مخيلتهم فقط فلم تشيد له معابد لتقديسه بها . ولما كان القطر المصري ممتازا على سواه بقله أمطاره كانت لشمسه دائما مكانة عظيمة في نفوس أهله طول حياتهم ولذلك شاعت عبادة الشمس في القطر وتركت في مدينة عين شمس المسماة عند اليونان هليوبوليس وهناك أطلق المصريون على قرص عين الشمس اسم رع ثم لقبوه باسم أتوم وقت الغروب وصوّروه بشكل رجل هرم قامه في القبر . أما وقت الشروق الذي يظهر فيه هذا الكوكب في ريعان شبابه فكانوا يسمونه خِپْرا ويمثلونه يجعل في اللغة الهيروغليفية . وتصوّر القوم لهذا الكوكب سفتين يطوف فيهما الأفق تستعمل احدهما صباحا والآخرى مساء حتى المغيب . بعد ذلك تدخل الشمس الأقاليم السفلى فتخترقها لتشرق على الأرض ثانية جالبة معها النور والفرح والسرور الى سكان الدنيا . وكان يرمز للمعبود رع في مدينة عين شمس بمسلة . أما في ادفو التي هي مركز عبادته بالصعيد فكان يرمز له بنسر يقال له حوريس .

ولما كان المصريون يرتبون موافقتهم على حسب سير القمر صار لهذا النجم منزلة كبيرة عندهم فاعتبروه إله الحساب والآداب والحكم . وتركت عبادته بمدينة الأشمونين التي سماها اليونان هر موبوليس نسبة الى معبودهم هر ميس القمري . وجرت العادة أن يرمز للقمر بالطائر إبيس المعروف بأبي منجل . أما السماء فكانت تعبد في كل جهات مصر باسم نوت كما ذكرنا سابقا لكنها لم تخرج عن عالم التخيلات واعتبرها القوم رمز الحب والفرح النسوى ورسموها بشكل البقرة حاتحور بمعبد دندره ولقبت نيت الفرحة في صا الحجر ومثلت بالهرة بسنت في تل بسطة . أما في منف فرسمت بشكل لبؤة عارية عن العطف والشفقة شيمتها أحداث الزواجر . ولما كانت عقيدة أزوريس آدمية في حوادثها وتطوّراتها انتشرت بسرعة بين الخلق قاطبة لكن إزيس بقيت لم تتعدّ مخيلات المصريين الذين اعتبروها مثال الزوجة والأم الواجب الاقتداء بها . وأما حوريس فيرجع أصله حقيقة الى الشمس دون أزوريس فاعتبره القوم مثال الابن الطيب المتصر على الباطل . وسيأتي الكلام عن عبادة أزوريس تفصيلا وعن تأثيرها في أذهان المصريين في المقام المناسب . وكل ما يجدر بنا ذكره الآن هو أن أزوريس يرجع في الأصل الى مدينة ددو المعروفة عند اليونان باسم بوسيريس بالوجه البحري .



شكل ٣٢ — السفينة الفلكية للمعبود الشمسي . يشاهد في هذا الرسم المعبود الشمسي ممثلاً في جسم آدمي ورأس كبش حاملاً فوق رأسه قرص الشمس وجالسا في أحد المراكب على العرش . وأمامه وزيره المعبود تحوت (له رأس الكركي) واقفاً يخاطبه كاله أرضي



شكل ٣٣ — صورة تمثل عدة مصاطب (مقابر) كاملة البناء يرجع تاريخها الى عهد الملكة القديمة (مأخوذة عن بروشييه) . يلاحظ أمام كل مصطبة بابها وفوق كل منها ثغرة البواب الواصل الى حجرة الموميا أسفل البناء

ولما اعتقد المصريون أن رأس هذا المعبود دفنت بالعراة بالصعيد صار لهذه المدينة الأخيرة شهرة عظيمة من قديم الزمان . ويرسم أزوريس على الآثار عادة بشكل إنسان ضيق الملابس نحيف القوام جالس على العرش كأحد الفراعنة . ويرمز له أحيانا بعمود غريب الشكل يرجع تاريخه الى مبدأ عبادته استعمله القوم حجابا سحريا لاستخدام الأرواح في مصالحهم . وقبل الفراغ من ذكر الآلهة يجدر بنا أن نشبه هنا أن المعبود پتاح الذى لا علاقة له بخلق الكون هو من أقدم معبودات مصر وأعظمها شأنًا وكانت منف مركز عبادته ، ويعتبره القوم أنموذج المثال أو الرسام ولذلك كان أكبر كهنة هذا المعبود رئيس مثالى القصر الملكى .

هذه أشهر معبودات مصر فى العهد القديم . وهناك معبودات كثيرة أخرى أقل أهمية من التى ذكرناها لايسمح لنا ضيق المقام بذكرها مع أن المعابد المصرية حوت كثيرا من تماثيلها .

واستدل من بساطة هيئة الآلهة المصرية ورموزها أن المعيشة وقتئذ كانت بسيطة أيضا . فمن هذه الآلهة من يمثل قابضا على عصا كالتى يستعملها بدو الصحارى أو على فرع قصب وترين رؤسها أحيانا بنسج الغاب أو ريش النعام أو قرنى الأغنام . ولما اعتبر المصريون حيواناتهم المحيطة بهم رموزا للآلهة احتراموها وثابروا على ذلك حتى فى أرق العصور مدنية وحضارة . وللاحظ أن هذه الحيوانات لم تعبد كآلهة الا فى آخر التاريخ المصرى وقتا دخلت البلد فى دور انحطاطها فلم تكن عبادة الحيوانات موجودة فى العصر الذى نحن بصددده وغاية ما فى الأمر أن المصريين اعتبروا وقتئذ بعض الحيوانات كالنسر رمزا لمعبوداتهم كالشمس مثلا ، ومن ثم اعتبر القوم هذا الحيوان كثيرا وأكرموا مثواه فى المعابد لكنهم لم يعبدوه ولم يقدموا له القرابين كما حصل فى الأزمنة التالية (١) .

وبدهى أن العقائد الدينية فى وادى النيل كثيرة التباين والاختلاف ، فعبادة الشمس مثلا كانت ذات مراكز عديدة وأشكال متعددة واعتبارات متباينة حتى أن أهل كل مركز اعتبروا معبودهم الشمسى مخالفا لنظيره فى المراكز الأخرى ، كما اعتقد أهل مدن ايطاليا أن عذراء كل مدينة تحالف عذراء المدن الأخرى . لكن لما نمت التجارة بين سكان القطر وعمت القوانين السياسية سائر جهاته امتزجت هذه العقائد الدينية بعضها ببعض فنتجت عقائد أخرى مركبة متباينة كما ألمعنا سابقا وكما سيتضح أجلا . ومما زاد الطين بلة أن القسوس لم يحتزلوا تلك العقائد الى ما هو أبسط وأقرب للفهم بل تركوها تتغير وتتبدل بتقلبات الدهر فأنجبت مزيجا دينيا مركبا صير الإدراك . ولا يخفى أن من أهم العوامل المساعدة على ذلك تفوق إحدى البلدان على سواها لأن ذلك يعقبه عادة القبض على زمام الحكم ثم بسط ديانة البلد المنتصر على غيره .

وقد تكلمنا سابقا عن معابد المصريين الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الأسر . أما الآن فنذكر القارئ أن تلك المعابد اعتبرها القوم وقتئذ مساكن لمعبوداتهم . لذلك لايبعد أن نظم تلك المعابد كانت كثيرة الشبه بنظم منازل ذلك الزمن السحيق . وقد أثبتنا سابقا أن المعابد شيدت أولا من الخشب

ثم من الحجر بدون تغيير في هندسة عمارتها . وبقى القوم يعتبرون معابدهم بيوتا لآلهتهم رغما عن جهلهم السبب الأصلي لذلك . ويتلخص وصف المعبد وقتئذ بأنه حوش أمامى غير مسقوف يليه ساحة ذات عمد تتفرع منها عدة حجرات لحفظ الأثاث والأدوات اللازمة . وسيأتى الكلام عن بناء هذه المعابد وزينتها . أما الآن فسندكر للقارئ أن أوسط الحجرات المتصلة بساحة العمد والمسماة بقدس الأقداس حوت عادة ناووسا مصنوعا من قطعة واحدة من الجرانيت المنحوت جيدا فيه تمثال المعبود الخشبي المطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة يتراوح طوله بين قدم ونصف وستة أقدام . وتتحضر أشغال موظفى هذه المعابد في تقديم القرابين الى المعبود من ما كل وملبس بما يتناسب مع الغنى والجاه المصرى وقتئذ وكذا القيام باحتفالات الطرب كالموسيقى والرقص . ويؤتى بجميع المصروفات اللازمة لهذه الاحتفالات من خيرات الأراضى ومن الهبات الملكية من قح وشعير وزيت وعسل وما الى ذلك^(١). وكان القصد من هذه القرابين في بادئ الأمر ارضاء المعبود بلا احتفالات لكن بمرور الزمن أخذ تقديم هذه القرابين شكل حفلات رسمية اجبارية في كل معابد القطر في أوقات معينة . وجرى العادة أن يقام في الحوش الأول من المعبد مذبح كبير يجتمع حوله الخلق في الأعياد فيا كلون من الهدايا الكثيرة والقرابين العديدة التى يتمتع بها عادة كهنة وخدم المعبد . وأصل اقامة الأعياد وقتئذ يرجع الى الاحتفال بمرور فصول معينة أو بمجداث مهمة ذات علاقة دينية . وتتخلص هذه الاحتفالات في أن يُخرج القسوس تمثال المعبود ويضعوه في ناووس على شكل مركب نبلى يسير الى حيث يرغب القوم . وليلاحظ أن الرهبانية المصرية كانت احدى واجبات الحاكم الذى كان معتبرا في ذلك الوقت رئيسا لكهنة اقليمه . أما فرعون فكان معتبرا الكاهن الأكبر للمعبودات ، ومنذ أوائل التاريخ كان الرئيس الأعظم لدين الدولة الرسمى والشخص الوحيد الذى يقدس الآلهة . وكان له في كل معبد نائب يدعى رئيس الكهنة يقدم القرابين والخيرات داعيا بطول العمر والسعادة والصحة لفرعون مصر . ويرجع تاريخ بعض وظائف هؤلاء الرؤساء الدينيين الى عهد سحيق جدا وأهمهم المتممون الى مدينة عين شمس حيث لقب رئيسهم "بالرئيس الأعظم" ، أما في منف فكان رئيس الكهنة يدعى "سيد المثالين الأكبر" ، وتسند هاتان الوظيفتان الى رجلين من عطاء الأمة . أما رؤساء كهنة المعابد الأخرى الذين أتوا في الأزمنة التالية فكانوا يلقبون "برؤساء أو مديرى القسوس" فقط . وتتطلب وظائف هؤلاء الرؤساء ادارة الاحتفالات الدينية والاشراف عليها ومراقبة ايراد المعابد الذى يعيش منه الموظفون ثم قيادة الفرقة الحربية الخاصة لكل معبد زمن الحرب . أما الكهنة الصغار فكانوا عادة من العمال المتطوعين لخدمة المعابد في أوقات الفراغ وبهذه الطريقة تمكن العمال من الاشتراك في عبادة المعبود ولو أنهم يعتقدون أن فرعون هو الشخص الوحيد المقدس للعبودات . أما النساء فكن يتطوعن لخدمة المعابد أيضا كراهبات للعبودتين نيت وحاتحور مؤدبن واجبهن الدينى راقصات ممسكات الصوالة في أعياد مخصصة أمام الآلهة . وهكذا كانت خدمة الآلهة مباحة للجميع . ولما كان المعبد في اعتبار القوم مأوى المعبود لقب القسوس "بخدم الإله" .

ثم أخذ هذا التقدم الديني يبرز في تشييد المعابد الشاخة وازدادت الكهنة وحسبت العقارات لترويد الأموات بما يلزمهم في الآخرة حتى فاق المصريون في ذلك غيرهم من الأمم . والمجهد الجسمى العظيم الذى قام به هؤلاء القوم لحشد المقابر بالحاجيات الدنيوية يعتبر أقدم دليل على اعتقاد الانسان في البعث بعد الموت . وكان المعتقد وقتئذ أن الأجساد تحركها أشباح حيثما وجدت في الدنيا أو في الآخرة . وهذا الشبح كان يدعى "كا" وهو فى اعتقاد القوم مصحوب بروح يرمز له بطائر آدمى الرأس مخلوق بين الأغصان أو بزهرة أو بذات اللوطس أو بشعبان أو بتمساح ساج أو غير ذلك . وتخيل القوم أيضا لكل انسان ظلا اعتبروه جزءا ملازما له . ثم كثرت هذه العقائد فصعب على المصرى فهم حقيقتها وعلاقة بعضها ببعض كما صعب على المسيحى فى الجليل السابق فهم العلاقة بين الجسد والروح والشبح . واجتهد المصريون فى تفسير المعيشة الأخروية فاتبعوا فى ذلك الطرق التى راعوها فى تفسير السماء والأرض ولذلك اعتقدوا أن الموتى يقطنون عالما غربيا يهبط فيه المعبود الشمسى كل يوم بعد الغروب وعلى ذلك لقبوهم "بالغربيين" واجتهدوا فى تشييد مدافنهم فوق الجبال الغربية . واعتقد البعض وجود عالم آخر أسفل هذه الدنيا تقطنه الأموات منتظرة ظهور قرص المعبود الشمسى سائحا فى سفينة المقدسة كى تتمتع بأشعته وتشد جبال سفينة لتنتقذها من المازق الطويل فى ذلك العالم المظلم . وهناك فريق ثالث تأثر كثيرا بصفاء سماء بلاده فاعتقد أن الأموات تتحول طيورا بعد وفاتها وتعلو فوق طبقات الهواء حتى تبلغ روع أى الشمس فتقابل هناك مع اتباع ذلك المعبود وتعيش كتنجوم أزلية . ثم ازداد المصرى تخيلا فى الحياة الأخروية فتوهم فى الجهة الشمالية الشرقية فى السماء حقولا يانعة خضراء سماحا "حقول يارو" أو حقول الخيرات كثيرة العدى فحجها أطول من قمح النيل عميمة الرخاء والطمأنينة والسلام والسكون ينال فيها كل فرد نصيبه مما يقدم لمعبوده فى الدنيا من خبز وجمعة وملبس زيادة على ما ذكر . ثم استصعبوا الطريق الى حقول الخيرات فتخيلوها محاطة بالماء ، ولذلك ابتكروا طرقا مختلفة للوصول إليها فكان بعضهم ينجى النسر أو الطائر أبى منجل (إيس) ليحمله فوق طرف جناحه الى تلك الحقول وربما البعض الآخر أولاد المعبود حوريس الأربعة ليحضروا له قاربا يستعين به على عبور المياه وتوصل فريق ثالث الى روع لينقله فى سفينة الى تلك الجهة . لكن العادة المتبعة فى معظم تلك الأحوال أن الميت كان ينجى ربانا لسفينة هناك يدعى "الناسر خلفا" نسبة الى اتجاه وجهه وقت الهدف ليجتاز الماء الى "حقول يارو" . وليس لهذا الرنان أن ينقل من يريد بل كان يتعم عليه أن يتحقق أن كل شخص ينقله فى سفينة لا بد أن يكون قد صدر عليه حكم المعبودات بأنه "برئ من السيئات" أو بأنه "ظاهر لا سفينة له" أو بأنه "تق ورج عادل أمام السماء والأرض وأمام الجزيرة" (١) التى تحوى النعم والرفاهية لكل أهل بها .

هكذا تسبعت عقائد المصريين في فهم الآخرة لكنها لم تتجاوز شؤون معيشتهم الدنيوية . واعتقد القوم أولا أن الوصول الى حقول الخيرات الأخرية يكون بالاهتمام بالشعائر الدينية والاعتناء بها . وبتوالى الأيام اعتقد الناس أن النعيم الأخرى يكافأ به من يحافظ على طهارة الذمة والشرف والأعمال الصالحة في الدنيا . من ذلك ما ورد في مقبرة أحد أمراء الأسرة الخامسة مترجما "لقد شيدت مقبرتي هذه بغاية العدل والحق فلا شيء فيها يستحقه غيرى ... ولم أؤذ أى شخص" (١) . وما ورد أيضا من النقوش على جدر مقبرة لأحد أبناء تلك العصور مترجما "أنا لم أعاقب قط في حياتي أمام رجال الحكومة ولم أسرق شيئا من غيرى بل فعلت كل ما يرضى غيرى" (٢) . ولم تقتصر نقوش مقابر تلك العصور على أفكار السيئات بل شملت أيضا فعل الخيرات كما ورد على جدر مقبرة وجيه في الأسرة الخامسة مترجما "كنت أقدم الخبز لفقرى اقليمى وأكسو عراته ولم أؤذ أحدا طمعا في أملاكه حتى اشتكأنى الى معبود بلده ولم أسمح لضعيف أن يخشى بأس قوى فيتظلم من ذلك للإله" (٣) .

وفي هذه العصور القديمة انتشرت بين الخلق عقيدة أزوريس ووفاته واحلال ابنه حوريس محله على عرش مصر حتى صار لها مكان عظيم في نقوش الموتى ، فلقب أزوريس بأول الغربيين "وسلطان الصالحين" . ثم اعتقد القوم أن كل فرد بعد وفاته يحصل له ما حصل لأزوريس فيشبهه ويلقب حينئذ باسم أزوريس أيضا . وكثيرا ما ورد على الآثار ما معناه "ليعيش هذا الميت كما عاش المعبود أزوريس . وليدرا عن هذا المتوفى الفناء كما درأ عن أزوريس الفناء وليحفظ من التلف كما حفظ أزوريس" (٤) . ولما اعتقد المصريون أن أزوريس قطعت أعضاؤه بعد وفاته ثم جمعت وأحييت بمعرفة المعبودات دعوا لليت أن ترد روحه لأعضائه كما حصل لأزوريس . وهكذا أصبح للتوفى عندهم منزلة المعبود أزوريس في الآخرة حيث يكون حاكما بين الخلق كما كان في الدنيا . واليك ترجمة ما أورده الأستاذ أدولف إرمان في كتابه (٥) من الدعوات لأحد الأموات "لقد فتح لك باب السماء وأقفاها اكراما لك وتجيلا . هناك ستجد المعبود رع في انتظارك فيقودك بيدك الى المحل المقدس في السماء ويمجلسك على عرش أزوريس النحاسى فيصبح عرشك وتحكم الأموات الموقرين ثم تقف خلفك خدام المعبود وتصطف أمامك رؤساء الآلهة صائحين مهلا أيها الإله ! مهلا أيها الإله ! مهلا أيها القابض على عرش أزوريس ! إزيس تحادثك ونفتيس تحيك . الأموات تأتى اليك ساجدة تقبل الأرض بين قدميك . هانت ذا قد صارت اليك المنزل والشرف الإلهيين وأصبحت ممثلا لأزوريس جالسا على عرش رئيس سكان الغرب . أنت العامل لأعماله نحو الأموات والشهداء أنت الرافع منزلك بعد حياتك والدافع الأذى عن أطفالك" . ولما اعتقد المصريون أنهم سيتمتعون بعد وفاتهم كالمعبود أزوريس أو أنهم سيصيرون أزوريس نفسه لم يعودوا ينظرون الى الموت بخوف ووجل فقالوا عن موتاهم "أنهم لا يتركون هذه الدنيا أمواتا بل أحياء" (٦) . ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة في الآخرة أمام أزوريس

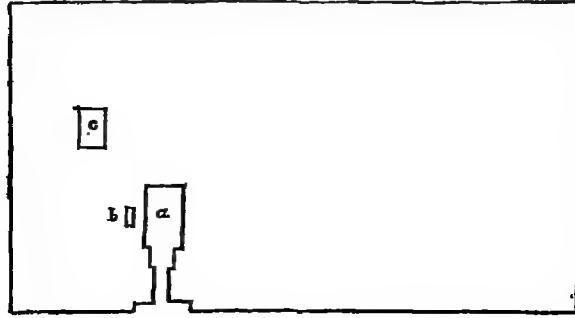
(١) ٢٥٢: ١ (٢) ٢٧٩: ١ (٣) ٢٨١: ١ (٤) Pyramids, Chap. 16. (٥) Erman, Handbuch, pp. 96-99. (٦) شرح

وأن هذه المحاكمة ستتناول كل ما أتاه المتوفى في دنياه من صالح وطالح . وليلاحظ أن محاكمة أزوريس أحدثت تأثيرا أدبيا عظيما في نفوس المصريين . ولو أنهم كانوا حقيقة منذ قديم الزمن ذوى ضمائر ونفوس رادعة إلا أنهم كانوا في احتياج الى زاجرقوى كالوارد في عقيدة أزوريس . لذلك نشاهد بين نقوش دهلز أهرام أمراء الأسرتين الخامسة والسادسة تحذير كل من يستولى على مقابرهم بأنه "سيحاكم على أفعاله أمام المعبود الكبير" (١) كما ورد في مقبرة أخرى ما يشير الى تجنب الكذب كلية "رغبة في رضا المعبود وقت الحساب" (٢) .

كل هذه الحقائق وجدت مدونة بين أقدم نصوص الموتى المعروفة الآن بمصر . وكان الغرض من هذه النصوص ضمان الراحة والتعيم للتوفين وبالأخص نعيم أزوريس . وقد نقشت هذه النصوص على جدار دهلز أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة بكية كبيرة ومنها استخلصنا ما أوردناه هنا بخصوص الآراء المصرية عن الحياة الأخرى (٣) . وبمناسبة وجود معظم هذه النقوش في الأهرام المذكورة آنفا أطلق الأثريون عليها اسم "نصوص الأهرام" . ولا يخفى أن كثيرا من هذه النصوص ما يرجع تاريخه الى ما قبل حكم الأسروا أن بعضه غير وُثِّلَ بمرور الزمن كي يتمشى مع عقيدة أزوريس وإن لم يكن له بها علاقة بالمرة . وليلاحظ أن هذا التغير سبب خلط العقائد الدينية كثيرا حتى صعب فهمها بعد ما كانت منفصلة بعضها عن بعض ومتباعدة تمام التباين .

لقد كانت لرسوخ العقيدة أو بالأحرى العقائد الخاصة بالحياة بعد الوفاة تأثير كثير في نفوس المصريين منذ أقدم عصورهم ، فتولدت عندهم عناية كبيرة واهتمام عظيم بأمور موتاهم . ومن الواضح أنه رغما عن كل العقائد الثابتة بأن الحياة الأخرى بعيدة عن الدنيا فإن قدماء المصريين لم يستطيعوا في وقت من الأوقات أن يفصلوا بين جسم الانسان ونيمة الأخرى ، لأنه كان من الصعب عليهم أن يصدقوا بالحياة بعد الموت اذا تلفت جثثهم وبليت . وقد بذل المصري مجهودا تدريجيا في ابتكار وسائل ثابتة أمينة لصيانة قبره حتى استعمل في تشييد لحده الأتجار وزاد في حجمه فصيره شامخا ، وهكذا أصبحت أهرام الجيزة أكبر مقابر العالم حجما ، وهذه الأهرام محاطة بمقابر أمراء المملكة القديمة ذات البناء الضخم الذى لو حازه ملك قبل تلك العصور ببضعة قرون لافتخر به أيما افتخار . واليك وزير الملك پي الأول الذى يرجع عهده الى الأسرة السادسة فإن مقبرته تحوى ما ينيف على احدى وثلاثين حجرة يعلوها بناء عال مربع الشكل مائل الأضلاع بما يقرب من خمسة وسبعين درجة ، وهذا البناء أصم تقريبا الا في بعض جهاته حيث تشاهد حجرة أو أكثر ، وهو كثير الشبه بالمصطبة التى يترج عليها الفلاحون أمام حوانيتهم ومساكنهم ، لذلك أطلق الأثريون اسم "مصطبة" على هذا البناء . وأبسط هذه المصاطب هى الصماء التى لا تحوى الا بابا وهما في جهتها الشرقية لمرور المتوفى وقت مجيئه من مأواه الغربى . بعد ذلك استعاض القوم عن هذا الباب الوهمى هيكل صغيرا

في المصطبة نفسها مرسوما على حائطه الغربي باب وهمي ومزين بالحدر بمناظر بارزة تمثل الخدم والعبيد الذين كانوا يعملون في خدمة صاحب القبر يحرثون ويذرون ويحصدون ويرعون الأغنام ويذبحونها ليقدموها الى مائدة سيدهم . ويشاهد هؤلاء الأشخاص في مناظر أخرى يصنعون الأواني الحجرية تارة أو ينون سفنا نيلية تارة أخرى . والقصد من هذه الرسوم اظهار خدم وأتباع صاحب القبر منهمكين في الحقل والمصانع مؤدين ما هو ضروري لراحة سيدهم في الآخرة . ويشاهد في بعض الرسوم رسم كبير لصاحب القبر يمثل مشرفا على عماله متفقدا أشغالهم كما كان يعمل قبل "رحيله للغرب" . من هذه النقوش جمعنا معلوماتنا عن عادات المصريين وكيفية معيشتهم في تلك العصور . أما اللحد فيرى في أسفل المصطبة منحوتا في الصخر ويلينه وبين الخارج بئر يخترق بناء المصطبة . وفي يوم الدفن تحضر جثة الميت محنطة على حسب العادة لتقام لها شعائر الدين التي تمثل ما جرى للعبود



شكل ٣٤ - رسم سطحي لاحدى المصاطب . يشاهد فيه معبد القبر
مرموز له بحرف (a) ثم السرداب المرموز له بحرف (b) وهو عبارة
عن غرفة سرية تحوى تمثال الميت . ثم موضع البئر وهو المرموز له
بحرف (c) . وينتهى هذا البئر من أسفل بمجرة الرميا .
ويمكن معرفة ارتفاع تلك المصاطب بمراجعة شكل رقم ٣٣

أزوريس بعد وفاته . وأهم هذه الشعائر تلاوة العزائم والدعوات لفتح فم وأذنى المتوفى كي يسترد كلامه وسمعه في الآخرة . بعد ذلك تنزل الجثة في بئر المصطبة الى اللحد وتوضع نائمة على جانبها الأيسر اتباعا للعادات القديمة في تابوت جميل مستطيل مصنوع من خشب الأرز موضوع داخل تابوت آخر من الجرانيت أو الحجر الجيري . وجرت العادة أن القوم كانوا يتركون بعض الغذاء والشراب يجوار الميت ، وكذلك بعض أدوات الزينة وعصا السحر وعدة أحجية لحماية الميت من أعدائه خصوصا الأفاعى . وقد وجد في نقوش الأهرام عدد كبير من العزائم الخاصة بوقاية المتوفين من أفاعى الدار الآخرة . بعد ذلك تملأ البئر حتى حاقها بالمال والأحجار ثم يترك القوم ميتهم في حياته الأخروية التي سبق الكلام عليها .

ولم يقتصر واجب الأصدقاء نحو متوفيهم على ما ذكرنا سابقا بل كان يتحتم عليهم أيضا أن يجهزوا مثالا للمتوفى يوضع في حجرة صغيرة منعزلة بقرب الهيكل المشيد داخل المصطبة، وقد يوصلون أحيانا هذا الهيكل بحجرة التمثال المذكورة التي يلقبها الفلاحون "بالسرداب". ولما كان هذا التمثال كثير الشبه بالمتوفى تصوّر القوم امكان دخول شبح ميتهم هذا التمثال كي يتمتع بقرايين الطعام والشراب التي تقدم في هيكل القبر. وليلاحظ القارئ أن قرايين الموتى كانت بسيطة جدا في بادئ الأمر اذ كان ابن المتوفى أو وزوجه أو أخوه يقدم عادة رغيفا صغيرا في اناء على حصير من القش يجوار القبر، لكن بتوالى الأيام ازداد عدد هذه القرايين وغلا ثمنها حتى شابهت ما كان يقدم لليت قبل وفاته في هذه الدنيا. ثم أصبح لهذا العمل الذى كان أصدقاء المتوفى يقومون به سواء أكان ذلك رغبة أم رهبة أهمية كبيرة حتى استلزم وجود عدة خدم للعناية بالقبر غير عدد الكهنة اللازم لقراءة الدعوات والصلوات على الميت. وبلغت عناية القوم بهذا الأمر أن عقدوا الاتفاقات^(١) قبل وفاتهم مع أشخاص ينتخبونهم للخدمة في قبورهم بعد الوفاة بمرتب ثابت يصرف لهم قانونا من الأوقاف المحبوسة على مقابرهم قبل وفاتهم. خذ مثلا ما ورد على الآثار من أن مقبرة الأمير نكُورج ابن الملك خُفرع من الأسرة الرابعة حبس عليها ايراد اثني عشر مدينة^(٢). وأن صاحب قصر الملك أوسركاف عين قبل وفاته ثمانية قسوس لخدمة مقبرته^(٣). وأن أحد أمراء الوجه القبلى وقف على مقبرته ايراد احدى عشرة قرية وعزبة^(٤). ومما جاء عن هؤلاء القسوس أن مرتب أحدهم كان باهظا تمكن به أن يرتب لمقبرة ابنته ما يماثل المرتب للمقبرة الموظف هو بها^(٥). وكانت همة القوم منصرفة الى العناية بمقابرهم، لكن بمرور الأجيال عظم العبء على النسل فأهملت خدمة مقابر الأجداد رغبة في تنفيذ مطالب الأحياء أو الموتى الحديثين. وكما أن القرايين التي كانت تقدم لآلهة المعابد كانت تعطى لموظفى ذلك المعبد ليقتاتوا منها كذلك رأى بعض الملوك أن يكافئ بعض أمراءه بأن يحوّل الى مقابرهم جزءا من القرايين التي تقدم لمقبرة ملكية قديمة أو لمقبرة أحد أقاربه^(٦). ثم جرت العادة أن يساعد الملك سرايته وأمراءه المقربين منه بهذه الكيفية^(٧). واعتاد القوم أن يبدؤوا دعوات مقابرهم بعبارة معناها "هبة ملكية الى فلان.....". واستمرت الحال كذلك مدة من الزمن كانت الهبات الملكية قاصرة في أثنائها على الأمراء والموظفين في القصر الملكى. وبمرور الزمن اقتدى القوم بأمراء البلاد من حيث العناية بموتاهم فكروا استعمال العبارة المذكورة بين دعواتهم رغما عن عدم حظوتهم بالهدايا الملكية. ومن ثم استعمل القوم الديباجة على جدر وصفائح قبورهم في جميع العصور مع عدم وجود

(١) ٢٠٠-٢٠٩-٢٣١-٥ (٢) ١٩١:١ (٣) ٢٢٦-٧ (٤) ٢٧٩:١

(٥) Erman, Handbuch, p. 123. (٦) ١٧٣:١-٥ (٧) ٢٤١:١-٢٠٧:٢٠٩

٢١٣-٢٢٧-٢٤٢-٢٤٩-٢٧٤-٢٧٠

أية علاقة بينهم وبين ملوكهم من هذه الجهة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كثيرا ما يجد الشخص هذه الديباجة مكررة عدة دفعات في المقبرة الواحدة . وقد يساعد الملك أحيانا بعض محظيه في تشييد مقابرهم ، من ذلك ما ورد من عبارات الافتخارين نقوش مقابر الأمراء أحيانا ومنها يستدل أن الملك أهدى أحدهم بابا وهميا لمقبرته أو تعطف عليه بتأبوت أو ببعض رجال فنيين يساعده على بناء قبره (١) .

ولما كان تقديم القرابين لروح الفقيد من أقدم المقاصد في تشييد المقابر يجد الباحث في مقابر ملوك الأسرة الأولى ما يشير إلى شدة العناية بذلك . ولما كانت الأسرة الثالثة لم يقنع ملوكها بقبر واحد بل شيدوا لأنفسهم قبرين نسبة لحكمهم لقطرى مصر ، كما شيدوا قصرين . ثم صارت مقبرة الملك كبيرة الحجم كثيرة الحلية لا تقارن بمقابر الأمراء . فبينما كانت الدعوات والصلوات من أجل الأمراء تقام في هياكل مشيدة بالجهة الشرقية للصطبة كانت هذه الإجراءات الدينية نفسها الخاصة بالملوك تقام في بناء شاخ بديع منفصل عن القبر . ولما استبدل القوم بمقابرهم أهراما شيدوا في مقابلة جهتها الشرقية معابد مخصوصة للعرض نفسه وخصصوا لكل منها أموالا كثيرة تدفع منها مرتبات الكهنة ورتبوا لها باستمرار القرابين والمأكول والمشرب والملبس . وبديهي أن كثرة موظفي هذه المقابر تطلبت الاكثار من المنازل الخاصة بهم حول كل هرم ، وجرت العادة أن كل هرم وما يتبعه من مساكن وهياكل وغير ذلك يحاط بسور خاص ، وكثيرا ما كانت تتكون في وادي النيل في البقعة التي يشرف عليها الهرم المشيد عادة على هضبة مرتفعة مدينة مسورة يصلها بمعبد الهرم جسر حجري محكم البناء ينتهي في طرفه الأسفل ببناء عظيم ضخم من الجرانيت أو الحجر الجيري ويكسو أرضه أحيانا بلاط من المرمر ويظهر عليه شكل مدخل رهيب لقبر عظيم (شكل ٣٥ وشكل ٦٩) . أما الاحتفالات التي كانت تقام في الأعياد فكانت تمتاز بالزى الأبيض وتبدأ من مدينة الهرم أسفل الجسر المذكور ثم تسير فوق هذا الجسر الطويل حتى تصل إلى الهيكل الذي يشرف عليه الهرم العظيم الشاخ . ولا يستبعد أن القوم كانوا ممنوعين من اختراق حائط الهرم وعليه فكانوا يقنعون بمشاهدة هذا البناء الأبيض الناصع من أعلى سور مدينتهم بين أشجار النخيل المترنحة فيندكرون جثة معبودهم الذي حكمهم مدة من الزمن . وبمرور السنين يرى القوم هرما آخر مماثلا له بالقرب من الهرم الأول معدا لخدمة ابن ملكهم المقدس الذي يشاهدون عظمتهم بين حين وآخر أيام الأعياد . وليلاحظ أنه رغمًا عن التكاليف الباهظة التي كانت تتفق من مالية البلاد على ذمة الفراعنة وأمراءهم على حسب الأصول المتبعة

فإنها لم تكن ذات تأثير كبير اقله عدد هذه الاحتفالات أما السواد الأعظم فاكثفوا بدفن موتاهم بدون تحنيط في مقابر أجدادهم التي يرجع تاريخها الى ما قبل حكم الأسروا التي هي على حافة الصحراء الغربية.



شكل ٣٥ - صورة تمثل أهرام أبو صير وما جاورها من الأبنية الأثرية كاملة الترميم (مأخوذة عن بورخارت) . وفيها يلاحظ معبد خاص لكل هرم مجاور له وطريقان مشيدان بالأحجار يبدآن من اثنين من هذه المعابد يدخلان شاهقاً واقع في الحد الفاصل بين الصحراء وأرض الوادي (راجع شكل ٦٩) .
رُشاهد أمام المدخل درجات سلم حيث ترسو السفن زمن الفيضان

الفصل الخامس

المملكة القديمة

الحكومة ، المجتمع ، الصناعة ، الفنون

يرجع مبدأ الحكم الملكي ومنشأ العادات اللذين تمتاز بهما مصر القديمة عن سواها من الأمم الى عهد بعيد يصعب تقديره الآن إزاء ما لدينا من الأخبار اليسيرة . لكن المعلوم أن حكومة الملك مينا كانت منظمة وعريقة في الوجود وأن ادارة البلاد في فجر المملكة القديمة الذي تقرب مدته من أربعة قرون كانت مصحوبة بهيبة كبيرة ومقام رفيع واحترام شديد نحو ملك البلاد من جميع أفراد الرعية على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم . فكان الملك وقتئذ معتبرا إلهًا وملقبًا ” بالمعبود الطيب ” ولذلك عظم مقامه بين رعيته حتى صاروا يحتنون ذكر اسمه شخصيا إذا أرادوا الإشارة اليه . فكان الحاجب الملكي مثلا يستعمل في كلامه الضمير الغائب كلما ذكر شيئا خاصا بجلالة سيده فيقول مثلا ” هو ” إذا أراد الملك ومثلا ” لنيسط له الأمر ” بمعنى لنخبر جلالة الملك بالأمر ، وهكذا وبمرور الزمن أخذ القوم يلقبون الحكومة أولا ” بالبيت الكبير ” ثم أطلقوا ذلك على الملك . وهذا اللقب يقال له بالهيروغليفية ” برعو ” وحرّفه بعد ذلك الاسرائيليون الى ” فرعون ” وبقي مستعملا كذلك حتى عهدنا هذا . وما أكثر العبارات والمجازات التي كان يستعملها موظفو القصر الفرعوني في الإشارة الى ملكهم المقدس . واعتقد القوم أيضا أن ملوكهم إذا ماتوا ينضمون الى طائفة المعبودات وعليه تجوز عبادتهم كآلهة في الهياكل الكبيرة المشيدة أمام مقابرهم الهرمية الشاخحة .

أما الحاشية الملكية فقد بلغت درجة عظيمة في معاملتها الرسمية التي كانت تراعيها بكل دقة وعناية فأعضاء الحاشية كانوا من الوزراء العظام والضباط الكبار المترين بأنفس الملابس علاوة على الأبناء الملكيين الذين كانوا يقومون بخدمة الملك في القصر . من ذلك يتضح أن حياة القصر الملكي وقتئذ كانت كثيرة الشبه بما يملئها في الممالك الشرقية . وقد حفظ لنا التاريخ بعض الرتب وألقاب الشرف التي كان ينعم بها على كبار موظفي القصر في تلك العصور السحيقة . وللاحظ أن رجال الحاشية الملكية كانوا كثيرى الفخر يرتبهم وألقابهم حتى نقشوها على جدر مقابرهم مثبتين درجاتهم ووظائفهم التي ساروها في الحضرة الملكية في أثناء معيشتهم الدنيوية . وهذه الرتب والوظائف تختلف بعضها عن بعض من حيث الأهمية والجدارة ولها نظام ثابت يشرف عليه قواد القصر الحربيون بدقة في وقت الاحتفالات الرسمية والمثول بين يدي السدة الملكية . أما خدمة الملك الشخصية فكان يعهد بها الى كبار موظفي القصر كل على حسب وظيفته ولقبه فكان بينهم طبيب الملك الخاص ورئيس جوقة الموسيقى الملكية وغير ذلك . أما شخص الملك فكان قليل الحلى ومع ذلك فكان في القصر نفر ليس باليسير يصنع الشعور والنعال والروائح العطرية ويقوم بالغسل والتبويض وحراسة الأمتعة . وكل من هؤلاء كان يتحدث

بألقابه مفتخرا بها ومؤيدا لها على صدر مقبرته، فمن ذلك ما ورد على شاهد قبر موجود بدار التحف بالقاهرة مترجما: "أنا الرئيس المتعهد بصندوق دهانات الملك. كنت أقوم بأموري في دهان سيدى بغاية الرضا والقبول. أنا المتعهد بادارة زينة الملك الحامل لحف جلالته الصانع لنعال جلالته بما حاز منه الرضا والقبول"^(١). وجرت العادة أن الملوك كانوا يقترون بأكثر من واحدة ويختارون من بينهم أقربهم وأحبهم لقلوبهم فيلقبونها رسميا بجلالة الملكة ويعتبرون ابنها ولى عهد المملكة الذى يتسلم مقاليد الملك بعد وفاة أبيه. وليلاحظ أن تعدد الزوجات امر شاهد كثيرا في البلدان الشرقية وأنه في الوقت نفسه سبب لكثرة التناسل، لذلك ترى المصريين يرسمون على الآثار اطفالا عديدين حول ملوكهم آخذين نصيبا كبيرا من دخل القصر. وجاء في الآثار أن أحد أولاد الملك خفرع الذى يرجع تاريخه الى الأسرة الرابعة خلف تركة بعد وفاته تقدر بأربعة عشر قرية علاوة على منزل حضرى ومزرعتين يحوار القصر الملكى بالقرب من هرمه وعلاوة على ما وقفه على قبره من ايراد اثنتى عشرة قرية أخرى^(٢). ومما هو جدير بالذكر أن الملوك كانوا يعينون أولادهم في ادارة البلاد ولذلك لم تكن معيشة هؤلاء الأمراء هنية خصوصا وأن بعضهم كان يشغل مراكز حكومية صعبة شاقة.

ورغما عن رفعة منزلة فرعون مصر واعتبار قومه له إلهما فقد كان متين الصلة بأمرائه ببلاده لأن فراغة مصر كانوا يتلقون علومهم مع أولاد الأمراء ويتمنون معا على الألعاب الرياضية كالعوم^(٣). ولا بد أن هذه الرابطة كانت شديدة التأثير في نفوس الفراعنة لأن أحدهم سمح بزواج ابنته لرفيق له في الدراسة^(٤) فتمكن هذا الأخير بذلك من تقبيل القدم الملكى وحيازة الشرف الكبير بعد ما كان يتعذر عليه تقبيل الأرض بين قدمى ملكه^(٥). وليلاحظ أن علاقات الملك الرسمية كانت مخالفة لعلاقاته الشخصية مع الرعية. فالأولى كانت تحتم على كل شخص أن يظهر احترامه وولاءه للشخص الملكى، أما الثانية فكانت عارية عن الكلفة. لذلك كان الملك مع جلاله يتجاثب بغاية الحرية مع أصحابه مدة من الزمن ويسمح لعبيده أن يدهنوا جسمه وأجسام أصحابه بالروائح العطرية الطيبة الذكية^(٦). وقد تتوطد العلاقة أكثر من ذلك فيتزوج فرعون مصر ببناته أحد رعاياه ولا يبعد أن يساعدها الحظ فتصبح ملكة البلاد الرسمية ويتولى ابنها الملك بعد أبيه^(٧). ومما يظهر لنا شدة تعلق ملوك تلك العصور بوزرائهم وحاشيتهم ما ورد في الآثار عن حادثة حصلت وقتما كان أحد الفراعنة يتفقد بناء شامخا مصحوبا بوزير العمارة، فبينما كان جلالته الملك يمتدح البناء ويشكر وزيره المخلص على حسن صنيعه لاحظ أن وزيره لا يلقى إليه فصاح الملك متألما بين حاشيته فنهضت لوقتها وحملت الوزير الى القصر الملكى حيث استندعى الملك رؤساء الكهنة والأطباء واستحضرت اللفائف الطبية اللازمة فلما حضر الأطباء قرروا أن حالة المريض لا يرجى منها فتكدر الملك لذلك كثيرا واختل في حجراته متضرعا للعبود رجا شفاء وزيره. وبعد أن فارق الوزير الحياة أمر الملك بعمل الاحتفال اللائق لدفن هذا الأمير ووضع جثته في تابوت من خشب الآبنوس وأظهر رغبته في الحضور شخصيا وقت دهان الجثة. ثم عهد لابن المتوفى في بناء مقبرة كبيرة لوالده ووعد

(١) Cairo stela, 1787. (٢) ١٩٠٠-٩ (٣) ٢٥٦:١ (٤) ٢٥٤:١ ملاحظة (٥) ٢٦٠:١

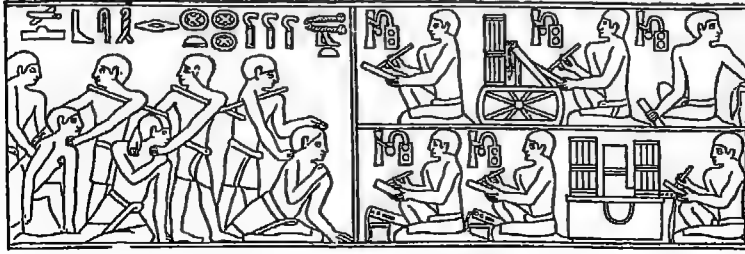
(٦) ٢٧٠:١ (٧) ٣٤٤:١

بالمساعدة الملكية^(١) . هذا كله يكفى أن يظهر لنا متين الاخاء والصحبة التي كانت بين الفراعنة ورعيّتهم . واجتهد ملوك الأسرة الرابعة وأوائل الأسرة الخامسة في توطيد العلاقات بينهم وبين حاشيتهم حتى صاروا كأ أسرة واحدة مرتبطين ارتباطا كبيرا فكان الملوك يساعدون رجال حاشيتهم في بناء مقابرهم وتجهيزها باللائم ويهتمون براحتهم ونعيمهم في الدنيا والآخرة . وللاحظ أن سلطة فرعون كانت مطلقة نظريا فيما يتعلق بإدارة القطر ، وفي الحقيقة كانت مقيدة بعدة عوامل مختلفة كالقرباة والحزبية والشخصية والنسوية وهو أمر كثير الحصول في البلاد الشرقية . ومن الصعب علينا أن نتبع هذه العوامل الى أبعد من هذا العصر الذي تتجلى فيه بوضوح أحوالها السياسية الداخلية على مرور الأجيال . ورغم من وسائل الراحة والترف التي كانت موفرة وقتئذ فإن الفراعنة لم تنش معيشة الكسل والاستبداد كما فعل الممالك ، بل عيّن ملوك الأسرة الرابعة أبناءها رؤساء لبعثات الحفائر الحجرية أو المعدنية أو وزراء أو رؤساء وزارات قبل استلامهم مقاليد الحكم ، ولذا كان ملوك ذلك العصر متعلمين مستنيرين عارفين للقراءة والكتابة ولأصول المحاملة والتجربة . خذ مثلا ما ورد عن أحدهم أنه خط بيده خطابا شكر فيه أحد موظفي حكومته على جدارته وكفايته^(٢) . وكثيرا ما كان الملوك يدعون وزراءهم ومهندسيهم للتداول معهم فيما يلزم البلاد وعلى الأخص ما يتعلق بتوزيع المياه وأمور الري . ثم إن رئيس المهندسين كان كثيرا ما يعرض مشروعاته الزراعية المختلفة الخاصة بالضيايع الملكية على ملكه ، فقد ورد أن أحد هؤلاء الرؤساء تناقش مرة مع الملك بشأن حفر بحيرة كبيرة طولها ألفا قدم تقريبا في إحدى المزارع^(٣) . وجرى العادة أن الفراعنة كانوا يطلعون على أوراق حكومتهم الرسمية ثم يملون على كتابهم الأوامر لارسالها الى القواد المصريين بطورسيناء وبلاد النوبة وبونت التي هي جنوب البحر الأحمر . أما ملخص دماوى الوراثة المرفوعة من الرعية فكانت تعرض أحيانا على الملك ، لكن العادة أن الوكلاء الملكيين هم الذين يتصرفون في مثل هذه الأمور . وبعد الفراغ من الأشغال اليومية كان الملك في جلاله يركب هودجه الملكي مصحوبا بوزيره وحاشيته ليتفقد المباني والأشغال العمومية . لذلك كانت سلطة جلالته ممتدة الى كل مشروعات القطر الهامة .

وجرت العادة أن تشيد الفراعنة أهرامهم بالقرب من قصورهم على حافة وادى النيل الغربية بجوار الصحراء وأن تحاط هذه القصور بمنازل أفراد الحاشية والخدم الملكي . ولما كان فن البناء في عهد الأسر الأولى بسيطا تيسر للوك اختيار أية بقعة من الوادى مقر لهم بجوار أهرامهم . وفي مدة الأسرة الثالثة اتخذ الفراعنة مدينة منف عاصمة لهم واستمروا في تشييد قصورهم بها مزدوجة البناء أو مزدوجة المدخل — على الأقل — مشيرين بذلك الى ضم الوجهين القبلى والبحرى تحت حكم واحد ، ومطلقين على كلا المدخلين اسما خاصا ، فأحد مدخلى قصر سنفرو مثلا كان يدعى "تاج سنفرو الأبيض المحترم على الباب الجنوبى" أما المدخل الآخر للقصر نفسه فكان يدعى "تاج سنفرو الأحمر المحترم على الباب الشمالى"^(٤) . وللاحظ أن وجه القصر الملكى عرف وقتئذ "بالوجه المزدوج" ورسم هذا

(١) ١-٢٤٢: ٩ (٢) ٢٦٨: ١ - ٢٧٠ و ٢٧١ (٣) شرحه . (٤) ١٤٨: ١

القصر على شكل منزلين متلاصقين . أما ديوان الحكومة داخل القصر الملكي فكان يعرف "بالادارة المزدوجة" على رغم عدم احتمال وجود ادارتين كما يشير اليه هذا الاسم . ويرجح أن تجزئة ادارة القطر المصري بين وجهيه لم تذهب الى أبعد من التجزئة الاسمية وان كثرت الاصطلاحات الادارية "كالشونة المزدوجة" اشارة الى الشونة الملكية و"البيت الأبيض المزدوج" اشارة الى ديوان المالية وكأنهم حافظوا على هذا الازدواج الاسمي في مصالح الحكومة مع أن وجهى مصر متضمان معا تحت ادارة واحدة احتراما للقديم الراسخ في الأذهان . أما القصر الملكي ودواوين الحكومة المحيطة به والتي تتفرع منه ادارة أقالم المملكة فكانت تعرف "بالبيت الكبير" .



شكل ٢٦ - جمع الضرائب بواسطة موظفى المالية : يشاهد في القسم الأيمن كتاب وضباط مالون يقيسدون الإيراد . ويرى بالقسم الأيسر عمال المالية (الصيارفة) مزودين بالنص يحضرون الأهالى لدفع الضرائب .
وفوق هذه الرسوم نقوش هذا تعريبها "القبض على حكام الأقالم للحساب"

وتسهيلا لبسط نفوذ الحكومة على جهات القطر قسمت مصر الى أقسام صغيرة بلغ عددها في الوجه القبلى حوالى عشرين قسما تقريبا وفي الوجه البحرى في العصور الأخيرة ما يماثل ذلك . والمظنون أن هذه الأقسام بقايا الامارات التي كانت موجودة قبل حكم الأسر والتي تكونت منها المملكة المصرية فيما بعد . أما حكام هذه الأقسام فكانوا يعينون في عهد الأسرتين الأولى والثانية بأمر ملكي ويلقبون نواب الملك ويعهد اليهم بالادارة والقضاء في أقسامهم ولقبوا أحيانا "بالقضاة" . ودائنا الآثار على وجود مجلس مؤلف من عشرة "حكام من الوجه القبلى" يلقب "بالرؤساء العشرة العظام الجنوبيين" امتاز أعضائه على سواهم من حكام الأقسام الجنوبية بعائو المتزلة، ويظن أن هذا المجلس كان أشبه بـ لجنة ادارية مخصصة . ومع ضالة معرفتنا بأنظمة الوجه البحرى فاننا نرجح أنه كان منظمًا اداريا كالوجه القبلى تماما الا أنه كان أقل أقساما . والمعروف أنه كان لكل حاكم قسم ادارة صغيرة يرأسها تقوم باختصاصات الحكومة في قسمها كالمالية والقضاء والادارة ومساحة الأراضى واقامة الجسور وحفر الترعى والشُرط ومخازن التوين ، ولذلك تطلبت ادارة كل قسم عددا كبيرا من الكتبة والمسجلين ومقدارا عظيما من السجلات والقوائم . ولا يخفى أن أهم عامل في تنظيم وتوحيد ادارة الأقسام هو ادارة الأموال الواردة الى ادارة الحكومة المركزية كالضرائب السنوية من حبوب وغنم وطيور ومصنوعات وغير ذلك مما يجمعه حكام الأقسام من سكان البلاد . والسبب في توريد هذه المواد الى الحكومة هو عدم استعمال العملة وقتئذ . ثم ان محصولات القطر كانت

تضبط وترسل بها كشوف لتقيد بعاصمة الملك كما كانت ترسل أيضا الى المالية للراجعة ، وأما المعاملات كتسجيل الأراضي ومسائل الري والأحكام القضائية والادارية فكانت ترسل كلها الى مركز الحكومة العام لمراجعتها . ولما كانت الادارة المالية أمّن الروابط بين القصر الملكي وأقسام القصر الملكي فقد عهد في ادارتها الى موظف لقب "برئيس أمناء المالية" يقطن القصر الملكي ويساعده اثنان للاشراف على أفرع المالية المتعددة وعلى الأخص العدن والعمارة اللذين كانا مرموقين بعين الاهتمام في القطر . وقد عرف هؤلاء المساعدون باسم "صرافى المعبود" — أى الملك — وكان يعهد اليهم فى الاشراف على قطع الأحجار من المحاجر وتشيد المعابد والأهرام وغيرها وقيادة بعثات العدن الى شبه جزيرة طورسيناء .

ولا يخفى على القارئ أن أهم واجبات حكام الأقسام كانت الادارة . أما القضاء فكان عملا إضافيا . ولم يوجد بين القوم وقتئذ من اخصن بالقانون ، لذلك كان يشترط فى حكام الأقسام الاسام بالقانون والقيام بأعمال القضاء فى دائرة اختصاصهم . أما تنفيذ القانون فكان تحت اشراف ست دوائر قضائية فى القطر المصرى مكوّنة من أعضاء متضلعين فى المهنة تحت ادارة رئيس الحقانية الأكبر . وكان كثيرا ما ينعت القضاة أنفسهم "بالمتمتعين الى بلدة نخن" — المعروفة عند اليونان بهيرا كونيوليس — وهو لقب يرجع تاريخه الى العهد الذى كانت فيه هذه المدينة عاصمة الوجه القبلى . أما القانون فكان غاية فى الاتقان والحكمة ، ومما يؤسف عليه أنه ضاع من الوجود . والمعروف أن حكام الأقسام كانوا كثيرا ما يفتخرون بعدلهم فى القضايا المعروضة أمامهم ، وقد دونوا ذلك على جدر مقابرهم فقد جاء فى إحدى هذه المقابر ما ترجمته : "لم أحكم بين أخوين حكما يمنع أحدهما من تسلم ما يخصه من ميراث والده" (١) . ويظهر أن المتبع فى محاكم تلك العصور أن تقدّم اليها الدعاوى مكتوبة باختصار ، وقد امتدح ديودور هذا النظام كثيرا (٢) . ويوجد بدار التحف ببرلين درج بردى قديم يحوى حكما صادرا من قاض المدع كان يطالب بحقه فى ميراث (٣) ، ويعتبر هذا أقدم درج أثرى من نوعه معروف للآن . ودلتنا الآثار على قضايا خصوصية كان الحكم فيها رئيس الحقانية وأحد القضاة المتمتعين الى مدينة نخن (٤) . وجاء أيضا فى بيان قضية اتهمت فيها ملكة بالخيانة أن الحكم فيها صدر من قاضيين متمتعين الى مدينة نخن عينا بأمر ملكى خصيصا لهذا الغرض ولم يكن رئيس الحقانية منهما (٥) . ولا شك أن هذه الحوادث تثبت شدة حرص الفراعنة على العدالة والانصاف ولولا ذلك لأعدمت الملكات الخائشات فورا بلا تحقيق بدلا من محاكمتن قانونا أمام العدالة ليلقين جزاءهن . والغريب أن حرص الملوك المصريين على العدل اضمحل الى نحو مائة سنة تقريبا . والمعروف أيضا فى أحوال خاصة سمح للتظلم أن يقدم شكواه باختصار الى الملك رأسا ليحكم فيها كما يستدل من الحكم القانونى المدون بدرج برلين البردى المذكور سابقا (شكل ٤٥) .

والوزير فى تلك العصور رئيس الحكومة والحقانية معا فكان لذلك بلى مرتبة الملك فى سياسة الدولة . ونظرا لخطورة ذلك المركز كان ملوك الأسرة الرابعة يسندونه الى أولياء العهد . وإلى هذا الوزير

(١) ٣٣١ : ٢٥٧ (٢) الكتاب الأول ٧٥ - ٧٦ (٣) Psp. des Kgl. Mus. 82-8. (٤) ٣٠٧ : ١ (٥) ٣١٠ : ١

كانت تحوّل كل المخاطبات الرسمية والمكاتبات الملكية^(١) الخاصة بتسجيل الأراضي والوصايا^(٢) . فكتب الوزير كان أشبه "بقلم السجلات" (الأرشيف) في حكومتنا الحالية . وقد عثرنا على وصية كاملة تقريبا لأحد أبناء ملوك الأسرة الرابعة^(٣) وأخرى يرجع تاريخها الى مبدأ الأسرة الخامسة^(٤) منقوشتين على جدر المقابر مضى عليهما ما ينيف على خمسة آلاف سنة . أما النص الأصلي المسجل في "قلم سجلات" الوزير فقد ضاع . وهناك وصايا أخرى أقل أهمية منها حفظتها لنا الآثار^(٥) . وجرت العادة اذا وهب ملك فردا من رعيته قطعة أرض أعلنت هذه الهبة بمرسوم ملكي مسجل في "المكاتبات الملكية" بديوان الوزير^(٦) .

وكانت ادارة القصر الملكي مقسمة نظريا على الأقل الى قسمين نسبة الى الوجهين القبلي والبحري ، ولذلك نجد بين أخبار الإدارة المالية اصطلاحات "كالشونة المزدوجة" وبين أخبار القصر الملكي ما يعنى "الإدارة الملكية المزدوجة" . والمرجح أن تقسما كهذا كان موجودا في إدارة القصر الداخلية أولا ثم انعدم على توالى الأيام فلم يبق منه الا الذكرى . ومعلوم أن الوزير كان أكثر رجال المملكة المصرية تبعه لأنه كان الرئيس المباشر لأعمال موظفي الحكومة الفرعونية كافة من اداريين وكتبة من أكبر كبير الى أصغر صغير . زد على ذلك أنه كان يتولى الاشراف على عدة أمور ثانوية خاصة بالدولة . وكان يشترط فيه فوق ذلك أن يكون بارعا في فن العارة حتى كان كثيرا ما يلقب "برئيس أشغال الملك" . ولما كان هذا التفوذ الحكومى العظيم منحصرا في هذا الوزير كان القوم كثيرا ما يعمدون اليه ليفصل في دعاويهم وهو الشخص الوحيد الذى يقيم الحق ويحقق الباطل . ولا غرابة أن نجد هذا الوزير أكثر موظفى الملك محبة في نفوس الرعية . ويرجح أن الرجل العاقل العظيم المدعو **إحْتَبُ** كان شاغلا لهذا المركز أيام الملك زوسر ، وكذا الفيلسوفان العظيمان **قَافِنَه** و **يَتَاحُ حُوتِب** اللذين يرجع تاريخهما الى الأسرة الثالثة واللذين تداول القوم حكمهما عدة قرون بعد عهد المملكة القديمة . ولشدة احترام هذا المركز في نظر الرعية كان القوم يذكرون أحيانا بعد اسم صاحبه دعاء "بالصحة والسلامة والعافية" كما يذكر عادة بعد أسماء الملوك وأعضاء الأسرة المالكة .

هذا هو النظام الداخلى الذى جرت عليه المملكة القديمة في القرنين الأول والثانى من عهدها كما يستدل من الآثار . والحق يقال أن هذا النظام بلغ درجة وطيدة في القرن الثلاثين قبل الميلاد بفضل مهارة موظفى الحكومة وأن هذه الدرجة لم تبلغها أوروبا الا في أواخر الحكم الرومانى . ويتلخص هذا النظام في تقسيم البلاد وتعيين موظفين لكل قسم للإشراف على إدارة شؤونه تحت سلطة الحاكم الذى يتلقى أوامره من مركز الحكومة العام بالقصر الملكى . وبديهي أن قوة الحكومة وهيئتها ترتبنا على كفاية فرعون الادارية ومهارة حكام أقاليمه . فاذا ضعفت مراقبة فرعون للأمر الادارية والسياسية ولو قليلا شعر حكام الأقسام بشيء من الاستقلال فلا ينصاعون كثيرا لأوامر الملك وينتج

(١) ٢٦٨ : ١ ملاحظة ٢٧٣ (٢) ١٧٥ : ٢٤ - ١٦ (٣) ١٩٠ : ١٩٩ - ١ (٤) ٢١٣ - ٢١٧

(٥) ٢٣١ : ١ ملاحظة وغير ذلك في نصوص الأسرتين الخامسة والسادسة (٦) ١٧٣ : ١

عن ذلك تفكك عرى المملكة . ولما كان هذا النظام يقضى بأن يكون حكام الأقسام كل منهم هو الوسيط الوحيد بين فرعون ورعيته نجم عنه أحيانا مخاطر يؤهبه لها ، كأن يعلن قسم أو أكثر استقلاله عن الحكومة المركزية وينفرد حاكمه بالسلطة المطلقة . وقد حصل هذا فعلا في عهد المملكة القديمة كما سيتضح في الفصل التالي . ولا يبعد أن يكون هذا التفكك في عرى المملكة راجعا الى عدم وجود قوة عسكرية ثابتة تحت اشراف الحكومة المركزية مباشرة . نعم ان كل قسم من أقسام مصر كان له رديف معلوم تحت ادارة موظفين ملكيين غير محنكين حربيا لكن هذه القوة لم تكن ثابتة ولا تابعة مباشرة لادارة القصر الملكي . ولعدم مهارة قواد هذه القوى في الفنون الحربية كانت ميزتها العسكرية معدومة تقريبا . ومعلوم أنه كان لكل معبد رديف تابع له يستعمل في قطع الأحجار والعدن ونقل الأحجار ولوازم العمارة الخاصة بالمعابد تحت اشراف "صراف المعبود" .

وفي حالة الحرب يحنّد رديف الأقسام والمعابد والنوبة ويضم بعضها الى بعض تحت قيادة ضابط كبير يعينه ملك البلاد . ولما كان حاكم كل قسم مسؤولا عن حركات رديفه كانت قوة فرعون مشتتة بين هؤلاء الحكام .

واعتبر القوم فرعونهم صاحب الحق المطلق على معظم أراضي القطر . أما خدام الأراضي من حرائين وحصادين وغيرهم فكانوا من طائفة الخدم أو العبيد التي شملت الجزء الأكبر من الرعية وكانوا يشتغلون تحت مباشرة موظفي حكام الأقسام . ويستدل من الآثار أن هؤلاء الخدم أو العبيد اعتبروا تابعين للأرض التي يخدمونها ولذلك جزئت عليهم الأراضي^(١) . ولم نعرف بالضبط احصاء بعدد السكان وقتئذ وليس لدينا وسيلة تمكّتنا من ذلك وكل ما اهتمينا اليه أن هذا الاحصاء بلغ في العهد الروماني سبعة ملايين نسمة^(٢) . والمعروف أن جزءا كبيرا من أراضي القطر كان ملكا لأفراد الأسر المالكة ونسل الملوك قبل عهد الأسر ، وهؤلاء الملوك من الأمراء لم يشترط أن يكونوا موظفين حكوميين أو حكام أقسام فقد كان بعضهم عديم الصلة بالادارة . واعلم أن سكان القطر لم ينقسموا الى أمراء وعبيد فقط بل كانت هناك طبقة متوسطة احتكرت الصنائع والفنون الجميلة وبرت فيها كثيرا ولا تزال نجهل الشيء الكثير عنها ، وسبب جهلنا هذا يرجع الى عدم متانة مقابر هؤلاء القوم والى استعمالهم الورق البردي في معاملاتهم بكثرة ، وقد فقد هذا الورق كله تقريبا . وتدلنا أخبار العصور التالية أن المملكة القديمة كانت تحوى صناعات وتجارات يتداولون بضائعهم . ويرجح كثيرا وجود ملاك أحرار لبعض الأراضي من غير الأمراء .

ورابطة الأسرة كانت أهم روابط الاجتماع وقتئذ كما هي الحال في التوارين الحديثة ، واقتضى قانون تلك العصور العتيقة ألا يتزوج الرجل بأكثر من واحدة وأن أطفال هذه الزوجة هم ورثته الشرعيون . وسادت الزوجة الرجل في كل أمر وكانت تعامل بكل احترام دائما كما أنها كانت تشاطر بعلمها وأولادها في أفراحهم . وكثيرا ما تشاهد علاقات الود والمحاملة بين الأمراء وزوجاتهم منقوشة على آثارهم . والغالب أن هذه العلاقات نشأت بين الطرفين منذ نعومة أظفارهما لأن القوم على اختلاف طبقاتهم

اعتادوا أن يزوجوا الأخ لأخته وأن يعتبروا أخته زوجته الشرعية ورئيسة منزله . لكن هذا لم يمنع الرجل من الاقتران بأكثر من واحدة غير شرعية . ولم يعتبر تعدد الزوجات شائنا وقتئذ بل كان عاديا كما هي الحال الآن في البلاد الشرقية . وما أكثر احترام الأطفال في تلك العصور لأبائهم فقد لازم الابن خدمة قبر والده بعد وفاته . زد على ذلك أن القوم كانوا كثيرى الافتخار بفرط حب أفراد أسرهم لهم ، واليك ترجمة ما ورد في هذا الصدد في مقبرة أحدهم : "كنت محبوا لى والدى ووالدى واخوى وأخواتى" (١) . أما الوراثة فكانت تنتقل عادة عن طريق أكبر البنات سنا كما هي العادة في كثير من الأقوام ما لم ينص على غير ذلك في وصية سابقة . وأمتن روابط الأسرة هي الخاصة بالأم فكان الشخص يفضل وقت ضيقه حماية جده من أمه عن حماية والده . وما أكثر تكرار التذكير بحبة الابن أمه التي حملته وأرضعته وأراحته وخدمته واعتنت به وقت دراسته . وقد بغض القوم الزنا ومقتوه . ولما كانت رابطة الزواج بين العبيد والفقراء ضعيفة في بعض الأحيان لضيق اليد كان الطلاق بينهم كثيرا وسهلا بنسبة ما كان حاصلًا بين الأغنياء . قال أب لابنه ما ترجمته "احترس يا بنى من المرأة الأجنبية المجهولة في بلدها فهي كالبحار العميقة التي لا يعرف لها قرار . واعلم أن المرأة البعيدة عن زوجها تكتب لك كل يوم وترى لك شركها في غيبة الرقيب ، فاحترس من الوقوع فيه لأن ذلك جناية فظيعة لمن يتعظ" (٢) . ولذلك اعتبر القوم الزواج أصون شيء للشباب . لكن هذا الوصف لا ينفي وجود الجرائم والموبقات بين القوم وقتئذ رغم هذه النصائح الأدبية الشريفة .

ومظاهر الحياة بين طبقة الفقراء لم تكن شريفة سامية ، فنمازهم كانت مشيدة باللبن ذات عُرْش بسيطة ومتلاصقة ولا يتجاوز أثاثها عادة مقعدا بسيطا وصندوقا أو صندوقين رديئى الصنع وبعض الخزف . أما رباعُ العمال فكانت كبيرة مشيدة باللبن مقسمة الى حجرات متصلة بممر طويل . وهذه الرباع كانت تشيد في مدن الأهرام والقرب منها . والظاهر أن معيشة الزراع كانت أكثر حرية وصحة ونعما من معيشة عمال الأهرام ومدنها (خريطة رقم ١) .

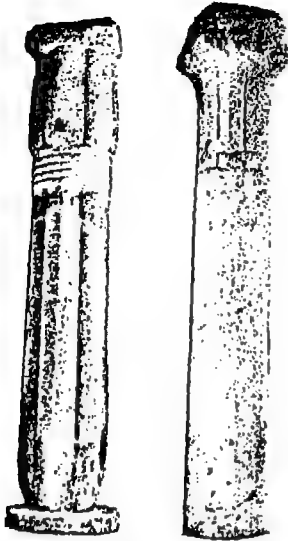
أما منازل الأغنياء والموظفين فكانت كبيرة حاوية وسائل النعيم . فقد جاء أن أحد أمراء الأسرة الثالثة المدعومين كانت يقطن منزلا تربو مساحته على ثلثائة وثلاثين قدما مربعا (٣) مشيدا بالأخشاب واللبن المجفف في الشمس فكان بذلك بناء خفيفا طلق الهواء مناسب لطقس القطر . ولكثرة منافذ الجدر ذات الثقوب العديدة في حجرات المسكن أصبحت المنازل شبيهة بهيكل الانسان العظمى كالأبنية اليابانية ، فاذا هبت الزوايع سدل القوم ستائر من حرقة على منافذ بيوتهم . ويلاحظ أن بناء قصر الملك لا يختلف كثيرا عن هذا التركيب الخفيف لكنه كان محصنا من الخارج . لهذا السبب انمحت آثار مدن مصر القديمة فلم يبق منها الا أسفل جدران المهذمة . وأهم أثار هذه المنازل السرر والمضاجع والمقاعد والصناديق الآبنوسية المطعمة بالعاج بأحسن ما جادت به أيدي الحرفاء الماهرة . ولم تكن الموائد كثيرة الاستعمال الا أن الأواني المرمرية الثمينة أو المصنوعة من الأحجار الأنياسية أو النحاسية أو الذهبية أو الفضية كانت مرفوعة على حوامل عالية عن الأرض .



شكل ٥٨ - رأس نمر ذهبي
وجد بمدينة هيراكونبوليس
(دارتحف القاهرة)



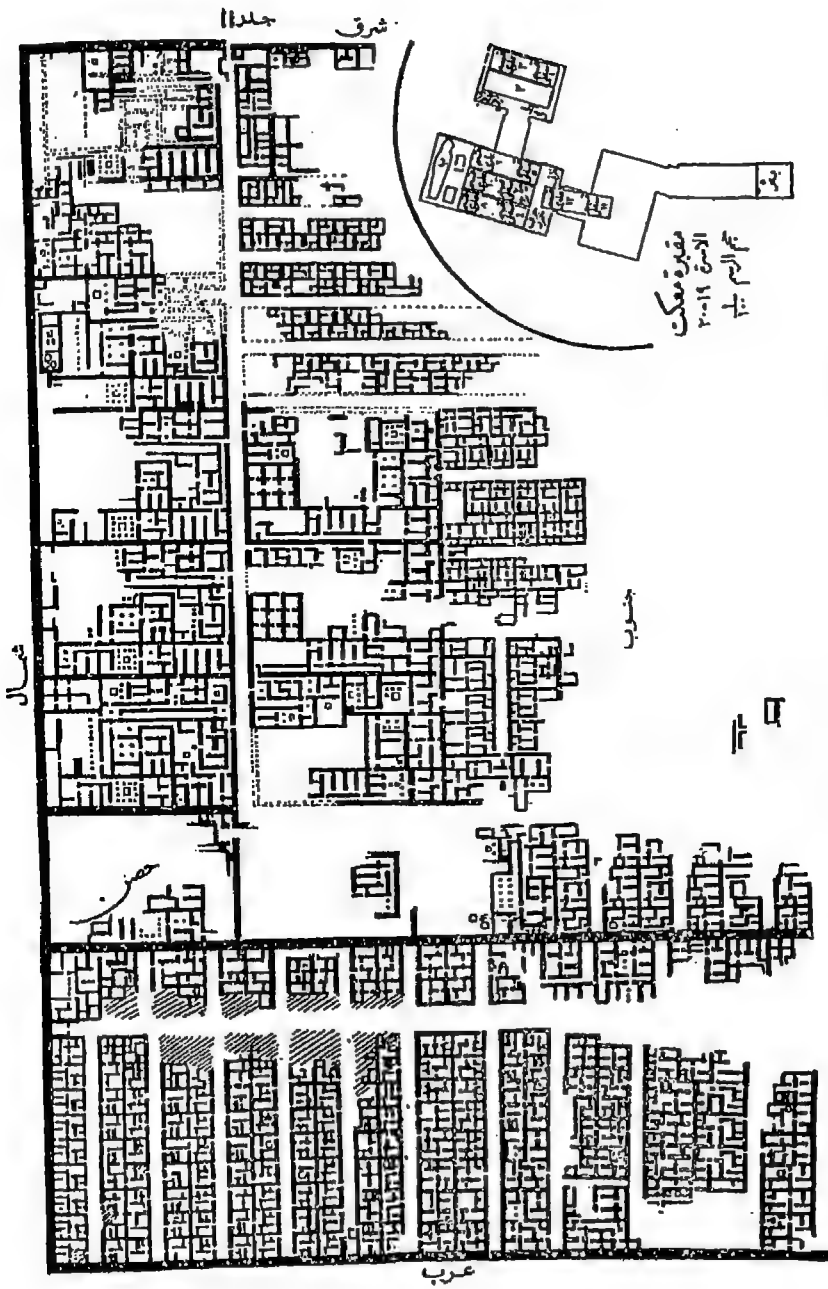
شكل ٥٧ - رأس أسد مصنوع من الجرانيت
(دارتحف القاهرة)



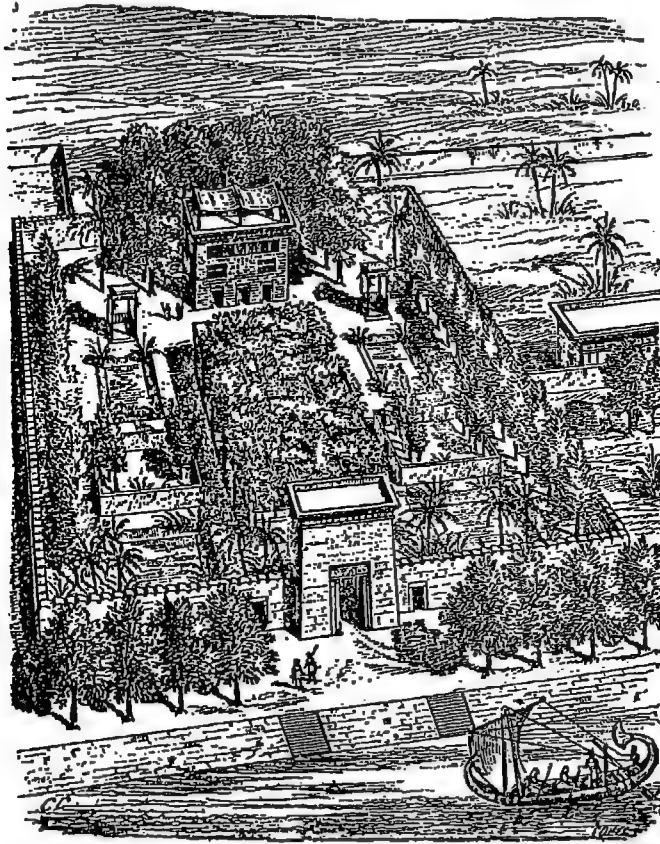
شكل ٦٠ - صورة عمودين للأمره
الخامسة . العمود الأيمن مصنوع على
شكل نخلة والأيسر على شكل طاقه
من البردي (دارتحف برلين)



شكل ٥٩ - صورة بارزة على لوح خشبي لشخص
يقال له حسي رع - (دارتحف القاهرة)



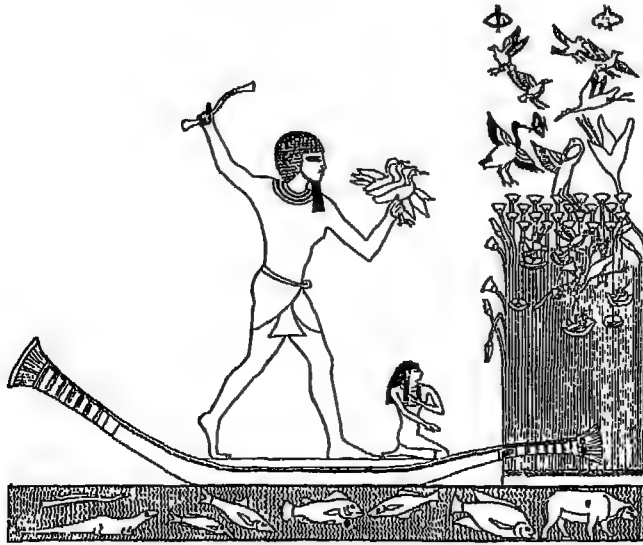
وغطى القوم أرضهم بالأبسطة السمكة واعتاد النسوة على الأخص تفضيلهن الجلوس عليها من المضاجع والمقاعد . أما الغذاء فكان متقنا متباين الألوان . واعتاد القوم أن يقفوا على أرواح بعد وفاتهم أنواع الأغذية الكثيرة، واليك بيان ما جاء بوصية أحدهم لتوزيعه بقبه : "عشرة أنواع اللحم وخمسة أشكال من الطيور وستة عشر صنفا من الخبز والكمك وستة أنواع من النيذ وأر أشكال من البجة وأحد عشر صنفا من الفواكه . علاوة على أنواع الحلوى العديدة وغير ذلك")



شكل ٣٧ - قصر وحدقة لئيل مصرى من عهد الملكة القديمة (ماخوذ عن برود وشييه)

ولم يرتد الوجهاء الا ملابس بسيطة للغاية عبارة عن معطف مثبت حول الوسط وواصل الى الرك أو الساقين . واعتاد القوم ان يحلقوا رؤوسهم بالموسى وأن يضع سراهم على رؤوسهم فى الحفلة الرسمية فلانس شعرية . ولهذه الفلانس نوعان أحدهما قصير الشعر أجعده وآخر طويله وناعمه مف فى وسطه . وكانوا يتحلون بقلاند ذهبية حرصة بالجواهر الكريمة . أما باقى الجسم من الوسط فما فكان طاريا . وهذه الهيئة اعتاد سراة القوم مقابلة زائريهم وتفقد أعمال مزارعهم قابضين على .

طويلة في أيديهم . أما ملابس نسوة السراة وأولادهم فكانت أبسط من ملابس الرجال وهي عبارة عن مهلهل ضيق غير مكتمل مصنوع من الكتان الأبيض كاس للجسم من الشدين الى القدمين ومثبت فوق الكتفين "بشريطين" . والجزء الأسفل من ملابس السيدات ضيق بالنسبة للاستعمل في عهدنا هذا بحال عافت سهولة المشي . أما حلى النسوة فعبارة عن قلنسوة طويلة الشعر وطوق وقلادة وأساور . ولبس القوم الخلف أحيانا لكنهم لم يتقودوه . ونظرا لحرارة الجو كان الأطفال كثيرا ما يعيشون بلا ملابس . واكتفى الفلاحون برداء بسيط ساتر للعودة مثبت بالوسط لكنهم

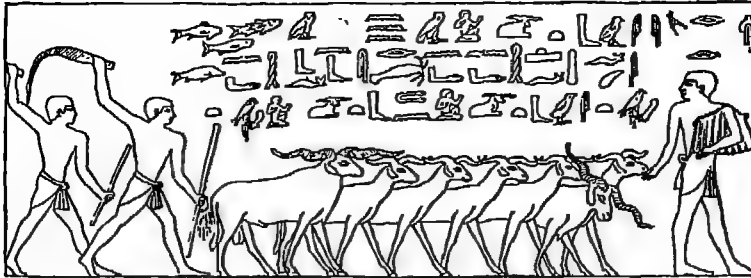


شكل ٣٨ - نيل من عهد الملكة القديمة يصطاد وحش الطير بعضى منيرة وهو واقف في سفينة من اليوس تمر في مستنقعات البردى

كانوا كثيرا ما يخلعونه وقت القيام بأشغالهم في الحقول . اما نسوتهم فكان يرتدين قميصا طويلا ضيقا شبيها بلباس نسوة السراة ولكن يساعدن أزواجهن كثيرا عاريات في أعمالهم الشاقة كالخصيد وذر الحبوب .

وكان المصري قديما ولوعا بالطبيعة والمعيشة الخلوية فكانت منازل السراة تحيط بها الحدائق الحاوية لأشجار التين والنخيل والجوز والعنب وغير ذلك . وتوجد أمام هذه المنازل فدران صناعية مبنية الخفاف مملوءة بالأمساك . أما خدم هذه القصور فكانوا عديدين ، اختص بعضهم بخدمة القصر واقتصر الباقي على الحديقة ، وكان الكل يشتغلون تحت مراقبة "رئيس الخدم" (شكل ٣٧) المسئول عن نظام القصر والحديقة معا . وخدم الحديقة رئيس ثان مهمته العناية التامة بالأشجار . هكذا كان الأمراء يتمتعون في منازلهم صارفين أوقات فراغهم بين نسوتهم وأولادهم لاعبين "الداما" أو مستمعين لأشجان الآلات الموسيقية كالقيثارة والمزمار والطنبور أو متفرجين على رقص نساءهم الرشقات

ولعب أولادهم بين الأشجار أو خوضهم المياه . وكانت الأطفال كثيرا ما تلعب الكرة ويتسلق بعضهم ظهور البعض ولوحظ أن الأمراء كانوا ولوعين بالرياضة مع زوجاتهم وأولادهم في قوارب صغيرة من سيقان البردى في المستنقعات والبرك النيلية تحت ظلال الأعشاب الطويلة . وما أشد ولوع القوم بالمعيشة بين ملاين الحيوانات الصغيرة بتلك المستنقعات حيث كانت الزوجة تقطف أزهار السوسن واللوطس والابن يجتهد في صيد الهدهد . أما الأب فكان يسذل جهده في صيد الطيور الوحشية بقضبان خشبية ملتوية . وقد تكثر الطيور حتى توجب السماء ورغما من صعوبة القنص وقتئذ وما يحتاج اليه من نشاط وحركة كان الأمراء يفضلون استعمال القضبان الخشبية المذكورة على الأقواس والرماح . وهوى الأمراء أحيانا صيد البحر فاستعملوا لذلك قضباناً طويلة تنتهى بسلاح



شكل ٣٩ - الزراعة في عهد الملكة القديمة : يشاهد في القسم العلوي من الرسم طريقة الحرث وبذر الحبوب . أما القسم السفلي فيشاهد فيه أغنام ورعاتها سائرة على الأراضى المبدورة بقصد غرس الحبوب في الأرض . ويشد الراعى الأول وقت اختراقه المستنقعات الأنشودة الآتية المدونة هنا :
" الراعى يخوض الماء وسط الأملاك محادنا سمك النعل ويمضى النهار محادنا سمك الغرب . . . "

ذى حدين واجتهدوا في صيد سمكتين بالحدين دفعة واحدة (شكل ٣٨) . وقد يعترض التزهة أحيانا جاموس البحر الشديد أو تمساح عنيد فيتغلب عليه الأمير بمجربة طويلة تنتهى بجبل ثم يستعين بصيادى الجهة فيطردون هذا الوحش الضارى من ذلك المكان . ولم يقتصر ولوع السراة على هذه الرياضة بل كثيرا ما قاموا برحلات خطيرة في الصحراء لقتل وحش الثيران بالحرايب أو لاقتناص الوعل والغزال والأيل والتيتل ووحش الشيران والحجير والنعام والأرانب ، أو لرؤية الحيوانات الوحشية الأخرى الغريبة التى تخيلها القوم وقتئذ كالعنقاء ذات الأربعة الأرجل والرأس الواحد والجتناحين وكالطيور التى لها رعوس النمر وتنتهى أذناها بزهر اللوطس ! هذه الأفكار المسلية التى جالت بأذهان المصريين وتعلقهم بالطبيعة ونظرهم الى الحياة من وجهة الفرح والسرور رغم مجهودهم العظيم الذى

ضحوا به لراحة موتاهم في الآخرة أثرت بوضوح في نفسية المصري فظهر ذلك في فنونه ومصنوعاته التي فاقت في الرق والجمل مصنوعات ومبتكرات ممالك آسيا المعاصرة .

ولنبحث الآن عن خيرات البلاد وحاصلاتها وتقدمها في عهد المملكة القديمة التي تقرب مدتها من خمسة قرون والتي كانت حكومتها ثابتة النظام قابضة على زمام الري معنية بالجسور والترع فنقول :
(ان حاصلات القطر ونتاجه بلغت وقتئذ أقصى درجاتها . وبدى أن الزراعة كانت ولا تزال أهم موارد الثروة في مصر . ويرجح أن الحضارة الاجتماعية والسياسية التي تكلمنا عليها سابقا ترجع الى كثرة الحاصلات الزراعية من القمح والشعير التي جناها الفلاح من أراضي واديه الفتية . ولم تقتصر خيرات هذا الوادي على الحبوب بل شملت أيضا الكروم الكثيرة والخضراوات الرطبة الغزيرة وقطعان الأغنام والبهائم والمعز والحيد والطيور والدجاج البري وحيوان الصحراء والسماك مما لا تحصى . أما الخيل فلم تكن موجودة . كل هذا زاد كثيرا في ثروة البلاد ، ولذلك كانت فلاحة الأراضي التي قام بها



شكل ٤٠ - قطع من البهائم يخوض غديرا . من عهد المملكة القديمة

ملايين السكان أهم أسباب زيادة ثروة البلاد ورفاهيتها سنويا . بل ذلك في الأهمية محاجر الجرانيت بالشلال الأول والأحجار الرملية جهة السلسلة والأحجار الصلبة الملسة جهة وادي الحمامات (بين فقط والبحر الأحمر) ومحاجر المرمر جهة حاثوب (خلف تل العمارنة) وغير ذلك من محاجر الأحجار الجيرية الكثيرة كالموجودة جهتي عيان وترويا تجاه منف . وقطع القوم الجرانيت من محاجر الشلال الأول كتلا كبيرة يتراوح طول كل منها بين عشرين وثلاثين قدما وتراوح زنتها بين خمسين وستين طنا . وقد أظهر المصريون مهارة مدهشة في نحت ونقش الأحجار الصلبة كالصوان (Diorite) بمعاول نحاسية وفي قطع كتل الجرانيت المستعملة لأغطية التوابيت بالمناشير والمناقب والمعاول وغيرها . أما العدن فبلغ شوطا بعيدا إذ بلغ عدد الفعلة القائمين بهذا الأمر بطور سيناء قدرا كبيرا . واستخرجوا النحاس والملاشيت الأخضر والأزرق (المستعمل للتطعيم الدقيق) والفيروزج واللازورد . ولم تهتد للآل إلى مناجم الحديد لكننا نعرف أنهم صنعوا منه آلات . أما البرنز فلم يكن مستعملا وقتئذ . وتقدمت صناعة المعادن فصنع القوم الآلات النحاسية والحديدية والأقفال والمسامير والرزز وأدوات الزينة على اختلاف أنواعها ، علاوة على الأواني النحاسية المطرقة التي استعملها الأغنياء على موائدهم

وكذا الأسلحة النحاسية . أما الصياغة فكانت دقيقة متقنة . ولما كانت الفضة تجلب بكميات قليلة من إقليم قيليقيا (Cilicia) بآسيا الصغرى أصبحت بطبيعة الحال أغلى قيمة من الذهب الذى كان كثيرا بين صخور الجرانيت على ساحل البحر الأحمر وفى وادى الفواخير على طريق قفط علاوة على ما كان يستخرجه الأجانب ويأتون به من صحارى النوبة الشرقية الغنية . ولم نهد للآن تقريبا الى مصوغات فرعون أو أمير من عهد المملكة القديمة لكننا نستدل من النقوش البارزة الموجودة على جدر محاريب المقابر أن صياغ ذلك العهد وخلفاءهم فى عهد المملكة المتوسطة تقدموا كثيرا فى الدقة والانتقان وسلامة الذوق بمرور الزمن منذ الأسرة الأولى (شكل ٤١) .

وخبرات وادى النيل كثيرة متنوعة تسد لوازم مصنوعاته المهمة ومع سهولة احضار أحجار البناء الجيدة شيد القوم عماراتهم فى معظم الأحيان باللبن المجفف فى الشمس كما يعمل الآن فلاحو عصرنا ، فشيّدوا به ربوع العمال وقصور الأغنياء والمستودعات والمخازن والقلاع وأسوار المدن وذلك لرخص



شكل ٤١ - - حوانيت السباكين فى عهد المملكة القديمة : يشاهد فى الجزء الأسفل من القسم العلوى طريقة وزن المعادن النفيسة والجوهر الملكى . وفى الجزء الأوسط رجال يوقدون على الحلى مستعينين على ذلك بأنابيب طويلة . وفى الجزء الأيمن مبد تلك الحلى وطرقها . أما القسم السفلى فيظهر طريقة تركيب القلائد وأدوات الزينة . ويلاحظ وجود الأفرام فى هذه المصانع

المادة وسهولة استعمالها ، وكان للبن مصانع مخصوصة . ونلحق وادى النيل من الغابات استعمل أهله أخشاب النخيل والجيز والأثل والسنتل لكثرة وجودها بالوادي رغم رداءة مادتها . ولدورة الخشب الجيد أصبح غالى الثمن ، ومع غلاته تقدمت التجارة كثيرا فأخذ أغنياء القطر يجلبون من سورية ما يلزمهم من خشب الأرز الذى صنع منه نجاروهم ما يدهش الناظر ويأخذ بلبه . وبرع صناع ذلك العصر فى صناعة خشب الآبنوس والعاج المستحضرين من الأقاليم الجنوبية . وانتشرت صناعة السفن فى كل مدينة ومزرعة كبيرة . ثم تعددت أنواعها فأصبح منها الضخم الكبير المستعمل لشحن البضائع والغلال والبهاثم ، كما صار منها القوارب البحرية البديعة ذات القلاع العظيمة والمجاديف العديدة التى استعملها الأمراء للتنعم والرفاهية . وسفن ذلك العصر أقدم سفن معروفة للآن طافت شواطئ البحر الأحمر .

وفي الوقت الذي كان الحفارون يصنعون فيه جميل الأواني والأوعية والجرار والأظرف والصحاف الكبيرة كان الخزاف يخرج بديع الأواني اللامعة ذات اللون الأزرق أو الأخضر الناصع فأخذت يجمع قلوب أهالي تلك الأزمنة حتى فضلوا تدريجاً على الأواني والأوعية الحجرية . وصنع الخزاف الزلع الكبيرة لتخزين الزيوت واللحوم وغيرها من أنواع الغذاء في مخازن الأمراء والحكومة . وانتشرت الأواني الخزفية بين ملايين الفقراء فأصبح لصناعتها مركز عظيم في القطر . وأواني هذا العصر ليست مزخرفة ولا متنوعة . واستعمل الزجاج في طلاء الخزف ولكن لم تعمل منه أوان أو أدوات . ولما كانت أراضي القطر زراعية كثيرة المراعى كانت صناعة الجلود بطبيعة الحال معلومة ، فقد دبح المصريون الجلود بمهارة فعموها وصبغوها بكل الألوان واستعملوها لأغطية المقاعد والمضاجع والوسادات كما صنعوا منها المظلات والستائر . وارتقت صناعة الكتان لكثرت بالقطر فوضعت مزارع فرعون الكنائية تحت إدارة أمير نيل . وغزل نساء الفلاحين الكتان ونسجه وصنع القوم



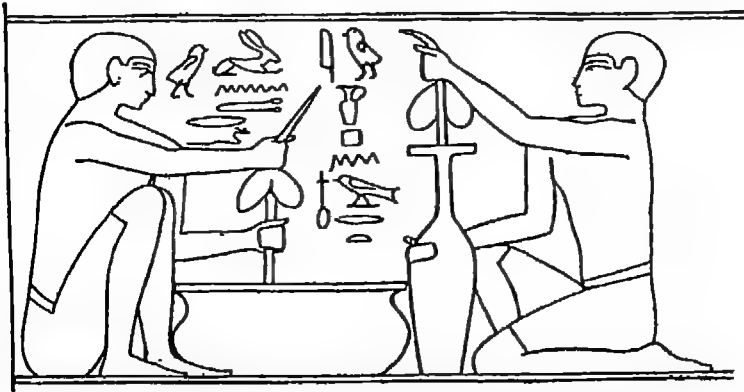
شكل ٤٢ - صناعة السفن في عهد الملكة القديمة

أنسجة كنائية خشنة متينة جيدة المادة ووصلت اليها أنسجة ملكية من هذه المادة غاية في الدقة والرفقة يصعب على الرأى تمييزها من الأنسجة الحريرية إذ تبدو تحتها أعضاء لابستها . واستعمل القوم غير الكتان نباتات أخرى نمو في المستنقعات والأباطح في صناعة منسوجاتهم الخشنة كالبردى . وصنعوا من البردى أيضاً قوارب خفيفة عريضة وذلك بضم سيقان النبات بعضها لبعض ، وصنعوا منها أيضاً الحبال يبدل تلك السيقان . واستعاضوا عن البردى أحياناً ليف التخييل لخلوه وصنعوا منه الحبال ، ثم ضفروا سيقان البردى فصنعوا منها الأخفاف والحصر . وأهم من هذا وذاك أنهم شقوا أوراق البردى قطعاً مستطيلة ثم لصقوها فكونوا بذلك الأدرج المعروفة . واستعمل ورق البردى والمداد بسهولة في المكاتبات وقتئذ كان من أعظم أسباب انتشار الخط الهيروغليفى وسريانه الى فينيقيا ثم الى سائر العالم المتمددين فاستعير منه حروف هجائية . وهكذا بعد ما كان القوم يكتبون بعضهم بعضاً بالنقش على الألواح الطينية التي يتراوح وزن كل منها بين الثمانية والعشرة الأرتال ويستعملون لذلك الخط المسمارى أصبحوا يستعملون ورق البردى لخفته وسهولة سحقه بين طيات الملابس على

الصدور ولكبر مساحته أيضا . كل هذه الميزات تظهر لنا السر في كثرة توريد الأدرج البردية من مصر الى فينيقيا في القرن الثاني عشر قبل المسيح^(١) وتبين أيضا سبب أهمية صناعة البردي في عهد المملكة القديمة .

وما أكثر المراكب والسفن التي غرت في مياه النيل وقتئذ مشحونة بخيرات البلاد الزراعية والصناعية قاصدة خزائن فرعون أو الأسواق التجارية . وتعامل القوم تجاريا بالمبادلة فاشترؤا الأواني الخزفية مثلا بالسكك والمراوح بالبصل والصناديق الخشبية بعباب العطر والدهان (شكل ٤٦) .

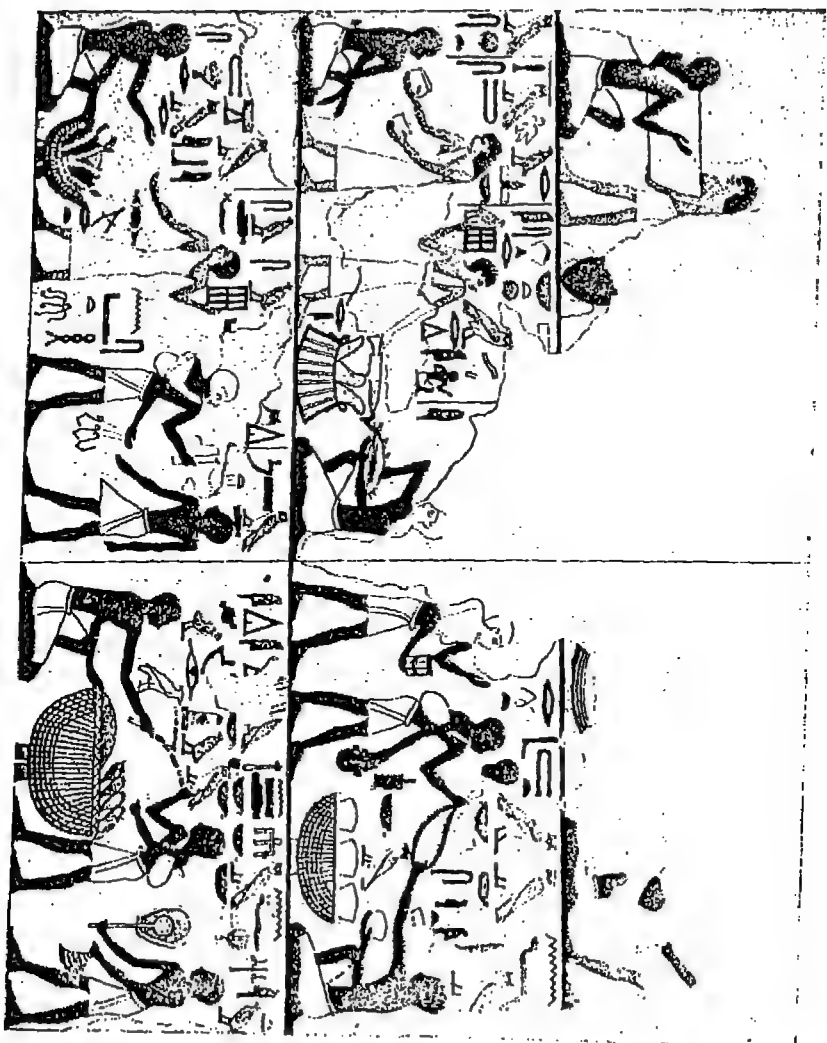
أما الأشياء الثمينة فكانت تشتري بخلقات ذهبية أو فضية ذات ثقل معروف وتعتبر أقدم عملة معروفة في التاريخ . وتوزن البضائع بمناقل حجرية منقوش عليها قيمة وزنها وهي على شكل حلقات أيضا . ولدورة الفضة كانت أغلى ثمنًا من الذهب . وتقدمت البلاد في التجارة والمالية في عهد المملكة القديمة



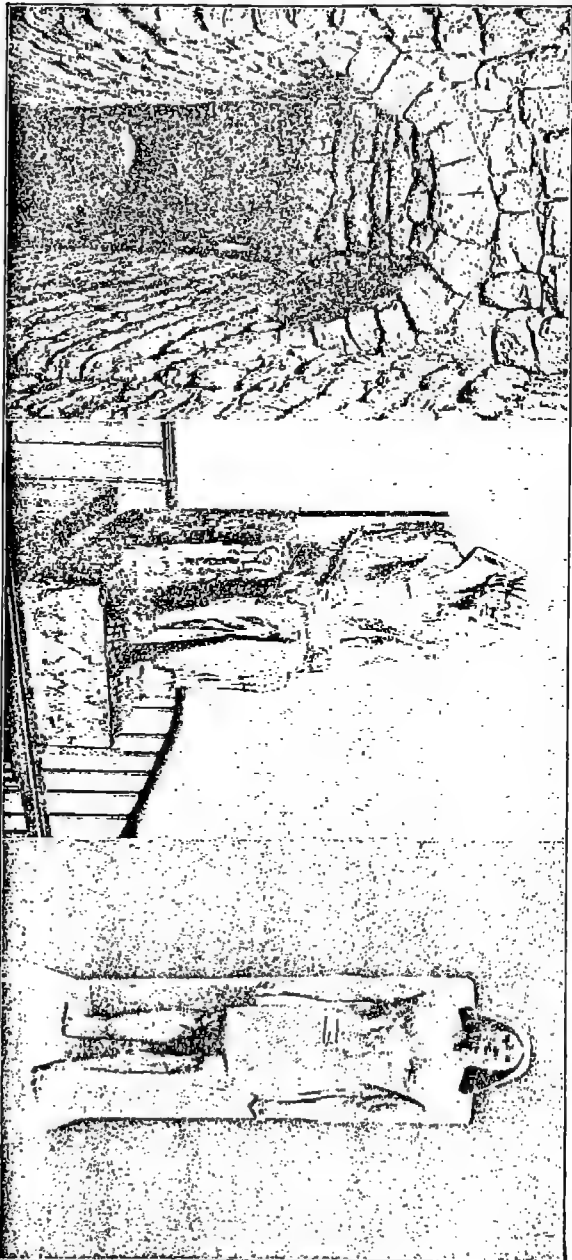
شكل ٤٦ - نحت الأواني الحجرية في عهد المملكة القديمة : تلاحظ بين الثعابين
نصوص هيرغليفية لمحات بينهما قال أحدهما فيها للآخر : " هذا آناه بديع للغاية "
فأجابه الآخر بقوله : " هو كذلك حقيقة "

فدونت المعاملات الخاصة بهذه المسائل في سجلات كما أن الطلبات والايصالات كانت لا تعتمد الا كتابة وكذا الوصايا والأعمال كانت تسجل للتأكد ومراعاة النظام . والعقود الطويلة المدة كانت تدون كاملة الشروط حتى لا يبقى هناك مجال للشك والارتياب . ولكل أمير مكتبة وأمناء يجردون أملاكه وديونونها ويديرون حركة مخازنه الرسمية مع الأمراء وغيرهم . وقد عثر حديثا بجزيرة الفيل بمصر قديم طيني مهدم على بقايا أوراق بردية لأمرأء تلك الحدود يرجع تاريخها الى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد تحوى معلومات منزلية وتجارية تخص صاحب ذلك المنزل . ولم يحتفظ الفلاحون الذين عثروا على هذه البقايا البردية بها لجهلهم قيمتها فلم يبق منها الا التراب اليسير ومنه عرف أن تلك الأدرج كانت

(١) ٤ : ٥٨٢ وأيضاً هذا الفصل الرابع والعشرين



شكل ٤٦ - منظر لسوق في عهد الملكة القديسة (مأخوذ عن لبيوس)



شكل ٤٧ - مقبرة رمسيس الثاني في
كنفنه الأستاذ جارسناج في قبر بجهة بيت الخلالف

شكل ٤٨ - تمثال لملك مختون (مختون) مصنوع
من الحجر الجيري . (دار تحف القاهرة)

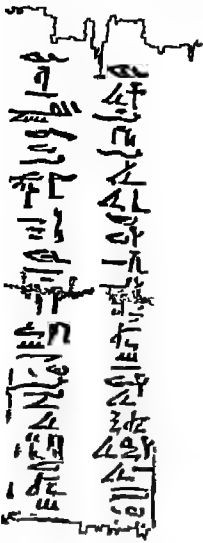
شكل ٤٩ - تمثال لشخص يقال له (رع تومر)
مصنوع من الحجر الجيري (دار تحف القاهرة)

صور أحكام قضائية ومذكرات . وقد اهتمت بها الحكومة الألمانية حديثا فطبعها رجال دار التحف ببرلين حيث توجد محفوظة به للآن (شكل ٤٥) .



شكل ٤٤ - حصيد البردى في عهد الملكة القديمة : يشاهد بالقسم الأيسر في الرسم رجلان يجمعان سيقان البردى ثم رجلان آخرون يصفان تلك السيقان بهيئة حزم ثم أربعة رجال يحملون تلك الحزم

في مثل هذه الظروف اشترط على كل موظف حكومي أن يكون متعلما راقيا . ولشدة حاجة الادارة المالية لكتابة الحساب أنشأت الحكومة مدارس خاصة لتخريج أشخاص لائقين لهذه



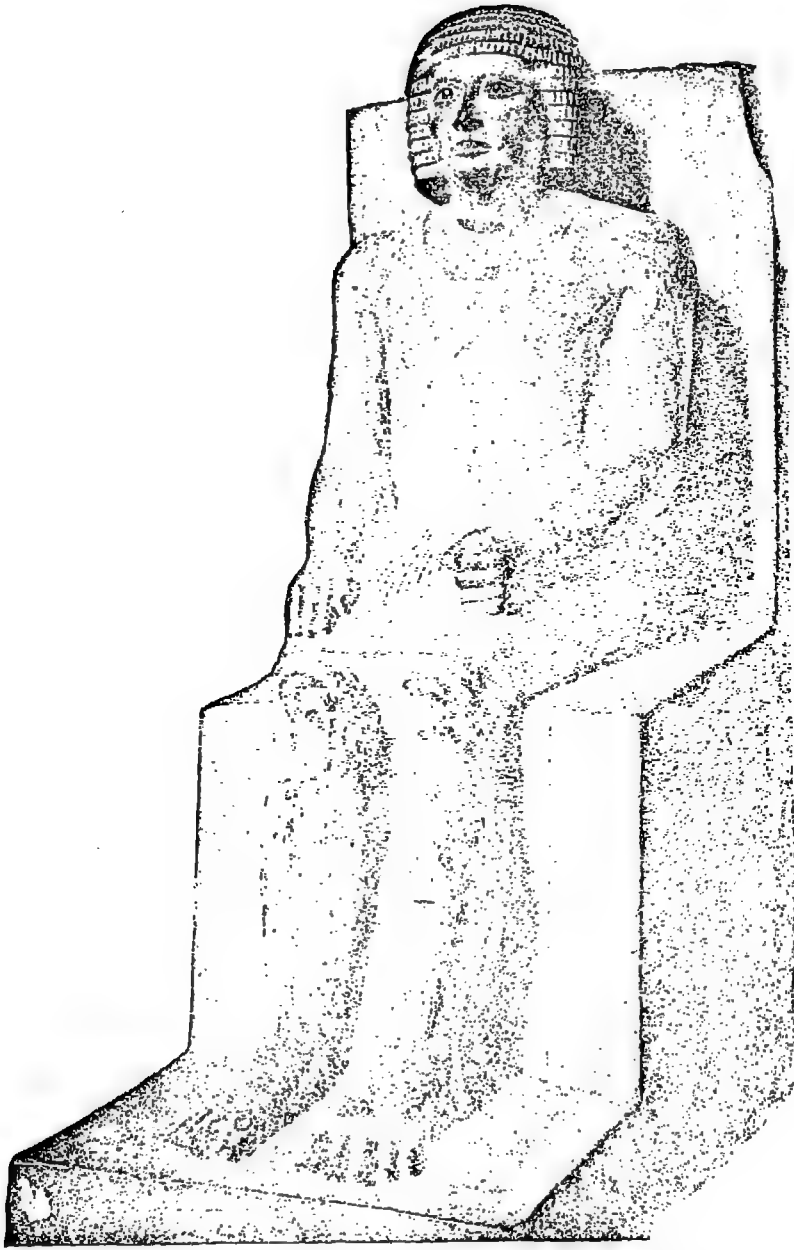
شكل ٤٥ - رسم لعمودين من النصوص المصرية القديمة مأخوذ من ميثاق رسمى يرجع تاريخه الى عهد الملكة القديمة . وهذه النصوص مكتوبة بالخط الهيرواطيق على درج من البردى والأصل محفوظ بدارتحف برلين

الأعمال . ولما كان اهتمام المصري بالعلم لفائدته فقط كان ولوعا بالبحث وراء الحقائق واقتفاء العلوم من أجل ذاتها . وعلى كل حال فالتعليم وقتئذ كان مشرفا لصاحبه حتى بكر القوم في ارسال أطفالهم الى المدارس مع الدقة في مراقبتهم . وكثيرا ما كان الأساتذة يسدون النصائح والمواعظ الى الطلبة لكنهم استعانوا أحيانا بالقسوة ليتمكنوا بها من التأثير في أذهانهم . فن أقوالهم الماثورة "أذنا الطفل على ظهره فلا يسمع الا اذا ضرب عليهما" (١) . واهتم القوم بتلقين أطفالهم الحكم والآداب العالية واهتمامهم كان بليغا بحسن الخط . ولا يخفى أن الخط الهيروغليفي أصعب الخطوط مراسا لكثرة ما يحوى من صور الحيوانات والآدميين التي يشاهدها الزوار بدور التحف والآثار ، ولذلك صعب استعماله في الأعمال العادية اليومية . ولما أكثر القوم من استعمال الأدراج البردية والكتابة عليها اختلوا الخط الهيروغليفي الى ما هو معروف الآن بالخط الهيرواطيق . ويرجع هذا الاختلال الى أقدم أسر الملكة القديمة . والفرق بين هذين الخطين كالفرق بين خطي المطابع والأيدى في اللغات الأوروبية . وقد أثر انتشار هذا الخط المختزل في أعمال الحكومة والتجارة على نظام الادارة والمعبشة كثيرا فأصبح أداة للتمييز بين الأئى والمتعلم كما هي الحال في عهدنا هذا ، واشترط على كل من يرغب في التوظيف في الحكومة كتابا أو أميا بالمخازن أو ناظر زراعة أن يكون ملما بالخط الهيرواطيق . وقد عثرنا على أدراج

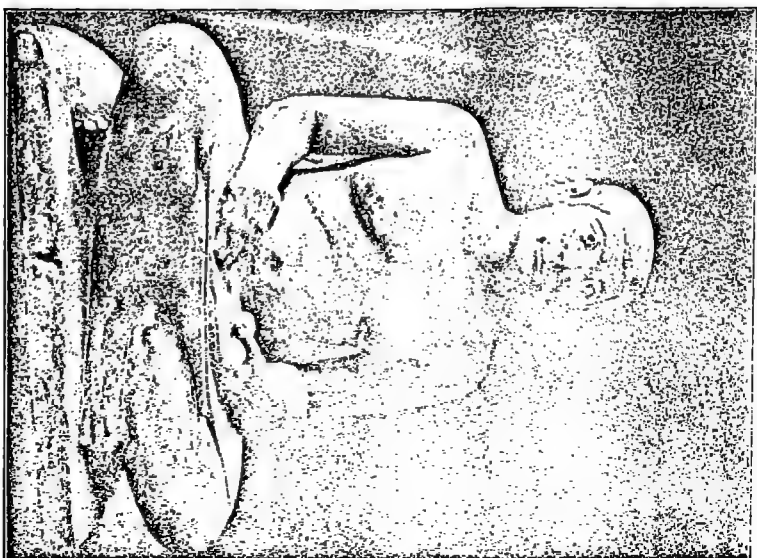
بردية استعملها صبية المدارس مدون بها حكم وجل علمية ونماذج خطية القصد منها تمرين الطالب على كتابتها . وعثر حديثا على كمية كبيرة لمثل هذه الأدراج يرجع تاريخها الى عهد الامبراطورية أى بعد المملكة القديمة بألف وخمسمائة سنة تقريبا . وترجع معظم معارفنا عن تلك العصور الى ما خلفه لنا التاريخ من تمارين طلاب العلم وقتئذ ، ويجد القارئ في هذه التمارين اصلاحات المدرسين لها على الهامش . وعند تمام الدراسة المقررة يلحق الطالب بمكتب أحد الموظفين للتمرين على الأعمال الكتابية وتصريف الأمور حتى يصبح كفا للالتحاق بوظيفة صغيرة بتدئى بها حياته الكتابية .

وان اهتمام المصريين بالعلم كان لفائده العملية فقط ، ولم تنق نفسهم الى دراسة أصول الطبيعة والكون الا اذا اضطرتهم الضرورة لذلك ، وهذا أمر طبعى فيمن لا يميل الى البحث في الحقائق الغامضة ، ولذلك لم تتقدم معارفهم الا فيما يتعلق بمعيشتهم اليومية وأعمالهم الدائمة . وكانت معلوماتهم الفلكية كثيرة تمكن أجدادهم بها من توقيت زمنهم بالسنتين قبل عهد المملكة القديمة بألف وثلاثمائة سنة تقريبا . ثم رسموا السماء وعرفوا أهم نجومها وابتكروا آلات مضبوطة تعرفهم مراكز النجوم ، لكنهم لم يهتموا بالتفكير فى أصل هذه النجوم لعدم فائده فى نظرهم فلم يكلفوا أنفسهم مثونة التفكير والاجتهاد . ولشدة احتياج القوم الى الحساب فى معاملاتهم الحكومية والتجارية مهروا فيه . ووجد الكتبة بعض صعوبة فى حساب الكسور فحولوها الى أعداد صحيحة بالنسبة الى وحدة معينة الا كسر الثلثين الذى استعملوه بلا تعب أو عناء . وتوصل الكتبة الى حل بعض المعادلات الجبرية البسيطة والى معرفة مبادئ علم الهندسة فقدروا مساحة الدوائر بدقة غير أنهم صعب عليهم ايجاد مساحة شبه المنحرف . وترجع معرفة المصريين لحجم نصف الكرة وسعة الاسطوانات الى احتياجهم الى معرفة حجم كومات الحبوب وما تحويه الشون المستديرة الجدر من الغذاء . كل هذه العلوم استعملت فى الأعمال اليومية بدون اهتمام للبحث عن أصلها . ولشد ما عجب المؤرخون من الضبط والانتقان اللذين توصل اليهما المصريون فى رسم قواعد الأهرام كهرم الجيزة الأكبر حيث تتجسم معالم الدقة والانتقان فى اتجاه الأضلاع نحو الجهات الأصلية الأربعة مما يتبشى مع دقة الآلات الهندسية الحديثة . وقد عرف مهندسو العمارة والبناءون شيئا كثيرا من علم رفع الأثقال (الميكانيكا) كما يستدل من قبو مقبرة بيت الخلفاء يرجع تاريخها الى القرن الثلاثين قبل الميلاد . ولا يزال هذا القبو أقدم بناء معروف من نوعه للآن (شكل ٤٧) .

ولم تكن معلومات القوم الهندسية فى نقل الآثار الضخمة الا بسيطة أولية بلهلمهم بالكرات والمحاول (Rollers) . أما الطب فكان غزير المعلومات والنظريات الصادقة التى تشير الى دقة فى الملاحظات . وللك طبيب خاص رفيع المنزلة عظيم المكانة يشخص المرض ويصف العلاج المفيد . لكن يلاحظ أن أغلب آت من طريق الوهم كاتخاذ مستحلب شعر العجل الأسود لمنع الشيب . وجمع القوم علومهم الطبية فى أدراج بردية^(١) فاستعملها خلفهم من بعدهم فزادت شهرتها .



شكل ٥٠ - تمثال لشخص يقال له (حم ست) . (دار تحف الموفّر . مأخوذ من كابر)



شكل ٥٢ - تمثال لكاتب من البحر الجبلى ، من عهد الملكة القديسة
(دار تحف الزور)



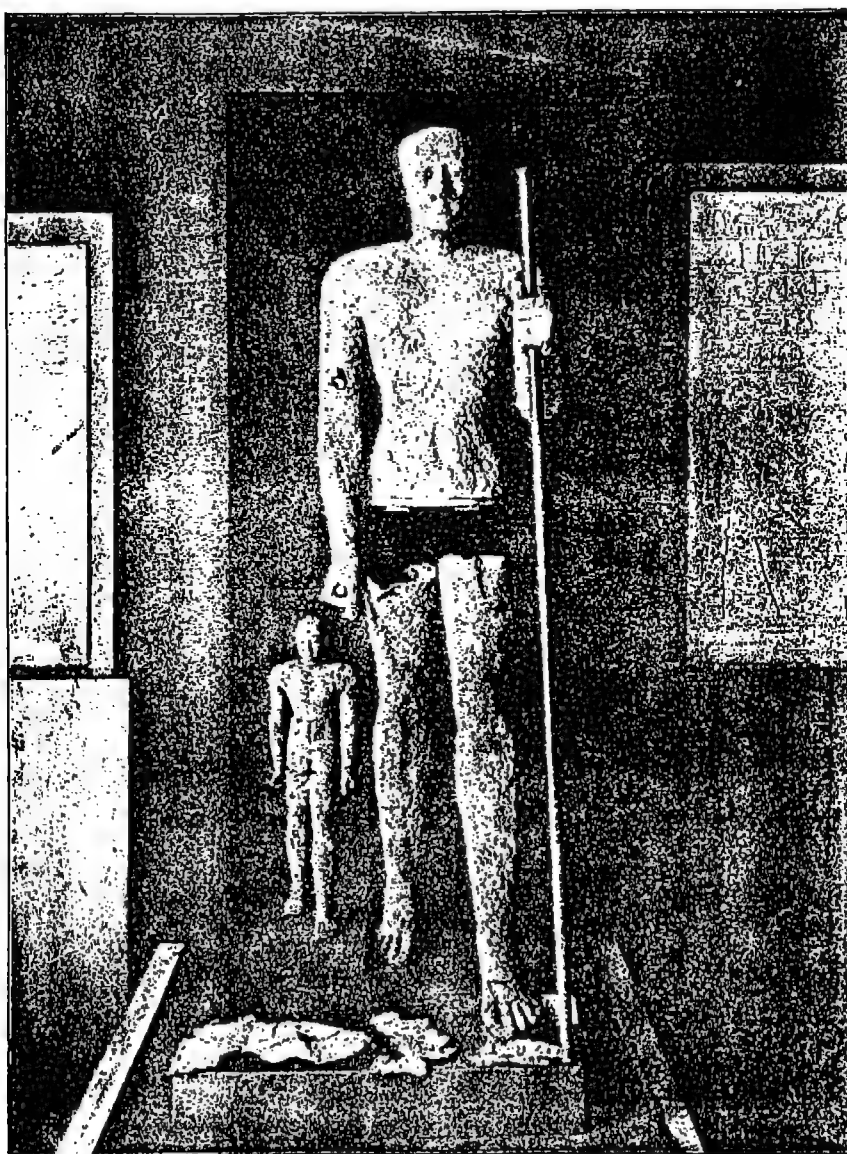
شكل ٥١ - رأس تمثال خفي لتشيخ البه
(دار تحف القاهرة)

وانتقلت بعض الوصفات الطبية الى اليونان ثم الى أوربا حيث لا تزال معمولاً بها بين المزارعين الى الآن . وكانت العقبة الكداء في تقدم الطب وقتئذ اعتقاد القوم الراجح بتأثير السحر حتى تساوت منزلة الطبيب بالساحر فأصبح المرضى يتعاطون معظم عقاقيرهم مصحوبة بتعاويذ سحرية . ثم اعتقدوا أن التعاويذ أنجح فائدة من العقاقير لأنهم اعتبروا الأمراض نتيجة تلبس الأجساد بالأرواح الخبيثة التي لا تتأثر الا بالسحر .

وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة بعيدة عن الأوهام لم تبلغها أية بلدة أخرى في تلك العصور القديمة . ولم يكن المصري بطبعه ميالا لتجسيم الجمال وتفضيله على غيره كال يونانيين بل كان مغرما بمظاهر الطبيعة الأصلية فقط كما يراها داخل منزله وخارجة، ولذلك نقش زهر اللوطس على أيدى ملاعقه وشرب التبذ في أقذاح زرقاوية اللون على شكل برعوم اللوطس وصنع أرجل سريره بهيئة أرجل الثيران القوية العضلات ولبسها بالعاج ورسم سقف منزله بهيئة سماء تبدو منها النجوم ورفعها على أعمدة شبيهة بالتخيل الباسقة الأغصان أو بسيقان اللوطس المنتهية أعاليها براعم ذلك النبات . وكثيرا ما زين المصري أسقف حجراته برسوم الحمام والفراس الطائرة بين الأشجار وكان يحلى أرض منزله باللون الأخضر على شكل مستنقعات يسبح بين أعشابها السمك وتشاهد فيها أحيانا ثيران وحشية طاردة للعصافير المحلقة فوق الأعشاب المائلة . ويرى الناظر أن هذه الطيور تسعى في الوقت نفسه لخلاص صغارها من ابن عرس الذي يريد اقتراسها . أما الأدوات المنزلية المستعملة يوميا في منازل الأغنياء بجملة متناسبة الأجزاء تشاهد على أبسطها صنعا مناظر الطبيعة وجمالها المرميان في خلاء القطر المصري وقتئذ . ولما كان هم المصري تحسين وتجميل كل أداة مفيدة عمليا لم يعر الجمال أهميته النظرية فكانت الأشياء العملية أهم ما أنتجته أيدي صناع ذلك العصر . فاذا نظرت مثلا الى تماثيل الملكة القديمة تجدها بلغت حدا مذهشا من حيث المطابقة للأصل، والسر في ذلك أن القوم لم يصنعوا هذه التماثيل للفرجة والتجارة بل لفائدة الميت في الآخرة كما ألمعنا الى ذلك (الشكل ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ٥٢) . والتماثيل نوعان نوع يمثل الشخص بشكله المعتاد المعروف به بين أهله وقومه والآخر يظهره بشكل اصطلاحى ثابت على عمر الدهور . وقد بذل المتألون جهدهم في جعل التماثيل مطابقة للأصل فلو نوها بالألوان الطبيعية وصنعوا الأعين من الحجر البلورى فأصبحت ملامح الحياة البادية على تماثيل العهد المنفى لا مثيل لها في تماثيل أى جيل بعد ذلك . ويرجح أن أحسن ما عرف من التماثيل الجالسة للملكة القديمة هو تمثال الملك خفرع باني هرم الجيزة الثانى (شكل ٤٨) فقد صنع هذا التمثال من حجر الصوان (Diorite) وروعت فيه ملامح الجسم المهمة بوضوح واتقان على رغم صلابته مادته . والحق يقال ان صانع هذا التمثال كان من أبرع رجال طائفته وقتئذ لأنه تغلب على صعوبات جملة لا يصادفها التمثال العصرى . زد على ذلك أنه أتم عمله بمهارة واتقان فأخرج تماثلا حقيقيا لا يحويه الدهر ويشهد في الوقت نفسه لصناعته بالصبر والبراعة اللذين امتاز بهما رجال ذلك العصر نحو ملوكهم . أظهر المتألون في نحت الأحجار اللينة مقدرة سلبت لب الناقد كما يشاهد في تمثال خمس الجالس المحفوظ بمتحف اللوفر (شكل ٥٠) حيث تشاهد على

وجهه معالم الحياة كلها تقريبا ، أما الجسد فلا يبدو عليه ذلك المقدار من الدقة لأن المثال اعتبر الرأس أهم جزء في التمثال فصرف كل جهده في اتقانه . وقد صنعت معظم تماثيل الملوك والأمراء على هذا الشكل . أما النوع الثاني فكان قليل الصنع نسبيا واليه ينتمى تمثال الكاهن رع نُوقِر الذى تبدو عليه سيماء الأنفة والكبر الخاصة بأمراء تلك العصور (شكل ٤٩) . ويوجد بدار التحف بالقاهرة تمثال لشيخ البلد قصير القامة مملوء الجسم تبدو عليه علائم الامارة مصنوع من الخشب بمهارة واتقان جعلاه من أهم تماثيل الملكة القديمة المعروفة للآن (شكل ٥١) . واتفق أن ملاحظ هذا التمثال كانت مطابقة للملاحظ شيخ البلد الذى انتهى اليه العمال الذين عثروا عليه فلما وقع عليه نظرهم صاحوا صوتا واحدا ”هذا شيخ بلدنا“ فعرف التمثال منذ ذلك الوقت بهذا الاسم ولا تزال نجهل صاحبه الأصيل . أما رسوم الخدم فلم تراعى بها كلفة ولا أصول كما هى الحال في رسوم الأمراء ، ولذلك ترى الخدم بهيئتهم الطبيعية يؤدون أعمالهم في قبر سيدهم كما كانوا يتعلمون في منزل دنياء . ثم اعتقد القوم أن حاشية كل سيد تصحبه بعد وفاته في الآخرة وتقوم بخدمته هناك كما فعلت في الدنيا فصنعوا تماثيل لأفراد الحاشية مطابقة لمهنتهم في الدنيا ، مثال ذلك : تمثال الكاتب الشهير المحفوظ بدار التحف باللوثر (شكل ٥٢) تبدو عليه النحافة والشخصية البارزة يتخيله الرأى انسانا حقيقيا جالسا مستعدا لتدوين ما يمليه عليه سيده من الأوامر مع أنه مر عليه خمسة آلاف سنة تقريبا . ومن هذا النوع أيضا تمثال رأس الأسد (شكل ٥٧) الذى وجد بمعبد الشمس ببلدة نصير والمصنوع من حجر صلب للغاية . ولم يدر بخلد أحد أن تتجلب الصناعة تماثيل معدنية بحجم الشخص الطبيعي بمثل ما فعله المثالون والنحاسون الذين تمكنوا وقتئذ من صنع تماثيل لللك يبي الأوتل بحجمه الطبيعي في أول عيد من أعياد جلوسه . وقد جعل قوام هذا التمثال عمود خشبي ثم ألبس المعدن مجوفا مطرقا وصنعوا عيذه من الزجاج الطبيعي والحجر الرملى الأبيض . وهو الآن محفوظ بدار التحف بالقاهرة (شكل ٥٣) . ومع أن هذا التمثال قد أصابه العطب والكسر والصدأ فان رأسه لا تزال من أبدع ما وصل إلينا من آثار ذلك العصر لقربها من الطبيعة .

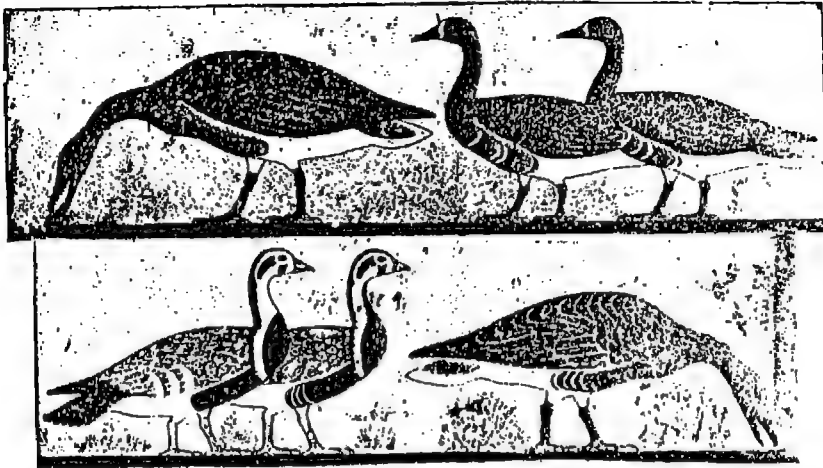
وبلغت الصياغة شأوا كبيرا ومارسها المثالون فأخرجوا للمعابد المصرية تماثيل ذهبية بديعة كـرأس تمثال النسر المقدس الذى وجده المستركويل بمعبد مدينة الكاب (هيراكونبوليس) — (شكل ٥٨) . وجثة هذا الطائر مصنوعة من النحاس المطروق وقد فقدت ، وظاهر أن رأسه مطوق بإطار تعلوه ريشتان سليمان طويلتان مصنوعتان من الذهب المطروق وهو عبارة عن قطعة واحدة من الذهب الخالص داخلها قضيب من الزجاج الطبيعى (Obsidian) ينتهى طرفاه بعينين لامعتين جويتين . وتمتاز رسوم المعابد ونقوش جدرانها بالمصاطب في عهد الملكة القديمة بـروزها ، وهو أمر يتطلب براعة ومهارة في تقدير البروز مع تناسب حجم الأشكال السطحي خصوصا في رسم الأشياء المستديرة والسميكة . والغريب أن هذا النوع من الحفر كان معروفا قبل عهد الملكة القديمة ، وأن القوم اصططحوا قبل عهد الأسرة الثالثة على طريقة لذلك قدسوها ولم يحيدوا عنها مع تقدمهم في الرسم بعد ذلك ومعرفتهم أغلاطهم . وتتلخص هذه الطريقة في رسم أوجه وكأف الآدميين مشاهدة



شكل ٥٣ - تمثالان للذكاء الأول وابنه يتلانهما بجمعهما الطبيعي مصنوعان من النحاس المطروق
(دار تحف القاهرة)



شكل ٥٤ - رأس تمثال الملك بي الأول المصنوع من
النحاس و عيناها يظهر أنهما مصنوعتان من البلور الصخري
(دار تحف القاهرة)



شكل ٥٥ - رسم أوزماخوذ من مقبرة بيمدوم يرجع تاريخها الى عهد الملكة القديمة .
ويلاحظ للرسم قسمان أعلى وأسفل وهذان كانا أصلاً متصلين ببعضهما ببعض في المسافة
بين الأوزتين الأكلتين (دار تحف القاهرة)

من الأمام ، أما الأجسام فتتسم كما ترى من الجانب ، وعلى هذه الطريقة استمر المصريون ينقشون رسومهم طول عهد المملكة القديمة لكنها كانت غاية في الحسن والجمال (شكل ٥٦) . وقد اقتبسنا معظم معارفنا عن الحياة الاجتماعية في عهد المملكة القديمة من رسوم جدران المصاطب المنقبة . ومن أعظم أمثلة هذه الرسوم لوح باب حبي رَع الخشبي (شكل ٥٩) الموجود بدار التحف بالقاهرة . ولون القوم جميع النقوش البارزة لكنهم لم يحسموها تماما كما يشاهد في الآثار اليونانية . ولا مرء في أن المصريين أتقنوا النقش بالألوان واستعملوه كثيرا ، من ذلك رسم سرب الأوز بمقبرة بميدوم (شكل ٥٥) الذي تجسم فيه براعة المصور المنفى وطول باعه فقد أتقن انعطاف رأس هذا الطائر وبطء حركته وإنثناء عنقه وقت التقاطه دود الأرض بشكل يقرب جدا من الطبيعة . ولا شك في أن مثل هذا الرسم يشهد لصانعه بالمقدرة وعظم الاعتماد على النفس وكثرة التمرن في هذا الفن الجميل .

ويمتاز الحفر في المملكة القديمة بشدة مطابقتها للطبيعة والحقيقة مع عناية فائقة في انجازه ، ولذلك أصبح أصحاب هذا الفن الأقدمون يقارنون بزملائهم الحديثين . والمعروف أن المثال المصري كان الوحيد وقتئذ في الشرق الذي مثل جسم الانسان على الأحجار . ولما كان أبناء ذلك العصر قليلي الملابس برع كثيرا في رسم العراة . واليك ترجمة ما قاله المسيو شارل بيرو (Charles Perrot) عميد علم العاديات بهذا الخصوص : "يجب علينا أن نعترف بأن مثالي المملكة القديمة أخرجوا لنا نقوشا لا تفوقها أحسن رسوم أوروبا الحديثة" (١) . واتقان تماثيل المملكة القديمة مقصور على المظاهر فقط فيشاهد الانسان عليها ملامح الانفعالات النفسية التي تعترى الشخص في حياته . ومن دواعي الأسف أننا لم نهندد الآن الى ترجمة حياة أحد هؤلاء الأساتذة وكل ما عثرنا عليه هو رسم مثال أو اثنين مع طول مدة ذلك العهد التاريخي .

وترجع معلوماتنا عن عمارة المملكة القديمة الى مباحثنا الحديثة فقط لأننا لم نعثر لان على آثار منازل أو قصور نتيبن منها خفة مادة البناء وتعدد منافذه ، وجل ما وصل إلينا من هذا القبيل المصاطب الضخمة الحجرية . والمعروف أن أهم عمارة ذلك العصر هو المصاطب والأهرام والمعابد . وقد ألمعنا الى هندسة المعابد في الفصل السابق وهي عبارة عن خطوط رأسية وأفقية بغاية البساطة ، ومع أن القبو كان معروفا فلا نجده مستعملا كثيرا في العمارة . أما السقف فكانت تقام على عمد من حجر واحد جرانيتي مضلع سواء أكان رباعيا أم أسطوانيا وهي أقدم ما عرف من نوعها حتى الآن . والمظنون أنها استعملت قبل عهد المملكة القديمة لأن عمد الأسرة الخامسة كانت متقدمة في فن البناء فقد وجد بعضها على شكل التخييل الباسق القضيبان أو بهيئة باقة البردى تحمل السقف على براعيمها (شكلي ٦٠ و ٦١) وهي على العموم متناسبة الحجم . والمعروف أن ساحات معابد المملكة القديمة من أبجل ما تركه لنا فن البناء في ذلك العصر لأنها كانت محاطة بالعمد البدئية مزودة بالجدد بالرسوم الزاهية البراقة . ومنه يستنتج أن مصر كانت مهد صناعة العمد . ومع أن أهل بابل تقدموا

في تشييد المباني الضخمة لم يتكروا العمد التي صنعتها مصر بمهارة واتقان في غضون الألف الرابع قبل الميلاد ، لذلك يرجع الفضل في حل لغز التشييد البنائي الى قدماء المصريين .

ولما كان عهد المملكة القديمة ماديًا من حيث المصنوعات والمجoudات لم يكن لترقية الآداب متسع كبير . لكن وجد بعض وزراء مثل قافنه وإحتب وبتاح حُتِبَ اشتهروا بذكائهم وحكمهم فوضعوا في خبرتهم الحيوية حكا وأمثالا راقية نسختها أقلام تلك العصور . وأقدم صورة وصلت الينا عن هذه الحكم يرجع تاريخها الى عهد المملكة المتوسطة . وقد وضع لنا الكهنة الكتاب في عهد الأسرة الخامسة تاريخًا ملوهم القدماء مبتدئين بملوك ما قبل الأسر الى الأسرة الخامسة باختصار فلم يذكروا الا بعض حوادث تلك العصور وأهم أعمال الملوك وهباتهم للعابد متجنين التفاصيل التاريخية ، وتعتبر كتابتهم أقدم تاريخ ملكي من نوعه . ولما رغب الأمراء في تخليد ذكراهم بعد الوفاة نقشوا تراجم حياتهم على جدر مقابرهم بأسلوب مختصر بسيط، صلة حوادثه الجزئية بعضها ببعض ضعيفة^(١) وأهمها الحوادث والنعم الملكية التي أغدقت عليهم . ويلاحظ بين السطور أن المديح أخذ وقتئذ شكلا مخصوصا راقيا بلا تعرض للأمر الشخصية . ويرى القارئ لنصوص الأهرام ما يشير الى الاستبداد والبطش الوحشي وهذا في الحقيقة بقايا عقائد دينية قديمة لم يبق منها الا اسمها . وتحتوي هذه النصوص الدينية بعض الأساليب الشعرية لتشابه كثير من عباراتها . وتعتبر هذه النصوص أقدم أمثلة لآداب لغة تلك المدنية العتيقة . أما أغاني القوم فقد أثرت في نفوسهم كثيرا وأفهمتهم فضل المتبوع على التابع لما يستدل من قصة الأخوين التي تداولتها الألسن بعد ذلك لاحتوائها على كثير من المحادثات بين راع وغنمه^(٢) وكما يستنتج أيضا من حكاية الخدم الذين خاطبوا سيدهم يوما وهم يحملونه في الهودج قائلين ان ثقل الهودج يخف كلما تشرف بوجود سيدهم فيه^(٣) .

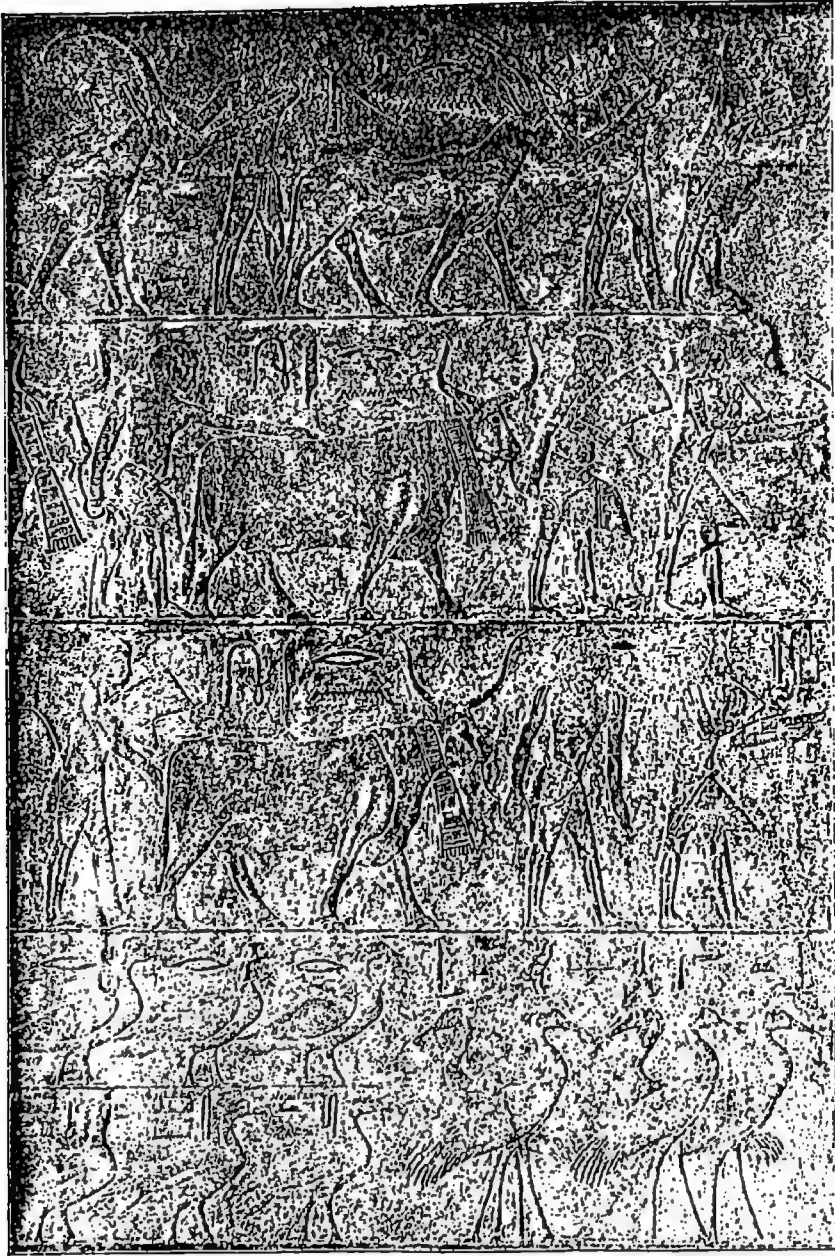
وقد استعمل القوم آلات الطرب (الموسيقى) وكونوا منها جوقا خاصا للقصر الملكي تحت اشراف رئيس ، وتألف هذا الجوق من عازف بقيثارة يعزف وهو جالس وآخرين بمزمارين طويل وقصير . وكان القوم يغنون على صوت آلات الطرب خلافا لما هو جار الآن في البلاد الأوربية . وتشتمل الموسيقى على قيثارتين ومزمارين طويل وقصير . ولم نهد الى ألحان تلك العصور ولا منتهى معرفة القوم في تقسيم هذه الألحان .

هذا وصف اجمالى لمعيشة الجد والمثابة في عهد المملكة المصرية مدة انتقال الحكم من ملوك طينه الى ملوك منف وبقى علينا أن نبحث في تاريخ هذه المملكة المعتبرة الآن أقدم ممالك الأرض والتي لا نعلم عن نظامها الحكومى الا الترد اليسير .

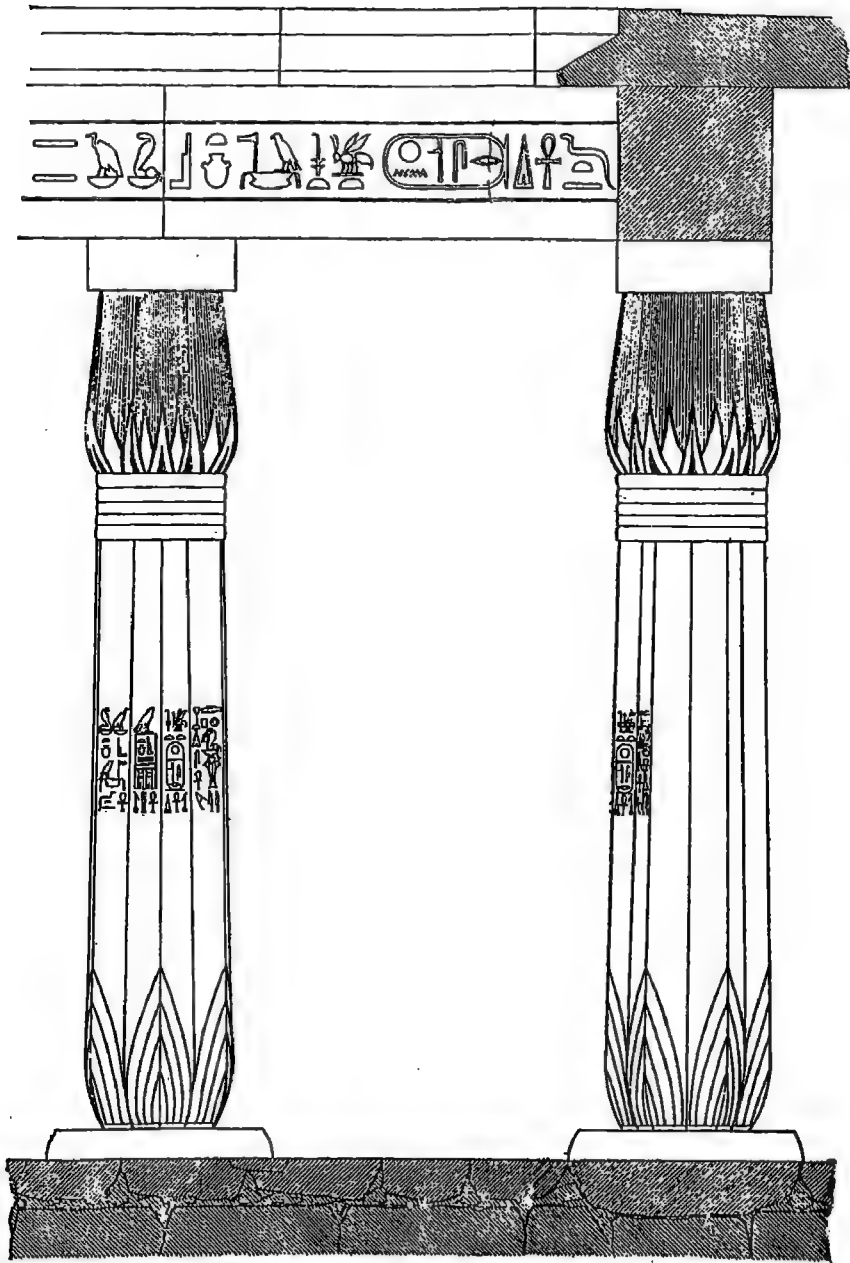
(١) ٢٩٢: ١ - ٣٠٦: ٤ - ٣١٥: ٣ - ٣٢٤: ١

(٢) Zeitschrift 38, 66; Davies, Der El Gebrawi, II, p. VIII. (٣)

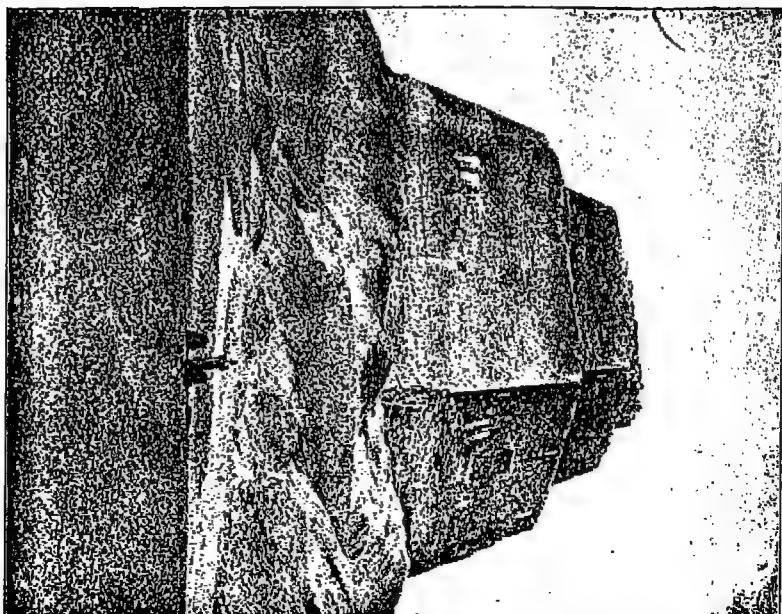
(٢) راجع شرح شكل ٣٩



شكل ٥٦ - رسوم بارزة على جدران إحدى المصاطب من عهد المملكة القديمة يشاهد فيها
قطعان البهائم وأسرار الطيور (دارتحف برلين)



شكل ٦١ - صورة تمثل نصب العمود المحيطة بساحة معبد هرم نصير الذي يرجع تاريخه
إلى الأسرة الخامسة (مأخوذ عن بورغارت)



شكل ٦٤ - - مرم بيدوم يزرى الى الملك مشور



شكل ٦٢ - - معبده مشيده بالن وجه بيت التلاف برجع تاريخها الى عهد الملك زوسر كمنها الأسماء جارسايج



شكل ٦٣ - - الحرم المديح لملك زوسر بسقاره

الفصل السادس

عصر الأهرام

في أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد انصرم حكم الأسرة الثانية الطيبة بعد ما استمر حوالى أربعائة سنة فتبعتهما في الملك أسرة منفية . وكانت منف معروفة وقتئذ بمدينة الحائط الأبيض كما جاء في رواية مانيتو . والمرجح أن انتقال الحكم من طينه (جوار العرابة المدفونة) الى منف كان نتيجة هجرة الأسرة المالكة وليس له علاقة بتغير الأسر كما قال مانيتو . ويرجح أن الملكة نمانثاب (Nemathap) زوج الملك خاسخموى (Khassekhemui) آخر ملوك الأسرة الثانية الطيبة كانت والدة الملك زوسر أول ملوك الأسرة الثالثة المنفية . وقد صحب انتقال الحكم من طينه الى منف تقدم تدريجى في الحضارة وتحسين مطرد في أحوال البلاد طوال حكم الأسر المنفية الذى يقدر بنحو خمسة - ستة سنة . ومن دواعى الأسف أننا لم نثر على معلومات كثيرة عن العهد المنفى إلا ما له علاقة بالسنوات المائتين الأخيرة منه ، أما السنوات الثلاثمائة الأولى فلا نعلم عنها شيئا سوى ما حفظه لنا التاريخ من آثارها . لذلك كانت كتابة تاريخ مصر عن تلك العصور أشبه كثيرا بكتابة تاريخ أتينيا في عهد بركليز (Pericles) لأن معلومات هذين العصرين جمعت من معابدهما وتماثيلهما وأوانيهما وغير ذلك ، وقد بلغت أتينيا في عهد بركليز درجة عظيمة في الفكر والآداب والسياسة لم تشهد في أحسن عصور التاريخ المصرى . لكن مما لا مرأى فيه أيضا أن آثار المملكة المصرية القديمة على قلتها توقع الدهشة والاستغراب في نفوس باحثيها من حيث التقدم والبراعة ، لذلك سنتخذ هذه الآثار هيكلا نشيد عليه تاريخ عصورها . وبديهي أن استنتاج المعلومات التجارية والصناعية والإدارية والمعيشية وكذا الفنون والآداب الخاصة بذلك العصر من آثاره الضخمة الشاخنة أمر أقل ما يوصف به أنه صعب المراس . زد على ذلك أننا لا نزال نجهل كثيرا مما انتاب القطر المصرى مدة السنوات الخمسمائة التى نحن بصدها ، وكثيرا ما نلجأ في مباحثنا الى التخمين والحدس خصوصا فيما يتعلق بتولية بعض الملوك وعزل الآخرين وبرى القطر تارة وتأخره أخرى وبخضوع أمراء البلاد للفرعنة وانشقاقهم عليهم أو استقلالهم عنهم مما أدى في أواخر الأمر الى انهيار صرح الحكومة المركزية .

وأول ملك عظيم حكم في عهد المملكة القديمة هو زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ومثبت أساس الحكم المنفى . ومن أعمال هذا الملك مثابرته على استخراج النحاس من طور سيناء وإبعاد حدود مملكته الجنوبية بضم جزء من النوبة اليها . وجاء في رواية أثرية لكنة إقليم الشلال الأول أن الملك زوسر وضع يده على ذلك الاقليم ووقف لنجوم (Khnum) معبود تلك الجهة إيراد الأراضى التى على شاطئ النيل فيما بين جزيرة الفيل بالطرف الأسفل للشلال وتاكومبسو (Takompso) وهى مسافة يتراوح طولها بين خمسة وسبعين وثمانين ميلا . وكثيرا ما أثار أهل ذلك الاقليم منازعات ومشاكسات على

المصريين عدة قرون . وليلاحظ أن هذه الرواية كتبها حديثا في عهد البطالسة كهنة المعبودة إزيس ويرجح أن بعض محتوياتها مطابق للحقيقة التاريخية (١) .

ويرجع الفضل في نجاح سياسة زوسر الى حكمة ودهاء وزيره المدعو إمحنت الذي برع في الدين والسحر وفي ضرب الأمثال الصادقة وفي الطب والعلماء حتى ترك له اسما خالدا في التاريخ المصري على مدى الأزمنة . ثم اتخذ هذه الكتاب مثالا يحتذونه في حياتهم العلمية فصبوا مداد محارهم تيمنا بذكره قبل البدء بأعمالهم الكتابية (٢) وترنم الناس بأمثاله في مدى قرون عدة وعلت منزلته وكبرت فأعتبر في آخر التاريخ القديم إله الطب ، وكان معروفا عند اليونان بأموزيوس ومشبها بمعبودهم الطبي أسكليبيوس (٣) . وقد شيد لإمحنت معبد جوار السيراپيوم بمنف وله في كل من دور التحف في العالم تمثال أو تمثالان من البرنز . ولا غرابة فقد كان إمحنت رجلا عاقلا ضاربا للأمثال بارعا في الطب والعلماء حتى روى الكهنة الذين باشروا تشييد معبد ادفو في عهد البطالسة أنهم استرشدوا بتصميم معبد إمحنت الأصلي ، ولذلك يظن أن زوسر شيد معبدا بتلك الجهة . قال مانيتوان زوسر — وهو المعروف أيضا باسم سُورُورُوس — أول من استعمل الحجر في البناء ونحن نتقصه بأنا عثرنا على أبنية حجرية يرجع تاريخها الى ما قبل زمن هذا الملك . والمعروف أن زوسر كان أول من شيد المعابد الحجرية الضخمة بمساعدة إمحنت ولذا عد عصر هذا الملك عصر البناء الذي زاد على ما سواه . وشيد الملوك أسلاف زوسر مقابرهم باللبن ولأحدهم مقبرة كسى أرضها بالجرانيت وأخرى شيدت فيها غرفة بالمحجر الجيري . فلما أتى زوسر حسن بناء المقابر فشيّد مصطبة عظيمة باللبن بيت الخلاف جهة العراية المدفونة جعل لها فتحة بأحد أطرافها تتصل بسرداب يمتد في الأرض الرملية أسفل بناء المصطبة المذكورة ، وينتهي هذا السرداب بطريق منحدر يتصل بعدة حجرات (٤) (شكل ٦٢) . وسد هذا السرداب في خمسة مواضع بأبواب صخرية ضخمة . ويرجح أنه لم تدفن جثة زوسر في هذه المصطبة لأن ملوك تلك العصور اعتادوا أن يشيدوا لأنفسهم مقبرتين ، وعليه فالملظنون أن زوسر ترك الرمس المجاور لأجداده وكلف إمحنت أن يشيد له قبرا فخما بمنف يفوق في الحجم مقابر أجداده (شكل ٦٣) . فاختار إمحنت لذلك مكانا في الصحراء خلف منف وشيد به مصطبة حجرية على نسق مصطبة بيت الخلاف ارتفاعها خمس وثلاثون قدما وعرضها مائتان وعشرون وسبعة أقدام وطولها من الشمال الى الجنوب أكثر من ذلك . ثم ضخم حجم هذه المصطبة تدريجا بمرور الزمن فكبر القاعدة وزاد ارتفاعها وذلك ببناء خمس مصاطب بعضها فوق بعض كل واحدة أصغر حجما من التي تحتها فنجم عن ذلك بناء مدرج يقرب ارتفاعه من خمس وتسعين ومائة قدم وفيه ست درجات أو مصاطب ويعرف الآن بالهرم المدرج ، وهو يمثل كيفية التدرج في البناء من المصاطب المسطحة القمة كالموجودة ببيت الخلاف الى الهرم الأملس الجوانب المدبب القمة الكثير الانتشار بين آثار خلفاء زوسر . وتعتبر مقبرة زوسر المنفية أقدم أثر حجرى كبير معروف للآن .

Setho, Untersuchungen, II, 22-26.

Schaefer, Zeitschrift, 1898, 147-8; Gardiner, ibid., 40, 146.

Setho, Untersuchungen, II.

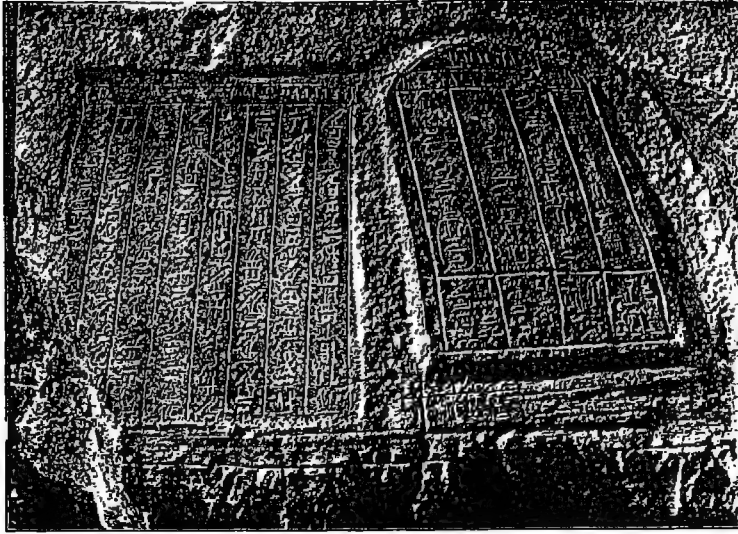
Garstang, Mahaana and Bet Khallaf, London, 1902.

(١)

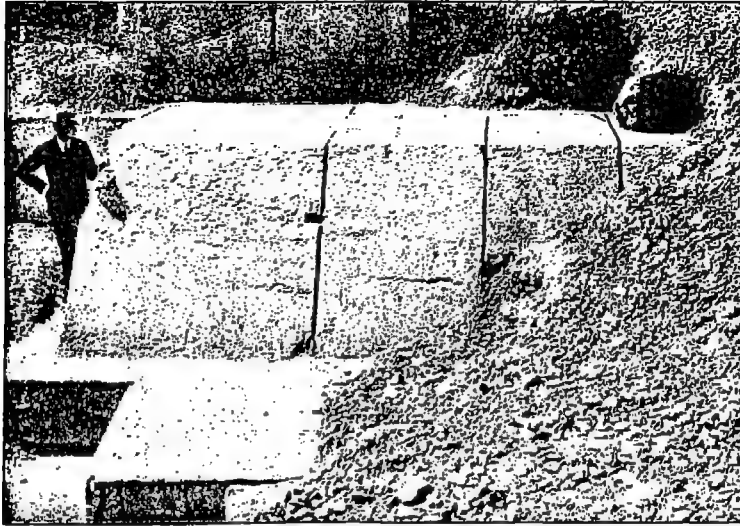
(٢)

(٣)

(٤)



شكل ٦٥ - نصوص صخرية برادى مفارقة بطور سيناء يرجع تاريخها إلى زمن الملك
أمنمحت الثالث اعترفها الملك ستفرو أحد معبودات تلك الجهة
(مأخوذة عن مصلحة المساحة)



شكل ٦٦ - صورة بقايا الصخور الكاسية لقاعدة الهرم الا كبر ارض فدا
بالخطوط السوداء مواقع اتصال تلك الصخور بعضها ببعض
لصعوبة رؤيتها (مأخوذة عن كوفتجرون)

ومع جهلنا بتاريخ خلفاء زوسر فالتنا تعلم أن قوة وثروة القطر المصري وقتئذ مكنتهم من تشييد أهرام حجرية كبيرة كهرمي دهشور . ويعتبر هذان الهرمان أقدم الأهرام المعروفة للآن وأعظم برهان على رقي وثروة المملكة المصرية أيام الأسرة الثالثة . ولا يتمالك الناظر لهذه الآثار أن ينجح نفسه عن سر تقدم البلاد الداخل وقتئذ بل كثيرا ما يعجز المتأمل في هذه العمارات عن إجابة الأسئلة التي تدور في مخيلته بصدد هذا . والمعروف أن البلاد بلغت في أواخر حكم الأسرة الثالثة درجة رفيعة من الرقي والعزوى الأخص في عهد الملك سنفرى الذى بنى سفنًا كثيرة طول الواحدة مائة وسبعون قدما تقريبا استعملت بمياه النيل في الأعمال التجارية والإدارية^(١) كما واصل أيضا استخراج النحاس من طور سيناء وأخضع بدو تلك الجهات وسجل انتصاراته على صفوفها^(٢) . ثم وطد سيادة مصر على تلك الأقاليم حتى اعتبر في العصور التالية المؤسس الأكبر للنقوذ المصرى بسيناء وقد سمي باسمه أحد مناجم تلك الجهة^(٣) . وبعد ما مضى على وفاته ما ينيف على ألف سنة افتخر الملوك بأن مشروعاتهم بسيناء فاقت كل مشروعات عملت هناك منذ زمن الملك سنفرى^(٤) . واعتبر سنفرى في سيناء إلها شريكا للعبودة حاتحور والمعبود سؤيد فذكر في الدعوات والتوسلات التي كان يتلوها هناك العمال الجسورون الذين ضخوا بجياهم في تنفيذ أوامر فراغتهم^(٥) (شكل ٦٥) . ونظم سنفرى وسائل الدفاع على حدود مصر الشرقية ويرجح كثيرا أنه شيد الحصون جهة البحيرات المرة ببرزخ السويس التي بقيت إلى أيام الأسرة الخامسة . وأقام الجسور والمحطات شرق الدلتا التي خلدت اسمه مدة ألف وخمسمائة سنة تقريبا بعد وفاته^(٦) . أما في الغرب فقد بسط نفوذه على إحدى الواحات الشمالية^(٧) . وأعظم من هذا وذلك أنه وطد التجارة مع الأقطار الشمالية فأرسل أسطولا بحريا مؤلفا من أربعين سفينة إلى بلاد فينيقيا لطلب ككل الأرز الخشبية من متحدرات جبال لبنان^(٨) . واقتنى أثر زوسر فشن الغارة على النوبيين الشماليين فأسر منهم سبعة آلاف أسير وماتى ألف من الأغنام والبهائم الصغيرة^(٩) .

وقد شيد هذا الملك القوى العزيز "حاكم الأرضين" مقبرتين لنفسه أقدمهما بميدوم فيما بين منف والفيوم وهى على نخط مصطبة زوسر الحجرية تحتها لحد الجثة . ثم كبرت هذه المقبرة تدريجا سبع دفعات كما فعل زوسر بمقبرته فصارت في آخر الأمر هراما مدرجا . بعد ذلك ملئ الفراغ الذى بين درجات المصطبة وجعلت أضلع المصطبة الأربعة ملساء فصارت أقدم هرم معروف للآن (شكل ٦٤) . أما مقبرة سنفرى الثانية فأكبر من الأولى حجما وأبهة وهى على شكل هرم دهشور ويعتبر أكبر أهرام تلك الجهة وأعظم آثار فراعنة تلك العصور . واستنتج من نقوش أثرية وجدت حديثا أن أوقاف هذا الهرم نفذت شروطها لمدة ثلثمائة سنة بعد وفاة سنفرى .

ويعتبر حكم سنفرى مبدأ عهد الرقى والرخاء والقوة الذى بلغت فيه المملكة القديمة درجة رفيعة . وفى عهده ازدادت ثروة الأمراء والموظفين وقوى نفوذهم كما ألمعنا سابقا فامتنعوا عن تشييد مقابرهم باللبن جهة العراة كما فعل أجدادهم وأخذوا يقيمون المصاطب الحجرية البديعة حول مقبرة مليكهم

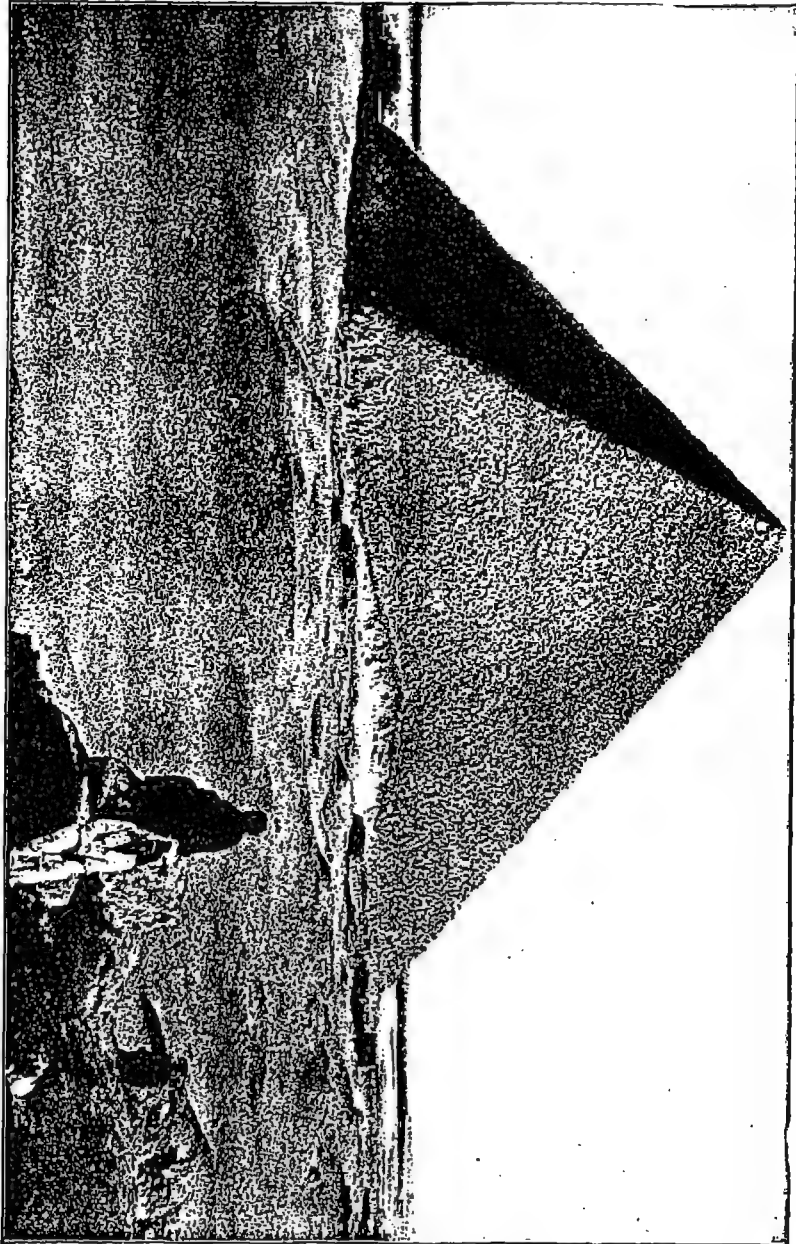
(١) ٧-١٤٦: ١ (٢) ٩-١٦٨: ١ LD. (٣) ١٣٧: ٢ (g) (٤) ٧٣١: ١ (٥) ٧٢٢: ١ (٦) ١٦٥: ١ ٢١٥ ١٣١٢ ٢١٥ ١٧٤: ١ (٧) ١٤٦: ١ (٨) ١٤٦: ١ (٩) ١٤٦: ١

المفدى . وقد استنتجنا معلومات تاريخية قيمة في عهد المملكة القديمة عن هذه المصاطب والأهرام الملكية الشاخنة . أما تاريخ العصور التي أنجبت هذه المدينة فيبحث عنه في المقابر الرملية التابعة لتلك الأزمنة السحيقة .

وبوفاة ستفرو أهم ملوك الأسرة الثالثة انتقل الملك الى الأسرة الرابعة بلا اضطراب ولا انقلاب داخلي على ما يظهر . وأول ملك أتى بعده هو خوفو أول ملوك الأسرة الرابعة ، ويظن أنه ينتمى الى الأسرة الثالثة لأنه آوى في حريمه إحدى محظيات ستفرو . لكن المعروف أن خوفو ليس منى الأصل بل من جهة بنى حسن محل عبادة خنوم ذى الرأس الكبشى . وقد سمي المصريون تلك الجهة بعد ذلك "مَنَاتْ خُوْفُو" ومعناها "مرضعة خوفو" نسبة الى مسقط رأسه . أما اسمه كاملا فهو "خنوم خوفو" ومعناه "خنوم يحمينى" اشارة الى عبادة خنوم ذى الرأس الكبشى الذى كان يعبد فى منات خوفو . وجاء فى الآثار أيضا أن أحد كهنة خنوم بمدينة منات خوفو كان موظفا بمقبرة خوفو بعد وفاته^(١) . ولم نهند للآن الى الطريقة التى توصل بها خوفو وقد كان أميراً بأحد الأقسام الى خلع ستفرو القوى والاستيلاء على عرش مصر وتأسيس الأسرة الرابعة . وجل ما أمكننا استنتاجه أن خوفو كان قويا جدا وإذا نفوذ عظيم كما يشاهد ذلك فى هرمه الكبير بالجيزة المشرف على جميع ما حوله من الأهرام . ولا يسع كل مفكر فى أمر هذه الأهرام أن يستنتج أن الحكومة وقتئذ فكرت فى تشييد مقابر منيعة شاخنة لتحفظ بها جثث ملوكها فاستخدمت لذلك معظم موارد البلاد ومهارة صناعها وأيدى عمالها . وإذا أردت أن تتصور مقدار العظمة والسلطة فى حكومة خوفو ومقدار الدقة فى نظامها فاعلم أن هرم هذا الملك تطلب من الصخور ما يقرب من مليونين وثلاثمائة ألف حجرة متوسط ثقل الواحدة منها طنان ونصف^(٢) . وبديهي أن مثل هذا البناء كلف الحكومة كثيرا فى قطع الأحجار ونقلها وجمعها ، ولذلك لا يبعد أن الضرائب التى دفعها الأهالى للإدارة كانت باهظة . وروى هيرودوت عن معاصريه أن بناء هرم خوفو تطلب مائة ألف عامل مدة عشرين سنة ، وقد أثبت الأستاذ پترى أن هذا التقدير غير مبالغ فيه . ولا يخفى أن عددا عظيما كهذا يكفى تأسيس مدينة كبيرة بجوار الهرم ويستلزم أيضا عددا عظيما من العمال لقطع الصخور من المحاجر وهذا وحده يكفى أن تشرف عليه حكومة صغيرة خاصة به . أما الصخور فكانت تقطع من محاجر المقطم جنوبى القاهرة وتحفظ هناك حتى زمن الفيضان النيل فيقلها القوم بجرا الى سفح هضبة الهرم ثم ييرونها على جسر ضخم مقام لذلك الى سطح الهضبة . واعلم أن ضخامة هرم خوفو وعظم نفقاته وكثرة ما تطلبه من الأشغال ليست فقط موضع الدهشة بل هناك أمور أخرى تستدعى النظر مثل اتقان البناء الضخم ومهارة استعمال الأحجار مع أنه لم يمض على هذا الاستعمال سوى خمسمائة سنة أى منذ عهد الملك يوسفائس . وقد ذكرنا فيما سبق أن البناء الجبرى فى عهد هذا الملك الأخير كان مقصورا على أرض القبر وعلى الحجر الجرانيتى وكان أيضا قليل الانتقان رديئه . أما الملك خاتشموى الذى أتى بعد يوسفائس بما يقرب من قرن فقد اقتصر فى قبره الملكى على بناء غرفة واحدة بالحجر . ومن

Marletto, Les Mastabas B.I.-Rougé, Inscription, Hiérog., 78. (٢)

Petrie, Gizeh. (١)



شكل ٦٧ - هرم البيرة الأكبر للكهنة حور (كوبس) كما يراه في الجهة الشمالية الغربية راي النيل خلف هذا الهرم

ثم كان هذا التقدم العظيم في المدة اليسيرة الأخيرة داعيا الى الدهشة والاستغراب . وبلغ ارتفاع هرم خوفو أربعين قدمًا أما القاعدة فربعة يبلغ طول أحد أضلاعها سبعين وخمسين قدمًا . ولا تزيد نسبة الخطأ في الطول والمسح والفراغ عن $\frac{1}{1000}$ (١) رغم عدم انتظام سطح القاعدة الأمر الذي عاق كثيرا عن قياس الأركان وما بينها من مسافات . ويستدل على اتقان بناء هذا الهرم بأن مواضع تلاصق صحوره الضخمة التي تقرب زيتها بضعة أطنان لا تزيد مسافتها عن $\frac{1}{1000}$ من البوصة وأن هذه الدقة في السطوح والحافات تشمل مساحات تقدر بالأقدنة بما لا يمكن مقارنته بدقة المهندسين المصريين الذين لا تتعدى دقتهم في الصناعة بضعة أقدام أو ياردات (٢) . والأحجار المستعملة لهذا البناء من النوع الجيري عدا حجرة التابوت وبعض حجرات أخرى فوقه حيث يختلف البناء كثيرا عن سائر الأجزاء . وبناء أسفل الهرم أثبت من أعلاه وربما كان ذلك نتيجة الاسراع في انجازه . وقد سدت الدهاليز والممرات داخل الهرم بأحكام في عدة مواضع بصخور أو أبواب جرانيتية . أما الكسوة الخارجية فكانت مصنوعة من الحجر الرملي باتقان (شكل ٦٦) ويخترق وجهها الشمالية مدخل الهرم وهو واقع فوق الدرجة الثامنة عشرة من القاعدة (شكل ٦٧) . ولابد أن خوفو كان شهيا مقداما لأنه بدأ بتشييد هرمه منذ توليه الملك ، زد على ذلك أنه غير على دفعتين تصميم أساسه الأول فكبر القاعدة ليتسنى للمهندس أن يبني داخل هذا البناء الضخم ممرات ودهاليز وما يلزم من الحجرات . وقد شاهدنا أن تكبير حجم الأهرام أمر حصل قبل عهد خوفو . وتبلغ مساحة قاعدة هرم هذا الملك ثلاثة عشر فدانا . وبالقرب منه وعلى شقيه ثلاثة أهرام صغيرة على خط مستقيم استعملت مدافن لأعضاء أسرة خوفو (شكل ٦٨) . ويحيط بالهرم الكبير طريق عريض مكسو بالحجر الرملي البديع وشرق هذا الهرم معبد تتل فيه الأديعة لاستئصال الرحمة على روح خوفو ولم يبق منه إلا أرضه المكسوة بالرخام الأسود الجميل . أما الطريق القديم الموصل قاعدة الهرم بسفح الوادي فحرب وتلف وشيد على بقايا الكفر الموجود بتلك الجهة . ويوجد جنوبي ذلك المكان جزء من جدار قديم يظن أنه بقية سور المدينة التي شيدت بذلك الوادي والتي يحتمل أن كانت مقر خوفو وأفراد أسرته . ويجب علينا ألا ننظر الى الهرم من وجهة صفاته وبنائه بل علينا أيضا أن نتخذه مثلا ظاهرا لانتقال القطر من الوحشية الى النظام والمدينة ولوجود حكومة مركزية قوية تسوس البلاد تحت إدارة شخص واحد .

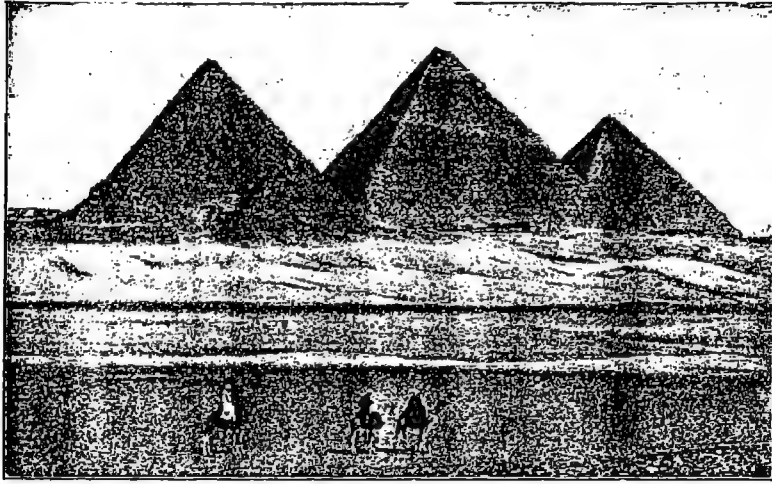
وعثر على اسم خوفو على كثير من آثار عهده في منطقة واسعة من دسوق التي هي في الشمال الغربي للدلتا الى تل بسطة في الشمال الشرقي للقطر الى مدينة الكاب (هيراكونبوليس) في جنوبي الصعيد . أما أعمال هذا الملك فلا تزال مجهولة اللهم الا ما ذكرنا عن هرمه . وقد روى عنه أنه واصل العدن في سيناء (٣) . وربما كان أول من قطع الأحجار من محاجر حاتوب . وجاء في رواية من عهد البطالسة أنه شيد معبدا لحاتور بمدينة دندره (٤) . ومنه يتضح أنه قبض على موارد القطر جميعها . ولما أسن عين ابنه الأكبر وزيرا وعهد له بمهمة كبير القضاة كما كانت العادة وقتئذ . ثم عين خوفو ابنه الآخر في المنصبين الكبيرين "بمالية المعبود" وعهد لهما في الاشراف على أعمال الحفائر .

(١) Petrie, History of Egypt, I, p. 40. (٢) شرحه (٣) ١٧٦ (٤) Dümichen Dendera, p. 15, (٤)

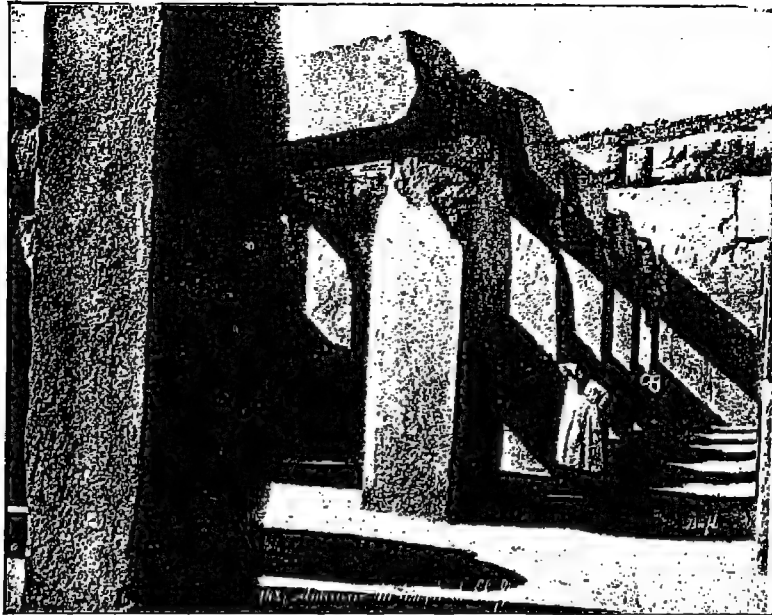
وتوفى خوفو فتبعه في الملك المدعو دِدِف رَع أو رَع دِدِف ولا تزال نجهل تاريخه وعلاقته بأسرة خوفو . وقد عثرنا على هرمه جهة أبي رواش شمالى الجيزة وهو صغير الحجم . ولا علم لنا بشيء ما خلاف ذلك ولا يبعد أنه لم يرث خوفو في الملك بل جاء في آخر عهد الأسرة الرابعة .

ولم تتأكد لآن اذا كان خفرع ابن ددِف رَع أم لا . لكنه استدل من وجود لفظ رَع في كلا الاسمين أن كهنة رَع قوى نفوذهم وقتئذ . ومعنى خفرع "ضوء الشمس" . وأما لفظ رَع فيعنى المعبود الشمسى . وشيد خفرع لنفسه هرما بالقرب من هرم خوفو (شكلي ٦٨ و ٧٠) لكنه أصغر حجما وأقل دقة ، وقد حلى جزأه الأسفل بكسوة من الجرانيت المستخرج من جهة الشلال الأول ، ولا تزال بعض آثار معبده موجودة إزاء وجهته الشرقية . وهذا المعبد يتدنى منه طريق يوصل الى وادى النيل ويتهى بمعبد بديع مشيد من الجرانيت ، وقد شيدت جدر هذا المعبد من الداخل بالجرانيت الأحمر والمرمر القاتم ويوجد بإحدى قاعاته بئر عثر فيها الأستاذ ماريت على سبعة تماثيل لخفرع أحجلها التمثال السابق وصفه في الفصل السالف (شكل ٤٨) . وهذا المعبد قريب من أبي الهول لذلك أطلق عليه أحيانا اسم "معبد أبي الهول" أو "كنيسة أبي الهول" مع عدم وجود علاقة تاريخية بينهما . ولآن لم تثبت علاقة أبي الهول بخفرع . والمعروف أن تمثال أبي الهول يرمز به عادة لفرعون مصر لأنه يمثل رأس فرعون وقوة الأسد المفترس . وعثر بين رجل أبي الهول الأماميتين على حجر تاريخي من عهد الملك تحوتمس الرابع^(١) الذى أتى بعد خفرع بألف وأربعمائة سنة تقريبا وعليه عبارة تشير الى خفرع ، فظن بعض الأثريين أن رأى العام في عهد تحوتمس الرابع كان يعتقد بوجود صلة بين خفرع وأبي الهول المذكور . ووراء ذلك لا ندرى شيئا عن أعمال خفرع ويظهر أن المملكة المصرية حافظت في عهده على تقدمها وعزها كما كانت أيام خوفو .

وتوفى خفرع فأعقبه في الملك متقاورع الذى شيد الهرم الثالث الصغير . واذا اعتبرنا حجم الهرم متناسبا مع قوة صاحبه جاز لنا أن نستنتج أن قوة متقاورع ضعفت عن خفرع . ولا يبعد أن تكون مالية القطر انحطت كثيرا في عهد هذا الملك عما كانت عليه أيام سلفيه لما استنزفه ههما من المصاريف الباهظة . وهرم متقاورع أقل ارتفاعا من منتصف هرمى خوفو وخفرع ، أما معبده فشيد من الجرانيت . وقد أثبت الأستاذ ريزنر أن هذا المعبد لم يتم بناؤه في حياة متقاورع وأن مقدم المعبد شيد باللبن بدلا من الجرانيت الغالى الثمن . ولا نعلم كثيرا عن تاريخ خلفاء متقاورع سوى ما ورد على آثار الملك شِبْسِسْكَاف من أنه اختار في السنة الأولى من حكمه مكانا ليشيد هرمه فيه^(٢) . والظاهر أن هذا الهرم لم يكن كبيرا ولا متين البناء لأننا لا تزال نجهل محله لآن لما اعتراه من التلف . ولا ندرى شيئا عن تاريخ الملوك الذين أتوا بعده حتى نهاية الأسرة الرابعة ، إنما الثابت أن العرش الفرعونى انتقل وقتئذ لمدد قصيرة الى حكام عديدين .

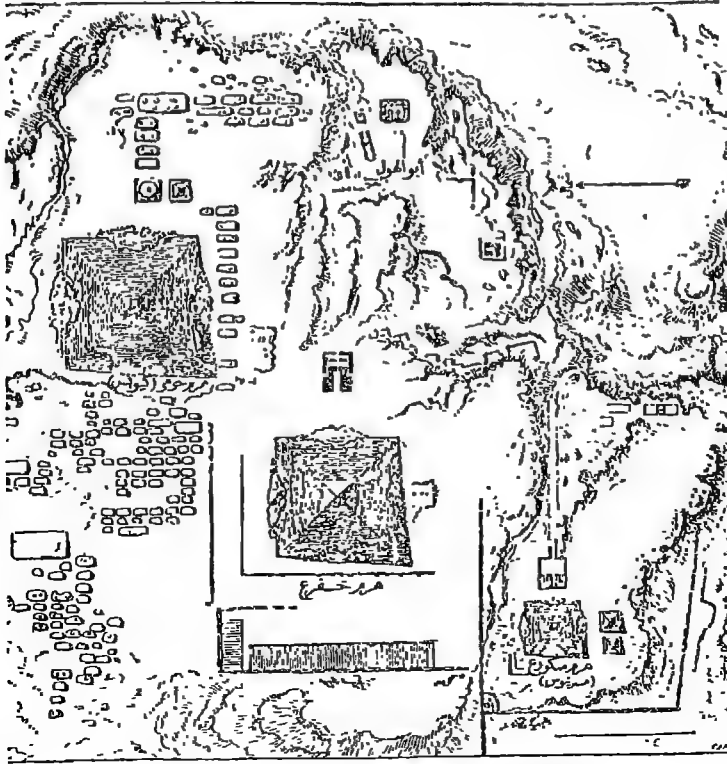


شكل ٦٨ - أهرام الجيزة كما تشاهد من الجهة الجنوبية الغربية :
الهرم الأيمن تلخوف ، والأوسط تلخفرع ، والأيسر لتقاروع



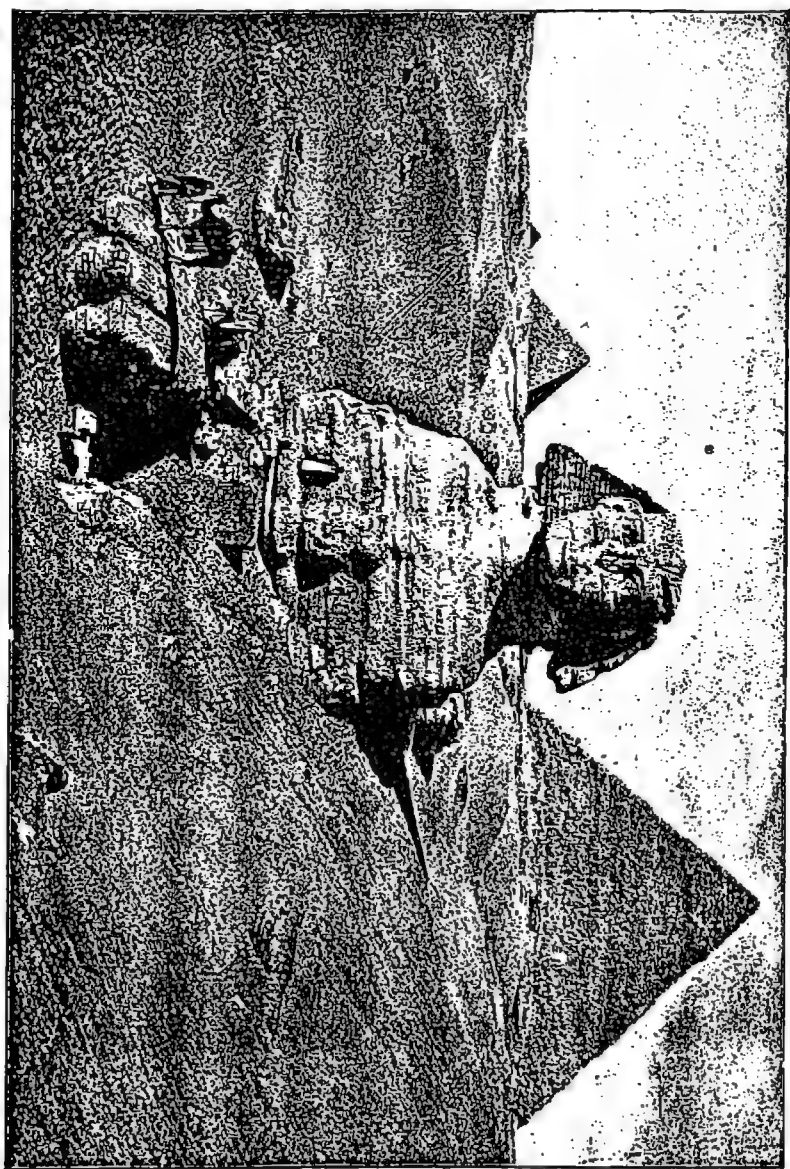
شكل ٦٩ - ساحة مشيدة بالجرانيت عند المدخل الأثرى العظيم الذى أقامه الملك خفرع
على رأس الطريق الموصل الى هرم الجيزة الثانى تلخفرع
(رابع شكل ٢٧)

ومدة حكم الأسرة الرابعة المقدرة بمائة وخمسين سنة تمتاز بالنظام وتوطيد الحكم واطراد التقدم والرق مما لم يسبق لأبناء وادى النيل أن يتمتعوا بمثله . وقد قاومت آثار ذلك العصر بمئاتها وعظمتها القرون العديدة حتى وقتنا هذا . ولا يبعد أن عهد خوفو كان أرقى عصر في عهد الأسرة الرابعة لأن القطر أخذ يضمحل تدريجيا في عهد خفرع ثم في عهد منقاورع حتى عجز هذا الأخير عن القبض بقوة على ناصية الحال كما فعل سلفاه . ولم يحفظ لنا الزمن من آثار هؤلاء الملوك الا التسعة الأهرام المشيدة بالجيزة ولا تزال تحفظ ذكراهم الى الآن (خريطة ٢) . وقد اعتبرت هذه الأهرام في العهد اليوناني ضمن عجائب الدنيا السبعة ، أما الآن فهي البقية الباقية من تلك العجائب (شكل ٧٠) . ولدينا دلائل تاريخية قوية تشير الى سر اقراض حكم الأسرة الرابعة هي أن كهنة رع بعين شمس تدخلوا تدريجيا في شؤون المملكة بعد وفاة خوفو حتى استولوا على السدة الملكية . وقد ألعنا الى ذلك عند الكلام على معنى اسمي خفرع ومنقاورع وغيرهما . ولما كان قدماء المصريين منذ بداية حكم الأسري يعتبرون ملوكهم خلفاء المعبود الشمسي في الأرض سموا ملوكهم باسم حوريس أحد معبودات العقيدة الشمسية . وفي أثناء حكم الأسرة الرابعة قوى نفوذ كهنة رع فطلب هؤلاء اعتبار ملك مصر ابنا لرع أى الشمس واعتبار الشمس أبا لفرعون . ووصلت الينا^(١) قصة خرافية يرجع تاريخها الى ما بعد سقوط الأسرة الرابعة بتسعمائة سنة تقريبا جاء فيها أن خوفو خاطب يوما أبناءه عن أعمال السحرة الماهرين المستين وطلب من نجله المدعو حرزوزف أن يحضر له ساحرا يعرفه . فلما حضر الساحر وقف بين يدي الملك وقام بأعمال سحرية أخذت يجامع القلوب ، لكنه لما أوشك أن ينتهى أظهر لخوفو عدم رغبته في افشاء بعض معلومات اليه ، الا أن الملك اضطره أن يبوح بها فقال له ان زوجة أحد كهنة رع ستلد ثلاثة أبناء تحمل بهم من المعبود رع نفسه وأن هؤلاء الأنجال سيحكمون مصر . فتكرر خوفو من ذلك الا أن الساحر بادره قائلا " لا تتكرر أيها الملك العظيم فان الملك سيتقل بعدك الى ابنك ثم الى حفيدك . بعد ذلك ينتقل الى أحد أنجال زوجة كاهن رع . الى هنا انتهى ما وصلنا عن هذه القصة الخرافية والمظنون أنها تنتهى بسرد كيفية استيلاء الأنجال الثلاثة على العرش المصرى . وقد جاء في هذه القصة أن هؤلاء الأولاد لما ولدوا ظهرت عليهم أمارات الملك حتى دهش العالم وقتئذ وأن المعبودات سميتهم (أوسركاف) و (سأكورى) و (كاكاي) وهم أول ملوك الأسرة الخامسة . والظاهر أن كاتب هذه الخرافة لم يكن ملما الا باسم ملكين من ملوك الأسرة الرابعة فلم يذكر شيئا عن (ددو رع) و (شبسيسكاف) وغيرهما ممن أتوا بعد خوفو ولم يتركوا أهراما ضخمة مثله ، لكننا نستنتج من سياق الكلام أن نفوذ كهنة رع قوى وقتئذ وسبب انتقال الحكم الى الأسرة الخامسة ، ومنه نستدل على كيفية حصول ذلك وعن أصل هذه الأسرة . وتعتبر هذه الخرافة من أجمل الخرافات الحكومية لأنها تكشف لنا عن السر في اعتبار فراعنة مصر أبناء رع منذ ذلك الحين الى نهاية التاريخ المصرى القديم^(٢) .



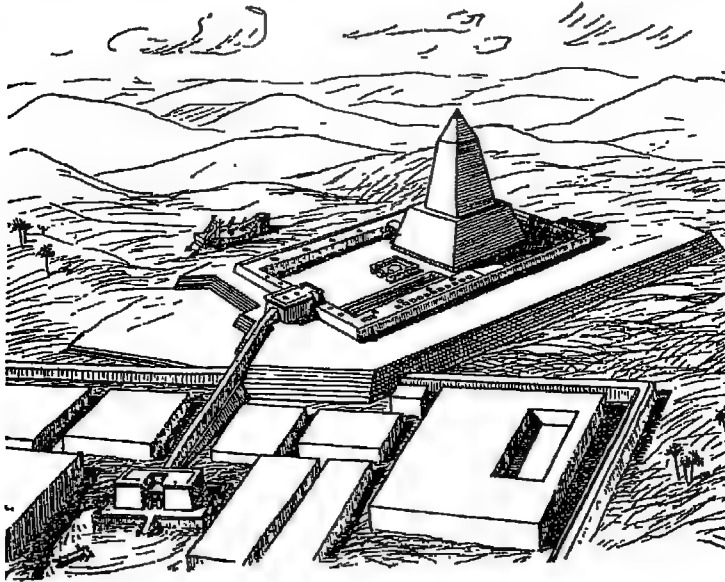
خريطة رقم ٢ : جبانة الأسرة الرابعة بالمحيزة

وحكمت الأسرة الخامسة القطر المصري حوالى عام ٢٧٥٠ قبل الميلاد واتخذت منف قاعدة لحكمها . وقد لوحظ على ملوك هذه الأسرة صفات مشتركة تنشئ مع ما جاء فى القصة السابقة ، منها أنهم لقبوا وقت تتويجهم بالألقاب تحوى اسم رع بعد ما كان هذا الأمر صعب التنفيذ فى عهد الأسرة الرابعة ، كما أن اسم الملك كان مسبوقاً دائماً بعبارة ابن الشمس بعد ما كان ينسب قدماً الى المعبود حوريس ، ثم أضافوا لقباً آخر يشير الى انتصار حوريس على ست ، فبلغت الألقاب الفرعونية بذلك خمسة بقيت مستعملة مدى التاريخ المصرى . واشدّة تعلق الأسرة الخامسة بعبادة رع شيد ملوكها معابد للشمس بجوار منف وسموها بأسماء كثيرة مثل "مسكن رع الجميل" و"سرور رع" . واتبع فى تشييد هذه المعابد نظام واحد تقريباً يتلخص فى حوش عظيم تتفرع من جانبيه حجرات عديدة ويحوى مذبحاً كبيراً وينتهى فى آخره بمصطبة ضخمة منصوب عليها مسلة (شكل ٧١) . وقد اعتبرت المسلة رمزاً للعبود رع . ومن هذا الوصف يتضح للقارئ أن معابد تلك العصور لم تحو القاعات المعروفة الآن "بقدس الأقداس" . واعتبر بعض الأثريين المسلة وما أحاط بها من البناء صورة مكبرة لقدس الأقداس بعين شمس . وزخرت جدران المعابد بنقوش أثرية عديدة تظهر أحوال المعيشة ، ففيها المناظر الخاصة بالأنهار والمستنقعات والبرك والحقول



شكل ٧٠ - أبو الهول العظيم بالجيزة ويشاهد في الخلف هرم شقيرع على اليمين ، وهرم متاورع (اسر ينفوس) على الشمال

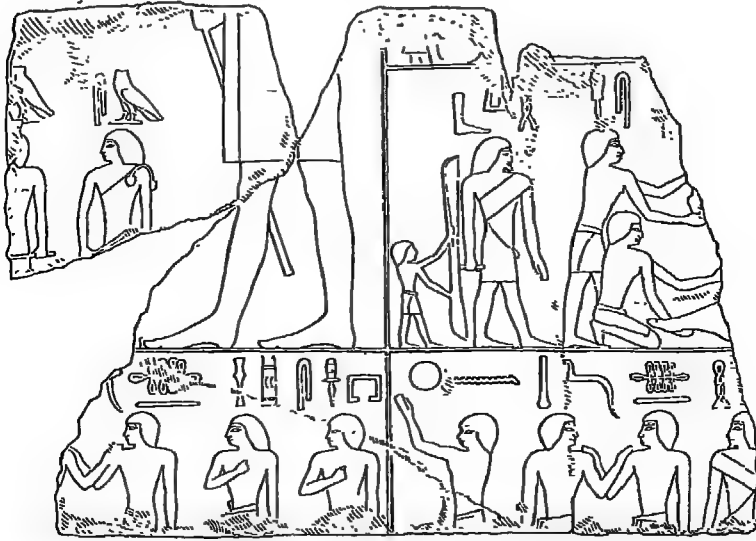
والصحارى والاحتفالات الملكية (شكل ٧٢) . أما خارج المعبد فكان مزدانا بمناظر الانتصارات الفرعونية الحربية . وجرت العادة أن يضع القوم سفيتين خشيتين على قاعدتين مشيدتين باللبن يمثلان سفيتي المعبود رع السماويتين اللتين يسبح عليهما في الأفق صباحا ومساء . وحبست على هذه المعابد أوقاف كثيرة^(١) كما أكثر فيها من الكهنة والخدم ، وقسم هؤلاء الى خمس درجات تحت ادارة رئيس عام يشرف على أعمالهم جميعا وعلى أمتعة المعبد . وبتوالى الأيام كثرت المعابد فقامت كهنة المعابد القديمة بأعمال المعابد الحديثة . والمظنون أن كل ملك من الأسرة الخامسة شيد معبدا لرع حتى الملك إمزيسى الثامن فى الأسرة^(٢) . بذلك كثرت أملاك رع وارتفعت منزلته فقوى نفوذه مدى التاريخ . ولما ازدادت عقيدة المصريين ثبوتا فى ألوهية الشمس أكثروا من الخرافات



شكل ٧١ - صورة لمعبد الشمس بجهة نصير بالقرب من أبو صير بعد الترميم (مأخوذة عن بورخارت)

الخاصة بها ولؤنوا واخترعوا خرافات أخرى وصبغوها بصيغته حتى اعتبر القوم هذا الإله ملكا على الوجهين القبلى والبحرى وحاجا على القطر المصرى قبل زمن الفراعنة . ثم توهموا أن المعبود تحوت اشتغل فى خدمة رع فى العصور الأولى بهيئة وزير مساعد . وإعلم أن تغير الأسر المالكة لم يصحبه تغير فى الألقاب والديانة فقط بل شمل أيضا انقلابا فى نظام الحكومة ودولاب الأعمال . فبعد ما كان ولى العهد فى الأسرة الرابعة يتولى مركز الوزارة ورياسة القضاء بحكم العادة المتبعة ويحتفظ بذلك على أقوى النفوذ فى المملكة ، أصبحت هذه الوظيفة تعطى بالوراثة لأسرة أخرى تدين بمذهب يتاح المنفى . وجرت العادة أن تلقب أفراد هذه الأسرة باسم بتاح حوتب وقد عثرنا فى التاريخ على خمسة أفراد منهم . والظاهر أن انتزاع الحكم من الأسرة الرابعة سبب اقتسامه بين كهنة رع

بمدينة عين شمس الذين احتفظوا بوراثنة السدة الملكية ، وكهنة پتاح بمدينة منف الذين احتفظوا بوراثنة مركز الوزارة ورياسة القضاء . لكن هذه الوراثة في مناصب الحكومة أثرت تأثيرا سيئا في الادارة كلها لأن حكام الأقسام أخذوا ينفصلون تدريجا من السلطة المالكة ويحتفظون بوراثنة مراكرهم . وقد أظهر ملوك الأسرة الخامسة عناية واحتراما للسراة الذين ساعدوهم على انتزاع الملك فرقى الملك أوسركاف أول ملوك هذه الأسرة كبير أمنائه حاكما على " قسم المدن الجديدة " بمصر الوسطى^(١) ، وأضاف الى دخله مرتب كاهنين من أوقاف الملك متقاورع من الأسرة الرابعة ، ولا يبعد أن كان هذا المرتب صرف سابقا لبعض محاسب الأسرة الرابعة ، وعلى العموم فان أوقاف الأسرة الرابعة قد روعيت باحترام في عهد الأسرة الخامسة .



شكل ٧٢ - نقوش بارزة بمعبد الشمس جهة نصير بالقرب من أبو صير . يشاهد في الجهة اليمنى من القسم العلوى كيفية تطهير قدمى فرعون مصر

واعترضت أوسركاف مصاعب جمّة وقت توليه الحكم لكنه وطد مركزه الملكى في البلاد وحصر وراثة العرش في أفراد أسرته وقام بالحفائر واستخراج الصخور من جهة أسوان^(٢) . وقد وجد اسم هذا الملك منقوشا بتلك الجهة ضمن أسماء ملوك آخرين مع بعض ملاحظات عن أحكامهم وحوادث أيامهم في الصعيد . وتوفى أوسركاف فتبعه سحورا الذى شيد لمصر أسطولا بحريا جعلها أول دولة بحرية معروفة في التاريخ . وقد عثر حديثا على لوح حجرى بهرم هذا الملك ببوصير وجدت عليه رسوم لأربع سفن عظيمة مشحونة بالأسرى الفينيقيين حولهم بحارة مصريون . وتعتبر هذه أقدم رسوم بحرية وجدت للآن (حوالى سنة ٢٧٥٠ قبل الميلاد) وأقدم صور لسكان سوريا الساميين . وأوفد سحورا أسطولا آخر الى بلاد الصومال (بونت) وجنوبى خليج عدن لطلب البخور والروائح

(١) ٢١٣:١ ملاحظة (٢) Mariette Mon., div., ٥٤ e.

العطرية والأدھنة الجميلة الكثيرة الاستعمال عند الشرقيين . أما الصومال فكانت تعرف عند المصريين " بالأرض المقدسة " ونسب بعض الأثريين مبدأ تجارة مصر مع الصومال الى عهد الأسرة الأولى لكثرة استعمال ملوك هذه الأسرة لخشب المر . لكن يجوز أن هذه الأخشاب العطرية أتت عن طريق التجارة براً وتولاها سكان شاطئ النيل الأزرق وعطرية وأعلى النيل . وجاء في الآثار أن أحد أبناء خوفو أقتنى عنده عبدا صوماليا^(١) لكن المعروف أن سمحورا هو أول ملك أثبتت آثاره أنه مؤسس المواصلات البحرية مع الصومال رأسا^(٢) . وما ورد عنه أنه جلب من تلك الجهات ثمانين ألف ميكال من المروستائة متقال من مخلوط الذهب والفضة وألفين وستائة ساق من نباتات ثمينة لا يبعد أنها الآبنوس . ودقون موظف لهذا الملك جهة الشلال الأول^(٣) نقوشا كثيرة على الأحجار أشار فيها الى حملة حربية قام بها مليكه بتلك الجهات . وتعتبر هذه النقوش أقدم ما وجد من نوعها جهة الشلال الأول .

ويستدل من آثار الملوك الأربعة الذين حكموا القطر بعد سمحورا أن القطر حافظ في عهدهم على مركزه السياسي والمالي والعمراني وأن المصريين أخذوا يتطلعون الى خيرات ومصنوعات البلاد الأجنبية غير الموجودة بمصر . ففي النصف الأخير من حكم الأسرة الخامسة (حوالي النصف الثاني للقرن السابع والعشرين قبل الميلاد) فتح الملك إزيسى محاجر وادى الحمامات التي تبعد عن النيل بمسير ثلاثة أيام . وقد قطعت أحجار من تلك المحاجر قبل ذلك الوقت وعملت منها أوان حجرية ، ولكن الثابت أن إزيسى هو أول ملك نقش اسمه هناك^(٤) . ولما كان هذا المكان أقرب جهات البحر الأحمر للنيل صارت القوافل تتجاز صحراء مبتدئة من فقط مارة بوادى الحمامات حتى تصل الى البحر الأحمر ، وكان هذا السفريستغرق حوالى خمسة أيام ، وعليه فكان هذا الطريق أسهل المواصلات لأرض الصومال ، ولذلك أرسل سمحورا بعثته الحربية الى تلك الجهات عن هذا الطريق كما أرسل أيضا الملك إزيسى جيشه الى ذلك الاقليم عن هذا الممر تحت قيادة رئيس ماليته المدعو بررد (Burded)^(٥) . ولما توفي إزيسى ورثه في الملك أونيس (Unis) فشن الغارات على النوبة وقيد اسمه جهة الشلال الأول حيث لقب نفسه فيها "سيد القطرين"^(٦) .

ولم تكن سلطةحكام الأقسام ورؤساء الأعمال الادارية أيام الأسرة الخامسة خاضعة تماما للسدة الملكية كسابق العهد ، فأصبحنا نرى بين آثار الملوك بسيناء اسما لأحد الحكام أو رؤساء الأعمال خلافا للتبع ، لأن الملك كان الشخص الوحيد الذى يذكر اسمه هناك ويرسم كآلة مشرف على الأعمال ظافر بأعدائه بشكل مهيب جليل . أما في عهد إزيسى فقد شملت نقوشه سطرا واحدا في ذيل بلاغ رسمى هناك جاء فيه أن احدى حملات تلك العصور كانت تحت قيادة ضابط من ضباط الجيش^(٧) ، ويعتبر هذا أقدم مثل لظهور الأثرة التي أخذت تدب باستقراءين كبار الموظفين في البلاغات الرسمية وكذا الصعوبات التي اعترضت فراعنة تلك العصور من جراء هذه الصفة الذميمة .

(١) LD, II, 23, Erman, Aegypten, 670. (٢) ١ و ١٦١ و ٨

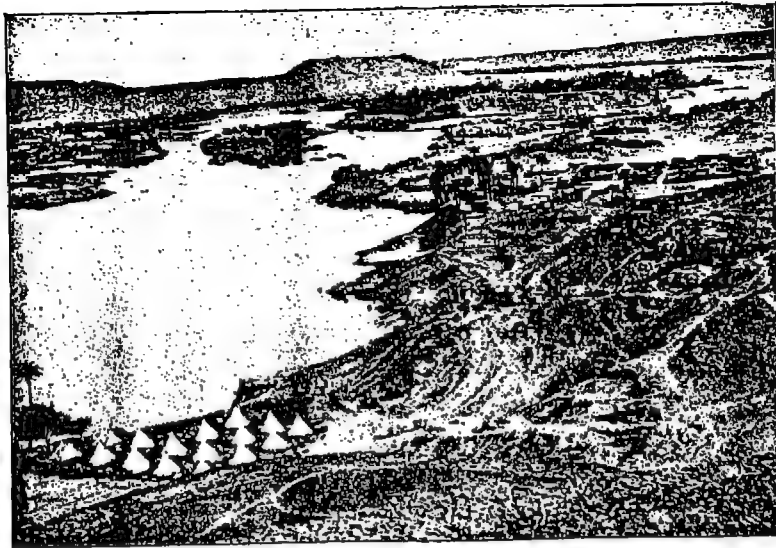
(٣) De Morgan, Catalogue de Monuments, I, 88. (٤) LD, II, 115, L. (٥) ١ و ٣٥١ و ٣٥٤

(٦) Petrie, Sessou, XII, No. 312. (٧) ١ و ٢٦٤ و ٢٦٦

ولا يبعد أن صغر حجم أهرام الأسرة الخامسة ورداءة بنائها على حافة الصحراء جنوبى الجيزة بجهة بوصير وصقارة جاءت دليلا آخر على ضعف سلطة هذه الأسرة وبرهاننا واضح على فقر الخزانة المصرية بالنسبة لحالتها فى حكم الأسرة الرابعة . وليس فى هذا الكلام ما يحتاج الى كثير عناء لاثباته فأهرام الأسرة الخامسة لا يزيد ارتفاعها على نصف هرم الجيزة الأكبر كما أن بناءها الداخلى ردىء ومركب من صخور متراكمة بينها رمال كثيرة وهى الآن مهتمة لم يبق منها الا القليل من معالم الأهرام الحقيقية . أمام هذا كله لا يسعنا الا أن نستنتج أن الحكومة المركزية فى عهد الأسرة الخامسة أخذت تضعف تدريجيا وأن الرأى العام أخذ يقاوم فكرة استعمال خيرات البلاد وثروتها لاقامة المقابر الملكية . وعلم أن حكم الملوك التسعة للأسرة الخامسة مدّة مائة وخمسين سنة كان مقرونا بتغير سياسى داخلى خطير مع تقدم عمرانى هائل ، فالفنون الجميلة والصناعة بلغتأوا عظيما فى التقدم وكنا الآداب ارتقت كما يشاهد ذلك فى نصائح بتاح حوتب وزير الملك إزيسى ورئيس قضاته وقد ألمعنا اليها سابقا . ثم أن المعابد والديانة كانتا محترمتين بما يتناسب مع عز مصر وأبتها التى امتازت بها على الأمم وقتئذ ، فأصبحت ترى المعابد موضع عناية القوم فى أنحاء القطر ، كما أن الأوقاف والخيرات أخذت تحبس على الهياكل^(١) وصار الملك يقدم فيها القرابين كل يوم . وإلى هذا العصر تعزى معظم معارفنا عن أقدم ديانة للصريين وأقدم نموذج واف للغة المصرية القديمة . وأهم نصوص دينية عثرنا عليها لذلك العهد هى الموجودة على جدر هرم أونيس آخر ملوك لأسرة الخامسة ، وتعرف هذه النصوص الدينية الآن "بنقوش الأهرام" . ولما كان معظم هذه النصوص والعقائد الدينية يرجع فى الأصل الى عهد ما قبل الفراعنة على الأرجح اعتبر الأثريون هذه النصوص أقدم مرجع يبحث فيه عن ديانة القطر المصرى ولغته قبل عهد هرم أونيس .



شكل ٧٣ - بقايا هرم أوتيس يسفاره من آثار الأسرة الخامسة
وهذا أقدم هرم يحوى نصوصا دينية



شكل ٧٤ - صورة شمسية لجزيرة إلفنتين مسقط رأس أمراء حدود مصر الجنوبية .
وتقع مقابر هؤلاء الأمراء في الصخور الغربية للنيل

الفصل السابع

الأسرة السادسة : اضمحلال المملكة القديمة

لم يرد في درج تورين البردى أوفى قائمة أثرية لفراعنة مصر اشارة الى انتراع عرش مصر من نسل الملك مينا حتى آخر عهد الملك أونيس . والثابت أن الملك انتقل بعدئذ الى أسرة أخرى لأسباب أوضحتها للقارئ سابقا تلخص في محاولة حكام أقسام القطر الحصول على قسط أوفر من القوة والحرية . ولما حكمت الأسرة الخامسة تحت نفوذ كهنة عين شمس أخذ حكام الأقسام يحتكرون مناصبهم لأفراد أسرهم بشكل وراثي فعجز الملوك عن كبح زمامهم كما فعل فراعنة الأسرة الرابعة ، فهد بذلك الطريق لانفصال هؤلاء الحكام عن السلطة العليا المالكة وانتهى الأمر بقلب حكم الأسرة الخامسة على أيدي هؤلاء الحكام وذلك بعد حكم أونيس حوالى عام ٢٦٢٥ قبل الميلاد . على أثر ذلك أعلن كل حاكم استقلاله عن غيره واستعاض عن لقبه الأصلي " حاكم قسم " بلقب " السيد العظيم " أو " السيد الكبير " واستمر الحكام يدبرون أعمالهم مستقلين استقلالاً ذاتياً بلا تبعية للحكومة المركزية . ويعتبر هذا الانقلاب الداخلى أقدم مثل تاريخى معروف عن انحلال السلطة المركزية وتجزئتها الى سلطات صغيرة فرعية وعن كيفية تضخم الأخيرة على حساب الأولى . وقد حصل مثل هذا تماما في امبراطورية شارل الأكبر التي تجزأت بعده الى عدة دوقيات وامارات ومقاطعات مستقلة . ولم يكن هذا الانقلاب الداخلى لجائيا بل تدريجيا لأن حكام الأقسام استمروا مدة طويلة خاضعين بعض الخضوع للملكهم منفذين ارادته وأوامره . ولما أصبحت وظائفهم وراثية محصورة في أسرهم استمروا زمنا يعينون في تلك الوظائف بأمر ملكي ويمنحون الاقطاع والألقاب بمرسوم ملكي أيضا . وبالرغم من ذلك فقد أخذت علاقة هؤلاء الحكام بالقصر الملكى تضعف فامتنعوا عن دفن جثثهم حول قبور ملوكهم وأخذ كل منهم يختار لنفسه قبرا في اقليمه ، مثبنا بذلك انعزاله عن السلطة الحاكمة . وقد عثر الأثريون حديثا على عدة مقابر هؤلاء الحكام منحوتة في صخور جهة جزيرة الفيل وقصر الصياد والشيخ سعيد وزاوية المتين ووجد غيرها مشيدة بالجمر جهة العرابة المدفونة . واجتهد هؤلاء الحكام في تعمير أقاليمهم فورد عن أحدهم أنه جلب بعض أبناء الأقاليم المجاورة له وجعلهم يقيمون عنده لتعمير قسمه وزيادة عدد سكانه وتحسين قراه الصغيرة القابلة السكان (١) .

وصارت المالية صلة الاتصال بين حكام الأقسام والبيت المالک في تلك العصور . فاضطر الملك في أواخر أيام الأسرة الخامسة أن يعين حاكما عاما على الوجه القبلى يستعين به على تنفيذ أوامره

هناك . أما الوجه البحرى فكان أكثر خضوعا ولذا لم يعين عليه حاكم عام . والغريب أنه رغم كل هذا الغير كان فرعون مصري فتخرو ويعتقد بأنه صعيدى الأصل وأن صلته بالدلتا صلة الغازى الفاتح .

وبقيت منف مركز الحكومة طول هذه المدة وكانت تعرف وقتئذ بمدينة " الحائط الأبيض " حتى حكم الملك تيتا مؤسس الأسرة السادسة المجهول التاريخ . وتوفى تيتا فتبعه فى الملك ببي الأول فشيّد لنفسه هراما ومدينة بجوار مدينة " الحائط الأبيض " وأطلق على هرامه اسم " من نُوفَر " . بعد ذلك أطلق اسم هذا الهرم على مدينة " الحائط الأبيض " ولما أتى اليونان حرفوا هذا الاسم الى منفيس ونطق به العرب منف ولا يزال هذا الاسم مستعملا فى الكتب العربية للآن . أما اسم " الحائط الأبيض " فقد انعدم ولم يبق له ذكر الا فى عالم العاديات وبين أسطر الشعر . وصار لمنف منزلة كبيرة فى القطر فكبر حجمها وزاد عدد سكانها واحتاجت الى أشرف الوزير عليها فلقب وقتئذ " ببحاكم مدينة الهرم " أو " حاكم المدينة " . ثم اشتهرت منف بين الخاصة والعامة " بالمدينة " فقط . واستمر ملوك الأسرة السادسة محافظين على سلطانهم وهيتهم كأسلافهم وعلى عبادتهم لرع واعتبارهم إياه رئيس المعبودات الأكبر واحترامهم لكل شئ خاص بأسلافهم وأجدادهم رغم ما ذكرناه من التطورات الداخلية الكثيرة بين حكام الأقسام العديدين .

واجتهد حكام الأقسام فى عهد ببي الأول أن ينفصلوا عن سلطته وإدارته لكنه قبض عليهم بقوة ومهارة وحافظ على نفوذه فى جهات القطر كلها . وقد شهدت له بذلك آثاره الكبيرة والصغيرة . وقد لوحظ أن هؤلاء الحكام وقتئذ نقشوا على الأحجار فى أقسامهم ومحاجرهم أعمالهم وتاريخ حياتهم عدة دفعات . وظهارا لخضوعهم للسدة الملكية تحتم عليهم أن يرسموا فى الجزء العلوى لتلك النقوش ملكهم يعبد إله أو يصعد عدوا ، وتلى ذلك النقوش المظهرة لرفعة مقام حاكم القسم وأتباعه فى رحلاته ومشروعاته . وكانت هذه النقوش مختصرة فى بادئ الأمر لكنها طالت تدريجا بمرور الزمن ، مثال ذلك أن الملك ببي لما أرسل بعثة الى محاجر وادى الحمامات تحت إدارة مفتشين من المالية ورئيس مهندسى هرامه مصحوبين برجال فنيين لقطع الأحجار الجيدة لبناء الهرم حفر هؤلاء الأشخاص نقوشا لهم فى لوحين ملكيين بالمحاجر المذكورة كما حفروا أيضا ثلاثة نقوش أخرى هيرغليفية أثبتوا فيها أسماءهم وألقابهم وأعمالهم ^(١) . كذلك لما أرسل الملك ببي الأول الحاكم العام للوجه القبلى ورئيس قسم الأرنب فى الوقت نفسه الى محاجر حاتوب لقطع الأحجار المرمرية ترك هذا الحاكم هناك نقوشا شرح فيها مهمته وأعماله التى أداها للملك ^(٢) . وهناك نقوش أثرية بوادى مغاره بطورسيناء نقشها قائد حربى أرسله ببي فى مأمورية كالسابقة ذكر فيها أعماله وألقابه وخدماته نحو ملكه ^(٣) . وبقي القوم يفتخرون بألقابهم ويتشرفون بها حتى كثرت لديهم ألقاب الشرف وتلاشى قيامهم بعبء ما يتطلبه لقب واحد منها ، واحتاج الأمر أخيرا أن يذكر بعد الألقاب لفظ " حقيقى " للتمييز بين الممنوح منها للجدارة والمعطى من قبيل الشرف لا غير . وذكر لنا موظف

يدعى أونا ترجمة حياته وكانت صلته متينة بالبيت المالک استنجنا منها معلومات كثيرة عن أعمال حكام الأقسام وقتئذ . فقد ذكر لنا هذا الموظف أنه بدأ حياته عاملا حقيرا في أملاك الملك تتا الثاني^(١) فلما تولى پي الأول عينه قاضيا وألحقه بالقصر الملكي وأنعم عليه بمرتب كاهن من كهنة الهرم^(٢) ثم عينه أمينا بالقصر فغاز رضاه بكفائيته . واتضح بعد ذلك وجود مؤامرة نسوية في القصر ضد الملك فكلف أونا مع زميل له تحقيق المؤامرة وإصدار حكمهما فيها^(٣) . وهكذا قدر پي كفايات مستخدميه واستفاد بهم في إدارة شؤونهم وجعل حكومته مطيعة له ولأفراد أسرته . أما في الصعيد فعين پي حاكم قسم الأرنب حاكما عاما على الوجه القبيل وطلب أختي حاكم طينه (Thinis) ليقترن بهما ويجعلهما ملكتين شرعيتين . وهاتان الأختان كانتا متمثلتين في الاسم وتدعيان لمخنس مريرى (Enekhnes - Merire) وقد رزق الملك منهما نجلين توليا الملك بعد وفاته بمدة^(٤) .

وبلغت سياسة پي الخارجية شأوا عظيما ودرجة كبيرة غير مسبوقة النظر فقد أخضع بلاد النوبة تماما وجند من أهلها فرقا للجيش المصرى استعملها في غزواته الجنوبية والشمالية . واعتاد كلما أغار البدو على شرق الدلتا أو مناجم سيناء أن يرسل الى أونا أمرا بمحشد جنود نوبية مع جنود مصرية لكبح جماح هؤلاء العصاة . أصدر أمره فيما بعد بتعيين أونا قائدا عاما للقوات المصرية في أثناء الحرب مع البدو مرقيا إياه بذلك على زملائه من رؤساء الجيش^(٥) . والتجأ أونا بالبدو وسحقهم وشتت شملهم ثم عاد الى وطنه وبعد ذلك عهد اليه ملكه بأربع غارات أخرى ضد البدو أيضا عقابا لهم . ولما أغار البدو على إقليم الشام شرق الدلتا أرسل پي عمارة بحرية تحت قيادة أونا المذكور الى فلسطين فسارت محاذية سواحل فلسطين الجنوبية وأزلت جندها هناك وقتكت بالناشرين فككا ذريعا ثم طردتهم الى جبال فلسطين الشمالية^(٦) . ويعتبر هذا المكان أقصى ما وصل اليه النفوذ المصرى في عهد الملكة القديمة . وبما يؤيد ذلك وجود جعران من الأسرة السادسة قرب جازر (Gezer) جنوبي بيت المقدس تحت طبقات الأرض مع آثار أخرى للمملكة المتوسطة . وتعتبر قصة أونا هذه برهانا ساطعا على شدة ميل المصريين وقتئذ الى الراحة والسلام لا الى الكفاح والقتال .

هكذا ثبت پي مركز أسرته وقواه . وتوفى بعد ما حكم حوالى عشرين سنة فأعقبه فى الحكم ابنه مرنرع (Mernere) وكان شابا شديدا البطش قوى البأس ، فأصدر أمره حالا بترقية أونا حاكما عاما على الوجه القبلى^(٧) فقام أونا بهذه المأمورية خير قيام . وأخذ حكام حدود الوجه القبلى الجنوبية يتسابقون فى خدمة الملك الشاب وكان هؤلاء يقطنون فى جزيرة الفيل جنوبى الشلال وينتمون الى أسرة عريقة (شكل ٧٤) . وجرى العادة أن سمي الجزء المجاور للشلال الأول "باب القطر الجنوبى" ولذلك لقب حاكم ذلك الجزء "بمارس الباب الجنوبى" وكانت مهمته حماية القطر من متوحشى بدو النوبة . وقد كانت الأسرة المذكورة تحافظ على النظام بتلك الجهات بنفاة الدقة حتى أنه لما صدر الأمر الملكى الى أونا بالذهاب الى تلك الجهات لقطع حجر الجرايت

(١) ٢٩٤:١ (٢) ٣٠٧:١ (٣) ٣١٥:١ (٤) ٣٤٤:١ - ٩ (٥) ٣١١:١ - ٣١٢

(٦) ٣١٥-٣١٤:١ (٧) ٣٢٠:١

اللازم لصنع التابوت الملكي والأدوات الدقيقة الخاصة بهرم الملك لم يحتاج أونا إلى أكثر من "سفينة حربية واحدة" وهو أمر لم يسبق له مثيل^(١). بعد ذلك أمر الملك فأثد أونا بفتح خمسة مسالك في سدود الشلال الجرانيتية فأتى هذا مأموريته بنجاح كما أنه شيد أيضا سبعة مراكب كبيرة شحنها صخورا جرانيتية ضخمة للهرم الملكي واستغرق ذلك كله سنة واحدة^(٢).

ولا يخفى أن مصر منعزلة شمالا انعزالا طبيعيا عن البلاد المجاورة ولذلك لم يتطلع قراة مصر وقتئذ إلى غزو الأقاليم الشمالية بل جعلوا همهم هناك الدفاع عن وطنهم ومناجم طورسيناء. أما النوبة فكانت قريبة للقطر لا يفصلها عنه إلا الشلال الأول. فلما شق مزرع طريقه للسفن بتلك المنطقة سهل عليه غزو النوبة وبسط نفوذه عليها. ولم يطعم المصريين في النوبة من أجل زراعتها فهي قليلة الفلاحة أو فاقدتها لكنهم طعموا في الذنب والحديد الخام^(٣) الموجود بالصحراء شرق النيل. ولم نعد الآن على أدوات حديدية مصرية في تلك الأقاليم. ومما يزيد أهمية تلك الجهات عند المصريين كونها الطريق الوحيد لأقاليم السودان الجنوبية الغنية التي تصدر لمصر الذهب وریش النعام وخشب الآبنوس وجلود النمر وسن الفيل وعنها أيضا تأتي للبلاد صادرات الصومال والبلاد المجاورة كالتمر والصمغ العطرية والراتنج والبخور. لهذه الأسباب كلها تحتم على القراة أن يحافظوا على النوبة لأنها الطريق الوحيد الموصل إلى تلك الأقاليم الجنوبية الغنية.

ولا تزال معلوماتنا ضئيلة بشأن زواج منطقة الشلال الأول لكننا نعرف أن القبائل التي قطنت الأراضى بين الشلالين الأول والثانى كان يقال لها الواوات وأن القبائل التي قطنت حول الشلالات النيلية الأخرى كانت تسمى كوش. ويلاحظ أن الاسم الأخير لم يرد ذكره في الآثار إلا في عهد المملكة المتوسطة. أما الجزء الأعلى لتمرعج النيل بين الشلال الثانى وملتقى النيل الأزرق بالأبيض فكان معمورا بقبائل مازوى التي كثيرا ما أمدت الجيش المصرى بالامدادات في العصور التالية حتى أطلق المصريون اسم مازوى على الجندى، وقد ورد هذا اللفظ في القبطية "ماتوى". وفوق ذلك كانت توجد قبائل يقال لها يام يظن أنها قطنت بالقرب من مازوى. أما قبائل الإرتت والسحوت فكانت تقطن الجهة الغربية لوادى النيل بين مازوى وياى جنوبا والواوات شمالا. ولا يبعد أن كانت قبائل الواوات والإرتت والسحوت تحت رئيس واحد وقتئذ^(٤). والمعروف أن هذه القبائل كانت وحشية تسكن العشاش الطيبة على شاطئ النيل أو حول الآبار المنعزلة وكانت تقتنى القطائع من الأغنام وترعى القليل من الحبوب.

ولا جدال في أن القناة التي شقها أونا في صخور الشلال الأول سهلت الطريق للنفوذ المصرى إلى السودان ولذلك أصبحت سلطة مزرع مهية بين قبائل الواوات والإرتت ومازوى وياى، فكانوا يحضرون جميع الأخشاب التي طلبها أونا منهم لبناء السفن لشحن أحجار الجرانيت من إقليم الشلال الأول^(٥). ومزرع أول فرعون ذهب إلى منطقة الشلال الأول حيث استقبل رؤساء النوبة

Rössing, Geschichte der Metalle, pp. 81, 83 sq. (٣)

٣٢٤:١ (٢)

٣٢٢:١ (١)

٣٢٤:١ (٥)

٣٢٦:١ (٤)

الذين أتوا مظهرين طاعتهم ومقدمين هداياهم إليه ، وترك نقوشا حجرية^(١) بتلك الجهات تمثله واقفا متكئا على عصا طويلة وأمامه رؤساء النوبة ساجدين . على ذلك نقوش هيروغليفية تبدأ بالعبارة الآتية ”وصول جلالة الملك الى الأراضى الواقعة بعد الاقليم الصحرى (أى إقليم الشلال الأول) لمشاهدة هذا الاقليم ولقبول الخضوع والمديح من رؤساء قبائل المازوى والإرتى والواوات“^(٢) .

واستعان مرنرع بقبائل جزيرة الفيل فى بسط نفوذه على النوبة ، فرقى رئيسهم المدعو خرخوف حاكما عاما على الوجه القبلى^(٣) (وهو لقب كان يعطى أحيانا بعض الأشخاص من قبيل الشرف فقط) لكنه أعطى أونا عن جدارة بعد اعتزاله الخدمة لكبر سنه أو وفاته على الأرجح . وقد أظهر خرخوف وأسرته تفانيا عظيميا فى خدمة مليكهم وطاعة أوامره فى بلاد النوبة ولذا كان اعتماد الملك عليهم عظيما . فمن أعمال هذه الأسرة توطيد شرف جلالته وهيبته وحماية التجارة من عبث اللصوص والقبائل الهمج والتوغل فى داخلية إفريقيا وجنوب البحرا الأحمر للكشف عن تلك الجهات وخيراتها ، ويعتبر أفراد هذه الأسرة أقدم الكاشفين المعروفين فى التاريخ ، وروى أن اثنين منهم توفيا من الصعوبات والأهوال التى لقيها فى رحلات الاستكشاف .

ولكثرة خدمات حكام جزيرة الفيل وعظم أهميتها أغدق عليهم الملك ألقاب الشرف الكثيرة علاوة على ما كان لديهم من الألقاب القديمة ، فأصبحوا يلقبون الآن ”بمديرى القوافل الجالين لسيدهم خيرات البلاد“ وهو لقب افتخروا به كثيرا ونقشوه على جدر مقابرهم المحفورة بصخور تجاه أسوان مقابل جزيرة الفيل مسقط رأسهم الأصيل^(٤) . ودلتنا نقوش بتلك الجهة أن الملك مرنرع أمر خرخوف أحد حكام جزيرة الفيل بغزو أراضى يام ثلاث دفعات متوالات^(٥) . ففى الغزوة الأولى كان خرخوف شابا مساعدا لوالده المدعو إرى (Iri) الذى عهد إليه وقتئذ فى الإشراف على الأعمال وقد استغرقت هذه الغزوة سبعة أشهر . أما الغارة الثانية فقد عهد الملك فى قيادتها الى خرخوف وحده فقام بها خير قيام وقد استغرقت ثمانية أشهر . ثم كلفه الملك غزوة ثالثة أشد خطرا من السابقتين لكنه لم يكن أقل نجاحا فيها ، فلما وصل خرخوف أرض يام وجد رئيسها يحارب قبائل التتمحو الليبيين غربى اقليمه ، فسار اليه خرخوف وأخذ منه جزية وغنيمة وحمل ذلك على ثلثمائة حمار أرسلها الى مصر تحت حراسة خفراء من قبائل يام . ولم تجرؤ قبائل إرتى وستحو وواوات على الاقتراب من تلك الغنائم فى سيرها شمالا نحو القطار المصرى خوفا من سلطة وبطش المصريين ومن حراس قبائل يام الذين كانوا معها . ولم تكتف هذه القبائل بذلك بل قدمت لخرخوف الهدايا من الأغنام والبهايم وسهلت له الطريق وساعدته بمرشدين فى أثناء سفره . ولما وصل خرخوف الى الشلال الأول وجد مندوبا من قبل الملك فى انتظاره ومعه سفينة ملكية بالهدايا العظيمة تقديرا لخدماته نحو مليكه العظيم .

(١) ٣١٦ : ٣١٨ (٢) شرحه (٣) ٣٣٢ : ١ (٤) شكل ٧٤ (٥) ١ : ٣٣٣ - ٦ وانظر أيضا

وأخذ مرزوع يواصل أعماله في النوبة وجنوبي السودان مدة من الزمن ، ثم وقفت أعماله فجأة وعلى غير انتظار بالنسبة لوفاته ، ودفن في تابوت جرانيتي بهرمه الملكي جهة منف الذي شيده أونا وباشر صنع تابوته كما ألمعنا سابقا . وبقيت جثة مرزوع محفوظة في مقبرتها رغم عبث اللصوص وممر الأيام حتى عام ١٨٨١ ميلادية لما نقلت الى دار التحف بالقاهرة (شكل ٧٧) . والمعروف أن مرزوع لم يحكم الا أربع سنوات وأن وفاته كانت في أول السنة الخامسة ، ولم يترك وريثا للملكة فتبعه في الملك أخوه من أبيه المدعو بي الثاني وكان وقتئذ طفلا لم يدرك سن البلوغ . ويرجع السبب في اعتلاء بي الثاني على العرش ونجاح حكمه الى ثبات مركز الأسرة الحاكمة واخلاص حكام الأقسام لها . وبني هذا هو ابن إنجنيس مريع الأخت الثانية لحاكم طينه التي تزوجها مع أختها الملك بي الأول . بعد ذلك عين حاكم طينه المدعو زاو شقيق إنجنيس مريع وخال بي الثاني وزيرا ورئيسا للقضاة وحاكما عاما لعاصمة الملك (١) . وقد أدار زاو دولاب أعمال الدولة في حداثة سن بي الثاني بدون تغيير مطلقا في سياسة المملكة .

وفي السنة الثانية من حكم الملك بي الثاني صدر أمر من كبار الدولة المصرية الى حرخوف بالقيام بغزوة رابعة بأرض يام فقام بها خير قيام وجلب معه غنائم كثيرة وقزما من أواسط إفريقية (شكل ٧٥ و ٧٦) . وكان لسراة المصريين غرام كبير بالأقزام خصوصا وقت رقصهم لأنهم كانوا يشبهونهم بالمعبودين المثل ضاحكا دائما على الآثار . واعتقد المصريون قديما أن أرض الأقزام ذات صلة " بأرض الموتى الغربية " (المعروفة بأرض الأرواح) . ثم ان ملوكهم كانوا كثيرا ما يمشون فراعهم في مسرح من رقص الأقزام . لذلك لما علم بي الثاني بخطر حضور قزم مع حرخوف كان سروره عظيما جدا على حداثة سنه فأرسل الى حرخوف كتابا خاصا رجاه فيه الاهتمام بعدم إيذاء ذلك القزم والاحتباس من غرقه في النيل ووعده بمكافأة أكبر من التي أعطاهها الملك إزيبي وزيره برّدا لما جلب له قزما من بونت أي بلاد الصومال . وقد سرّ حرخوف بهذا الخطاب كثيرا فقصه على وجهة قبره (شكل ٧٦) اثباتا لعلاقته المتينة مع البيت الملكي (٢) .



شكل ٧٥ - مثال قزم من عهد
الامبراطورية القديمة
(مأخوذ عن ماسبيرو)

ويرجح أن غزوات حكام الجنوب لبلاد النوبة في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد كانت أقل نجاحا من غارات حرخوف ، لأنه ورد على الآثار أن أحد حكام الأقاليم الجنوبية المدعو سبني (Sebni) كان له ابن رئيسا يدعى نغو أرسل بأمر ملكي لغزو السودان قبله ذات يوم بغاة خبر قتل والده بجهة الواوات ، فحشد جنودا بسرعة وزحف معهم جنوبا مع مائة حمار ليقتص من القبيلة التي قتلت والده ، وأرسل في الوقت نفسه خبرا بذلك الى الملك مع رسول يحمل هدية قرن من العاج يبلغ طوله خمسة أقدام ، واعتذر بأن أطول قرن عنده لا يزيد طوله على عشرة أقدام ! ووصل سبني أرض الواوات فوجد جثة أبيه واقتص من قتله ثم أحضر الجثة معه الى القطر المصري محملة على حمار . ولما وصل الى وطنه وجد أن الملك أرسل له بعثة ملكية من المحنطين والتجارين ورجال المآتم وكهنة الأموات وما الى ذلك وكيات وافرة من الأقمشة والبخور والزبوت والروائح الذكية ليحفظوا الجثة بسرعة ويقدموا ما يليق بها من الحفاوة . بعد ذلك سافر سبني الى الملك ليقدم له جريل الشكر على حسن صنيعه وأحضر له أيضا الغنائم العظيمة التي جمعها له والده ، فنال من السدة الملكية أعظم عطف واحترام وبخاصة لما فعله في تخليص جثة أبيه من هؤلاء القتلة ، ومثل هذا الأمر كان من أقدم الواجبات عند المصريين . ثم أهدى الملك سبني اليه هدايا ثمينة وكية كبيرة من الذهب لإخلاصه للعرش وختم نعمه باعطائه قطعة من الأرض بأمر ملكي (١) .

هكذا امتدت سيطرة مصر على النوبة تدريجا . ثم خطر للمصريين أن يعينوا على تلك البلاد حاكما عاما من قبلهم فأصدر الملك أمره الرسمي بتعيين المدعو پي نخت (Pepinakht) في تلك الوظيفة وهذا الرجل هو أحد رؤساء جزيرة الفيل ، ومن ثم أطلق على المركز " حاكم البلاد الأجنبية " (٢) . وكلف الملك هذا الحاكم غزو أراضي الواوات والإرت فنفذ ذلك وأحضر معه غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى والأطفال ورؤساء القبائل كرهائن لحماية البلاد من حصول اضطرابات في المستقبل (٣) . وصدر أمر ملكي ثالث الى پي نخت بالقيام بغزوة ثانية فقام بالمأمورية خير قيام وأسرى رئيسين من رؤساء قبائل السودان مع قائديهم وكثيرا من الغنائم وقطعان الأغنام (٤) . ويستدل من نقوش مقابر جزيرة الفيل أن غزوات المصريين بلغت وقتئذ أرض فوش (٥) . وبهذه الطريقة سهل على ملوك المملكة المتوسطة أن يخضعوا النوبة السفلى وقد كان هذا الأمر من أسهل المسائل على ملوك الأسرة السادسة لولا سقوطها وحصول اضطرابات داخلية .

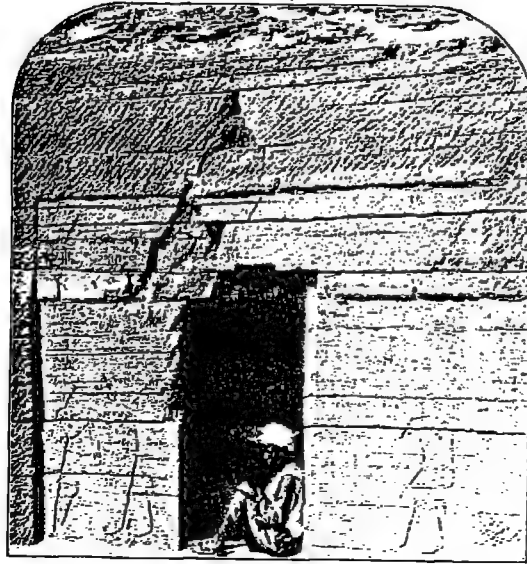
والفضل في ربط تجارة مصر بالصومال وجنوبي البحر الأحمر يرجع الى حكام جزيرة الفيل الذين كانوا مزقدين على ما يظهر بالسلطة على البلاد الممتدة من النيل الى البحر الأحمر . ولا يخفى أن غزوات هؤلاء القوم للصومال كانت خطيرة وصعبة كغزوات النوبة . ولعدم اتصال النيل بالبحر الأحمر اضططر حكام جزيرة الفيل وقت غزوتهم لبلاد الصومال أن يبنوا سفنا يبنوا على البحر الأحمر

قريبة من النيل كالفصير أولوكوس ليمين (Leucos Limèn) . ورقى المصريون الملاحة بتحسينات أدخلوها عليها كاستعمال أحد المجاديف سبكنا^(١) بآخر المركب . تصلا بيد تديره على حسب الإرادة . ودلتنا الآثار أن القائد البحري لبني الثاني المدعو إنخت (Enenkheth) اقترسه البدو وفتكوا به ورجال حملته فأصدر الملك أمره في الحبال إلى ببي نخت بالذهاب توا لا تقاذ جثة إنخت وعقاب البدو ، فنفذ ببي نخت مأموريته تماما ورجع سالما^(٢) . ومع هذه الغزوات كانت العلاقات التجارية والمواصلات مع الصومال مستمرة سليمة كما أثبتته نقوش مقبرة لأحد مستخدمي رؤساء جزيرة القيل ، فقد جاء فيها أن هذا الموظف سافر مع سيده إلى الصومال أكثر من إحدى عشرة مرة ورجع سالما^(٣) . من ذلك يتضح أن مصر أخذت ترقى تجاريا وحربيا حتى اضطرت في آخر الأمر أن تتدخل في أمور البلاد المجاورة لها وأن تبسط نفوذها عليها ، فلم يعد الفراغة قنوعين بخيرات قطرم كما أن التجار طعموا في نعم الأقطار الأخرى ، فكثرت التجارة مع الجنوب وأخذت الأساطيل المصرية الملكية شمالاتا تنقل خيرات لبنان وأخصها خشب الأرز من غابات تلك الجهات الغنية . ودلتنا المباحث الحديثة على وجود صلة تجارية قديمة بين القطر المصري وجزر البحر الأبيض المتوسط وهو أمر متظر لا يحتاج إلى دهشة أو استغراب .

ولناسبة جلوس ببي الثاني على العرش في طفولته كانت مدة حكمه طويلة فقد قال مانيتوان هذا الملك تولى الحكم في السنة السادسة وعاش مائة سنة . وأكديراتوثنيس (Eratosthenes) في قائمته التاريخية أن ببي الثاني حكم البلاد مدة قرن . أما درج تورين البردى فيدل أن ببي هذا حكم حوالي تسعين سنة وهو محتمل جدا ، وعليه حكم هذا الملك أطول الأحكام في التاريخ . ولما توفي ببي الثاني تبعه عدة ملوك مددهم قصيرة ويظن بعض الأثريين أن من بين هؤلاء الملوك الملكة نيتوقريس التي نسب إليها كثير من الروايات الخرافية ، وكذلك الملكان إتي وإمخنب اللذان أرسلتا بعثات لوادى الحمامات لقطع الأحجار اللازمة لهرميه^(٤) ، وهناك أثريون آخرون يميزون أن هذين الملكين حكما في آخر عهد الأسرة الخامسة . والثابت أن الحوادث التي حصلت بعد وفاة ببي الثاني لا تزال غامضة تصعب علينا معرفتها ، فنحن لا نزال نجهل كيفية سقوط الأسرة السادسة وطريقة انتقال الملك منها إلى الأسرة السابعة . والمظنون أن الأسرة السادسة حكمت حوالي مائة وخمسين سنة . وقد ألمعنا سابقا إلى أن سلطة خكام الأقسام كبرت تدريجا في أواخر أيام هذه الأسرة حتى انتهى الأمر باستقلال كل منهم وتفكك عرى الدولة فعادت الحال كما كانت عليه قبل حكم الملك مينا . وهكذا بعد ما حكمت القطر حكومة نظامية لمدة تزيد على ألف سنة رجعت الحال إلى أصلها من الفوضى وعدم النظام .

وقبل الفراغ من الكلام على تاريخ المملكة القديمة يجدر بنا أن نفخر بأعمال ملوكها العظام الذين حكموا القطر مدة ألف سنة تقريبا والذين يرجع إليهم فضل توطيد المملكة وجمع قوتها وتوجيه مجهوداتها نحو النافع المثمر العائد بالخير والرفاهية ، وإذا لاحظنا كل هذا لا نستغرب أن نرى

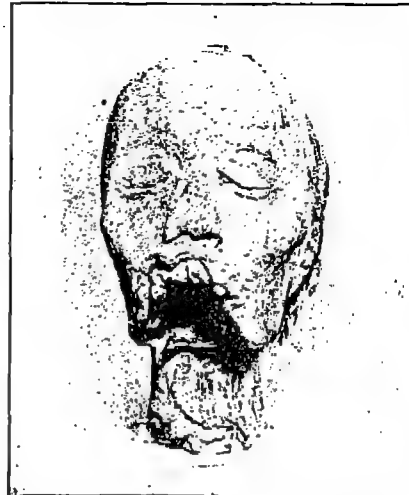
(١) السكان هردة المركب ؛ (٢) ٣٦٠ : ١ (٣) ٣٦١ : ١ (٤) ٣٨٦ : ١ - ٣٩٠



شكل ٧٦ - صورة مقبرة حخوف بأسوان
يلاحظ في الحافة اليمنى للصورة نقوش هيروغليفية
هي آخر ما ورد في خطاب صاحب هذه المقبرة المذكور في صلب
الكتاب (مأخوذ عن أندروود وأندروود بنيويورك)



شكل ٧٨ - صخور أسبوط القرية الحامية
لحقاير أمراء العائلتين التاسعة والعاشرية
(مأخوذ عن أندروود وأندروود بنيويورك)



شكل ٧٧ - رأس مومياء الملك مرنع
(دارتحف القاهرة)

الشعب المصرى عبد هؤلاء الفراعنة تحيلا لهم وتعظيما . وقد استمر المصريون يعبدون هؤلاء الحكام حتى الأسرة السادسة والعشرين ، كما يتضح من منابر القوم على تعيين كهنة اخصائين لهؤلاء الملوك فى تلك الأوقات التالية . وصار المصريون فى عهد الاصلاح بأواخر التاريخ المصرى يسترجعون ديانة ومعلومات ونظام حكومة المملكة القديمة بعد ما مضى عليها نحو ألفى سنة . ولا تزال آثار هؤلاء الأقوام كالمعابد والمقابر والأهرام المنتشرة على طول القطر لمدّة أميال تلقى فى نفس من يراها الإعجاب والدهشة ، وقد شيدت معظم هذه الآثار على سلسلة جبال ليبيا بجافة الصحراء الغربية ، وهذه الى الآن تشهد لأصحابها بتوقد الذهن وعظم المجهود والبراعة فى الأعمال الآلية (الميكانيكية) والأنظمة الداخلية وبناء السفن لعبور البحار وإرتياد البلاد للكشف . والحق يقال ان هؤلاء القوم هم الذين ربطوا التجارة المصرية مع البلاد الأجنبية السحيقة حتى أواسط إفريقية وحسنوا فى الحفر والنقش وقدموا فى العمارة فشيّدوا العمدة العظيمة الشيقة والمباني الضخمة ذات العمدة وبرعوا فى سياسة البلاد داخليا وخارجيا فسنوا قانونا متينا عادلا وأنجبروا رجلا متضامين فى القضاء . وقد اعتنى أهالى المملكة القديمة بديانتهم كثيرا لشدة اعتقادهم أنهم فى الحياة الأخرى محاسبون على أعمالهم . وهم للآن أقدم أناس معروفين اعتقدوا بالبعث بعد الموت وأن الثواب فى الآخرة على قدر الحسنات فى الأولى . وجملة القول ان أعمال هؤلاء القوم ومدنيتهم انتشرت فى العالم فأعجب بها الخلق أكثر من أية مملكة أخرى .

بقى علينا الآن أن نتفقد الحوادث لنعرف اذا كان اضمحلال المملكة القديمة وفطر عقدها استمر حتى أفسد البقية الباقية من النخوة القومية أو أن هذا الانقلاب كان حادثا عرضيا فقط عاجلته أذهان وأيدى رجال مصر الماملين فأرجعوا المياه الى مجاريها وساعدوا بلدهم على التقدم والرقى حتى أدهشوا العالم .

الكتاب الثالث

المملكة الوسطى - عهد الاقطاعات

الفصل الثامن

اضمحلال منف وبزوغ شمس طيبة

لما سقطت الأسرة السادسة تفككت عرى الحكومة وعمت الفوضى البلاد وساد فيها التلف وكثر الخراب . أما الأشخاص المسئولون عن هذا الانقلاب العظيم فلم نهتد اليهم لأننا نفلن أنهم كانوا معادين لملوك المملكة القديمة، لأنهم نهبوا المعابد وحرقوا الهياكل والمقابر والنقوش والرسوم البدئية بنظام وتدمير . وحطموا التماثيل الجرانيتية الجميلة والصوانية وألقوا بعضها في الآبار كما ثبت بما وجد بيئر المعبد المقام على الطريق الموصل لهرم الحيزة الثاني . ولذلك استدللنا أن أعداء المملكة القديمة صبوا نعمة غضبهم على كل من له علاقة بأعدائهم حتى حل بالأمة الدمار والخراب . قال مانيتو موجزا ان بعض الأمراء وقتئذ اجتهدوا في ارجاع الأمور الى مجاريها فأسسوا حكومة مركزية منفية اعتبرها هذا المؤرخ الأسرة السابعة . وروى مانيتو أيضا أن هذه الأسرة سقطت ثم تبعتها الأسرة الثامنة أفرادها أذئاب العائلات المنفية السابقة . ويستدل من قائمة أسماء الملوك المحفوظة بمعبد العراية أن ملوك هذا العصر المضطرب اعتبروا أنفسهم من نسل الأسرة السادسة ولكننا لم نعثر إلاّ على هرم أو قبر لهؤلاء الأقوام . وليس في محاجر طور سيناء ووادي الحمامات ذكر مطلقا لملوك الأسرتين السابعة والثامنة مع أنها تحوى كثيرا من النقوش لفراغة مصر العظام، ولذلك لا يبعد أن كان ذلك العصر عهد فوضى وخراب عجز فيه ملوكه وأمراؤه عن تشييد مقابر أو آثار لهم نستدل منها على حوادث زمنهم . وتفيد نقوش محاجر حاتوب أن أمراء ذلك القسم المعروف قديما بقسم الأرنب جمعوا قوتهم وقتئذ وأعلنوا استقلالهم وأزخوا حوادثهم بسنن حكهم بلا اعتبار للبيت المالك . وتنادى هؤلاء الحكام في عصيانهم فكتب أحدهم نقوشا افتخر فيها بأنه نجى بلده من ظلم واضطهاد البيت المالك^(١) . وبعد ذلك بمدة وجيزة ظهرت بيجهة إهناس أسرة قوية اغتصبت الملك من الأسرة الثامنة المنفية التي بقيت تدعى لنفسها حق الملك مدة قرن تقريبا .

والظاهر أن أمراء إهناس ردّوا بعض النظام الى القطر وأرجعوا اليه السكينة والطمانينة . أما إهناس فبلدة واقعة جنوبي الفيوم وهى مركز عبادة حوريس منذ مبدأ حكم الأمر . وأقل من ارتقى عرش مصر من هؤلاء الإهناسيين هو أخثويس (Akthoes) كما روى مانيتو ، واليه ينسب حب الانتقام والجبروت والغلظة أكثر من سواه وقتئذ . قال مانيتو ان هذا الملك جن فى أواخر أيامه ثم اقترسه أحد التمانيج . وحكم مصر فى إهناس ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة وكانوا ضعيفي السلطة لم يتركوا بعدهم آثارا عظيمة تثبت قدرتهم وكفائتهم . ولم نعثر على نقوش أثرية لها تين

الأسرتين إلا ما له علاقة بالثلاثة الأجيال الأخيرة من حكمهما لما أخذ حكام سيوط يحفرون مقابرهم في الصخور ويدقون أعمال أسرهم العظيمة^(١) . وجاء في هذه النقوش أن حالة القطر المصرى وقتئذ كانت سيئة وأن ملوك إهناس قاوموا ذلك السوء وحاولوا إزالته . واليك ترجمة ما جاء بقبر أحد أولئك الأمراء السيوطيين : ” كان كل موظف يدير عمله كالمتاد بلا مشاجرة ولا مطاحنة بالقوس والشباب ، وبطل قتل الطفل جوار أمه وسفك دم الرجل قرب زوجته ، ووقف فعل السوء وضرر الرجل لبيته “^(٢) . واليك ترجمة نقوش أخرى : ” إذا جن الليل مدخني كل من نام في الطريق لأنه أصبح أمنا كالذى يقطن داره ، ذلك لأن فزع الأئمة من جنودى كان خير حام له في وحدته “^(٣) .

وعلاقة حكام سيوط مع ملوك إهناس كانت متينة وحسنة للغاية ، فقد جاء أن أحد هؤلاء الملوك حضر مرة جنازة حاكم سيوط وأن ابنة هذا الحاكم تولت إدارة شؤون قومها بعد وفاته وأرسلت ابنها الصغير المدعو ختى ليتعلم مع أولاد ملوك إهناس^(٤) ، فلما كبر هذا الابن تسلم من أمه مقاليد الحكم وقد ترك لنا في قبره نقوشا تشير إلى كثرة رخاء وتقديم قسم سيوط . وبما ورد عن هذا الحاكم أنه حفر الترع وقلل الرسوم وأكثر المزروعات وقطعان الغنم وجهز نفسه بجيش برى وأسطول بحرى لمكافحة الطوارئ . من ذلك صار لحكام سيوط عند ملوك إهناس مكانة عظيمة حتى صدر الحكم الملكى في يوم من الأيام بتعيين ختى المذكور ” حاكما عاما على مصر الوسطى “^(٥) .

في هذا الوقت ظهرت أسرة عظيمة ذات نفوذ كبير يجنوبى القطر أخذت تنافس حكام أقسام مصر عزة ورقيا . أما مقر هذه الأسرة فيبعد عن منف جنوبا بنحو أربعين ميلا وعن الشلال الأول شمالا بأقل من مائة وأربعين ميلا ويقع جنوبى انحناء النيل القريب من البحر الأحمر (جهة قفط) بحوالى أربعين ميلا . والباحث في هذا المكان من الوجهة الجغرافية يجد أن سلسلتى جبال وادى النيل تتسعان وتبعدان عن النهر وتحدان سهلا شاسعا خصبا نشأت في وسطه مدينة يقال لها طيبة ، ولا يزال هذا السهل يحوى للآن أعظم آثار المدينة القديمة الفذة في المعمورة . وبديهي أن مدينة طيبة أقدم مدينة أثرية في العالم وقد كانت في العصر الذى نحن بصددده قرية صغيرة . أما عاصمة إقليمها فكانت أرمنت مقر إحدى أسر أمراء الصعيد التى امتاز رؤساؤها باسمى إِنْتِفَ وَمِتْشَوْحُوتْ . وفي آخر عهد ملوك إهناس قوى نفوذ هذه الأسرة الأخيرة فرقى أحدهم المدعو إِنْتِفَ بأمر ملكى إلى رتبة ” محافظ باب القطر الجنوبى “^(٦) . ولما كثرت المعاملات بين أقسام الوجه القبلى ومد كل منها يد المساعدة إلى الآخر في مبادلة الغلال والحبوب^(٧) وغيرها جمع إِنْتِفَ أقاليم مصر الجنوبية من الشلال الأول إلى طيبة تحت حكمه وشق عصا الطاعة على إهناس واعتصب الملك منهم وألف هو وخلفاؤه مملكة مستقلة مركزها طيبة . وقد اعتبر إِنْتِفَ هذا مؤسس ملوك طيبة في العصور التالية فأقام أمراء المملكة الوسطى تماثلا له بمعبد طيبة لعبادته بين تماثيل أجدادهم السابقين^(٨) .

(١) ٣٩١-٤١٤ : ١ (٢) ٤٠٤ : ١ (٣) ٣٩٥ : ١ (٤) ٤١٣ : ١ (٥) ٤١٠ : ١ (٦) ٤٢٠ : ١

(٧) ٤٥٧ : ١ (٨) ٤١٩ : ١

وأخذ حكام أسيوط ينتقمون من حكام طيبة ليخضعوهم لسلطة إهناس فقام تَفْيِي (وهو ابن خيتي حاكم سيوط على الأرجح) وحشد جيشا وأسطولا زحف بهما جنوبا على طيبة، فالتحم بجيوش أعدائه على شاطئ النيل الغربي وهزمهم واقتفى أثرهم حتى "قلعة باب القطر الجنوبي" وهي العرابة المدفونة على الأرجح^(١). ثم التجم قسم آخر من جيش تَفْيِي مع بعض قوات طيبة على جهة النيل الشرقية فانهزم الطيبون أيضا. وبعد ذلك حصلت معركة بحرية بين أسطولى الطرفين انتهت بأسر أسطول طيبة وغرق قائده في النيل^(٢). على أثر ذلك رقى خيتي ابن تَفْيِي "حاكما عسكريا للأراضي كافة" و"سيدا أكبر لمصر الوسطى"^(٣). ولما توفى تَفْيِي استمر خيتي مخلصا للملك مريكارع الإهناسي الآيل الى السقوط، وأخضع خيتي ثورة ثانية بطيبة، والظاهر أنه استنصحب الملك وقتئذ ليريه خضوع أهل طيبة له ثم عاد معه. وكان خيتي يفخر كثيرا بأسطوله لما رأى وحداته منتشرة عدّة أميال على مياه النيل حتى مدينة سيوط. ولما وصل الملك مع خيتي الى مدينة إهناس قابلهما الأهالي بابتهاج عظيم وصفه خيتي بقوله "لقد أقبلت علينا المدينة مسرورة بسيدها..... نساء ورجالا وكهولا وأطفالا"^(٤). ومن ذلك يتضح أن نقوش مقابر سيوط كانت خير معين لنا على معرفة تاريخ أواخر العهد الإهناسي (شكل ٧٨).

وبالرغم من هذا كله فإن حظ طيبة أخذ يعلو ويحسن لأنه لما توفى إمتف المذكور آنفا تولى بعده حاكم آخر يقال له إمتف أيضا، انتحل لنفسه الألقاب والأوصاف الفرعونية وكتب اسمه داخل خانة ملكية أيضا، وأصبح هذا الشخص بحكم التاريخ إمتف الأول مؤسس الأسرة الحادية عشرة. وقد استعمل هذا الملك العنف والشدة مع الإهناسيين فاقطع العرابة وقسم طينة وأوصل حدود مملكته الى "باب القطر الشمالى"^(٥) ولعله المعروف أيضا "بمحسن باب القطر الجنوبي" الوارد ذكره في نصوص تَفْيِي^(٦). وحكم إمتف هذا أربعين سنة ثم عقبه ابنه المدعو إمتف الثانى الذى لا تزال نجهل صلته وتاريخه للآن^(٧). ثم توفى هذا فتبعه فى الملك المدعو متوحوتب الأول ثم متوحوتب الثانى. ويظن بعض الأثريين أن الملوك المدعويين متوحوتب كانوا فرعا من أسرة إمتف المذكورة واليه يرجع الفضل فى بسط سيادة طيبة على القطر المصرى. فمما ورد عن متوحوتب الثانى أنه أخضع الوجه البحرى ودون انتصاره على جدر معبده فى جيلين فصور نفسه ضاربا المصريين والأجانب معا وكتب فى الحاشية ما ترجمته: "هذا ضم رؤساء وجهى مصر وغزا الوجه القبلى والبحرى والبلاد الأجنبية وقسمى مصر وتسع قبائل من البدو وأرضى مصر"^(٨). ويرجح أن سقوط إهناس حصل حوالى منتصف القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد، وعلى أثره انتقل الملك من الشمال الى الجنوب. وتقدر المدة من سقوط الأسرة السادسة (أواخر عهد الملكة القديمة) الى منشأ الأسرة الحادية عشرة الطيبية بثلاثة سنة تقريبا، وفى أثناءها انصممت مصر تحت إدارة أمراء أقوياء قادرين على كبح جماح المتشردين. ولكننا لا نعرف بالضبط العلاقة التى كانت بين ملوك

(١) ٣٩٦: ١ شرحه (٢) ٣٩٨: ١ و ٣٠٣: ١ و ٢٣: ١ (٤) ٤٠١: ١
(٥) ٤٢٢: ١ و ٤٢٣: ١ D.I. (٦) راجع ملاحظة (١) هنا (٧) ٤٢٣: ١ G (٨) ٤٢٣: ١ H

الأسرة الحادية عشرة ، إنما المفروض جدلاً أن الملك انتقل وراثياً من الأب الى الابن . ومع ذلك فهناك شواهد تشير الى حصول نزاع بين أفراد تلك الأسرة على عرش مصر ولذلك لا يمكننا الجزم بترتيب حكم هؤلاء الأفراد بالضبط .

في عهد الأسرة الحادية عشرة أخذت مصر ترسل البعثات الملكية الى البلاد النائية بعد ما مضت على وقفها مدة طويلة ، فأرسل الملك متوحوتب الثالث الملقب بـ *بنتاورغ* وزيره المدعو *أمنمحت* الى وادى الحمامات لطلب الأحجار اللازمة للتأبوت الملكي . وقد ترك الوزير بتلك الجهة نقوشاً عظيمة تلخص في أنه مضى هناك خمسة وعشرين يوماً مع عشرة آلاف عامل . ويعتبر هذا أكبر عدد للعمال ورد ذكره على الآثار المصرية حتى ذلك العهد . وروى هذا الوزير أيضاً أن المعبود من إله تلك الجهة أظهر معجزات وكرامات استغرب لها الناس طرّاً ، من ذلك أنهم لما وصلوا الى تلك الجهة وجدوا غزالة وضعت صغارها على الصخرة التي استخرج منها العمال الغطاء اللازم للتأبوت الملكي ، وبعد ذلك هطلت الأمطار بكثرة فلاتت بئراً هناك لحافته فأكمل العمال شغلهم بغاية السهولة والسرعة . واليك ترجمة ما قاله *أمنمحت* عن ذلك مفتخراً : ” وعادت حملتي بلا خسارة فلم يتوف منها أحد ولم أفقد شخصاً ، ولم يهلك حمار ولم يهن عامل “ (١) . والمعروف أن هؤلاء العمال جمعوا من جهات القطر جميعها ، لذلك كانت سلطة الملوك الثلاثة المدعويين متوحوتب كبيرة . وستظهر لنا علاقة هؤلاء الملوك بحكام أقسام مصر عند الكلام على الأسرة الثانية عشرة الطيبة التي سنذكرها في القريب العاجل .

ولما توفي متوحوتب الثالث تولى بعده متوحوتب الرابع وهو المدعو *نب حيت رع* وغزى النوبة وأنجز مشروعات الأسرة السادسة هناك بعد وقفها . وتفصيل ذلك أنه أرسل في السنة الحادية والأربعين من حكمه وزيره المالى المدعو *خيتي* في أسطول نيلى الى بلاد الواوات لاختضاعها (٢) . ومن مآثره أيضاً أنه شجع العمارة فشيّد معبداً جديلاً على صخور طيبة الغربية حلاه بشرفات بديعة قلدها الملكة *حعتشيسوت* بعد ذلك لما شيدت معبداً بالدير البحرى ، ويعتبر معبد متوحوتب الرابع هذا أقدم آثار طيبة المعروفة للآن وكان العثور على هذا المعبد حديثاً ، وقد وجدت على جدره صور بارزة لأجانب يقدمون الجزية للملك ، والظاهر أن طول مدة حكم هذا الملك (التي قربت من أربعين عاماً) ساعدت كثيراً على توطيد سلطته حتى اعتبره القوم بعد وفاته بعدة قرون المؤسس الأكبر لسيادة طيبة .

وتولى الملك بعد ذلك متوحوتب الخامس فتأثر على غزو النوبة والسودان كما فعل قبله ملوك المملكة القديمة . ثم وضع شئون التجارة مع البلاد الأجنبية في يد موظف ماهر يقال له *هتو* ” محافظ باب القطر الجنوبى “ ووزير المالية أيضاً . وأمر وزيره *هتو* بهذا بغزو سواحل البحر الأحمر فسافر إليها عن طريق وادى الحمامات في قوة تبلغ ثلاثة آلاف رجل مزودين بما يحتاجون اليه من

مأكلاً ومشرباً الخ مما يشير إلى حسابان هذا الوز ربما عسى أن يحصل من المناصب في أثناء الطريق . وقد جاء في أخبار هذه الرحلة أن كل فرد منها كان يعطى له أثناء ان من الماء وعشرون كعكة صغيرة كل يوم مدة احتراق الصحراء والمكوث بوادي الحمامات^(١) . وعليه في مجموع المصروف اليومي لرجال هذه الحملة بلغ ستة آلاف إناء من الماء وستين ألف كعكة . واتخذ هنو في مسيره كل وسائل الأمن وسهولة الانتقال فحفر في الطريق نخمس عشرة بئراً ومستودعاً للمياه^(٢) وعين عليها الحاميات اللازمة^(٣) . ولما بلغ البحر الأحمر بنى مراكباً أرسله إلى الصومال ثم عاد إلى وطنه عن طريق وادي الحمامات جالبا معه قطعاً حجرية جميلة ليصنع منها تمائيل للعابد الملكية^(٤) . ويقدر حكم متوحوتب الخامس بثماني سنوات على الأقل^(٥) .

ولما توفي متوحوتب الخامس انقضت الأسرة الحادية عشرة وابتدأ حكم الأسرة الثانية عشرة التي رأسها أمتنمجت الأول . وقد ذكرنا سابقاً أن شخصاً بهذا الاسم كان معينا وزيراً لمتوحوتب الثالث والآن نزيد أن هذا الرجل قوى نفوذه وعظمت سطوته فانتزع الملك من آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة . ويظن أن هناك بعض الصلة الأدموية بينه وبين هذه الأسرة لأن أسرته اعتبرت إنتف جداً لهم فقدسه أفرادها ونصبوا له تمثالاً بالكرنك^(٦) . وتقدر مدة حكم الأسرة الحادية عشرة بنحو مائة وستين سنة^(٧) وكان سقوطها حوالي سنة ٢٠٠ قبل الميلاد . وهي قليلة الآثار وأهرامها صغيرة ومشيدة باللبن على سهول طيبة الغربية وقد بقيت مصبونة مدة ألف سنة تقريباً^(٨) ثم خربت وتلفت حتى كادت تعفو وقد كشفها مريت الفرنسي الأثري حديثاً . وتعتبر هذه الأسرة مؤسسة للحكم الطبي العظيم .

وصادفت أمتنمجت الأول صعوبات جمة ومشقات كبيرة في إعلاء مجده ورفع مقامه ، من ذلك أنه أرسل أسطولاً مكوناً من عشرين سفينة مصنوعة من خشب الأرز^(٩) طرد بها الأعداء من القطر المصري . ثم قامت في وجهه مشا كل داخلية كبيرة سببها حكام الأقبام الذين ما فتئوا يمتهدون في قطع صلته بهم وإعلان استقلالهم عنه فمما ورد عنهم أنهم أصلحوا مقابر أجدادهم الذين أسقطوا المملكة القديمة حفظاً لذكراهم^(١٠) ورغبة منهم في الانفراد بالحكم وعدم اطاعة البيت المالك . وليلاحظ أن ملوك الأسرة الحادية عشرة قللوا كثيراً من نفوذ هؤلاء الحكام ، فلما أتى أمتنمجت أخذ يطوف القطر ويخضع أقسامه العاصية ويسط العدل ويمنع المشاغبات والمنازعات بين الحكام حتى قال عنه حاكم قسم الوعل (Oryx-nome) ما ترجمته : "لما ذهب جلالته إلى هذا القسم بين الحدود الجنوبية ووطد الحدود الشمالية كالسما وقسم النهر في النصف إلى قسمين جعل النصف الشرق "لأفق حوريس" وأصلح للجبال الشرقية . وكان يجيء جلالته ساطعاً مثل أتوم (Atum) — أي الشمس — ومصلحاً لكل تلف ومعيداً لكل بلد ما سلبه منه جاره وميناً لكل مدينة حدودها بمالم كالسما ومقسماً المياه كما هو مدون في النصوص القديمة . كل هذا فعله جلالته لشغفه بالعدل وشدة ولوعه به"^(١١) .

(١) ٤٣٠ : ١ (٢) ٤٣١ : ١ (٣) ٤٥٦ : ١ (٤) ٤٣٢ : ١ - ٤٣٣ (٥) ٤٦٨ : ١ (٦) ٤١٩ : ١ (٧) ٤١٨ : ١ (٨) ٥١٤ : ٤ (٩) ٤٦٥ : ١ (١٠) ٩ - ٦٨٨ : ١ (١١) ٦٢٥ : ١

ولم يكن من السهل على أمنمحت الأول أن يرجع لمصر ما حازته من العز أيام المملكة القديمة لأن حالة البلاد الداخلية لم تعد تسمح بهذا النظام. لحكام الأقسام عادوا أقوياء فلم تبقى أمامه وسيلة لاختضاعهم الا استعمالها وأخذهم بالحسنى والرفق والكرم. ويستدل من نقوش مقبرة بيجهة بنى حسن جاء فيها أن أمنمحت الأول منح أحد أتباعه المدعو خنوم حوتب قسم الوعل (سمع) (Oryx-nome) في شرق النيا وقد سبق أن الملك أوضح بعض حدود هذا القسم^(١)، والظاهر أن أمنمحت أخذ يعين في كل قسم الشخص الأكثر ولاء وطاعة لأوامره ، فتمكن بهذه السياسة الحكيمة الرشيدة من تنظيم المملكة وتأسيس عهد سعيد آنحرمصر يعرف عند المؤرخين بعصر المملكة الوسطى الذى يتبدئ حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

(١) ٦١٩:١ - ٦٢٩

الفصل التاسع

المملكة الوسطى أو عهد الاقطاعات ، الحكومة ، المجتمع ، الديانة

أجبرت الظروف ملوك الأسرة الحادية عشرة أن يقيموا بطييه مدّة حربيهم ونضالهم مع الوجه البحرى . ولما تولى أمنمحت الأول عرش مصر صادفته صعوبات جمّة لما حكم القطر في طييه لأن معظم حكام الأقسام كانوا ميايين للوك إهناس ولأن العادة اقتضت منذ سقوط ملوك طييه ، أن يكون مركز الحكم في الجهات الشمالية ، ولم يستد عن القاعدة الأخيرة الا ملوك الأسرة الحادية عشرة . بناء عليه اختار أمنمحت الأول مركز حكومته على شاطئ النيل الغربى جهة منف وعلى بعد بضعة أميال منها ولكننا لا نزال نجهل موقع هذا المركز بالضبط ، ونظن أنه قريب من لشت حيث كشف هرم أمنمحت المهتم . وأطلق أمنمحت اسم إثنوى أى " فاتح القطرين " على مركز اقامته هذا ونقش ذلك على الآثار وشيد حولها سياجا مسلحا شيها بالقلاع رمزا الى مناعة المركز الذى أدار فيه سياسة البلاد بحكمة ومهارة لا تعرف الملل ولا اليأس . وقد تبعته ذريته وسارت على منواله بحكمة وعقل فعظم مركز الأسرة وعلت منزلتها فى التاريخ القديم .

ومعلوم أن القطر المصرى كان مجزأ وقتئذ الى أقسام صغيرة لكل منها حاكم تحت النفوذ الفرعونى . لكن هؤلاء الحكام لم يكونوا خدما أو موظفين ملكيين ، زد على ذلك أنهم كانوا متباينى المنزلة فمنهم الكبير ومنهم الوضع كما هى الحال الآن بين الباشا والبك ولذلك شبت حال القطر حينئذ بأوربا فى الجزء الأخير من القرون الوسطى ، ومنه يتضح أن ضم هذه الأقسام تحت نفوذ حاكم واحد تطلب حاكما شديدا رأى قوى الارادة لأن أى وهن أو ضعف فى عزيمته يفكك عرى الدولة ويرجعها الى زمن الفوضى والعصيان . وترجع معظم معارفنا عن هذه العصور الى ما ورد من الأخبار فى مقابر حكام الأقسام وآثارهم وعلى الأخص الموجود منها بمصر الوسطى . أما آثار ومقابر الوجه البحرى وبقى الوجه القبلى فقد لحقها التلف فأصبحت فى خبر كان .

ولنبدا بالكلام على حكام الأقسام فنقول أنهم كانوا على يقين بأنهم سلالة قوم عريقين يرجع تاريخهم الى أربعة قرون أو خمسة تقريبا أى الى عهد المملكة القديمة^(١) وأن أجدادهم كانوا عظمى المركز فى أقسامهم فأعلنوا استقلالهم فى سابق الزمان وأزخوا أعمالهم بعد حكمهم وحاربوا أحيانا البيت المالك وقاوموا نفوذهم بالقوة^(٢) . ومن ذلك يظهر أن هؤلاء الحكام كانوا فى عهد الأسرة الحادية عشرة أشبه بفراعنة صغار شيّدوا قصورا شاححة أقل حجما من قصور الفراعنة لكنها حوت حاشية كبيرة

ورئيسا للمالية وهيئة قضائية وعدة دواوين (شكل ٧٩) وكتبة ومستخدمين . وقصارى القول ان قصور هؤلاء الحكام حوت كل ما تحتاج اليه حكومة في عاصمة ملكها (شكل ٨٠) . وبهذه الوسيلة تمكن كل حاكم من تحصيل عوائد أرض قسمه والاشراف على أمور أهله الدينية وقيادة جيشه الثابت النظام والتدريب ، وعليه فقد كانت قوة هؤلاء الحكام لا يستهان بها . وجاء في الآثار أن حاكم قسم سمح (الوعل) (Oryx-nome) غزا بلاد النوبة بأربعمائة عسكرى وقاد حملة مكونة من ستمائة عامل الى مناجم الذهب على طريق قفط^(١) . وورد أيضا أن حاكم قفط أرسل بعثة الى محاجر الحمامات أحضرت له قطعتين من الحجر طول كل منهما سبع عشرة قدما ثم أوفد بعثة أخرى جلبت صخرة طولها عشرون قدما وست بوصات جرهما مائتا رجل في طريق الصحراء الواصل الى النيل والبالغ طوله حوالى خمسين ميلا^(٢) . وروى أيضا أن حاكم قسم الأرنب (Hare-nome) جلب رجالة قطعة من المرمر من محاجر حاتنوب ينيف وزنها على ستين طابجرت على طريق طوله عشرة أميال حتى وصلت الى النيل ، وقد عمل من هذه الصخرة تمثال لهذا الحاكم يقرب ارتفاعه



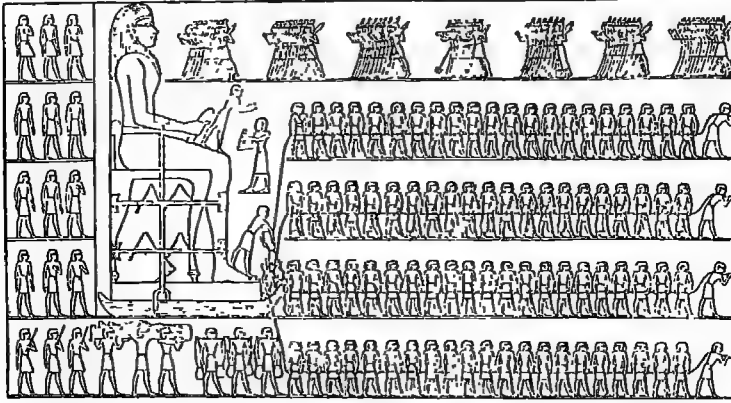
شكل ٧٩ — ادارة الأمير خنوم حوتب بنى حسن . يلاحظ في القسم الأيسر للرسم رئيس المالية ين أمامه الذهب والفضة وفي القسم الأوسط وكيل الرئيس يدون مقادير الجيوب الواردة الى الثونة (الكاتنة في القسم الأيمن للرسم)

من اثنين وعشرين قدما . ولم يقتصر الحكام على ذلك بل شيدوا أيضا معابد^(٣) ومباني عمومية في مدنهم الرئيسية^(٤) كما أكثروا من تعليم الحرف والصنائع مدفوعين لذلك برغبتهم الشخصية ومراقبين ذلك بأنفسهم ، فصارت لهم بذلك اليد الطولى في رقى داخلية البلاد وأنظمتها بدرجة غير مسبوقة النظير^(٥) . وجاء عن حاكم قسم سيوط المتمنى الى ملوك إجناس أنه قال : " كان عندى كثير من الجيوب . ولما حصلت المجاعة فى قسمى وزعت على القوم الجيوب بمكالى (خا) و (حكت) ، وسمحت لكل فرد أن يجلب لنفسه الجيوب ، وكذا الزوجات والأرامل والأبناء ، وسددت كل نقص لم يكن مستوفيا منذ عهد آبائى ، وأكثرت من قطعان الغنم فى المراعى حتى أصبح لكل رجل أغنام عدة . وكان البقر يلد اثنين كل مرة فصار بين صفاره كثير من العجول^(٦) . وبما جاء عن هذا الحاكم أيضا أنه حفر ترعة جديدة ضاعفت كثيرا من خيرات أرضه^(٧) . وليلاحظ أن العدل والعطف على الرعية لم يكن مقصورا على الحكام بل شمل أيضا الموظفين التابعين لهؤلاء الحكام ، من ذلك ما ورد عن أحد مساعدى المالية لحاكم قسم طيبة أيام الأسرة الحادية عشرة

(١) ٥٢٠ : ٥٢١ (٢) ١ : صحيفة ٢٢٥ ملاحظة (ج) (٣) ١ : ٤٠٣ و ٦٣٧ ملاحظة (أ)

(٤) ٦٣٧ : ١ (٥) ٦٣٨ : ١ (٦) ٤٠٨ : ١ (٧) ٤٠٧ : ١

هذا ترجمته : "كنت أجلب المأكولات والأغذية الى جبلين (Gebelen) مدة سنى الفحط لما بلغ عدد الجياع أربعمائة نسمة ، ولم أغتصب ابنة رجل ولا حقله ، وربيت عشرة قطعان من الغنم وجعلت كل قطيع تحت ادارة رجل خاص ، وربيت قطيعين من البهايم ، فطيعا من الحمر ، وأكثر من تربية الحيوانات الصغيرة على اختلاف أنواعها ، وبنيت ثلاثين سفينة أولا ثم أعقبتها بثلاثين أخرى . ولما حصل للجبلين الكفاية أرسلت الاعانة الى إسنات وتيفيوم (Tuphium) . وهكذا ساعد قسم طيبة مدينه جبلين بالاعانات فلم تعد محتاجة الى مساعدة الأقسام الأخرى" (١) ، ومنه يستدل أن كل حاكم قسم كان يطمع أن يترك لنفسه أثرا جسيما في نفوس قومه . والفضل في معرفة هذه المعلومات كلها يرجع الى ما تركه لنا هؤلاء الحكام من النقوش على مقابرهم مما خلد ذكرهم للآن . ولعل نقوش أميني حاكم قسم الوعل الواردة على قبره في بنى حسن أقطع برهان على عناية هؤلاء الحكام بالرعية وهاك ترجمتها : "لم أسئ معاملة ابنة رجل من القوم ولم أظلم



شكل ٨٠ — صورة تمثال كبير من المرمر ارتفاعه اثنان وعشرون قدما ، نقول على زخاعة يجرها بالخيال مائة وسبعون واثمان من الرجال المصطفين أربعة صفوف . مأخوذة عن مقبرة جهة البرشة يرجع تاريخها الى عهد الملكة الوسطى

أرملة ولم أمتن فلاحا . اننى لم أطرده راعيا ولم أخنر فى أشغالى عمالا بلا أجر . وبهذه الطريقة زالت الكتابة عن قسمى وانعدم الجوع وقت حياتى . ولما حصل فى زمنى الفحط اجتهدت فى زرع أرض قسمى حتى آخر حدوده الجنوبية والشمالية وأطعمت سكانه فلم يجمع منهم أحد . وكنت أسوى العطاء للأرملة والمتروجة والكبير والصغير . ولما وافت زيادة النيل أخذ كل واحد محصول أرضه ولم أخذ منه شيئا" (٢) . هكذا كانت رغبة حكام الأقسام فى تسجيل أعمالهم الحسنة المجيدة التى تتجسم فيها الرأفة الأبوية ، ولا شك أن مثل هذه الخصال والمعاملة الشخصية اليومية بين الحكام وسكان أقسامهم اعتبرت وقتئذ من نعم الإله وعطاياه الجزيلة .

وأما حكام الأقسام نوعان : نوع وصل الى ملكهم بالميراث من آبائهم ونوع ثان وهب لهم بأمر ملكي يتمتعون به مدة حياتهم بعد وفاة سلفهم فى المركز (٣) . وكان يتحتم على فرعون أن يتبع

طريق الوراثة الشرعى وقتئذ والذى ينص على انتقال الوراثة الى أكبر البنات فقط ، وقد أُلغيت سابقا الى مثل هذا الأمر عند الكلام على وفاة حاكم سيوط وتعيين ابنته بأمر ملكى حاكمة على قسم والدها حتى كبر ابنها وتسلم مقاليد الحكم^(١) . وقد أظهرت لنا نقوش مقابر بنى حسن كثيرا من هذه المسائل الوراثية ، من ذلك ما جاء بمقبرة خنوم حوتب عمدة مدينة منات خوفو أهم مدن خط "أفق حوريس" التابع لقسم الوعل وهذا ملخصه : ان أُمْنِي حوتب الأولى لما تولى الملك عين هذا الرجل فى الوظيفة المذكورة ثم عينه بعد ذلك حاكما عاما على القسم جميعه ، ولما تولى سينوستريس الأول الملك عين ولدى خنوم حوتب المدعوى نَحْت وأُمْنِي ورثين له بعد وفاته . وعهد جلالة الملك الى الابن نَحْت بأن يكون عمدة على مدينة منات خوفو والى الابن الثانى أُمْنِي الذى سبق ذكره عند الكلام على قسم الوعل برياسة هذا القسم نفسه . ثم ان ابنة خنوم حوتب تزوجت بموظف كبير بالقصر الملكى يدعى نَهْرَى وزير الملك وحاكم حاصمته ، كان فيما سبق حاكم قسم الأرنب المجاور . واقتضت الارادة الملكية طبقا للقانون أن يعين سليل هذا القران المدعو خنوم حوتب أيضا عمدة لمدينة منات خوفو بعد وفاة خاله نَحْت ، ثم تزوج هذا الابن خنوم حوتب بالسيدة خيتى كبرى كريمات حاكم قسم ابن آوى المجاور له ، فأصبح لأبى كبر أنجال خنوم حوتب الثانى حق فى حكم قسم ابن آوى عن طريق والدته - وقد تم ذلك فعلا بأمر ملكى . وخلف خنوم حوتب الثانى نيجلا ثانيا أغدق عليه الملك شريف الألقاب فى القصر الملكى ثم عينه بعد ذلك عمدة منات خوفو بعد وفاة والده^(٢) . من ذلك يتضح أن فرعون مصر كان مضطرا بحكم الظروف والقوانين أن يراعى أصول الوراثة وأن يظهر احترامه اللازم ومجاملته الواجبة لأفراد الأسر لحكام الأقسام وقتئذ .

ولأن لم نتأكد مقدار نفوذ البيت المالك على حكام الأقسام ، وكل ما دللنا عليه الآثار أنه كان للملك ثواب فى أقسام مصر لحراسة أملاك الحكومة ومفتشون على "أملاك التساج" للإشراف على قطعان الغنم التابعة للملك^(٣) . والظاهر أن حكام الأقسام كانوا يجمعون الضرائب من الرعية لتوصيلها الى البيت المالك . قال أُمْنِي حاكم قسم الوعل المذكور آنفا : "كل دخل البيت المالك كان يمر تحت يدى" . ولا بد أن الادارة المالية كانت هى القوة العاملة بين البيت المالك وحكام الأقسام لأن أملاك الحكومة انتشرت فى أنحاء القطر ، وقد ذكرنا فيما سبق أن هذه الأملاك كان يشرف عليها موظفو الحكومة أو حكام الأقسام كأُملاك موهوبة لهم من الملك . وقال أُمْنِي ان جلالة الملك أرسل له ثلاثة آلاف نور لتربيتها ، وكان يرسل لجلالته تقريرا سنويا عنها ويبعث لجلالته بجميع الايراد دون أن يحجز منه شيئا لنفسه^(٤) . وكتب نحوت حوتب حاكم قسم الأرنب على جدر قبره بالبرش مفتخرا بهذا الخصوص : "لقد ربيت عددا عظيما من غنم الملك وعددا آخر (ورثته من والدى) فى القسم الذى كنت أديره"^(٥) . ولم ننتد الى الآن عن مقدار أملاك الحكومة فى أقسام القطر ومزارع الأفراد ولكن يظهر أن حكام الأقسام كانوا وقتئذ أقوياء يعطون أشغال الحكومة ويضعفون نفوذها

(١) ٤١٤ : ١ (٢) ٦١٩ : ١ ملاحظة (٣) ٥٢٢ : ١ (٤) ٥٢٢ : ١ (٥) ٥٢٢ : ١ ملاحظة (١)

فلم يعد للملك تلك السلطة التي كانت لفراعنة المملكة القديمة على جميع القطر . وليلاحظ أن البيت المالكي كانت له موارد ثروة أخرى غير الضرائب والحزبة التي تنجي من أقسام مصر وغير دخل القصر الملكي ذاته وهذه هي الذهب المستخرج من النوبة وطريق فقط وأموال التجارة مع الصومال وشواطئ البحر الأحمر مما عاد بالكسب الوافر لأن هذه المشروعات عملت على حساب الحكومة . زد على ذلك أن إيراد محاجر طورسيناء والحمامات عاد كثيرا على الحكومة بالفوائد المالية ، وبديهي أن غزو النوبة والغارات على سوريا وفلسطين ضمنت ميزانية الدولة المصرية .

وبقيت الإدارة المالية تعرف "بالبيت الأبيض" إلى الوقت الذي نحن بصده ، وهذه الإدارة عدة فروع كمخازن الحبوب والمواشي ومخازن الذهب والفضة وغير ذلك من واردات القطر السنوية التي تنجي لفرعون . ولما زادت الإيرادات نقلتها الحكومة في أسطول ضخ^(١) وصار "رئيس المالية" يعرف "برئيس البيت الأبيض" ثم عين له مساعد يقال له "صراف المعبود" (أى الملك) . وتطلبت كثرة الأشغال عددا كبيرا من المضابط والأوراق والموظفين . وعهد لبعض موظفي المالية في إدارة مناجم سيناء والحمامات ونهاية طريق فقط . ومن ذلك يتضح أن إدارة المالية في عهد المملكة الوسطى كانت أكبر كثيرا مما كانت عليه في عهد المملكة القديمة ، وأعظم دليل على ذلك كثرة المصالح وتعدد المديرين وزيادة رؤساء الأقاليم ووكلائهم . ولا يخفى أن زيادة الإدارة تصحبها كثرة الألقاب وتباين الدرجات مما ليس له نظير في الأزمنة السابقة ، ويشاهد ذلك على الأخص في طائفة المهندسين والمثاليين الذين كانوا يشرفون على أعمال طورسيناء ، وبديهي أن مثل هذا الاكثار في الموظفين أوجد بين الرعية طائفة جديدة منهم متوسطة الحال .

أما القانون في عهد المملكة الوسطى فكان يشرف على تطبيقه رجال الإدارة ، ولذلك كتب أحد كبار موظفي المالية مفتخرا ما ترجمته : "كنت أعرف القانون جيدا وأطبقه بكل حزم واحتراس"^(٢) . وكانت هناك ست محاكم كبيرة تعرف "بالبوت الكبيرة" تعقد تحت رئاسة الوزير في إيتوى (Ithtowe)^(٣) . وهناك أيضا محكمة مكونة من ثلاثين قاضيا تعرف "ببيت الثلاثين" تعقد برئاسة الوزير أيضا ، لكننا لا نزال نجهل علاقتها "بالبوت الكبيرة" المذكورة آنفا . ودلتنا الآثار على وجود أكثر من محكمة بالوجه القبلي كل منها مكون من عشرة قضاة تعرف بالعشرة القضاة الجنوبيين وعشرة يعينون بأمر ملكي للفصل في القضايا وتنفيذ العقاب . ومن اختصاص هذه المحاكم الفصل في قضايا الاحصاء والضرائب ونحن لا نزال نجهل علاقتها بالقضاء الإداري بالضبط . والثابت أن لقب "قاضي" لم يكن يعطى إلا لمن ينتمى إلى أسرة كبيرة عريقة بشرط أنه يعرف القانون معرفة دقيقة . ومن المؤكد أن قانون تلك العصور كان غاية في الأحكام والوضوح لكننا لم نعر عليه للآن . ومما يثبت دعوانا هذا القدر الذى وافق عليه حاكم سيوط بين ذاته باعتباره حاكما للقسم وذاته باعتبارها الرئيس الديني الأكبر لمعبود بلده . ولا شك أن مثل هذه الدقة تثبت منتهى الاحتراس والحرص على تنفيذ القانون وصيانة الحقوق المعهودة إلى ذلك الشخص^(٤) .

(١) شاهد قبر لأحد نواد هذه الأساطيل محفوظ بمتحف القاهرة رقم ٢٠١٤٣ (٢) ٦١٨:١

(٤) ٥٦٨:١ ملاحظة

(٣) Sharpe, Eg. Inscr. I, 100.

ولم نهند الى الان على معلومات كافية عن ادارة البلاد الداخلية وطرق الزراعة وقتئذ لكن يستدل من الآثار أن المشروطات العمومية وجمع الضرائب والرسوم وعمل الاحصاء كانت تنفذ لكل من الوجه القبلي والبحرى على الانفراد . وكان "رؤساء القضاة العشرة الجنوبيين" ينفذون القانون في الوجهين فلم يقتصر عملهم على الوجه القبلي . وقد ألغيت وظيفة "حاكم الجنوب العام" بعد انقراض حكم المملكة القديمة فلم يبق منها الا اللفظ الذى كان يمنح أحيانا من قبيل الشرف . والمعلوم أن احصاء السكان والأمالك في القطر عمل بناية النظام والاحكام فكان يتعم على كل رب أسرة أن يسجل عدد أفراد أسرته وخدمه وعبيده في أحد مكاتب الوزير أمام "رؤساء القضاة العشرة الجنوبيين" . ولا يبعد أن هذا الاحصاء كان يكرر كل خمس عشرة سنة^(١) وأن السجلات كانت تحفظ في مكاتب معدة لذلك . والمعروف أن ديوان الوزير كانت تحفظ به سجلات الحكومة جميعها وبياناتها الخاصة بالأراضي والاحصاءات والضرائب الخ . قال أحد الوزراء عن نفسه انه كان يحقق سجلات الأراضي ويوضح حدود أرض كل مالك^(٢) . واستمر النظام القديم نافذا في عهد المملكة الوسطى من حيث ترؤس الوزير لاجتماعات محاكم "البيوت الكبيرة الست" ومحكمة "بيت الثلاثين" . وإذا ساعد الوزير الحظ وأسندت اليه الادارة المالية كما حصل لمشوحوتب أيام سيزوستريس الأول فانه يصدر أوامر صارمة كالأوامر الملكية كما يستدل من نقوش قبر هذا الوزير^(٣) . ولا يبعد أن يكون مركز الوزير خطيرا أحيانا على العرش الفرعونى كما فعل أمنمحتت الأول الذى ظنه بعض الأثريين وزيرا اغتصب الملك . وكان الوزير يلقب أحيانا بالأمير أو العزيز أو حاكم القسم .

وتطلبت الحال حصر أعمال الحكومة في أيدي أشخاص مخلصين للسدة الملكية ناشئين في البلاط الملكى عارفين واجبههم نحو سيد البلاد . واليك ترجمة ما جاء في خطاب الملك سيزوستريس الثالث لرئيس ماليته المدعو إخنوفرت (Ikhnofret) الساكفه القيام بأحدى البعثات : "لقد اقتضت ارادتي الملكية أن أكلفك الذهاب والقيام بهذه المأمورية لأننى على يقين بأنك ستنفذها كما أريد ، فقد نشأت على مبدئى وتعلمت قوانينى وتلقنت علومك في قصرى"^(٤) . ومع ذلك كان الملك يحترس لنفسه كثيرا من كبار موظفيه وسرى قريبا أن كبار موظفى أمنمحتت الأول عصوه وأمرؤا على قتله . وحصل في عهد سيزوستريس الأول أن حاكم النوبة المدعو مشوحوتب الذى عين بأمر ملكى تعالى على مقام مليكه هناك فأمر الملك بطمس جميع رسومه ويرجح أنه عزل وأهين أيضا^(٥) . وفضل القوم السكوت والحذر في كل ما له علاقة بالملك حتى امتدح فلاسفة تلك العصور الصمت في خدمة الملوك^(٦) . واليك ترجمة ما ورد على لوح حجرى بمقبرة سحتب أب رع (Shetepibre) أحد كبار حاشية أمنمحتت الثالث ناصحا أولاده قائلا : "قاتلوا لاعلاء شأن الملك وتطهروا بقسم جلالته لأن ذلك يبعد سوء ، فال محبوب عند الملك هو المسروز ، أما المتأوى لجلالته فلا قبر له ، وإذا مات تلقى جثته في الماء"^(٧) .

(١) Kahun Papyri, pl. IX-X, pp. 19-29. (٢) ٥٣١ : ١ (٣) ٥٣٤ - ٥٣٠ : ١ (٤) ٦٦٥ : ١ (٥) ٥١٤ : ١ (٦) ٥٣٢ : ١ (٧) ٧٤٨ : ١

في مثل هذه الظروف تحتم على فرعون مصر أن يحتفظ بالقوة اللازمة لتنفيذ أوامره وقما تتطلب الحال ، ولذلك استخدم قوة مسلحة دائمة أطلق عليها اسم " أتباع الملك " أو " حجابيه " ، وهذه القوة أقدم مثال لجيش نظامى ورد في التاريخ . وجرت العادة أن تجزأ هذه القوة الى فرق في القصر الملكى والقلاع من النوبة الى الحدود السورية ، ويبلغ عدد رجال كل فرقة مائة رجل . ولا تزال نجهل مجموع هذه القوة المسلحة بالضبط ، انما المؤكد أنها صارت نواة لما نسميه الآن بالجيش النظامى الثابت . وضباط هذه القوة كانوا رجالا عريقى النسب والأصل ولكننا لا تزال نجهل الجهات التى جمعت منها هذه القوات . والغرض الأصيل لهذا الجيش كان القيام بالأعمال الحربية بجهة النوبة على الأخص والمحافظة على بعثات المحاجر وميناءات البحر الأحمر . وفي وقت الحرب كان السواد الأعظم من الجيش المصرى يحشد من سكان الأقسام الأحرار المتوسطى الحال بأمر ملكى تحت قيادة الملك الشخصية . وجرت العادة أن كل قسم من أقسام مصر يحشد فرقة في الجيش وأن رئيس هذه الفرقة يكون قائدها المباشر وقت الحرب . أما في وقت السلم فكثيرا ما كانت القوات تحشد لنقل الآثار أو القيام بالأعمال العمومية . وكان السكان الأحرار سواء أكانوا كهنة أم غير كهنة يصنفون الى عدة طبقات على حسب العمر قبل ارسالهم الى ساحة الحرب أو لأعمال عمومية . والمعروف أن حروب ذلك الوقت كانت عبارة عن غزوات قليلة النظام كما كانت الحال أيام الملكة القديمة ، فالروح العسكرية كانت لا تزال غير ناجحة في نفوس المصريين خلافا لما حصل بعد طرد الهيكسوس .

وانفصال الأمراء من البيت المال ك بعد عهد الأسرة السادسة أثر كثيرا في الأحوال الاجتماعية في الريف كما ألمعنا اليه عند الكلام على حكام جزيرة أسوان والبرشة وبنى حسن وأسيوط حيث وجدت الآن عدة مقابر لهم . وعثر أيضا بجهة العراية المدفونة على عدة مقابر لحكام الأقسام وعدة شواهد حجرية نصبها هؤلاء القوم تخليدا لذكراهم . ومن هذه الآثار استدللنا على أن هؤلاء الحكام عاشوا معيشة الترف والنعيم في قصورهم الريفية كما عاش ملوكهم في قصورهم الملكية . لذلك أصبحت ترى هؤلاء الحكام يصنعون في أقسامهم ما يلزمهم من الحاجات ويقومون بأنواع الرياضات كالصيد وغيره . ومن مميزات هذا العصر أيضا ظهور " طبقة الأهل الى المتوسطة " واقتداء أفرادها بالطبقة العليا ، فأصبحت ترى هؤلاء يشيدون المقابر ويقيمون الألواح الحجرية ويجهزون قبورهم بالأدوات الخشبية مع أنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك في عهد الملكة القديمة . ويوجد جهة العراية ثمانمائة قبر لهذه الطبقة يرجع تاريخها الى العصر الذى نحن بصددده ، ربمها خاص بموظفى الحكومة والثلاثة الأرباع لغير الموظفين ^(١) لقبوا أنفسهم " بأهل البلد " ^(٢) . ولوحظ على بعض هذه المقابر اسم صاحبها دون إشارة الى مسكنه واستنتج من بعضها أن أصحابها كانوا من ذوى الأملاك أو العمال أو الصناع وكان بعضهم ذا ثروة عظيمة . ويوجد بدار التحف للفنون الجميلة بمدينة شيكاغو بالولايات المتحدة تابوت لشخص من غير موظفى الحكومة مصنوع من الأرز الثمين المستحضر من لبنان دلالة على عظم ثروة صاحبه . ولوحظ أيضا أن أفراد هذه الطبقة كانت تذكر مهنتها قبل

أسمائها "كريس صانعي الأحذية فلان" و "كالصانع فلان" و "النحاس فلان" دون إشارة إلى محل الإقامة . والمعروف أن معظم أفراد موظفي الحكومة في عهد المملكة الوسطى كانوا متوسطي الحال شاغلين وظائف صغيرة حتى كانوا يجتلبون ذكروا وظائفهم على الألواح بمقابرهم . وللاحظ أن خدمة الحكومة فتحت للشبان طريقا جديدا لرفع مقامهم في الحياة وقد اهتم الموظفون بأشغالهم وزاولوها بعناية كما يستدل مما ذكرناه بشأن مساعد رئيس المالية الذي بذل جهده لدرء القحط عن قسم طبيه^(١) حتى وضع نفسه في موضع الشخص "الاعتيادي" بصراحة ووضوح . وأخذ القوم يتعلقون بخدمة الحكومة حتى كان الأبناء يتهاقون على القيام بأعمال آبائهم بعد اعتزالهم الخدمة مما لم يكن مشهودا في عهد المملكة القديمة . وتقتس موظفو الحكومة على شواهد قبورهم متمسكات رجوا فيها كل من يمر عليها أن يتلوها وقد جاء فيها وجوب السعى في تعيين أبنائهم في وظائفهم بعدهم وكى يدعوا لهم ويترحموا عليهم، ولا مرء فان هذه الأحوال قد ساعدت كثيرا على ظهور طبقة موظفين متوسطي الحال . ومن مميزات القوم وقتئذ معرفتهم للقراءة والكتابة فكان مجرد معرفتهما كافيا لرفع مستوى صاحبها . وورد في الآثار أن أبا أرسل ابنه ليتعلم في مدرسة القصر الملكي ليتخرج كاتباً فزوده بنصائح غالية معددا له مصاعب ومعائب الصنائع اليدوية كل على انفرادها ومفضلا له في آخر الكلام صناعة الكاتب مظهرا له مناقبها وما يعود على صاحبها من الشرف والراحة والثروة^(٢) . ومع أن رجال الفنون الجميلة كانوا في ذلك العهد ماهرين للغاية وذوى مرا كرسامية بين القوم فان الكتابة وموظفي الحكومة المتوسطي الحال نظروا اليهم كأنهم أوضع منهم مركزا وشرفا ، وعليه فكثيرا ما نجد على الآثار أن الكاتب يفخخر بمركزه الديني ويباهى بمعارفه . وهكذا تغيرت معالم الحياة عما كانت عليه في عهد المملكة القديمة ، ففي الأخيرة كما لا نثر الا على آثار لها علاقة بعميشة أو ألقاب أمراء القصر الملكي وأصحاب الأملاك العظيمة ، أما في عهد المملكة الوسطى فاننا نجد كثيرا من الآثار تشير الى رقى طبقة الرعية المتوسطة في الأرياف واقتنائهم للعبيد والأراضي وتقديهم أول نتاج أرضهم قرايين في معابد مدينهم كما فعل فراعنة مصر سابقا^(٣) . واهتم حكام الأقسام اهتماما كبيرا بهذه الطبقة كما ظهر لنا من رواية القحط السابق الكلام عليها ، وكما جاء أيضا على شاهد قبر لأحد أفراد هذه الطبقة من أنه "كان يقتنى حدائق جميلة وأشجار حمير باسقة الأغصان وأنه شيد لنفسه منزلا كبيرا ببلده وبني قبرا في صخور الجبانة وأنه حفر ترعة لبلده ونقل الناس فيها على سفينته . وكان مستعدا دائما للخدمة ويقود المزارعين حتى أزف مياعده (موته) فسلم أموره لابنه بوصية خاصة بذلك"^(٤) . وبعد الطبقة المتوسطة تأتي طبقة العمال الوارد ذكرها في النقوش السابقة والتي كانت تحتقر أحيانا على أهميتها في زيادة ثروة القطر وعمره . وجرى العادة أن يرسل هؤلاء العمال الى معاهد خاصة لتعلم الصنائع المتنوعة كما يستدل من نقوش بنى حسن وغيرها ، لكننا لا نزال نجهل اذا كان شغل هؤلاء العمال كان لأجل حكام قسمهم أو لأجل التجارة والمعاملة مع أفراد الطبقة المتوسطة .

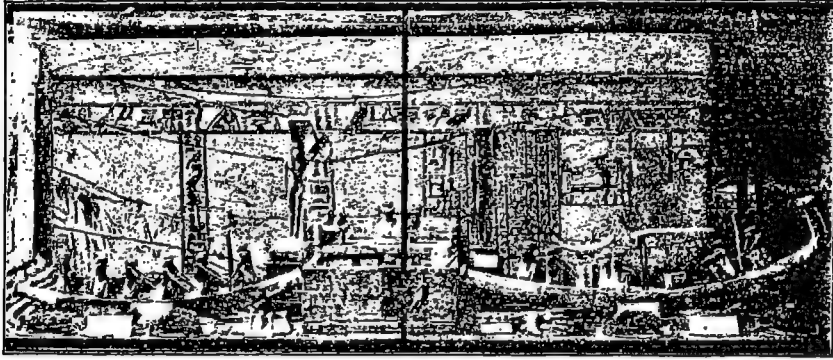
(٤) صوري التي

(٣) ١ : ٣٦

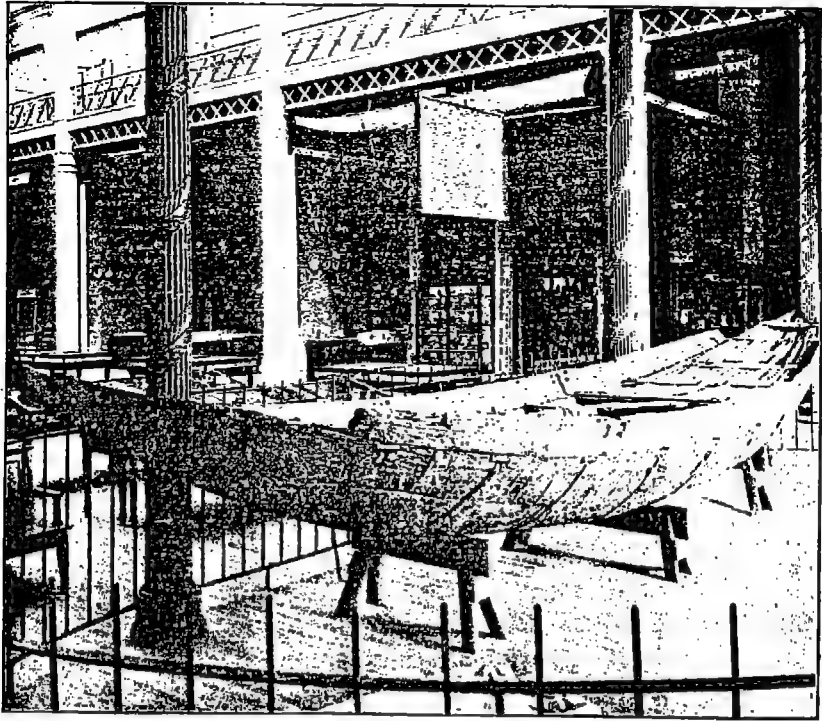
(٢) قرطاس ساليير البردى ٢

(١) راجع صحيفة ١٠٤

أخذتها ل Florence, Stela 1774



شكل ٨١ — صورة شمسية لتابوت ميت وأثاث مقبرة من عهد الملكة الوسطى ويرى القارئ
فوق الصورة سفنا وخداما مجهز الطعام والجلعة ومنزلا (في الوسط) • (دار تحف براين)



شكل ٨٢ — سفينة لملك سيوستريس الثالث وجدت بهرمه جهة دهشور طولها ثلاثون قدما وعرضها
ثمانية أقدام وعمقها أربعة أقدام • مصنوعة من خشب الأرز اللبناني (دار تحف شيكاغو)

وامتاز عصر الملكة الوسطى بتغير واضح في عقيدة القوم الدينية ، ففي مبدأ الأسرة الخامسة أخذت عبادة الشمس شكلا رسميا في القطر ثم سقطت الأسرة السادسة فتبعها الاضطراب والانقسام . ومع ذلك فقد انتشرت عبادة الشمس حتى اذا ما تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم كانت هذه العقيدة بالغة أقصى درجاتها فتغلبت على سائر عقائد القطر واضطر كهنة المعبودات الأخرى أن يجاروا الظروف بقصد اجتذاب بعض شرف عبادة رع الى معبودات أقسامهم فقالوا إن هذه المعبودات صور متنوعة للعبود رع (الشمس) ثم ذهبوا الى أبعد من ذلك فقالوا إن أسماء معبوداتهم مرادفات لاسم رع أيضا .

مثال ذلك : ان كهنة المعبود سبك (أى التساح) نسبوا معبودهم الى رع مع أنه ليس هناك علاقة قديمة بين الاثنين فلقبوا معبودهم سبك رع . ثم ان كهنة آمون الذى كان يعبد في بادئ الأمر في طيبة فقط نسبوه الى رع فلقبوه آمون رع . وبهذه الكيفية أخذت عبادة الشمس التوحيدية الأصل تنتشر بعدة أشكال بين سكان القطر ، ويتضح لنا ذلك جليا عند الكلام على تدرج هذه الديانة المدهش فيما بعد .

وأخذت المعابد تكبر في الحجم مع بقاء العادات الدينية على ما كانت عليه ، ولم يزد تعدد الكهنة كثيرا عن العصور السابقة كما يستنتج من احصائية معبد أنوبيس بجبة كاهون بالقيوم الذى أسسه سيزوستريس الثانى ، فقد جاء فيها أن موظفى المعبد كانوا عبارة عن " رئيس المعبد " و " خطيب كبير " (وهما ثابتا المركز والمرتب) وتسعة كهنة وستة بوابين وخادمين اثنين . والعادة أن الكهنة كانوا يغيرون كل شهر بكهنة آخرين وهم أشخاص من طبقة العمال والصناع (١) .

ولم تكن عبادة الشمس وحدها منتشرة بين المصريين بل حذت حذوها عبادة أخرى وهى عبادة أزوريس . وبديهى ان انتشار عبادة الشمس كان نتيجة مباشرة لفوز الحزب السياسى المتسمى اليها ولعلو مركزها بمصر . أما عبادة أزوريس فيرجع الفضل في انتشارها الى شدة توافقها مع النفسية المصرية والى المجهودات التى بذلها كهنة أزوريس كل سنة في تمثيل حياة هذا المعبود ورفاته وانتصاره الأخير ، وذلك أمام القوم بالعراة . وقد سمح هؤلاء الكهنة لبعض الأهالى بالاشتراك في تلك الاحتفالات فأثر هذا كثيرا في نفسية المصريين كالمعجزات والنبات النبوية . ومما يثبت شدة اهتمام المصريين بهذه الاحتفالات ما ورد على شواهد قبورهم بالعراة من الدعوات والتوسلات للخروج في القبر بعد الوفاة لمشاهدة تلك الاحتفالات . وأهم فصول هذه الاحتفالات هو الخالص بدفن جثة أزوريس فقد تخيل المصريون وجود قبر أزوريس غربى العراة على حافة الصحراء ، فاعتقدوا خطأ أن قبر الملك زر أحد ملوك الأسرة الأولى الذى يرجع تاريخه الى أكثر من ألف سنة من ذلك الوقت هو قبر المعبود أزوريس (٢) لتشابه الاسمين ، وازداد اهتمام القوم بهذا القبر فقد سوه وأصبحت العراة من أجله مركزا دينيا كبيرا في القطر المصرى لا يضارعه مركز آخر . ومما يدل على شدة تأثير المصريين بذلك تكرار حجبهم الى تلك الجهة كلما سحت لهم الفرص ، وأيضا كثرة الهدايا والقرابين

التي قدموها في الأواني الخزفية حتى تكثرت منها كومات فوق قبر الملك زِر . واجتهد القوم في دفن جثثهم بجوار معبد أزوريس أو داخله إذا لم يكن هناك مانع ، حتى اضطرت الكهنة في آخر الأمر أن يقيموا سوورا عظيما منعاً لتكاثر القبور على ضريح المعبود . وقد أمّ المصريون هذا المكان المقدس على اختلاف مراتبهم من الوزير إلى الاسكاف . وفي حالة تعذر دفن الميت في العرابية (كما حصل مع حكام الأقسام) فانه بعد تحنيط الجثة تبعث إلى العرابية لتحضر احتفالاً دينياً ثم ترسل إلى مقرها النهائي . وإذا تعذر ذلك اكتفى بإقامة شاهد بجانبة العرابية منقوش عليه دعوات لأزوريس بقصد مساعدة المتوفى وخلاصه من كل مكروب في الحياة الآخروية . وإذا استدعت مهنة الموظف أو مندوب الحكومة زيارة العرابية اغتنم هذا تلك الفرصة لزيارة معبد أزوريس حيث يترك أثراً نقش عليه اسمه وتاريخه وسبب زيارته الخ مما أظهر لنا كثيراً من غوامض تاريخ تلك العصور السالفة (١) .

ولما تأكد القوم بحاجة أزوريس في الآخرة اعتقدوا أن كل متوفى سيحيا كم مثله فتعقد له جلسات يحاسب فيها على أعماله وينفذ عليه كل ما يحصل لغيره من الأموات . وكان أزوريس معتبراً في عهد المملكة القديمة إله الأموات ولكن هذا الاعتبار لم يرسخ في الأذهان إلا في عهد المملكة الوسطى . وتتكون محكمة أزوريس في عقيدة القوم من اثنين وأربعين قاضياً يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسماً من أقسام مصر ، فإذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاضٍ اثماً من آثامه يوزن قلبه في ميزان مقابل ريشة العدالة للتأكد من صدق قوله . أما الآثام التي يتبرأ منها الميت أمام محكمة أزوريس فهي بعينها الآثام المستهجنة في عهدنا هذا ، وهالك بياناً موجزاً لتلك الآثام : السرقة والقتل والاختلاس (وبالأخص السلب) والكذب والخداع وشهادة الزور والرياء والتناؤد بالألقاب والتجسس وعدم الاعتدال في الأمور الجنسية وامتھان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم وسرقة أمتعة الموتى . ومن هذه القائمة يستدل على عظم الزادع النفسى عند المصريين وقتئذ استنكاراً للنكرات ، وعليه فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا بترتب الحياة الآخروية على الحياة الدنيوية ، ويرجع هذا الاعتقاد في الحقيقة إلى عهد المملكة القديمة . والغريب أن هذه العقيدة انحصرت في المصريين أكثر من ألف سنة في حين أن البابليين والاسرائيليين اعتقدوا انتقال الموتى عموماً إلى سقر المعروفة باسم شول (Sheol) . واعتقد المصريون أن الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أزوريس بالاجرام يعرضون للجوع والعطش ويحجزون في أماكن مظلمة لا يبصرون فيها ضوء الشمس . وفي المحكمة طرق أخرى للقصاص منها حيوان بشع له رأس تمساح ومقدم أسد ومؤخر دب البحر يفترس المجرمين الآثمين . وأخذت آراء القوم في عهد المملكة الوسطى تحوم حول تطهير النفس من المعاصي والذائل التماساً للبراءة بعد الوفاة وتجنباً للعقاب الأليم ، فأصبحت ترى الكثير من نقوش شواهد القبور شديدة الشبه بما ألعنا إليه في عهد المملكة القديمة تلتخص في أن الميت كان يطعم الجوعان ويروى الظمآن ويكسى العريان وينقل في سفينته من ليس له سفينة ، وجاء على بعض الشواهد "أن المتوفى كان أبا اليتيم وزوج الأرملة وملجأ الذي لا ملجأ له" مما أشرنا إليه لما تكلمنا على كرم وسخاء حكام الأقسام .

والشخص الذى تبرئه محكمة أزوريس تلقبه بالرجل الطاهر العادل أو "صادق القول" أو "المتنصر" ولذلك كتب القوم هذا اللقب بعد اسم كل متوفى وبعد اسم كل حى ينتظر وفاته بقصد طلب الرحمة فى الآخرة . وانتشار عبادة أزوريس فى القطر لم يوحد الأديان بل سبب تفرقها شيئا فنشأت بين القوم عقائد دينية صعبة الفهم ، إذ بعد ما كانت المعبودات مستقلة بعضها عن بعض وعن أزوريس أيضا اندمجت الآن معه فاختفت بذلك معالم العقائد الأصلية . ومع هذا فقد استمر القوم متمسكين بأن الصالح هو الذى يتنعم فى الآخرة فى جزيرة ياروالتى تثبت أرضها الغنية قمحا يبلغ طوله اثنتى عشرة قدما ، واعتقدوا أيضا بأنه سيسمح لهم بعد الوفاة بالسكنى فى القبور والبقاع القريبة منها والصعود الى السماء لمرافقة المعبود رع فى رحلاته والمهبوط الى مملكة أزوريس وبمداولة الرجال العظام الذين حكموا مصر فى الدنيا .

لكن هذه العقيدة لم تدم طويلا لأن القوم تصوّروا أن الميت سيقابل فى أخره مصائب وأخطارا جسيمة ، مثال ذلك ما ورد فى نصوص الأهرام من ذكر تعابن كبيرة تفترس الأموات غير الحصينين وتماسيح تسلب الميت أحجيته وتعاويذه وأعداء هوائية تسلب المتوفى نفس الحياة من أنفه . وقد تندلع النيران من المياه التى يشربها الميت وقد تسلب منه القرابين التى يقدمها له ذوهه وقد يجبر فى بعض الظروف أن تفترس جثته . وجاء فى بعض النصوص أن المتوفى قد يسرق منه تاجه ومكانه وتلف جثته ويؤخذ منه فمه أو قلبه أو رأسه أو اسمه فيفقد بذلك أكبر مدافع له . كل هذه العقائد ابتكرها القوم فى عهد المملكة الوسطى ولم يرد ذكرها فى نصوص الأهرام التى أهمل استعمالها وقتئذ . وكان من نتائج هذه الخرافات أن كثرت استعمال الأُحجية والتعاويذ والصلوات والدعوات الكثيرة التى توجد بين أمتعة الموتى فى عهد المملكة الوسطى بقصد الانتصار على الأعداء والمروء بالآخرة فى أمان وسلام واتخاذ الشكل الذى يرغب فيه الميت بعد وفاته والذهاب والاياب وقتما يريد ويشتهى ، ورسمت المحكمة الأخروية بالتفصيل مع ما يحتاج اليه الميت من التعاويذ على صفحات التابوت الداخلية . ومع قلة ما وصل إلينا من هذه الدعوات والصلوات فإن ما احتدنا إليه هو بلا مرء النواة الأصلية لنصوص "كتاب الموتى" و "كتاب البعث نهارة" ، ويبحث هذا الكتاب الأخير فى خروج الروح من القبر نهارة ثم رجوعها اليه ثانية وقتما تشاء . ثم صارت كتابة الأُحجية ونصوص كتاب الموتى مصدرا عظيما للرزق والثروة اغتنمه الكهنة فى العصور الأخيرة فأخذوا من أهل الأموات الأجر الكبير على ذلك ، وبرع الكهنة فى التغيرير بمقول العامة فوضعوا كتابا سموه "الدليل" ذكروا فيه كل المعلومات اللازمة عن الحياة الأخروية وطرق الوصول الى الآخرة ، وقد جاء فى هذا الكتاب طريقان للآخرة افتن الكهنة فى وصفهما وأبدعوا ، ثم جمعوا ذلك فى كتاب سموه "دليل الطريقين" . ولا يبعد أن يكون السبب الأصل لوضع هذا الكتاب ابتزاز الأموال ، وسيوضح لنا فى العصور التالية أن هذه الخرافات والخزعبلات عرقلت تقدم المصريين الدينى والحيوى كثيرا .

وأخذ يقل بناء المصاطب والأهرام تدريجياً بين الأمراء لأنهم رأوا أن حفر المقابر داخل الصخور الجبلية أصون وأمن لأحوال معيشتهم . أما الملوك فاستمروا يشيدون الأهرام مقابر لهم . ومحتويات مقابر المملكة الوسطى عبارة عن جثة الميت وتابوته المنقوش الحاوى رسوم الأثاث اللازم استعماله فى الآخرة ، وغير ذلك كان القبر يحوى نماذج صغيرة للسفن المقدسة وبجارتها تنقل الميت الى الجنة فى الآخرة (شكل ٨١) . وقد عثر حول هرم سيزوستريس الثالث تحت التراب على خمس سفن كبيرة كالمذكورة سابقا القصد منها حمل الملك وأفراد أسرته فوق المياه الى الجنان (شكل ٨٢) . وجرى العادة وقتئذ أن الملك كان يكافئ أتباعه المخلصين بأكثر من تمثال يوضع فى القبر ويأمر أحيانا بوضع تمثال ثانٍ للمتوفى فى المعابد الكثيرة ليتمكن صاحبه من التمتع بالقرايين التى توزع هناك ، والسر فى ذلك أن الكهنة كانت تقدم القرابين أولاً للعبودات ثم تفرقها على أصحاب تماثيل المعبد ، الفائدة الأخرى من وضع تمثال المتوفى فى المعابد الكبيرة هى اشتراك صاحبه فى الاحتفالات الدينية التى تقام بتلك المعابد كما كان يفعل فى دنياه .

الفصل العاشر

الأسرة الثانية عشرة

علمنا أن أمنمحتت الأول تمكن بمهارته السياسية ودهائه الإداري من بسط نفوذه على حكام أقسام القطر ومن توحيد سلطته والاستئثار بالحكم دون سواه . ومثل هذا العمل الذي استغرق مدة طويلة في حكم أمنمحتت الأول سهل لأفراد أسرته استمرار الحكم في أيديهم مائتي سنة تقريبا . والغالب أن زمن هذا الملك كان أخصب وأرنى عصر في تاريخ الأمة المصرية ، نستبذ ذلك من قوله :

أنا الذي زرعت الحبوب وأحببت (نبرا) إله الحصيد ؛

النيل يميني في كل واد ؛

فلا جائع في عهدي ، ولا ظمآن تحت سلطاني ؛

وما هذا إلا لامتثال الرعية أوامري واستماعهم كلتي وتمسكهم بأفكارى حتى صرت موضوع حديثهم (١) .

ويدهشنا أنه في الوقت الذي أيقنت فيه الأمة بأن السلام والرخاء قد خيا على مصر باسدال ستار السلام والرخاء دبرت في الخفاء مؤامرة ذنيئة لاغتيال حياته . أما أفراد هذه المؤامرة فكانوا من رجال الحاشية . والظاهر أن هذه المؤامرة بلغت حدا بعيدا فدخل الجناة حجرة نومه وهجموا على شخصه الملكي ، لكنه دافع عن نفسه فسمع صليل السيوف في أنحاء القصر وتنبه الخدم من نومهم فأيقنوا بالخطر المهدق بملكهم ونحاه الله (٢) .

وفي عام ١٩٨٠ قبل الميلاد (بعد حادثة المؤامرة على الأرجح) أشرك ابنه سيزوستريس الأول معه في الملك ، فأضاف بذلك الى حكمه قوة ونشاطا وسارت الأمور الداخلية في مجاريها المنظمة . وتمكن هذا الأمير من توجيه مجهوداته نحو الجنوب وبسط نفوذه على النوبة ، وهو مشروع وقف انجازه بعد سقوط الأسرة السادسة وحصول ثورة حكام الأقسام . ومع أن مجهودات الأسرة السادسة بشأنه ذهبت أدراج الرياح فقد أصبح في عهد الأسرة الثانية عشرة هذا الاقليم الممتد من ادفو شمالا الى الشلال الأول جنوبا معتبرا من بلاد النوبة ولذلك أطلق عليه اسم تاپدت (Tapedet) أى ” أرض القوس “ ، (٣) وهو اسم النوبة القديم . وفي السنة التاسعة والعشرين من حكم أمنمحتت الأول توغلت الجنود المصرية بأرض الواوات حتى بلغت كوروسكو التي هي في نهاية الطريق الصحراوي الممتد الى لمنحني النيل العظيم والواصل الى بلاد المازوى (٤) ، ويحتمل أن الأمير سيزوستريس الشاب كان قائد تلك الحملة . والمعروف أن حفائر محاجر وادى الحمامات كانت مستمرة وقتئذ

(١) ٤٨٣ : ١ (٢) ٤٧٩ : ١ (٣) ٤٠١ : ١ (٤) ٤٧٢ : ١ - ٤٨٣

كسابق عهدها^(١). ولما شق الأقوام "الترجلوديت" وهم بدو أسويون بشرق الدلتا عصا الطاعة على فرعون مصر أخضعهم الملك وعاقبهم عقابا صارما . ثم قوى حصن المملكة القديمة الذى على الحدود الشرقية فى نهاية وادى طميلات الشرقية لحراسة القطر ومراقبة تلك الجهات^(٢) ، فوضع خفراء اخصائيين فى أعلى شرفاته وبهذه الكيفية استتب الأمن على حدود مصر الشمالية والجنوبية وصارت المواصلات بين القطر والبلاد الأجنبية سالمة آمنة .

ولما أسن هذا الملك العظيم نادى ابنه وألقى عليه من اختيارات حياته الطويلة لآلى الحكم وغوالى النصائح^(٣) ما استحق الإعجاب، ويتضح لنا من أسلوب هذه النصائح شدة تأثير تلك المؤامرة فى نفسه واليك ترجمتها :

" استمع لقولى يا بنى ، وأعلم أنه مهما علت منزلتك فصرت ملكا على الأرض أوحا كما للبلدان أو مكثرا للحسنات فإن واجبك يحتم عليك استعمال الشدة مع مرءوسيك فالتناس تحترم كل من يخيفهم ويفزعهم . اننى أحذرك ألا تقترب منهم بمفردك وألا تتخذ منهم أخوا ولا رفقا ولا صاحبا إذ لا فائدة فى ذلك . وإذا غشيك النوم فليكن قلبك رقيقا عليك لأن الأهل تترك الإنسان وقت البلاء . لقد أحسنت الى المسكين وأطعمت اليتيم وتحادثت مع الوضع كحادثي مع الأمير ولكن كل من أكل خبزي قام ضدى ، وكل من أعطيته يدى مؤتمنا آياه خائنى ، قصرت أوجس منه شرا"^(٤) . بعد ذلك جاء وصف حادثة الاغتيال، والفرض من ذكر هذه المؤامرة تقوية قلب الابن وإثبات دعوى الوالد . والظاهر أنه أرسل نجله هذا بعد ذلك على رأس جيش ليعاقب الليبيين على الحدود الغربية فى عام ١٩٧٠ قبل الميلاد أو بعد ثلاثين سنة من حكم أمنمحتت الأول . وبينما كان سيزوستريس منهمكا فى قيادة هذه الحملة وصل اليه نجاب سريع يحمل نبأ نعى والده ، فلم يجبر الجيش بذلك وأسرع من فوره ليلا الى إلتوى مقر الحكم وتسلم مقاليدته قبل أن يتمكن أحد من أنجال والده أن ينازعه^(٥) ، ولا يخفى أن النزاع على الملك بين الأخوة أمر كثير الحصول فى البلاد الشرقية . واتفق أن نعى أمنمحتت الأول بلغ مسامع من كانوا موجودين بنجمة سيزوستريس فأفشوه وترتب على ذلك هرب أمير يدعى سنوحي مستخفيا خائفا يتحين الفرص حتى بلغ آسيا فمكث بها بضع سنين ، ولا تزال ليجهل للآن السبب الحقيقى لهربه ولكن يظن البعض أنه أتى أمرا منكرا أغضب سيزوستريس، ويرى الآخرون أنه كان أحق بالملك من أخيه ، فهذه الحادثة تدل على وقوع اضطراب وارتباك عند انتقال الحكم من فرعون الى آخر^(٦) .

وأعمال أسرة أمنمحتت خارج القطر (بالنوبة وطورسيناء ووادى الحمامات) تثبت تقدم مصر ورفاهيتها بكيفية أوضح مما تثبت آثارها داخله ، وهذا القول ينطبق أيضا على النقوش التاريخية الخاصة بالأسرة الحادية عشرة . ولا يخفى أن السنوات العشر التى اشترك فيها سيزوستريس الأول وأبوه فى الملك رفعت شأن هذه الأسرة المالكة بعد وفاة الملك . ومما لامرأ فيه أن سيزوستريس

(١) ٨-٤٦٦: ١ (٢) ١٩-٤٩٣: ٣ و ١٧-١٩ (٣) ٤٧٤-٤٨٣ (٤) ١-٤٧٨: ٩

(٥) ٤٩١: ١ (٦) ٤٨٦: ١ ملاحظة

أظهر كفاية عظيمة في إدارة المهام التي ألقيت على عاتقه فقد ثابر على إخضاع النوبة وبمخز حكام الأقسام في مصلحته . ذكر أمنى حاكم قسم الوعل على جدر قبره أن أُمْنَحَمَت الأول نذب أباه سابقا لقتال النوبة فلما هزم وضع نفسه تحت تصرف سيزوستريس الأول فقاد فيلق قسمه وغزا النوبة تحت قيادة مليكه العزيز وتوغل فيها حتى بلغ كوش . ومن هذه الرواية نعلم أن الجنود المصرية بلغت وقتئذ إقليم الشلال الثاني ودخلت كوش التي تكرر اسمها على آثار ذلك الوقت ، وللاحظ أن اسم كوش لم يرد على آثار المملكة القديمة إلا مرة واحدة^(١) . ولا تزال نجهل الكثير عن حملة النوبة هذه ولكن يظهر أنها كانت بسيطة لأن أمنى قال أنه رجع ولم يخسر رجلا^(٢) . وقد أظهر حاكم جزيرة الفيل شهامة في هذه الغزوة كما أظهر أسلافه في عهد الأسرة السادسة فتمكن من اقتناص فيل أوجده بين نقوش قبره بجهة أسوان^(٣) . وتعتبر هذه الغزوة الأولى من نوعها لقيادة الملك لها شخصيا . وتاريخ هذه الحملة مجهول ويظن أنها حصلت قبل غزوة السنة الثامنة بعد وفاة أُمْنَحَمَت الأول حيث ورد في نصوص هذه الأخيرة ما يفيد بأن الملك لم يرمن الضروري مرافقة جيشه في تلك البلاد الجنوبية . والمعروف أن هذه الغزوة الثانية وجهت ضد كوش وكانت تحت قيادة متوحوتب الذي أقام لوحا حجريا كبيرا جهة وادى حلقا حوى معلومات عن انتصاراته الباهرة وجدولا بأسماء البلاد والمدن التي أخضعها^(٤) . ويعتبر هذا أقدم جدول من نوعه حتى الآن . ومن دواعي الأسف أننا لا تزال نجهل كثيرا من جغرافية النوبة القديمة فلم نهند إلا الى مكان واحد من العشرة الأمكنة الواردة بهذا الجدول وهذا المكان هو شت (Shet) القريب من قُمة على بعد ثلاثين أو أربعين ميلا جنوبى حلقا ، ويرجح أن متوحوتب نصب أثره هذا في الإقليم الذى أخضعه ، وقد ألمعنا سابقا الى هذا الأثر لما ذكرنا أن أحد حكام الأقسام المدعو متوحوتب رسم نفسه عظيما على أثره فاستاء الملك منه وأمر بنحو صورته ورسم معبود بدله . ويستدل من قرائن الأحوال أن متوحوتب هذا عزل وعوقب لاعتدائه على مقام السدة الملكية . ولا بد أن السكينة والهدوء كانا نعيمين على القطر لأن الملك أصدر أوامره الى حكام الأقسام بعمل الحفائر بوادى علاكى وما جاوره من الجهات الشرقية كما أنه كلف أمنى حاكم قسم الوعل الذهاب الى النوبة مع أربعائة جندي من جنود قسمه ليحضر الذهب من السودان . وقد تخين هذه الفرصة فأرسل ابنه الذى صار فيما بعد أُمْنَحَمَت الثانى فى هذه الرحلة ليعرف البلاد التى سيدعى يوما ما لاخضاعها وإدماجها ضمن دائرة المملكة المصرية^(٥) ، واستغل سيزوستريس الأول مناجم الذهب شرق فقط فأرسل أمنى المختص مع ستمائة جندي من قسم الوعل الى تلك المناجم مصحوبا بوزير الملك لحراسة الذهب وتسليمه تاما الى القصر الملكى^(٦) ، وبذلك جعل سيزوستريس طرق المواصلات مع البلاد الأجنبية آمنة مهيمة . ويعزى الى هذا الملك أقدم الأخبار الخاصة بالمعاملات مع أهل الواحات مع أنه لم يكن مسيطرا عليها ، فمن هذه الأخبار أنه أرسل أحد أمثائه المدعو إكوديدي (Ikudidi) الى الواحات الخارجة غربى العراية فاعتم لم كوديدي هذه الفرصة وأقام لنفسه حجرا أثريا بمعبد أزوريس بالعراية المقدسة طلب فيه ما تمناه من أزوريس أن يحققه ، ويعتبر هذا الأثر المرجع الوحيد الذى يشير الى حصول هذه الرحلة للواحات^(٧) .

(١) ٣٦١ : ١ (٢) ٥١٩ : ١ (٣) ١ : ٢٤٧ ملاحظة (ب) (٤) ٥١٠ : ١ (٥) ٥١٤ : ١ (٦) ٥٢١ : ١ (٧) ٨ - ٥٢٤ : ١

ولما رأى سيزوستريس الأول ما عاد عليه من الميزات العظيمة والفوائد الجلية من اشتراكه مع أبيه في الحكم اشرك هو أيضا ابنه أمنمحات الثاني معه في الحكم لمدة ثلاث سنوات^(١) . وتوفي سيزوستريس الأول سنة ١٩٣٥ قبل الميلاد بعد ما حكم نحسا وثلاثين سنة وأعقبه ابنه أمنمحات الثاني بمهولة . وقد جرى هذا الابن على سياسة والده تماما ثم اشرك معه في آخر حكمه ابنه سيزوستريس الثاني في الملك لمدة ثلاث سنوات أيضا^(٢) . وتقدر مدة حكم هذين الملكين بنحسين عاما كانت مصر في أثناءها لابسة حل الرخاء والسعادة والرفاهية ، ففي خلالها فتحت مناجم سيناء ثانية^(٣) ووطدت العلاقات التجارية مع بونت (الصومال) فرجعت الى ما كانت عليه في الأزمنة الغابرة^(٤) ، وأكثر من الآبار والمحطات على الطريق الموصل فقط بالبحر الأحمر ، فتمكن القوم بذلك من اجتيازه في خمسة أيام^(٥) ، وهذا الطريق شمالي وادي الحمامات وينتهي بالقصير التي عرفت في زمن البطالسة باسم لوكوس ليمين (Leucos Limên) وهي في نهاية وادي غازوز . وقد ترك قائدان قديمان في هذا الميناء^(٦) نقوشا تذكارا برجوعهما سالمين من الصومال . ولكثرة سفر المصريين الى الصومال أصبحت هذه البلاد معروفة لدى كثير من المصريين حتى كثروا ورودها في حكايات القوم ، مثال ذلك ما روى أن بعض الملاحين المصريين تحطمت سفيتهم ولم ينج منها إلا واحد لقي من الصعاب ما أدهش العقول . والمعروف أن مناجم النوبة الذهبية استمرت تصدر ذهبها الى مصر مدة طويلة وأن المصريين شيدوا في بلاد الواوات قلاعاً حصينة تحت اشراف مفتشين رسميين لحماية المصالح الرسمية بالنوبة^(٧) .

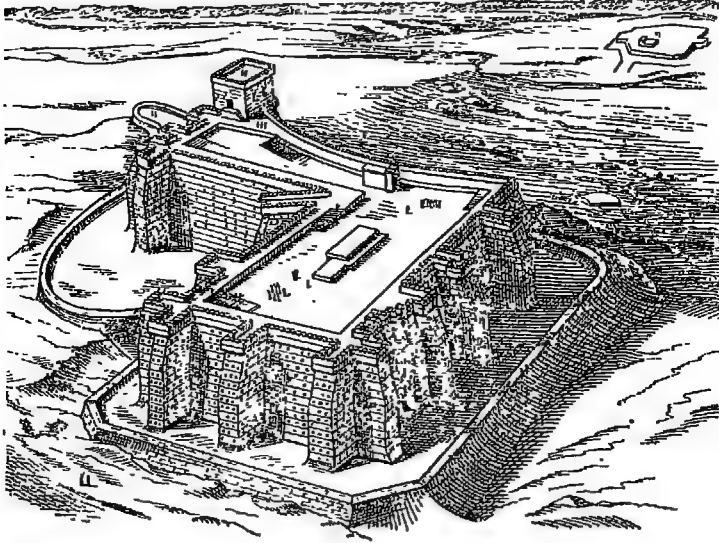
وتوفي سيزوستريس الثاني عام ١٨٨٧ قبل الميلاد لما كانت جميع الاستعدادات مجهزة لاختراع جزء النوبة البالغ طوله مائتي ميل والواقع بين الشلال الأول والشلال الثاني اخضاعا تاما . ولا يبعد أن يكون سيزوستريس الثالث الملك الوحيد في أسرته الذي لم يشارك والده في الحكم قبل وفاته ، ومع ذلك فقد قام بأعباء الملك خير قيام فأثبت بذلك ليقانا لانتسابه لهذا البيت المجيد . والمعروف عن هذا الملك أنه اجتهد منذ تولية الملك لضم النوبة نهائيا الى مصر فشق لأسطوله طريقا بين ضفوف الشلال الأول واضعاً بذلك الأساس الأول والأهم لضم تلك البلاد . وقد ألمعنا سابقا أن أول من شق هذا الطريق كان أونا أحد قواد الأسرة السادسة وذلك قبل زمن سيزوستريس الثالث بستائة سنة تقريبا ، ويرجح أن هذا الطريق سدّ بعد ذلك من جراء شدة التيار المائي . والنايب أنه لم يأت ذكر لهذا الطريق على الآثار منذ الأسرة السادسة حتى عهد سيزوستريس الثالث . وقد شق مهندسو سيزوستريس الثالث طريقهم هذا في أصعب مناطق الشلال الجرانيتية لمسافة مائتين وستين قدما بعرض أربع وثلاثين قدما وعمق ست وعشرين قدما ، ثم سمي هذا الممر المائي "طريق سيزوستريس الجميل"^(٨) ، وقد عبر هذا الممر كثير من السفن وقت القيام بالاجراءات الحربية الأولى في حكم هذا الملك لكننا مع مزيد الأسف لم نعث على بيان لهذا . وفي السنة الثامنة لحكم هذا الملك أبحرت

(١) ٤٦٠ : ١ (٢) ٤٦٠ : ١ (٣) ٦٠٢ : ١ (٤) ٦٠٤ : ١ - ٦١٨ : ١ (٥) راجع صفحة ١٠٠

(٦) ٦٠٤ : ١ - ٦١٧ : ١ (٧) ٦١٦ : ١ (٨) ٤ - ٦٤٢ : ١

اصلاحات وتوسيعات لهذا الطريق المائى قبل القيام بحملة أخرى في النوبة (١). وصار التفوذ المصرى في النوبة وقتئذ قويا جدا فشيد سيزوستريس الثالث حصنين متقابلين في آخر حدود مملكته الجنوبية على شاطئ النيل أحدهما في سِنَّة والآخر في قُة وأعلن رسميا أن تلك الجهة هي حدود مصر الجنوبية وأقام أثرين حجرين على شاطئ النيل هناك عثر على أحدهما فوجدت عليه نقوش هيروغليفية فرعونية هذا معناها :

” هذا هو الحد الجنوبي ” للملكة المصرية ” في السنة الثامنة من حكم ملك الوجه القبلي والوجه البحري سيزوستريس الثالث مُعطى الحياة الأزلية الى الأزل . ممنوع مرور كل زنجي بطريق الماء والأرض سواء أكان في سفينة أم في قافلة ، ويستثنى من ذلك الزنجي الذي يخترق الحدود من أجل التجارة أو توصيل رسالة فهو لاء يعاملون بكل اكرام . ولا يسمح بأى حال من الأحوال لسفينة من سفن الزوج أن تمر ببِلدة حَح (أى سِنَّة) متجهة شمالا على مدى الأيام ” (٢) .



شكل ٨٣ - صورة تمثل قلعة سمى وقفه بعد الترميم (مأخوذة عن برز وشبييه)

ولما كانت هذه الأوامر محتاجة الى قوة لتنفيذها شيد الحصنين المذكورين بتلك الجهة وكان أشدهما مناعة وأضخمهما حجما الحصن الغربى المعروف باسم ” حَح كَاوَرَع القوى ” (اسم سيزوستريس الثالث الملكى) (٣) . وشيد داخل هذا الحصن محرابا للعبود يدُ أُون النوبى . ولا تزال آثار هذين الحصنين باقية لآن تشهد لمصرى تلك الأوقات بالبراعة الحربية والكفاءة فى اختيار مواقع الدفاع الحصينة وبالمقدرة على تشييد الحصون المتينة (شكل ٨٣) .

بعد ذلك بأربع سنين حصلت بالنوبة اضطرابات جنوبى الحدود المصرية فذهب الملك نفسه الى تلك الجهات ليخضع القبائل النائرة . ومع أن مصر لم تدع ملكة أرض كوش الواقعة أعلى

(١) ٦٤٥:١ - ٧ (٢) ٦٤٢:١ (٣) ٧٥٢:١

الشلال الثاني، فقد غزا سيزوستريس الثالث تلك البلاد ليستط السلام على مملكته الجنوبية وليوطد أركان التجارة والمعاملات كما كانت سابقا، لأنه لا يخفى أن واردات السودان كانت ترد من هذا الطريق. وهذا كان من الأسباب التي حملت فرعون مصر على غزو تلك البلاد التي هي جنوبي حدود مملكته، أما الاقليم الواقع بين الشلالين الأول والثاني فكان سهل الانقياد. والمعروف أن مراقبة المصريين للحدود الجنوبية عادت عليهم بالكسب العظيم فقد ورد على الآثار أن سيزوستريس الثالث أرسل رئيس ماليته المدعو إيجرنوفرت (Ikhernofert) إلى العرابة ليرم تمثال أزوريس بالذهب الذي أخذ من بلاد كوش^(١). ولكثرة الذهب بمصر وقتئذ كان أرخص من الفضة. وقد ذكرنا فيما سبق شيئا عن خطاب الملك لرئيس ماليته المختص بهذه البقعة في الفصل السابق^(٢).

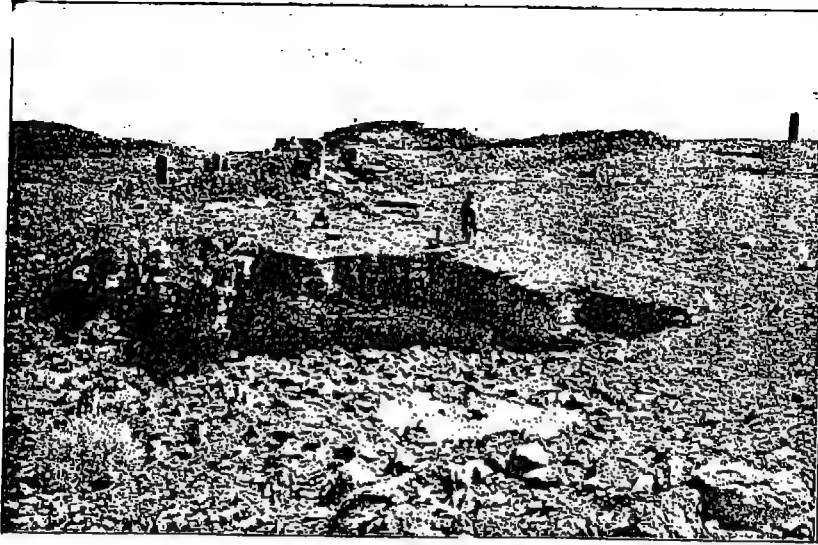
وفي السنة السادسة عشرة من حكم الملك سيزوستريس الثالث أغارت قبائل كوش وزوج شرق النيل على الحدود المصرية فزحف عليهم الملك بجيش جرار وقتك بهم فتكا ذريعا وعاقبهم عقابا شديدا وسلب أمتعتهم وحرقت حصيدهم واستولى على أغنامهم وأقام في محراب حصن سمته تذكارا حجرييا كالسابق بين فيه حدود مملكته وحض كل من يخلفه على أن يحافظ عليها^(٣)، وأقام هناك تمثالا عظيما لنفسه بقصد إرهابهم كي لا يتعدوا عليه^(٤)، وضاعف في الوقت نفسه دفاعه فشيد حصنا ثالثا في جزيرة أورونارتى جنوبي سمته وأقام فيه حجرا أثريا كالذي بحصن سمته^(٥) وأطلق على هذا الحصن الجديد اسم "صد الأعداء"^(٦). وقرر الاحتفال بعيد سنوى في حصن سمته تقدم فيه القرايين والهدايا وقد بقي هذا العيد محتفلا به حتى عهد الامبراطورية^(٧)، وبعد ذلك بثلاث سنوات ذهب شخصيا إلى كوش للترهة (غالبا) والظاهر أن هذه الزيارة كانت الأخيرة له^(٨) (شكل ٨٤ و ٨٥). وقد دللتنا الآثار أن هذا الملك قاد بنفسه جميع حملات جيوشه وأن أعماله الشديدة في السودان وطدت دعائم نفوذه فيه فاعتبرته الأمة في عهد الامبراطورية فاتح السودان ثم عبده في عهد الأسرة الثامنة عشرة باعتباره إله النوبة^(٩). ومن ذلك يتضح أن مطامع قدماء المصريين في السودان تقدمت باطراد فبعد ما كانت محصورة في عهد ما قبل الأسر على إقليم الكاب نخن (Nekhen) وصلت إلى الشلال الأول في عهد الأسرة السادسة ثم إلى الشلال الثاني في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وبذلك تمكن المصريون من إضافة إقليم إلى وطنهم يبلغ طوله مائتي ميل. ومعروف أن هذا الفتح بدأ العمل فيه في عهد الأسرة السادسة وانتهى في عهد الأسرة الثامنة عشرة.

ويرجع تاريخ أقدم رواية وصلت إلينا عن غزو المصريين لبلاد الشام إلى عهد الملك سيزوستريس الثالث، وتتلخص هذه في نقوش وجدت بحجة العرابة على لوح حجري^(١٠) أقامه أحد القواد المدعو سيك خو (Sebek Khu) المحافظ الحربي لعاصمة الملك والذي سبق له التوظيف بالنوبة. ودللتنا هذه النقوش أن سيزوستريس الثالث استصحب هذا القائد في غزوة قام بها بإقليم سكم (Sekmem) بسوريا (رنتو) حيث هزم السوريين واستولى سيك خو منهم على أسرى

(١) ٦٦٥: ١ (٢) راجع صحيفة ١٠٨ (٣) ٦٦٠-٦٥٣: ١ (٤) ٦٦٠: ١ (٥) ٦٥٤: ١
(٦) شرحه (٧) ٦٦٧: ٢ ملاحظة (٨) ٦٩٢: ١ (٩) ٦٦٧: ٢ ملاحظة (١٠) ٦٨٧-٦٧٦: ١



شكل ٨٤ - صورة شمسية لنهر النيل بأقليم النوبة مأخوذة من
أعلى الحصون الإسلامية المهدمة بجهة إربيم (مستارة من محل
أندروود وأندروود بنو يورك) .



شكل ٨٥ - بقايا مناجم الملكة الوسطى بجهة صربوط الخادم بطور سيناء.
(مأخوذة عن معلة المساحة)

عديدين . وقد افتخر هذا القائد بذلك قائلاً ما ترجمته : " لقد أهدى الى جلالة الملك عصا ذهبية وفضية وقوساً ومديّة من مخلوط الذهب والفضة (Electrum) وكذا أسلحة الأسير الذي استوليت عليه . كل هذه الهدايا قدمها الى جلالة ملكي بيده " — بقاء هذا مثلاً لظهور الروح العسكرية في نفوس المصريين ، تلك الروح التي بلغت أكبر شأوها في عهد الامبراطورية . ولم نهند الى الآن مع الأسف الى موقع بلد سكهم بسوريا ولكن الثابت أن ملوك المملكة الوسطى مهدوا فتح آسيا للملك الامبراطورية كما مهد ملوك المملكة القديمة فتح النوبة للملك الأسرة الثانية عشرة . والمعروف أن رسل سيزوستريس الأول جابت سوريا وفلسطين بانتظام^(١) وانتشر المصريون في تلك الأثناء وانتشرت تبعاً لذلك اللغة المصرية فصار اسم فرعون هناك مقروناً بالخوف والوجل . وعثر حديثاً بسفح تل جازر على لوح حجري لموظف مصري فيما بين بيت المقدس والبحر الأبيض المتوسط داخل حدود " المنطقة العالية " استدل منه أن النفوذ المصري وصل الى تلك الجهات وقتئذ^(٢) . ووجدت صور على جدر مقبرة خنوم حوتب بنى حسن لسبعة وثلاثين رجلاً من الشام أتوا الى مصر للتجارة مع هذا الأمير في الروائح والدهان العطرية الكثيرة الاستعمال عند المصريين^(٣) يقودهم حاكم أرض أبشا (Absha) المعروفة عند العبرانيين بأبشاي^(٤) . وقد ألمعنا سابقاً أن سنوحى التعس توجه الى الشام وهناك وجد شيخاً صديقاً له قرب الحدود سبقت له زيارة مصر وعثر شمالي ذلك المكان على بعض مصريين مستوطنين تلك الجهات^(٥) ، ومنها استنتج أن المعاملات التجارية القانونية كانت مباحة على الحدود مع وجود الحصون المنيعة شرق الدلتا كما كانت الحال على الحدود الجنوبية جهة الشلال الثاني^(٦) . وكان إقليم السويس وخليج السويس متصلين بفرع النيل الشرقى بقناة هى في الحقيقة أقدم اتصال مائى بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر في التاريخ . ووجدت جهة تنيس (Tanis) ونيشه (Nebesheh) شمالي وشرق الدلتا آثار لمعابد شامخة للملك الأسرة الثانية عشرة تشهد لمؤلاء القوم بالنشاط والكد في ذلك الإقليم . ودلتنا المعاملات التجارية وقتئذ أن أهل الشام كانوا على جانب عظيم من المدنية والحضارة وتجارهم كانت رائجة . ويستنتج من رسوم أهل الشام على جدر مقبرة بنى حسر أنهم كانوا يلبسون المنسوجات الصوفية المزخرفة المهلهلة ويلبسون النعال ويتساحون بالأسلحة المعدنية ويقبضون بأيديهم على عصي ثينة ، ويفحص الأواني الخزفية الحمراء التي تاجر بها الحيثيون الذين استوطنوا إقليم كبادوشيا (Cappadocia) بآسيا الصغرى وجد أن هذه الأواني أخذت تتدفق على الأهالي الساميين بجنوبي فلسطين . وتجارهم كانت تصل الى البلاد عن طريق فلسطين مخترباً كارمل (Carmel) وواصلوا شمالاً حتى نهر الفرات وبلاد بابل ولكنها كانت بطيئة الحركة . وعرف المصريون سكان جنوبي أوربا الذين ظهرت عليهم بوادر المدنية والحضارة والذين كانوا يعرفون عندهم باسم هاو نيو^(٧) . وجاء بالآثار أن أحد موظفى المسالية عهد اليه في حراسة الموانئ المصرية الشمالية فكتب مفتخراً بأنه انتصر على هاو نيو ، ومنه استنتج

(١) ١٤٤ : ١٤٩٦ : ١٤٥ (٢) PEFQS 1903, 37, 125. (٣) ١ : صحيفة ٢٨١ ملاحظة (د)

(٤) 11 Sam, 10, : 10. سفر صموئيل الثانى الاصحاح العاشر البطر العاشر .

(٥) ١٨٤٣ : ١٨٤٤ : ١٨٤٥ (٦) ١٨٤٣ : ١٨٤٤ : ١٨٤٥ (٧) ١٨٤٣ : ١٨٤٤ : ١٨٤٥

أن العلاقات بين هؤلاء القوم والمصريين لم تكن في صفاء على الدوام . ودلتنا نقوش تاريخية لأحد كتبة ذلك العصر جاء فيها أنه يفخر باستعمال قلمه في تدوين أخبارها ونبؤ . وعثر على أوان خزفية من صنع هؤلاء القوم بجهة كاهون لوحظت عليها أشكال حلزونية مصبوبة بالصبغة المصرية ، مما يشير الى بزوغ شمس المدنية الأوربية بأفق وادي النيل في عهد المملكة الوسطى .

والمعروف أن سيزوستريس الثالث غزا سورية للكسب والغنم كما فعلت الأسرة السادسة مع النوبة ولكن الثابت أن هذه الغارات الآسيوية عظمت من شرف الأسرة الثانية عشرة ورفعت من منزلتها . ولما كان سيزوستريس الثالث أول فرعون قاد هو نفسه حملات مصر الأجنبية وعلى الأخص في السودان فقد اشتهر بين قومه بأنه أول فرعون استعماري ، وقد أكثر القوم بعد وفاته من سرد الحكايات والروايات الخاصة بحروبه وأعماله المحيطة مدة طويلة من الزمن . وزادت في العهد اليوناني منزلة هذا الملك فنسبت اليه بعض أعمال رمسيس الثاني الكثيرة . وبالبحث عما اذا كان رمسيس الثاني ينتمي الى الأسرة التاسعة عشرة وجدت هذه النسبة غير مطابقة لما ورد عن تاريخ وحياة سيزوستريس الثالث المذكور .

واستمر سيزوستريس الثالث يحكم الأمة المصرية مدة ثمان وثلاثين سنة ، واتسع نطاق مملكته حتى وصل الى ألف ميل من وادي النيل ، واليه يعزى الفضل في اخضاع حكام الأقسام للسلطة المركزية ولذلك انعدم وجود مقابر لمؤلاء القوم في الأرياف كبنى حسن والبرشه . ولما تقدم في السن أشرك معه ابنه أمنمحتت الثالث ودقن ذلك على جدر معبد مدينة أرسينو بالفيوم . وتوفي سيزوستريس الثالث عام ١٨٤٩ قبل الميلاد فأعقبه في الملك أمنمحتت الثالث بلا منازعات ولا مشاحنات .

وامتاز حكم أمنمحتت الثالث بالمشروعات العظيمة التي قام بها والتي عادت على مصر بالرخاء والتعم وضاعفت حاصلات البيت المالك وخيرات . وتفصيل ذلك أنه لما ولي الملك وسع نطاق المناجم بطورسيناء ، وكان البادئ في ذلك سيزوستريس الأول ، فذلل العقبات الشديدة التي واجهت العمال هناك بأن أسس لهم منازل ثابتة بل المساكن المؤقتة التي لم تستمر أكثر من بضعة أشهر . ووصف أحد رؤساء العمال الذين كلفوا ملاحظة أشغال المناجم تلك الصعاب التي لقيها في الصيف هناك فقال ما ترجمته : " ان الوقت لم يكن مناسباً للذهاب الى تلك الجهات ولكنني سافرت برغم ذلك . ولا يخفى أن الصيف شديد القيل في الأقاليم المرتفعة فكانت الجبال تحرق الجلد ومع ذلك شجعت أنفاري على مثابة العمل وعدم المبالاة بالقيل وأحضرت معي كميات كبيرة من المعادن أكثر مما طلب مني " وترك هذا الشخص وراءه حجراً أثرياً^(١) نقش عليه ما صادفه هناك وأورد به أيضاً نصائح لتشجيع عمال تلك الجهة على لزوم الصبر واحتمال المشقات . ولما عظمت الأعمال في طورسيناء حفرت الآبار وشيدت خزانات المياه ونمكت للعمال ومنازل للرؤساء وقلاع لصدهم هجمات البدو علاوة على ما كان فيها من قبل ، ولذلك أصبحت محطة صربوت الخادم

بطور سيناء مركزا عظيما ومنجما غنيا . ثم شيد الملك فيها صهريجا عظيما افتتحه في السنة الرابعة والأربعين من حكمه باحتفال عظيم^(١) ومعبدًا للعبودة حاثور ، وجاء أن أحد موظفي المالية ذهب بجرا الى تلك الجهات حاملا القرابين لهذا المعبد ، فاستج أن المصريين استعملوا وقتئذ خليج السويس طريقا للسفر الى تلك الجهات تجنبا لمشقة سفر الصحارى والقفار^(٢) ، ووضع كل بئر من آبار المناجم تحت اشراف رئيس سمي باسمه وحتم على الرؤساء اخراج كمية محددة من المعادن في مدة معينة في نهايتها يأتى المندوب المالى ليتسلم المعدن المستخرج كله^(٣) . ولا يخفى أن وجود حامية قوية بتلك الجهات تحت رئيس المالية حالت دون سطو البدو على المناجم . وقد شيد هناك العمال لأنفسهم جبانة منظمة لا تزال آثارها باقية دفنوا فيها موتاهم على حسب عاداتهم ، فثبت بذلك أن الأعمال انتظمت وصار لها دخل ثابت سنويا بعد ما كانت مختلة معتلة (شكل ٨٥) . وبديهي أن فراعنة تلك العصور اضطرتهم ظروفهم للبحث عن الكسب والثروة خارج القطر ولكنهم صرفوا قصارى جهدهم لتحسين منافع القطر الداخلية . ومن دواعى الأسف أننا لم نهند الى نصوص تاريخية على ما قام به هؤلاء الحكام من المشروعات وانما المعروف أن أمنمحتت الثالث كان أعظم ملوك هذه الأسرة اهتماما بأمور الري ، فقد أصدر أمرا للحامية قلعة سمنه بأن تقيس في جهتها أقصى ارتفاع لمياه النيل كل سنة فتأسس هناك مقياس للنيل . واستخرج من النقوش التى على أحجار هذا المقياس^(٤) أن ارتفاعات مياه النيل كانت أعلى مما هي الآن بما ينيف على خمس وعشرين أو ثلاثين قدما . ولما كانت أخبار هذه المقاسات ترسل على عجل لموظفى مكتب الوزير بمصر السفلى فقد تمكن القوم وقتئذ من تقدير كمية الحبوب الممكن انتاجها من البلاد في السنة التالية ، وبناء على ذلك قدروا نسبة الضرائب والرسوم التى تطلبها الادارة المالية من ذوى الأملاك .

وابتكر لى الوجه البحرى طريقة علمية ناجعة أطالت مدة ريه ، وتفصيل ذلك أنه توجد فتحة صغيرة في سلسلة جبال ليبيا بجهة الفيوم (خريطة نمرة ٣) تبعد خمسة وستين ميلا عن قمة الدلتا وتصل وادى النيل باقليم منخفض عظيم غربى جبال ليبيا يعرف بالفيوم ويشبه كثيرا الواحات الغربية ، وهو في الحقيقة واحة قروية من النيل أشبه بورقة النبات يتصل فرعها بالنيل ويبلغ طولها أربعين ميلا وعرضها مثل ذلك ، ولا يزال الجزء الشمالى الغربى لهذا الاقليم خازنا للمياه ومعروفا ببركة قارون (شكل ٨٦) وهو منخفض عن مسطح البحر بنحو مائة واربعين قدما . وقبل حكم الأسر كان فيضان النيل يعم اقليم الفيوم محولا اياه الى بحيرة عظيمة ، فلما أتى ملوك الأسرة الثانية عشرة فطنوا الى خزن كمية مياه عظيمة في تلك الجهات وتصريفها وقت التحريق ، فشيّدوا على الفتحة السابقة المذكور سدودا عظيمة لحجز المياه في البحيرة الفسيحة ، تاركين في الوقت نفسه قطعة كبيرة في الأرض للزراعة . وقد بدأ هذا المشروع ملوك الأسرة الثانية عشرة الأول ولكن الفضل الأعظم في إنجازها يرجع الى أمنمحتت الثالث الذى أطال السد العظيم فأبلغه الى نحو سبعة وعشرين ميلا

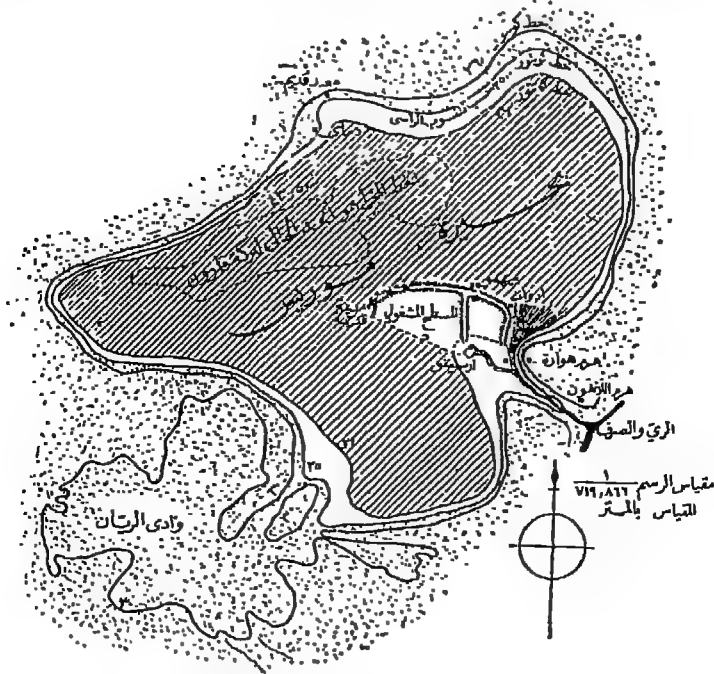
(٣) ٧٣١ : ١

(٢) ٧١٧ - ٧١٨ وترابين مشاة ٧٣٨ : ١

(١) ٧٢٥ - ٧٢٧

(٤) L.D. II, 189; Lepsius Sitzungsber. der Berliner Akad. 1844, 374 ff

طولا فاكنتسب بذلك أراضى زراعية تبلغ مساحتها سبعة وعشرين ألفا من الأفدنة (١) . ويتخيل الزائر لمنطقة هذا الجسر العظيم جلال المجهود الانسانى الذى رفع شأن تلك الأراضى المنخفضة التى غمرتها المياه قديما ولذلك قال استرابو أن الملك لامارىس — وهو اسم أمتنحت الثالث الملكى — هو الذى حفر هذه البحيرة المعروفة عند مشاهير الجغرافيين والسائحين ببيرة موريس (شكل ٨٦) وقد وافق استرابو (المعتبر أضبط البحاثين فى أمر هذه البحيرة) هيرودوت فى وصفه الغامض لها ، وهو أن فيضان النيل كان يغمر تلك البحيرة العظيمة عن طريق الثغرة الموجودة بببال ليبيا ، وأن المصريين كانوا يروون أرضهم زمن التحاريق من مياه هذه البحيرة الواسعة . وشاهد استرابو محال مراقبة المياه الداخلة والخارجة بأقليم البحيرة المذكورة . ولكثرة عناية أمتنحت الثالث



خريطة رقم ٣ . الفيوم (مأخوذة عن الميجور ر. هـ. براون)

بأقليم الفيوم اعتقد القوم أن مشروع رى ذلك الاقليم يرجع تاريخه على الأقل الى مشروع الجسر العظيم الذى أقامه هذا الملك وأنه هو الذى حفر ببيرة الفيوم . وقدر المهندسون حديثا كمية المياه التى كانت تخرج فى ببيرة الفيوم وقتئذ فوجدوها ضعف حجم مياه النيل أسفل إقليم الفيوم لمدة مائة يوم ابتداء من أول أبريل من كل سنة (٢) .

وغنى عن البيان أن الأراضى التى نتجت عن إقامة الجسور بالفيوم كانت ملكا لفرعون مصر . وهناك أدلة كثيرة تثبت أن ملوك الأسرة الثانية عشرة الأخيرين فضلوا سكنى تلك الأراضى فشيّدوا بها بلدة عظيمة سماها اليونان كركوديلوبوليس أو أرسينو وأقاموا بها معبدا للمعبود سبك —

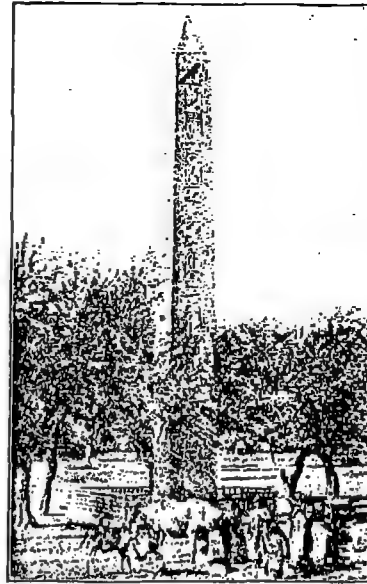
(١) Maj. R. H. Brown, R.E, The Fayûm & Lake Mær's, London, 1892. (٢) شرحه .



شكل ٨٦ - منظر بركة فارون بالجبهة الشمالية الغربية بالقنوم



شكل ٨٨ - تمثال خشبي لأمير
إوب رع بدار تحف القاهرة



شكل ٨٧ - مسلة سينوسترس الأول
بمدينة عين شمس
(ماخوذة عن أندروود وأندروود بنو يورك)

أى التمساح — ولا تزال هناك مسلة لسيزوستريس الأول يجهة إيجيج (Ebgig) فى صميم الأرض الزراعية . وكان هناك تماثلان عظيمان لأمنمحت الثالث المعتبر فى عهد هير ، ودوت منشئ البحيرة ، نصبا بالقرب من الجسر الأعظم فى الأقاليم الذى كان مغمورا بالمياه . وفى الجهة البحرية للثغرة الموصلة لأرض الفيوم توجد آثار قصر ضخم يبلغ طوله حوالى ألف قدم وعرضه ثمانمائة قدم ، استعمل معهدا دينيا وإداريا . وحوى مجموعات من الحجرات بقدر عدد أقسام مصر وفى كل مجموعة منها تماثيل آلهة القسم المنتسبة إليه . وفى هذا القصر كانت تجتمع هيئة الحكومة أنا قانا . قال استرابون أن كل مجموعة من الحجرات كانت عبارة عن مكتب عام لكل قسم من أقسام مصر . وقد بقيت آثار هذا القصر واضحة حتى عهد استرابو الذى شاهدها . وأطلق على هذا القصر فى العهد اليونانى والرومانى اسم لا بيرانتا ، تشبيها بقصر لا بيرانتا الكرى الذى الوارد ذكره فى الروايات اليونانية لشعب طريقه وحجراته . وهذا القصر عمر طويلا منذ عهد الأسرة الثانية عشرة . ووصف استرابو متانة بناؤه وطول بقائه فقال ما ترجمته : ”والغريب أن سقف كل حجرة من حجرات هذا القصر كان من حجر واحد وكذلك أرضها ، ولم يستعمل فى بناء هذا القصر خشب أو ما شاكله من مواد العمارة“ . وقد شاهد استرابو البلدة التى أسست حول هذا القصر وقد عفت آثارهما واحت ما لمهما الآن . وجاء أن الملك سيزوستريس الثانى أسس بلدة خارج الثغرة الجبلية لأقاليم الفيوم سماها حوتب سيزوستريس — أى سيزوستريس القنوع — ثم شيد بالقرب منها هراما له . ومن أجل ذلك صار إقليم الفيوم أعظم الأقاليم عمرانيا وسياسيا وصار لمعبوده سبك — أى التمساح — شهرة عظيمة ضاهت منزلة آمون ، فسمى آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة سَبْكُ نَفْرُورَع نسبة إلى المعبود سبك ، وقد عرف جميع ملوك الأسرة الثالثة عشرة باسم سبك حوتب نسبة إلى هذا المعبود أيضا .

وحكم أمنمحت الثالث مصر مدة خمسين سنة حل فيها النعيم والأمن والسكينة على البلاد حتى تزنم القوم بجلالته قائلين ما ترجمته :

هو (أى الملك) يكسو القطرين حلة خضراء أكثر من النيل العظيم .

لقد زاد القطرين قوة (كيف لا) وهو نفس الحياة المرطب للأنف ؛

.....

هو الذى يوزع الخيرات على تابعيه ؛ هو المفدى لخلقائه ؛

هو الغذاء وفى فمه الخير (١) .

أما المعاملات التجارية فكانت منظمة جدا فاستعملت وقتئذ المتاعيل النحاسية وكانت وحدتها الدين — الذى يعادل ١٤٠٤ قمحات (٢) . ويجد الباحث آثار أمنمحت الثالث وأسلانه منتشرة للآن فى جهات القطر رغما عما سلب من أحجارها فى أعمال العمارات والترميمات والأصلاحات أيام الامبراطورية ، ولذلك كان الباقي من آثار هذه الأسرة لا يستطيع تقديره . ولقد ضيع كثيرا من معالم المملكة الوسطى ما اقترفه ملوك الأسرة التاسعة عشرة وبالأخص رمسيس الثانى من طمس الكثير من آثارها وتهديمها واستعمال أحجارها لتشييد آثارهم . ويظن أن كل مدينة مهمة فى عهد المملكة

الوسطى حوت معبدا لقراعة تلك العصور ولكن هذه المعابد زالت وانمحت آثارها ويشق علينا لذلك معرفة أعمال هؤلاء الملوك بالضبط . ففي طيبة مثلا — مسقط رأس ملوك هذه الأسرة — شيد أممنمحت الأول^(١) معبدا عظيما لآمون بدل المعبد الصغير الذى كان موجودا هناك . ولما أتى سيزوستريس الأول كبر هذا المعبد وشيد مسكنا ومطعا للكهنة^(٢) جوار البحيرة المقدسة وقد بقيا ثلاثمائة سنة تقريبا^(٣) . ومن آثار هذا الملك أيضا السور العظيم المشيد حول مدينة الكاب (نخب)^(٤) وهو الوحيد من نوعه الذى لا يزال سليما للآن (شكل ١٠٢) . وقد شمل أممنمحت الثالث معبد ادفو الفخيم برعايته وشيد بالعراة معبدا جديدا لأوزيريس ملأ نفوس القوم احتراما وأحيط بسور منيع وسمح للأمرء بدفن جثثهم داخل ذلك السور^(٥) . ووسع الملك أيضا معبد حرسافيس (Harsaphes) بجهة إهناس (Heracleopolis) بالفيوم وزاد أثنائه^(٦) . أما آثار الفيوم نفسها فقد سبق الكلام عليها . وأما منف ومعبودها يتاح فقد أقام أممنمحت الثالث بها بعض عمارات جديدة لم يبق من آثارها إلا النادر . والظاهر أن الملك لم يعتن كثيرا باقليم إثنوى وسائر القصور الملكية كما اعتنى بالجهات الأخرى . وأما رع أقدم المعبودات ووالد القراعة فقد أكرم كثيرا فى عهد الملكة الوسطى ، وكان سيزوستريس الأول أول من احتم بأمره من ملوك هذه الأسرة فشكل مجلسا كبيرا من الكهنة والأعيان أبدى فيه رغبته بتشيد هيكل لرع ووضع التخطيط اللازم لذلك ، فلما جهزت المعدات ذهب الملك شخصيا كالعادة المتبعة وحضر حفلة وضع أساس المعبد ، وقد اهتمنا الى نسخة للنص الملكى الخاص بإقامة هذا الهيكل بعد ما تلقى وضع بخط أحد الكهنة الذى أتى بعد عهد سيزوستريس الأول بنحسمائة سنة ، وقد نقل الكاتب هذه النسخة من النص المنقوش على جدر ذلك الهيكل ، أما النسخة فمكتوبة على قرطاس بردى وجد محفوظا داخل كيس من الجلد يوجد الآن بدار التحف ببرلين^(٧) . وقد افتخر سيزوستريس الأول كثيرا باسمه على آثاره العظيمة فقد قال ما ترجمته :

”سيدكر القوم محاسنى فى معبد رع ،

وسيبقى ذكرى مجسما فى قفتى مسلتى وفى البحيرة المقدسة أيضا“^(٨) .

أما معبد عين شمس وعين شمس نفسها وبحيرتها (التى ألع إليها الملك فى وصفه السابق) فقد بليت ولم يبق منها إلا قمة إحدى مسلاته التى لا تزال باقية تمجد ذكرى ذلك الملك العظيم (شكل ٨٧) . والمعروف أن الوجه البحرى صار وقتئذ جنة يانة كثيرة الخيرات والمدنية بفضل تحسين مشاريع الري ، الأمر الذى هو نتيجة أعمال الفيوم الصيفية العظيمة . وبالرغم مما أصاب معظم آثار الوجه البحرى كما ألعنا من التلف فلا تزال توجد بجهة تنيس (Tanis) وتل بسطه آثار تثبت ما كانت عليه مدن ذلك القطر من العز والنعيم فى عهد الأسرة الثانية عشرة . وهناك بقايا لمعابد أقامها أمراؤها فى أنحاء

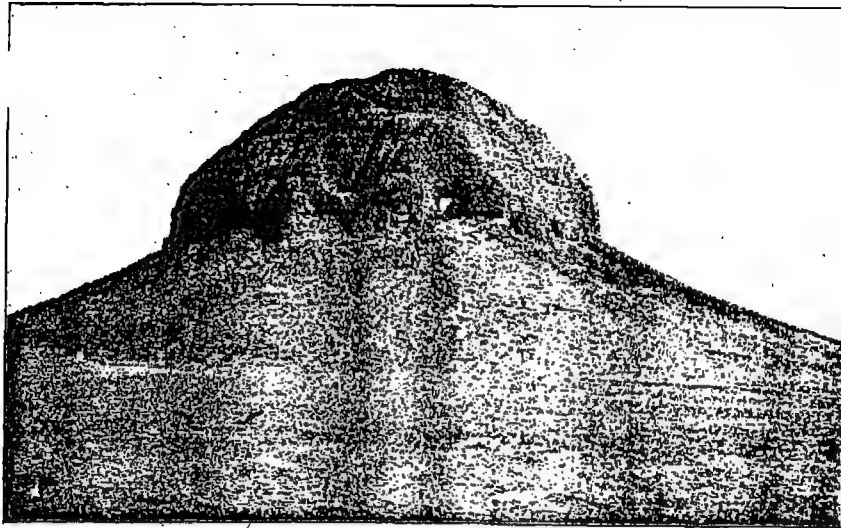
(١) ٤٨٤ : ١ (٢) ٤٨٨ : ٩ (٣) شرحه (٤) ٧٤١ : ٢ (٥) ٥٣٤ : ١ (ب) (٦) ٥٠٦ : ٤٩٨ (٧) ٥٠٣ : ١ (٨)



شكل ٩٠ - النصف العلوي
لتشال أممجت الثالث
بدار تحف عاصمة روسيا



شكل ٨٩ - صورة أممجت الثالث مأخوذة من تمثاله
المصنوع ببيت أبي الهول بجهة تيس (زوان)



شكل ٩١ - هرم سيزوستريس الثاني بجهة اللاهون مشيد بالبن

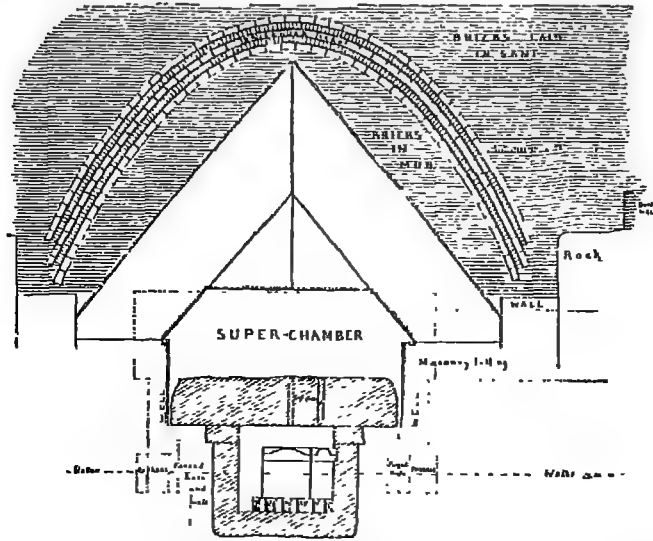
القطر من الشلال الأول الى الشمال الغربى للدلتا ، ومنها استلج أن بناء المعابد والقصور لم يكن مقصورا على ملوك ذلك الوقت بل شمل أيضا حكام الأقسام الأغنياء الأقوياء^(١) (٢) وقد أقام هؤلاء الحكام أيضا معابد صغيرة للترحم فيها على أرواحهم^(٣) ولولا خرابها لعرفنا كثيرا من رفاهية البلاد وعزها وقتئذ .

ويعزز رأينا هذا آثار المقابر الفضة الباقية من عهد حكم الاقطاعيات والتي هي الآن في حالة سيئة للغاية . وقد ذكرنا فيما سبق أن تشييد المقابر على شكل مصاطب أخذ يتقدم تدريجا ، ثم استبدلت بالمصاطب كهوف محفورة داخل صخور جبلية . وسفر القوم في هذه الصخور دهاليز وآبارا وغير ذلك . أما المعابد التابعة لتلك المقابر فكانت مثلا لحضارة تلك العصور وعمرانها فقد حوت جدرانها الكثير من المعلومات التاريخية الخاصة بأصحابها ، وتعتبر هذه المعابد أهم مصادر معارفنا لتاريخ ذلك الوقت . وهكذا صار لتلك الساحات ذات العمارات قيمة علمية عظيمة . وبفحص أهرام الأسرة الثانية عشرة اتضح لنا أن المقابر الملكية فقدت أهميتها التي كانت لها أيام المملكة القديمة ، فلم تعد الحكومة تصرف عليها الأموال الباهظة والأشغال الكثيرة ، والسبب في ذلك أن ملوك ذلك العصر اعتبروا مقابرهم أقل أهمية من المشروعات الأخرى النافعة . وأول من بدأ بهذه الحركة الرجعية ملوك الأسرة الحادية عشرة الذين شيّدوا أهرامهم باللبن . ولما أتى أمنمحتت الأول شيّد باللبن هرمه من الداخل وكساه من الخارج بالحجر الجيري ، ويوجد هذا الهرم جهة اللّشت (شكل ٩٤)^(٤) . وقد حذا حذوه سائر ملوك هذه الأسرة إلا واحدا ، وتشاهد أهرامهم متشرة من مدخل الفيوم حتى دهشور جنوبى منف ، فهرم سيزوستريس الأول موجود في لشت بجوار هرم والده . أما أمنمحتت الثانى فقد اختار لبناء قبره جهة دهشور شمالى اللّشت . ودفن سيزوستريس الثانى عند مدخل الفيوم ببلده الجديد حوتب سيزوستريس القرية من اللاهون (شكل ٩١) . أما سيزوستريس الثالث فاختر لهرمه جهة دهشور شمالى هرم أمنمحتت الثانى . ثم أتى أمنمحتت الثالث فاختر لهرمه مكانا جنوبى هرم أمنمحتت الثانى . أما هرم هواة التابعة للفيوم والقريب من قصر اللايرانتا فنسبه القوم أولا الى أمنمحتت الثالث ، لكن الرأى الغالب الآن يميل الى نسبته الى أمنمحتت الرابع ، وهذا الأخير هو الوحيد في هذه الأسرة الذى نجعل موضع هرمه بالضبط . وتماز أهرام هذه الأسرة بتركيبها وكثرة تعاريحها الداخلية وحجرتها واخفاء معالم مدافنها لتضليل اللصوص . وأعظم هذه الأهرام تعقيدا هو هرم هواة الذى يبلغ ارتفاعه نحو مائة وتسعين قدما ومساحة قاعدته المربعة حوالى ثلاثمائة وأربع وثلاثين قدما . ومدخل هذا الهرم في منتصف النصف الغربى للوجهة القبلىة ومنه تبدئ طريقة في طبقة صخرية أسفل الهرم تتعرج أربع مرات قبل أن تنتهى بالحد الذى يوصل اليه من الجهة الشمالية . وتشاهد في تلك الطريقة ثلاثة سدود صخرية عظيمة الحجم والثقل لمنع اللصوص من الوصول الى الجثة كما تلاحظ أيضا عدة مسالك ومنافذ مضللة عملت خصيصا للغرض نفسه .

(١) ٦٣٧: ١ ملاحظة (١) (٢) ٦٣٧: ١ (٣) ٧٠٦: ١

Mém. sur les Fouilles de Licht, par J. E. Gautier et G. Jéquier, Cairo, 1902. (٤)

ويبلغ طول حجرة التابوت اثنتين وعشرين قدما وعرضها ثمانية أقدام وارتفاعها ستة أقدام وهي منحوتة في صخرة واحدة من الحجر الصوان الشفاف (Quartzite) تقدر زنتها بمائة طن وعشرة. وليس لهذه الغرفة باب بل يدخل إليها من فتحة بالسقف مسدودة بصخرة ترن نحسة وأربعين طنا (١) (شكل ٩٢) . ومع هذه الاحتياطات نهب اللصوص هذا الهرم بعد وفاة صاحبه ، ويؤكد الآثريون أن بعض الموظفين أو الملوك الذين أتوا بعد وفاة صاحب هذا الهرم اشتركوا في تلك الجريمة . وبفحص السدود الثلاثة لوحظ أن الآتين الداخليين منها لم يقفلا وأن السد الخارجي وحده هو الذى أقفل ومنه استدل أن موظفى تلك العصور كانوا سيئى الأخلاق أحيانا لأنهم اعتقدوا



شكل ٩٢ - صورة قطع رأسى لهرم هوارة تظهر علاقة حجرة المومياة بساتر أجراء الهرم (مأخوذة عن بترى) : وهذه ترجمة النصوص الانجليزية في هذا الشكل ماء Water - عقد بالطوب اللبن Brickwork arch - صخر Rock - بئر Well - لبن مرصوص في الرمل Bricks in sand حجرة عليا Super chamber جدار Wall - لبن ملصوق بطين Bricks in mud - ممر Passage - ثغرو بئر للتضليل Forged hole - تصميم ممرى Masonry filling - ثغرة للتضليل Forged hole and well

أن اغلاق السد الخارجى كاف لاقناع أهل الملك بأن الاحتياطات الداخلية جميعها عملت ، ولا يبعد أن تعدد سرقات الأهرام كان سببا من الأسباب التى جعلت الملوك يمتنعون دفن جثثهم في أهرام . لذلك أخذ الملوك يختون مقابرهم داخل الصخور الجبلية ، لكن بعضهم شيد لنفسه أهراما صغيرة بجهة طيبة . بهذه الكيفية انتهى تاريخ بناء الأهرام التى هى أنعم وأضخم أنواع الآثار المصرية والتى يرجع تاريخها الى ما قبل عهد الامبراطورية ، ولا تزال الأهرام باقية في مصر منذ تلك العصور السحيقة يراها السائح منتشرة في مصر من رأس الدلتا شمالا من الجهة الغربية لوادى النيل بحافة صحراء ليبيا على مسافة خمسة وستين ميلا تقريبا على خط مستقيم .

ولم يحفظ لنا التاريخ الا القليل من مباني المملكة الوسطى عرفنا منها عمارتهم . ويستدل من مقابر ذلك العصر أن فن البناء حذا حذو المملكة القديمة وأن المعبد ذا الشرفات الذى شيده أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة بالدير البحرى بجهة الأقصر اتخذه كبار مهندسى البناء فى عهد الامبراطورية أعوذجا لمبانيهم . ودلنا الآثار الباقية التى عثر عليها بترى فى محل قصر لايرانتا ودلنا وصف استرابو لهذا القصر أنه كان غاية فى العظم والأبهة بصرف النظر عن حجمه وخطامته . أما عمارة المنازل فقد انعدمت آثارها انعداماً تاماً . وقد عثر الأستاذ بترى على خريطة لمدينة اللاهون القديمة بالقرب من هرم سيزوستريس الثانى تظهر رسم أحياء العمال وكيفية اتصال بعضها ببعض وتكديسها (خريطة ١) . ولم ننتد الى الآن على آثار لقصور سرة القوم ولذلك لا تزال معلوماتنا عن بنائهم ضئيلة جداً .

أما الفنون الجميلة فقد تمت كثيراً عما كانت عليه فى عهد المملكة القديمة . وبلغت فى الحفر درجة رفيعة من حيث الاتقان وخطامة الحجم ، مثال ذلك تماثلاً أمتنحت الثالث المنصوبان أمام بحيرة موريس فان ارتفاعهما يتراوح بين أربعين وخمسين قدماً ، وكذا تماثال حاكم قسم الوعل (سمح) المدعو تحوت حوتب فقد كان ارتفاعه اثنين وعشرين قدماً . وكثر عدد التماثيل وقتئذ فقد وجدنا فى هرم أمتنحت الأول جهة لشت عشرة تماثيل له (شكل ٩٥) . وروى أحد مفتشى المالية المدعو سى حانخور أنه أشرف على انجاز ستة عشر تماثلاً لأمتنحت الثانى صنعت لهرمه بدهشور^(١) . وقد عثر على عدة بقايا لتماثيل ضخمة بجهة تنيس (Tanis) (شكل ٩٣) وتل بسطه . وقد ألمعنا سابقاً أن سيزوستريس الثالث أقام لنفسه تماثلاً على الجدر الجنوبية فى النوبة^(٢) . ويستدل من تماثيل هذا العصر على مهارة قدماء المصريين فى فن رفع الأثقال (الميكانيكا) والتصوير . وبمقارنة تماثيل الأسرة الثانية عشرة بتماثيل المملكة القديمة لوحظ أن الأول أبعد من المظهر الطبيعى وأضعف تأثيراً فى النفوس ، والسبب فى ذلك أن التماثيل أصبح الآن مضطرباً لأن يراعى فى مهنته قواعد عتيقة لا يمكن الافلاج عنها . وجاء فى الآثار أن أحد الفراعنة بحث فى الكتب القديمة عن شكل أحد المعبودات ليقم له تماثلاً مشابهاً لتمثاله القديم الذى عمل فى حضرة المعبودات وقتاً قزروا فيما بينهم إقامة تماثيل لهم على وجه الأرض^(٣) . بهذه الكيفية صار القوم يقلدون القديم فى صنع تماثيل الملوك والأمراء مفضلين أقدم الأشكال ، ولهذا السبب تأخر فن الحفر عما بلغه فى عصر المملكة القديمة من الازدهاء والمطابقة للطبيعة . ومع ذلك فقد وجدت تماثيل وبعض أجزاء لتماثيل غير مستكفة الصنع تتجسم فيها معالم الحياة وتترأى فيها تجاعيد الوجه والأعضاء كما يشاهد ذلك فى تماثيل أمتنحت الثالث البديع المحفوظ بتروغراد (شكل ٩٠) ، وفى رأس الملك المركبة على جسم أسد بشكل أبى الهول الذى عثر عليه بجهة تنيس (شكل ٨٩) ، وكذا رأس التماثيل العظيم لسيزوستريس الثالث الذى وجد حديثاً جهة الكرك . كل هذه التماثيل تشهد لصانعيها بالمهارة والدقة والكفاية والصبر فى أعمالهم . والحق يقال ان هؤلاء الفنانين تمكنوا من اظهار معظم ملامح الوجه بوضوح على صلابة الأحجار . والمعلوم أنه كلما سهل نحت المادة ظهرت براعة الحفار ويشاهد ذلك فى تماثيل الأمير

إيوب رَع (شكل ٨٨) الذى يتجسم فيه جمال الحيا ولطافة المعالم الجسمية . وكثيرا ما تشاهد على جدر المحاريب بمقابر حكام الأقسام صور ملونة تمثل هؤلاء السراة ومصنوعاتهم ، لكنها ليست جميلة كصور المملكة القديمة لأنها محفورة في حين أن نقوش المملكة القديمة بارزة واضحة فوق مسطح الأحجار .

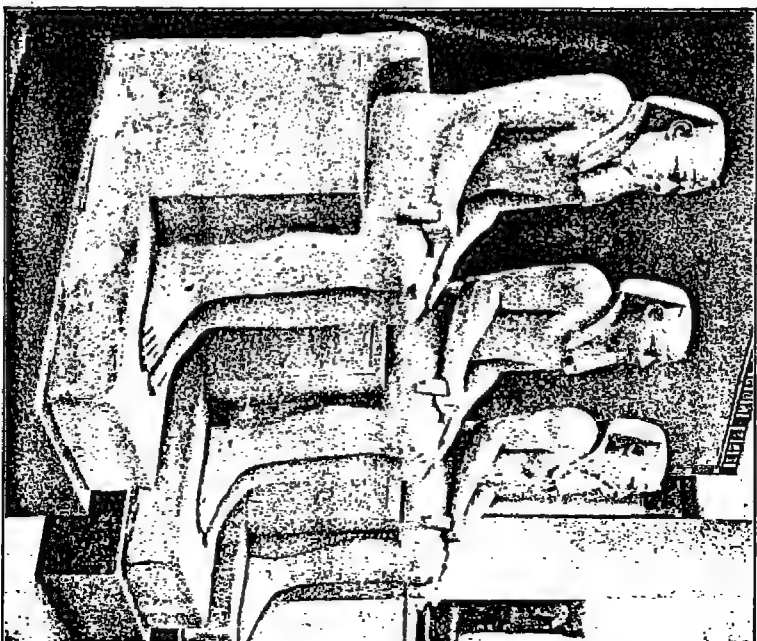
ولما كان حكام الأقسام كثيرى الشغف بالصناعات والحرف الجميلة تحسنت المصنوعات كثيرا وزاد عدد صناعاتها في أنحاء البلاد^(١) . وغنى عن البيان أن صناعات القصر الملكى كانوا أربع أفراد طائفتهم لأنهم تعلموا هذه الصنائع بالوراثة منذ أقدم الأسر المصرية . فالخلى الذى عثر عليه بجمه دهبور الخاص بإحدى الأميرات (شكل ٩٧ و ٩٨) أظهر بلا مراء مهارة صانعه المدهشة ، لأنه حوى من الدقة وحسن الذوق ما يصعب على أمهر صاغة أوربا الاتيان بأحسن منه ، وقد تزينت به أوانس بيت أمتنمجت حوالى القرن العشرين قبل الميلاد .

واستنتجنا من أدبيات الأسرة الثانية عشرة معلومات كثيرة عن ثروة القطر وأحوال المعيشة فيه ، من ذلك ما ألعنا اليه من تشجيع الحكومة انتشار القراءة والكتابة بين الأهالى . ولما احتاج القوم الى سرعة العمل وسهولة الكتابة اخترلوا خطهم وابتكروا لذلك حروف هجا بسيطة وصلت اليها صورها بالكيفية التى كانت تلقى للطلبة وقتئذ^(٢) . ومنها استنتجنا شدة العناية التى كابدوها هؤلاء القوم في دراستهم . أما أسلوب الكتابة وآداب اللغة في ذلك الوقت فقد اعتبره المصريون في العصور التالية مثالا للبلاغة والفصاحة وقد وافقهم على ذلك جمهور الأثريين الحديثين مع ما صادفهم من المصاعب في فهمها . وليلاحظ أن مصر هى البلد الوحيد الذى حافظ على أقدم أدبيات لغته العتيقة ، ومما يدل على شدة عناية القوم بهذه الأدبيات اهتمامهم برواية سنوحى الذى قرأ الى سوريا بعد وفاة أمتنمجت الأول ورجع كهلا الى مصر والذى حارب بأسيا وقضى بها مدة طويلة^(٣) ، فقد تأثر القوم كثيرا بهذه القصة فتجاذبوا في أحاديثهم وكتبوها على قطع الأحجار وعلى شواهد القبور الحجرية تسلياً للبت في الآخرة . ومن روايات تلك العصور قصة كقصبة السندباد البحرى جاء فيها أن بعض ملاحين مصريين أبحروا مرة الى الصومال فهبت عليهم عاصفة حطمت السفينة ومن فيها إلا واحدا منهم سبج على سطح الماء حتى بلغ جزيرة تحكها أفعى ، وعاش هذا الشخص بالجزيرة مدة من الزمن في هناء ونعيم ثم رجع ثانيا الى بلده مزودا بالهدايا والخيرات ، فأخذ يقص روايته لأهل بلده مظهرا لهم عجائب ما شاهده والتقى به^(٤) . ولم تسلم القصور الملكية ولا أسرها من أن تكون حوادثها مواضع لروايات وخرافات يتسلى بها القوم كما ورد في القصة الخاصة بتولية الأسرة الخامسة للملك^(٥) ، التى انتشرت كثيرا بين الخلق والتى لم نثر على نسخة منها إلا بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة بقرن أو قرنين تقريبا . واجتهد رجال الفضل والعلم في اظهار فوائد آداب لغتهم ومعرفتها فآلفوا الحكايات التى تبادلتها ألسنة العامة والتى أظهرت عظم تأثير الفصاحة والبيان في بعض الأحوال ، من ذلك

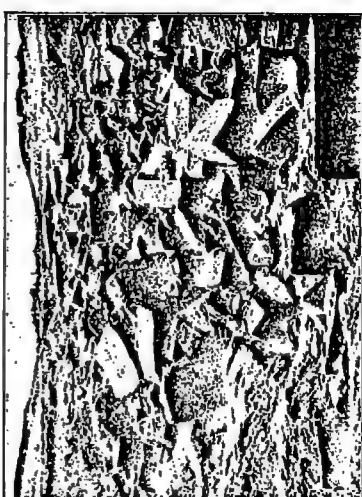
(١) ٦٣٨ : ١ (٢) Kahun Papyri, pp. 67-70. (٣) ١٨٦ : ١ — ٩٧

Unpublished papyrus in St. Petersburg ; see Golénitsch, Abh. des Berliner Orientalistenkongresses. (٤)

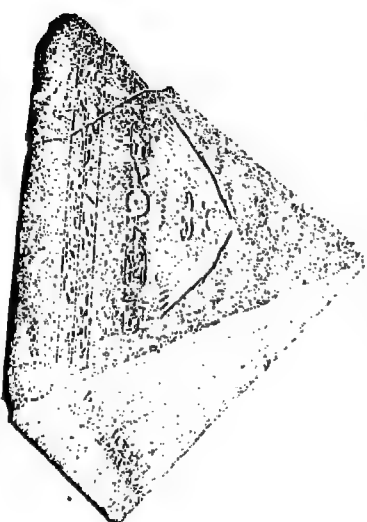
Papyrus Westcar, Berlin, Pl. 3081. (٥)



شكل ٩٥ - صورة شبيهة لثلاثة عاتيل مصورة من الحجر الجيري
لأصنعت الأول وجدت مع سبعة عاتيل أخرى من نوعها
بأرام هذا الملك بجدة لست (دارعنف القاهرة)



شكل ٩٣ - منظر مأخوذ لميد تيس (زنان)
بالوجه البحري في اتجاه بحوره (بترى)



شكل ٩٤ - حجرة مرم أصنعت الثالث بدحشور

أن أحد الفلاحين برع في المناقشة والمجادلة شكا الى الملك موظفا حكوميا أضربه ، وأظهر الفلاح في سرد دعواه من فصيح اللسان وبديع العبارات عسف ذلك الموظف ، فأمر الملك بإحضار الفلاح لسمع بأذنيه فصاحة منطقته وعذب بيانه . ولم نفهم للآن الكثير من أساليب هذه القصة العويصة ولا معنى بعض النصوص الشعرية لصعوبة فهمها وسبب ذلك أننا لم نتوصل الى معرفة اللغة المصرية القديمة معرفة تامة للآن^(١) . وقد ألمعنا سابقا الى نصائح ممنجعت الأول لابنه وقد تداولت الألسن والكتّاب هذه النصائح مدة طويلة فوصل اليها منها سبع نسخ^(٢) . وأصبح حب الاطلاع وممارسة العلم شغل الكثير من الناس ، كما يستدل من نصيحة رجل في عهد الأسرة الثانية عشرة لابنه يفضيه في الصنائع ويحبب اليه العلوم^(٣) . ويستنتج اهتمام القوم وقتئذ بالعلوم من حكم الوزراء العقلاء الأقدمين مثل پتاح حوتب^(٤) وقاقنه التي حفظها لنا كتاب الملكة الوسطى على قراطيس بردية . وورد عن أحد فلاسفة تلك العصور أنه سئم الحياة فنجى شبحه ورجاه أن ينهى حياته الدنيوية ليعيشا معا في الآخرة في هناء وصفاء^(٥) . ووصلت اليها رواية أخرى من تلك الأزمنة جاء فيها أن ساحرا يدعى إپور (Ipuwer) أئذ فرعون مصر بحصول اضطرابات ونقط في المملكة يصير فيها الغنى فقيرا والفقير غنيا ، ثم يغزو البلاد قوم أجانب فيقلب النظام رأسا على عقب . وبعد ما سرد الساحر كثيرا من هذه الأخبار المحزنة قال انه سيأتى بعد ذلك رسول ” يطفى نار ذلك اللهب فيمتدحه الخلق ويعتبرونه راعيهم لسلامة قلبه . يبقى هذا الرسول يلم شعث الضال من قومه فيلفت الناس حوله ويعضدونه بكل قواهم لينجيهم من بلائهم ومصابهم فيدفع الضرر بذراعيه بقوة ثم تسأل الساحر قائلا : أين ذلك الرسول الآن ؟ هل هو ينأى عنا الآن ؟ ”^(٦) . وتعتبر هذه الرواية مثالا للتنبؤ في تلك العصور توقع فيها قائلها مجيء رسول كسيدنا داود عليه السلام ينجي الخلق من الشر الملم . ولا يبعد أن يكون القصد من هذه الحكاية القيام بمناورة من جهة البيت المالكي يراد بها مدح حكمهم على لسان هذا الساحر فيذكر للناس محاسنهم ويبض صحائفهم وينجي بالوم على الظلم الذي حل بالقطر قبل حكمهم . وأخذت أمثال هذه التنبؤات تزداد تدريجا منذ ذلك العهد حتى العهدين اليهودي والمسيحي . وتعتبر هذه القصة أقدم نبوة معروفة للآن ، ولا يبعد أنها التوراة الأصلية الجامعة لتنبؤات رسل العبرانيين المعروفة حسنوها وصاغوها بأسلوب أمتن .

وتمتاز كتابة ذلك العصر بكثرة شبهها بالأساليب الشعرية حتى صعب علينا التمييز بين شعرها وثراها ، فالحكايات المدونة سابقا أساليبها الى الشعر أقرب منها الى النثر ، وقد استنتج من نقوش عامية عديدة أنها شعرية الأسلوب ، مثال ذلك الأنشودة التي ترنم بها القوم وقت حصد غلالهم وسوق البهائم ، وهناك أناشيد أخرى تشبهها كان الصناع مغرمين بتلاوتها . وقد وصلتنا أنشودة كان يترنم بها لآعب

(١) Berlin Papyrus 3023 and 3025. (٢) ١ : ٤٧٤ ملاحظة (٣) Pap. Salier II. (٤) Pap. Prisc. (٥) Berlin Papyrus 3024. (٦) Leyden Papyrus I, 344; see Lange, Sitzungsber. der Berliner Akad., XXVII, 601-610.

القيثارة في ولائم الوجهاء كلها تشجيع وتحسيس للفرح والسرور قبل حلول اليوم السيئ الطالع الذى ينتهى فيه الأجل المحتوم والذى ينتقل بعده الانسان من هذا العالم الى العالم المظلم الأخرى (شكل ٩٦)
واليك ترجمة هذه الأثسودة :

” ما أسعدك أيها الأمير ! لعلك تعلم أن هذه الحياة عثم عليها الفناء ، فالأجساد تموت وتتعدم ثم يأتى بعدها آخرون يحلون محلها ،

” انظر الى الآلهة (أى الفراعنة) الموجودة فى الأهرام من قديم الزمان ، والى الأمراء والحكماء الذين دفنوا فيها ، تجدهم مطروحين فى أخلادهم . (ولا غرابة) فكل من شيد منزلا (قبرا) زال أثره من الوجود ؛

” استمع لى فسأخبرك بما آل اليه أمر هؤلاء القوم . لقد سمعت حكم لمحتب وحرزوزف الذائعة الصيت ، ولكن أين هما الآن ؟ لقد تحطمت بيوتهم ، وانعدمت آثارهم ، فلا خبر يأتينا من ناحيتهم ينبئنا عنهم ، ويطمئن قلوبنا قبل أن نرحل الى ذلك المكان .

” تناس تلك الأمور واصرف همك فيما يتفكك . اعمل كل ما تطلبه نفسك ، عطر رأسك بالمر ، واكس نفسك بالكنان الجميل المعطر بالروائح الذكية المقدسة . وأكثر من الفرح والسرور حتى لا يحزن قلبك .

” اتبع شهواتك ومسراتك ، وسير الأمور كما تشتهيها ، حتى يأتيك يوم الحزن وهو اليوم الذى لا يسمع فيه قلبك الساكن ما يدور حوله من النحيب .

” البكاء لا يعيد لليت الحياة . فتنعم اذن فى هذا اليوم الجزل ! ولا تهمله يذهب سدى ! فلا أحد يأخذ من الدنيا شيئا معه ، كما أنه لم يرجع الى هذه الدار من ذهب الى الدار الآخرة “ .

وأقدم قصيدة للديج تجسم فيها الأساليب الشعرية والأدبيات اللغوية هى التى قيلت فى سيزوستريس الثالث وهى مقسمة الى ستة أقسام واليك ترجمة قسم منها :

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! لقد فقت سواك بملايين الأذرع . أنت بين حكامنا الآدميين كسيد بنى الرعية !

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت كالسد العظيم الحاجز لتيار الفيضان .
” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت الملجأ الذى يستريح فيه الانسان حتى يسطع ضوء النهار !

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت كالحصن المشيد بجدره من أحجار حادة من مدينة قسيم !

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت مأوى اللاجئين اليك من عبث قطاع الطريق !

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت حامى الضعيف الخائف من عدوه القوى !
” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت مظلة القبط وخضرة النيل في فصل الحصيد !

” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت الركن الدافئ الحاف في زمن الشتاء !
” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت الصخر الحامى من ويلات العواصف !
” أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا ملك مدينته ! أنت في الشدة كالمعبود سَخِمْتُ ضد من يظا أرضك !“

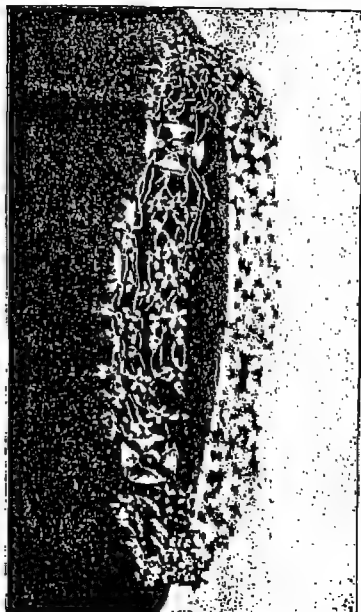
والمظنون أن قصة أزوريس وما حوته من الأخبار المؤثرة أثارت عواطف الأهالى وأقلام الكتاب وألسنة القوم ، لكننا لم ننتد مع مزيد الأسف الى المعلومات الكافية عن هذه القصة المؤثرة المعتمدة أقدم قصة من نوعها معروفة في التاريخ .

ويمتاز عهد المملكة الوسطى بجهلها بمشاهير رجاله مع كثرة ما وصل اليها من مصنوعاتهم وأدبياتهم ، وجل ما وصل اليها بعض أخبار خاصة عن أفراد قلائل اشتهروا بين قومهم بالحكم والآداب . وتمتاز أدبيات هذه العصور بكثرة تخيلاتها ورشاقة أساليبها ، فقد بلغت درجة فاقت فيها كثيرا ما بلغته اللغة في أى عهد لمدة خمسمائة سنة أى منذ سقوط المملكة القديمة (حيث كانت الأدبيات وقتئذ في بدايتها) ، ولكنها لم تكن مرتبطة المعال والأساليب . ويظن أنه لو عاشت قصة أزوريس لغيرت كثيرا من استنتاجنا هذا .

لا شك أن القارئ عرف مما أوردناه سابقا أن المملكة المصرية بلغت درجة رفيعة من حيث القوة والثروة والانتاج أيام أمنمحت الثالث . زد على ذلك أن عصر هذا الملك اعتبر أرقى عهد للآداب ، والمعروف أن شمس هذا العهد أخذت تبرز على القطر منذ حكم أول ملوك الأسرة الثانية عشرة . واستمر أمنمحت الثالث في كفاحه السياسى حتى آخر أيامه ، فأنتم بناء خزان المياه جهة صربوت الخادم بطورسيناء وكذا بناء سور مدينة الكاب في السنة الرابعة والأربعين من حكمه ، لكنه لما توفي عام ١٨٠١ قبل الميلاد أخذت قوة هذه الأسرة تضعف ، وقد أول بعض الأثريين هذا الضعف الادارى بتكبير وفاة ابنه الذى شاركه في الحكم في آخر أيامه ، وقد عثر على قبر ييجوار هرم أمنمحت الثالث شيد لأمر شاب يدعى يوبرع كتب اسمه داخل خانة ملكية (شكل ٨٨) ، لكن يلاحظ أن هذا الاسم لا يشابه أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وأن ملكا بهذا الاسم ورد ذكره ضمن درج تورين البردى يرجع تاريخه الى الأسرة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ولذلك لا يزال مركز هذا الأمير التاريخى مجهولا .

وتوفى أمنمحتت الثالث فتبعه في الملك أمنمحتت الرابع وكان شريكاً له في الحكم مدة قصيرة قبل الوفاة . لكن هذا الملك لم يدم طويلاً فقد توفى بعد تسع سنوات لم يترك فيها سوى بعض آثار صغيرة استدلت منها على اضمحلال وتقهر المملكة وقتئذ بعد ما حافظت على رقيها وعزها مدة مائتي سنة تقريباً . ولم يترك أمنمحتت الرابع وريثاً للملكه ولذلك تبعته في الملك أخته سيك نفرو رع التي سماها مايتو سكيوفريس (Skemiophris) والتي توفيت بعد ما حكمت أربع سنوات .

من هذا يتضح أن الأسرة الثانية عشرة حكمت القطر المصري مدة مائتين وثلاث عشرة سنة وشهر واحد وبضعة أيام .



شكل ٩٧ - أكليل لأميرة في الأسرة الثانية عشرة رجم بغيرها
مخيمه دهشور (دارعنف القاهرة)



شكل ٩٨ - أكليل لأميرة من الأسرة الثانية عشرة رجم بغيرها
مخيمه دهشور (دارعنف القاهرة)



شكل ٩٩ - تمثال من برنق للبرنق (دارعنف لندن)

الكتاب الرابع

الهيكسوس : بزوغ شمس الامبراطورية المصرية

الفصل الحادى عشر

انهيار صرح المملكة الوسطى ، الهيكسوس

كان انتقال الحكم من الأسرة الثانية عشرة الى الأسرة الثالثة عشرة هادئا . وأول ملوك الأسرة الثالثة عشرة هو سِخْم رَعْ خُونَاوى ، وكانت مملكته ممتدة من الدلتا شمالا الى الشلال الثانى جنوبا^(١) . ووجدت باقليم الشلال الثانى نقوش لمقاسات مياه النيل فى الأربع السنين الأولى لحكم هذا الملك^(٢) وعلمنا أيضا أن قلعة تلك الجهة قامت عليها حامية^(٣) ، وأن رسوم وضرائب الأملاك جمعت من الوجه البحرى كالمعتاد^(٤) . لكن هذه الحال لم تدم طويلا لأن خلفاء هذا الملك كانوا أقل همّة وكياسة من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، لكنهم مع ذلك نسبوا أنفسهم اليهم وسموا بأسمائهم . والظاهر أن الملك انتقل وراثيا بين يدى الملوك الأربعة الأول لهذه الأسرة ، وبعد ذلك اغتصبه المدعو يوفنى (Yufni) كما ورد فى درج تورين البردى . وهذه الرواية كثيرة الاحتمال لأن هذا الاسم ضعيف الشبه بأسماء ملوك الأسرة الثالثة عشرة الأول وبالأسماء الملكية المعتادة ، فانتضح لنا أن هذا الغاصب تغلب على صاحب الحق الملكى وقتلوه وهو أمر كثير الحصول فى الشرق على اختلاف العصور .

على أثر ذلك عمت الفوضى فى البلاد وقامت المنازعات الشخصية بين حكام الأقسام رغبة فى الملك والجاه ، فنجح بعضهم أحيانا ونحل لنفسه الألقاب الفرعونية لكنه لم يمتك طويلا فكان يتبعه شخص آخر . ومن هؤلاء الملوك اثنان يسميان سِيكَمَسَاف شيدا لأنفسهما هرمين صغيرين بطيبة ، وقد ذكر أحد هذين الهرمين فى نصوص الرمسيسيين حيث ورد أنه قُتِل فوجد مسروقا وذلك بعد وفاة صاحبه بنحسائة سنة تقريبا^(٥) . وحقق أمر هذه السرقة وقتل وألقى القبض على اللصوص فأقر هؤلاء بجرمتهم وأوضحوا كيفية سلبهم لحي جثة الملك وجثة الملكة المدعوة نوب خاس وكيفية الاستيلاء على الأعبجة والأحجار الكريمة بهما^(٦) . واستدل من أوراق التحقيق أن بعض ملوك الأسرة الثالثة عشرة اتخذ طيبة مقرا للحكم وأنهم كانوا طيبين فى الأصل . وجاء أيضا أن أحد الغاصبين المدعو نِفِرْ حَوِيب عزل أحد الملوك الملقبين باسم سِيك حَوِيب وتبوأ الملك محله وأعلن هذا الأمر جهارا وبسجلا على الآثار ذا كرا اسم والديه غير المتممين للبيت الملك^(٧) ، وترك أيضا نصوصا على أثر العرابية أشار فيها الى عنايته العظيمة بمعبد أزوريس وبالمدينة نفسها^(٨) ،

(١) ٧٥١ : ١ (٢) ٢ - ٧٥١ : ١ (٣) ٧٥٢ : ١ (٤) Kalun Papyri pl. IX, l. 1: p. 86.

(٥) ٥١٧ : ٤ (٦) ٥٣٨ : ٤ (٧) ٥٧٣ : ١ (٨) ٧٧٢ - ٧٥٣ : ١

لكن هذا الملك لم يحكم سوى احدى عشرة سنة ثم توفى فتبعه فى الملك ابنه المدعوسى حاتحور^(١) وهذا لم يدم طويلا لأنه ترك عرشه لعمه المدعو نِفَر خَارَع سِيك حُوتِب أكبر ملوك هذه الأسرة . وما جاء عن هذا الملك أنه مَدَّ حدود مملكته الجنوبية الى جزيرة أروجو جهة الشمال الثالث وقد ظهر لنا الآن أن هذا خطأ لأن شمال هذا الملك الذى وجد بجهة أروجو والذى يمثل به بحجمه الطبيعى نقله الى تلك الجهة ملك نوبى أتى بعده . وعلى كل فحكم هذا الملك كان مقرونا بالرخاء والرقى بالنسبة لأحكام سائر ملوك الأسرة الثالثة عشرة الآخرين .

بعد ذلك أتى عهد امتاز بقلّة أخباره ومعلوماته يظهر أن أحوال البلاد الداخلية كانت فى أثنائه سيئة للغاية ، ويظن أن أحد النوبيين استولى وقتل على عرش المملكة المصرية . وبصرف النظر عن قيمة هذا القول من الصواب فقد كتب هذا النوبى كلمة نحسى التى تعنى " الزنجى " داخل خانة ملكية اشارة الى نفسه . وورد أيضا اسم ملك آخر من تلك العصور لقبه مرمشو (Mermesho) أى أمير الجيش ، اعتلى العرش وكان على ما يظهر قائدا للجيش ثم اغتصب الملك بقوته وسركه الحربى . وفى ذلك الوقت عمت الفوضى فى البلاد وساد سوء النظام فيها فانقسم القطر الى عدّة أقسام صغيرة مستقلة أكبرها جنوبا قسم طيبة . وقد اهتمدنا الى أمر ملكى لأحد ملوك ثلاثة مدعوين باسم إَنْتِف ولقبه نوبْ خَبْرورِع إَنْتِف ، جاء فيه أنه عزل حاكم مدينة قفط لثبوت خيانتة للملكة . ويعتبر هذا دليلا ساطعا على سوء أحوال البلاد الداخلية وقتئذ^(٢) . وما قاله الملك فى أمر هذا العزل " أن كل ملك أو حاكم يتولى ادارة القطر المصرى يستحق اللعنة اذا أظهر شفقة أو عطفا نحو أى خائن لبلاده " . ووجد فى طيبة هرمان لاثنين من الملوك ملقبين إَنْتِف بقيا الى عهد الأسرة العشرين ، وورد عنهما فى الآثار الرميسية أن أحد الهرمين سرقته الاصوص وتوصلوا الى دخوله بحفر نفق أرضى^(٣) . ولا تحوى الآثار المصرية الا النادر من الأسماء الملكية الكثيرة التابعة للأسرة الثالثة عشرة الوارد ذكرها ضمن قرطاس تورين البردى . وأغلب آثار هؤلاء الملوك عمارات صغيرة أو تماثيل أو جعل حقيرة ، ويرجع ذلك الى عدم وفرة القوة والمال والوقت الكافى للقيام بالآثار الخالدة . ولا غرابة فى ذلك فقد كان الملوك يتبدلون بسرعة حتى استحال على أحدهم اقامة آثار كبيرة أو كثيرة تستنتج منها بعض المعلومات عن سلطان البلاد وقوتها وإدارتها وقتئذ . والدليل الوحيد لتاريخ هؤلاء الملوك هو درج تورين البردى المذكور وهو عبارة عن قرطاس ممزق لا نستطيع أن نحكم بصحة ترتيب أجزائه ولا بعلاقة تلك الأجزاء بعضها ببعض اللهم الا فيما يتعلق بأسماء ملوك وأودة على قطعة سليمة منه . وتراوح مدّة حكم كل ملك من ملوك هذه الأسرة بين سنة وثلاث سنوات وقد قصرت أحيانا فبلغت يومين أو ثلاثة . أما مجموع هؤلاء الملوك فمائة وثمانية عشر ملكا ومجموع مدد حكمهم نحو مائة وخمسين سنة . وربما شبهنا هذه الحال تماما بحال مصر فى عهد الخلفاء العباسيين لما بلغ عددهم سبعة وسبعين خليفة فى مدّة مائة وثمانى عشرة سنة (من عام ٧٥٠ الى عام ٨٦٨ ميلادية) .

Turin Papy. Fragg. No. 0; Petrie, Scarabs, No. 309 (١)

(٢) ٥١٤ : ٤ ملاحظة

٧٨٠ - ٧٧٣ : ١ (٢)

وقد انتابت أوروبا مثل هذه العصور بعد وفاة الإمبراطور كومودس (Commodus) حيث ولى الحكم رجال حربيون بلغ عددهم ثمانين في مدى تسعين سنة تقريبا^(١). أما ماينتو فلم يعلم شيئا عن ذلك العصر المرة ولذلك لم يذكر لنا الا جدولا بأسماء ملوكه مقسما قسمين، قسم يشمل ملوك الأسرة الثالثة عشرة وعاصمة ملكهم طيبة، وقسم يشمل ملوك الأسرة الرابعة عشرة وعاصمة ملكهم سينا (Xois). وبديهي أن حال القطر الاقتصادية تدهورت كثيرا في تلك العصور، فبعد ما كان نظام الرى ينفذ في أنحاء البلاد تحت إشراف ديوان الملك انعدم نظامه واضطربت أموره فقلت الحاصلات والمصنوعات. ثم عمد حكام الأقسام الى استعمال الشدة والظلم مع قومهم ففرضوا عليهم الضرائب والرسوم الباهظة وجمعوها بقسوة وأثقلوا كاهلهم بها، بغاءت هذه الاجراءات هادمة لنهضة البلاد ورخائها للذين كانا مبعث عناية بيت أمتنحت في مدى مائتي سنة تقريبا. ومن أعظم الأدلة على شدة القوضى وقتئذ عدم عثورنا على آثار تشير الى أحوال ذلك الزمان كما حصل تماما لمصر وقت حكم المسالك المصحوب بالبؤس والشقاء.

ولما تضعفت القوة الحاكمة أخذت تتضاءل تدريجا وصار القطر في حال فظيعة من اليأس والضعف سهل على الأجنبي الاستيلاء عليه واغتصابه. وقد حصل هذا فعلا عام ١٦٧٥ قبل الميلاد في أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة، فقد غزا مصر قوم ساميون من آسيا دخلوا الوجه البحرى واستوطنوه ووطدوا فيه نفوذهم، وهذا الغزو كثير الشبه بما حصل للبلاد سابقا قبل حكم الأسر. ونشر الغزاة لغتهم الخاصة بين المصريين، وتكرر هذا الغزو أيام العرب لما دخلوا القطر المصرى في بداية الاسلام. أما الغزاة الذين نحن الآن بصدد فهم قوم عرفوا بالهيكسوس (كما ذكر جوسفس نقلا عن ماينتو) ولم يترك هؤلاء القوم بعدهم في مصر الا آثارا يسيرة صعب على الأثريين الاستدلال منها على شىء حتى على الوطن الأصلى هؤلاء الغزاة ومدة حكمهم وكيفية سيادتهم. والسبب في جهلنا هذا هو قلة مراجعتنا الأثرية كما يتضح للقارئ من هذا الفصل الذى لا يكاد يكون سوى مجموعة ملاحظات فقط. أما رواية ماينتو عن هؤلاء القوم (التي حفظها لنا جوسفس) فتعتبر الآن من الحكايات المسلية التي لا كتبها الألسن وليست من حقائق التاريخ في شىء ولذلك لا تصلح أن تعتبر مرجعا علميا تبنى عليه معارفنا التاريخية، وهى مع ذلك تحوى الكثير من الخرافات والغلو كما يشاهد في الرواية الواردة عن كيفية تبؤ الأسرة الخامسة لعرش مصر وسقوط الأسرة الرابعة السابقة الذكر^(٢). لذلك نحتم علينا أن نبدأ أولا بالبحث في الآثار اليسيرة التي يرجع تاريخها الى ما قبل عهد ماينتو والى الآثار المعاصرة للهيكسوس، فمن هذه ما ورد على الآثار بعد خروج الهيكسوس بجيلين أن الملكة حتشبسوت أصلحت ما ألتفه هؤلاء الفاصبون واليك ترجمة ذلك: "لقد أصلحت التلف وأكلت الناقص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الأسويين لأهالى البلاد الشمالية في عاصمتهم أوريس بالدلتا، فقد ألتف هؤلاء القوم الآثار الجيدة عن جهل منهم بمعرفة سلطة المعبود رع"^(٣).

وهناك رواية أقدم من هذه قصصا أحد القواد المصريين الذين طردوا الهيكسوس استدل منها على أن المصريين اضطروا أن يحاصروا عدوهم في مدينة أواريس^(١) وأن يقتفوا أثره جنوبى فلسطين^(٢) حتى بلاد فينيقيا أو سيلسريا (Colesyria)^(٣) . وبعد أربعائة سنة من هذا التاريخ انتشرت رواية الهيكسوس بين القوم بغاء فيها السبب الذى أدى فى آخر الأمر الى طرد الهيكسوس^(٤) واليك ترجمتها :

”وأصبح القطر المصرى فى أبدى قوم قذرين غاصيين ، وتعذر على المصريين أن يملكوا على أنفسهم أحدا منهم . وكان فى ذاك الوقت الملك سكينترع يحكم قسم طيبة الجنوبى والملك أبوفيس الهيكسوسى يحكم جميع القطر من أواريس ويجمع الجزية من سائر الأقسام ومن الحاصلات والخيرات التى ألتجتها أراضى الوجهين القبلى والبحرى ، واتخذ الملك أبوفيس المعبود سوتخ إلها دون معبودات القطر كلها وشيد له معبدا جميلا ثابتا الخ “ (٥) .

يتضح لنا من هذه الرواية القديمة أن الهيكسوس قوم أسويون حكموا مصر واتخذوا أواريس (هواره) عاصمة لهم . واليك ترجمة رواية مانيتو التى أوردها جوسفس عن هؤلاء الهيكسوس وهى تطابق بوجه عام المعلومات الأثرية الثابتة السابقة الذكر :

كان القطر المصرى محكوما فى وقت من الأوقات بملك يدعى تيمايوس (Timaïos) فى عهده غضب الإله على مصر لسبب أجهله فلم يمنحه رضاء . فأتى الى القطر على غير انتظار قوم شريقون وضعيون فاجأوا أهله بالاغارة عليهم واستولوا على الوجه البحرى بلا معارضة كبيرة لأن أهل مصر كانوا وقتئذ فى ثورة وهيجان . ولما أخضع هؤلاء الغزاة حكاما العظام عبثوا بالبلاد وبغوا وطفوا فأحرقوا المدن وهدموا المعابد واستعملوا أفطع طرق الشدة مع الوطنيين فقتلوا منهم البعض وأسروا الأطفال والنساء . وبعد انقضاء الحرب ملكوا عليهم رئيسا منهم يدعى سلاطيس اتخذ مدينة منف مقرا له ونظم الحكومة وجسن الادارة ومهد الأحكام وضرب الجزية على من بقى من المصريين تحت حكمه فى الوجه القبلى والبحرى ووزع القوات الحربية على البلاد حتى لا تثور عليه . وكان هذا الملك يخشى على حكمه من الأشوريين الذين كانوا أقوى الأمم وقتئذ ، فخاف أن يتطلع هؤلاء القوم الى مصر ويضموها الى أملاكهم ، ولذلك شيد القلاع وأقام الحصون فى الجهات المنتظر الاغارة منها . ثم فكر فى أمره فوجد مدينة فى شرق النيل يجوار تل بسطة سماها هواره (أواريس) لأسباب دينية بخدد بناءها وحصنها بأسوار قوية منيعة من جهاتها وجعل فيها حامية مؤلفة من مائتين وأربعين ألف جندى . وكان سلاطيس هذا يذهب الى المدينة المذكورة فى صيف كل سنة ليجمع الحبوب ويدفع مرتبات جنده ويمرن قواته على الحركات الحربية حتى يهرب الأجانب “ (٦) .

ولا يخفى أن هذه الرواية تحوى كثيرا من المبالغات كالاشارة الى أهل العراق وكبر حامية أواريس ، لكنها على العموم تشمل بعض الحقائق . ويستنتج منها أن الأهالى وقت تلاوتها كانوا يجهلون الهيكسوس فقد أورد جوسفس عن مانيتو ما ترجمته :

(٣) ٢ : ٢٠

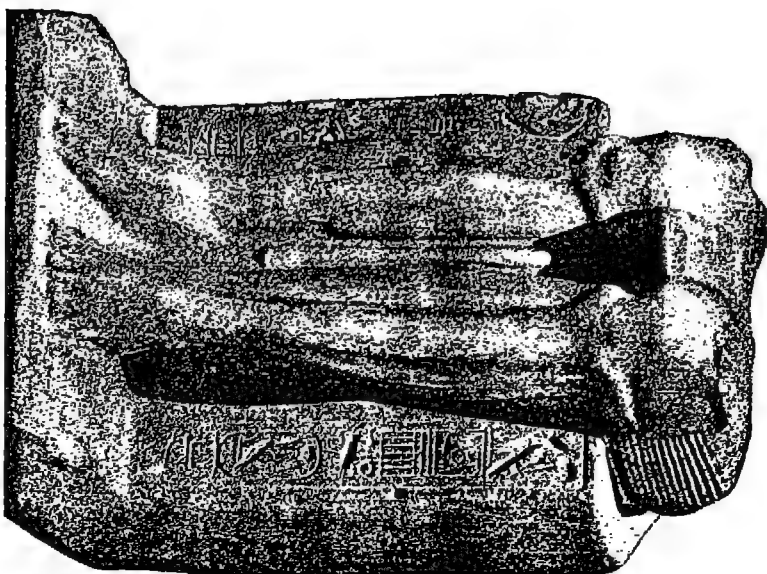
(٢) ٢ : ١٣

(١) ٢ : ٨ - ١٢

Contra Apion I, 14, (٦)

Pap. Saltier I, I, 11, 1-3, (٥)

(٤) ورقه سالىر (١)



شكل ١٠١ - الجزء الأسفل من تمثال مصنوع من الجرانيت
يملك الملك خيان جالسا . ويعد بجبهة كل بسطة



شكل ٩٩ - الفورمل تمثال الملك تهرعارح سكرتير بحرية
أركو على الفسلاول الثالث بواسطة بنت حامة شيكارو المدينة
(سنة ١٩٠٧ ميلادية) . وي شاهد التمثال في الجزء الأيمن للرسم



شكل ١٠٠ - صورة شخصية لوماء ملك يقال له سكرتير معابة بكسر
بالجمجمة (دار تحف القاهرة)

”وكان يقال لهؤلاء الغاصبين هيكلوس — ومعناها ملوك الرعاة — لأن الجزء الأول من هذه الكلمة وهو ”هيك“ معناه بالقلم البرأى ملك ، أما ”سوس“ فلفظ في اللغة الدارجة معناه الراعى“ . وروى البعض أنهم عرب .

ويتضح أن ما نيتو قصد بالهيكسوس الفينيقيين ، لكننا اذا رجعنا الى اسم الهيكسوس أيام المملكة الوسطى وفي عهد الهيكسوس لا نجد ما يشير الى معنى ملوك الرعاة . زد على ذلك أن ما نيتو قال ان كلمة ”سوس“ معناها بالعامية في زمنه رعاة ، والحقيقة أنه لا يوجد في اللغة المصرية القديمة كلها كلمة كهذه بالمعنى المذكور . أما لفظ حَقْ فمعناها باللغة البرأئية الحاكم أو الملك وقد ذكرها الفراعنة بهذا المعنى كثيرا كما قال ما نيتو . والمعروف أن خِيَانُ أحد ملوك الهيكسوس لقب نفسه ”بحاكم البلاد“ . وبناء عليه لا يبعد أن تكون كلمة ”سوس“ محرفة عن الكلمة البرأئية التي معناها ”الأراضى“ ، وحينئذ يكون ”هيكسوس“ تعبير مصرى قديم حرفه اليونانيون ومعناه الأصلي ”حاكم الأراضى“ .

ودلتنا الآثار التي يرجع تاريخها الى عهد الهيكسوس على بعض من أخلاق وخصال هؤلاء الأجانب سواء أكانوا عربا أم فينيقيين ، وقد وصفتهم الآثار بأنهم ”أسويون“ ”وبرابرة“ ”وحكام الأراضى“ . ويوجد بدار التحف بالقاهرة مذبح صغير للملك أبوفيس الهيكسوسى عليه نقوش معناها ”لقد صنع (أى أبوفيس) هذا الأثر لأبيه سوتخ سيد أوأريس (هواره) لما جعل سوتخ البلاد كلها (خاضعة) تحت قدميه (أى قدمى أبوفيس)“^(١) . ويظهر من عموم هذا التعبير أن أبوفيس المذكور حكم عدة بلاد علاوة على القطر المصرى . وأغرب من هذا آثار أكبر ملوك الهيكسوس المدعو خيان التي وجدت في أنحاء القطر كلها من جيلين جنوبا الى أقاصى الدلتا شميالا وفي جزيرة كريت أيضا حيث وجد المستر إيثاناس^(٢) تحت جدار يونانى في سرائ كُنوسوس غطاء لإناء من المرمر منقوش عليه اسمه . وعثر أيضا منذ عدة سنوات على تمثال لأسد جرانيتى بجهة بغداد منقوش على صدره اسم خيان محفوظ الآن بدار التحف بلنדרه . ومن ألقاب هذا الملك ”محتضن الأراضى“ ”وحاكم الأقطار“ وقد وجد هذا اللقب الأخير على الآثار والجعل وغيرها . وعثر أيضا في أثناء الحفر بجنوب فلسطين على جعل لملوك الهيكسوس . ومن هذا نستنتج أن امبراطورية الهيكسوس كانت ضخمة مترامية الأطراف ممتدة الجوانب من الفرات الى الشلال الأول ، ومع هذا فإن آثار هذه المملكة تكاد تكون معدومة في الوقت الحاضر . على أن آثار أوأريس التي كانت عاصمة هذه المملكة بالوجه البحرى عفت وبلت كما بلت معظم آثار الدلتا وللان لم نعرف مكان هذه العاصمة بالضبط . ولا غرابة في ذلك فقد كان لدى المصريين من الأسباب ما يسوغ سحق آثار الهيكسوس المبغضين بالاجماع . واذا راعينا كل هذه الأحوال أمكننا معرفة السر في اختيار ملوك الرعاة العاصمة أوأريس قاعدة لحكمهم بشرق الدلتا بدلا من اختيارهم مدينة وسط القطر المصرى . والسبب في اختيار أوأريس عاصمة لهم هو قربها من آسيا التي كانت تحت حكم الهيكسوس أيضا .

ومما يعلل استئناجنا هذا أن الهيكسوس لما طردهم المصريون من القطر ذهبوا الى آسيا ومكثوا بفلسطين مدة ست سنوات قاوموا في أثناءها هجوم المصريين كما روته الانثار^(١) ، ولما هزم هؤلاء الرعاة في جنوبى فلسطين تهاجروا شمالا الى سوريا ، ولا يخفى أن نظام هذا التهاجر التدريجى يشير تماما الى امتداد حكم الهيكسوس الى فلسطين وسوريا .

من ذلك يتضح أن معرفة وطن امبراطورية الهيكسوس وأصلهم وأخلاقهم ليس صعبا اذ الغالب أن رواية مانيتو أن هؤلاء القوم فيبيقيون صحيحة^(٢) . والثابت أن أهالى بلاد العرب كثيرا ما هاجروا الى سوريا ، ولذلك لا يبعد أن هذين القطرين اتحدا بعد مجهودات حربية تحت ادارة حاكم قوى وكونا مملكة واحدة . وقد ألعنا سابقا الى أن السوريين الذين أتوا الى القطر المصرى أيام الأسرة الثانية عشرة كانوا متمدنين راقيين^(٣) كما أن حروب الفراعنة في سوريا بعد طرد الهيكسوس من مصر أثبتت وجود حضارة عظيمة هناك ، والظاهر أن انهيار صرح امبراطورية الهيكسوس العظيمة ترك بعض تأثيراته في أهالى فلسطين وسوريا استمرت عدة أجيال بعد بسط النفوذ المصرى عليها ولذلك نجد بين أخبار حروب مصر بتلك الجهات بعض معلومات عن امبراطورية الهيكسوس التى تضعضعت .

ومعلوماتنا عن سوريا في خلال جيلين بعد طرد الهيكسوس من مصر يسيرة للغاية ، لكنه يستدل من أخبار حروب تحوتمس الثالث التى استمرت مدة في سوريا أن ملك كدش على نهر الأورونط (العاصى) كان الملك السورى الوحيد المسيطر على امارات سوريا وفلسطين وقتئذ ، وأن اخضاع كدش كان من أصعب الأمور على تحوتمس الثالث فقد تطلب منه عشر سنوات تقريبا أمضاها في الكفاح المستمر حتى تمكن من كسر شوكة تلك المملكة الآسيوية . ومما جاء عن كدش أنها شقت عصا الطاعة مرة ثانية على تحوتمس الثالث واضطر أن يخضعها ثانية ، وأخيرا أجبرته في السنة العشرين من حكمه أن يذهب شخصيا الى سوريا ليقضى على قوة كدش القضاء المبرم فلا تقوم لها قائمة بعده . واستدل من أخبار تحوتمس الثالث الآسيوية أن كدش كانت صاحبة السلطة والنفوذ على كثير من امارات سوريا وفلسطين . ومن رأى أن هذه المدينة (كدش) كانت في الحقيقة نواة امبراطورية الهيكسوس التى أبادها تحوتمس الثالث بذكائه وقدرته الحربية الفائقة ، ولذلك اعتبر القوم تحوتمس الثالث ساحق الهيكسوس وطاردهم من مصر ، وقد نعته مانيتو بمخلص وطنه وشبهه في ذلك بـ (Misphragmouthosis) . ويستنتج من رواية مانيتو ومن أخبار سوريا وفلسطين بعدئذ أن امبراطورية الهيكسوس سامية الأصل ، وقد عثر على جعل لفرعون من عهد الهيكسوس منقوش عليه اسم يعقوب حر (يعقوب آل) اشارة الى احتمال تبوء أحد رؤساء بنى اسرائيل الملك في تلك العصور الغامضة ، وهذا الأمر يتناسب مع احتمال دخول بنى اسرائيل مصر وقتئذ . واذا صح هذا الاستنتاج كان عبرانيو مصر عربا تابعين لسلطة كدش أو امبراطورية الهيكسوس . ولا يبعد أن يكون وجود هؤلاء العرب بمصر سببا في تلقيب تلك الامبراطورية

(١) ٢ : ١٣ (٢) لكن راجع Meyer, Aeg. Chron., pp. 95 ff. (٣) راجع صفحة ١٢١

”دولة الرعاة“ مما جعل مانيتو يخطئ في تفسير معنى الجزء الأخير من كلمة ”هيكسوس“ . ولا يبعد أيضا أن تكون نظرية جوسفس القائلة بأن بنى إسرائيل قوم من الهيكسوس فيها شيء من الحقيقة وإن لم تكن هناك أدلة على صحة ذلك . وعلى أى حال فالحكم في هذا سابق لأوانه لضعف البراهين الموجودة وقلة المعلومات التي لدينا الآن .

وتتحصّر معلوماتنا عن أخبار الهيكسوس في أثناء مكثهم بالقطر المصرى فيما ورد ضمن آثار حكام أقسام مصر وقتئذ ممن استوطنوا جهة طيبة والوجه البحرى عموما ، لكنه يستدل من رواية مانيتو ومن الحكاية العامة القديمة التي سبق الكلام عليها أن الهيكسوس فرضوا الجزية على أنحاء القطر المصرى كله ، وقد عثرنا على بعض آثار للهيكسوس جهة جبلين بأقليم الشلال الأول ، ولذلك لا يبعد أن دخول الهيكسوس الى مصر كان تدريجيا أشبه شيء بهجرة غير مصحوبة بحروب أو منازعات . وكان ملك الهيكسوس وقتئذ يدعى ختير وقد ولى وزيره المدعو إتحو حاكما على مصر يدير أمورها وينظم معابدها^(١) ، ولما كان هذا الوزير معاصرا لفرخوتب وللولك المصريين الملقين سيك خوتب يرجح أن سلطة الهيكسوس لم تزد على مصر الا بعد حكم هؤلاء الفراعنة بقليل .

وقد وردت على الآثار المعاصرة للهيكسوس أسماء ثلاثة ملوك منهم يقال لهم أبوفيس وملك رابع يقال له خيان (شكل ١٠١) وأخريدعى ختير وغيره يعقوب حرلكتنا لم نهتد في الآثار الا على اسم خيان — ويقال له أحيانا أيان — وكذا اسم أبوفيس . والأسماء الستة المذكورة الستة الملوك هي التي نقلها جوسفس عن مانيتو . وجاء في الورقة الحسابية بدار التحف الانجليزية تاريخ وحيد لتلك العصور يشير الى السنة الثالثة والثلاثين من حكم ملك يقال له أبوفيس . أما رواية مانيتو التي قسمت حكم ذلك العصر الى ثلاث أسر (الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة) فلم نجد على الآثار ما يثبت صحتها ولا طول مدتها . والغالب أن حكم الهيكسوس لم تزد مدته على مائة سنة في مصر . والقول بأن مدة هذا الحكم أطول من ذلك لا يطيل المدة بين سقوط الأسرة الثانية عشرة ونهاية حكم الهيكسوس . وبديهي أن معظم الملوك العديدين المذكورين في ورقة تورين كانوا بمثابة ولاة تحت حكم الهيكسوس ، ومن هؤلاء الملوك سيكتيرغ الوارد ذكره في الرواية العامة السابقة كان واليا تابعا للهيكسوس في طيبة . والى الآن لم نهتد الى سبب خراب المعابد والأبنية العمومية بالقطر وقت حكم الهيكسوس ، لكن المعروف أن هذا حصل أثر دخول هؤلاء القوم مصر . وقد اهتمت الملكة حمتشيسوت كثيرا بترميم التالف وإرجاعه الى أصله . وقد عبد الهيكسوس سوتخ أحد أشكال المعبودات القديمة الشبيهة في نظرهم ببعل السورى . والظاهر أن الهيكسوس تطبعوا بسرعة بطباع المصريين فنحل ملوكهم لأنفسهم الألقاب الفرعونية ونسبوا لهم تماثيل حكام الوجه البحرى السابقين على النمط المصرى الفرعونى (شكل ١٠١) . والمعروف أن المدنية لم تتأثر كثيرا في عهد الهيكسوس كما يستدل من الورقة الحسابية المدونة في عهد أحد الملوك المدعويين أبوفيس

والموجودة الآن بدار التحف بلندره . وقد ألعنا سابقا الى أن أحد الملوك المدعويين أبوفيس شيد معبدا فى أواريى ، وعثر على نقوش فوق قطعة من الحجر مما يفيد أن الملك أبوفيس صنع أعلاما ذات رءوس نحاسية تعلوها "شراريب" زاهية الألوان لنصبها على وجهة أحد المعابد^(١) . وقد أثر حكم الهيكسوس كثيرا فى أهالى مصر وفلسطين وسوريا ، فأنار من المصريين شعور البغض لهم حتى طردوهم وتخلصوا منهم . والمعروف عن هؤلاء القوم أنهم أدخلوا الخيل بالقطر المصرى لأول مرة ودربوا المصريين على الحروب العظيمة . وعليه فالمصريون مدينون لهم بكثير من ارشاداتهم النفيسة وتعاليمهم القيمة مهما عظم مقدار الخسارة والتلف والضيق الذى حل بالبلاد فى عصرهم .

الفصل الثاني عشر

طرد الهيكسوس وانتصار طيبة

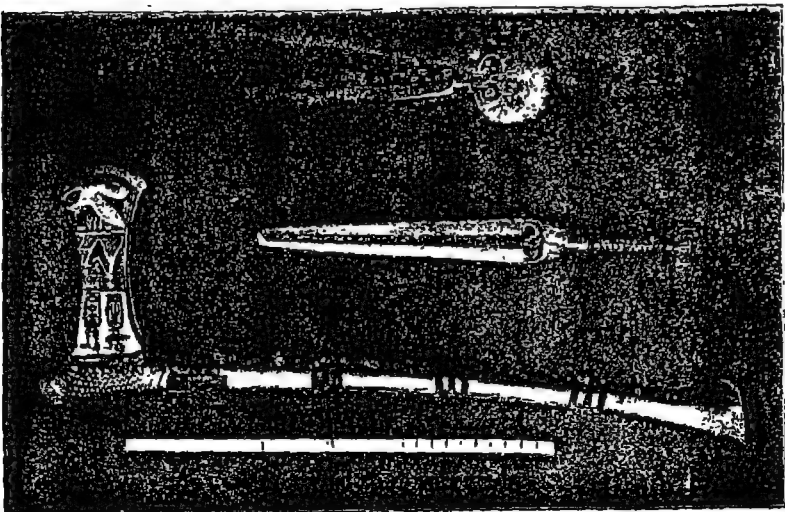
ورد ضمن إحدى القصص العامة أن الملك سِكنَرَع كان حاكما على قسم طيبة تحت سلطة ملك من الهيكسوس يدعى أبوفيس اتخذ أواريس (هواره) قاعدة للملكه ، ويرجح أن ذلك كان حوالي سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد أى بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة بمائتي سنة تقريبا . وهذه القصة الدارجة^(١) التي لاكتها الألسن في زمن الرمسيسيين هي مرجعنا العلمي الوحيد عن تاريخ خروج الهيكسوس وعما حدث في القطر بعد ذلك . وقد استنتج ضمنا أن هذه القصة دوّنت بعد خروج الهيكسوس بنحو أربعمائة سنة وقد ألعنا سابقا إليها لما تكلمنا عن وصف الهيكسوس ، لكننا الآن نزيد على ما سبق أن هذه القصة روت حلول عيد من أعياد المصريين المقدسة جمع فيه أبوفيس المذكور رجال دولته وتداول معهم أشياء نجهلها . ويستدل من مضمون الرواية أن تلك المداولة كانت لتدبير مؤامرة لاعتقال الملك سِكنَرَع الجالس بطيبة وقتئذ ، وإليك ترجمة ما جاء بهذا الخصوص :

”ومضى زمن طويل بعد ذلك فأرسل الملك أبوفيس الى الأمير (الملك) سكتنرع بالمدينة الجنوبية (طيبة) رسالة دُون بها رجال دولته العقلاء . فلما وصل رسل الملك أبوفيس بهذه الرسالة الى المدينة الجنوبية (طيبة) أحضروا الى أمير (ملك) تلك المدينة فَوْجَه سَوَّالٍ الى أحد رسل أبوفيس هذا نصه : ”لما ذا حضرت الى المدينة الجنوبية ولأى سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة ؟ فأجاب الرسول : ان الملك أبوفيس أرسلنا اليكم لتخبركم أن دب البحر القاطن ببحيرة طيبة يمنع جلالته النوم نهارا وليلا . فصياحه يرك في أذن جلالته باستمرار“ فتكدر أمير المدينة الجنوبية (الملك سكتنرع) في نفسه وكظم غيظه ولم يرد الجواب . واستدل من سياق الكلام أن سكتنرع هذا أرسل هدايا جزيلة الى أبوفيس ووعد به عمل ما يرضيه نحو تلك الحيوانات . ثم عاد رسول أبوفيس الى سيده . وعلى أثر ذلك استدعى سكتنرع قَوَّاده ورؤساء مملكته وأخبرهم برسالة الملك أبوفيس ، نغم السكوت عليهم جميعا ولم يلفظوا بكلمة ثم أرسل الملك أبوفيس الى (٢) وهنا سقط الأصل فانقطع أملنا في معرفة بقية هذه القصة الشيقة .

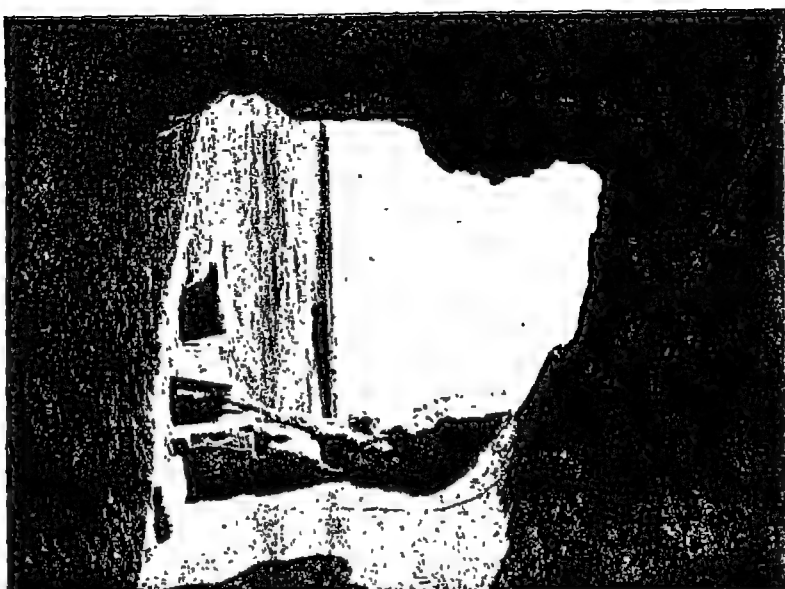
من ذلك يتضح أن لهذه القصة علاقة متينة بخروج الهيكسوس والمنازعات السياسية التي حصلت بينهم وبين المصريين . أما العذر الوارد في القصة بأن أبوفيس لم يتمكن من النوم لصياح دب البحر في طيبة فسبب وهى لا يعتمد عليه ويغلب أنه إحدى مبالغات أهالى تلك العصور الذين كانوا شديدي التأثر بحروب الهيكسوس . وتعزز رواية ما يتوهمه هذه القصة في كثير من الحوادث فقد أخبرنا هذا المؤرخ المصرى أن ملوك طيبة وبعض حكام أقسام مصر اتحدوا وشبوا حربا على الهيكسوس

في أواريس . ويستدل من ذكر ماينتو "ملوك مصر" أنه كان هناك انقسام بين أقسام مصر وقت حكم الهيكسوس فاستقل كل قسم عن غيره وانفرد حاكمه بإدارته . ولا يخفى أن مثل هذه الحالة أضعفت نفوذ المصريين كثيرا أمام عدوهم الأجنبي الشمالى . وجاء في تاريخ تلك العصور ذكر لثلاثة ملوك مصريين يدعون باسم سكتنرع وقد عثر على مومياء الأخير منهم ضمن كنوز الدير البحرى الكبرى وهى الآن محفوظة بدار التحف بالقاهرة (شكل ١٠٠) ، ووجد على هذه المومياء آثار جرح مع إصابات شديدة مميتة بالرأس أثر نضال ونزاع قبل الوفاة يرجح أنه حصل وقت الحرب بين المصريين والهيكسوس . ولما توفى هؤلاء الملوك الثلاثة تولى بعدهم الملك كاموس (Kemose) فاستمر (غالبا) على كفاح الهيكسوس . وشيد هؤلاء الملوك المصريون لأنفسهم أهراما حقلية من اللبن بجهة طيبة ورد عنها فى الآثار أنها كانت سليمة بعد وفاة أصحابها بنحو أربعين سنة أى فى عهد الرامسة لأنها قششت وقتئذ للتأكد من عبث اللصوص بها كما ألعنا إلى ذلك سابقا^(١) . من ذلك يتضح أن الثلاثة الملوك المدعويين سكتنرع والملك الرابع المدعو كاموس ثابروا بشدة على شن الغارة على الهيكسوس ، وقد أوردتهم ماينتو فى آخر قائمة أسماء ملوك الأسرة السابعة عشرة . وللاحظ أن منازعات المصريين لم تكن مقصورة على ما كان دائرا بين ملوك طيبة والهيكسوس بل كانت هناك مشاحنات أيضا بين ملوك طيبة وحكام الوجه القبلى وعلى الأخص إقليم الكاب الذى كان بعيدا عن نفوذ الهيكسوس ومتقدما فى التجارة والحضارة والرفاهية عن أقسام الوجه القبلى ، ولذلك كانت المصاعب التى واجهت آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة عظيمة ، وسنرى فيما بعد أن حكام قسم الكاب قاوموا كثيرا ملوك طيبة الذين ساروا تدريجا نحو طرد الهيكسوس من القطر .

وتوفى كاموس بعد حكم قصير تولى بعده أحعمس الأول وهو فى الغالب ابنه وقد اعتبره ماينتو أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة . أما تبوء أحعمس للملك فكان حوالى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد وكان حكمه فى مبدأ الأمر مقصورا على الوجه القبلى بقسم طيبة ، وهو الذى أنقذ وطنه من عدوه اللعين الأجنبي . ومعلوم أن الملك سكتنرع الثالث تبادل الهدايا والعلاقات الودية مع حكام قسم الكاب ليأمن شرمهم ، فلما ولي أحعمس الأول عرش مصر اتبع السياسة نفسها فأمن بذلك شر الأقسام الجنوبية حتى صار قسم الكاب عقبة كئودا أمام كل من يتعدى على حدود طيبة الجنوبية . ولم يحفظ لنا التاريخ معلومات رسمية عن الطور الأول من طرد الهيكسوس ولا وصلت إلينا نصوص الملك أحعمس الأول عن ذلك الكفاح ، وكل ما اهتمنا إليه فى هذا الصدد تلك النقوش التى على صدر قبر ضابط مصرى من جهة الكاب كان مواليا لملوك طيبة واشترك هو وهم فى مهاجمة الهيكسوس ، وهذا الضابط يقال له أحعمس . أما والدته فكانت تدعى إبانا ووالده بابا . وبابا هذا كان موظفا فى عهد سكتنرع الثالث ، وإليك ترجمة ما قاله أحعمس بن إبانا عن سيرته أيام الملك أحعمس الأول :



شكل ١٠٣ — أسلحة الملك أحمنس الأول مصرية من البرنز
منزوعة برسم ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة (دار تحف القاهرة)



شكل ١٠٢ — مقبر لادبة الكعب المزودة ماحود بأية النصوص
الشهي من مقبر أحد المقابر المصرية القديمة المتروكة على المدينة

”مضيت أيام شوبيتي في مدينة الكاب وكان أبى ضابطا في جيش جلالة ملك القطرين البحرى والقبلى سكتنرع المرحوم ، وكان يسمى بابا وهو ابن روينيت ، ولما توفي وظفت مكانه في سفينة تسمى ”القربان“ وذلك أيام المرحوم الملك أحعمس الأول. وكنت إذ ذاك شابا لم أتزوج..... فلما تزوجت وصارت لى أسرة نقلت الى الأسطول الشمالى لما شوهذ فى من الشجاعة والاقدام“. من هذا يتضح أنه نقل من أسطول الكاب وأرسل شمالا لمحاربة الهيكسوس . وبعد أن صار ضابطا بحريا التحق ضابطا برىا بحرس الملك الخاص وقد أشار الى ذلك بقوله : ”وكنت أتبع الملك فى سيره حيثما أقلته عجلته. ولما حاصر الملك مدينة أواريس أظهرت له بسالة عظيمة وأنا أحارب على قدمى. فمبلى جلالتى بالسفينة المسماة ”ضوء منف“. ثم حارب جلالة الملك فى مياه ترعة پزدكو (Pazedku) جهة أواريس وقد حاربت وقتئذ بيدى فأحضرت يدا مقطوعة من رجال العدو برهانا على شجاعى واقدامى . فبلغ ذلك الخبر رسول الملك فأنعم على جلالة الملك بعد ذلك ”بشنان“ الشجاعة الذهبى . ولما قامت الحرب مرة ثانية فى هذا المكان دخلت النزاع وحاربت بيدى وأحضرت يدا أخرى (من أسير) ، فأنعم على جلالة الملك مرة ثانية ”بالشنان“ الذهبى لشجاعى“^(١) . فى ذلك الوقت العصبى قامت ثورة عظيمة فى أقسام مصر جنوبى الكاب تطلبت ذهاب الملك أحعمس الأول شخصيا مع أحعمس بن إابانا لاقاعها ، وقد خبرنا عن ذلك أحعمس بن إابانا بقوله : ”فحضر الملك وحارب قسم مصر جنوبى هذه المدينة (الكاب) وأسرت حينئذ رجلا حيا نزلت به الى البحر قابضا عليه كأنى سائر فى طريق المدينة وعبرت به النيل فعلم بذلك رسول الملك فأنعم على جلالتى بمكافأة ذهبية مضاعفة“^(٢) . ولما نحدث الثورة رجع الملك مصحوبا بأحعمس بن إابانا الى أواريس . قال أحعمس المذكور ما ترجمته : ”فسقطت أواريس فى قبضة جلالة الملك ، وهناك أسرت رجلا وثلاث نسوة فكان المجموع أربعة وهبهم لى جلالتى عيدا“^(٣) .

يستنتج من ذلك أن أواريس سقطت فى الهجوم الرابع لأحعمس بن إابانا، ولأن لم نعرف بالضبط عدد مرات الهجوم على هذه المدينة، لكن المعروف أن حصار أواريس دام عدة سنوات وأن مدته طالت بسبب شوب ثورة جنوبى الكاب . ولم يخبرنا هذا الضابط البحرى من هم المدافعون عن أواريس لكن هذا واضح من رواية مانيتو ومن القصة الدارجة المذكورة آنفا. ولم يذكر هذا الضابط أيضا اسم أعدائه الذين حاربهم مرة ثانية، لكن المفهوم ضمنا أنهم الهيكسوس لأنهم تفهقروا الى آسيا بعد طردهم. قال أحعمس بن إابانا بعد ما ذكر سقوط أواريس ما ترجمته : ”ثم حاصر جلالة ملك مصر شاروهن — شرحان — لمدة ثلاث سنوات واستولى عليها . وقد أسرت وقتئذ امرأتين ويد أسير فكافأنى جلالتى بالذهب على شجاعى وملكنى رقاب الأسيرتين“^(٤) . ويعتبر هذا أول حصار طويل معروف من نوعه فى التاريخ وبرهانا قويا على شدة مقاومة الهيكسوس وطول صبر أحعمس الأول فى ذلك الحصار الخطير على حدود القطر المصرى . وشاروهن — شرحان — موقعها جنوبى يهوذا^(٥) وهو المكان الذى سهل على الهيكسوس إعادة الكرة ثانية على مصر منه . ولم يكنف أحعمس الأول

(١) ١٠ - ٧ : ٢ (٢) ١١ : ٢ (٣) ١٢ : ٢ (٤) ١٣ : ٢ (٥) سفر يشوع ، اصحاح ١٩ ، سطر ٦

بطرد الهيكسوس من شاروهن بل واصل طردهم وتبعهم الى فينيقيا المعروفة وقتئذ باسم زاهى^(١) وسوريا ، وكان الملك مستصحباً معه إذ ذاك قائداً من مدينة الكاب أيضاً يقال له أحعمس بن نَحْتِث ، ومن ثم يظهر لنا أن الملك طرد الهيكسوس الى مكان بعيد وطهر منهم القطر المصرى . وورد عن الملك أحعمس أنه استعمل ثيران الهيكسوس فى أعمال عماراته فى السنة الثانية والعشرين من حكمه^(٢) وأنه حارب الهيكسوس مرة أخرى على الأقل فى ذلك الوقت ، ولما طرد أحعمس الأول الهيكسوس من مصر وجه همه ثانية الى النوبة بقصد استرجاع ما فقدته مصر فى ذلك القطر الجنوبى .

ولا يخفى أن الاضطرابات التى حدثت فى القطر المصرى بعد سقوط المملكة الوسطى أحدثت تأثيراً سيئاً فى السودان نحو مصر ، فشق أهالى ذلك الاقليم عصا الطاعة على فرعون واستعوا من دفع الجزية وسببوا له متاعب ومصاعب . لكنه لما طرد أحعمس الاول الهيكسوس ووجه همه نحو ذلك الاقليم أخضعه بسهولة وعلى الأخص ما كان منه بين الشلال الأول والشلال الثانى^(٣) . أما مركز الملك حينئذ فى القطر المصرى فكان مخفوفاً بالخطر لأنه بمجرد وصوله الى السودان قامت أهالى قسم جنوبى الكاب عليه فغلبيهم وشتت شملهم وكان مصحوباً إذ ذاك بأحعمس بن إباننا الذى كافاه هناك بخمسة عبيد وثلاثة أفدنة ونصف من أرض اقليم الكاب^(٤) وأغدق الملك نعمه على جميع الضباط الذين حاربوا معه فى تلك المعركة . وروى أحعمس بن إباننا خبر حدوث فتنة أخرى فقال : ” جمع الخائن المغلوب على أمره المدعو تتي إن (Teti-en) رجاله ليعارب جلالة الملك قتلته جلالة هو وخدمه وأعطانى ثلاثة عبيد وثلاثة أفدنة ونصفاً بجهة بلدى الكاب“^(٥) . من ذلك يتضح أن أحعمس الأول نجح فى سياسة التآلف مع حكام أقسام مصر حتى جعلهم تحت نفوذه وكان تارة يوزع عليهم الذهب وطوراً يهب لهم العبيد والأراضى وأحياناً يجود عليهم بألقاب الشرف ” كابن الملك الأول“ مما يتوافق مع عقلية الحكام المغربين بالوجاهة والبدخ . ولاشك أن حكام قسم الكاب استحقوا كل ثناء على شجاعتهم وإخلاصهم ، ومع السماح لهم بالمحافظة على ألقابهم وشريف نسبهم قل نفوذهم تدريجاً فصار الحل والعقد بيد الملك وحده بطيبة ، ولذلك كان هؤلاء الحكام يقيمون فى طيبة ويدفنون جثثهم بجوار مقابر ملوكهم . وهناك قبر لحاكم مدينه طينه (Thinis) وآخر لحاكم مدينة القوصية (أفروديتو پوليس) ، وورد عن الأول منهما أنه ساعد الملكة حتشبسوت فى نقل مسلاتها^(٦) .

ولا بد أن يكون القارئ قد لاحظ أن أحعمس الأول لم يلتف حوله إلا القليل من حكام أقسام مصر ، أما الباقي فقاوموا الهيكسوس حتى صرعوهم ومحو أثرهم . والذين انضموا الى أحعمس انخرطوا بعدئذ فى خدمة الحكومة الملكية واحتفظوا بالوظائف الكبيرة بعد ما تجردوا من غطرتهم واستقلأهم السابقين . وهكذا صارت الكلمة العليا للملك الذى وضع يده على أملاكهم جميعاً إلا ما يخص قسم الكاب فإنه تنازل عنه لهم اعترافاً منه بالمساعدة التى قدمها له حكام هذا القسم وقت حربه مع

(١) ٢٠: ٢ (٢) ٢٦: ٢-٢٧ (٣) ١٤: ٢ (٤) ١٥: ٢ (٥) ١٦: ٢ (٦) ٢: صفحة ١٣٨ ملاحظة (٨)

الميكسوس . وقد سمح الملك لحكام الكاب بالاحتفاظ بأراضيهم وأملأهم مدة جيلين تقريبا
 كما تشير اليه الآثار . والمعروف أن نفوذهم امتد بعد ذلك فشمّل مدينة إسنا وما جاورها فصاروا
 يديرون الأقاليم بين طيبة ومدينة الكاب ، ولا يخفى أن هذه الرعاية كانت استدعاء للقاعدة القاضية
 بامتلاك فرعون لأراضى مصر كلها ، ومثل هذه الحال حصلت في مصر حديثا أيام المرحوم
 محمد علي باشا الكبير لما قتل المماليك في القرن التاسع عشر بعد الميلاد ، وورد في الكتاب المقدس
 أن هذا النظام جاء نتيحة مباشرة لحنكة ومهارة سيدنا يوسف عليه السلام ^(١) .

(١) سفر التكوين ، الاصحاح ٤٧ ، سطر ١٩ — ٢٠

الكتاب الخامس

الامبراطورية في دورها الأول

الفصل الثالث عشر

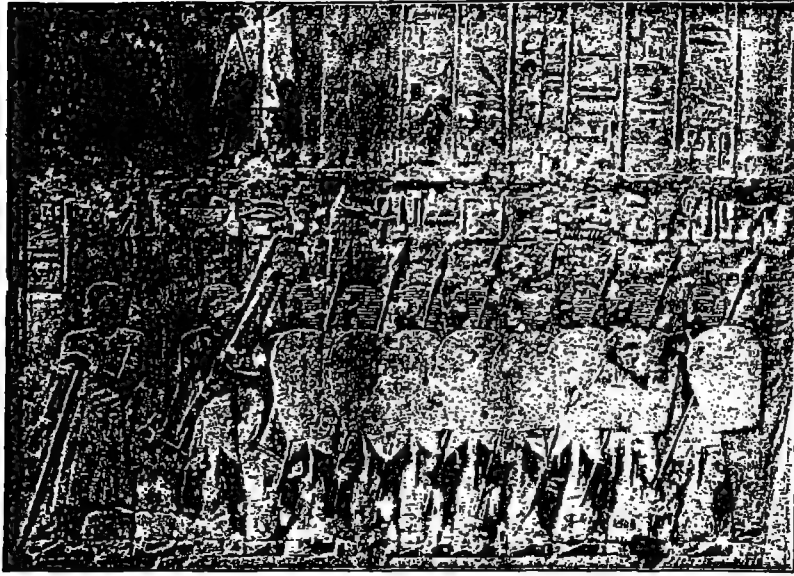
الحكومة الجديدة : الاجتماع ، الديانة

كانت مهمة أحعمس الأول في تنظيم الحكومة المصرية وإدارة البلاد الداخلية مختلفة تماما عن مهمة أمتنمجت الأول أول ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ناهيك بالعقبات التي واجهت الأخير فقد كانت نتيجة منازعات سياسية واجتماعية بين حكام الأقسام فاجتهد أمتنمجت الأول في إزالتها دون أن يلحق بهم أذى أو ضرر . أما أحعمس الأول فمهمته تطلبت تأليف حكومة من حكام ضعاف يختلفون تماما عن حكام أمتنمجت الأول لأنهم عاشوا تحت النير الأجنبي حتى فقدوا منزلتهم السامية بين أهالي القطر . وكان اختيار أحعمس الأول لنوع الحكومة المناسبة لعصره نتيجة مباشرة لخبرته الحربية والسياسية مع الهيكسوس مدة طويلة ، تلك الخبرة التي جعلته قائدا عاما لجيش مصرى محنك مدرب على الكفاح ورئيسا للحكومة في آن واحد . وعليه فالحكومة التي أُلِّقَتْ إثر هذه الحوادث تحتم عليها أن تكون عسكرية وأن تبقى كذلك دون نظر الى ميول المصري نحو السلام والسكينة ، لأن التضال الطويل مع الهيكسوس علم المصريين طرق الكفاح المختلفة كما أن الغزوات التي قام بها أحعمس عدة سنوات بآسيا أطلعت المصريين على ثروة الأقطار السورية ، وهكذا صار المصري مدبرا مجربا لفنون الحرب وعالما بأن الحروب الأسبوية تعود على مصر بالغنى الكثير . فهبت على أثر ذلك في القطر المصري عاصفة فكرية دفعته الى الاستعارة والفتوحات عدة قرون حتى صارت ثروة الخدمة العسكرية ومكائنها وترقياتها مطمح نفوس الطبقة الوسطى التي كانت سابقا مخلدة الى الراحة ، وهكذا اندفع القطر المصري في التيار العسكرى وتسلمت على الباب أهله عوامل الحرب حتى صعب وقفها . وأصبح سراة القوم الذين عاشوا بعد طرد الهيكسوس وأمراء الامبراطورية المصرية يطمعون في الخدمة العسكرية والانخراط في الحروب تحت لواء الملك بغية الحصول على الانعام والألقاب التي تشرفهم وتعالى مركزهم بين قومهم كما أشارت اليه نقوش قبورهم في طيبة^(١) . وقد أورد لنا كبار موظفي الحكومة المصرية سيرهم وتراجم حياتهم على مقابرهم كالتي خلفها أحعمس بن إباننا عن حياته والبلاء الحسن الذي رفع صيته في حرب الهيكسوس^(٢) . وخيمت الروح العسكرية على القطر المصري مدة قرن ونصف بعد طرد الهيكسوس فدار أبناء العراعة يعينون قوادا للجيش^(٣) ثم زيد عدد الجيش كثيرا وأمد بالعدد وقسم الى قسمين قسم خاص بالوجه البحرى والآخر بالوجه القبلى^(٤) . واعلم أن الحروب السورية دزبت المصريين على الخلدع العسكرية والأساليب الحربية الراقية كما سيوضح فيما بعد ، ويعتبر هذا التقدم الحربى أقدم ما عرف من نوعه في التاريخ . وقد قسم الجيش المصرى الى فرق وفيالق وقسمت قواته الى قلب وجناحين فانتظم بذلك نظام المعارك الحربية وتمكن المصريون من القيام بحركات الالتفاف حول أعدائهم بعد ما كانت حروبهم القديمة أشبه

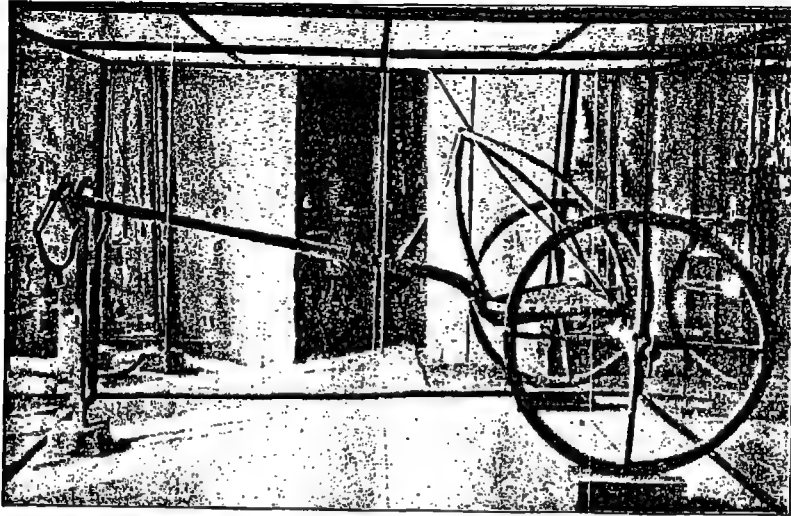
(١) ١-٢-١٦ و ١٧-٢٥ وفي غيرها من المواضع (٢) شرحه (٣) ٣٠٠-٣٦٢ ر ٣٠٠ (٤) ٣٠٣-٣٠٦

بالنهب والغزو والقتل والتحطيم (شكل ١٠٤) . وشملت معدات الحرب القوس والنشاب والبلط ، وتمرن أفرادها على إطلاق النبال وتسديدها دفعة واحدة فعظمت منزلة فرقة النبال المصرية بين جيوش العالم حتى العهد اليوناني والروماني . وأهم من هذا وذاك أن الهيكسوس جلبوا الخيل الى مصر فأصبح الجيش المصرى شاملا لعجلات حربية كثيرة . أما فرقة الفرسان فلم يكن لها وجود وقتئذ ، ولكنه لوحظ أن صناعة العجلات كانت غاية في الاتقان (شكل ١٠٥) ، وصار لفرعون مصر اصطبلات تحوى الآلاف من أجود الخيل الآسيوية . واقتضت الروح العسكرية وقتئذ أن يكون للملك حرس كامل العدد له شعار خاص ويتبع جلالة في غدواته وروحاته ، كما أصبح له أيضا ضباط حربيون خاصون يرافقونه في حله وترحاله . وبهذه الكيفية ساس الفراعنة القطر المصرى بلا معارضة وصارت لهم فيه الكلمة العليا ، فلم يبق للروح الديموقراطية بين ملوك تلك الأوقات من أثر ولم يعد يتجاسر أحد من رعيته أن يحاسبهم على أعمالهم . ولا غرابة في ذلك فمثل هذه الروح لم توجد في الشرق إلا نادرا حتى عهدنا هذا ، والعادة في الممالك الشرقية أن الملك القوى يهيمن على كل أمور دولته وأن تكون رعيته رهن اشارته في كل وقت ، فاذا ظهرت عليه بوادر الضعف أصبح العوبة في أيدي حاشيته وفريسة لدسائس حريمه . ويحوى التاريخ المصرى القديم كثيرا من الأمثلة الخاصة بعزل الأسر المالكة واسناد شؤون المملكة الى رؤساء ماهرين حاذقين . أما أحعمس الأول الذى طرد الهيكسوس فكان مثال الجد والشجاعة والعقل والدهاء فلم يكن لين العريكة أو ضعيف الارادة ولذلك كان الجميع يهابونه ويحترمونه ، وإلى هذا الملك يرجع الفضل في انقاذ مصر من ظلم الهيكسوس وما تقلبت فيه البلاد من الاضطراب والفتن في غضون مائتى سنة .

وتمتاز الحكومة المصرية الجديدة بوضوحها للتورخين أكثر من حكومات العصور الأخرى ففيها يتبين للباحث كثير من الأنظمة الجديدة الادارية التى أدخلتها أسرة أحعمس الأول على المملكة . فمركز فرعون أصبح الآن مركزا عمليا يطلع على أخبار مملكته وحكومته السياسية ويقابل لذلك وزيره كل صباح . وأعلم أن الوزير كان القابض على زمام الأمور فكان يعرض على جلالة ملكه كل المسائل الحكومية والأشغال السائرة ليبدى رأيه فيها^(١) ، وبعد ذلك يتشرف رئيس مالية الدولة بمقابلة الملك^(٢) فيعرض عليه أخبار الخزنة الملكية وما اعتراها من زيادة أو نقص . من ذلك يتضح أن الادارة المالية والحقانية كانتا أهم المسائل الحكومية فكان يتحتم أن تعرض أخبارهما على فرعون كل يوم في قصره الذى اعتبر المرجع الأسمى للحكومة . أما المسائل الأخرى فكانت تعرض على الأشخاص المنوطين بها في ديوان الحكومة فكانوا يتصرفون فيها بما يعتبر نظريا مرسوما ملكيا . وقد وصلت إلينا بعض مخاطبات رسمية تظهر لنا كيفية سير الأمور والأساليب السياسية وقتئذ لكنها قليلة ، ومنها اتضح لنا كثرة أعمال الملك وكيفية تصرفه لأشغاله مما يعود عليه بجزيل الثناء لما كان يبديه عادة من المهارة والحكمة . وكان يعرض على الملك حكم القضايا الجنائية في آخر الأمر ليبدى رأيه فيه ، ثم ان المجرمين كانوا يحجزون في السجن انتظارا لتصديق الملك على عقابهم^(٣) . وكثيرا



شكل ١٠٤ — إحدى وحدات الجيش المصرى مسلحة بالحرب من عهد الامبراطورية
سافرت ضمن البعثة الحربية التى أوفدها الملكة حتشبسوت الى بلاد البونت (الهومال)
(مأخوذ من رسوم بارزة على جدر معبد هذه الملكة بالدير البحرى بآييه)



شكل ١٠٥ — صورة لعربة من عهد الامبراطورية تامة التركيب مصنوعة من الخشب والبرنز والجلد
(دارمحف المعاديات بمدينة فلورنس)

ما كانت فرعون يراقب جيوشه ببلاد النوبة وآسيا والمحاجر والمالجم^(١) ووقت تفقد الطرق^(٢) في الصحارى للبحث عن أمكنة لحفر الآبار أو تخزين المياه . أما الإدارة الداخلية والعمارات العمومية لكبيرة فكان يتفقددها الملك ويراقب ادارتها شخصيا . وورد أن الملك كثيرا ما قام بتحقيق دقيق في قصايا الظلم والحيث بين الموظفين^(٣) . ويلاحظ أن الشعائر والاحتفالات الدينية كانت تتطلب كثيرا من أوقاته أيضا وأن هذه أخذت تكبر وتزداد تبعا لكبر إدارة الحكومة فزاد بذلك العمل على عاتق الملك حتى عجز في آخر الأمر عن تحمله وحده فاستعان بوزيره . ولما تضاعف العمل عجز الاثنان عن القيام به فعين الملك وزيرا ثانيا . والمعروف أن فرعون مصر كان محتفظا بوزير واحد من أقدم عصور المملكة ، أما الآن فقد عين فرعون الأسرة الثامنة عشرة وزيرين لمراقبة الإدارة والشؤون الداخلية ، أحدهما للوجه القبلي تمتد منطقة نفوذه من طيبة الى قسم سيوط ومقره طيبة ، أما الثاني فكان يعهد اليه في إدارة جزء القطر شمالي سيوط الى البحر الأبيض المتوسط ومقر حكمة عين شمس^(٤) ، ولا يبعد أن يكون هذا التقسيم نتيجة اضافة قسم النوبة بين الشلال الأول والشلال الثاني الى أعمال وزير الجنوب .

ثم قسمت المملكة المصرية الى عدة أقسام بعضها يحوى المدن الكبيرة القديمة وما جاورها من القرى فكان يحكمها حكام الأقسام الأقدمون ، والبعض الآخر لا يحوى مدنا رئيسية كالسابقة بل كان عبارة عن أقسام أنشأتها الحكومة لتسهيل الأعمال الإدارية . وعدد هذه الأقسام في المنطقة بين سيوط والشلال الأول سبعة وعشرون^(٥) . ويغلب أن يكون عدد الأقسام شمالي سيوط معادلا لذلك على الأقل . ومع أن رئيس الإدارة في المدن الكبيرة كان يلقب بأمير أو حاكم فقد أصبح الآن تابعا اداريا للفرعنة فلم يعد يتصرف في أمر حتى يعرضه على السدة الملكية فهو كالعمدة في وقتنا هذا ، أما المدن الصغيرة فكان يعين عليها مشايخ كما هو جار الآن ، وأما القرى الصغيرة فكان يعين عليها بعض الكتبة تحت اشراف كاتب منهم^(٦) ، وسنرى أن هؤلاء الحكام قاموا بالأعمال الإدارية والقضائية معا في أقسامهم الخاصة بهم .

وكان هم الحكومة في تلك العصور موجها الى زيادة الانتاج الذى يتبعه ازدياد في ثروة البلاد ، ولذلك كانت معظم الأراضى تابعة للملك فكان يقسمها على أتباعه تحت اشراف موظفى حكومته أو يهبها لأمرائه المقربين أو لرجال حزبه أو أقاربه أو يؤجر بعضها الى الأهالى الاعتياديين ، ويمكن كل واحد من هؤلاء أن يستبدل بقطعة أرضه أخرى على أن يدفع فرق البديل ثم يتصرف فيها كما يشاء^(٧) . أما أملاك الملك من أغنام وبهائم وحمير فكانت توضع تحت اشراف أناس من الطبقتين المذكورتين وتفرض عليها ضريبة سنوية كالأراضى . واقتضى القانون المالى وقتئذ أن تفرض الضرائب على الأراضى والحيوانات والأملاك جميعها^(٨) كل سنة ويبين ذلك في سجل خاص ، وهذه الضرائب كانت تورد الى الخزانة المصرية التى لم تزل تعرف "بالبيت الأبيض" لكن استثنى من هذا

(١) ١٧٠: ٣ (٢) ٤٦٤: ٤ (٣) ٥٨: ٣ (٤) نصوص من (Mes) (٥) ٧٤٥-٧١٦: ٢ (٦) ٧١٧: ٢ (٧) نصوص من (Mes) (٨) ٣١: ١ و ٩١٦: ٣

الأمر أوقاف المعابد فقد أعفيت من الضريبة. أما سجلات الضرائب فكانت تحوى كشفا مضبوطا عن الأملاك وما يتعلق بها وبمقتضى ذلك الكشف كانت تفرض الضرائب التي استمرت تدفع للحكومة بشكل مواد أولية كحبوب ونيذ وزيت وعسل ومنسوجات أو بهائم . وليلاحظ أن أهم قسم بالإدارة المالية كان خاصا بالمواشى والحيوانات وبنى ذلك أهمية القسم الخاص بالمواد الأخرى . أما لفظا "ضرائب" أو "عوائد" فقد استعيرها عند قدماء المصريين بلفظ "الشغل" . وأخبرنا الكتاب المقدس أن الأهالى كانوا يدفعون خمس نتاج الأرض والحيوان ضريبة لالة فى زمن سيدنا يوسف عليه السلام^(١) . وتجيى الضرائب ثم تورد الى ادارات الحكومة الأخرى ويؤدى كل عمل موظفون خاصون . ومن ذلك يتضح أن عدد الموظفين والخدم وقتئذ بلغ حدا لم يبلغه فى عصر سابق ، وهؤلاء الكتبة والمراقبون كانوا تحت اشراف رئيس المالية وهذا يعرض الأمور على الوزير كل يوم بعد ذلك ويستأذن لفتح الدواوين والمخازن كالعداد^(٢) . وهناك نوع من الضرائب كان يدفعه للوزير موظفو الحكومة على حسب وظائفهم . وكان وزير قسم مصر الجنوبى يشرف على موظفى قسمه جميعا حتى سبوت شمالا^(٣) ، ولا يبعد أن كان لوزير القسم الشمالى أيضا مثل هذا الاشراف على موظفى دائرة أعماله ، وتدفع ضرائب الموظفين ذبا وفدة وقمحا وغنما وكثانا . ودلتنا الآثار أن حاكم مدينة الكاب كان يدفع للخرانة المصرية ضريبة سنوية تقدر بخمسة آلاف وستمائة قمحة ذبا وأربعة آلاف ومائتى قمحة فضة وقلادة ذهبية وثورين وصندوقين من الكنان . وجدت قائمة للضرائب التى كانت مفروضة على موظفى جنوبى مصر تحت ادارة الوزير نبحارح منقوشة على جدر قبره لكنها لسوء الحظ تالفة لدرجة يصعب جمعها ومعرفة مقدار تلك الضرائب أيام ذلك الوزير بالضبط^(٤) . والنايب أن أقل قيمة لضرائب موظفى هذا الوزير تقدر بمائتين وعشرين ألف قمحة ذبا وتسع فلانك ذهبية وستة عشر ألف قمحة فضة وأربعين صندوقا ومقاسات أخرى كثانا ومائة رأس وست من البهائم المختلفى الأعمار وكية من الحبوب . ولا يبعد أن يكون هذا التقدير أقل من الحقيق بنحو ٢٠٪ ، ولما كان من المحتمل أن الملك يحصل من وزيره الشمالى ما يعادل هذا المقدار أيضا كانت الضرائب التى تجمع من موظفى الحكومة وقتئذ شيئا لا يستهان به . ومن دواعى الأسف اننا لم نتمكن من تقدير مجموع هذه الضرائب بالضبط ، لكن المعلوم انها كانت ترسل الى ادارة وزير الجنوب رأسا أيام الاسرة الثانية عشرة حيث قيد وتوزع بالدقة وتقديمها ببيانات وافية يرجع اليها وقت الحاجة . ولغضب أعمال ميزانية الضرائب كان الوزير الجنوبى يقدم للملك تقريرا كل شهر عن المصروفات والإيرادات يعاونه فى ذلك رؤساء الأقاليم وكبار الموظفين^(٥) . ولما كانت الضرائب مرتبة على نتاج الأرض وهذا أيضا مرتبط بدرجة فيضان النيل كحالنا الآن كانت ترسل الى وزير الجنوب بلاغات رسمية عن حال فيضان النيل^(٦) . وتدخل تحت اشراف هذا الوزير أيضا الأوقاف الدينية وبالأخص ما يحبس منها على المعبود آمون بمدينة طيبة فهذه كان يديرها وزير الجنوب كما كان أيضا يدير دخل معبد هذا المعبود الغنى بما فى ذلك من مرتب ومصرف رئيس كهنة آمون^(٧) .

(١) سفر التكوين ، الإصحاح ٤٧ ، سطر ٢٣-٢٧ (٢) ٦٧٩: ٣ (٣) ٧١٦: ٢-٧٤٥ (٤) شرحه (٥) ٧٠٨: ٣ (٦) ٧٠٩: ٣ (٧) ٧٤٦: ٣-٧٥١

وأخذت الخزينة المصرية على توالى الأيام تضخم بورود الجزية من البلاد الأجنبية بمقاديرها الكبيرة وهذه الجزية ترد على وزير الجنوب وهو يعرضها على الملك . ووجدت رسوم شيقة على صدر قبر وزير الجنوب المعظم المدعو زمارع بطيه تمثله متسلما ضرائب موظفيه السنوية^(١) وكذا ضرائب ولاية المستعمرات الآسيوية والنوبية^(٢) .

ولم تقتصر سلطة وزير الجنوب على المالية بل شملت أيضا القضاء فكانت سلطته أوسع نظاما من سلطته المالية فصارت له الكلمة العليا على جميع قضاة قسمه وعلى محكمة العشرة السابقة الذكر والتي أصبح رأيا أقل من الاستشارى بعد ما كانت ذات الكلمة النافذة في البلاد^(٣) . ومع أن بلاغات القصر الملكي وقتئذ لم تشر مرة واحدة الى هذه المحكمة فقد بقي ذكرها ومجدها القديم موضع الإعجاب والمدح في الشعر حتى العهد اليوناني . وكان الوزير يلقب أحيانا برئيس المحاكم الست الكبرى كسابق العهد، لكن يلاحظ أن هذا اللقب أصبح الآن غريبا فقط لزوال هذه المحاكم من الوجود، ومع عدم وجود رجال أخصائيين في القانون فكان يشترط في الحكام أن يكونوا متضلعين في القانون ليحكموا في كل ما يعرض عليهم من القضايا . ولما كان الوزير معتبرا رئيس حكام الأقسام التابعة له كانت تعرض عليه كل أحكام القضاة الذين تحت إشرافه ، وجرى العادة في كل حال أن يرفع كل مدع أو متظلم دعواه الى الوزير كتابة ويستحسن حضور صاحب الطلب شخصيا ، ولذلك كان قصر الوزير ملجأ يجيئ اليه المدعون والمنظّمون كل يوم . زد على ذلك أنه كانت تعقد في هذا القصر كل يوم جلسة لاصدار حكمها في تلك الدعاوى^(٤) . ودلتنا الآثار أن هذه الجلسات كان يؤدي نظامها حجاب وكتبه وكان الناس يدخلونها بالترتيب بعد ما يصفون استعدادا لمشوهم بين يدي الوزير^(٥) وحتم القانون على الوزير اصدار حكمه في قضايا الأراضى المتعلقة بطيه في ثلاثة أيام من تاريخ رفع الدعوى أما قضايا الأراضى الخارجة عن طيه شماليا وجنوبيا فانطبق فيها كان لا يتأخر عن شهرين^(٦) . هكذا كان النظام القضائي لما كانت المملكة تحت إشراف وزير واحد ، لكن لما عين وزير ثان للشمال قسم النفوذ والسلطان بين هذين الوزيرين^(٧) . وكل جرائم طيه كان ينظرها وزير الجنوب شخصيا ، أما المجرمون فيحجزون في سجون خاصة ما داموا رهن التحقيق فاذا صدر الحكم عليهم أرسلوا الى سجون أخرى ينفذ فيها العقاب . ولكل قضية أوراق تحفظ في السجلات الرسمية كما هي الحال الآن^(٨) . وتمتاز قضايا الأراضى والأملاك بوجوب اصدار الحكم فيها بسرعة . ويتحتم على كاتب الوصية أن يسجلها شخصيا في قصر الوزير^(٩) . وتحفظ صور لجميع المستندات وحدود الأراضى والعقود في ادارتي وزيرى الجنوب^(١٠) والشمال^(١١) . وكل طلب مقدم الى الملك يتحتم تقديمه كتابة الى ادارة الوزير أولا^(١٢) .

٧١٥ - ٧١٦ : ٢ (١) ٧٦٠ - ٧٦١ : ٢ (٢) ٧١٢ : ٢ (٣) ٧١٥ : ٢ (٤) ٧١٤ - ٧١٥ : ٢ (٥) ٧١٥ : ٢ (٦) ٦٨٦ : ٢ (٧) نصوص من (Mes) ٦٨٢ : ٢ (٨) ٦٨٨ : ٢ (٩) ٧٠٣ : ٢ (١٠) نصوص من (Mes) ٦٩١ : ٢ (١٢)

وزيادة على قصرى وزيرى الشمال والجنوب اللذين كانا يعرفان "بالايوان" أو "المجلس الأعلى" أنشئت بالأرياف محاكم فرعية مكونة من رجال الادارة المتمرنين على تطبيق القانون كما ذكرنا سابقا. وكان هؤلاء الرجال يعرفون بأعيان البلد أو "رجال المجلس المحلى" ويعتبرون ممثلين لمجلس القضاء الأعلى. والقضايا الكبيرة كالخاصة بالقبائل والأسر الرفيعة كان يتختم فيها ارسال مندوب من "مجلس القضاء الأعلى" لينفذ قرار ذلك المجلس بمعاونة رجال أقرب "مجلس محلى". وكانت القضايا تسمع أحيانا أولا أمام المحاكم الفرعية ثم تحال بعد ذلك الى المحاكم العليا قبل الحكم فيها نهائيا^(١). ولم نهتد للآن الى معرفة عدد المجالس الفرعية فى تلك الأوقات بالضبط، لكن المعروف أن أهم هذه المجالس هما الخصاص بمنف وطيبه. وكان أعضاء مجلس طيبه المحلى كثيرى التغيير على حسب أهمية القضايا، فالقضايا الخاصة بالبيت المال كان ينظر فيها أعضاء معينون بأمر من الوزير الجنوبى^(٢) أما قضايا المؤامرات على الحكام فكان الملك نفسه يعين القضاة للنظر فيها بلا محابة ولا محسوبية وكذا الحكم على المجرمين وكان يمنحهم الحق فى تنفيذ هذا الحكم أيضا^(٣). ويلاحظ أن الكهنة كانوا معظم أعضاء هذه المحاكم ولا نعلم للآن علاقة هذه المحاكم الفرعية بادارة الوزير بالضبط، وقد ورد على الآثار مرة على الأقل أن أحد المدعين حكم له "المجلس المحلى" بتسليم عبده لمعارض ما حكم به "المجلس الأعلى" سابقا بادارة الوزير^(٤). ومع شدة حرص القوم على القانون كثيرا ما تشككوا فى نزاهة الحكم وعدله فقد ورد أن الناس كانوا يندبون حالة الفقير الضعيف بين يدى القضاء أمام خصمه الغنى اذا أصدرت المحكمة حكمها ضده، فيصبح الناس بأصوات عالية قائلين (هذا نتيجة اعطاء) الفضة والذهب للكتابة! و(اعطاء) الملابس لخدم المحكمة!^(٥) ولا غرابة قرشوة الغنى كانت وقتئذ أقوى مفعولا من حتى الضعيف كما هو حاصل الآن كثيرا (فى نظر المؤلف). لكن يلاحظ أن القانون الذى لجأ اليه الفقير كان غاية فى العدالة وجرى العادة أن ينسخ فى أربعين درجا برديا ويوضع على منضدة القاضى وقت انعقاد المحكمة للراجعة وزيادة الايضاح، وكان يسمح لكل شخص أن يقرأ القانون ويستفسر الغامض^(٦). ومن دواعى الأسف أننا لم نثر على نسخة من ذلك القانون الذى لا نملك لحظة فى عدالته فقد جاء فى الآثار أن الوزير كان يحكم بالعدل بدون محابة حتى كان يخرج المتخاصمان من حجرتة بـ بورى الخاطر، "وكان يعطى الفقير حقه كما يعطى القوى نصيبه تماما"^(٧) وجاء عنه أيضا "أنه لم يفضل الشخص العظيم على الحقير بل كافأ المظلوم وعاقب الظالم على ظلمه"^(٨). وبلغ من علو منزلة القانون ونزاهته عند المصريين أن اقتنخ الملوك بأنهم رجال القانون فقد لقب أمنتحتب الثالث نفسه "بموطد القانون". وجاء أيضا أن أحد الملوك فاه أمام احدى المحاكم "بأن القانون ثابت، لم أحدث فيه تغييرا، ولذلك التزمت خطة السكوت خوفا من أحداث الفرج والسرور"^(٩). وبلغت العدالة حدا لا يكاد يصدقه العدل، من ذلك أنه لما ظهرت مؤامرة لاغتيال حياة ملك لم يكتف الملك بتحقيق مختصر واصدار حكم الاعدام على اللجنة بل أصدر

(١) جاردنر نصوص مس (Mea) (٢) ٧٠٥:٢ (٣) ٤٢٣:٤ - ٤ (٤) Spiegelberg, Studien. (٥) Pap. Anast. II, 8,6. (٦) ٧١٢ و ٦٧٥:٢ (٧) ٧١٣:٢ (٨) ٧١٥:٢ (٩) Spiegelberg, Studien.

أمره بتشكيل محكمة للنظر في القضية بشرط ألا تصدر حكمها بعقاب المتهمين إلا بعد ثبوت إجرامهم . وجاء أيضا أن العقوبات التي فرضها حورمحب على الموظفين المرتشين كانت على حسب القانون^(١) . ولا يخفى أن معظم مواد ذلك القانون عتيقة كنصوص كتاب الموتى ولذلك نسب قدماء المصريين قانونهم الى الآلهة . أما قانون حورمحب فكان من مبتكراته^(٢) . قال ديودور الصقلي ان هناك خمسة ملوك مصريين سنوا قوانين لبلادهم قبل الحكم الفارسي ، وجاء في أخبار المملكة الوسطى أن أحد رجالها النبلاء قال انه سن القانون وذلك يعني طبعا أنه عمل هذا بناء على أمر ملكي^(٣) . لذلك كانت أمور التجارة والزراعة والصناعة في وادي النيل في عهد الامبراطورية سائرة بالعدل والقانون اللذين سهر على تنفيذهما رجال أصوليون عديدون لا يحدون عن الحق قيد أنملة ، وهكذا انمحي أثر الظلم والخياف من جهة الملك وحاشيته وعم العدل في أنحاء البلاد .

وكان وزير الجنوب القوة المحركة لنظام الحكومة وقتئذ ، وقد ذكرنا فيما سبق أنه كان يقابل الملك صباح كل يوم ليتفاوض معه في شؤون المملكة ولم يكن للوزير معارض في السلطة الا رئيس المالية الذي خوله القانون حق الاطلاع على اجراءات وزير الجنوب . فاذا خرج الوزير من القصر الملكي يجد رئيس المالية واقفا بجوار أحد ساريات مدخل القصر ينتظره ليتداول معه أمور الدولة^(٤) . بعد ذلك يفتح الوزير أبواب مكتبه ويبدأ بأشغاله الاعتيادية فلا يترك صغيرة ولا كبيرة تخرج أو تدخل مكتبه إلا ويطلع عليها سواء أكان ذلك خاصا بالأهالي أم بالأُملاك^(٥) . وقصر الوزير (أي ادارته) كان طريق التخابر بينه وبين حكام الأقسام الذين كانوا يرسلون له تقارير وافية عن حوادث أقسامهم أول كل فصل (أي ثلاث دفعات سنويا لأن السنة المصرية القديمة قسمت الى ثلاثة فصول)^(٦) ، ومن ثم كانت ادارة هذا الوزير مثالا صادقا لادارات الأقسام . وكثيرا ما قام الوزير بسياحات في جهات مصر لتفقد أحوال الادارة والنظام ولذلك كانت توجد تحت تصرفه الشخصى سفينة حكومية تنقله الى حيث شاء . ويدخل تحت اشراف الوزير أيضا حرس الملك الخاص وحامية العاصمة^(٧) وادارة الجيش^(٨) وقلاع الجنوب^(٩) وأخبار موظفى الأسطول^(١٠) كما كان الوزير يحتفظ أيضا بالأعمال الحربية والبحرية . ولما كان الملك في الأسرة الثامنة عشرة يحارب مع جيشه خارج القطر كان وزير الجنوب يدير شؤون الدولة بالنيابة^(١١) . ولم تقتصر سلطة الوزير على ما ذكر بل شملت أيضا ادارة المعابد في أنحاء القطر لأنه ورد عنه مرة أنه "وطد القانون في معابد الآلهة في الجنوب والشمال"^(١٢) . ومن ثم كان هذا الشخص رئيسا للديانة أيضا وبعبارة أخرى كان أدري الناس بأحوال البلاد الداخلية ، ومما ورد عنه أنه لم يسمح بقطع الأشجار ولا برى الأراضى أو تصرف المياه الا بأذنه الخاص^(١٣) . واعتبر هذا الوزير ظهور نجم الشورى اليمانية وسيلة للتوقيت الحكومى^(١٤) . وخلاصة القول أن ادارة القطر صارت في قبضة هذا الوزير تقريبا ، زد على ذلك أنه كان يستفتى في كل ادارات البلاد^(١٥) . وقبل أن تقسم ادارة القطر بين وزيرين كان نفوذ

(١) ٥١ : ٣ ملاحظة (٢) راجع الفصل الخامس صحيفة ٥٣ - ٥٤ (٣) ٦٥ : ٣ (٤) ٦٧٨ : ٩ - ٦٧٦ : ٣ (٥) ٦٨٠ : ٣ (٦) ٦٨٧ : ٣ و ٦٩٢ و ٧٠٨ و ٧١١ (٧) ٦٩٣ : ٢ - ٤ (٨) ٦٩٥ : ٢ (٩) ٧٠٢ : ٢ (١٠) ٧١٠ : ٢ (١١) ٧١٠ : ٢ (١٢) ٧٥٧ : ٢ (١٣) ٦٩٧ : ٨ - ٦٩٦ : ٣ (١٤) ٧٠٩ : ٢

ذلك الوزير محسوسا في جميع دوائر الحكومة المهمة التي كانت دائما على اتصال مباشر أو غير مباشر بإدارته . أما بقية الدوائر الأخرى فكانت مضطرة لأن تتخاطب وتنفذ أعمالها بناء على إرشادات إدارة الوزير . وخلاصة القول أن مركز هذا الوزير كان أشبه بمركز سيدنا يوسف عليه السلام لما تسلم من فرعون مقاليد الحكم . وبلغ من شدة عدل الوزير وانصافه أن ذكره القوم في صلواتهم للعبود آمون حيث قالوا أنت يا آمون وزير الفقير الذي يرفض رشوة المذنب^(١) ولذلك تعين الاهتمام بأمر الوزير فكان لا يوضع في ذلك المركز الا كل شخص يختاره الملك من ذوى القسرة والكفاية ويعلن ذلك بأمر ملكي . وجرى العادة أن الملك كان يلقي على وزيره وقت تعيينه نصائح وحكايا يتصوّر الانسان صدها من بين شفتي فراعنة غزاة يرجع تاريخهم الى أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة لأنها تم على رجة ورأفة مع تقدير لمسئولية الحكم ، واليك ترجمة ما قاله أحد الفراعنة لوزيره في مثل هذه الأحوال : "لا تجلس نفسك مواجها للأمراء والقضاة"^(٢) ولا تختلط كثيرا مع الأهالي ، فالأهالي تبغض المحسوبة . هكذا تعلمنا فيجب عليك أن تتبع ذلك . يجب عليك أن تهتم بطلب الشخص المجهول كالذي تعرفه وبأمر الانسان البعيد كالقريب ، فذلك يعلى مركز الموظف . لا تحتد على شخص بدون حق واطهر أمام الناس بمظهر شريف وقور لتخشاك الخلق ، فالأمير هو الشخص الذي تهابه الناس ، واعلم أن أصدق واجبات الأمراء اتباع العدالة . لا تكثر الاختلاط مع الأهالي لئلا يزوروك فيقولوا عنك ما هو إلا انسان"^(٣) . وجرى العادة أن يكون مرءوسو الوزير قانونيين واليك ترجمة ما قاله أحد الفراعنة لوزيره وقت تعيينه : "ليكن جميع كتابك من رجال القضاء حتى يقول الناس عنهم أنهم "كتاب عادلون"^(٤) . ويستتج ضمنا من شدة حرص الحكام على العدالة وكثرة تكرارها على المقابر أن الرشوة كانت كثيرة الانتشار بين صغار الموظفين حتى تطلبت اتخاذ الوسائل الفعالة . ويمتاز وزراء الأسرة الثانية عشرة بتهافتهم على العمل بالجد والأمانة مفتخرين بذلك حتى تركوا على جدر قبورهم قوائم من النقوش عديدة محفورة وملونة ذكروا فيها الرتب والوظائف التي قلدها في دنياهم ذاكرين بأنهم قاموا بواجبهم خير قيام ، وعلى جدر مقابر طيبة كثير من هذه النقوش الجميلة استنتجنا منها ما أوردناه من البيانات الخاصة بمهام الوزير وعظم ساطته في الدولة^(٥) .

بهذه الطريقة كانت الأعمال تدار في حكومة الامبراطورية المصرية . أما المعيشة والأحوال الاجتماعية فقد تغيرتا كثيرا عما كانتا عليه سابقا لأن حكام الأقسام الذين كانوا ينتخبون من الأعيان وأقارب الأعيان أصبحوا الآن يعينون من موظفي الحكومة بلا مراعاة لحسبهم ، وبذلك اتسع نطاق الترقى أمام طبقة الأهالي الوسطى وصار لهذا التغير تأثير تدريجي في نفوس القوم ، واليك ترجمة ما أوردته أحد صغار الموظفين : "سيكون ارتقاءى هذا في أشغال الحكومة موضوع كلامكم ومحور محادثاتكم فيحكىها الهرم للصغير . لقد كنت فقيرا وضيعا ونشأت في قرية حقيرة فשמلتني رعاية سيد القطرين (أى فرعون) فصرت محبوبا عنده ممدوحا لديه كلما تجلى للناس بأهته وجماله كالعبود الشمسى . لقد رقتى جلالته على أصدقائه الملكيين وقدمنى بين أمراء القصر الملكى

(١) Pap. Anast. II, 6, 5-6. (٢) ٦٦٦: ٢ (٣) ٦٦٨: ٢-٩ (٤) ٦٧٠: ٢ (٥) ٦٦٥: ٢-٦٦١

وتدبني للأشغال العمومية على حدائثه سنى وكان معجبا بى وبأشغالى ثم عيني فى مصنع الذهب للأشراف على صناعة صور وتمائيل الآلهة الذهبية^(١). وروى هذا الموظف أيضا أنه قام بوظيفته الحديثة خير قيام فبال استحسان الملك فكافأه بجلالته بالذهب علنا وعينه عضوا فى مجلس المالية . من ذلك يتضح لنا تسهيله سبيل الرقى للعمال والموظفين فقد دللنا هذه القصة أن هذا الشخص بدأ بأعماله وهو موظف صغير مجهول . وطائفة الموظفين لا بد أنها كانت مقسمة وقتئذ الى قسمين : صفار الموظفين المتخبين عادة من الطبقة الوسطى وكبار الموظفين المتخبين من الأسر العريقة . ثم التحمت طائفة الموظفين الكبار تدريجيا مع حاشية الملك التى كان أفرادها يديرون مصالح الحكومة المركزية ويقودون قوات الفراعنة فى الحروب فأصبح أعيان البلاد كبار موظفى الحكومة . أما طائفة التجار^(٢) والصناع والفنيين التى كانت موجودة منذ العصور القديمة فقد اعتبرت مكحلة ومتبعة لفريق صفار الموظفين الحكوميين . بلى ذلك طائفة المزارعين الذين يحرثون الأرض ويستخرجون خيراتها وهؤلاء كانوا عبيد الفراعنة . أما هؤلاء المزارعون فكان سواد الأمة الأعظم حتى أن الكاتب الاسرائيلى الذى تكلم عن القطر المصرى وقتئذ لم يذكر فى أهالى مصر سوى العمال والكهنة^(٣) . ولم تترك لنا طائفة العمال إلا آثارا يسيرة ، أما طبقة الموظفين فكانت مثرية يانعة كثيرة الآثار وقد وصل الينا جزء كبير من آثارها ومنه استتجنا معظم معلوماتنا عن تلك العصور . قال أحد الإحصائيين الذين عاشوا أيام الأسرة الثانية عشرة : ” كان أهالى القطر المصرى وقتئذ مقسمين الى أربع طبقات الجنود والكهنة وعبيد الملك والصناع ”^(٤) وهو قول ينطبق تماما على ما جاء بالآثار لآن . ولنعلم أن طائفة الجنود وإن كانت تشمل أفراد الطبقة الوسطى الأحرار معتبرة من الطبقات الراقية . ومع أن لقب ” أبناء الوطن الحربين ” كان كثيرا ما يطلق على الجنود المصرية فى عهد المملكة الوسطى^(٥) فإن استعماله أصبح الآن شائعا فى عهد الامبراطورية ومقرونا بشيء من الرفعة والشرف ، ثم أخذت منزلة الجندى تعظم تدريجيا بتوالى الفراعنة حتى أصبح الجندى الشخص الوحيد الذى يتكلم عليه فرعون مصر فى إنجاز أوامره على عكس ما كان قديما بالمره . وللاحظ أن الرقى فى ذلك العهد لم يكن مقصورا على الجنود والصناع بل شمل أيضا طائفة الكهنة لأن زيادة إيرادات المعابد أيام الامبراطورية جعلت للوظائف الدينية مقاما واعتبارا فأصبح لا يعين فيها الا الأكفاء بعد ما كانت هذه المراكز مقصورة على العمال والفعلة المؤقتين أيام المملكتين القديمة والوسطى . وبمرور الزمن ازداد عدد نفوذ الكهنة تدريجيا فازداد نفوذهم فى سياسة الدولة . ثم ان زيادة ثروة المعابد تطلبت جيشا جرارا من الموظفين للقيام بأعمالها من مختلف الحرف التى لم تكن معهوده فى العصور السالفة . ولا يبعد أن يكون ربع الأشخاص المدفونين جهة العرابية من كهنة ذلك العصر . وصارت طائفة الكهنة مشهورة عند الناس بعد ما كانت قليلة الاتصال والارتباط بالأهالى ، واعترفت الحكومة رسميا بأفراد هذه الطائفة التى شملت وقتئذ موظفى اللاهوت جميعهم فى سائر جهات القطر كافة . بعد ذلك عين لرياسة هذه الطائفة ” رئيس كهنة آمون ” المعتبر رسميا رئيسا لمعبد طيبة الحكومى ، وبهذه الطريقة فاق كبير

٢٧٤ : ٣ (٢)

Unpublished stela in Leyden (V, I), by courtesy of the curator. (١)

(٣) سفر التكوين ، اصحاح ٤٧ ، سطر ٢١ (٤) ٣ : صحيفة ١٦٥ ملاحظة (١) (٥) ٦٨١ : ١

كهنة آمون رئيس كهنة عين شمس ومنف وتساوت منزلة طائفة الكهنة الاجتماعية بطائفة الجنود وموظفي الحكومة . ويلاحظ أن هذه الطوائف كانت تحت إشراف أمراء معينين من قبل الملك غير الحكام (الأرستقراطيين) السابقين . أما صغار موظفي هذه الطوائف فقد قلنا فيما سبق أنهم تساوا مع طبقة التجار والصناع . أما الفلاح الذي يرجع إليه الفضل الأكبر في زيادة ثروة البلاد وفرة خيراتها فكان أقل من هؤلاء الأقوام منزلة واعتبارا .

وقد اتسعت مالية المعابد فكثرت عدد الكهنة الذين كُونوا الآن طائفة راقية ممثلين لديانة القطر الرسمية ، والحق يقال أن المصريين لم يعهدوا من قبل مثل هذا التقدم الديني العظيم . والسبب في ذلك أن أيام البساطة القديمة زالت وحل محلها البذخ لأن الغنائم الكبيرة التي استولى عليها الفراعنة في البلاد الأجنبية وزعت على المعابد بكثرة غير مسبوقه ، فأخذت المعابد تكبر وتشمخ حتى شاكلت القصور وأخذ رئيسها يعلو ويعظم حتى شابه الأمراء الأقوياء ذوي النفوذ السياسي العظيم . وقد لقبت زوجة رئيس كهنة طيبة "بمحظية المعبود الكبيرة" وبالزوجة المقدسة فتساوت بذلك مع الملكة في الرفعة والمقام ، وبقيت هذه الزوجة تقود النساء مدة طويلة في ترتيل الأناشيد وقت عبادتهن ، والعبادات وقتئذ كثر عددهن كما كان في الأزمنة السابقة . وجرى العادة أن الحكومة قررت لزوجة رئيس كهنة آمون مرتبا عظيما من ميزانية المعابد ، ولما عظم مركز هذه السيدة استصوب الفراعنة أن تعين زوجاتهم في هذا المنصب ليتمكنوا بذلك من الاستيلاء على هذا الإيراد الوافر .

ولا يخفى أن نجاح الأسرة الطيبة في الاستيلاء على الملك رفع كثيرا من منزلة آمون إله طيبة في البلاد حتى أصبح آمون إله الملكة المصرية الرسمي ، وقد كان في عهد الملكة الوسطى في المرتبة الثانية لما شبه بالمعبود الشمسي ولقب آمون رع — أي آمون الشمسي . أما الآن فقد فاق آمون سائر المعبودات مقاما ونسبت إليه بعض صفات من معبود فقط ، ثم علت منزلته رفعة وسموا بدرجة منقطعة النظير فإذا أراد العامة أن يفعلوا شيئا قالوا "إذا أطال أجلنا آمون" بجاء قولهم هذا مشابها لقول المسلم "إن شاء الله" . وقد لقب المصريون آمون "بوزير الفقراء" وتضرعوا إلى تمثاله ليفرج عنهم همهم ويقضى حوائجهم ويحسن معيشتهم ويوسع رزقهم . ولم يكن اجتماع صفات المعبودات الأخرى في آمون بالفريدة من نوعها في الديانة المصرية ، لأن المصريين اعتقدوا أن كل إله يمكنه أن يتصف بصفات الآلهة الأخرى وأن يقوم بأعمالهم ، فقد كانت منزلة المعبود الشمسي عظيمة في البلاد .

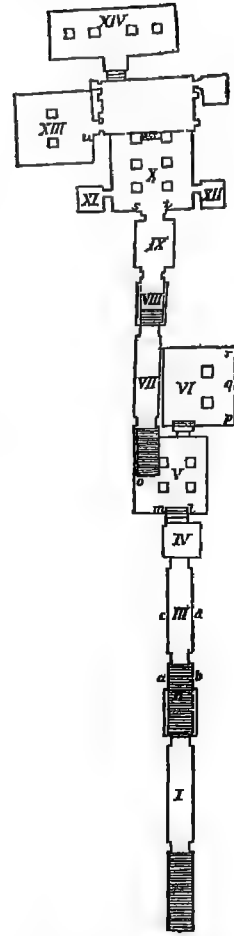
واعترى الديانة في عهد الامبراطورية تغيير وتبدل خصوصا فيما يتعلق بأمور الموتى ، ويرجع تاريخ هذا التغيير في الحقيقة إلى زمن الملكة الوسطى . فمن هذا التبدل أن التعاويذ والدعوات التي استعملها الأموات لتجارتهم في الآخرة زاد عددها وكتبت في أدراج بردية بعد ما كانت تنقش داخل التوابيت . ومال القوم تدريجيا إلى بعض التعاويذ والتوسلات دون بعض فأكثرُوا من استعمالها وصارت هذه فيما بعد نواة "كتاب الموتى" . وساد الاعتقاد الأعمى في شدة مفعول السحر وتوهم القوم وجود السحر في التعاويذ السالفة حتى اعتقدوا أنها تكفي لأن تجلب لليت كل ما يحتاج إليه

ويشتهر . ولما ترهف القوم ولم يرق في نظرهم ما تخيلوه من أعمال الموتى من حرث وضم وحصد حقول "يارو" الأخرية وضعوا تماثيل صغيرة حاملة أدوات الشغل اللازمة منقوش عليها تعاويذ سحرية معتقدين أنها ستجدي في الآخرة وتؤدي جميع أعمال الميت هناك كلما طلب منه ذلك . أما هذه التماثيل فكانت تعرف باسم "أوشبتي" وهي كلمة مشتقة من فعل "أوشب" — أى أجاب — فهي لذلك مجيبات عن الميت في أخراه ، ووضع القوم العشرات والمئات من هذه التماثيل في قبور موتاهم لهذا الغرض . بعد ذلك توجه القوم طرقا للنجاة من العقاب الأخرى لأجل آثامهم وذنوبهم الدنيوية فكتبوا أحد التعاويذ أسفل جعل حجرى وضعوه تحت طيات لفائف الجلفة المحنطة فوق التدى ظانين أن هذا كاف لإسكات كل صوت مذب خارج من القلب أمام أزوريس فلا يعرف هذا المعبود ذنوب المتوفى ، واليك ترجمة هذه التعويذة : "أى قلبى ! لا تكن شاهدا ضدى" . وأخذ الكهنة يبيعون للقوم أدراجا بردية مكتوب عليها تعاويذ من كتاب الموتى وعدة مناظر أخرى وخصوصا المتعلق منها بالبراءة مخبرين العامة أن هذا الدرج يضمن لمن يحصل عليه حكم البراءة في الآخرة . وكان الكتبة يتركون محلا خاليا وسط نصوص ذلك الدرج لكتابة اسم المشتري فيه ، ومنه يتضح أن هؤلاء الكتاب كانوا يكتبون تلك الأدراج قبل معرفة أصحابها .

وبدئى أن هذه العقائد سببت انحطاطا عظيما في الأخلاق الدينية ، لأن الآراء والتخيلات الشريفة التي أدمجت في الديانة المصرية تسمعت وانحط قدرها . والسبب في ذلك أن الكهنة سهلوا لأى إنسان مهما عظمت آثامه وكبرت جرائمه أن يحصل على حكم البراءة في الآخرة وذلك باقتناء الأدراج البردية المذكورة ، ولذلك انعدم الرادع النفساني وزاد الكسب الكهنوتي من هذه التجارة . ثم تفنن الكهنة في سلب ألباب العامة فوضعوا كتابا سموه "كتاب الدار السفلى" ذكروا فيه أوصاف الكهوف الاثني عشر الخاصة بساعات الليل والتي تمر عليها الشمس في سياحتها الليلية . ثم وضعوا كتابا آخر لقبوه "بكتاب الأبواب" شرحوا فيه الأبواب والحصون الموصلة لتلك الكهوف بعضها ببعض . لكن هذين الكتابين لم يبلغا متلة "كتاب الموتى" ومع ذلك فقد حاز الأول بعض الاحترام والتبجيل فنقشت نصوصه على مقابر ملوك الأسرة التاسعة عشرة والاسرة العشرين بطييه ، ومنه استدل أن تخيلات الكهنة وخرافاتهم صادفت هوى في نفوس الفراعنة فنقشوها على جدر مقابرهم وفضلوها على سواها .

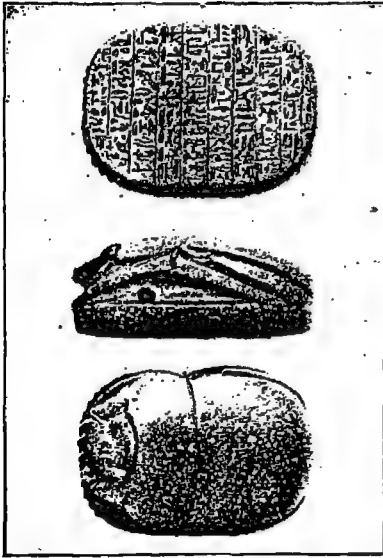
ونحت الأمراء مقابرهم في صخور الجبال وزانوا جدرانها بالنقوش الجميلة الدينية الخاصة بالآخرة وبالنصوص الموتية ذات الصبغة السحرية ، وأضحت المقبرة أثرا خالدا لصاحبها نقش فيها ترجمة حياته وخدماته الحكومية وأوضح بها الإنعام الذي أسبغه عليه مليكه ، ولذلك كانت مقابر الأمراء بصخور طييه (شكل ١٣١ وشكل ١٦٦) مرجعا قويا لأخبار تلك العصور وأحوال معيشتها . وهناك واد جبلى خلف تلك المقابر (شكل ١٠٨) اتخذها الملوك جبانة لهم نحتوا في صخوره قبورهم مفضلين هذه الطريقة على الأهرام . وهذه المقابر الملكية تشتمل على عدة سرايب وقاعات واسعة منحوتة في الصخور متصل بعضها ببعض ومنتهية بحجرة كبيرة بها تابوت الملك العظيم . ويبلغ طول المقبرة أحيانا من أولها الى آخرها بضع مئات من الأقدام (شكل ١٠٩ وشكل ١١٠) . ويظن أن عمارة

هذه المقابر تماثل عمارة الكهوف التي تخيلها قدماء المصريين تخترقها الشمس في رحلتها الليلية في العالم السفلي. وبالجبهة الشرقية لهذه القبور غربى طيبة معابد شيدتها هؤلاء الملوك العظام شبيهة بالمعابد التي شيدت شرق الأهرام في الأزمنة السابقة ، وسيأتى الكلام على هذه المعابد فيما بعد. ولم تقتصر هذه الترتيبات على مقابر الملوك والأمراء بل شملت أيضا غيرها للطوائف الأخرى ، ولذلك أضحت المقابر موضع عناية القوم فكثرت عمالها وعم شغلها وتخصصت لذلك طوائف عدة منها المحنطون وصانعو التوابيت وأثاث القبر ، واتخذ هؤلاء الصناعات حيا خاصا لهم بطيبة كما حصل ذلك في العهد اليونانى . ثم عملت أهالى الطبقة الوسطى مقابر لها كالمذكورة آنفا إلا أنها أقل عناية وقيمة . أما الفقراء فكانوا يخرجون لموتاهم محلات في مقابر عمومية يدفنونهم بها تحت اشراف كهنة عموميين معينين من قبل الحكومة لتلاوة الدعوات والصلوات عليهم ، وبهذه الطريقة تكسدت الموميات بتلك المقابر . ودفن الفقراء المعوزون موتاهم في الرمل على حافة وادى النيل كما فعل أجدادهم من قبل ، ودفنوا أحيانا تماثيل صغيرة وحقيقية منقوش عليها اسمائهم بجوار مقابر الوجهاء طنا منهم بأن هذه التماثيل ربما يحسن عليها ببعض الهدايا والقربان التي تقدم للأمراء فتعيش جثثهم بذلك مستريحة منعمة .



شكل ١٠٩ - رسم تخطيطى لمقبرة سبتى الأول بوادى طيبة . الأبنية المظلمة تشير الى درجات السلم والأجزاء المظلمة بالارقام من ١ الى ٤ ومن ٧ الى ٩ عبارة عن أروقة . أما الأماكن الأخرى فمساحات ذات عمد . وقد عثر على تابوت عظيم لهذا الملك فى الساحة رقم ١٠ ثم نقل بهد ذلك الى بلاد الانجليز وهو متحف السير جون سون بلندره

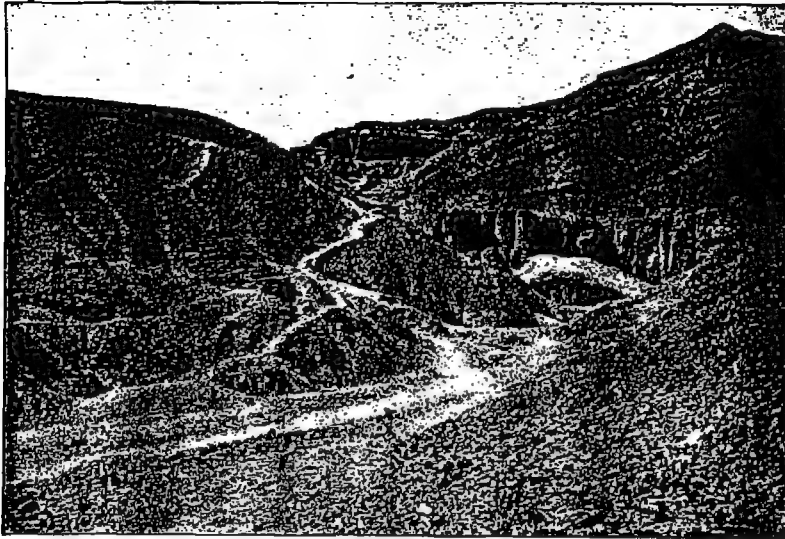
هكذا تيقظت مصر من نومها تحت ادارة أحممس الأول بعدما حكمها الهيكسوس السنين الطوال واتبعوا معها سياسة الغصب والارهاب واحتقار الأديان والعادات . وقد بدأ أحممس بقطع الأحجار من محاجر طره ومن المحاجر التي قطعت منها أحجار أهرام الجيزة العظيمة واستعمل ذلك فى تشييد معابد طيبة ومنف وغيرها (١) ، وقد استخدم لذلك الثيران التي استولى عليها من السوريين فى آسيا ، لكن جميع أبنية هذا الملك تلفت وانعدمت . وقد أهدى هذا الملك معبد الكرنك عدة أدوات معدنية ثمينة وبديعة وبنى سفينة جديدة من خشب الأرز الذى استولى عليه من أمراء لبنان لتكون وسيلة لعبور النيل (٢) .



شكل ١٠٧ — تمثال لبحران وجد فوق قلب
إسمعيل رئيسة سيدات آمون المقدسة
(دار بحف شيكاغو)



شكل ١٠٦ — تماثيل صغيرة للاجابة عن الميت في الآخرة
يقال لها باللسان القديم "أوشيتي" وهذه تقوم
بالخدمة التي يطلب من صاحبها القيام بها وقتئذ
(دار بحف القنون ابليلة بشيكاغو)



شكل ١٠٨ — منظر لجهة من وادي مقابر الملوك بطيبة .
يشاهد في الجهة اليمنى من منتصف الصورة مدخلان لمقبرتين



شكل ١٦٥ - صحن ساحة الكرنك العظمى . ويقع نهر النيل في هذه الصورة خلف الساحة . وترى الصخور الغريبة لوادى النيل من مدخل الكرنك (راجع خريطة رقم ١١)

وتلاحظ مآثر هذا الملك في جميع أعمال ملوك الأسرة الثامنة عشرة فالله يرجع الشرف في تأسيس هذه الأسرة بطريقة متينة. ومع أنه حكم حوالي اثنين وعشرين سنة فقد توفى غالبا شابا (حوالي سنة ١٥٥٧ قبل الميلاد) وبقيت أمه على قيد الحياة الى السنة العاشرة من حكم ابنه وولى عهده أمنحتب الأول^(١) ودفن في قبر بجوار ابنه^(٢) بيجانة الأسرة الحادية عشرة الملكية بالجزء الشمالى لسهل طيبة وقد محيت آثار هذا القبر منذ مدة طويلة . وعثر ماريت على حللى أم أحعمس المذكور ويظهر أن اللصوص سرقوها فى العصور الغابرة عن طريق مقبرة قريبة (شكل ١٠٣) . وتوجد الآن مومياء أحعمس الأول وحليه بدار المتحف بالقاهرة .

Masp. Mém. roy.. 634. (٢)

(١) ٤٩ : ٢ — ٥١

الفصل الرابع عشر

توطيد أركان المملكة ، سطوع شمس الامبراطورية

لم يحن الوقت للملك الامبراطورية أن يقوموا بأعمالهم العظيمة الخارجية لأن وادى النيل من الشلال الثانى الى البحر الأبيض المتوسط لم يكن ثابت الادارة والنظام ، والصناعة ، فلم يتمكن ملوكه من التطلع الى ما وراء حدود مملكتهم . وللاحظ أن انفصال النوبة عن مصر مضى عليه مدة طويلة ، وأن وجود الثوار جنوبي القطر جاء بمثابة عقبة كأداء أمام تقدم النفوذ المصرى فى السودان ، فقبائل الأعنء التى سكنت جنوبي القطر أصبحت الآن تحت رياسة ملك منها ، ولذلك وجد أحعمس الأول نفسه أمام قوة معارضة منظمة لايسهل إخضاعها بغزوة واحدة كما حصل فى عهد الرومان . وترجع صعوبة إخضاع الأعنء الى سهولة انسحابهم الى داخل الصحراء الشرقية كلما وجه نحوهم أحعمس الأول قوة مصرية ثم الى رجوعهم ثانية لمناوئته ومشاكسته اذا آبت القوات المصرية الى وطنها . لذلك اضطر أمئئب الأول بن أحعمس الأول أن يغزو النوبة فوصل الى حد المملكة الوسطى بجهة الشلال الثانى^(١) حيث شيد الفراعنة المسمون باسمى أمئئجعت وسيزوستريس معابد وهياكل أتلفها الأعنء بعدهم وتركوها فى حالة خراب ودمار . وكان فى معبة أمئئب الأول وقتئذ قائدان عظيمان يعرفان باسم أحعمس صحباه فى معظم أعماله وفتوحاته النوبية ، وقد قال أحدهما المدعو أحعمس بن إباناء : "لقد أسرجلالة الملك رئيس الأعنء وسط جنده بالنوبة"^(٢) ، فاستنتجنا من ذلك أن الملك سحق الأعنء وكسر شوكتهم وقتئذ . واشتهر هذان القائدان فى الحروب فأسرا عددا كبيرا وأظهرا شجاعة وإقداما كافأهما الملك عليهما جزيل^(٣) . وصار قسم النوبة الشمالى من ذلك الوقت تحت إشراف حاكم مدينة الكاب التى أصبحت فى الوقت نفسه الحد الشمالى لذلك الاقليم الممتد من الكاب شمالا الى الواوات جنوبا ، ومن ثم صار حاكم هذا الاقليم يسافر شمالا كل سنة حاملا جزية الجهات التى تتبعه ليقدمها لخزينة الملك بطيبة^(٤) .

ولما بلغ أمئئب الأول اقليم الشلال الثانى اعترى مملكته خطر عظيم فى جهتها الشمالية (غربى الدلتا) فاضطر الى الرجوع مسرعا ، وقد قال أحعمس بن إباناء مفتخرا انه تمكن بمهارته وذكائه من ترحيل جلالة الملك فى سفينة من الشلال الثانى الى القطر المصرى فى يومين (وهذه مسافة تبلغ مائتى ميل تقريبا)^(٥) . والظاهر أن الليبيين اغتنموا فرصة وجود الهيكسوس بمصر فنظموا أنفسهم ودبروا شؤونهم كعادتهم طمعا فى غزو الدلتا ، ولكن أحعمس بن إباناء (عمدتنا الوحيد فى هذا التاريخ) لم يذكر لنا موضع الخطر ومع هذا فلا يمكن أن يكون إلا من جهة ليبيا . ويبدو أنه لما قوى ساعد الليبيين لم يجد أمئئب الأول وسيلة للتخلص منهم إلا سحقهم وغزو بلادهم ، لكننا لم نعلم عن

(١) ٢ : ٢٨-٢٩ (٢) ٣٩ : ٢ (٣) ٤١٣٩ : ٢ (٤) ٤٨-٤٧ : ٢ (٥) ٢ : ٢٩-٢٨

أمر المعارك التي حصلت وقتئذ سوى ما أخبرنا به أحمس بن نخبت من أنه قتل ثلاثة أعداء وقطع أيدي كثيرين من الأسرى وأن جلالة الملك كافأه طبعاً على ذلك جزيلاً^(١). ولما زال الخطر عن حدود مصر وانضمت النوبة إليها وجه أمنتحتب الأول همه نحو غزو الشام. ومن دواعي الأسف أنه لم يصل إلينا أخبار عن تلك الغزوات الأسبوية ولكن يظهر أن الجيوش المصرية وصلت وقتئذ إلى نهر الفرات^(٢)، لأن الملك الذي أعقب أمنتحتب الأول في الملك افتخر في أوائل حكمه بأن مملكته امتدت إلى الفرات مع أنه لم يكن قد قام فيها بحركة حربية وقتئذ. وسواء أكانت التروة العظيمة التي أصبحت في أيدي هذا الملك نتيجة هذه الغزوة أم أتت إليه من جهة أخرى فقد شيد مباني عظيمة بطيبة، منها المعبد الخاص بقبره^(٣) والمعبد الجميل الذي أقامه عند مدخل الكرك والذى أتلّفه تحوتمس الثالث بعد ذلك^(٤). وقد قال المهندس الذي شيد هذه المباني (التي تلفت كلها الآن) إن الملك أمنتحتب الأول توفي بطيبة بعد أن حكم عشر سنوات على الأقل^(٥).

ولم ثبت لنا إلى الآن إذا كان أمنتحتب الأول ترك ولداً وارثاً، أما الثابت أن الذي خلفه هو تحوتمس الأول ابن امرأة صلّتها بالأسرة المالكة غير جلية. وكان وصول تحوتمس الأول إلى عرش مصر عن طريق اقترانه بأميرة مصرية تدعى أحموس، وبهذه الوسيلة أعلن نفسه ملكاً على مصر بمجرد وفاة أمنتحتب الأول وذلك في شهر نيار سنة ١٥٤٠ قبل الميلاد أو سنة ١٥٣٥ قبل الميلاد. وكان لإعلان توليته الحكم بالنوبة شأن كبير فنقش موظفو الحكومة هذا الخبر على الأحجار جهة وادي حلفا وكوبان وغيرهما^(٦) والموظف الذي قام بهذا العمل كان من أصحاب تحوتمس المذكور لأن الملك رقاها إلى وظيفة جديدة مهمة بعد اعتلائه العرش. ولما تعذر على حاكم الكاب حكم النوبة وجمع جزيتها لكثرة ما تطلبه ذلك الإقليم من العناية عين الملك حاكماً عاماً عليه أشبه بمندوب سام لقبه "حاكم البلاد الجنوبية وابن الملك المعين على كوش" مع أنه لم يكن دائماً من أبناء الملك ولا متمنياً إلى الأسرة المالكة، ووجرت العادة أن يعمل احتفال بهذا التعيين يحضره الملك ويقدم فيه أحد موظفي المالية ختم الحكومة للمندوب السامي قائلاً: "هذا ختم فرعون الذي ولاك حاكماً على القطر الذي بين مدينتي الكاب ونبتة"^(٧) ومعنى ذلك أن سلطة حاكم النوبة بلغت الشلال الرابع. ومعروف أن ما بين الشلالين الثاني والرابع هو المسمى على الآنار بلاد كوش، وهذه البلاد لم تكن محكومة وقتئذ بحكومة أهلية أو إدارة ملكية منظمة، لكنها كانت تحت سلطة رؤساء قبائلها كل رئيس يسيطر على قبيلته. ولم يكن سهلاً إخضاع هؤلاء الرؤساء سريعاً إذ تطلب هذا الأمر من المصريين حوالى مائتي سنة، ومع ذلك فقد ورد وقتئذ على الآنار ذكر لوجود رؤساء قبائل كوش ورئيس الواوات جهة إبريم^(٨) وقد سمح المصريون لرؤساء تلك القبائل بالاحتفاظ الاسمي بمركزهم الإداري لكنهم لم يستمروا مدة طويلة بل استعاض عنهم ضباط إداريون مصريون بالتدريج. ولم يكن النصف الجنوبي لإقليم السودان المصري أيام تحوتمس الأول ساكناً هادئاً بل كان مضطرباً للآمن والسلام، ولذلك كانت الصعوبات التي صادفها تحورع — وهو أول مندوب سام فيها — عظيمة وشاقة للغاية. وكانت أيام تحورع كلها تعباً وعناء، والسبب في ذلك

(١) ٣ : ٤٢ و ٢٢ (٢) ٧٣ : ٤ (٣) ٥١٣ : ٤ وملاحظات (٤) مجلة المعهد العلمي المصري - مجموعة السلسلة الرابعة - العدد الثالث صحيفة ١٦٤ - ٥ (٥) ٣ : ٤٥ - ٦ (٦) ٣ : ٥٤ - ٦ (٧) ٣ : ٢٥ - ١٠٢٠ (٨) ٢ : ١٠٣٧

أن النوبة كانت وقتئذ عرضة لغارات قبائل البدو للجهات الجبلية المجاورة على مدن وادي النيل^(١) وهذه الغارات كانت عقبة كئودا في طريق استتباب الأمن وبسط السلطة المصرية على تلك الجهات . ولما رأى تحوتمس الأول أن تحورع عجز عن معالجة تلك الحالة المستعصية ذهب هو نفسه هناك في أوائل السنة الثانية من حكمه ليضع حدا لتلك الاضطرابات فوصل الى الشلال الأول في شهر فبراير أو مارس وهناك وجده الطريق المأثى مسدودا بالصخور^(٢) كما كان منذ حكم الهيكسوس ، فلم يصرف وقتا طويلا في فتحه بل صمم على السلوك من طريق آخر بمساعدة الأميرال أحعمس بن إيانا الذي قاد سفينة جلالة بحكمة وروية وقت عبورها ذلك المضيق الخطير وقد كافأه الملك على هذا العمل بسجاء^(٣) . ووصل الملك ناحية تانجور في أوائل أبريل على بعد خمسة وسبعين ميلا من الشلال الثاني^(٤) وقد وصف لنا أحعمس بن إيانا المعركة التي دارت رحاها فيما بين الشلالين الثاني والثالث فقال : " إن فرعون مصر حارب هو نفسه رئيس النوبيين فسدد أول سهامه نحو هذا الرئيس فأصابه وألقاه على الأرض صريعا . بعد ذلك هزم الجيش النوبى تماما وأسر منه الكثير"^(٥) . وروى القائد المصرى الآخر المدعو أحعمس بن نخبت أنه أسر من الأعداء ما لا يقل عن خمسة^(٦) ثم هبط منسوب النيل فاضطر الى الزحف في معظم الحالات برا ومع ذلك فقد سار الملك حتى أدرك الشلال الثالث وكان أول الفراعنة الذين دخلوا ذلك المكان المعبر مدخل إقليم دقله الملقب بمجنة أعالي النيل . ولا يخفى أن هذا الإقليم خصب للغاية وفيه يجرى النيل لمسافة مائتى ميل حتى الشلال الرابع بلا عائق في سيره . ونصب الملك بتلك الجهات خمسة أحجار أثرية وصف عليها غزواته وانتصاراته كما سيد على جزيرة تومبوس قلعة لا تزال آثارها باقية الى الآن وعين فيها حامية من الجيوش الغازية^(٧) . وفي شهر أغسطس من السنة نفسها (أى بعد مرور خمسة أشهر من وصول الملك الى تانجور) بلغ تحوتمس الأول تومبوس ونصب فيها لوحا حجرياً^(٨) افتخرفه بأنه الملك المهيمن على الأقاليم الشاسعة المبتدئة من تومبوس جنوبا والمنتحية بوادى الفرات شمالا ، ولكن يلاحظ أن الملك لم يقيم بغزوات أسبوية تؤيد هذا الادعاء . ووصل الى الشلال الأول بعد مضي سبعة أشهر وكان معلقا جثة الزعيم النوبى المقتول من رجليها بمقدم سفينته^(٩) . ويرجح أن بقاء الملك في رجوعه الى مصر كان بمناسبة قيامه بمشروعات نافعة منظمة بتلك الجهات وقت مروره بها . ولهبوط منسوب مياه النيل في شهر أبريل كان ذلك الوقت أوفق الفرص لفتح مجرى السفن القديم بين صخور الشلال الأول ، فعهد الملك الى والى النوبة تحورع بالقيام بهذه المأمورية . وقد نصب هذا والى هالك ثلاثة أحجار أثرية^(١٠) شرح فيها أعماله ومشروعاته الناجحة ، أقام حجرتين منها في جزيرة السهل وأقام الثالث على شاطئ النيل المقابل ، ثم اخترق الملك ذلك الطريق بسفينته في وسط احتفالات النصر معلقا رئيس النوبة بالكيفية المذكورة حيث بقيت كذلك الى أن وصل الى مدينة طيبة .

وبعد ما أخضع تحوتمس الأول بلاد النوبة تماما وجه همته نحو آسيا للفرص نفسه . وليلاحظ أن غزوات أمنتحتب الأول الأسبوية هي التي جعلت تحوتمس الأول يفتخر ببسط ملكه على البلاد

(١) ٢ : ٨٠ (٢) ٢ : ٧٥ (٣) ٢ : ٨٠ (٤) ٢ : ٢٨ ملاحظة (ب) (٥) ٢ : ٨٠ (٦) ٢ : ٨٤ (٧) ٢ : ٧٢ (٨) ٣ : ٦٧ - ٧٣ (٩) ٢ : ٧٤ - ٧٧ (١٠) شرحه .

الأسبوية حتى نهر الفرات . والمعروف أن جزية تلك البلاد لم ترسل باستمرار بكزية التوبة ومع ذلك فقد كان السلام والسكون والخضوع مخيا على تلك الأقاليم الأسبوية .

وليلاحظ أن جغرافية الأراضى شرق البحر الأبيض المتوسط لا تسمح بجمع كلمة أهلها واتحادهم لتكون وطن واحد منهم ، فالجبال هناك كثيرة وكذا التلال والوديان ، ولذلك تجد تلك الجهات مجزأة جغرافيا الى وحدات عديدة . فعلى طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط يجد الناظر سلسلتين من الجبال يخترقان تلك البلاد ويعرفان بسلسلتى جبال لبنان الغربية والشرقية . أما السلسلة الغربية فتعترج بعض تعرجات ثم تنتهى جنوبا الى تلال مقاطعة يهوذا التى تتدرج الى صحراء سينا جنوبى فلسطين ، وتبتدى من هذه السلسلة جنوبى جهة جزرل (Jezreel) سلسلة جبال أخرى تعرف بجبال كرمل (Carmel) تتجه الى البحر الأبيض المتوسط . أما سلسلة جبال لبنان الشرقية فتتجه جنوبا وشرقا مع بعض اعتراضات فى السير هنا وهناك مارة شرقى البحر الميت ومتصلة هناك بجبال موآب ثم تنتهى جنوبا الى هضبة صحراء شبه جزيرة العرب الرملى . وفى شمالى ما بين سلسلتى جبال لبنان واد خصب يخترقه نهر العاصى أو الأورونط ، وهو السهل المتسع الوحيد فى سوريا وفلسطين لا تتخلله جبال ولا تلال ويمكن أن تنشأ فيه مملكة مستقلة قوية . أما شاطئ البحر الأبيض المتوسط فتعزله عن البلاد الداخلية سلسلة جبال لبنان الغربية وهو لذلك موافق لأن تسكنه أمة بحرية تجارية . أما فلسطين الواقعة جنوبيه فغير صالحة لأن تكون وطنا مستقلا منيعا لعدم وجود موانئ بحرية قوية على شاطئها ولكثرة أراضها المجذبة ، زد على ذلك أنها معترضة بجبال كرمل وبوادرى نهر الأردن والبحر الميت . وبشرق فلسطين سلسلة جبال تنتهى بالصحراء العربية الكبرى الا فى جهتها الشمالية حيث تتصل بوادرى نهر الأورونط وذلك قرب اتصال هذا النهر بنهر الفرات . فى هذا المكان يجد القارئ أن النهرين يقتربان بعضهما من بعض ثم يتبعدان فيتجه نهر العاصى شمالا نحو البحر الأبيض المتوسط وينحدر الفرات جنوبا نحو بابل وخليج فارس (خريطة ٧) .

وسكان هذه البلاد الأسبوية ساميون لا يبعد أن يكونوا من مهاجرى صحراء العرب ، والمعروف أن مثل هذه الهجرة تكررت كثيرا فى العصور التاريخية ، ويقال هؤلاء القوم الحاليين بالجهات الشمالية العراميون وبالجهات الجنوبية الكنعانيون . ولم يبد هؤلاء القوم اهتماما ولا كفاية للحكم كما أنه لم يكن لديهم أقل دافع نحو الاتحاد والتضامن . ويلاحظ أن انقسام تلك البلاد الى عدة أجزاء بالجبال والتلال صعب على الأهالى التعامل وجمع الكلمة فنشأ فى كل قسم إمارة صغيرة مستقلة يحكمها أمير وهى تشمل مدينة كبيرة (مقر الحكم) وما يحيط بها من الحقول والقرى الصغيرة . ولم تستقل الامارات بعضها عن بعض فى الحكم فقط بل فى الديانات أيضا ، فكان لكل إمارة معبود خاص يقال له "بعل" -- ومعناه السيد -- نسب له فى أغلب الأحيان زوجة أو "بعلة" ويشاهد ذلك بوضوح فى جيل بيلوس . واعتيد بين هذه الامارات الشقاق والتزاع طمعا فى نهب الأمتعة وضم

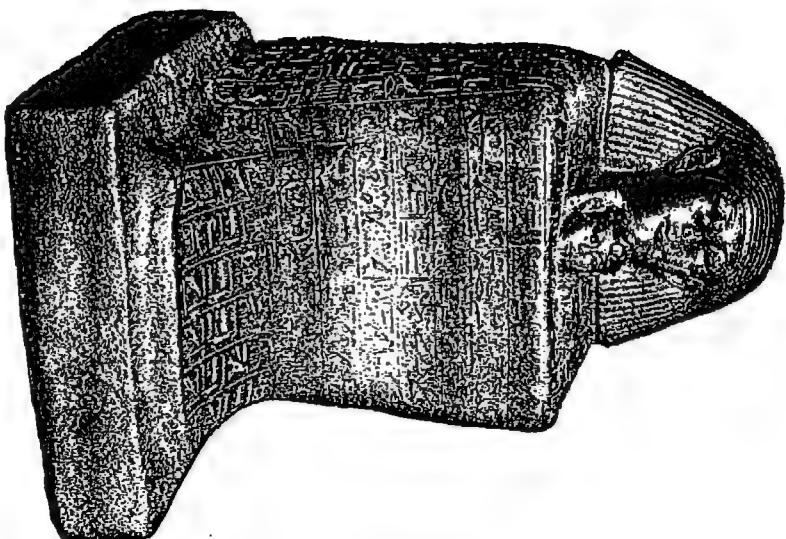
الأراضي إليها . وأهم هذه الامارات كَدِشْ نواة مملكة الهيكسوس على نهر الأورونط ، ولهذا الموقع ميزة جغرافية عظيمة ساعدت كدش على بسط نفوذها بسهولة على البلاد المجاورة له ، والسبب في ذلك اشرافها على الطريق الشمالى الموصل الى داخلية سوريا وعلى الطريق التجارى الموصل الى مصر والبلاد الجنوبية الذى يتفرع منه طريق آخر الى نهر الفرات ثم الى بابل . ولقرب كدش من النهاية الشمالية لسلسلى جبال لبنان تمكنت هذه الامارة من الاشراف أيضا على الطريق الموصل داخلية سوريا بالبحر الأبيض المتوسط والمتبع سير النهر الكبير (Eleutheros) (راجع خريطة رقم ٧ وكتاب المؤلف عن معركة كدش) . كل هذه الميزات سهلت لكدش اخضاع الامارات الآسيوية وضئها تحت سلطتها ، وبهذه الطريقة نشأت مملكة الهيكسوس التى ألمعنا اليها سابقا^(١) ، وسنرى فيما بعد أن هذه الامارات زادت عن حوزها مدة تقرب من الجليلين الى أن سحقها تحوتمس الثالث فى آخر الأمر بيجوشه الجلالة .

نعم ان هذه الامارات لم تكن مباله بطبيعتها الى تحسين أنظمتها الادارية وتوحيد كلمتها ولكنها كانت على جانب عظيم من الحضارة والمدنية فى مسائل أخرى . ودلينا على ذلك مملكة الهيكسوس فقد علمت المصريين الفنون الحربية وصناعة المعادن والأسلحة الراقية والاختار من العجلات وسائر أشكال الأواني المعدنية . ولشدة البرد فى تلك الجهات برع أهلها فى نسج الملابس الصوفية وصنعها وعمل المهلهل منها بشكل بديع وبأثمان باهظة . واشتهر هؤلاء الساميون بكثرة تجارتهم مع البلاد الأجنبية ، وكان لكل بلد من بلدانهم سوق كالموجود الآن . وهاجر بعض الأهالى من داخلية البلاد الى شاطئ البحر الأبيض المتوسط وأسسوا هناك مملكة فينيقيا ، وابتدأوا صيادين بحريين ثم ارتقوا فصاروا تجارا بحريين مهرة ، وأخذت سفنهم تنقل مصنوعاتهم الى جزيرة قبرص حيث استخرج بعضهم معدن النحاس . ثم زحف الفينيقيون على شاطئ آسيا الصغرى فاستولوا على رودس وجزر الأرخبيل اليونانى ، ثم أسسوا محطات تجارية لهم فى كل ميناء تصلح لذلك على ساحل آسيا الصغرى الجنوبي وعلى جزر اليونان وأرض اليونان نفسها . وبهذه الطريقة وزع الفينيقيون مصنوعاتهم على سكان تلك الجهات حتى صار لهذه المصنوعات قيمة تذكر فى الأسواق . وبدى أنه كلما كثرت تجارتهم ازدادت ثروتهم فنشأت بالبلاد مدن غنية عظيمة مثل صور (Tyre) وصيدا (Sidon) وجبيل (Byblös) وأرصاد (Arvad) وبطرون (Simyra) ، وكانت كل مدينة من تلك المدن تحت ادارة أسرة قوية . أما مركز فينيقيا التجارى فقد استمر منذ ظهور الامبراطورية المصرية حتى عهد هومر الذى ذكرهم فى أشعاره الشيقة لأن هؤلاء القوم كانوا وقتئذ مضربا للأمثال . ولم نمتد للآن الى أقصى مكان وصلت اليه تجارة الفينيقيين ولكنه لا يبعد أنهم أسسوا مراكز تجارية جهة قرطاجنة والأندلس . والمعروف عنهم أنهم نشروا "الحضارة اليونانية" فى شمالي البحر الأبيض المتوسط وأنهم كانوا حلقة الاتصال بين الحضارتين المصرية واليونانية . وأطلق المصريون اسم "وَحْفَتِيُو" على اليونانيين الذين كانوا يحضرون الجزية والهدايا لفرعون مصر . ولكثرة التعامل

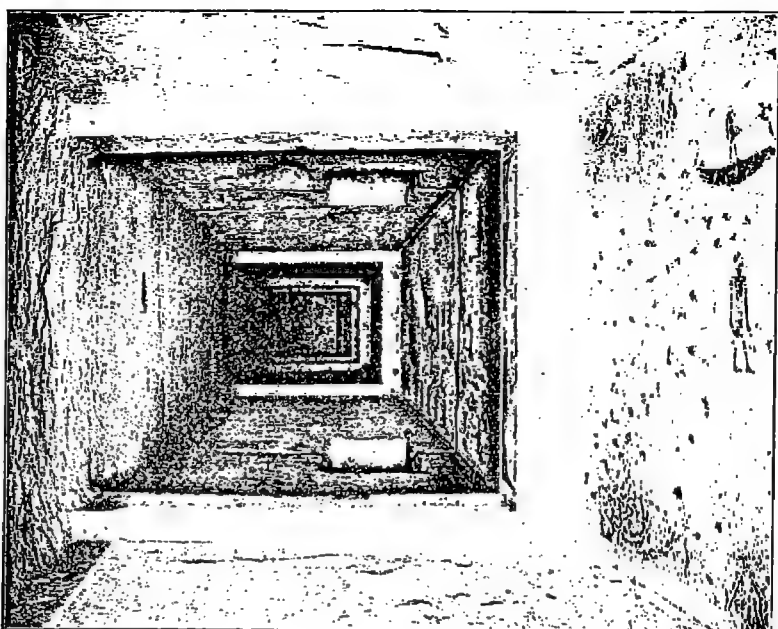
التجارى بين هؤلاء القوم والمصريين بالسفن الفينيقية أطلق المصريون اسم "سفن خفتيو" على سفن فينيقيا^(١). ولم نعرف لآن بالضبط وطن "الخفتيو" ولكن المعروف أنهم كانوا منتشرين فيما بين شاطئ آسيا الصغرى الجنوى شرقا وجزيرة كريت غربا . وقد أطلق المصريون على تلك الأقاليم الشمالية اسم "الجزر البحرية" طنا منهم أن آسيا الصغرى عبارة عن جزر صغيرة مثل الجزر المجاورة وهذا طبعا نتيجة جهلهم بداخلية تلك الجهات . واعتقد المصريون أن نهر الفرات ينبع شمالى سوريا من مستنقعات محاطة "بدائرة المحيط الأعظم"^(٢) الذى هو نهاية أراضى العالم .

وقد استفادت مصر كثيرا من معارف علوم الاقليم المدعو "سوريا - فلسطين" مع أنه كان تحت سيطرتها الفنية والصناعية ، ولكون الحكومة المصرية أرقى نظاما من الامارات الأسبوية كان للملكة النيل هناك هبة واحترام منذ أقدم الأزمنة . زد على ذلك أن وجود القزات المصرية على أبواب آسيا كان كافيا لاختضاع الضعيف من هذه الامارات الأسبوية . والمعروف أن أهالى هذه البلاد السامية الغربية لم يتفردوا بفن أو صناعة، لكنهم برعوا مع ذلك فى تقليد مصنوعات غيرهم وعدلوا بشكل يلائمهم ، فوسعت بذلك مشروعاتهم الصناعية والتجارية كثيرا ، وأصبحت ترى صادرات الفينيقيين الواردة الى بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط مصبوغة دائما بالذوق المصرى . ومما ساعد على انتشار الفن المصرى وذوق أهالى النيل فى أوروبا وبلاد اليونان تلك المصنوعات المصرية الحزة التى كان يتاجرها هؤلاء الفينيقيون فى هذه الجهات . هذه هى الطريقة التى انتشرت بها حضارة الشرق الى جنوبى وغربى أوروبا . واعلم أن المدنية البابلية لم تكن واضحة فى مصنوعات سوريا وفلسطين لكن وجودها كان غير مجرود . والمعروف أن تجارة بابل تدخلت كثيرا فى البلاد غربيها منذ امبراطورية سرجون ملك أجاد القصيرة العمر التى يرجع تاريخها الى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، ونجم عن ذلك ادخال الخط المسمارى البابلى فى سوريا وفلسطين ، وقد استمر استعمال هذا الخط فى تلك البلاد مدة طويلة . والسبب فى سرعة انتشار هذا الخط بتلك الجهات يرجع الى أن أهالى قوم ساميون ذوو لغة متشابهة كثيرا المعاملة التجارية ، تلك المعاملة التى كان لها التأثير نفسه فى نشر الخط الفينيقى ببلاد اليونان . وللاحظ أن الخط المسمارى لم ينتشر استعماله بين الأقوام السامية فقط بل ظهر بين الحيثيين أيضا وأهل مملكة ميثاى اللذين ليسا من أصل سامى ، ولذلك أصبح اقليم سوريا وفلسطين مجمع المدنية المصرية والآشورية بطريق ودى أولا، لكنه لم يدم طويلا ، فنشأ عنه تشاحن كبير أدى الى الاحتكام الى حد الحسام . والى هذا السبب تعزى الحروب التى نشبت بين أهالى الدجلة والفرات من جهة ومصر من جهة أخرى فكلا الطرفين كان يطعم فى تلك سوريا وفلسطين ، ونجم عن هذا التشاحن أيضا أن معظم المعارك الحربية حصلت فى الأقاليم اليهودية حتى انتهى الوطن اليهودى ولم يعد له أثر على مدى الدهر .

وحوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ظهرت لأول مرة فى التاريخ على حدود المملكة المصرية الشمالية قبائل عربية إيرانية زحفت واستوطنت أعلى الفرات . ودلنا الآثار أنه فى غرة أيام الامبراطورية المصرية كانت تلك القبائل قاطنة فى منحنى نهر الفرات الكبير القريب من البحر الأبيض المتوسط



شكل ١١١ — تمثال جالس للأستاذ سنوت حنط الملك همنسوت
حاشا كربة الملكة المدعوة قوررع من زوجته
بلا حط شعلب اسم الأستاذ على القدم الأيمن



شكل ١١٠ — دفيئة مقبرة رئيس الخامس طيبة

حيث أسست مملكة تعرف باسم مِتَانِي . والمعروف أن هؤلاء الأقوام أول الإيرانيين الذين وصلوا الى تلك الجهات في التاريخ القديم . أما أصل هؤلاء القبائل فمن الأقاليم التي هي خلف الجبال الشمالية الشرقية حيث ينبع نهرا (Oxus و Jaxartes) . بعد ذلك امتد نفوذ متاني حتى بلغ تُونِب (بعلبك ؟) الواقعة على نهر الأورونط غربا ومدينة نينوى شرقا . ولما عظم نفوذ هذه المملكة وكبر بأسها أصبحت عقبة في سبيل سلطة بابل بآسيا الصغرى لأن مملكة متاني مرتكزة على ظهر الفرات أي على الطريق الموصل بابل بسوريا وفلسطين ؛ ولذلك كانت مِتَانِي من أسباب اضمحلال بابل . أما آشور فكانت مملكة صغيرة وقشذ لا تشمل الا مدينة كبيرة حديثة ومع ذلك فقد أخذت تنهيا تدريجيا لقتال بابل . وهكذا تيسر لفراعنة مصر بذلك أن يوطدوا أقدامهم بآسيا لأن العقبات هناك ذلت وتم بذلك بسط النفوذ المصري على تلك البلاد المترامية الأطراف .

وصمم تحوتمس الأول أن يطفئ ثورة سوريا وقد استمرت مدة طويلة ، وأن يخضعها كما أخضع بلاد النوبة . ومن دواعي الأسف أننا لم نثر على البلاغات الرسمية لتلك الاجراءات الحربية ولكن الضابطون الشيطيين المعروفين باسم أحعمس والمتمين لمدينة الكاب تركا لنا أخبارا مختصرة عن هذه الغزوات لا شترأ كهما فيها . ولا بد أن تكون كدش سلمت للصريين خوفا وجزعا بعد ما رأت من نتائج غزوة امتحبت الأول . وقد ذكر لنا الضابطان المصريان باهتمام أن الجيوش المصرية لم تُعَارِض ولم تُقاوم مطلقا بجهة كدش ، ولذلك تمكنت القوات المصرية من الوصول الى النهرين بلا نزاع ولا مقاومة تذكر . وقد ورد اسم "النهرين" على الآثار المصرية وأطلق هذا الاسم على البلاد الممتدة من نهر الأورونط الى الفرات وآسيا الصغرى . وقد ثبت في تلك الجهات ثورة شديدة لبعدها عن مصر وحصلت فيها موقعة حربية كبيرة انتهت بأسر عدد كبير من السوريين . قال أحعمس بن إباننا عن هذه المعركة : "كنت قائدا لقبلي وكان جلالة الملك يرقب أعمالي الجريئة لما أسرت عجلة حربية بخيلها وركبها وأحضرتها لجلالته فكأناني على ذلك بالذهب دفعتين" (١) . وقد أظهر أحعمس بن نخبث أيضا جرأة أكثر من ذلك مع حدائنه سنة فأحضر افرعون مصر احدى وعشرين يدا مبتورة من قتلى الأسويين وعجلة حربية وفرسا (٢) . ويعتبر هذان الضابطان مثال الشجاعة التي اتصف بها جيش فرعون مصر وقتئذ . والظاهر أن الملك عرف تماما كيف يؤثر في نفوس ضباطه فكان يلاطفهم ويقدم لهم الهدايا إثر كل عمل حربي ماهر يأتونه في ساحة القتال . هذا كل ما وصل إلينا من أعمال نحوتمس الأول الحربية ولا يبعد أن يكون قد قام بأعمال أخرى عظيمة لا نزال نجهلها . والمعروف أن خدمة أحعمس بن إباننا انتهت في هذه المعركة أما أحعمس ابن نخبث (الصغير) فقد عاش وحارب مع نحوتمس الثاني ونال الرضا والاحترام من نحوتمس الثالث وقت حكمه .

وشيد نحوتمس الأول أثرا حجريا على منحني الفرات الكبير بالقرب من البحر الأبيض المتوسط ذكر فيه أن ذلك المكان هو الحد الأقصى لملكات مصر الأسوية (٣) . وهكذا حقق الملك ما افتخر به

منذ سنة واحدة وهو ذلك الأثر الذى نصبه جهة الشلال الثالث على حدود مملكته الجنوبية . وقد غلا تحوتمس الأول فى نخره فقال لكهنة العرابة المدفونة ذات مرة : "لقد أوصلت حدود مصر الى دائرة الشمس" (١) وهو قول فيه بعض الحقيقة بالنسبة لتخيلات المصريين والشرقيين عامة بخصوص العالم وقتئذ .

من ذلك يتضح أن فرعونين من فراعنة مصر تمكنا حتى ذلك الوقت من رؤية نهر الفرات ، وأن أمراء سوريا والعرب أخذوا يقدرون قدر مصر ويعجبون بقوتها ومكاتها ، فأرسلوا اليها مع البدو وسائر الفلسطينيين الجزية وهذا يا ثمينة فتضخمت المالية المصرية عما كانت عليه سابقا (٢) ، وكان هذا أكبر مساعد لتحوتمس الأول على اصلاح ما تلف من المعابد والهياكل المصرية التى أهملت منذ زمن الهيكسوس . ثم استصغر فراعنه مصر هياكل الملكة الوسطى بطيبة لحقارتها ولأنها لا تليق برفعة مصر المالية والاجتماعية ، فندب تحوتمس الأول مهندس الماهر المدعو إينيني (Ineni) وكلفه تشييد صرحين كبيرين عند مدخل معبد آمون وبناء ساحة كبيرة مسقفة ذات عمد مصنوعة من خشب الأرز اللينانى ، وأمره أيضا بنصب أعلام طويلة أمام مدخل المعبد رءوسها مصنوعة من الذهب والفضة وخشبها من أرز لبنان كذلك . أما باب المعبد فكان مصنوعا من البرنز الأسوى البديع ونقش عليه المعبود مطعما بالذهب (٣) . وأصلح الملك أيضا معبد أزوريس بالعرابة المدفونة وزوده بالاثاث الجميل والأدوات الفضية والذهبية وتماثيل المعبودات البديعة كالتى فقدت أيام حكم الهيكسوس (٤) . ورتب الملك أوقافا سنوية على ذلك المعبد وترك فى آخر عمره تعليمات للكهنة ليتبعوها وقد نعل كل هذا تخليدا لذكراه على ممر الدهور (٥) .

(١) ٩٨: ٢ (٢) ١٠١: ٢ (٣) ١٠٣: ٢ — (٤) ٩٢: ٢ — (٥) ٩٧: ٢

الفصل الخامس عشر

شقاق التحوتموسيين وحكم الملكة حتشبسوت

لما قرب تحوتمس الأول من السنة الثلاثين من حكمه (ومن تسلمه مقاليد الملك من أبيه أيضا) أرسل مهندسه المخلص إينبي الى محاجر الجرانيت بجهة الشمال الأول لعمل مسلتين كبيرتين ينصبان في احتفال عيد سد (Hebsed) الذي كان يعمل كل ثلاثين سنة، فأحضر إينبي هاتين المسلتين الى طبيه في منفية طولها مائتا قدم وعرضها ثلث ذلك تقريبا ونصبهما أمام صرحي معبد الكرنك اللذين شيدهما سابقا للملك^(١)، ونقش على احداهما (وهي الباقية للآن أمام مدخل المعبد) اسم تحوتمس الأول وألقابه^(٢)، لكنه لما شرع ينقش المسلة الثانية حصلت في مصر حوادث منعت كتابة اسم تحوتمس المذكور عليها. ومعلوم أن تحوتمس الأول كان وقتئذ طاعنا في السن^(٣) ثم إن زوجته المدعوة أحمموس توفيت، فضعف مركزه في البلاد لأنه كما ذكرنا آنفا توصل الى الملك بزوجه المتتمة الى الأسرة الطيبية الشهيرة التي طردت الهيكسوس وحاربهم بشدة وهمة لا تعرف الملل حتى أدهشت العالم. في هذا الوقت ظهر في القطر حزب قوى رأى أن وراثته الملك تنحصر في ذرية الملكة أحمموس وهي تشمل ولدين وابنتين. ويلاحظ أنه قد توفي من هؤلاء الأطفال الأربعة ولدان وابنة في حدائق السن فلم يبق منهم الا ابنة يقال لها مَع كَارَع حَتَشْبَسُوت. وأخذ نفوذ حزب الملكية يقوى جدا حتى اضطر تحوتمس الأول أن يعلن للبلاد أن الأميرة حتشبسوت هي الوارثة الواحدة للملكة على كراهية المصريين لحكم الملكات.

ورزق تحوتمس الأول ابنا من زوجة غير شرعية تدعى الأميرة مَوْت نُفُرت صارفيا بعد تحوتمس الثاني وابنا آخر من احدى حظياته المدعوة إزيس صارفيا بعد تحوتمس الثالث. وقد حصلت مشاحنات ومنازعات داخلية مجهولة في آخر عهد تحوتمس الأول صعب على الأثرين استجلاء حقيقتها^(٤)، والسبب في صعوبة معرفة أصل ذلك التراع قلة المعلومات الواردة على جدر المباني والهياكل وطول المدة التي مضت على تلك الحوادث التي تقرب من ثلاثة آلاف ونعمائة سنة. ولا يبعد أن يكون زمن هذه المنازعات في مبدأ حكم تحوتمس الثالث وطوال حكم تحوتمس الثاني. والمستنتج من أخبار تلك العصور أن هذه المنازعات انتهت في آخر الأمر باستمرار تحوتمس الثالث في الحكم مدة طويلة وبقاء تحوتمس الثاني في الحكم مدة قصيرة في أوائل عهد تحوتمس الثالث، وهذا معناه بعبارة أخرى أن تحوتمس الثالث ولي الحكم أولا مدة قصيرة ثم أعقبه تحوتمس الثاني ثم انتقل الملك بعد ذلك الى تحوتمس الثالث، وهذا هو أصوب حل للتوفيق بينه وبين ما جاء بالآثار. ودلتنا الأخبار أن عواطف الحب والشفقة والغيرة كانت تتجاوب للهادنة وسط تلك المنازعات الفرعونية لأن الملكة حتشبسوت الجميلة الزكية ابنة تحوتمس الأول طالبت بحقوقها

(١) ١٠٥: ٢ (٢) ٨٦: ٨ — (٣) ١١: ١٠٦٤: ٢ (٤) ١٢٨: ٢ — ١٣٠.

في الملك . والظاهر أنه لما توفي أخوه هذه الأميرة تزوجت بأخيه من أبيها المدعو تحوتمس الثالث ابن المحظية . وكان تحوتمس الثالث فاقد الأمل في الملك لأنه ليس من دم ملكي فولده ووالدته خليان من هذه الصفة ، ولذلك عين تحوتمس الثالث في مبدأ أمره كاهنا صغيرا بالكركنك وسرعان ما فطن لشعور الكهنة وقتئذ نحوه . فلما توفيت الملكة أحعس طالب تحوتمس الثالث بالملك كما فعل أبوه من قبل لأنه اقترن بالأميرة حعتشبسوت التي من دم ملكي ، وساعده على ذلك كهنة آمون وقد أعلن هذا المعبود أيضا رضاه عن ذلك . ولم يثبت للآن اذا كان هناك اتفاق سلمى سابق مع تحوتمس الأول على هذا الموضوع أو أنه دبر طي الخفاء عن جهل منه ثم نفذ بغاة على غير انتظار بمعبد آمون . والثابت أنه حدث في أحد الأعياد أن حمل تمثال آمون بالكركنك وسط هتاف الجماهير كالعادة من قدس الأقداس الى الساحة الكبرى ، وكان تحوتمس الثالث وقتئذ جالسا مع باقي الكهنة في قاعة العمد الشمالية بساحة تحوتمس الأول ، فطاف الكهنة بتمثال المعبود حول العمد بكيفية يفهم منها أن المعبود يبحث عن واحد بينهم ، ثم وقف التمثال بغاة أمام الأمير الشاب تحوتمس الثالث فخز هذا ساجدا على الأرض ، إذ ذاك رفعه المعبود وعطف عليه ثم أعلن رغبته أن يجلسه على "المقعد الملكي" بالمعبد الخاص بالملوك ، فتفقت ارادة المعبود في الحال . والغريب أن تحوتمس الأول قاد الاحتفال وقدم عطر البخور لتمثال آمون قبل حصول هذه الحادثة بقليل وما لبث حتى ورد أمر المعبود بتعيين تحوتمس الثالث ملكا على مصر^(١) ، وأعانت في ذلك الوقت أسماء وألقاب تحوتمس الثالث للرعية وذلك في شهر مايو سنة ١٥٠١ قبل الميلاد . وهكذا تبوأ الكاهن بغاة عرش الفراعنة ، وقد سرد تحوتمس الثالث هذه الحادثة لرجال طائفته بعد ذلك بعدة سنين لما شيد بعض قاعات الكركنك فقال ما ترجمته : "إنه كان في نيته زيارة عين شمس ليعينه المعبود الشمسي ملكا على مصر لكنه أخذ الى السماء فشاهد فيها ذلك المعبود بأبهته العظيمة فياه الإله وأنعم عليه بعرش مصر وبالألقاب الملكية" . ولكون هذه الحادثة العظيمة المشرفة أظهرت عطف المعبودات نحو تحوتمس الثالث أمر بنقشها على جدر الكركنك ليعلمها الخاص والعام^(٢) .

ومع أن تحوتمس الأول اعتزل العرش فلم يعتبر هذا العزل خطرا على السدة الملكية ولم يتعرض له في معيشته . ولما ولي تحوتمس الثالث عرش مصر استقل بالملك المستحوز عليه من زوجته وأخته حعتشبسوت وأهمل نفوذ حزب الوراثة . وبعد ما مضى على استيلائه ثلاثة عشر شهرا أصبح معبد سلفه سيزستريس الثالث بجهة سمته وكان مشيدا باللبن ، وأقام معبدا جميلا بالحجر الرملي الجديد ، وأقام كذلك الأثر القديم المثبت حدود مصر أيام سيزستريس الثالث في عهد الملكة الوسطى ، كما أنه نفذ وصايا سيزستريس المذكور الخاصة بتقديم القرابين لروحه^(٣) . ولم يورد تحوتمس الثالث في هذه الأعمال كلها إشارة واحدة الى اشراك حعتشبسوت معه في الملك بل اقتصر بتلقيها منذ ذاك الوقت "بالزوجة الملكية العظيمة أو الكبيرة" ولكن يلاحظ أن الحزب المطالب بتطبيق قانون الوراثة الملكية كان قويا لا يستهان به . زد على ذلك أن القوم ما زالوا ذاكرين ذلك الاحتفال الكبير الذي أقامه تحوتمس

(١) ١٣١: ٢ - ١٣٦: ١٣٨ - ١٤٨ (٢) شرح (٣) ١٦٧: ٢ - ١٧٦

الأول لتعيين حتشبسوت وارثة له منذ خمس عشرة سنة، وكانوا أيضا عاقلين بالصلة الدموية المتينة بين هذه الأميرة والأسرة الطيبة الملكية المنتسب إليها الملوك ذوو اسم سكتنرع والملك أحعمس الأول نفسه . أمام هذا الشعور العام اضطرت تحوتمس الثالث أن يعترف رسميا بحق زوجته حتشبسوت في الملك ، ومن ثم أخذت سلطته تضعف وتختفى في حين أن نفوذ هذه الملكة أخذ يقوى ويستند تدريجيا حتى أصبحت فرعونا جامعة كل الحقوق الفرعونية ولقبت بحوريس المؤنث وأنت لأجلها لقب الجلالة ، ثم انصنع نظام القطر والأعمال الملكية بالذوق النسوي تمشيا مع ادارة حتشبسوت .

ولما تسلمت حتشبسوت الملك اهتمت بالأعمال واقامة الآثار فشيدت لنفسها محرابا عظيما بديعا في بقعة بسلسلة جبال طيبة الغربية على جهة النيل الغربية يقال له الدير البحري سيأتى عليه الكلام فيما بعد . بعد ذلك حدث في المملكة نزاع آخر أدى الى انتقال الملك من حتشبسوت الى تحوتمس الثاني ، ولم نعلم للآن السبب الحقيقي لذلك ولكنه ربما كان نتيجة ضعف حزب الكهنة الممتنى اليه تحوتمس الثالث أو حزب الوراثة الممتية اليه حتشبسوت ، ولا يبعد أيضا أن يكون ذلك نتيجة زيادة نفوذ حزب تحوتمس الثاني نفسه . ومهما كان السبب فقد اتحد تحوتمس الثاني ووالده المعزول واستقلا بالملك بعد ما حكمت حتشبسوت القوية وتحوتمس الثالث معا خمس سنوات ، فشن تحوتمس الأول والثاني الغارة على أعمال حتشبسوت وأزالا اسمها من الآثار وأحلا اسميهما مكانه في كل فرصة تسنح .

في ذلك الوقت بلغ النوبة أخبار نزاع أفراد الأسرة المالكة فشبت فيها ثورة لعصيان مصر وصل حبرها الى تحوتمس الثاني يوم توليه الملك ، وتعذر عليه ترك القصر الملكي والعاصمة لأعدائه يكيدون له بعد ما صرف مجهوده حتى بلغ مراده ، فغند جيشا مصريًا جزارا وأرسله اليها بقيادة ضابط مصرى ووصل هذا الجيش الى إقليم الشلال الثالث وأخذ المواشي المصرية هناك بعد ما أوشت أن تقع في أيدي الأعداء . ودلتنا الآثار أن القائد المصرى لم يكتف بهزيمة النوبيين بل قتل كل رجل وقع في قبضته كما أنه أسرا بن رئيس النوبة وبعض أهاليها العصاة وأرسلهم الى طيبة كرهائن منعا لحصول اضطرابات في المستقبل ، وهناك استعرضهم فرعون مصر وهو جالس على عرشه^(١) . بعد ذلك هدأت الحال في النوبة ثم حصلت اضطرابات بآسيا شمالا^(٢) فاضطر تحوتمس الثاني أن يزحف اليها فوصل الى مدينة ني (Niy) ثم الى جنوبي فلسطين وعاقب بدوها الذين عثوا بالأمن ، لكننا لم نتأكد الى الآن اذا كان هذا العقاب حصل في أثناء عودة تحوتمس الثاني الى ني أو وقت إيايه منها . وكانت مصاحبا له في تلك الحملة أحعمس بن نخبت أحد قائدى مدينة الكاب ، وقد روى هذا الضابط أنه استولى على أسرى عديدين هناك يتجاوزون العدد^(٣) . وهذه الغزوة آخر ما قام به هذا القائد الشهيم الذى اعتزل الخدمة بعد ذلك كما فعل زميله أحعمس بن إيانا، فعكف في بلده الكاب شريفا ماجدا حتى أتاه القدر المحتوم . ولما كان

معبد حعشيسوت ترك ولم يكمل بناؤه، رأى تحوتمس الثانى وقت عودته من آسيا أن ينقش على جدر ذلك المعبد انتصاراته الأسبوية، فنقش على جدار أملس هناك أنه تسلم الجزية من أعدائه المقهورين ولا يزال باقيا من بيان تلك الجزية كلمتا "الجيل" و"القبيلة" (١). فى هذا الوقت توفى تحوتمس الأول على الأرجح فضعف بذلك مركز تحوتمس الثانى الذى كان دائما ضعيف البنية واهن الصحة (٢) فاتخذ هذا وتحوتمس الثالث معا فى ادارة المملكة. والمعروف أن تحوتمس الثالث كان قد اعتزل السياسة من مدة ولكنه كان يدبر طى الخفاء مشروعات بقصد عودته الى الملك ثانية (٣). وعلى العموم فان حكم تحوتمس الثانى لم يدم طويلا لأنه توفى قبل أن تمضى على مشاركته لأخيه ثلاث سنين.

حينئذ تسلم تحوتمس الثالث الملك ثانية وقد اضطر مراعاة لمطالب حزب حعشيسوت أن يشركها معه فى الحكم. ثم سارت الأمور الى أبعد من ذلك فأخذ حزب الملكة يقوى ويستأثر بالسلطة حتى انزوى تحوتمس الثالث من الميدان السياسى تقريبا وصار لحعشيسوت وحدها مطلق الحل والعقد. والغريب أن كلا من حعشيسوت وتحوتمس الثالث كان يؤخر حكمه من عهد تولية الملك أولا متجاهلا مدة حكم تحوتمس الثانى. وقد اتبعت حعشيسوت سياسة الشدة والضغط وعدت أول امرأة عظيمة معروفة فى التاريخ. وقد أوضح لنا إيننى مهندس والدها مركز الأخت والأخ بالعبرة الآتية: "كان تحوتمس الثالث حاكما جالسا على عرش أبيه الذى خلفه. أما أخته الزوجة المقدسة حعشيسوت فكانت تحكم البلاد بارادتها فطأطأت لها مصر رأسها مطيعة لأوامرها، ولا غرابة فى ذلك بجلالتها من النسل المقدس العظيم الخارج من صلب الآلهة، فكانت بمثابة جبل مقدم السفينة فى البلاد الجنوبية ووتد مرسى السفينة عند أهالى الجنوب، وجبل مؤخر السفينة العظيم فى البلاد الشمالية. لقد كانت جلالتها صاحبة الأمر والنهى والمشروعات السديدة والقول المليح الذى ملأ أهالى القطر فرحا وسرورا". ويعتبر هذا أقدم تشبيه معروف لتدبير سياسة الدولة بقيادة السفينة، وفيه شبه لإيننى الملكة حعشيسوت بجبال سفينة النيل التى تجذبها وتأتى بها الى المرفأ المطلوب (٤). والحق يقال ان هذا التشبيه ينطبق تماما على سياسة حعشيسوت لأن أعضاء حزبها عينوا أنفسهم فى أهم وظائف الدولة فكان سينموت (شكل ١١١) أقرب الناس اتصالا بها وأشدهم تفانيا فى مصلحتها وقد كان فيما سبق أستاذا لتحوتمس الثالث فى الصغر (٥) ثم عهد اليه فى تربية الأميرة نفرورع كريمة حعشيسوت (شكل ١١١) التى قضت أوائل عمرها تحت إشراف القائد أحمس بن نخبت السابق الذكر والذى أصبح الآن هرما عاجزا عن القيام بالأعمال الشاقة (٦). بعد ذلك عين سينموت حاجبا للأميرة نفرورع (٧) وأميناً على أملاكها. وكان له أخ يدعى سين (٨) من أشد أنصار حعشيسوت أيضا. وربما كان أعظم أنصار جلالته المدعو حابوسينب (٩) الذى كان وزيرا ورئيس كهنة آمون وعميد طائفة كهنة القطر المصرى

(١) ١٢٥: ٢ (٢) Manp. Mom. roy., ٥١٧. (٣) ٥٩٣: ٢ — ٥ (٤) ٣٤١: ٢ (٥) تمثال الكرنك

(٦) ٣٤٤: ٢ (٧) ٣٦٣: ٢ ملاحظة (٨) ٣٤٨: ٢ (٩) ٣٨٨: ٢ ملاحظة

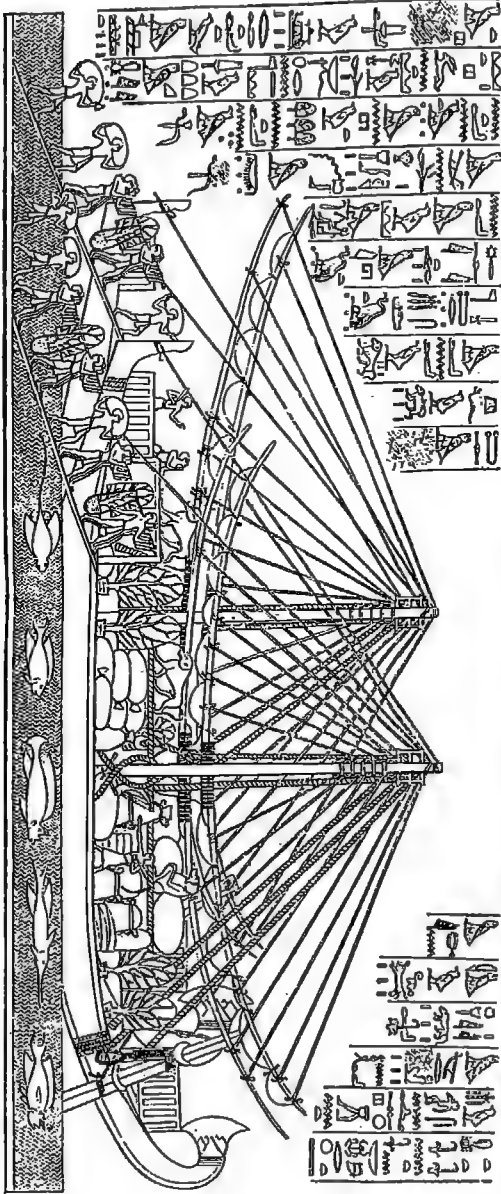
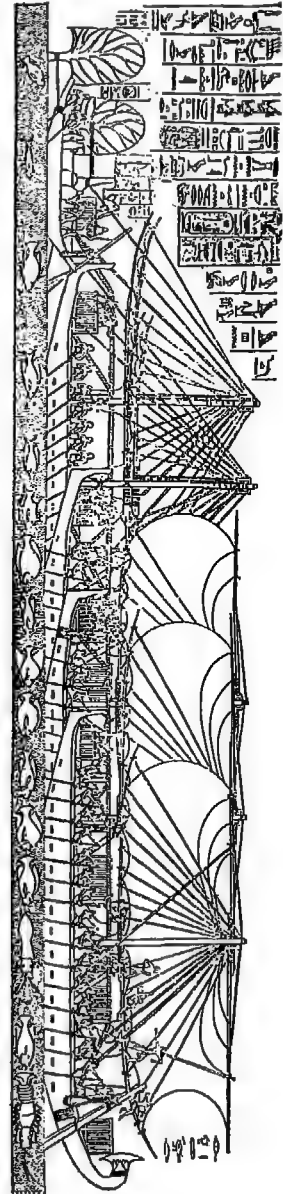
التي أنشئت حديثاً^(١)، فكان هذا الوزير محتفظاً بالسلطة التنفيذية والدينية اللتين استعملهما لمصلحة الملكة . وبهذه الكيفية أدار حزب حتشبسوت دولاب أمور الدولة . ولما أسن إيني وكان شاعلاً وظيفته رئيس خزانة الذهب والفضة استبدل به الأمير تحوتي^(٢) ، ثم أشرك أحد كبار المالية المدعو نحيي^(٣) مع حابوسنب في إدارة الأعمال . وبهذه الكيفية أدار حزب الملكة دولاب أعمال الحكومة . ولا يخفى أن مستقلاً هؤلاء الموظفين كان معلقاً على نجاح وسيادة الملكة ولذلك حافظ هؤلاء بكل ما أوتوا من جهد وعناية على مركز جلالها السامي ، فكانوا يبذلون قوتهم في اقناع الأهالي بأن حتشبسوت لم تعين ملكة إلا بأمر إلهي قديم وتقشوا ذلك على جدر معبدها بالدير البحري^(٤) حيث تشاهد الآن كثير من الرسوم البارزة موضحاً بها طريقة ولادتها . ومن هذه الرسوم يتضح للقارئ عقيدة المصريين القديمة وهي أن الفراعنة أنجال حقيقيون للمعبود الشمسي ، فيرى في الرسوم المعبود آمون (وارث المعبود الشمسي في اعتقاد أهالي طيبة) يخاطب أحممس زوجة تحوتمس الأول قائلاً : ” ستحملين مني ابنة تدعى حتشبسوت تعلى عرش مصر وتحكم البلاد كلها بمهارة “^(٥) . بقاء هذا بمثابة اعلان مقدس للأهالي بتعيين حتشبسوت ملكة لعرش مصر . ومن ثم أخذ القوم يرسمون كيفية ولادتها مصحوبةً بمعجزات عظيمة مما أثار كثيراً في نفوس البلاط الملكي والرعية إذ اتضح لهم بذلك علاقة حكم هذه الملكة بوارث المعبود الشمسي^(٦) . وقد راعى الرسام في رسومه تلك العقيدة مراعاة دقيقة فرسم حتشبسوت مولودة ” طفلاً “ بقاء هذا برهاناً لنا على عظم الصعوبة التي عايناه أنصار حتشبسوت في جعل مقاليد مملكتهم في يد جلالها . ثم ألحقوا هذه الرسوم بأخرى أظهروا فيها كيف يتوج المعبودات هذه الملكة ، ورسوم تمثل تحوتمس الأول مجتمعاً مع ابنته حتشبسوت في احتفال كبير مهيب بالقصر الملكي في عيد رأس السنة^(٧) مخاطباً إياها بأنه يعترف أنها وارثته في الملكة المصرية . وللاحظ أن هذه النقوش نقلت عن نقوش أمتجعت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة التي عينه بمقتضاها والده سيزستريس الثالث ملكاً على مصر . ولإبطال كل معارضة لحكومة حتشبسوت رأى رجال حزبها أن يرسموا على الدير البحري تحوتمس الأول مخاطباً البلاط الملكي قائلاً : ” عليكم أن تطيعوا جلالها (أى حتشبسوت) وأن تتحدوا طوعاً لا رادتها ، فالذي يخضع لها منكم يعيش أما الذي يغتاب جلالها فلن يترك حياً “^(٨) . ولم يكتف رجال حزب حتشبسوت بذلك بل رسموا تحوتمس الأول على جدر صرحه المشيد عند المدخل الجنوبي للكرنك داعياً معبودات طيبة لتفتح ابنته عهداً يانعاً وحكماً عادلاً^(٩) . بهذه الحيل اجتهد أفراد حزب الملكة في اقناع الأهالي بحقها في الملك وتزع أي عقيدة لا تتماشى مع حكم السيدات .

(١) ٣٨٨ : ٢ (١) ٣٦٩ : ٢ ملاحظة (٢) ٢٩٠ : ٢ (٣) ١٨٧ : ٢ ملاحظة (٥) ١٩٨ : ٢
(٦) ١٨٧ : ٢ ملاحظة (٧) ٢١٥ : ٢ (٨) ٢٣٧ : ٢ و ١٥ - ١٦ (٩) ٢٢٣ : ٢ ملاحظة

ولما تبوّأت حعتشيسوت منصة الحكم بدأت بتشيد معبدها البديع بالدير البحرى فى سفح جبال طيبة الغربية الذى نقش عليه أبوها وأخوها اسميهما بدل اسمها. ويخالف بناء هذا المعبد ما اتبع فى بناء معابد ذلك العصر الكثيرة لكنه يشبه كثيرا معبد متوحوت الثانى الصغير المدرج المجاور له. ويشمل هذا المحراب ثلاث شرفات مدرجة تنهى أعلاها بساحة عظيمة مرتفعة تحيط بها صفوف شاهقة صفراء محفور فيها قدس الأقداس. وقد أقيمت أمام هذه الشرفات عمدة بديعة يتضح لمن يراها عن بعد حسن ذوقها وتناسق حجمها فتأكد بذلك النظرية القائلة بأن اليونانيين أول من أيقن استعمال العمدة الخارجية وأن المصريين أقدم من أجاد استعمال العمدة الداخلية فى البناء (شكل ١١٣). أما المهندس الذى شيد هذا المعبد فهو ستموت^(١) محظى الملكة. وقيل كلف^(٢) الإشراف على صنع أبواب المعبد من البرنز المطعم بخليط الذهب والفضة وعلى مصنوعات معدنية أخرى. وكانت الملكة شديدة التعاطف بهذا المعبد فكانت تشبه بجنة آمون وتطلق على شرفاته اسم "شرفات شجر الممر" المستحضر من الصومال موطن الآلهة الأصلية. وورد فى نقوش هذا المعبد أن المعبود آمون طلب من الملكة "أن تمثل له فى هذا المكان بلاد الصومال"^(٣) فأطاعته واضطرت أن تغرس شجر الممر المستحضر من الصومال فى تلك الشرفات. ومعلوم أن أسلاف حعتشيسوت كثيرا ما أرسلوا البعثات إلى تلك الجهات لكنه لم يفكر أحد منهم فى جلب أشجار الممر منها فكانت هى أول من فعل ذلك. ووجرت العادة قبل ذلك العصر أن صنع الممر كان تحضره إلى مصر القوافل البرية الآتية من الصومال^(٤) فلما جاء حكم الهيكسوس تأخرت تلك التجارة الأجنبية كثيرا. ثم وليت حعتشيسوت الملك وقد وقفت يوما أمام ناووس المعبود فسمعتة يقول: "يجب إعادة فتح طريق الصومال لتيسر الوصول من هذه الشرفات إلى بلاد الممر"^(٥)، فهذه البلاد المقدسة بحملة، وأنا أحبها فقد خلقت تلك البلاد لأسلى قلبي"^(٦). قالت الملكة: "وهكذا أنجزت كل ما رغب فيه المعبود على حسب أمره"^(٧).

وطبيعى أن تعهد الملكة لرئيس ماليها المدعو نيجيى فى قيادة حملة بلاد الصومال وزودته بالصناديق الكافية لشحن ما يطلب من حاصلات تلك البلاد^(٨). فلما كانت السنة التاسعة من حكم الملكة^(٩) أقيمت الاحتفالات وقدمت القرابين إلى معبودات الهواء ليتفضلوا على أسطول الملكة بالرياح الطيبة لتساعده على السفر. وأقلعت السفن وكان عددها خمسين سفينة فتركت المياه المصرية قاصدة الصومال متبعة نهر النيل حتى شرقى الدلتا وهناك عبرت قناة وادى طميلات إلى البحر الأحمر، وقد ألمعنا سابقا إلى استعمال هذه القناة فى عهد الملكة الوسطى (راجع صحيفة ١٢١). أما السفن فكانت مشحونة ببضائع مصرية ليستبدل بها بضائع صومالية. وقد أخذ الأسطول معه أيضا تمثالا للملكة حعتشيسوت لنصبه فى تلك البلاد السحيقة تذكارا لها، وإذا كان هذا التمثال باقيا للآن بتلك الجهات فيكون أبعد تمثال للملكة مصر معروف للآن. ووصلت السفن المذكورة إلى بلاد بونت (الصومال)

(١) ٣٥١: ٣-٦-٧ (٢) ٣٧٥: ٢ (٣) ٢٩٥: ٢ (٤) ٢٨٧: ٢ (٥) ٢٨٥: ٢ و ١٠٥
(٦) ٢٨٨: ٢ (٧) ٢٨٥: ٢-٦ (٨) ٢٩٠: ٢ (٩) ٢٥٢: ٢-٣ و ٢٩٢



شكل ١١٢ - بعض المناظر المظيئة ببلاد الصومال (الرونت) مقصورة على جدر البحر بطريقه ٠٠ في دفا الكان رحمت الملكة حتشبسوت مناظر وبتها التي أريدتها الى الصومال وتساعد في القسم الأعلى مناداة الأسطول المصري لينا، مصري تفرى السفن المصرية في القسم الأسفل تسخن بخبرات الصومال كبحر الزر الذي يشاهد داخل تلك السفن

بسلام فضرب قائدها قبابه على الشاطئ وهناك قابله ملك پونت المدعو پريحو (Perehu) باحترام واکرام متبوعا بزوجه المدينة وأطفاله الثلاثة^(١) . والظاهر أن المصريين وقتئذ كان قد مضى عليهم مدة طويلة لم يطنوا في أثنائها أرض الصومال لأنهم رسموا الصوماليين على جدر الدير البحري قائلين لهم: "لماذا أتيتم الى هذه الأرض التي جهلها من سبقكم من المصريين؟ هل نزلتم من السماء أو ركبتم السفن في البحر الموصل الى الأرض المقدسة (الصومال) ؟" ^(٢) . بعد ذلك قدم المصريون هديتهم الى حاكم الصومال فابتهج بها ومال الى المصريين كثيرا وأمر حالا بربط السفن المصرية قريبا من الشاطئ، ثم أنزلت المترات الخشبية وأفرغت محتويات السفن ثم ملئت ثانية بخيرات بلاد الصومال^(٣) المدهشة كالأخشاب العطرية الجميلة على اختلاف أنواعها وكومات المتر وعدد كبير من أشجار المتر اللينة وكثير من الآبنوس والعاج النقي وذهب إمو (Emu) الأخضر وخشب الأنيسون والبخور والكحل ، وهذا غير النسائيس والقرودة والكلاب وجلود الكأثم الجنوبية وبعض أهالى الصومال وأولادهم . وتعتبر هذه الحملة الأولى من نوعها منذ بداية التاريخ المصرى^(٤) . ثم أفلح الأسطول المصرى عائدا الى مصر سالما ولم تعترضه حوادث سيئة ولم يضطر أن ينقل بضاعته من سفنه بل وصل سليما الى مرفأ طيبة كما تشير الآثار^(٥) . ولا بد أن يكون دهش المصريين عظيما لما وقع نظرهم على واردات الصومال السحيقة العجيبة وهي تميز بشوارع طيبة في سيرها نحو القصر الملكى حيث قدمها القائد المصرى الى الملكة ، فلما شاهدت جلالتها هذه الخيرات تبرعت من فورها بجزء منها الى المعبود آمون مع جزء آخر من واردات التوبة لأن المصريين اعتبروا هذين القطرين أقليا واحدا . واليك بيان ما تبرعت به الملكة لآمون : "واحد وثلاثون من أشجار المر الخضراء وكية من الذهب والفضة (Electrum) والمكاحل والرماح الصومالية والآبنوس والأدوات العاجية ونمر على قيد الحياة صيد خصيصا لجلالته وكية كبيرة من جلود النمر وثلاثة آلاف وثلاثمائة رأس من الغنم"^(٦) . ويستدل من رسوم الآثار أن كميات المتر التي أحضرت جزئت كومات يقرب ارتفاع كل منها ضعف طول الرجل وكانت تكال بحضور تحوي أحد أتباع الملكة المقربين . أما حلقات الذهب التي أحضرت فكانت توزن بموازين يبلغ ارتفاع الواحد منها عشرة أقدام^(٧) . وبعد ما أعلنت جلالة الملكة نجاح بعثة الصومال الى المعبود آمون على حسب رغبته^(٨) أقامت احتفالا عظيما استدعت فيه تحوتى ونحسى رئيس الخزانة وقائد البعثة وأغدقت عليهما النعم ، وأخبرت أعضاء أسرتهما المالكة بنتيجة مجازقتها العظيمة^(٩) وذكرتهم برغبة آمون في فتح طريق الصومال وغرس أشجار المتر من تلك البلاد المقدسة في حديقة معبده ، ثم قالت مباهية: "لقد أنجزت تلك الرغبة وجعلت حديقة معبده أشبه بالصومال كما أراد ، فصارت حديقة كبيرة كافية لزهته فيها"^(١٠) . وهكذا صار هذا المعبد البديع ذو الشرفات عبارة عن حدائق من شجر المتر لأجل آمون ، ولا شك أن الفضل في ذلك يرجع الى همة ونشاط هذه الملكة التي اضطرت لأن تحضر

(١) ٢٥٤: ٢ (٢) ٢٥٧: ٢ (٣) ٢٥٩: ٢ (٤) ٢٦٥: ٢ (٥) ٢٦٦: ٢ (٦) ٢٧٠: ٢ - ٢٧٢
(٧) ٢٧٣: ٢ - ٢٨٢ (٨) ٢٨٣: ٢ - ٨ (٩) ٢٨٩: ٢ - ٢٩٥ (١٠) ٢٩٥: ٢

تلك الأشجار من أقاصى البلاد . وقد نقشت جلالتها كل أخبار هذه الرحلة الغريبة بارزة على جدر معبد الدير البحرى^(١) الذى استولى عليه سابقا تحوتمس الثانى رغبة فى نقش حروبه وانتصاراته الأسبوية عليه^(٢) ، ولا تزال نقوش بعثة الصومال من أبداع مخلفات هذا المعبد العظيم ، وقد ذكرت الملكة كبراء حزبا جميعا فى تلك الرسوم . ويشاهد على أحد الجدر رسم سنموت مبتلا الى المعبودة حاتحور طالبا منها أن تمنح الملكة النعم الجزيلة وهو شرف عظيم قلما يتمتع به رجل من رجال الدولة^(٣) .

ومعبد حتشبسوت هذا هو أقصى ما وصل اليه بناء تلك العصور من حيث ترتيب وتنسيق القبور الملكية وعلاقتها بمعابدها . ويظن إن اقلاع الملوك عن اتخاذ الأهرام مقابر لهم يرجع الى الحاجة للاتفاق فى أبواب أخرى أولأنهم لم يجدوا فائدة فى تكبير تلك القبور خصوصا وقد اتضح لهم أن هذه الاجراءات لم تحفظ جثث أصحابها . والغالب أن دفن الجثث الملكية فى أهرام وتشييد معابد لها شرق الأهرام استمر متبعا حتى حكم أحتمس الأول ، لكنه لوحظ أن هذه العادة أخذت تنعدم تدريجيا فقل حجم الهرم بالتوالى وبقيت الغرف السفلى والمعابد المجاورة له على كبرها وضخامتها بالنسبة للأهرام . وآخر من اتبع بناء الأهرام هو أمنحتب الأول الذى دفن جثته الملكية فى حجرة^(٤) يوصل اليها بدلهيز طويل محترق لصخور طيبة الغريبة يبلغ طوله نحو مائتى قدم ، ثم شيد أمام مدخل الدهليز معبدا صغيرا تعلوه قبة هرمية الشكل سبق الكلام عليها^(٥) . والظاهر أن تحوتمس الأول لم يرق فى عينه هذا الترتيب ولم يعتبره كافيا لحفظ الجثة فابتدأ بفصل المعبد من القبر فشيّد المعبد فى سفح جبال طيبة الغربية ، أما قبره وسردابه (شكل ١٠٩ و ١١٠) فحفرهما فى الصخور بواد منعزل (شكل ١٠٨) خلف جبال طيبة الغربية على بعد نحو ميلين من النيل ولا يصل اليه الانسان الا بطريق منحني يقرب طوله من ضعف هذه المسافة . وبديهي أن غرض الملك من ذلك اخفاء معالم قبره ليكون فى مأمن من اللصوص ولذلك بقيت أخبار هذا القبر سرا مكتوما . قال المهندس إينفى الذى باشر حفر مقبرة تحوتمس الأول انه قام بهذا العمل وحده دون أن يراه أو يسمعه أحد^(٦) . وهذا الترتيب وإن كان مناقضا للعادات السابقة يوافقها فى وضع القبر خلف المعبد وإن كانت تفصلهما صخور شاهقة . ويعرف هذا الوادى الآن باسم "وادي مقابر الملوك" وقد فضله الملوك الذى حكموا بعد تحوتمس الأول على سواه من الأماكن لدفن جثثهم فيه ، واستمرت الحال على هذا المنوال مدة حكم الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين حتى امتلأ الوادى بيجث ملوكها . أما عدد المقابر المعروفة فيه فيربو على الأربعين ، منها احدى وأربعون مقبرة يمكن معاينتها من الداخل وامتدت شهرتها فى العالم حتى اعتاد السياح أن يؤموها سنويا لمشاهدتها والاطلاع على عجائبها . وذكر استرابو أن عدد ما كان معروفا فى عهده من المقابر بذلك الوادى كان أربعين مقبرة . أما معبد حتشبسوت ذو الشرفات فلم يكن سوى معبد أقيمت فيه الدعوات وقدمت القرابين بعد وفاة صاحبه ، وقد

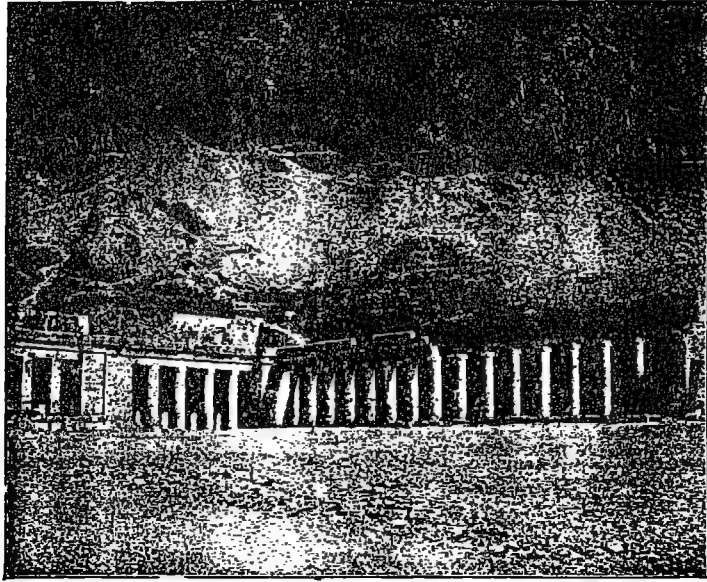
(١) راجع شكل ١١٢ و ٢٤٦-٢٩٥ (٢) راجع صحيفة ١٧٨ (٣) ٣٤٥:٢ (٤) ١٣:٤ وملاحظات (٥) راجع صحيفة ١٦٨ (٦) ١٠٦:٢

كتب الملكة اسم والدها عليه أيضا ووهبت له أيضا بعضه . وبلى أنه كلما زاد عدد المقابر بذلك الوادى زاد عدد المعابد الخاصة بها بسفح الجبل لأن هذه المعابد كانت الأمكنة التي تقدم فيها القرابين والهدايا لأرواح جبابرة مصر المقدسين . وجرى العادة أن هذه المعابد كانت توهب أيضا الى المعبود آمون وأن يطلق على كل منها اسم خاص ، مثال ذلك معبد قبر تحوتمس الثالث سمي "هدية الحياة" (١) .

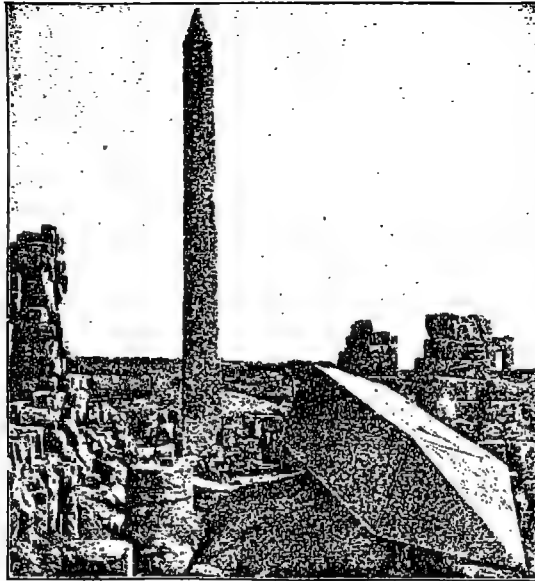
أما قبر حعتشيسوت فقد قام بحفره المهندس والوزير المدعو حَاطُوسِينب ، وقد اختار لذلك مكانا بالوادى المنعزل المذكور (٢) بكيفية هندسية تجعل جدار القبر الشرقى خلف الدير البحرى تماما . وهنا يتبدى دهليز طويل منحدر يبلغ طوله مئات من الأقدام ينتهى الى حجرات تحوى احداها تابوتين واحد لها والآخر لآبيها تحوتمس الأول . والظاهر أن النزاع بين الأسر حال دون استعمال تحوتمس الأول لهذه المقبرة ، إذ المعروف أنه فضل أن يدفن نفسه فى قبر صغير منفرد وألا توضع جثته فى التابوت الذى صنعت له ابنته . وقد عثر على هذين التابوتين فارغين حديثا ولا بد أنهما سرقا فى العصور السالفة .

وللاحظ أن هذه الملكة حسنت بهمتها مصنوعات البلاد وأتمت من ثروتها كثيرا فعاتدت بفوائد جزيلة على القطر المصرى وتضاعف إيراد الامبراطورية المصرية حيث شمل ضرائب الأملاك وجزية المستعمرات الأجنبية الشاسعة الممتدة من الشلال الثالث جنوبا الى نهر الفرات شمالا . واليك ترجمة ما قاله حعتشيسوت ذات يوم : "لقد بلغت حدود مملكتى الجنوبية أرض الصومال (بونت) وحدودها الشرقية مستنقعات آسيا ، فصار الأسويون فى قبضتى أما حدودى الغربية فوصلت الى جبال مانو (Manu) أى مغرب الشمس وذاع صيتى بين البدو . وقد أحضر الى مر بلاد الصومال وخيرات تلك البلاد العجيبة أحضرت الى قصرى كتلة واحدة حقيقة لقد أحضرت الى أجود الخيرات من أرز وعرعر وخشب "مرو" (Meru) وأخشاب الأرض المقدسة الجميلة جميعها . لقد أحضرت لى جزية تحنو (الليبين) من عاج ، علاوة على سبعائة ناب من أنياب الفيلة وعدد كبير من جلود الكنائم البالغ طول كل منها خمسة أقدام وعرضه أربعة أقدام (من الظهر) " (٣) . والظاهر أن عهد هذه الملكة كان مصحوبا بالأمن والسكينة والسلم فى آسيا ولو أنه لم يكن على الأريكة المصرية فرعون حربى ، ولذلك استعملت هذه الملكة النشطة ثروتها الجديدة فى بناء المعابد التى أنفقتها الهيكسوس بعد انقضاء جيلين على جلائهم من البلاد (٤) ، وقد سجلت ذلك على معبد پخت (Pakht) بنى حسن فقالت : "انى أصلحت الخراب وأتممت ما كان ناقصا قبل مجئ الأسويين (الهيكسوس) الى أواريس (هواره) فى منطقة البلاد الشمالية . وكان بينهم وقتئذ من البربر من صرفوا همهم فى تخريب المباني جهلا منهم بوجود المعبود رع" (٥) .

(١) ٥٥٢ : ٢ (٢) ٣٨٩ : ٢ (٣) ٣٢١ : ٢ (٤) ٢٩٦ : ٢ (٥) ٣٠٣ : ٢



شكل ١١٣ — سلسلة العمد الشالية المتصلة بالدهليز الأوسط لمبد
الملكة حمتشبوت المسمى بالدير البحرى بطيه



شكل ١١٤ — مسلات الملكة حمتشبوت بالكرك و يبلغ
ارتفاع المسلة القائمة سبعة وتسعين قدماً ونصف قدم

ومضى على هذه الحال سبع سنوات أو ثمان بعد استرداد حمتشبوت وأخيها تحوتمس الثالث عرش مصر، أو خمس عشرة سنة منذ توليها الحكم مع تحوتمس الثالث في المرة الأولى . ولاحظ أن تحوتمس الثالث لم يكن طوال هذه المدة وارثا شرعيا للملك لأن زوجته استأثرت بهذا الشرف دونه، ولما أوشكت أن تم ثلاثين سنة منذ اعلان وراثتها على العرش أدامت لذلك احتفالا عظيما. ويظن أنها أمرت بنصب المسلات كالعادة في مثل هذه الأفراح، وقد قالت ما ترجمته: "أتذكر أنني جلست يوما بالقصر وفكرى يجيش بتأملات خالقي فأوحى الى قلبي أن أشيد لخالقي مسلتين من خليط الذهب والفضة (Electrum) بياغان عنان السماء"^(١). وقد كلف المهندس المحبوب سنوت القيام بهذه المأمورية فوجه الى محاجر الجرانيت بجهة الشلال الأول لقطع حجرين كبيرين تصنع منهما المسلتان الكبيرتان، بجمع هذا المهندس من شاء من العمال وابتدأ بالعمل في أوائل فبراير في السنة الخامسة عشرة من حكم جلالة الملكة، وبعد مضي سبعة أشهر تمكن سنوت من قطع الصخرتين المذكورتين وذلك في أوائل شهر أغسطس^(٢) وقد شجخهما في سفن نيلية الى طيبة قبل أن يهبط منسوب فيضان النيل . ورأت الملكة أن تنصب هاتين المسلتين في الساحة ذات العباد التي أسماها والدها بالكركك والتي اختار فيها آمون تحوتمس الثالث ملكا على مصر . وتطلب انجاز هذا العمل نقل عمد السقف المشيدة في الجناح الجنوبي للساحة المذكورة علاوة على أربعة عمد من الجناح الشمالي وتزع جزء من السقف وهدم الحائط الجنوبي لإدخال هاتين المسلتين وكانتا مكسوتين كثيرا بخليط الذهب والفضة وقام بهذا العمل تحوت في أجل جلالة وليكته^(٣) . ومما ورد عن ثروة هذه الملكة قولها انها كانت تملك المعادن النفيسة كالحبوب بالمكاييل الكبيرة^(٤) . وهو قول يعززه ما رواه تحوت في أنه كان يكس بأمر جلالته في ساحة قصرها ما يزيد على أربعائة وثلاثة وعشرين لترا من خليط الذهب والفضة^(٥) . واليك ترجمة ما قاله جلالته مفتخرة بهاتين المسلتين : "لقد صنعت قتي هاتين المسلتين من أجود خليط للذهب والفضة وجد بالعالم . وكان من الممكن مشاهدة القمتين من شاطئ النيل ، وكانت الأشعة تنعكس منهما على القطرين وقت شروق الشمس على الأفق بشكل غاية في الجلال"^(٦) . أما ارتفاع هاتين المسلتين فأعلى من سقف ساحة الكركك التي شيدها تحوتمس الأول . وقد أقسمت حمتشبوت بكافة المعبودات أن كلتا مسلتها صنع من حجر واحد منع لدخول الشك في أنفس القوم وقتئذ^(٧) . والحق يقال ان هاتين المسلتين أعلى الآثار المصرية التي يرجع تاريخها الى تلك العصور لأن ارتفاع كل منهما بلغ حوالى سبع وتسعين قدما ونصف، أما زنة كل منهما فتقرب من ثلثمائة وخمسين طنا ، ولا تزال احدهما شاخصة في مكانها الأصلي تسترعى أنظار السياح كل سنة (شكل ١١٤) . ولم تكتف حمتشبوت بذلك بل شيدت مسلتين أخريين بالكركك لكنهما تافتا وانعدم أثرهما^(٨) ، والمظنون أنها شيدت مسلتين أخريين لمعبدها ذى الشرفات بالدير البحري أصابهما التلف والعطب ، وهكذا يكون عدد المسلات التي شيدها هذه الملكة ستا . وتوجد على جدر معبد الدير البحري^(٩) رسوم بارزة تمثل مسلتين محولتين في سفينة نيلية عظيمة يجرها ما يقرب من ثلاثين سفينة شراعية وفيها نحو مائة وستين بحارا . ولأن لم ثبت اذا كانت هذه الرسوم عن مسلقى معبد الدير البحري أو مسلقى الكركك اللتين نصبهما سنوت السابق الذكر .

(١) ٣١٧: ٢ - ٦ - ٧ (٢) ٣١٨: ٢ (٣) ٣٧٦: ٢ - ٢٨ (٤) ٣١٩: ٢ - ١٠ (٥) ٣٣٦: ٢ - ٣٠٤ (٦) ٣١٨ (٧) ٣١٥: ٢ (٨) ٣٣٦: ٢ - ٣٢٢ ملاحظة (٩)

وزيادة على هذه المسلات الشاحنة التي شيدتها هذه الملكة عثر على نقوش أثرية بجهة وادى مغاره بطورسيناء^(١) تشير الى أن جلالة الملكة حعتشبوت أرسلت اليها بعثات للبحث عن معادن تلك الجهة، وهكذا أدارت شؤونها في تلك الجهة بعد ما استراحت من غزوة الهيكسوس. وتاريخ هذه البعثات يرجع الى السنة السادسة عشرة من حكمها وقد استمر حفر المناجم حتى السنة العشرين من حكمها^(٢). والغالب أن الملكة توفيت وقتئذ لأن آثار تلك السنة أخبرتنا بأن الملك تحوتس الثالث صار المسيطر الوحيد على المملكة المصرية، كما أننا لم نجد اسم حعتشبوت على الآثار بعد هذا الحين. ويلاحظ القارئ أننا أسهبنا في وصف آثار وأعمال هذه الملكة والسبب في ذلك أن السيدات لسن من محبي الحروب والغزوات وعلى الأخص في تلك العصور العتيقة، ولذا وجدناها وجهت همها نحو تقدم الفنون ونشر رايات السلم. ومع أنها كانت حاكمة سلمية قادرة فقد حكمت في زمن كانت مصر محتاجة فيه الى ملوك خريبين لكبح جماح الأسويين واقناعهم بأن مصر حصينة منيعة كي لا يذكروا نار الفتنة وينفخوا روح الثورة.

ولما ولى تحوتس الثالث عرش مصر بعد زوجته بدا منه ما كان خفيا لأنه كان بطبعته ميالا للحروب مغرما بالنضال والكفاح. وقد كان مضطرا في حياة زوجته أن يراعى ظروفها فكان يقدم وقتئذ البخور لآمون وقت وصول بعثة الصومال كما أنه كان يصرف نشاطه في الاشراف على بناء معبد قبره في سهول طيبة الغربية، ولذلك وجد له بعض العذر إذ لم يقدّم بالواجب نحو زوجته ولم يراع كرامتها كإقامته حائطا أسفل مسلتي زوجته اللتين بساحة تحوتس الأول بالكركك ليخفي النصوص المنقوشة عليهما الدالة على تاريخ نصبهما. وقد محّا أيضا اسمها ورسمها من الآثار جميعها حتى معبدها بالدير البحري مصدرا بذلك الأوامر. ولا بد أن يكون حزب هذه الملكة انهار بعد وفاتها بهرب أعضائه أولأنهم لقوا حتفهم كما يستدل من طمس رسوم سنوت وتحتوى ونحسى من جدرالدير البحري بعد ما كانوا يفتخرون بهذه الرسوم أيما افتخار. ثم ان الملكة كانت قد أهدت الى سنوت ثلاثة تماثيل وأمرت بوضعها بمعايد طيبة، فلما ولى تحوتس الثالث الملك محّا اسم سنوت منها، كما محّا اسمه أيضا من جدر قبره وشاهده. وعمل تحوتس الثالث مثل ذلك أيضا لتمثال حيتوسنب^(٣). أما مقبرتا تحتوى وسن من أنحى سنوت فقد نبشتا وطمست أسماء صاحبيهما. وأما مقبرة أحد أقران هؤلاء الرجال فقد محّى اسم صاحبا وأزيل تماما فتعذر علينا معرفته. وحقن تحوتس الثالث على اقليم السلسلة فأمر بارسال بعثة اليه ليتقم بازالة اسم كبير الأمراء لحعتشبوت الذي على جدر قبره^(٤). وهكذا تجد الآثار الى يومنا هذا ناطقة بما ارتكبه هذا الملك من القسوة والحقن، ومع ذلك فان الدير البحري لا يزال لآن حافضا ذكرى صاحبه، كما أن الحائط المهدم الذي أقامه تحوتس الثالث لإخفاء ما بأسفل مسلتي زوجته بالكركك من النقوش لا يزال الى الآن شاهدا على أن لحعتشبوت مركزا ساميا وشرفا رفيعا.

Petrie, Cat. of Egyptian Antiquities found in the Peninsula of Sinai, etc., p. 19. (٢) ٣٣٧: ١ (١)

(٣) ٢ : صحيفة ١٦٠ ملاحظة (د) (٤) ٣٤٨: ٢

الفصل السادس عشر

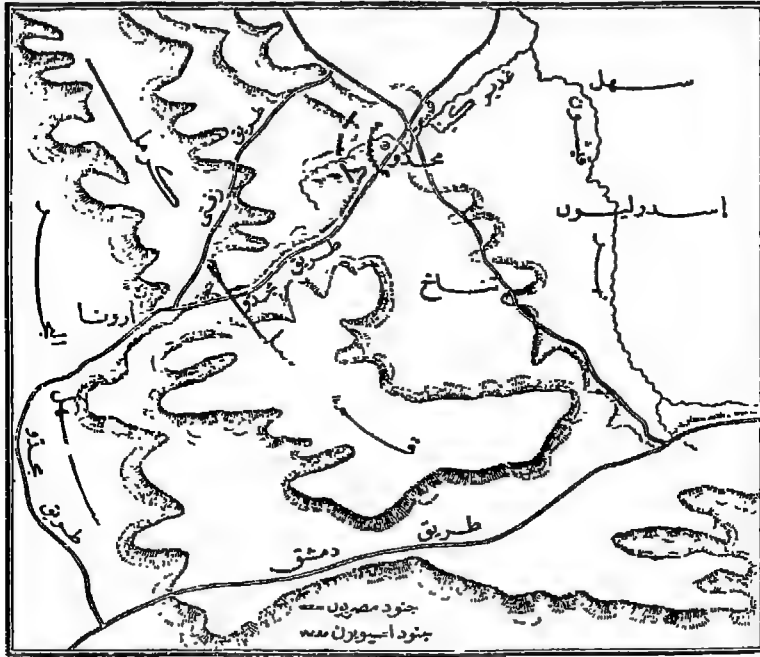
توطيد أركان الامبراطورية : تحوتمس الثالث

كانت امبراطورية تحوتمس الثالث وحعثشسوت في السنة الخامسة عشرة من حكمها تمتد في البلاد الآسيوية الى جبال لبنان شمالاً^(١) . ولم ندر ما ذا جرى لتلك الجهات حتى السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتمس الثالث لما ذكر أنه زحف وقتئذ الى آسيا لإخضاع أهلها، لكنه يستدل من أحوال تلك العصور وما تبعها من الحوادث أن سلطة مصر على تلك الجهات أخذت تضعف حتى تطلبت حضوره شخصياً لمعالجتها . ولاحظ أن البلاد الآسيوية مضى عليها الى ذلك الوقت مدة طويلة لم ترفيها جيشاً مصرياً، فكاد أهلها ينسبون ما لمصر من سلطة وعزة فاغترؤا وجمعوا كلمتهم واتحدوا برياسة ملك كدش ، ثم أعلنوا عصيانهم على فرعون مصر وانفصلوا عن امبراطوريته . وأخذت معاطس كدش تتفخ من الكبرياء والغطرسة اللذين كانا ظاهرين عليها في عهدها الأول لما كانت معروفة بمملكة الهيكسوس . ودللتنا الآثار أن البلاد الممتدة من يرازا (Yeraza) شمالاً يوديا (Judea) الى اقليم المستنقعات جنوباً وقرب نهر الفرات شمالاً شقت عصا الطاعة على مصر^(٢) . أما جنوبي فلسطين فلم يمرؤ على ذلك لأن أهله اعتبروا وانغطوا بما حصل لمدينة شَارُوهِن التي هي في وسط ذلك الاقليم لما ذقت الأمرين وقت حصار أحعمس الأول لها ست سنوات في حربه مع الهيكسوس ، ولذلك جبن سكان جنوبي فلسطين الاقليلاً منهم على مشاكسة المصريين . ثم استعمل الأهالي في شمال فلسطين وسوريا نفوذهم مؤثرين أهالي جنوبي فلسطين ليتحدوا معاً لمعاكسة المصريين ، طالبين منهم أن يتركوا لهم بعض قوات وامدادات حربية في مقابلة اشتراكهم معهم في ذلك الكفاح . فنجح عن ذلك أن انحاز بعض أهالي جنوبي فلسطين الى الثوار وقامت حرب أهلية مركزها مدينة شَارُوهِن (شهران)^(٣) . بعد ذلك امتد العصيان الى غربي سوريا (المعروفة عند المصريين باسم زاهي)^(٤) ثم الى مملكة يَتَانِي القوية وهي في شرقي نهر الفرات — هؤلاء جميعاً ساعدوا البلاد العاصية وشجعوها للتألب على فرعون مصر . والمعروف أن تحوتمس الثالث لم يتمكن من إعادة بسط نفوذه على آسيا الا بعد أن عاقب ملك متاني عقاباً صارماً وأخضع بلاد النهرين للسدة المصرية . ولاحظ أن مملكة متاني كثيراً ما كانت تتشاحن مع آشور الفينة التي كانت تنافسها في التقدم والبطش ، فلما رأت متاني أن القوات المصرية أخذت تهدد مكانها أيضاً زيادة على آشور صممت على بذل كل ما وسعها لدرء الخطر المصري وتأسيس مملكة قوية كمملكة الهيكسوس عاصمتها كدش تكون بمثابة فاصل وحاجز منيع بينه وبين مصر . ولا غرابة في ذلك

(١) ١٦٢ و ١٣٧ : ٢ (٢) ٤١٦ : ٢ (٣) ٤١٦ : ٢ (٤) ٦١٦ : ٢

فقد بلغ البطش المصرى وأخبار امبراطورية النيل عنان السماء فى تلك الأزمنة . من ذلك تتضح لنا المخاطر التى واجهت تحوتس الثالث وقتما استقل بالملك ، والحق يقال إنه الفرعون الوحيد الذى صادفته مثل هذه الصعوبات والمخاطر مضاعفة .

ولم نهند للآن الى ما وصل اليه الجيش المصرى من الانحطاط والتأخر أيام الملكة حمتشبسوت عند ما وقف استخدامه فى الغزوات والفتوحات ، كما أننا لا نزال نجهل المجهودات العظيمة التى بذلها تحوتس الثالث فى تحسين جيشه وتدريبه وجعله قادرا على مكافحة تلك الأخطار المتجمعة ، لكن المعروف أن جيش مصر كسواه من جيوش البلاد الشرقية وقتئذ لم يكن كبير العدد . والمرجح أن فراعنة مصر لم تغز آسيا بأكثر من عشرين ألف جندى أو ثلاثين ألفا ، وهذا فى الحقيقة أقرب



خريطة رقم ٤ : قمة جبل كرمل وعلاقتها بمدينة مجدو
ويرى القارئ فيها مواقع مدينتى مجدو وتنخ والطرق الواصلة لمجدو ومخزقة
قمة جبل كرمل ومراكز الجيشين فى بدة المعركة

تقدير للصواب^(١) . وفى أواخر السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتس الثالث ظهر الملك على رأس جيشه مستعدا للنضال وفتح البلاد واخضاع الممالك فزحف بجيشه متجها نحو البلاد الآسيوية مبتدئا من مدينة ثارو (Tharu) — قرب مدينة القنطرة — وهى آخر مدينة مصرية على حدود مصر الشمالية الشرقية ، وكان ذلك حوالى ١٩ أبريل سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد^(٢) .

(١) راجع كتاب معركة كادش للزلف صحيفة ٨ — ١١ (٢) ٤٠٩ : ٢ و ٤١٥

فوصل الى غزة في ٢٨ أبريل ، وهى على بعد مائة وستين ميلا من مدينة ثارو^(١) أى بعد مسير تسعة أيام . وهذا التاريخ يوافق اليوم الرابع من شهر بشنس بعد مضي اثنين وعشرين سنة كاملة على انتخاب آمون لتحتس الثالث على أن يكون ملكا على مصر بساحة الكرنك ذات العهد التى شيدها والده . والمعروف عن تحتس الثالث أنه كان لا يالوجهدا فى التأمر وبذل المساعى طويلا للجلوس على عرش مصر حتى بلغ غرضه . ولما كان هذا الملك نشيطا يقدر قيمة الزمن اختصر فى مظاهر الاحتفال بمرور اثنين وعشرين عاما على تنويجه وعول على الاستمرار فى الزحف شمالا فى صباح اليوم التالى للاحتفال^(٢) فسار محاذيا لشهلا (Shephelah) بالقرب من البحر مخترقا سهل شارون (Sharon) وميما مدينة يوحى (Yehem) المجهولة المركز فوصل اليها فى اليوم العاشر من شهر مايو سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد وضرب قباهه قريبا ، وتبعد هذه المدينة عن غزة نحو ثمانين ميلا أو تسعين وهى على المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال كرم^(٣) . فى ذلك الوقت كانت القوات الأسبوية العاصية اجتمعت بقيادة ملك كدش وسارت جنوبا حتى آخر حدود حلفائها واحتلت حصن مجدو القوى الواقع فى جزل (Jezreel) على المنحدر الشمالى لجبال كرم ، وجبل كرم هذا المستعرض الاتجاه يكرن أول حاجز منيع ضد القوات المصرية الزاحفة على آسيا ، ولا بد أن ملك كدش علم بذلك فاتخذ أول خط دفاع له ، ومنه علمنا أن هذا الملك كان ماهرا فى الفنون الحربية وأصول المعارك (مأخوذ باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كبرديج سنة ١٩٢٥) ، وهذا البيان هو أقدم ما ورد لنا فى التاريخ عن هذه المدينة . والمعروف أن مجدو هذه كانت مركزا حربيا منيعا لوقوعها بين سلسلتى جبال لبنان واشرافها على الطريق الموصل مصر ببلاد العراق ، ولذلك أصبح لهذه المدينة أهمية فى تاريخ الشرق أخذت تزداد على مر الدهور . وقد اعتبر تحتس الثالث كل هذه البلاد من أملاكه ، ولذا تكلم عنها قائلا : "لقد شرعت بلاد الفنكو (Fenkhu) الأسبوية تغزو بلادى"^(٤) ومنه يستنتج أن تحتس الثالث زحف بجيوشه فى بلاد موالية غير معارضة الى جبال كرم وبعد ذلك سار على حذر . فلما بلغ مدينة يوحى (Yehem) علم باجتماع جيوش أعدائه بمدينة مجدو فعقد مجلسا عسكريا من كبار ضباطه وتداولوا الأمر فى أحسن الطرق الممكن اتباعها لعبور جبال الكرم والوصول الى سهل إزدريلون (يزرل) (Esdraelon)^(٥) ، وكان أمامهم ثلاثة طرق تمكن الجيوش من عبور تلك المنطقة الجبلية ، أولها يتبدى من يوحى ويتجه الى مدينة أرونا (Aruna) مخترقا الجبل المذكور وواصلوا الى أبواب مجدو (راجع خريطة رقم ٤) ، وثانيها يتجه جنوبا مارا ببلدة طناخ (Taanaach) على بعد خمسة أميال من الجنوبى الشرقى لمجدو ، وثالثها شمالى ذلك يمر مخترقا بلدة زقى (Zeffi) وينتهى بالشمالى الغربى لمجدو^(٦) . فاختار تحتس الثالث الطريق الأول لقصره ، أما ضباطه فأشاروا عليه باتباع أحد الطريقين الآخرين لأنهما أوسع من الأول قائلين : "إذا اتبعنا الطريق الأول فى زحفنا أفلا نضطر خيولنا أن تسير فرادى وكذا جنودنا فتكون مقدمتنا

(١) ٤٠٩: ٢ ٤١٧ د (٢) ٤١٨: ٢ (٣) ٤١٩: ٢ (٤) ٤٣٩: ٢ (٥) ٤٣٠: ٢ (٦) ٤٢١: ٢

مشبكة مع الأعداء ومؤخرتنا لا تزال في أرونا ؟ ” (١) . من هذا استنتجنا أن المصريين كانوا على معرفة كبيرة بمصاعب ذلك الطريق القصير ، لكن تحوتمس الثالث لم يأبه لمشورتهم وأقسم أن يتبع هذا الطريق مخاطبا ضباطه بأنه قد صمم على تنفيذ فكره وهم أحرار في أن يوافقوه أو يخالفوه (٢) . بعد ذلك استعد واحتاط وزحف على أرونا في ١٣ مايو (٣) وخوفا من مفاجأة أعدائه له ورغبته في تشجيع جنده قاد جيوشه قائلا : ” سأسير أمامكم كي أظهر لكم الطريق فتفتقروا أثر قديم ” (٤) . وتقع أرونا على جبل كرمل ويصل إليها الانسان من طريق ضيق وقد وصل إليها تحوتمس الثالث سالما وأمضى فيها الليلة الرابعة عشرة من شهر مايو ، ولا بد أن جيوشه كانت منتشرة وقتئذ على الطريق الممتد بين أرونا ويوحم . فلما كان صباح يوم ١٤ مايو واصل زحفه مسرعا لكنه سرعان ما التحم ببعض جنود أعدائه (٥) الذين كانوا لحسن الحظ قليلي العدد ، ولولا ذلك لفتكوا به لأنه كان منهوك القوى مبعثر الجنود على مدى الطريق الجبل الضيق . في ذلك المكان أخذ الطريق يتسع فأخذ تحوتمس الثالث يوسع مقدمة جيشه أيضا وهناك شدد عليه ضباطه بأن ينتظر حيث هو حتى تصل وحدات جيشه التي لا تزال في أرونا (٦) فاصغى لذلك وانتظر مقاوما أعداءه . ولما كان عدد القوة المعادية قليلا لم يكتف المصريون بالمقاومة بل أخذ تحوتمس يزحف تدريجا حتى اذا ما حل وقت الزوال كانت مقدمة جيشه قد بلغت سهل يزول (Esdraelon) . هذا هو أقدم جيش معروف لآن دخل ذلك السهل التاريخي الذي أصبح منذ ذلك الوقت معتركا حريا حتى عهد اللورد اللبني . وليلاحظ أن اللورد اللبني اتخذ في زحفه الطريق نفسه الذي سار فيه تحوتمس الثالث وذلك عام ١٩١٨ لما سار بجيائه خلف الجيش التركي الهارب (مأخوذ باذن من الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج - القسم المصري القديم - صحيفة ٧٠ طبع سنة ١٩٢٥) . وحوالي الساعة الواحدة مساء بلغت الجنود المصرية جنوبى مجدو بدون مقاومة فعسكرت على شاطئ غدير كينا (Kina) (٧) وهكذا خسر الأسويون فرصة لا تقدر بثمن لأنه كان في امكانهم سحق المصريين تماما ، والظاهر أنهم كانوا على مسافة بعيدة في الجنوب الشرقى للمدينة وقتما كانت صفوف المصريين الرفيعة تتدفق من قمة الجبل . ويستحيل علينا الآن أن نعرف موقع الأعداء بالضبط وقتئذ لكن المعروف أنه لما التحمت مقدمات الجيشين في الجبال كان جناح الأسويين الجنوبي في مدينة طناخ (Taanach) (٨) ظنا منهم بأن تحوتمس الثالث اتبع في سيره طريق هذه المدينة الى مجدو ، ولولا ذلك لاستحال على المصريين الانحدار من الجبال والوقوف جنوبى مجدو . بعد ذلك طاف تحوتمس الثالث حول معسكره في سهل مجدو وأصدر أوامره الى جميع قواته أن تستعد بسرعة وبنظام تام ، أما الشعور المصرى وقتئذ فكان بالغاً أحسنه وكانت روح الحرب متأججة في الصدور (٩) . وفي عصر ذلك اليوم (١٤ مايو) أو في مساءه اغتتم تحوتمس الثالث فرصة وجود الأعداء في الجانب الشرقى أو الجنوبى الشرقى من جيشه وزحف

(١) ٢ : ٢١ وانظر خريطة رقم ٤ (٢) ٢ : ٢٢٢ (٣) ٢ : ٢٢٤ - ٥ (٤) شرحه (٥) ٢ : ٢٦٦

(٦) ٢ : ٢٢٧ (٧) ٢ : ٢٢٨ (٨) ٢ : ٢٢٦ (٩) ٢ : ٢٢٩

يحناسه الأيسر على الشمالى الغربى لمجدو^(١) وهكذا حفظ لنفسه خط الرجعة مارا ببلدة زقفي في حالة هزيمته . أما اذا انتصر فهذا الطريق يمكنه من قطع خط الرجعة على أعدائه اذا حاولوا الفرار شمالا .

وفي فجر يوم ١٥ مايو أمر تحتومس الثالث جيشه بالزحف والهجوم على العدو فاعتلى عجلته البراقة المصنوعة من خليط الذهب والفضة وسار في قلب جيشه ، وكان جناحه الأيمن على تل جنوبى غدير كيتا أما جناحه الأيسر فقد ذكرنا سابقا أنه كان في الشمالى الغربى لمجدو^(٢) . فأراد الأسويون أن يحموا مدينتهم فالتقوا قواتهم بين جيش تحتومس الثالث ومجدو التي عززت طبعا تلك القوات بنجدات من عندها أيضا ، فانقض تحتومس الثالث عليهم وهو في مقدمة جيشه^(٣) بغيرة متلهية شاهرا حسامه متحمسا للزال وأخذ يفتك بالبربر ويصعق سكان الرتو ويأسر أمراءهم أحياء ويفنم عجلاتهم المذهبة ذات الخليل المطهمة^(٤) ، وعلى أثر هذا الهجوم الأول تهقر العدو وفر نحو مجدو مذعورا تاركا خيله وعجلاته المفضضة والمذهبة ، وصار سكان المدينة يتشعلون جنودهم من ملابسهم لأن أبواب المدينة أقفلت وقتئذ ، فكان الأهالى يدلون ملابسهم لربط الجنود العارية اللائذة اليهم وشدهم داخل مجدو . ومن المؤكد أنه لو استمر تحتومس الثالث وقتئذ في الهجوم على أعدائه بسرعة لتمكن من الاستلاء على مجدو لكن جيشه شغلته الأسلاب والغنائم فتمكن بذلك ملك كدش اللعين وملك مجدو التعس من الدخول والتحصن في مجدو^(٥) . وهكذا الجيوش الشرقية كما حازت نصرا كانت ولا تزال تتمتع عن القتال ومواصلة الكفاح مهتمة بالغنم ، وإذا كانت هذه الحال في عهدنا فلتحتومس بعض العذر في القرن الخامس عشر قبل الميلاد اذا كانت جنوده منهكة في نهب غنيمة الأسويين بدل مواصلة الكفاح . واليك بيان تلك الغنيمة العظيمة التي استولى عليها الجيش المصرى وقتئذ : ” خيل وعجلات مذهب ومفضضة أما جثث الأعداء فكانت ملقاة على الأرض كالسمك . وقد لبث جيش جلالته الظافر يعد تلك الغنائم وأقسامها . وهناك اتضح أن خيمة ملك كدش اللعين التي كان فيها ابنه أسرت أيضا فعمّ الفرح نقوس المصريين كلهم و برؤا اشكر آمون على النصر الذى منحه ابنه تحتومس الثالث ثم جمع الجنود الغنيمة التي استولوا عليها وهى عبارة عن أيد (مبتورة من الأموات) ومن أسرى أحياء وخيل وعجلات مذهب ومفضضة“^(٦) . ومنه يتضح أن هزيمة الأسويين كانت تامة حتى وقعت خيمة ملك كدش في أيدي المصريين فأحضروا أمانها الثمين النفس الى فرعون . أما تحتومس الثالث فكان شديد الحذر والحرص لأنه اقتنع بما خسره من الصدف الثمين فلم تسره علامات النصر والابتهاج التي قام بها جيشه ، ولذلك خاطب قواته قائلا ما ترجمه : ”لو استمررتم في الهجوم واستوليتم على هذه المدينة لقدمت اليوم قربانا عظيما لأجل المعبود رع . فرؤساء البلاد الماصية جميعا موجودون الآن داخل هذه المدينة مجدو ولذا فالاستيلاء عليها كان بمثابة الاستيلاء على ألف مدينة“^(٧) . ثم أصدر جلالته أمره بحصار مجدو في الحال ففاستها الجنود

(١) ثبت ذلك بموضعه في اليوم التالى . (٢) ٢ : ١٥٣٠ : ٢ (٣) شرحه ١ : ٤ (٤) ٢ : ١٣ :

(٧) ٢ : ٣٢٢ :

(٦) ٢ : ٣١١ :

(٥) ٢ : ١٥٣٠ : ١ :

المصرية من الخارج وطوقها بسور من الشجر الأخضر الجميل وليث الملك شرق المدينة مشرفا على هذا العمل^(١) وقد سرّ من ذلك لأنه لما عاد الى مصر باهى به قائلا ان آمون أعطاه جميع أعدائه الأسويين (من بلاد زاهي) محاصرين في مدينة واحدة^(٢) وان جلالته اصطادهم في تلك المدينة وطوقهم بسور منيع ولذلك لقبه المصريون "تحوتمس محاصر الأسويين"^(٣) لأن العادة اقتضت في عهد الامبراطورية أن كل بناء يشيده فرعون يطلق عليه اسم خاص . ثم أعطيت الأوامر الشديدة للجيوش المصرية المحاصرة بمراقبة المدينة مراقبة دقيقة وبعدم السماح لأحد من أهلها بالاقتراب من جيوش فرعون الا في حال تسلم نفسه أسيرا . وسرى فيما بعد أنه قبل أن يتمكن تحوتمس الثالث من إحكام حصاره تمكن ملك كدش من الهرب مع شدة رغبة تحوتمس في منع ذلك وعظم احتراسه بارسال جزء من جيشه في الشمال الغربي لمجتو قبل التهام الجيشين . وباستمرار الحصار كان أمراء آسيا الذين أسعدهم الحظ فلم يحصروا داخل مجتو يسلمون أنفسهم لفرعون مصر المتأجج فرحا ونشاطا ، ودلتنا الآثار أن هؤلاء الأمراء أتوا ساجدين خاضعين مظهرين طاعتهم للملك الطائر الصيت^(٤) . ولم تصل لنا معلومات عما جرى وقت الحصار ولا عما قام به المصريون من الهجوم سوى ما أورده الكاتب الكاهن الذي هو مرجعنا الوحيد في ذلك . ومن رواية هذا الكاتب "أن جلالة الملك تحوتمس الثالث كان يدقن كل يوم حوادث تلك المدينة وما جرى للملكها اللعين وجيشها الخسيس في درج جلدى حفظ لمعبد آمون في ذلك الوقت"^(٥) . أما هذا الدرج فقد فقد لسوء الحظ كما فقد أيضا سفر أيام ملوك يهوذا^(٦) ، ولذلك كانت خسارتنا العلمية والتاريخية عظيمة لا تقدر بثمن . ومكث المصريون في وادي زرل مدة طويلة عاشوا في أثناءها على حبوب ذلك الوادي ودسم أغنامه ، فكان هؤلاء القوم أقدم من عيرف من غزاة ذلك الوادي الجميل الذي صار منذ ذلك الوقت ميدان الحروب والمشاحنات الى عهد نابوليون . أما الحال داخل مجتو فكانت على نقيص خارجها لأن المدينة أخذت على غزاة ولم تستعد للحصار فضرب الجوع أطنابه ولم يعد المحصورون قادرين على مقاومة الحصار أكثر من بضعة أسابيع ثم سلموا في آخرها وتبين أن ملك كدش ليس ضمن الأسرى . قال المؤرخ المصري : "ان الأسويين الذين كانوا في مدينة مجتو التعة . . . قدموا أنفسهم لعظمة تحوتمس الثالث معطى الحياة قائلين : اسمح لنا ياذا الجلالة أن نقدم لك الجزية اللازمة"^(٧) . ثم أحضروا لجلالته ما يملكونه مظهرين له الولاء راجين منه أن يسمح لهم بالبقاء أحياء لأن فضله عظيم"^(٨) . فرد عليهم جلالته : "لقد سمحت لكم عظمتي بأن تبقوا أحياء"^(٩) ومنه يتضح أن معاملة الملك لهم كانت غاية في اللطف ولم نهتد للآن بين نصوص فرعون مصر أنه كان يقاخر ويباهى بالائتلاف العظيم والتخريب العام كالذى أتاه ملوك آشور وباهوا به وقت معاملتهم لعصابتهم . ووضع المصريون أسرة ملك كدش رهينة لاتقاء شره ، فقال تحوتمس الثالث : "لقد أخذت نساء وأطفال اللعين ملك كدش رهائن وكذا نساء الرؤساء وأطفالهم"^(١٠) .

(١) ٤٣٣ : ٢ (٢) ٤٤٠ : ٢ (٣) ٤٣٣ : ٢ (٤) ٤٤٠ : ٢ (٥) ٤٣٣ : ٢ (٦) سفر الملوك
بن. أول ، اصحاح ١٥ ، سطر ٢٣ (٧) ٤٤١ : ٢ (٨) ٤٣٤ : ٢ (٩) ٤٤٢ : ٢ (١٠) ٥٩٦ : ٢

ومع أن الغنائم التي استولى عليها المصريون في حومة الوغى كثيرة فقد كانت صغيرة جدا بالنسبة لما وقع في يد فرعون اثر سقوط مجدو وتسليمها لجيشه ، فقد استولى المصريون وقتئذ على تسعمائة وأربع وعشرين عجلة حربية وفي ضمنها عجلتا ملك كدش ومجدو، وعلى ألفين ومائتين وثمانية وثلاثين حصانا وعلى مائتي زرد منها زرد الملكين المذكورين وقباب ملك كدش المزركش الغالي وعلى ألفين من البهائم الكبيرة واثنين وعشرين ألفا وخمسمائة رأس من الغنم وأثاث ملك كدش البديع وصو لجانه الفضى وتمثال فضي يحتمل أنه تمثال معبوده وتمثال لشخصه مصنوع من الآبنوس الملبس بالذهب واللازورد^(١) وكميات كبيرة من الذهب والفضة لا يمكن تقديرها بالغربط لأن الكاتب المصرى أضافها الى كميات الذهب والفضة التي استولى عليها المصريون في المدن الأخرى الأسبوية . ولا يخفى أن الأغنام المذكورة سبيت في الأراضي حول مجدو لأننا ذكرنا أن المدينة سلمت لأن ضغط القحط كان عليها شديدا . وقبل أن يترك المصريون مجدو حصدوا زرع سهل يزول المحيط بها فجمعوا منه ما يقرب من مائة وثلاثين ألفا من مكابيل الحبوب علاوة على ما استنفده الجيش المصرى في أثناء حصاره لمجدو^(٢) .

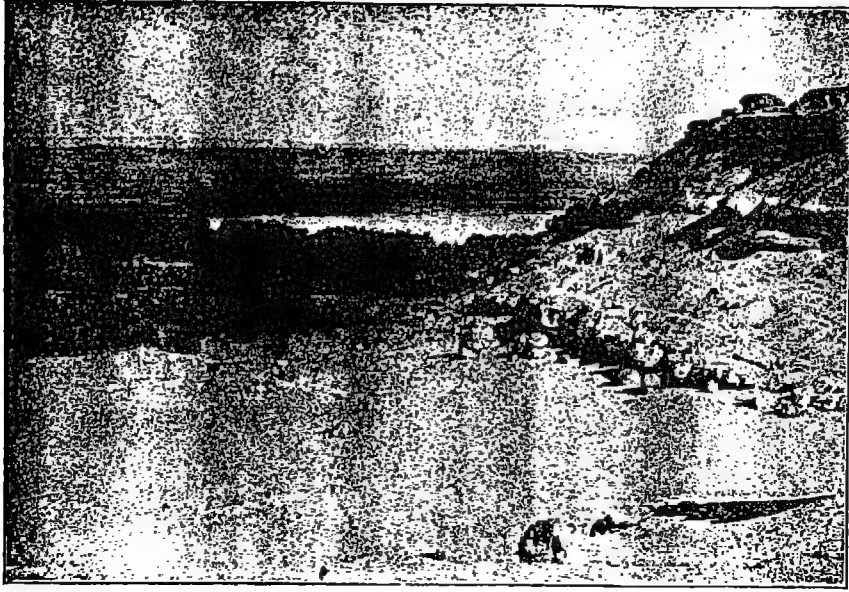
ولم يترك تخوتس في خلال زحفه فرصة تمر الا استخدمها في اخضاع البلاد المعادية شمالي مجدو، فوصل الى منحدرات لبنان الجنوبية حيث توجد الامارة ذات المدن الثلاث يانوام (Yenoam) ونوج (Nuges) وحرنكرو (Herenkeru) وكانت تحت حكم ملك كدش فسلمت للمصريين بسرعة ، ولا يبعد أن رئيسها كان بين السراة الذين أظهروا خضوعهم وطاعتهم لتخوتس . ثم رأى الملك أن يشيد قلعة بتلك الجهة لصدة أى تقدم جنوبى يحاوله ملك كدش الذى لم يقهر لآن ولتأمين الطريق الذى بين سلسلتى جبال لبنان من أعداء المصريين ، وقد سميت هذه القلعة "تخوتس جامع الوحشين"^(٣) وقد استعملت هنا كلمة "وحشين" النادرة التي أطلقتها حعثشيسوت سابقا على الهيكسوس . وأخذ تخوتس ينظم ما أخضعه من البلاد ويوطد فيها السلم مستبدلا بحكامها المعادين آخرين موالين له^(٤) وقد سمح للحكام الجدد أن يحكموا البلاد بحرية بشرط أن يدفعوا لمصر الجزية في مواعيدها . ولكن يتحقق أنهم راعوا هذه الشروط أخذ الأنجال الكبار لهؤلاء الحكام الى مصر رهائن ووضعهم في قصر خاص يدعى "حصن طيبة"^(٥) وهناك تعلموا العلوم والمعارف وغرس في قلوبهم حب مصر والعطف عليها ، وإذا توفي أحد حكام آسيا كان يسمح لنجله الكبير أن يعود الى بلده ويقوم مقامه^(٦) . وهكذا كانت سلطة تخوتس الثالث واصله الى جبال لبنان شمالا ومتوغلة في الداخل حتى مدينة دمشق^(٧) . والمعروف أن تخوتس كان يفرض الجزية ويظهر من التشدد على الأهالى بقدر ما يظهر منه من العداوة والبغضاء نحو مصر ، ولذلك لما رجع جلالته الى مصر كان معه نحو أربع مائة وستة وعشرين رطلا ذهب وفضة مصوغة بشكل حلقات أو أوان بديعة أو أثاث ثمين علاوة على ما استولى عليه من غنائم أخرى أقل قيمة منها في أثناء سقوط مجدو^(٨) .

ولا حاجة بنا أن نؤكد للقارئ أن وصول تخوتس الثالث الى طيبة في أوائل أكتوبر كان محفوفًا بالتبجيل بشكل لم تر البلاد أنخر ولا أجل منه في أى عهد سابق ، ففى أقل من ستة أشهر (أى في مدة

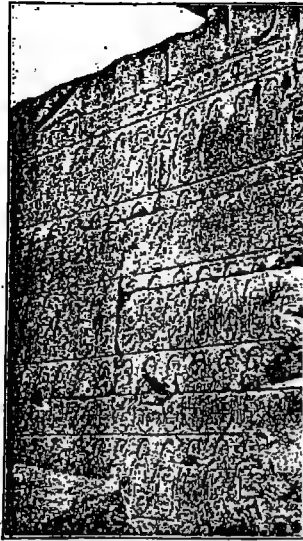
(١) ٤٣٥: ٢ (٢) ٤٣٧: ٢ (٣) ٥٤٨: ٢ (٤) ٤٣٤: ٢ (٥) ٤٠٢: ٢ (٦) ٤٦٧: ٢ (٧) ٤٠٢: ٢ (٨) ٤٣٦: ٢

فصل الجفاف) في فلسطين زحف من نارو (Tharu) على آسيا وانتصرا انتصارا عظيما على مجتدو بعد ما حاصرها وسلمت له ثم زحف شمالا وانهى الى لبنان حيث استولى على ثلاث مدن وشيد قلعة عظيمة ووطد النظام الادارى في شمالي فلسطين ثم عاد سالبا ظافرا الى طيبة (١). ولكي يتصور القارئ الصعوبات التي قاساها تحوتمس الثالث في حروبه الأسبوية يجدر به أن يطلع على الأحوال التي قاستها جنود نابوليون في تلك المنطقة في أثناء زحفها من مصر الى مدينة عكا التي تبعد عن حدود القطر المصرى بقدر المسافة التي تبعد بها مجتدو، وعلى المصاعب التي لاقاها اللورد اللبني أخيرا وقت زحفه على الترك في الجهة نفسها (مأخوذة باذن الأستاذ برست من دائرة معارف التاريخ القديم بلامعة كبريدج صحيفة ٧٢ طبعة ١٩٢٥ - القسم المصرى) . ولا غرابة اذا علمنا أن تحوتمس الثالث لما عاد الى طيبة مقرر حكمه سالبا غانما أقام ثلاثة أنواع من "أفراح النصر" مدة كل منها خمسة أيام احتفالا بنصره الأسبوى ، ووافق وقت هذه الأعياد ميعة العيد الأول والثانى والخامس لآمون على حسب التقويم السنوى . وقد احتفل بأخر هذه الأعياد الثلاثة في معبد تحوتمس الثالث الذى كان قد أنجز حديثا وقتئذ بسفح طيبة الغربى ، فكان هذا أول عيد أقيم بذلك البناء . وصارت هذه الأعياد بعد ذلك ثابتة ووقفت لها الخيرات والنفقات للتمكن من إحياؤها كل سنة (٢). ولما حل ميعة أكبر أعياد آمون وهو أوبت الذى تبلغ مدته أحد عشر يوما وقف تحوتمس الثالث على ذلك المعبود إيراد المدن الثلاث التي استولى عليها جنوبى لبنان (٣) زيادة على ما أهداه من الهدايا الثمينة والأواني البديعة المصنوعة من الذهب والفضة وغير ذلك من الأبحار الكريمة التي غنمها من أرض الرتنو (٤) . وأراد أن يضمن لمعبد آمون إيرادا كافيا ليكون على الدوام مزينا بأفخر الأثاث والأمتعة والأدوات فأضاف الى تبرعاته السالفة له أراضى واسعة بالوجه البحرى والوجه القبلى وقطعانا من الأغنام والخدم المزارعين الذين دخلوا في حوزته بانتصاره على البلاد الأسبوية (٥) وهكذا وضع أكبر حجر أساسى في زيادة ثروة معبد آمون حتى فاق هذا المعبد في الثروة معابد القطر جميعها . ثم اتضح له أن المعبد القديم لا يتناسب مع ماله العظيمة خصوصا وأنه أصبح الآن المعبد الرسمى لامبراطورية عظيمة زاهية ، زد على ذلك أن الساحة التي شيدها تحوتمس الأول بالكركك هدم ثلث سقفها وبعض عمدها وقما باشرت الملكة حعتشبسوت نصب مسئلتها ، فصار الجناح الجنوبى لتلك الساحة بلا سقف ولا عمد ولم يبق في جناحها الشمالى الا أربعة عمد من خشب الأرز وعمودان من الحجر الرملى (٦) ، ثم ان المباني التي شيدها تحوتمس الثالث حول مسئلتى حعتشبسوت شوهت ذلك المعبد أيضا (٧) ، ومع هذا كانت هذه القاعة عزيزة في نظر تحوتمس الثالث لأن آمون اختاره ملكا على مصر فيها . ولهذا الأسباب استبدل الملك بالمهندس تحوتى الذى كان مواليا لحعتشبسوت مهندسا آخر يدعى من خيبرغ سينب (٨) ومعناه تحوتمس الثالث المتمتع بالصحة لإخلاصه له وأمره بأن يصلح الجناح الشمالى للساحة المذكور وأن يستبدل بعمدها الخشبية أخرى

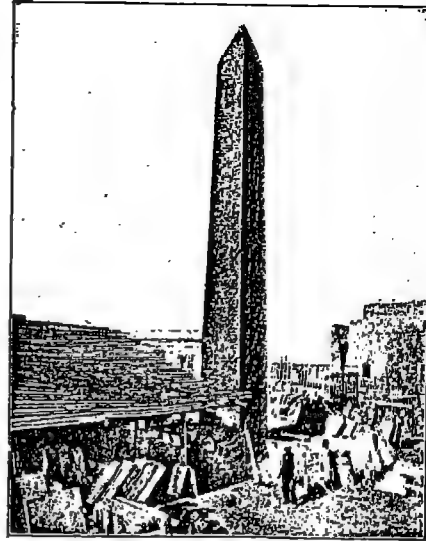
(١) ٥٤٩: ٢ - ٥٥٠: ٢ (٢) ٥٣ - ٥٥٧: ٢ (٣) ٥٥٨: ٢ - ٥٥٩: ٢ (٤) ٥٧٢: ٣ (٨) ٣٠٦: ٢ (٧) ١٠٠: ٢ (٦) ٥٩٦: ٢ - ٥٩٧: ٢ (٥)



شكل ١١٥ — منظر لواجهة آمون المعروفة الآن بـسيوه (مأخوذة عن شيندورف)



شكل ١١٧ — قائمة بأسماء المدن
الأسبوية التي استولى عليها تحوتمس
الثالث على جدران معبد الكرنك



شكل ١١٦ — ملة تحوتمس الثالث كما كانت
مقامة بالاسكندرية قبل نقلها الى نيويورك

من الحجر الرمل^(١)، أما الجناح الجنوبي فقد ترك وشأنه . وفي هذا الجناح المرمم كان تحوتمس الثالث يحتفل ببعض أعياد انتصاراته الأولى مخصصا الباقي منها لمعبده الذي وجبه لآمون وهو في سهل طيبة الغربى . ويستدل من تشييد تحوتمس الثالث لمعبد بتاح الصغير القريب من معبد الكرنك العظيم بعد رجوعه متصرا من غزوته الأولى^(٢) أنه أظهر سخاء لمعبودى عين شمس ومنف القديمين ، ولا يخفى أن معبد عين شمس كان معتبرا بمعبد الحكومة الرسمى لأن رع كان معتبرا شكلا آخر لآمون .

وأخذ تحوتمس الثالث يركز امبراطوريته على أساس مكين . لكنه يلاحظ أن الملكة حتشبسوت لم تقم بحروب في أثناء حكمها بأسيا ولذا ضعف النفوذ المصرى هناك كثيرا ، وعليه فلم تكن حملة تحوتمس الثالث الأولى مع شدتها كافية للقضاء على كدش عدوه اللدود . لذلك فضل أن ينظم ويحى ما أخضعه من بلاد أسيا أولا ثم يزحف ثانيا على أعدائه . وفي السنة الرابعة والعشرين من حكمه زحف بجيوشه الحرارة على أسيا سائرا في الطريق المتخني الطويل محترقا شمالى فلسطين وجنوبى سوريا فتقاطر عليه حكام تلك الجهات مظهرين له ولاءهم وخضوعهم "حيثما طاف أو ضرب قباهه"^(٣) . وكانت أخبار نصره الأولى بلغت آشور التي كانت وقتئذ في عتفوان شبابها فرأى ملكها أن الأصوب له معاملة الامبراطورية المصرية العظمى بالحسنى فأرسل لتحوتمس الثالث حال وصوله الى سوريا هدايا جزيلة من الأحجار الكريمة والخليل المطهمة فاعتبرها المصريون وقتئذ جزية اشارة الى ولاء آشور لمصر^(٤) والمرجح أن هذه الحملة لم تقع فيها مشاحنات ولا وقائع حربية .

وعاد تحوتمس الى طيبة فوصل اليها في أكتوبر كسابق غزوته وحينئذ صمم على توسيع الكرنك لتكون في نظامها مناسبة للامبراطورية الجديدة . ولما كان رسوب غرين النيل في قرار النهر رفع مستوى مائه حتى أوصله زمن الفيضان الى فناء المعبد اضطر تحوتمس الثالث أن يرفع مستوى أرض ذلك المعبد ، فهدم المدخل البديع الذى شيده أمنتحتب الأول . وفي أواخر فبراير في عيد مبدأ الشهر القمري الذى وافق وقتئذ عيد آمون العاشر رأس الملك احتفالا عظيما لوضع أساس البناء الجديد الذى صمم على تشييده بالكرك^(٥) . وقد زاد هذا الاحتفال أهمية خروج تمثال آمون ليشهد الاحتفال واشترك تحوتمس الثالث في شد الحبل المستعمل لقياس أبعاد الأساس^(٦) . وليلاحظ أن وجهة المعبد الأصلية هي في الجهة الغربية لكن مستلى حتشبسوت المنصوبتين في ساحة تحوتمس الأول المهذمة كانتا عقبتين في سبيل توسيع البناء في تلك الجهة . زد على ذلك أن تحوتمس الثالث لم يتمكن ولم يرغب في تشييد المباني حول مسلات والده القائمة على مدخل المعبد الغربى ولذلك صمم أن يشيد ساحاته الشاحخة ذات العمدة العظيمة في طرف المعبد الشرقى حيث توجد الى الآن باقية ومعتبرة احدى أبنية طيبة الكبرى . وأكبر هذه الساحات واحدة يبلغ طولها حوالى مائة وأربعين قدما وهي موازية لمحور المعبد الرأسى وعرفت باسم "تحوتمس الثالث العظيم الآثار" وحافظت على هذا الاسم مدة ستمائة وخمسين سنة بعد ذلك^(٧) . ويوجد خلف هذه الساحة قدس الأقداس

(١) ٦٠٠-٦٠٢ : ٢ : ٦٠٩ ملاحظة (٣) ٤٤٧ : ٢ و ٢٥٠ : ١ (٤) ٤٤٦ : ٢ (٥) ٦٠٨ : ٢

(٦) شرحه (٧) ٢ : صحيفة ٢٢٧ ملاحظة (و)

تخطيط به نحسون قاعة تقريبا ، وقد خصصت احداها وهي الجنوبية لقراءة الدعوات والصلوات لذكرى أجداد تحوتس الثالث^(١١) . وتتصل بهذه القاعة أخرى أمر الملك بكتابة أسماء أجداده عليها وبالأكثر من القرايين لهم . وعمل تماثيل لأجسادهم ، ولا تزال قائمة هذه الأسماء محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس . وحديثا عثر على تماثيل عدة لأجداد تحوتس الثالث في الحوش الجنوبي للمعبد حيث خبئت وقت الحرب بقيت سليمة الى أن كشف عنها .

وفي السنة التالية (أى السنة الخامسة والعشرين من حكم تحوتس الثالث) ذهب الى بلاد آسيا وجعل همه تنظيم أملاكه فيها واعتبرت فيها بعد النصف الجنوبي لامبراطوريته المقبلة ، أما الجزء الشمالى فكان لا يزال عاصيا . ثم عاد الى طيبة فوجد مبانیه بالكرك بلغت من الفخامة درجة كبيرة فأمر بنقش جدران إحدى القاعات بنباتات وحيوانات آسيا التي سبها وجاء بها ليقدمها الى معبد آمون^(١٢) وبجديرته المقدسة التي شيد حولها إفريزا جميلا .

ولم تفصل إلينا أخبار عن رحلة تحوتس الثالث الرابعة بآسيا لكنه يستدل من قرائن الأحوال أنها وجهت للغرض نفسه الذى ذهب لأجله في رحلاته الثلاث السابقة . واتضح لتحوتس وقتئذ أن غزوه كدش عن الطريق الواقع بين سلسلتى جبال لبنان يعرضه للخطر اذا لم يخضع أولا بلاد فينيقيا التي على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه تأكد أنه يستحيل عليه غزوه أرض النهرين قبل أن يخضع كدش المسيطرة على وادى نهر (العاصى) الأورونت وذلك قام بعدة غزوات على شاطئ البحر الشمالى ليتخذ في المستقبل قاعدة حربية في حروبه مع كدش ، ومتى نجح في ذلك سهل عليه الزحف شمالا من الشاطئ على بلاد متانى واقليم النهرين جميعه . ولا شك أن هذه الخطوات سديدة لدرجة يستحيل على أى ضابط حربى حديث أن يتكرأحسن منها بحيث تناسب أحوال تلك العصور أو أن يخترها بمثل ما أنجزها تحوتس من الدقة والمثابرة . والحق يقال ان الحلفاء لو اتبعوا في الحرب العظمى هذه الخطة في حرب الترك لغازوا بالنصر هناك في أقل من سنة واحدة (ماخوذ باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم للجامعة كبريدج صحيفة ٧٤ طبع ١٩٢٥) وقد جهز لذلك أسطولا تحت قيادة القائد الأمين نييامون^(١٣) الذى خدم تحوتس الأول سابقا . وفي السنة التاسعة والعشرين عزم على القيام بغزوته الخامسة فأبحر بأسطوله الغضخم الى المدن الشمالية على شاطئ فينيقيا الغنى لأول مرة في حياته ، ولا بد أنه قد نقل معداته الحربية وجنوده على أسطوله لأنه بدأ بأعماله الحربية في فينيقيا قبل أن يخضع كدش وجوبى تلك البلاد . ولا يبعد أنه توصل الى التزول على شاطئ فينيقيا الشمالى باتفاق ودى سابق مع مدينه صور (Tyre) لأنه ورد في الآثار أن أحد الفراعنة عامل هذه المدينة معاملة خصوصية بأن اعتبرها مدينة حرة^(١٤) . وبدسى أن المدينة المذكورة لم تقدم على ابرام مثل هذا الاتفاق الا حفاظا لتجاريتها من الكساد وتخلصا من نير الجزية أو على الأقل من بعض شروط المستقبل . ولم نهند للآن الى أول مدينة استولى عليها تحوتس الثالث

(١١) ٢ : ٦٠٤ - ٥ (٢) ٢ : ٤٥٠ - ٥٢ (٣) ٢ : ٧٧٩ (٤) خطابات البارنة ، لونكر ، لوح ٣٣

وقتشذ لكنه يغلب أنها على الشاطئ مقابل تونب (بعلبك ؟) والظاهر أنها كانت مدينة غنية لأن تخوتس استولى فيها على غنائم كثيرة ، وورد أن هذه المدينة كانت تحوى معبدا لآمون^(١) شيده أحد أسلاف تخوتس الثالث (ربما كان تخوتس الأول أو أمتنحت الأول) . في ذلك الوقت أيقنت المدن الداخلية للبلاد أن نجاح هذه الضربة الموجهة اليهم معناه دمارهم وهلاكهم فبادر أهلها بإرسال القوات والمدد لمحاربة المصريين وكانت مدينة تونب (بعلبك ؟) أول من قام بذلك^(٢) لأنها تأكدت أن سقوط المدينة المجهولة المذكورة سابقا يعقبه سقوط تونب (بعلبك ؟) أيضا . أما تخوتس الثالث فاستولى أولا على أسطول المدينة المجهولة^(٣) ثم زحف مسرعا بجيشه الى الجنوب نحو مدينة أرواد المنيع (أرمادا) فحاصرها مدة يسيرة اضطر في أثناءها لأن يبحث الأشجار المحيطة بها من أصولها كما فعل بمدينة مجدو فسلمت له بعد مدة يسيرة^(٤) ثم استولى على خيراتها الفينيقية الجزيلة . وكان ذلك وقت الحريف والأشجار محملة بالفواكه اللذيذة فوجد المصريون هناك البنيذ يتدفق من معاصره كاليباء والحبوب مكدسة على تلال المدينة بكيات تفوق رمل الشاطئ فأخذ منها الجيش المصرى جزءا عظيما^(٥) . واستحال على تخوتس أن يقيد جيشه بالمحافظة على النظام في الأيام الأولى لهذا النصر ، فقد جاء أن الجنود المصرية شربت الخمر وأكثرت من الأكل والشرب والتضميخ بالعطريات كما كانت تفعل في الأعياد بمصر^(٦) . ثم تقدم حكام مدن شاطئ فينيقيا لمظهرين الخضوع والولاء لتخوتس وفي أيديهم الجزية^(٧) . وهكذا استولى تخوتس على جزء من شاطئ فينيقيا الشمالى اتخذ فيما بعد قاعدة حربية لغزو البلاد المجاورة ، ثم عاد الى مصر بجرا^(٨) ويظن أن هذه العودة البحرية لم تكن الأولى من نوعها .

الى هنا مهدت السبل وأعدت الوسائل لغزو كدش لأن تخوتس الثالث أخضع تماما البلاد الجنوبية وكذا الجزء الشمالى للشاطئ البحرى نتيجة غزواته الخمس ، وعليه صمم تخوتس الثالث على القيام بغزوة سادسة يسحق فيها كدش عدوه اللدود . فى السنة الثلاثين من حكمه سافر تخوتس الثالث بجرا الى فينيقيا فوصل اليها في أواخر الربيع أى بعد موسم المطر وأترل جنده فى صميرة (Simyra)^(٩) على فم النهر الكبير (Eleutheros) ثم زحف فى هذا الوادى متجها رأسا نحو كدش^(١٠) لأن هذا الطريق أقصر وأسهل طرق كدش من ساحل فينيقيا الشمالى ، زد على ذلك أنه الطريق الوحيد الصالح للأجاءات الحربية واختراق المنطقة الجبلية الى كدش وهى غربى نهر الأورونط فى الطرف الشمالى للوادى الذى هو بين سلسلتى جبال لبنان . فى ذلك المكان تنتهى سلسلة جبال لبنان الشرقية (Anti-Lebanon) معترجة فى السهل الذى هو بالجنوبى الشرقى للمدينة (راجع خريطة رقم ٥ و ٧) . ويتفرع من نهر الأورونط غربا فرع صغير شمالى كدش وملاصق لها تماما ولذلك كانت هذه المدينة بين ملتقى هذين النهرين . وكانت هناك قناة أيام تخوتس الثالث لا تزال آثارها باقية للآن تصل هذين النهرين بعضهما ببعض وتكمل الحلقة المائية

(١) ٤٥٧: ٢ - ٩ (٢) ٤٥٩: ٢ (٣) ٤٦٠: ٢ (٤) ٤٦١: ٢ (٥) شرحه ٤٦٢: ٢ (٦) شرحه (٧) ٤٦٠: ٢ (٨) ٤٦٣: ٢ (٩) ٤٦٤: ٢ (١٠)

حول كدش . زد على ذلك أنه كان هناك خندق داخل هذه الحلقة المائية يحيط بالمدينة أيضا ويجعلها حصنا منيعا لا نظير له في سوريا رغم وقوعه في سهل مسطح . ولا حظ أن موقع كدش الجغرافي ذو أهمية جغرافية كبيرة لأنها مشرفة على وادى الأورونت وعلى الطريق الموصل من الشاطئ الى داخلية البلاد مسافة طويلة شمالا وجنوبا محاذيا للنهر الكبير^(١) .



خريطة رقم ٥ : مدينة كدش القديمة للعرفه الآن بل البى مندوج
تظهر التلال الأثرية الواقعة بين نهر الأورونت على اليمين وفرعه
على الشمال (مأخوذة عن كولوى)

وقد أيقن نحوتمس الثالث تماما وقتئذ أن التوغل في داخلية البلاد مستحيل ما لم يكن هذا الطريق في قبضته ، ومن ذلك يتضح أن الاستيلاء على كدش كان أمرا صعبا . ومن دواعي الأسف أن الكاتب الكاهن الذى سجل أخبار هذه الحرب أوجز كثيرا في الكلام على سقوط كدش فقال : ” ان جلالة الملك لما وصل الى كدش تغلب عليها ومنع عنها الغذاء ثم قطع أشجار غاباتها وحصد حاصلاتها ”^(٢) . ويظهر لنا من هذه الرواية المختصرة أن نحوتمس اتبع مع كدش الطريقة نفسها التى استعملها مع مجدو وهى المذكورة سابقا وتتلخص في قطع الأشجار من الغابات وتشييد سور محكم حول المدينة لحصارها ومراقبة جيشه لما من الخارج مستمدا غذاءه من خيرات حقولها المجاورة ، وهذا الحصار استغرق فصل الربيع حتى زمن الحصيد . والمعروف أن المصريين هاجموا المدينة أكثر من مرة لأن القائد المصرى

(١) راجع كتاب معركة كدش للزلف صحيفة ١٣ - ٢١ و ٤٩ وايضا هذا الكتاب صحيفة ١٧١ (٢) ٤٦٥ : ٢

شكل ١١٨ — أحد فراعنة الإمبراطورية المصرية يقابل رسله الأسريين الطوائف جن جنهم . ويقدم الرسل موقوفون مصرون مرندون أزياء بيضاء . ويحارز الأسريون بلائهم الزخوة بلهائم الرسالة



أَمْثَحَبَ روى ما قام به من الأعمال مع تحوتمس وقت حصاره لكُدش فقال انه أسر أميرين من هذه المدينة فكافأه تحوتمس على ذلك أمام الجيش بمحتين احدهما "سبع مصنوع من الذهب الخالص" وثانيتهما "ذبابتان" علاوة على أدوات ثمينة أخرى^(١). ولما طالت مدة حصار كُدش ظن أهالى شاطئ فينقيا أن تحوتمس الثالث هزم فامتعت أرواد (أرمادا) عن دفع الجزية العظيمة لمصر مع ما عاتته من الخسائر وقت هجوم المصريين عليها في السنة السابقة ، فلما سقطت كُدش أسرع تحوتمس بجيشه نحو صميرة وأسرع توا الى أرواد (أرمادا) ليقع عليها العقاب^(٢). ولما حل فصل المطر عاد تحوتمس الى طيبة مستصحباً بعض أبناء الملوك والحكام لشمال سوريا ليعلمهم بطيبة^(٣) كما فعل سابقا بأولاد الحكام لمستعمرات آسيا الجنوبية .

وجاء عصيان أرواد (أرمادا) وقت حصار كُدش درسا مفيدا لتحوتمس بعدم التوغل بعيدا عن نهر الأورونط نحو بلاد النهرين الا بعد اخضاع شاطئ فينقيا تماما ، ولذا أمضى سنته التالية وهي الحادية والثلاثين من حكمه في قمع كل حركة انفصالية تقوم بها بلاد فينقيا . ورغمما عن وجود الجيوش المصرية بمدينة صميرة فان ميناء أولازا (Ullaza) القريبة منها شقت عصا الطاعة على تحوتمس الثالث، والسبب في ذلك أن ملك تونب (بعلبك ؟) أرسل نجليه اليها ليجرضاها على منأوة المصريين . ووصل تحوتمس الى ذلك الميناء الحقيقى في ٢٧ أبريل^(٤) وأخضعه بسرعة وأسر أحد أنجال ملك تونب فيها^(٥) ثم أتى اليه حكام المدن المجاورة كالعتاد مظهرين له ولاءهم وخضوعهم . وبلغ ما استولى عليه منهم ومن المدينة المقهورة ما يقرب من مائة وخمسة وثمانين رطلا من الفضة وكميات كبيرة من خيراتهم الطبيعية^(٦) . وسافر الملك على مهل من ميناء الى أخرى منظما الادارة ومظهرا سلطته وقوته^(٧) باذلا هته بأن تكون جميع المرافق مزودة بالأغذية الكثيرة في السنة المقبلة لأنه عزم وقتئذ على غزو بلاد النهرين . ولما رجع الملك الى مصر وجد رسل الجنوب (وهي النوبة على الأرجح) وصلوا ليقدموا لجلالته جزيتهم^(٨) فاستنجد من ذلك أنه اتبع سياسة الشدة في أقصى جنوبى مملكته كما اتبعها في مستعمراته الشمالية .

وتطلبت الاستعدادات الحربية التى اتخذها تحوتمس الثالث لغزو بلاد النهرين سنة كاملة بعد رجوعه الى مصر فتأخر لذلك الى ربيع السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، وحينئذ سافر بجرا مع جنده حتى وصل الى ميناء صميرة فأنزل بها قواته^(٩) ، ولا يخفى أن هذه الغزوة كانت الثامنة للملك بتلك الجهات . بعد ذلك زحف في داخلية البلاد للمرة الثانية متبعا طريق كُدش ثم ييم شمالا واستولى على مدينة كَتْنَا (حصص ؟) (Ketne)^(١٠) وسار متعا نهر الأورونط حتى وصل الى مدينة ززار (Senzar) حيث حارب أذلها واستولى على المدينة . وقد أبدى قائده المدعو أممنجب شجاعة عظيمة في تلك المعركة نال لأجلها مكافأة الشرف للمرة الثانية^(١١) . والغالب أن تحوتمس غادر نهر الأورونط ويم مسرعا نحو بلاد النهرين ، لكنه اشتبك هالك مع قوة معارضة في معركة بسيطة

(١) ٥٨٥:٢ (٢) ٤٦٥:٢ (٣) ٤٦٧:٢ (٤) ٤٧٠:٢ (٥) شرحه ٤٧١:٢ (٦) ٤٧٢:٢ (٧) ٥٨٤:٢ (٨) ٤٧٤:٢ (٩) ٤٧٦:٢ (١٠) ٥٩٨:٢ (١١) ٥٨٤:٢

أسر فيها أمنحجب ثلاثة أسرى^(١) ثم سار الملك بدون معارضة تذكر حتى وصل الى تل وان (Wan) غربى حلب فاشتبك هناك في معركة كبيرة أسر فيها أمنحجب ثلاثة عشر أسيرا لكل منهم ربح من البرنز المطعم بالذهب^(٢)، واستنتج من ذلك أن هذه الجنود المعادية هي حرس ملك حلب الخاص، ولا بد أن يكون تحوتمس الثالث استولى وقتئذ على حلب ولولاه لاستحال عليه السير بسرعة الى الأمام كما فعل. "ثم عزج شمالا حتى بلغ أرض النهرين فاستولى على مدنها وأتلف أمكنة تلك البلاد المعادية للعيننة"^(٣). ولا يخفى أن هذه البلاد كانت تحت سلطة ملك متانى وقد عبثت الجنود المصرية هناك بوادى الفرات كما فعلوا أيام ملكهم السابق تحوتمس الأول منذ خمسين سنة تقريبا.

بعد ذلك عزج تحوتمس الثالث شمالا حتى وصل الى مدينة كَارْشَمِيشْ فالتحمت جنوده هناك بجنود ملك متانى عدو تحوتمس اللدود في معركة شديدة انتهت بهزيمة متانى هزيمة تامة ففتر جنودها هارين غير ناظرين وراءهم فكانوا وقتئذ كقطيع الأغنام^(٤). ولا بد أن يكون أمنحجب تتبع العدو شرق الفرات لأنه روى أنه عبر النهر عند رجوعه لما أحضر أسراه الى جلاله ملكه^(٥). عندئذ تحقق ما كانت تصبو اليه نفس تحوتمس الثالث بعد حرب دامت عشر سنين فقد وصل جلالته أنحرها الى نهر الفرات ثم عبره ودخل بلاد متانى، وقد نصب جلالته هناك أنرا حجريا أظهر فيه حدود مملكته فأنى بذلك شيئا لم يتمكن أجداده من الافتخار به سابقا^(٦). ثم انضج لتحوتمس أن كل توغل في تلك الجهات يستلزم تمضية فصل الشتاء فيها، لكنه كان في الوقت نفسه شديد الحرص على جنته فلم يشأ أن يعرضهم لبرد تلك البلاد الشمالية فيخسرهم بعد ما أصبحوا مدربين على الحرب أولى عزم فيها ليس من السهل تجنيد مثلهم اذا توفوا، لذلك رجع الملك الى شاطئ الفرات الغربى سالما ونصب هناك لوحا أثريا بجوار لوح والده تحوتمس الأول^(٧). ولما آن الوقت وحصدت الجيوش المصرية زرع وادى الفرات^(٨) اضطر تحوتمس أن يعود الى وطنه لكنه قبل أن ينجز هذا قام بأمورية شاقة بجهة مدينة ني (Niy) العاصية التي كانت تهدد أعماله في الفرات فتقدم اليها متبعا بجرى النهر واستولى عليها بدون صعوبة على ما يظهر^(٩). ولما انتهى من حربه نظم جماعة لصيد الفيلة في إقليم ني—وقد بادت الفيلة الآن في هذا الاقليم—واصطدم هو ورجاله مع قطع من هذه الحيوانات الوحشية التي آوت شمالي سوريا وكان عددها مائة وعشرين فيلا فهجم على جلالته فيل كبير كاد يقتك به لولا تدخل القائد أمنحجب في الأمر واسرعه في ترخطوم الوحش الضارى، وعند ذاك استشاط الحيوان غيظا من هذا القائد وهم بالفتك به لكنه لاذ الى ما بين صخرتين على حافة احدى البرك هناك فنجأ بذلك وهكذا حول هذا القائد الى نفسه الخطر المهدق بملكه من جراء هذا الوحش فكافاه تحوتمس على هذه الشجاعة بسقاء^(١٠).

٥٨١: ٢ (١) ٥٨٢: ٢ (٢) ٤٧٩: ٢ (٣) ٤٧٩: ٢ (٤) ٥٨٣: ٢ (٥) ٤٧٨: ٢ (٦)
٤٨١: ٢ و ٦٥٦ و ٧-٨ (٧) ٤٧٨: ٢ (٨) ٤٨٠: ٢ (٩) ٤٨١: ٢ (١٠) ٥٨٨: ٢

في ذلك الوقت أتى أمراء بلاد النهرين جميعا ليظهروا الولاء والخضوع لجلالة ملك مصر وأحضروا معهم الجزية اثباتا لذلك^(١) . ومما يدل على مبلغ صيت نحوتس هناك وقتئذ أن بابل البعيدة استصوبت عدم مناوأة فرعون فأرسلت اليه هدايا ثمينة من اللازورد^(٢) . والأدهى من هذا أن مملكة خيتا (الحيتيين) التي كانت مسيطرة على الأقاليم الآسيوية المجهولة للمصريين أرسلت الى نحوتس الثالث أيضا هدايا ثمينة جدا يحملها رسل خصوصيون التقوا بنحوتس في طريقه عائدا من النهرين الى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وهذه الهدايا عبارة عن ثمانى حلقات فضية كبيرة زتها ثمانية وتسعون رطلا مع مقدار كبير من الأحجار الكريمة (المجهولة لنا الآن) والأخشاب الثمينة^(٣) . وتعتبر هذه أقدم معاملة معروفة بين ملك خيتا (الحيتيين ؟ الواردة أسمائهم في التوراة) والمصريين . ولما وصل نحوتس الثالث الى شاطئ البحر كاف حكام مرافقه تجهيز الأغذية والمعدات لجيشه في السنة التالية^(٤) . وبهذه الطريقة سهل عليه ارسال المدد لأى مرفأ فينقى لاختراع أية ثورة داخلية في مدة لا تتجاوز بضعة أيام . وليلاحظ أن قوة مصر البحرية وقتئذ بلغت درجة كبيرة خضع لها ملك قبرص كما فعل أيام العهد الصاوى ، وقد تمكن نحوتس الثالث بأسطوله من بسط بعض نفوذه على جزر البحر الأبيض الشالية وعلى الاقليم الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وعلى كثير من البلاد اليونانية غربى ذلك . قال القائد البحرى تحوتى انه عين حاكما عاما على الأقطار الشمالية بما فيها من جزر البحر الأبيض المتوسط ، لكن يلاحظ أن هذه السلطة لم تعين وقتئذ الا لدفع الضرائب السنوية المفروضة على تلك الجزر لمصر .

وعاد نحوتس الثالث الى طيبه في شهر أكتوبر فوجد بعثته الحربية التي أوفدها الى بلاد الصومال منتظرة أوبته ومعها أشياء كثيرة ثمينة وكميات كبيرة من العاج والآنوس وجلد النمر والذهب وما ينيف على مائتين وثلاثة وعشرين ميكالا من المتر وعدد عظيم من العبيد ذكورا وإناثا وقطعان الغنم^(٥) . ودلتنا الآثار أن نحوتس الثالث بسط نفوذه على الواحات غربى وادى النيل (شكل ١١٥) فصارت هذه الأقاليم ملكا لجلالته وعهد بادارتها الى بشير جلالته المدعو إنتف (Intef)^(٦) ، وهو رجل عربى الأصل من نسل أمراء قسم العرابة القريب من الواحة الكبرى (خريطة رقم ١٣) وليلاحظ أن هذه الواحة ألحقت بقسم العرابة واشتهرت قديما ببنيتها الجيد . وعليه فلا بد أن نحوتس الثالث نفذ مشروعاته بجهده عظيم متبعا في ذلك طريقة أجداده حتى بلغ نهر الفرات . وبدى أن جلالته اضطر أن يقاوم ملوك سوريا وشمالي فلسطين مجتمعين لا منفردين على عكس ما كان مع سلفه ، وبالرغم من اجتماعهم كسر شوكتهم التي كانت تحت قيادة منك كدش (عاصمة الهيكسوس قديما) وزحف يبيشه الى الأقاليم الشمالية . ويستنتج مما ذكرنا سابقا أن جلالته استمر يصوب الى أهالى تلك البلاد سهام الصدمة بعد الصدمة في حرب أشبه بمناورات الجورلا (Guerilla) حتى ظفر بهم ، وقد أثبت انتصاره هذا بأن نصب حجرا أثريا بجوار أثر والده الذى أقامه هناك قبل ذلك بجيلين . وفى هذه الحروب فاق والده فانه عبر نهر الفرات وهو أمر لم يقم به فرعون مصرى سابق مطلقا . فملك هذه أعماله

(١) ٤٨٢: ٣ (١) ٤٨٤: ٣ (٢) ٤٨٥: ٣ (٣) ٤٨٣: ٣ (٤) ٤٨٦: ٣ (٥) ٧٦٣: ٣ (٦)

يحق له أن يفتخرو ويباهى بفتوحاته منذ انتخبه آمون ملكا على مصر أى فى مدى ثلاث وثلاثين سنة .
وللاحظ أن جلالة أمر مهندسه فى العبارة المدعو يوم ربح أن ينصب مسلات له بطيبة
فى السنة الثلاثين من حكمه (١) . ولما عاد جلالاته من انتصاراته الكبرى كان الاحتفال به قائما
على قدم وساق وكان ضمن قائمة أعمال ذلك الاحتفال نصب مسلتين كبيرتين بمعبد الكرنك منقوش
على احداهما نصوص ترجمتها : "تحوتس عابر بحنى النهرين العظيم (أى نهر الفرات) مصحوبا ببحشه
وكان التصريح حليفه" وهذه المسلة منصوبة الآن بالاساتنة (٢) ، أما المسلة الثانية فقد بليت . والمعروف
أن معظم مسلات هذا الملك العظيم تلفت أو نقلت الى البلاد الأجنبية ولم يبق منها الا واحدة
منصوبة فى محلها الأصلي حيث كانت سلطة هذا الملك العظيم قوية مهيبة . أما مسلاته المنقولة الى
البلاد الأجنبية فمنتشرة الآن فى عواصم تلك البلاد من الاساتنة الى رومة الى لندن الى نيويورك
(شكل ١١٦) وللاحظ أن المسلتين الأخرين (المنصوبتين فى لندن ونيويورك) على شاطئ
الاطلانتيك عملتا خصيصا لأجل الاحتفال بنصر الغزوة الرابعة وقد كانتا مقامتين سابقا على جانبي
مدخل معبد عين شمس (٣) .

ولما عظمت آثار تحوتس الثالث فى طيبة نسي أهلها أن جلالاته كان فيما سبق كاهنا وضيعا
فى معبد آمون حيث نصب آثارا كالمسلات الشاخطة ، ولا غرابة فى ذلك فقد أصبح القوم يرون
نفوشا هيروغليفية تاريخية على جدر ذلك المعبد تنبئهم بانتصارات الملك وعظيم أعماله بآسيا وتذكر لهم
الغنائم الثمينة التى لا تحصى والتى استولى عليها الجيش المصرى وتبين لهم الهبات الملكية الجزيلة برسوم
بارزة فيعرفون منها ما جاد به لمعبد آمون . وقد نقش جلالاته على جدر صرح ذلك المعبد ثلاث مرات
أسماء مائة وتسع عشرة مدينة استولى عليها فى غزواته الأولى (شكل ١١٧) بل ذلك ما يزيد على
مائتين وثمانية وأربعين اسما لمدن أسوية خضعت له فى غزواته الحديثة (٤) . وبصرف النظر
عن قيمة هذه السجلات فى نفوس الطيبين فهى ذات قيمة عظيمة لنا ، لكنه من الأسف أن هذه
النقوش ملخص فقط لأعمال تحوتس الثالث قام بنقشها كاتب كاهن لظهور الأصل فى ثروة معبد
الكرنك وشرح طريقة تحوتس الثالث فى سداد الدين الذى عليه لآمون وجزيل انعامه عليه بالانتصارات
الباهرة . من ذلك يتضح للقارئ أن هذه النقوش ليست فى الحقيقة الا قشورا تاريخية يبنى عليها
تاريخ جهاجها الذى هو أول حاكم محنك معروف فى التاريخ ، ولم يكن ضروريا لأهل طيبة أن يطلعوا
على هذه النقوش ليتأكدوا من أعمال تحوتس الثالث فجرد رؤيتهم لحديقة الكرنك وما تحويه من
الأشجار الأجنبية الكثيرة الواردة من سوريا وفلسطين والحيوانات الغريبة عن مصر تكفيهم للاقتناع
بعظم أعمال ملكهم . زد على ذلك أن رسل مستعمرات مصر الشمالية والجنوبية كانت ترد تباعا على
القصر الملكى كما أن السفن الفينيقية الضخمة التى لم يرها المصريون سابقا كانت ترسو على شاطئ طيبة
مشحونة بما تشتهى الأنفس وتلد الأعين من خيرات تلك البلاد السحيقة ، فكان القوم يرمقون
بعين الاكبار محمول تلك السفن من أوان ذهبية وفضية ومصنوعات دقيقة باهرة واردة من صور

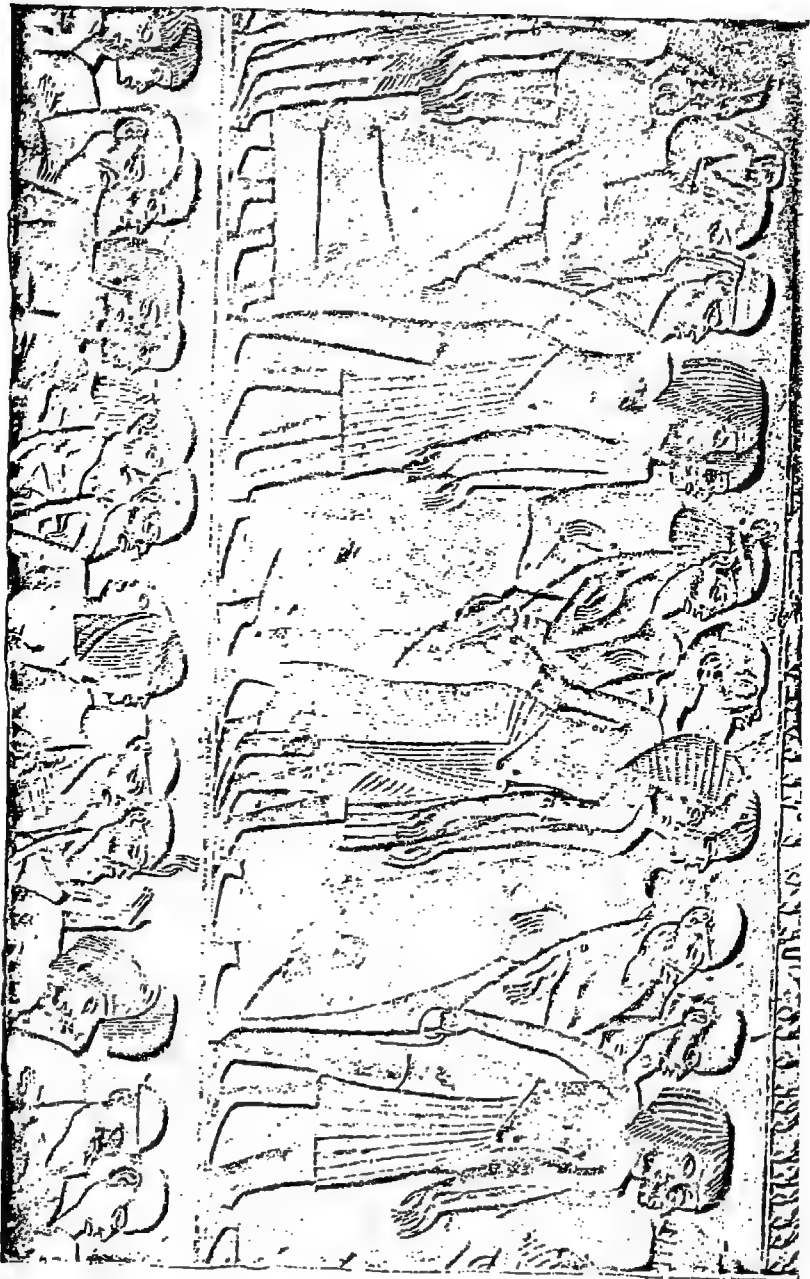
(١) ٣٨٢: ٢ (٢) ٦٢٩: ٢ (٣) ٦٣٢: ٢ (٤) ٤٠٢: ٢

وآسيا وقبرص وكريت وجرد الأرخيل اليوناني والأثاث البديع المصنوع من العاج والآبنوس والعجلات المرسعة والممّوّهة بالذهب وخليط الذهب مع الفضة وأدوات الحرب المصنوعة من البرنز والخيول المسمّومة المجلوبة لفرعون والكيات التي لا تحصى من حاصلات الحقول والحدائق ومزارع الفواكه والنبيذ الى غير ذلك من خيرات الحقول . علاوة على هذا كانت تجيء على هذه السفن جزية تلك البلاد النائية كل سنة محروسة وهي على شكل حلقات تجارية كبيرة من الذهب والفضة يبلغ ثقل بعضها اثني عشر طلا تقريبا . أما الضرائب التي كانت تجبي من التجارة اليومية فكانت تدفع بشكل حلقات تجارية أيضا لا يتجاوز وزن كل منها بضع قمحات . واعتاد أهل طيبة أن يشخصوا في الشوارع لمراقبة أهل آسيا وهم يتكلمون بلغتهم الأجنبية سائرين زرافات ووحدا حاملين جزيتهم الثينة ليوردوها لخزانة فرعون حيث يقابلهم الوزير بخمار في الأحوال الاعتيادية ، وإذا كانت الجزية ثينة جدا كان هذا الوزير يعرضها على جلالة فرعون مصر وهذا يستقبلها استقبالا رسميا وهو جالس على عرشه الملكي تعلوه الأبهة والجلال ، بعد ذلك يمدح وزيره على ما بذله من همة وتعب ثم يورد الأسويون جزيتهم فتسجل بدقة في السجلات الرسمية . وكان الوزراء وموظفو المالية كثيرون يبرسون تلك المعاملات على جدر مقابرهم حيث تشاهد الآن بطيبة (١١) (شكل ١١٨) . ولا بد أن تكون قيمة تلك الثروة عظيمة جدا في تلك الأزمنة فقد ورد مره أن الخزانة المصرية حوت ما ينيف على ثمانية آلاف وتسعمائة وثلاثة وأربعين طلا من خليط الذهب والفضة (١٢) . أما النوبة فكانت مثارة على دفع جزيتها كل سنة للندوب السامي الذي يوفده اليها ، وكانت هذه الجزية من الذهب والعبيد السود والغنم والآبنوس والعاج والحبوب . وكان أهل طيبة ولوعين برؤية جزية السودان المتباينة الأشكال والألوان وهي تخرج من السفن الراسية على الشاطئ وتسير في شوارع مدينتهم الى الخزانة الملكية . واعتاد أهل طيبة أن يروا مليكهم مختمس الثالث عاندا كل سنة من أسفاره في أواخر شهر أكتوبر أو أوائل شهر سبتمبر مصحوبا بأسطوله الضخم الكبير فيرسو بمرقا عاصمتهم ، حينئذ كان القوم يكبرونه عند ما يشاهدون الكيات العظيمة من ثروة آسيا والعدد العظيم من الأسويين موثوقين منقولين على الألواح الخشبية الى الشاطئ ثم متقدمين زرافات الى طيبة حيث يمشون حياتهم عبيدا لفرعون (شكل ١١٩) . ويمتاز الأسويون على الآثار بطول لحاهم ، وقد كان المصريون يبغيضونها ، وشعورهم كثيفة مسدولة على أكتافهم وملابسهم متعددة الألوان ومنسوجة من الصوف خلافا للباس المصري الأبيض الناصع ، وجميع هؤلاء الأسويين موثوقون عند الكوعين من الخلف أو فوق الرؤوس ، وتشاهد أيديهم أحيانا موثوقة في أغلال خشبية يضاوية الشكل ، واعتاد نساء هؤلاء القوم حمل أطفالهن على أكتافهن في كيس من الحصر ، وكانت رطانتهم وأزياؤهم موجبة لسخرية المصريين حتى أكثر الهواة وقتئذ رسم تلك المناظر في أعمالهم . وكثيرا ما كان هؤلاء الأسرى يتخدمون أتباع الملك أو يوزعون على قواده ، لكن السواد الأعظم منهم كان يرسل حالا لخدمة أراضى المعبد وأملاك فرعون أو أبناء آثار جلالته أو عماراته (١٣) وأخصها تلك العمارة الأخيرة ، وقد استمرت هذه العادة متبعة الى أيام صلاح الدين الأيوبي الذي استخدم أسرى الحروب الصليبية لبناء قلعة القاهرة ، وسرى كيف غير هؤلاء الأسرى كثيرا من شكل طيبة ونظامها .

وكما عاد الملك الى طيبة في الخريف لقضاء فصل الشتاء اعتاد أن يصرف وقته في تجهيز معدات حملته المقبلة التي كان يبدأ بها عادة بعد ستة أشهر ، ولذلك كان تعب الملك في ذلك لا يقل عن تعبته وقت الغزوات الأسبوية . زد على ذلك أنه كان يطوف في جهات القطر ليتفقد أعمال حكام أقسامه كي يمنع الرشوة وكل ما من شأنه ابتزاز أموال الأهالي وقت جمع الضرائب . كل هذا كان يقوم به تحوتمس الثالث بعد فراغه من الاحتفال بعيد أوبت^(١) . واعتاد كذلك أن يتفقد في سفره أيضا المعابد البديعة التي كان يشيدها أو يرمها ، وقد دلتنا الآثار أن جلالته تفقد ما ينيف على ثلاثين معبدا غير التالف منها الذي نجعل تاريخه . وقد أحيا جلالته إقليم الدلتا وأقام الآثار على امتداد نهر النيل من الوجه البحري شمالا الى الشلال الثالث جنوبا فصارت آثارا كاللاكي النيرة على البلاد ، وشيد عند مدخل الفيوم مدينة جديدة ومعبدًا خاصا بها ، وصرف النفقات الباهظة عليهما ، وسخر أسرى حروبه في تشييد المباني الشاغرة الملكية بجهة دندره وقفت والكاب وادفو وكوم أمبو وجزيرة القيل وغيرها . واعتاد مدة إقامته في طيبة أن يبحث في أمور بلاده فكانت سلطته مباشرة في كل فرع من أفرع الحكومة وهذا غير ما كانت تتطلبه بلاد النوبة من العناية الكبيرة الخاصة بمناجم الذهب التي سيأتي الكلام عليها . واهتم تحوتمس الثالث بتشجيع مناجم الذهب على طريق فقط فعهد في إدارتها الى موظف لقبه "بمدير أراضي الذهب التابعة لقط" (٢) . وهكذا لم يترك الملك موردا ينتفع منه إلا استغله . وتطلبت زيادة إيراد معبد آمون تنظيم إدارة شؤونه فزود كهنة ذلك المعبد بالتعليات والأوامر الشديدة لرفع شأن ذلك المعبد وزيادة إيراده (٣) . وفي أوقات فراغه كان يرشد رئيس صنائه بالمعبد أو بالمصانع الملكية برسم يده الملكية لأوان يفضل استعمالها وقت عبادة آمون ، واستنجم من نقوش جدر الكرنك وما حوته من رسوم الأواني التي قدمها الملك الى صنائه ليصنعوا مثلها للعبود على شدة اهتمامه ومزيد عنايته ، وكثيرا ما افتخر رئيس الصنائع الذي أعطى هذه الرسوم فنقش تلك الأواني على جدر معبد قبره ، ولا يزال هذان الآثاران باقين بين أطلال طيبة للآن . ولتحوتمس فوق هذه الأعمال مآثر أخرى (٤) فقد شيد جلالته صرحا عظيما جنوب الكرنك وسورا شامخا حول هذا المعبد وحول حديقته وغابته .

أما حملات تحوتمس الثالث الحربية فكانت مرتبة منظمة كأعماله الادارية بطبيعه فبمجرد انتهاء فصل المطر في فلسطين وسوريا كان يرافق جيشه في أسطوله الضخم ويبحر الى الموانئ السورية أو الفلسطينية حيث يقدم له الولاة ما يلزمه من الأغذية والمعدات الحربية يجلبونها من البلاد المجاورة . ووجرت العادة أن يرافق الملك في حركاته كلها رئيس حجابه المدعو إنتف العريق الأصل والملقب "بحاكم طيبته وقسم الواحات" (٥) ، وكما زحف تحوتمس الثالث في داخلية البلاد كان إنتف هذا في المقدمة يستطلع مقاومة الأعداء ، وكما حل بمدينة وأراد المبيت يجهز إنتف قصر حاكمها للملكة وقد قال إنتف : "إذا وصل سيدي مصحوبا بالسلامة الى المكان الذي أنا فيه كان يحدني قد نظمته وجهازته بكل ما يحتاج اليه في البلاد الأجنبية ، وربما فاقت وسائل راحته وبعيده ما هو بالقطر المصري . كيف لا وقد كنت أنظف الحجرات وأعطرها وأرتب أثاث كل حجرة على حسب

(١) ٥٨ : ٣ (٢) ٧٧٤ : ٢ (٣) ٥٧١ : ٢ (٤) ٥٧٥ : ٢ (٥) ٧٦٣ : ٢



شكل ١١٩ - الأسرى الأسويون يعرضون في عهد الأمير الطوربة . ويغادر هؤلاء الرسل والمرسلين الكثيفة وهم يتنزهون
 متى متى موقف الأيادي في رفاق خشيعة ، وبين كل اثنين من الأسيرين حارسان مصريان . روى في آخر الرسم امرأة
 حاملة لأطفالها . وكنية هذا الرسم باردة في شكل رقم ١٤٨ من هذا الكتاب (دار تحف لبنان)

ما يليق بها وكنت أرى السرور على وجهه" (١). هذه الكلمات تذكر الفارئ بخيام نابليون وقت حروبه فقد كانت تجهز له تماما حال وصوله ليلا يبد ما يتفقد جنده . وكان إنتف هذا يشرف أيضا على ترتيب مقابلات الملك وإدارة شؤونه وقت حروبه الكثيرة ، وإذا ما حضر رؤساء سوريا ليقدموا له الجزية وعلنوا له الولاء والخضوع كان إنتف يقدمهم الى جلالته . وكان هذا الأمير يجبر الولاة بالمبالغ والأشياء التي يتحتم عليهم تقديمها للملك ، وهو الذي كان يتسلم الجزية وهدايا الذهب والفضة والحبرات الطبيعية . وإذا أظهر بعض أفراد الجيش بسالة كان إنتف يجبر الملك بأمرها ويقرر المكافأة التي يستحقها ذلك الجندي السعيد الخط (٢) .

وليتنا عثرنا على تراجم حياة قواد تخومس الثالث لأن فصولها التاريخية مؤثرة في النفوس ، وما حادثة القائد أمنيح الذي نجى تخومس الثالث من غائلة القيل بقطع خرطومه الا مثلا لما كان يحصل وقت استراحة الجنود في العراء بلا خيام ووقت اشتباك القتال . ولا شك أن هذه الأعمال مثل أعلى للشجاعة في أجلى مظاهرها ، وسنرى فيما يلي مثلا آخر لبسالة أمنيح وهو القائد الوحيد الذي نعرف عنه معلومات حقيقية لا غلوفها . وأنجب الأهالي بما رأوه من شجاعة جنود تخومس الثالث فكثرت أحاديثهم وحكاياتهم الخرافية بشأنهم حتى تداولها القوم بشغف عظيم في أسواق وشوارع طيبة ، وقد عثرنا لحسن حفظنا على إحدى هذه الحكايات مدونة على صحيفة أو اثنتين من قرطاس بردى خطها أحد الكتبة متخصص في أن أحد قواد تخومس الثالث المدعو تخوتى خدع حاكم مدينة يافا فأدخل جنده الى تلك البلدة مخبئين في سلال محمولة على حمار (٣) ، وهذه الرواية أصل قصة على بابا والأربعين لصا ، لكن رواية تخوتى هذه تمتاز عن قصة على بابا باحتوائها على بعض الحقائق لأن تخوتى لم يكن شخصا وهميا بل كان حقيقة أحد قواد تخومس الثالث ، ولا تزال تجهل قبره للآن وربما كان بطييه وسرقه الأهالي وسلبوا منه الهدايا الثمينة التي أهداها تخومس الثالث اليه وهي اللاتقة بذلك القائد الباسل . وعثر على صحن قهبي بديع محفوظ بدار التحف بالوفر منقوش عليه نصوص هذه ترجمتها : "هدية شجاعة وإقدام من تخومس الثالث الى الأمير الكاهن الذي كان لجلالته عاملا من عوامل السرور في كل بلد حل به وفي جزر البحر الأبيض المتوسط والذي ملا الخزانة بحجر اللازورد والذهب والفضة ألا وهو حاكم البلاد ورئيس الجيوش ومحبوب الملك وكاتب جلالته تخوتى" (٤) . وعثر أيضا على قطعة حلي لهذا القائد محفوظة الآن بدار التحف بليدن وصف عليها صاحبها بأنه "حاكم البلاد الشمالية" (٥) ومنه استدل أن تخومس الثالث عين تخوتى هذا حاكما على مستعمرات مصر الشمالية (٦) .

ولو أسعدنا الحظ وعثرنا على كتابة الكاتب ثاني (Thaneni) بشأن أعمال تخومس الثالث واقدامه الشخصي وأعماله في المعارك الحربية لعلنا كل شيء عن هذا الملك تقريبا ، لأن هذا الكاتب أخبرنا أنه رافق تخومس في جميع غزواته وسجل كل ما حصل بالاسهاب ، وإليك ترجمة ما قاله هذا

(١) ٧٧١ : ٢ (٢) ٧٦٣ - ٧٧١ (٣) ٢ : ٥٧٧

From my own copy of the original : see Birch. *Al'mn. sur une potère Egyptienne du Musée du Louvre* (٤) Paris. 1858; and Pierret. *Salie Jit. de la Gat. Egypt.* Paris. 1859. No. 358, p. 87.

(٥) راجع نسقي (٦) راجع صحيفة ٢١٣

الكاتب مفتخرا : "لقد تبعت الملك تحوتمس الثالث وشاهدت انتصاراته التي أحرزها في البلاد كلها . لقد أسرجلته أمراء زاهي (سوريا) أحياء وأرسلهم الى مصر واستولى على بلادهم كافة وقطع أشجار غاباتهم جميعها لقد سجلت على وجه الحقيقة جميع انتصارات جلالة في كل بلد " (١) . وهذه الأخبار التي ذكرها ثاني هي التي كتبت على درج جلدی أشرنا اليه عند الكلام على الغزوة الأولى وحصار مجدو ، ومن دواعي الأسف أننا فقدنا هذا القرطاس التاريخي الثمين (٢) فلم يبق لدينا الا النقوش الموجودة على جدر الكرنك التي كتبها أحد الكتبة الكهنة الذي جعل همه الافتخار بالغنائم وما عاد على الكرنك من ايراد إثر تلك الحروب ، وهو لم يتعرض لذكر أعمال الملك بالدقة . واستنتج من ترجمة حياة أمنمحب أن ما جاء في نقوش الكرنك ليس الا قشورا للحقيقة الأصلية ، وعليه فقد أصبحنا نرجع في كل مباحثنا العلمية بشأن أخبار طيبة خاصا بتحوتمس الثالث أكبر قواد مصر الى نقوش الكرنك التي لم يدر بخلد كاتبها وقتئذ أن العالم أجمع سيتعطش يوما من الأيام اليها كما نتعطش نحن الآن .

ولا يخفى أن مجرد وصول الجيوش المصرية الى الفرات لم يكن كافيا لاختضاعه على مدى الزمان . وليس تحوتمس الثالث ذلك الرجل الذي يعتمد على غزوة واحدة يشنها على تلك البلاد في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، لذلك صمم في السنة الرابعة والثلاثين أن يغزو تلك الجهات مرة ثانية فوصل الى سوريا في ربيع تلك السنة للقيام بمحله التاسعة (٣) . والظاهر أنه حصلت هناك بعض مشاكسات موضعية لأن جلالة استولى وقتئذ على ثلاث مدن في قسم نوج (Nuges) وهو المكان الذي شيد فيه حصنا في نهاية حملته الأولى (٤) ، واستولى كذلك على خيرات عظيمة ثم أسرع اليه حكام سوريا مظهرين ولائم وخضوعهم كالعادة ومحضرين الجزية الثمينة (٥) . وقد زودت الموانئ البحرية الأسطول المصري بسفن كثيرة وقلاع وغير ذلك من الأدوات اللازمة لإصلاح ما يطرأ على السفن من العطب (٦) . وامتازت جزية هذه السنة باشتغالها على مائة وثمانى سبائك من النحاس تقرب زنة كل منها من أربعة أرتال علاوة على كيات عظيمة أخرى من الرصاص والأحجار الكريمة أرسلها ملك قبرص (٧) الذي لم يسبق له أن اعترف بسلطة تحوتمس بهذه الكيفية .

وفي هذه السنة أيضا امتدت سلطة تحوتمس الثالث جنوبا فأسرا بن حاكم قسم إيريم (Irem) المتاخم للصومال وحفظه بمصر رهينة (٨) ، وقدرت جزية النوبة وقتئذ بما يقرب من مائة وأربعة وثلاثين رطلا ذهبيا خالصا علاوة على الكيات المعتادة من الآبنوس والعاج والحبوب والأغنام والعبيد (٩) ، وهكذا امتدت سلطة تحوتمس الثالث من الشلال الثالث حتى نهر الفرات . ثم بلغ جلالة خبر اشتعال فتنة ببلاد النهرين وكان قد امتنع عن الذهاب الى تلك البلاد ستين فشق الأهالي عصا الطاعة وانضم اليهم حكام تلك الجهات برياسة واحد منهم يظن أنه حاكم حلب الذي ورد ذكره في نصوص تحوتمس الثالث "بأنه قائد النهرين الخسيس" (١٠) وكبرت الفتنة فامتدت الى أقاصي

(١) ٣٩٢ : ٢ (٢) راجع صحيفة ١٩٢ ٢٨٩ : ٢ (٣) ٤٩٠ : ٢ (٤) ٤٩١ : ٢ (٥) ٤٩٨ : ٢ (٦) ٤٩٢ : ٢ (٧) ٤٩٣ : ٢ (٨) ٤٩٤ : ٢ (٩) ٤٩٤ : ٢ - ٥ (١٠) ٤٩٨ : ٢

البلاد الشمالية المعروفة "بآخر حدود الأرض" (١) وهو الحد الذي تنتهي إليه معرفة المصريين للعالم . وكانت تحومس يحدد دائماً استعداداته الحربية ولذلك تمكن من الوصول الى بلاد النهرين في ربيع السنة الخامسة والثلاثين من حكمه فاصطدم هناك مع جيوش أعدائه جهة أرينا (Araina) (٢) المجهولة لنا والتي هي غالباً أسفل وادي نهر الأورونط . " حيثذ هجم الملك على هؤلاء الوحشيين ففروا مذعورين ثم سقط الواحد بعد الآخر أمام جلالته " (٣) ولا يبعد أن تكون هذه المعركة هي التي ذكرها القائد أمنيحج بأنها حصلت بأرض تخسي (Tikhsi) (٤) حيث قال إنه حارب أمام تحومس الثالث وقت التحام الجيوش فأسر غنائم كثيرة واستولى الملك على عدة أسلحة . أما القائد أمنيحج فقد أسر ثلاثة أسرى كافاه عليهم تحومس مكافأة جزيلة . ولا شك أن الجنود المصرية استولت وقتلوا على غنيمة حربية كثيرة من خيل وأدوات حربية ودروع من البرنز وعجلات ممزوجة بالذهب والفضة (٥) . بعد ذلك انكسرت شوكة بلاد النهرين واستسلمت لسلطة فرعون فلم تبد حراكاً لمدة سبع سنوات لأنها أيقنت كما أيقن قبلها حكام سوريا أن شوكة مصر منيعة وقوتها الحربية لا يستهان بها ولا يمكن مقاومتها .

ولم ننتد الآن الى أخبار السنتين التاليتين لهذه السنة من حكم تحومس الثالث ولذلك لا نزال نجهل سبب حملته الحادية عشرة والثانية عشرة . لكنه لما كانت السنة الثانية والثلاثون من حكمه ظهر تحومس في جنوبي لبنان معاقبا اقليم نوج (Nuges) (٦) الذي ذاق بطشه لأول مرة منذ خمس عشرة سنة . ووصلت الى الملك في هذه الغزوة هدية من ملك قبرص وأخرى من اقليم سحيق يقال له أراپاخيتيس (Arrapakhitis) صار فيها بعد أحد أقاليم مملكة آشور (٧) . وفي السنة التالية اضطّر الملك أن يذهب الى جنوبي فلسطين ثانيا ليعاقب البدو وهناك أسر أمنيحج ثلاثة أسرى في معركة جهة نجب (Negeb) (٨) . وأمضى الملك بقية حملته الرابعة عشرة بسوريا للرقابة وأرسل أوامره في هاتين السنتين أن تبقى الموانئ مزودة بما يلزم جيشه وأسطوله من المعدات وقت حدوث اضطراب بغائ داخل . والغالب أن هذه البلاد استمرت تدفع جريتها بدون عناء في السنتين الأربعين والحادية والأربعين من حكمه (٩) . وأرسل ملك خيتا الكبير هدايا الى الملك تحومس الثالث اعتبرها الأخير جزية (١٠) .

وبالرغم عما قاساه أمراء سوريا وفلسطين وبلاد النهرين من شدة غزوات مصر فقد استمروا يشا كسون مملكة النيل ولا يعترفون لها عليهم بسلطة أبدية واتحدوا معا لإحداث ثورة عامة بتأثير ملك كدش ألد أعداء فرعون فانضم اليهم أهالي بلاد النهرين وأخصهم أمير تونب (بعلبك ؟) وكذا بلاد الشواطئ الشمالية . وفي ذلك الوقت كان تحومس يناهز اثنتين وسبعين سنة من عمره ومع هذا سرعان ما وصل الى مرافق سوريا الشمالية كعادته وذلك في ربيع السنة الثانية والأربعين من حكمه ، وكانت هذه الحملة السابعة عشرة والأخيرة لهذا الحاكم العظيم . وكان همه وقتئذ مواجهة كدش كما

(١) ٤٩٨ : ٢ (٢) شرحه (٣) ٤٩٩ : ٢ (٤) ٨٧ : ٢ (٥) ٥٠٠ : ٢ - ٥٠١ (٦) ٥٠٧ : ٢ (٧) ٥١١ : ٢ - ١٢ (٨) ٥١٧ : ٢ و ٥٨٠ (٩) ٥٢٠ : ٢ - ٥٢٧ (١٠) ٥٢٥ : ٢

فعل في حملته الأولى لكنه لم يزحف عليها من الجانب الجنوبي كسابق عهده بل حاصرها شمالا قاطعا بذلك طريق مواصلاتها مع البلاد الشمالية جميعا وصمم على أن يستولى على تونب أولا . وتفصيل ذلك أن الملك أنزل جنوده على الشاطئ بين نهر الأورونط والنهر الكبير ثم استولى على مينا إركاتو (Erkatu) في تلك الجهة والمجهولة لدينا الآن^(١) . والغالب أن هذا الميناء يقابل تونب التي كانت بيت القصيد . ثم استولى على تونب بعد مقاومة قصيرة ومكث هناك حتى زمن القصيد^(٢) . ثم زحف على كدش متبعا نهر الأورونط بدون مقاومة مبيدا مدن ذلك الاقليم^(٣) ، فلما علم بذلك ملك كدش أيقن أنه اذا لم يقاوم تحوتمس مقاومة اليأس المستبسل هلك هو وجيشه لا محالة ، فهجم على المصريين أمام كدش مستعملا سياسة الخدعة ، وتفصيل ذلك أنه أرسل فرسا أمام عجلات المصريين لتهيج خيلها فيضطرب بذلك نظام خطوط فرعون فيتمكن ملك كدش من اختراقها ، لكن أمتنحجب فطن لتلك المكيدة فقفز من عجلته شاهرا سيفه بيده وهجم على الفرس راكضا على قدميه فقتلها وقطع ذيلها وأهداه الى فرعون^(٤) . بعد ذلك اقتربت خطوط دفاع تحوتمس وضيق الحصار على المدينة تدريجا ، ثم صدر اليها الأمر بالهجوم على كدش فعهد الملك الى صفوة رجاله في هدم أجزاء من سور المدينة بقيادة أمتنحجب ، وقامت الجنود بهذه المهمة الخطيرة خير قيام وهدمت جزءا من السور تدفقت منه القوات المصرية وفي مقدمتهم أمتنحجب . هكذا خضعت أقوى مدن سوريا لسلطة فرعون وسقطت تحت موطن قدميه^(٥) ، وحينئذ سلم لتحوتمس جنود النهرين الذين أتوا لمساعدة كدش ، وكان هذا الفوز كافيا ليسط نفوذ فرعون على الممالك الآسيوية ثانيا فلم يعد هناك لزوم للزحف شمالا لكنه لو فرض وكان هناك داع لذلك لعذرنا تحوتمس اذا لم يقيم به لكبر سنه وقرب الشتاء وحلول مياع عودته الى مصر ، ويستنتج من قرائن الأمور أن الحالة السياسية وقتئذ لم تتطلب زحف جيشه الى الشمال . منذ ذلك الوقت لم يتجاسر حاكم آسيوى أن يشق عصا الطاعة على تحوتمس الثالث طوال حياته ، ولا غرابة في ذلك فقد قام في خلال تسع عشرة سنة بسبع عشرة حملة أعدمت البلاد الآسيوية مقاومتها وأخضعتها لمصر تماما . وبديهي أن سقوط كدش جاء بمثابة انهيار آخر لصرح مملكة الهيكسوس التي حكمت مصر سابقا . وصار اسم تحوتمس الثالث بعد ذلك مضربا للأمثال مدة طويلة حتى أنه لما هاجمت مملكة خيتا مستعمرات مصر الآسيوية جهة تونب بعد مرور أربعة أجيال على وفاة هذا الفرعون العظيم استنجد ولاة تلك الجهات بمصر بأسلوب يفتت الأكياد فقالوا : ” ما من أحد اجترأ قديما على نهب تونب الا نهبه تحوتمس الثالث “^(٦) ولا غرابة في ذلك فقد كان تحوتمس الثالث يناهز السبعين أو أكثر من عمره ومع ذلك فكان يصدر أوامره لرافئ الآسيوية لتجهز ما يلزم جيشه وأسطوله من المعدات استعدادا لما عسى أن يحصل من الفتن والمشاغبات^(٧) ، وليس بعيد أنه كان مستعدا للقيام بغزوات في آخر عمره كما فعل في شبوبته . ودلتنا الآثار أن الملك لما

(١) ٢٩ : ٢ (٢) ٣٠ : ٢ (٣) ٣١ : ٢ (٤) ٨٩ : ٢ (٥) ٩٠ : ٢ (٦) خطابات

الهمارة لوتكار ٤١ و ٦٠ - ٨ (٧) ٣٥ : ٢

كان في رحلته الأخيرة بسوريا إلى أمراء تلك الجهات وقدموا له في خيمته الملكية واجب الطاعة والخزينة (١) ولما عاد بعد ذلك إلى مصر وجد رسل النوبة في الانتظار ومعهم ما ينيف على خمسمائة وثمانية وسبعين رطلا ذهبا من بلاد الواوات وحدها (٢) علاوة على ما أرسلته الأقاليم الأخرى .

وكان متظرا أن يمضي نحوتمس الثالث بقية عمره مستريحا في مصر لكنه بعد ما فرغ من فتوحاته الأسبوية وجه همته نحو النوبة . وقد ألمعنا سابقا أن رئيس خزانة الذهب والفضة المدعو من خير رَغ سِنْب — ومعناه نحوتمس الثالث السليم — (٣) كان يتسلم من النوبة كل سنة ما يتراوح بين ستمائة وثمانمائة رطل ذهبا . وجاء في أخبار السنة الحادية والأربعين من حكم نحوتمس الثالث أن وارد الذهب بلغ وقتئذ حوالي ثمانمائة رطل ذهبا (٤) . أما مندوبه السامي المدعو نحي (Nehi) فقد لبث حاكما لكوش حوالي عشرين سنة (٥) وقد زادت في أثنائها واردات تلك الجهات كثيرا . ثم تراءى لنحوتمس أن يوسع حدود ممتلكاته الجنوبية إلى أبعد مما هي عليه كما يستدل من الآثار التي تشير إلى شدة اهتمامه بتلك الجهات . وقد وجدت لنحوتمس الثالث معابد بالغة الأقليم الشلال الثالث وذلك بجهة كَلْبَشَة وعمادًا ووادي حلقا وقه وسمته (وقد رُم فيها معبدا لسيزستريس الثالث) وفي جهة حلب أيضا . وجاء في أخبار السنة المتممة للخمسين لحكمه أن القناة البحرية المحترقة لاقليم الصخور جهة الشلال الأول فتحت ثانيا (٦) وأن جيوشه كانت وقتئذ مشغولة بمزاولة الأعمال الحربية ببلاد النوبة . والمستبعد أن يكون نحوتمس الثالث هو الذي قاد هذه الحملة لكبرسته وقتئذ . ويرجح أنه أرسل إلى تلك الجهات حملات حربية عديدة سابقة بدليل ما وجد مرتين على جدر صروح الكرنك من أن جيوشه استولت على مائة وخمسة عشرة موقعة بالنوبة مدونة الأسماء . وهناك قائمة أخرى تحوى نحو أربعين اسم لجهات نوبية أخرى أخضعها الجنود المصرية . ولشدة جهلنا بجغرافية بلاد النوبة لم ننتد بالضبط إلى مواقع تلك الأماكن ولذلك لا يمكننا أن نعرف تماما حدود مملكة مصر الجنوبية وقتئذ والمؤكد أنها كانت واصلت إلى الشلال الرابع على الأقل لأنه ورد ذكره ضمن أملاك المملكة المصرية في عهد ابن نحوتمس الثالث .

وعاش نحوتمس الثالث اثنتي عشرة سنة بعد آخر حملة أسبوية . ولما شعر بالضعف والشيخوخة أشرك معه في الحكم ابنه المنتخب الثاني (٧) الذي رزق به من الملكة حَعْتَشِبْسُوت مِريث رَغ المجهولة التاريخ . وفي السنة التالية لذلك أي في ١٧ مارس سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد (قبل أن يتم نحوتمس الثالث السنة الرابعة والخمسين جالسا على عرش مصر بخمسة أسابيع) توفي فأسدل الستار أمامه على هذه الدنيا التي قام فيها بأعمال باهرة اهتزت لها الأرض اهتزازا (٨) . وقد دفنه ابنه بوادي الملوك ولا تزال مومياءه باقية للآن (شكل ١٢٠) . ووضع كهنة آمون أنشودة نسبوها إلى معبودهم كلها مدح في نحوتمس الثالث (٩) غاية في المثانة والبلاغة ، وهي تشمل عدّة أبيات شعرية بدعية ،

(١) ٢-٥٣٣: ٤-٥٣٦ ٧ (٢) ٥٣٩: ٢ (٣) ٧٧٢: ٢ ملاحظة (٤) ٥٢٦-٢٧ (٥) ٢-٦٥١
(٦) ٦٥٠-٦٤٩: ٢ (٧) ١٨٤: ٢ (٨) ٥٩٢: ٢ (٩) ٦٥٥: ٢ ملاحظة .

ويستدل منها أن منزلة الملك في نفوس كهنته ومعاصريه كانت غاية في الاحترام ، وهي تبدئ بدياجة طويلة تشمل أطراء لتحتوس المذكور على ذلك وصف لأعماله وانتصاراته ، يقول على لسان آمون ما ترجمته :

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب أمراء زاهي . لقد أوقعتهم تحت أقدامك ودفعتهم (أمامك) حتى اخترقت أقطارهم وأريتهم جمال حضرتك وأطلعهم على جلالتك فصاروا ينظرون الى سعادتك كملك مصور من نور ، فأصبحت تشرق عليهم كصورتي البهية وتبدو عليهم كذاقي العلية .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تطعن بسيفك سكان بلاد آسيا وتقبض في أسرك الرتنو (أى الأسويين) . لقد أريتهم جلالتك مهيئة للحرب قابضة أسلحتها ومقاتلة على عجالاتها .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب بلاد الشرق وتجوس خلالها الى مدائن الأرض المقدسة وقد أريتهم جلالتك ككودب سميل الذى ينشر النور مع الايضاح وينثر الندى في الصباح .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب بلاد الغرب فكللا بلاد الخفتيو وقبرص في ربة الفزع منك حيث أريتهم جلالتك كثور هو من نوع البقر في الفتوة والجراءة بمكان ، يزينه قرنان ، فلا يقاومه معارض أيا كان .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب سكان سائر الخطط الأرضية ، فبلاد مثنى تنفض فرقامن هيتك حيث أريتهم جلالتك كالتساح وهو الملك القهار في مملكة البحار منبع الجوار لا ينجومنه ديار .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب سكان الجزائر ، فكان أهل البحار في فزع من صياح قومك ببدء الحرب حيث أريتهم جلالتك كنتقم جبار يعلو ظهر فرسته .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب الليبيين ، ولكن جزائر الأوتيتو (Utentyew) في قبضتك مأسورة حيث أريتهم جلالتك كأسد يفزع كل من ينظر اليه ويرقد على رمم موتاهم في خلال أوديتهم بحيث لا يتيسر لأحد أن يقدم عليه .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب سكان أقاصى البلاد وأن تقبض على دائرة المياه (الأقيانوس) حيث أريتهم جلالتك كباشق يحوم في الجوّ بطيره ويختطف كل ما أعجبه بمخلبه .

هأنذا قد جئت وأبجت لك أن تضرب الأقوام القاطنين على حدودك وليكن القوم المسمون بسكان الأراضي الرملية في أسرك أحياء حيث أريتهم جلالتك كشعلب بلاد الجنوب الذى يخفى في سيره فيقطع البلاد ويحترق الأراضي البعاد .

من هذا الذى بسطناه من تاريخ تحوتس الثالث يمكننا الجزم بأن محتويات تلك القصيدة ليست شعرية خيالية كلية ولاهى من مبتكرات الكهنة ، لأن صفات تحوتس الثالث وشخصيته برزت في التاريخ المصرى القديم بدرجة منقطعة النظير في ملوك مصر قاطبة ما عدا إخناتون . والحق

يقال إن نشاط تخومس الثالث فاق كل نشاط سواء أكان قبله أم بعده. زد على ذلك أنه كان هاويا مقتنا دقيقا يتلهى وقت فراغه بصياغة الأواني وابداع أشكالها. وكان أيضا حسن التدريب في السياسة حاذ الذائرة يقوم بالحروب الكبيرة بآسيا مستعملا في الوقت نفسه شدته في منع انتشار الرشوة والحيث في أثناء جمع الضرائب من الأهالي. وقد وصفه وزيره الجليل المدعو رنخارغ بما ترجمته: "كان يعلم كل شيء"، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحاط بها، فكان في ذلك كإله تحوت (إله المعارف عند المصريين) في معرفته وما تناول أمرا الا أنهاء بنفسه" (١). ورغما من شدة افتخاره بأعماله ونقشه اياها كان كثير التعلق بالصدق في كل أعماله، ويروى عنه أنه قال: "أنا لا أبلغ في ذكر أعمالي لأني لا أدعي شيئا لم آت به..... ولذلك لا يمكن أحدا أن يشكرني على فعل شيء أدعيته لنفسى. لقد قمت بأعمالي كلها لأجل آتون فهو يعلم ما في السماء وما في الأرض وهو الرقيب على البلاد والعباد في وقت واحد" (٢). وكان مداحا للصدق شديد الاحترام لمعبود الصدق (٣). لذلك اعتبر عهد تخومس الثالث عهدا ممتازا في القطر المصري وبلاد الشرق عامة ولم يظهر في التاريخ الى ذلك العهد ملك جمع ايراد مملكته الشاسعة وأقام عليه ادارة حكومية مركزية ثابتة بثمره دامت سنوات عدة كما فعل، فهو في هذه الحال أشبه بمجداد اشتغل بمطرفة زتها مائة طن، بل هو أكثر من ذلك لأن الفضل يرجع اليه في عمل هذه المطرفة. ولا يخفى أن هذا النشاط وهذا الذكاء الوقاد ظهرا للعيان بعد انفصاله من حياة المعابد وانتقاله الى معيشة الملوك، وهذا يذكركنا كثيرا بتاريخ الاسكندر المقدوني ونابوليون لتشابه تاريخهم جميعا. وخلاصة القول أن تخومس الثالث كان أول رجل في التاريخ أسس امبراطورية حقيقية فهو لذلك أقدم بطل معروف على الأرض، ولا غرابة فقد خضعت لقوته آسيا الصغرى وأعلى الفرات وجزر البحر الأبيض المتوسط ومستنقعات بابل وشواطئ ليبيا السحيقة ووحدات الصحراء وهضبات الصومال وشلالات النيل العليا. زد على ذلك أن أمراء تلك الجهات تسابقوا في تأدية جزيتهم وهداياهم اليه، ويعتبر هذا برهانا ساطعا وتذكارا عظيما للعالم على نجاح نظمه وترتيباته الحديثة. وقد تجلت شخصية هذا الملك العظيمة وشدة توقيعه للقصاص العادل في مشاحنات أمراء سوريا فظهرت جو الشرق السياسي من الأقدار وطردت المفساد كما تطرد الريح الشديدة ما يترام أمامها من الأبنجة العفنة فلا يبقى لها أثر. وقد كانت سرعته في ايقاع القصاص بيده الحديدية بمثابة عظة عظيمة لأهالي النهرين فلم يحركوا ساكنا بعد وفاته بثلاثة أجيال تقريبا. ومما يدل على شدة تأثير هذا الملك في نفوس رعيته أنهم اعتقدوا بوجود صفات سحرية في اسمه حتى نقشوه على الأحجبة بعد زوال امبراطوريته وتصدع أركانها بعدة قرون. ومن أجل ماثر هذا الملك مسلتاه الأثريتان العظيمتان المنصوبتان على شاطئ المحيط الاطلاطي وهما تشهدان له بالفخر والاعجاب (٤)، وقد اعتبرت هاتان المسلتان في تلك البلاد السحيقة تذكارا عظيما لأول امبراطور خلد اسمه في تاريخ العالم القديم.

(١) ٢ : ٦٦٤ (٢) ٢ : ٥٧٠ (٣) ٤٥٢ (٤) نصت إحدى هاتين المثلين على شاطئ نهر التيمس

بلندره، ونصبت الأخرى في "الحديقة النرسطى" بمدينة نيويورك (راجع صحيفة ٢٠٢).

الفضل السابع عشر عهد الامبراطورية

يمتاز هذا العهد بكثرة رخائه وتقدم مدينته ففيه زالت العوائق بين مصر وآسيا التي أوجدها الهيكسوس ومحا تحتمس الثالث أثرها من الوجود، فتيسر التعامل بين إفريقية وآسيا وزالت الفوارق القديمة فلم يبق هناك ممالك صغيرة مستقلة بل أصبحت البلاد كلها الممتدة من بابل والفرات الى أعلى النيل متحدة على تباین عناصرها ولغاتها . وأخذت تجارة شرق البحر الأبيض المتوسط تتحول تدريجيا من اقليم الفرات وبابل الى مصر وبالأخص اقليم الدلتا الذي كثرت خيراته وتضاعفت روابطه التجارية ، وكان هذا الاقليم الأخير منذ عدة قرون على اتصال بالبلاد الآسيوية بالقناة التي توصل البحر الأحمر بالنيل فانحصرت تجارة العالم في الدلتا وصارت أكبر أسواق العالم . وكانت آشور في هذا الوقت فتية ، وانعدم من بابل نفوذها السياسي تماما في البلاد الغربية فأصبحت سلطة فرعون على امبراطوريته الشاسعة عظيمة مهية .

ولم تصل إلينا سوى معلومات قليلة عن الادارة المصرية بآسيا . وقد ذكرنا فيما سبق أن تلك الممالك الآسيوية كانت تحت ادارة وال مصرى ملقب "بجاکم البلاد الشمالية" وأول من أسند اليه هذا المنصب هو تحوتى قائد جيوش تحتمس الثالث^(١) . وقد اضطرت الظروف أن تحتفظ مصر في سوريا وفلسطين بقوات حربية تكبح بها جماح أمراء تلك الجهات وتردهم الى حدود القانون . وترتب على هذا أن شيد المصريون هناك قلاعاً سموها بأسماء ملوكهم وجعلوها في كل منها حامية ملكية بقيادة ضباط مهرة خاضعين لأوامر فرعون مصر ومعتبرين نواباً له فيها^(٢) ، فمنها تلك القلاع التي شيدها تحتمس الثالث جنوبى لبنان^(٣) وقد أصلح أيضاً قاعة على شاطئ فينيقيا وأنشأ جوارها معبداً لآمون معبود مصر الرسمي^(٤) ، والغالب أنه كان لكل حصن معبد . ويؤكد البعض أن القلعة الموجودة جهة إكاثي (Ikathi) من تأسيس تحتمس الثالث^(٥) . وعثر رنان على بقايا معبد لتحتمس جهة ببلوس (جبيل)^(٦) . ومن ذلك يتضح أن أمراء آسيا سمح لهم بادارة شؤون بلادهم بشرط إظهار ولائهم لمصر ودفع جزيتهم لفرعونها كل سنة بانتظام، حتى اذا توفى أحدهم يعين ابنه الذى تربى في طيبه بدله للقيام بأعماله، وهكذا صارت بلاد آسيا أشبه بممالك صغيرة تابعة لمصر، ويعتبر هذا أول درجات الحكم الذاتى . وكان هذا النوع من الحكم فى النوبة بالغاً درجة أعلى لأن تلك البلاد الجنوبية كانت تحت ادارة "والى كوش" . ولم نهتد لآلان عن طرق المعاملة بين أمراء آسيا

(١) راجع صحيفة ٢٠٥ خطابات تل العمارنة (٢) ٥٤٨: ٢ (٣) ٨٠٧: ٢-٤ (٤) ٧٨٧: ٢ (٥) Rougé, Revue Arch. n. s. VII. 1863 pp. 194 ff. (٦)

و"حاكم البلاد الشمالية" ويظن أن مهام ذلك الحاكم كانت مالية . قال تحوتى الذى عين فى ذلك المركز فى عهد تحوتمس الثالث : "انه ملأ خزانة فرعون وقتنذ بأجارالازورد والذهب والفضة"^(١) . ويرجح أن أمراء تلك البلاد كانوا يجمعون الضرائب بأنفسهم ويعتبون بيعها الى فرعون مصر ، ولا نزال نجعل المقدار المسموح لكل أمير أن يستبقه لنفسه ، كما أننا لا نعرف بالضبط مقدار الجزية التى كان يأخذها فرعون من البلاد الأسوية .

ولما بلغ بلاد آسيا خبر وفاة تحوتمس الثالث شقت عصا الطاعة على مصر رغبة منها فى التخلص من الجزية كما يحصل عادة فى كل امبراطورية قديمة اثر وفاة ملكها . والقارئ يتذكر أن أمنتحتب الثانى لم يشترك هو وأبوه فى الملك الا سنة واحدة ، فلما توفى والده^(٢) هبت فى وجهه تلك الثورة المنجعة الشاملة لبلاد النهرين ومثانى وشمالى فينيقيا . لكن أمنتحتب الثانى واجه ذلك الخطر ببسالة ونخوة ورثما عن والده فاستقر رأيه على الزحف على آسيا واخضاع أعدائه متحدين وكسر جيوشهم الجارية^(٣) . أما جنوبى فلسطين فلم يجرؤ على الثورة ، وخلاف ذلك وسواه التهته نيران الاضطراب والعصيان . وقد بدأ أمنتحتب الثانى بزحفه فى أبريل سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد (فى السنة الثانية لحكمه) فبلغ شمالي فلسطين فى أوائل مايو وهناك التحم يمحوش أعدائه وحاربهم بيهمة شمس إدموم (Shemesh-Edom)^(٤) ، وكانوا وقتنذ بقيادة أمراء لبنان . واتبع الملك سنة والده فقاد جيوشه بنفسه فلما اشتبك القتال اشترك فيه شخصيا فأسر ثمانية عشر أسيرا وستة عشر حصانا^(٥) وانتهت المعركة بهزيمة أعدائه هزيمة تامة . وفى اليوم الثانى عشر من شهر مايو عبر الملك (لآخر مرة فى حكمه) نهر الأورونط متجها شمالا نحو زرار — غالبا — ميمما شرقا وشمالا نحو الفرات^(٦) ، ثم عبره^(٧) الى حيث اشتبك فى معركة صغيرة مع مقدمة قوات النهرين، ثم توغل فى البلاد وأسر سبعة أمراء من أرض تخسى (Tikhsi)^(٨) . وبلغ مدينة نى فى السادس والعشرين من شهر مايو — أى بعد عبور الأورونط بأربعة عشر يوما — فوجد المدينة مفتحة الأبواب ووقف رجالها ونساءها على جدرانها يحيمونه بالظفر والنصر^(٩) . وبعد ذلك بعشرة أيام (أى فى يوم ٥ يونيه) نجى قوة مصرية من الوقوع فى خديعة أمير بلدة إكاثى (Ikathi) العاصى^(١٠) وأوقع عليه وعلى أهل بلده عقابا صارما . ودنا نتساعل هل توجه الملك الى أعلى الفرات أو عبر الفرات وتوغل بأرض مثانى، والغالب أنه فعل الأخير فقد جاء فى أخباره أن أمراء مثانى أتوا اليه حاملين جزيتهم على ظهورهم باحثين عن جلالة ليسمح لهم بالبقاء أحياء واستنشاق نسيم الحياة اللذيذ، وهذا أعظم شيء حصل منذ زمن المعبودات، وهكذا عرفت هذه البلاد — مثانى — المعبود الطيب "فرعون" بعد ما كانت تجهله وبلده^(١١) . ولما بلغ أقصى تلك الجهات الشمالية — وهو غالبا أبعد مما وصله والده — نصب فيه حجرا أثريا كما فعل أبوه وجده من قبل^(١٢) . ثم عاد الى منف فقابله المصريون باحتفال بهيج وهناك شاهدوا الجيوش المصرية تتدفق كالسيل ومعهم ما يزيد على خمسمائة أمير سورى أسرى ومائتين وأربعين زوجات لهم

(١) راجع صفحة ٢٠٥ (٢) ١٨٤:٢ (٣) ٧٩٢:٢ و ٤:١ (٤) ٧٨٣:٢ (٥) شرحه
(٦) ٧٨٤:٢ (٧) شرحه (٨) ٧٩٧:٢ (٩) ٧٨٦:٢ (١٠) ٧٨٧:٢ (١١) ٨٠٤:٢ (١٢) ٥-٤:٢ و ٨٠٠:٢

ومائتين وعشرة من الخيل وثلاثمائة عجلة من غنائم الحرب . وروى أن سكرتيره الخاص كان وقتئذ محتفظا بأشياء كثيرة ليسلمها الى رئيس مالية جلالة الملك وهذه الأشياء كانت تحوى ما ينف على ألف وستمائة وستين رطلا ذهباً (على شكل مواعين وأوان) وما يقرب من مائة ألف رطل من النحاس^(١) . ولما قرب الملك من طيبة علق في مقدم سفينته أمراء تحصى السبعة الذين أسرههم موثوق الأرجل ورؤوسهم الى أسفل . ولما بلغ طيبة تولى ذبح ستة منهم قربانا لآمون وصاب أجسادهم على جدر طيبة ، أما سابعهم فأرسله الى النوبة ليعدم بالكيفية نفسها فيتعظ أهالى النوبة ويقدرُوا سطوة فرعون مصر ، وسياقى الكلام على ذلك^(٢) . والحق يقال ان نشاط هذا الملك ويقظته أثرا كثيرا في أعدائه فقد جاء في الآثار أن جلالة لما أسرع الى اخضاع أعدائه الشائرين هابه سكان مستعمراته الأخرى فلم يتجاسر أحدهم على شق عصا الطاعة عليه .

بعد ذلك وجه الملك همته الى اظهار حدود مملكته وتوسيعها جنوبا ولذلك لما وصل الى طيبة أرسل الى النوبة على جناح السرعة بعثة عسكرية معها الأمير السورى السابغ الذى أسره بجهة تحسى فوصل على جدر نبتة عظة لمن يتجاسر من النوبيين على معارضة مصر . أما حدود مصر وقتئذ فبلغت الشلال الرابع ولذا كانت حروب أمنتخب الثانى موجهة الى جنوبى ذلك الاقليم ، وقد انتهت هذه الحروب بضم الجزء المعروف باسم كاروى (Karoy) الى المملكة المصرية وهكذا أصبح ذلك الاقليم آخر مكان جنوبى تمتد اليه سلطة المندوب السامى بكوش وحاكم الممالك الجنوبية^(٣) ، واقليم كاروى قريب من منحنى النيل العظيم بجهة أبى حمد حيث يتجه تيار ذلك النهر جنوبا . وقد أقام أمنتخب الثانى فى تلك الجهات آثارا حجرية أثبت فيها حدود مملكته^(٤) أما فيما بعد ذلك الاقليم جنوبا فكان النفوذ المصرى مبسوطا على الطرق التجارية فقط حفظا للنظام ومنعا لتمرد الأهالى وقيامهم بحركات عدائية . وبعد ما رجع أمنتخب الثانى من حربه الأسبوية بتسعة أشهر تقريبا نصبت بعثته الحربية السودانية أثرين حجرين أحدهما جهة أمدا (Amâda) وثانيهما فى جزيرة الفيل ذكر فيهما أن جلالة أتم بناء المعابد التى بدأها والده تحوتمس الثالث فى تبتك الجهتين^(٥) ، وأيضا ما حصل لأمرأ تحسى المذكورين سابقا وروى بهما كذلك أعمال جلالة فى أثناء "حربه الأولى" ببلاد النهرين ومنه استنتج أنه كان مصمما على القيام فيها بعدة حروب . والمعروف أن مركز آمون أصبح وقتئذ أعظم مركز إلهى عند فراعنة تلك العصور ، ولما اتخذ تحوتمس الثالث من الاحتياط لما عسى أن يطرأ على مستعمراته لم يحتج أمنتخب الثانى الى القيام بحروب فى آسيا ولا فى النوبة خلاف ما ذكرناه سابقا .

وشيد أمنتخب الثانى معبدا على شاطئ طيبة الغربى يحوار معبد والده لكنه تلف الآن . ورم فى الكرنك تلك الساحة الكبرى التى تزع سقفا وقت نصب مسلتى حعشعشسوت فأقام الأعمدة التى نزعها تلك الملكة ورصعها بالمعادن الثمينة . وقد ذكر أمر هذه الترميمات على الجدر التى شيدها والده حول قاعدتى مسلتى حعشعشسوت لإخفاء معالمهما^(٦) . ثم شيد مكانا ذا عمد صغير الحجم بالكرنك . أما فى عين شمس ومنف فشيد عمارات وأصلح محاجر طرويا (Troja) الا أن تلك الأعمال لم يبق

(٥) ٧٩١:٢-٨

(٤) ٨٠٠:٢

(٣) ١٠٢٥:٢

(٢) ٧٩٧:٢

(١) ٧٩٠:٢

(٦) ٦-٨٠٣:٢

لها من أثر . والمعروف أن هذا الملك كان عظيما كوالده مع قلة آثاره وقد اشتهر بعظم الساطة وشدة البأس ، فقد ورد عنه أنه كان قوى الجسم كثير الافتخار بنفسه لا يصارعه انسان في استعمال قوسه الحربى . وقد عثرنا على هذا القوس في قبره فوجد منقوشا بالنصوص الآتى ترجمتها : ”قاتل الأعناء قاهر كوش وناهب بلادهم سور مصر العظيم الحامى جوده“ (١) . ويعتبر هذا الوصف أصل الخرافة التى رواها هيرودوت عن عجز قبيل العجمى عن استعمال قوس ملك النوبة ، ولا يخفى أن مثل هذا التحريف والتبديل فى الحقائق التاريخية جاء نتيجة تداول الألسن على مرور الزمن . وفى السنة الثالثة عشرة من حكم أمنتحتب الثانى احتفل احتفالا عظيما بمسلة نصبها بجزيرة الفيل للذكرى . وتوفى هذا الملك عام ١٤٢٠ قبل الميلاد بعد ما حكم حوالى ست وعشرين سنة ودفن كأسلافه فى وادى مقابر الملوك بطيبة ولا تزال جثته محفوظة الى الآن (شكل ١٢١) . وقد سطا للصمص على هذه الجثة فى نوفمبر عام ١٩٠١ وقطعوا لفائفها للاستيلاء على حلها الملكى (٢) ، على أن أسلاف هؤلاء اللصوص لم يتركوا ما يستحق السرقة الا سرقوه قبلهم (٣) .

ولما توفى أمنتحتب الثانى ولى بعده تحوتمس الرابع عرش مصر . وقد وردت بخصوص هذا الملك قصة تداولتها الألسن بعد وفاته بعدة قرون تلخص فى أنه لم يكن منتظرا أنه يرث الملك عن والده فخرج يوما ما قبل وفاة والده بمدة للصيد بجوار أهرام الجيزة حيث دفن ملوك الأسرة الرابعة التى يرجع تاريخها الى حوالى ألف وثلثمائة سنة إذ ذاك ، واستراح فى ظل أبى الهول (أحد رموز الشمس) فرأى هذا المعبود فى المنام طالبا نقل الرمال المحيطة به والمنهالة عليه من قديم الزمن ووعده إن فعل ذلك أن يساعده على ولاية الملك فلما انتبه تحوتمس الرابع من نومه أقسم أنه سيفعل ما طلبه المعبود وقد نفذه فعلا بعد ما تولى . وذكر هذه القصة على حجر جرانيتى كبير مقام بين قدمى أبى الهول الأماميتين ويظهر أنه مأخوذ من معبد أزوريس المجاور بمساعدة الكهنة وقتئذ ، ولا يزال هذا الحجر فى مكانه (٤) .

وفى مبدأ حكم تحوتمس الرابع شبت فى آسيا ثورة استدعت ذهابه ولا تزال نجهل كثيرا من أخبار تلك الغزوة التى لقبها بالغزوة الأولى (٥) جريا على عادة والده . ودلتنا نقوش جدر معبد آمون بطيبة أنه اضطر أن يذهب شمالا الى بلاد النهرين وأنه أخذ جزية عظيمة من ملك تلك المستعمرات اللعين (٦) ، والظاهر أن مجرد شخوصه فيها كفى لإخضاع الأمراء النافرين وقتئذ . ورجع عن طريق لبنان وأمر حكام تلك الجهات أن يجمعوا كمية كبيرة من خشب الأرز ثم شحنها الى طيبة ليبنى منها سفينة مقدسة للمعبود آمون (٧) . ولما وصل الى طيبة استخدم عددا من الأسرى الذين أتى بهم غالبا من جازر بفلسطين (٨) للعمل داخل معبده بطيبة الذى شيده بجوار معابد أسلافه .

فى ذلك الوقت أخذ نفوذ خيتا يكبر تدريجا وصارت معادية لمصر وملكته متانى ومن ثم اتحدت الملكتان الأخيرتان لمناوأة خيتا . ولا يخفى أن متانى كانت تسعّر بسلطة خيتا أكثر من مصر

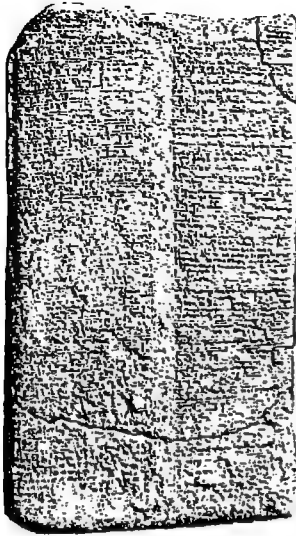
(١) ٢ : صفحة ٣١٠ ملاحظة (ج) (٢) ٨ - ٥٠٨ : ٤ (٣) راجع صفحة ٥١٠ - ١١ (٤) ٢ : ٨١٠ - ٨١٥
(٥) ٢ : ٨١٧ (٦) شرحه (٧) ٢ : ٨٢٣ ر ٨٣٨ (٨) ٢ : ٨٢١



شكل ١٢١ - صورة شمسية لموميا أمعنحب الثاني
ابن نخوتمس الثالث . ولا تزال هذه الموميا
موجودة بقبورها بطيبة



شكل ١٢٠ - صورة شمسية لموميا نخوتمس الثالث
(دار تحف القاهرة)



شكل ١٢٣ - أحد خطابات تل المارئة
رقم ٢٩٦ مذكور فيه قائمة بهذا يا تادرشينا
بنت ملك متاني المدعو دوشراتا
(دار تحف برلين)



شكل ١٢٢ - صورة شمسية لموميا نخوتمس الرابع
ابن أمعنحب الثاني (دار تحف القاهرة)

لقربها منها، زد على ذلك أن تحوتمس الرابع رأى من مصلحته أن يحالف صديقا له في الجهات الشمالية فأرسل الى ملك متانى ملتصبا منه ارسال كريمته ليقترب بها^(١)، فتردد الأخير يسيرا كالمعتاد في مثل هذه الأحوال ثم رضى في آخر الأمر وأرسل كريمته الى مصر حيث لقبت موت أمويا (Mutenuya) وقد صارت فيما بعد أم أمنحتب الثالث الذى خلف تحوتمس الرابع في الملك. بهذه الوسيلة تمكن تحوتمس الرابع من عقد معاهدة ثابتة مع متانى، لكنه يلاحظ أن هذه المعاهدة منعت مصر من غزو البلاد شرق نهر الفرات (بالنسبة لموقع متانى الجغرافى) .

توجد قائمة بأسماء بلاد أجنبية محلاة بها قواعد عمد معبد صلب شيده أمنحتب الثالث ذكرت هناك بمثابة مستعمرات مصرية فظن بعض الأثريين منها أن أمنحتب الثالث كان حاكما على بلاد العراق أيضا . لكن خطابات تل العارنة واضحة بخصوص هذه المسألة وعليه فالامبراطورية المصرية لم تشمل مطلقا بلاد العراق في عصر من عصورها (أوردتها هنا باذن من الأستاذ برسد ، من دائرة معارف التاريخ القديم للجامعة كبريدج صحيفة ٩٢ ، القسم المصرى .

بعد ذلك عقد تحوتمس الرابع محالفة صداقة كالسابقة مع بابل^(٢) . والمعروف أن أحوال آسيا وقتئذ لم تتطلب القيام بغزوات حربية ولكن تحوتمس الرابع لقب نفسه مع ذلك "فاتح سوريا"^(٣) . أما جزية هذه البلاد الأخيرة فكانت ترسل كل سنة الى مصر وتسلم الى رئيس المالية بمكتبته^(٤) . وفي ربيع السنة الثامنة لحكمه وصلت اليه أنباء بمحذوث ثورة بالنوبة^(٥) فسار اليها في جيشه مارا بالمعابد العظيمة في طريقه محيا آلهتها حتى بلغ الشلال الأول ، ثم زحف في بلاد الواوات فدهش لما وجد جيوش العدو يجوار حدود النوبة الشمالية . ولما التحم بها هزمها شر هزيمة ثم استولى على كيات عظيمة من الغنائم الحربية^(٦) ، وأرسل الأسرى الذين ضرب عليهم العبودية الى معبده ليخدموا فيه^(٧) . والغالب أنه لم يعيش طويلا بعد ذلك لأنه لم يتمكن من تحسين طيبه وتنسيقها كما فعل آبؤه . ولشدة حبه لجنده تحوتمس الثالث أتم عمل جده فأقام المسلة التي تركها بمدخل الكرنك الجنوبي ونقشها بالدعوات والصلوات عليه ودون عليها أفعال جده الخيرية ، أما ارتفاع هذه المسلة فيبلغ مائة وخمس أقدام وهي أكبر مسلة باقية للآن وقد نقلت الى ايطاليا حيث لا تزال منصوبة أمام اللاتيران (Lateran) روما . وقد توفى تحوتمس الرابع بعد ذلك بمدة يسيرة (حوالى عام ١٤١١ قبل الميلاد) وقت الاحتفال ببعض أعياده ودفن بوادى مقابر الملوك بطيبه مع أجداده السابقين (شكل ١٢٢) .

ولما توفى تحوتمس الرابع ولى بعده ابنه أمنحتب الثالث آخر كبار فراعنة الامبراطورية المصرية . وقد كانت المملكة في وقته بالغة أعظم درجات الرقي والحضارة ثم أخذ يظهر عليها

(١) خطابات تل العارنة ٢١ و ١٦ - ١٨ (٢) خطابات تل العارنة ١٤١ - ٦٣ (٣) ٢ : ٨٢٢ (٤) ٢ : ٨١٩ - ٨٢٠ (٥) ٢ : ٨٢٦ (٦) ٢ : ٨٢٩ (٧) ٢ : ٨٢٤

ديبب الضعيف يسيرا . والمعروف أن هذا الملك لم يكن كفتا لممارسة الأمور وقتئذ لأنه كان ولوعا بالنساء منذ أوائل أيامه ثم ازداد غراما بهن وتعلق بالنساء منذ كان ولي العهد أو حاكما تسلم من والده مقاليد الحكم فتزوج وقتئذ بامرأة غربية مجهولة الأصل تدعى تي (Tiy)، والغالب أن هذه المرأة مصرية لا تظهر عليها مسحة أجنبية ، فلما كانت ليلة القران أمر بصنع جعل حجيرة كبيرة منقوش عليها تاريخ ذلك القران^(١) ومذكور بها أيضا ضمن الديباجة الملكية أسماء والدي هذه الزوجة بوضوح وبساطة مما يثبت أنهما مجردان من كل صلة بالبيت المال . وقد جاء في نصوص هذه الجعل أن الزوجة تي صارت قرينة الملك ، واليك ترجمة ما جاء بآخر هذه النقوش : "لقد صارت هذه السيدة زوجة الملك العظيم الذي بلغت حدود مملكته الجنوبية إقليم كاروي (Karoy) والشمالية بلاد النهرين"^(٢) فكان هذا بمثابة تذكار لهذه الملكة السامية إذا ما خالج أحدا فكرة ضعة أصلها . وتسلطت هذه الملكة كثيرا على نفس أمنتحتب الثالث فسمح لها بكتابة اسمها داخل خانة ملكية بأول النصوص الملكية وقد استمرت سلطتها قوية طوال حكم أمنتحتب الثالث ، ويعتبر عهد هذه الملكة فاتحة ازدياد نفوذ الملكات على العرش المصري وإدارة شؤون المملكة في الحفلات العمومية ، وقد تجلى هذا النفوذ النسوى بوضوح في عهد هذا الملك وعهد خلفه أمنتحتب الرابع ، وسيأتى الكلام على أهمية ذلك .

وأظهر أمنتحتب الثالث مقدرة عظيمة في إدارة شؤون الإمبراطورية عند توليه الحكم فلم يتجاسر سكان المستعمرات الإمبراطورية في عهده على القيام بثورة ما ولذلك كانت تلك الجهات هادئة مطمئنة وكانت الحضارة والرفاهية بالغتين بها الدرجة القصوى . وفي أواخر السنة الرابعة من حكمه حصلت مشاغبات مجنونة فذهب إليها في أوائل شهر أكتوبر ليتمكن بذلك من عبور الشلال بأسطوله وقت ارتفاع منسوب النيل ، وفي ذلك الوقت كان المندوب السامى هناك المدعو مرموس (Mermose) حشد جيشا من السودانيين القاطنين الإقليم الذى هو بين كوبان وإبريم البالغ طوله نحو خمسة وسبعين ميلا^(٣) ، فانضمت هذه القوة إلى الجيش المصرى ثم زحفت القوات المصرية جنوبا لاختضاع العصاة فاعتبر هذا دليلا قاطعا على عظم النفوذ المصرى في السودان الشمالى وقتئذ . وحدثت المعركة الحربية بين جيشى أمنتحتب الثالث والعصاة يجهة إبحت (Ibhet) قرب الشلال الثانى في العيد الخامس لجلوس الملك على الأرجح ، وانهت بهزيمة العصاة تاركين سبعمائة وأربعين أسيرا وثلثمائة وأثنى عشر قتيل كما ورد على لوح النصر المنصوب يجهة الشلال الثانى^(٤) . ثم طافت فصائل من الجيش المصرى على البلاد وقامت بالتفتيش على القرى والآبار لمعاقبية الأهالى حتى لا يقوموا بحركة ثورية على مصر^(٥) . بعد ذلك زحف أمنتحتب الثالث جنوبا مدة شهر تقريبا أسرى أثناءه عددا عظيما من الأسرى وكية كبيرة من الذخيرة^(٦) . ولما وصل إلى تل هوا (Hua) ضرب خيامه على جزيرة أنشك (Uneshak) جنوبى ذلك التل . أما موقع التل بالضبط

(١) ٢-٨٦١ : ٢ (٢) ٨٦٢ : ٢ (٣) ٨٥٢ : ٢ (٤) ٨٥٣ : ٢ - ٤ (٥) ٨٥٠ : ٢ (٦) ١١ : ٢ و ٨٥٠ : ٢

فجهول لنا على كثرة ذكره مع اسم الصومال (بونت) ويظن أنه على مسافة بعيدة عن منطقة الشلالات ، ويعتبر هذا المكان آخر ما وصل اليه أمنتخت الثالث^(١) . بعد ذلك جمع الملك كميات كبيرة من الذهب لعمارات طيبة من اقليم كاروى بجهة بَنَّة^(٢) ثم نصب حجرا أثريا على بحيرة حوريس أثبت فيه انتصاراته^(٣) ، ولأن لم ننتد الى موضع هذا المكان بالضبط ولعله قريب من حدود مملكة والده . ويعتبر هذا العمل آخر غزو كبير قام به الفراعنة بالسودان ، بصرف النظر عن المشاغبات الصغيرة التي سببتها القبائل المجاورة . والسبب في ذلك أن هذا القطر أخذ يصنع تدريجا بالصبغة المصرية حتى أصبح الاقليم الذى بين الشلال الأول والشلال الرابع خاضعا خضوعا تاما للسلطة المصرية . وليلاحظ أن الأهالى القاطنين لقسم السودان الخاضع لمصر كانوا نوبيين ، أما الزنوج فكانت بلادهم وقتئذ جنوبى اقليم شلال النيل الرابع . وأقدم رسوم لزنوج إفريقية وجدت على آثار الامبراطورية المصرية في عهد تحوتمس الأول كما أظهر جنكر (H. Junker) . والمعروف أن الامبراطورية المصرية لم تشمل يوما ما أراضى زنجية (مأخوذة باذن الدكتور برستد من دائرة معارف التاريخ القديم للجامعة كبرج صحيفة ٩٤ - القسم المصرى) . أما الاقليم الذى بين الشلالين الأول والثانى فقد صار مصر يا تماما فظهرت في مدنه الكبيرة الهياكل المصرية وعبدت فيها المعبدات المصرية . ثم أدخلت في تلك البلاد الصناعة والأشغال اليدوية المصرية فتجلت بذلك في تلك الجهات المدنية والأخلاق والآداب المصرية بوضوح . لكنه بالرغم من هذا سمح لرؤساء القبائل السودانية بأن يحتفظوا بالقابهم ومراكمهم اسميا - على الأقل - وأن يشتركوا بسيراهم والموظفون المصريون في ادارة شؤون البلاد . أما القسم الذى هو بين الشلال الأول وإبريم فكانت ادارته كلها بأيدي المصريين ولذلك يتضح لنا السبب في أن هذا القسم حشد جيشا انضم الى قوة أمنتخت الثالث ليساعدها وقت زحفها على السودان^(٤) . وجرى العادة وقتئذ أن يحضر المندوب السامى للسودان كل سنة الى طيبة مصحوبا بجزية التوبة العامة حتى أصبح ذلك أمرا مألوفا لدى العامة^(٥) .

كانت سلطة أمنتخت الثالث في آسيا لا تقاوم قفى قصر بابل كانت سلطته على سوريا وفلسطين (المعروفين قديما باسم كنعان) معترقا بها . ولما أراد بعض أمراء آسيا القيام بحركة عدائية مشتركة على ملك مصر كتبوا الى ملك بابل المدعو كوريجالزو (Kurigalzu) ، طالبين انضمامه اليهم فرفض ذلك يتانا قائلا انه انما يتحالف مع فرعون مصر ثم هددهم فعلا بالقوة اذا هم ناروا على أمنتخت الثالث^(٦) . وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم لا فقد وردت مدونة ضمن رسائل بابل وهى على كل حال كافية لاثبات صداقة بابل المتينة نحو مصر . ووصلت الحال الى أن بابل وأشور ومثاني وقبرص تنافست لاكتساب محبة مصر ويعتبر هذا أول مظهر سياسى دولى عام في تاريخ الممالك المعروفة للآن . وصار قصر فرعون مصر مركزا للتخاطب مع كبار حكام ذلك العصر جميعا . وترجع معظم معلوماتنا عن المداولات بين فرعون مصر وحكام آسيا الى اللقبة العظيمة التي وجدت

(١) ٨-٨٢٧: ٢ (٢) ٨٨٩: ٢ (٣) ٨٤٥: ٢ (٤) ١٠٣٧: ٢ (٥) ٤١-١٠٣٥: ١ (٦) سطايات تل العمارنة ٧

بتل العمارنة وهى عبارة عن الخطابات التى تبودلت بين حكام ذلك العصر وفرعون مصر ومنها عرفنا مقدار ما بذله كل ملك من مجهود لاستمالة عطف مصر ومحبة عرشها العظيم . ويبلغ عدد هذه الخطابات ثلثائة وهى عبارة عن قوالب طينية منقوشة بالخط المسمارى البابلى ، وكان اكتشافها عام ١٨٨٨ ميلادية جهة تل العمارنة التى كانت عاصمة المملكة المصرية فى عهد إخناتون بن أمنحتب الثالث والتى كانت أيضا مركز التغاطب مع الملوك الأجانب (شكل ١٢٣) . واتضح لنا أن هذه الخطابات كانت متبادلة بين أمنحتب الثالث وابنه إخناتون من جهة ، وملوك بابل ونيوى ومتانى وقبرص وولاه سوريا وفلسطين من جهة أخرى . ويوجد بين هذه الرسائل خطاب من أمنحتب الثالث الى ملك بابل المدعو كالنما - سين (Kallimma-Sin) أو كادشمان بل (Kadashmau-Bel) وأربعة رسائل من ملك بابل هذا الى فرعون مصر^(١) . ويستنتج من هذه الرسائل أن ملك بابل كان كثير المطالبة بالذهب فقد رجا فى خطاب له فرعون مصر أن يرسل له كميات كبيرة من ذلك المعدن النفيس لأن ملك بابل علم من رسله أن ذهب مصر كثير كالتراب ، وقد أرسل أمنحتب الثالث للملك بابل ما طلبه ، لكنه كان كثيرا ما أظهر عدم رضاه بالمقادير المرسله . وجاء فى خطاب آخر أن والد ملك بابل أرسل كريمته الى أمنحتب الثالث ليقترن بها فاعتبر هذا سببا كافيا طالب بمقتضاه ملك بابل فرعون مصر بكمية كبيرة من الذهب . وفى رسالة أخرى أن ملك بابل طلب كريمته أمنحتب الثالث ليقترن بها لكننا لم نعرف بالضبط اذا كانت هذه الفتاة له أو لابنه .

ومثل هذه العلاقات الودية كانت متبادلة أيضا بين أمنحتب الثالث وملك متانى المدعو شوترنا (Shuttarna) ابن أرتاتاما (Artatama) صديق تحوتمس الرابع الحميم . ولا يبعد أن يكون أمنحتب الثالث ابن أخت ملك متانى . والمعروف أن هذا الأخير أرسل كريمته المدعوة جيلوخيا (Gilukhipa) الى أمنحتب الثالث ليقترن بها ، فأقام هذا الأخير احتفالا عظيما وأمر بصنع عدد عظيم من الجعل نقش عليها أخبار ذلك القران ، منها أن الأميرة المذكورة أحضرت معها من آسيا حاشية من السيدات يبلغ عددها ثلثائة وسبع عشرة سيدة وخادمة^(٢) . وكان ذلك فى السنة العاشرة من حكم أمنحتب الثالث . وتوفى ملك متانى فعقبه فى الملك ابنه المدعو دشراتا (Dushratta) وقد أرسل هذا كريمته أيضا المدعوة تادوخيا (Tadukhipa) الى أمنحتب الثالث ليقترن بها ابنه المدعو إخناتون ، وقد اعتبرت هذه المراسلات الملكية برهانا صادقا للود المتين بين القطرين وقتئذ . واليك ترجمة نص خطاب أرسله دشراتا^(٣) الى أمنحتب الثالث :

”الى أنخى وضهرى الذى يحببى وأحبه أمنحتب الثالث الملك العظيم وفرعون مصر
”من دشراتا الملك العظيم أخيك وحيك الذى يحبك . أنا فى صحة جيدة ، علك أنت كذلك وكذا منزلك وأختى وسائر زوجاتك وبناتك وعجلاتك وخيلك وكبار رجالك وأرضك وكل ممتلكاتك .
علكم جميعا بخير . كان أبائكم قديما على أوفق وثام مع آبائى ، لكلك قوى تلتك الرابطة عما كانت

(١) خطابات تل العمارنة ١ - ٥ (٢) ٧ - ٨٦٦ : ٢ (٣) خطابات تل العمارنة ١٧

عليه كثيرا . حقيقة كنت صديقا حيا لوالدى ، وتجاذبنا أطراف الصداقة معا لكنها الآن أشد مما كانت عشرينات . لعل المعبودات تزيد من ودنا هذا على توالى الأيام ، ولعل المعبود تسهوب (Tishub) (إله مملكة متاني) السيد والمعبود آمون يحافظان على هذا الود كما هو الآن .

”لما حضرالى رسول أخى المدعو مانى (Mani) قائلا انك تخطب كريمى لتكون ملكة على مصر لم أتجاسر على تكدير قلب أخى بل استمرت على أداء ما هو واجب نحو صداقتنا ، وتنفيذا لرغبتك يا أخى أرسلتها مع مانى الذى سر جدا برؤيتها ، فاذا وصلت الى أرضك يا أخى أتعثم أن المعبود إشتار (Ishtar) والمعبود آمون يجعلانها محبوبة ومقبولة لديك“ .

”لقد أحضر لى رسولى جيليا (Gilia) خطابك يا أخى . ولما قرأته فرحت جزىلا حتى أننى قلت وقتئذ اذا فرضنا أن صداقتنا ذهبت فان هذه الرسالة ستجعلنى أثار على الود لك الآن . وكتبنت لك يا أخى قائلا : ”أما من جهتى فاننا سنكون أعز أصدقاء وأوفى أخلاء“ . ثم سألتك يا أخى أن تقوى صداقتنا أكثر عشرينات مما كانت عليه أيام آبائنا . ولقد طلبت منك يا أخى مقدارا كبيرا من الذهب قائلا : ”أرسل لى يا أخى أكثر مما كان يرسل لوالدى من قبل ! لقد كنت ترسل لوالدى كميات كبيرة من الذهب بما يعادل مكيال نامغار (Namkhar) من الذهب النقي ومكيال كيرو (Kiru) من الذهب النقي (٩) أما الذى أرسلته فعباره عن قرص من الذهب يظهر أنه مخلوط بنحاس لذلك أرسل لى يا أخى كميات كبيرة من الذهب بلا حساب وليكن مقداره أكثر من الذى كنت ترسله لوالدى ، لأن الذهب فى أرضك يا أخى كثير كالتراب“ .

هكذا تخاطب ملوك بلاد آسيا الغربية مع مصر . ولنذكر هنا على سبيل الايضاح أن ملك أشور تسلم من أمنتحتب الثالث مبلغ عشرين مثقالا ذهبيا تالت (Talents) (١١) فسر بذلك وتوثقت روابط الصداقة بين الملكتين . أما ملك قبرص فكان مراعيا سيادة فرعون عليه جيدا فكان يرسل الى مصر كميات عظيمة من النحاس كل سنة إلا سنة واحدة اعتذر فيها عن تقصيره بانتشار وباء فى جزيرته . وكان حسن التفاهم بين قبرص ومصر بالنسبة لأقصى درجاته من الكمال ، من ذلك ما ورد على الآثار أن رجلا من أهالى قبرص توفى بمصر فدارت بين ملكى هذين القطرين مراسلات أرسل رسول بمقتضاها الى مصر لتسلم تركة المتوفى وإرجاعها الى قبرص لترد الى زوجة الفقيد وابنه (١٢) . وبلغت رغبة ملك قبرص فى صداقة مصر أنه حذر فرعون من الدخول فى أى معاهدة مع مملكة خيتا أو بابل ، وسرى أن بابل اتبعت هذه السياسة نفسها مع مصر للغرض ذاته أيضا . إزاء هذا الاحترام والتبجيل والرعاية من كل الدول العظمى لم يجد أمنتحتب الثالث أمامه ما يشغل باله من جهة مستعمراته الآسيوية ، خصوصا اذا لاحظنا أن حكام سوريا فى عهده كانوا أحفاد أسرى تحتمس الذى علمهم بمصر ورباهم على حبها مدة طويلة فأصبحوا لا يعرفون مركزا يطمحون اليه أسمى من أن يكونوا ولاية تحت الحكم المصرى . وكان طبيعيا فى وقت كان فيه

(١١) خطابات تل المارنة ٢٣ - ٣٠ ملاحظة (١٢) خطابات تل المارنة ٢٥ - ٣٠ ملاحظة

الحق للقوة أن يرى هؤلاء الأحفاد أن ذهابهم الى مصر ووراثه ملك آبائهم بعد وفاتهم كان الوسيلة لرضاهم في أن يكونوا محيين بالسلطة المصرية العظيمة من كل اعتداء أجنبي . وقد ألمعنا سابقا الى المدرسة المصرية التي تعلم بها هؤلاء الأحفاد والتي أنبتت في قلوبهم بذور المودة نحو مصر بعد ما كان آباؤهم ينفضون مملكة النيل ويتنجون عنها . وما أكثر ما أظهره هؤلاء الحكام من الطاعة لمصر وقتئذ ، خذ مثلا ما جاء بخطاب أمير قطنا (حصص ؟ Katna) المدعوا كزى (Akizzi) الذي أرسله الى أمنتحتب الثالث فقد جاء فيه ما ترجمته :

”سيدى أنا خادمك هنا ، أتبع سنة سيدى ولا أحيد عنه أبدا . لقد صارت هذه الأراضي ملكك منذ آبائى الذين خدموك . فمدينة قطنا مدينتك ، وأنا عبدك . سيدى ، حالمنا تصل الى جنودك وبجلائك الحربية سرعان ما يقدم لها الغذاء والشراب والبهايم والأغنام والعسل والزيت ، هكذا نقابل جنود جلائك وبجلائك أيها الملك“ (١) .

واليك مثلا آخر بخطاب أمير سورى أرسله الى أمنتحتب الثالث يثبت عبودية هؤلاء الأمراء . هذا ترجمته :

”سيدى ومليكى ومعبودى وشمسى . أنا خادمك أبى ملكى (Abimilki) . (أتشرف بأن) أسجد بين قدمى سيدى سبع مرات وسبع مرات أخر ، فأنا الأديم تحت خفى سيدى الملك . سيدى ، أنت الشمس الساطعة على الأرض كلها كل يوم“ (٢) .

وجاء فى خطاب آخر لأحد أمراء سوريا ما ترجمته :

” (أتشرف بأن) أسجد بين قدمى جلالة فرعون مصر على وجهى وظهري الخ“ (شكل ١٤٧) . وجاء فى خطاب آخر أرسله أحد الأمراء الى فرعون ما ترجمته :

”أنا الأرض التي تطؤها قدماك ، والمقعد الذي تجلس عليه . والمسند الذي تضع عليه قدميك“ . وغلا بعضهم فى العبودية فكتب الى جلالة فرعون مصر يقول ”أنا كلبك“ . وكان بعضهم يتشرف بأن يلقب نفسه ”سائس جلالة الملك“ . وقد شمل فرعون مصر هؤلاء الأمراء برعايته فأرسل لهم الزيت المعطر ليتضمخوا به فى عيد اعتلائهم لعروش آبائهم . واعتاد هؤلاء الأمراء أن يخلصوا الفرعون فيخبروه فى أول فرصة بما يحدث فى أقسامهم من بوارد الثورة ، وكثيرا ما عهد اليهم جلالته فى اخضاع الأمراء العصاة . أما مدن آسيا الكبرى فكانت تحوى وقتئذ الجنود والعجلات الحربية المصرية ، ولم تكن هذه القوات مصرية على بكرة أبيها بل شملت أيضا قوات نوبية وبعض قرصان البحر الأبيض المتوسط المعروفين باسم شردن (Sherden) — الذين يظن أنهم من جزيرة سردينيا — وأخذ هذا العنصر الأجنبي يزداد تدريجا فى الجيش على توالى الأيام . وقد اتضح لنا من خطاب أحد أمراء آسيا أنهم كانوا يقدمون الطعام والمسكن لقوات مصر هناك ، فظهرت فى سوريا بهذه

الكيفية حكومة وطيدة الأركان لم تر البلاد مثلها سابقا فالطرق آمنة والقوافل تسير مطمئنة على نفسها وأموالها ، كل ذلك لأن كلمة واحدة من فرعون كانت كافية لعزل أى أمير سورى من مركزه . أما الضريبة فكانت تجمع من الأهالى بسوريا بالنظام نفسه وفى الوقت عينه الذى تجمع فيه بمصر ، وإذا تأخرت الجزية يسيرا كان مجرد ظهور نائب الملك فى المذّن الكبيرة هناك كافيا لجعل الامارة المترددة تدفع جزيتها فوراً . يتضح لنا من ذلك أن أمنتحتب الثالث لم يجد له مسوغا لشن الحرب على آسيا . أما الرواية الواردة على الآثار من أن جلالة ذهب مرة الى صيدون (صيدا Sidon) وخاطبه هناك أحد موظفيه عن عدد الأسرى الذين استولى عليهم جلالة^(١) فالغالب أن ذلك يرجع الى الحملة النوبية السابق الكلام عليها . والمعروف أنه عند حصول أى قلق أو اضطراب بآسيا كان أمنتحتب الثالث يرسل قوة حربية الى الجهات العاصية بقيادة ضابط ماهر يمدد الاضطراب كلهج البصر . وقد دامت هذه الحال عشرين سنة تقريبا بعد جلوس أمنتحتب الثالث على عرش مصر ، وبما يعزز استنتاجنا هذا ما جاء بخطاب أمير أسوى الى ابن أمنتحتب الثالث هذا ترجمته : "حقيقة أن والدك لم يأت إلينا ولم يتعهد أراضى ولاته الأمراء"^(٢) .

أمام هذه الظروف لم يجد أمنتحتب الثالث بدا من صرف همته فى ترقية شؤون مملكته الداخلية وهو أمر متبع فى مثل هذه الأحوال بسائر الامبراطوريات ، لذلك بلغت التجارة فى عهد هذا الملك درجة رفيعة لم تصل إليها من قبل ، وصار نهر النيل من الدلتا الى الشلالات مملوءا بخيرات العالم الواردة بأسطول البحر الأحمر وقوافل برزخ السويس ، فكنت ترى البضائع السورية الثمينة والبخور والأخشاب العطرية الواردة من البلاد الشرقية والأسلحة والأوانى الفينيقية المزخرفة وعشرات الآلاف من الخيرات الكثيرة الاستعمال بين سكان وادى النيل حتى أدخلت أسمائها السامية فى اللغة الهيروغليفية . أما تجارة البحر الأبيض المتوسط فبلغت درجة عالية فى الرقى والتقدم كالتجارة البرية ولذا كانت مئات السفن الفينيقية الواردة الى مصر تأتى من الجهات كلها مشحونة بكل الخيرات كالأوانى المزخرفة والمصنوعات البرنزىة المنقوشة الآتية من البلاد اليونانية القديمة . وانتشرت المصنوعات المصرية وعم استعمالها فى قصور ملوك جزر كنوسوس (Knossos) ورودس وقبرص حيث وجدت منها بقايا استمرت الى الآن . وعثر فى بلاد اليونان نفسها على جعل وقطع أوان خزفية مطلية بالزجاج ومنقوش عليها اسم أمنتحتب الثالث أو الملكة تى (Tiy) . فى ذلك الوقت أيضا شعر سكان البحر الأبيض المتوسط بنفوذ مصر وحضارتها أكثر من أى عهد سابق . فظهرت فى كريت الشعائر الدينية المصرية حتى ورد أنها أقيمت مرة تحت اشراف كاهن مصرى (شكل ١٢٧) . ثم صبغت الصناعة اليونانية بالصبغة المصرية بدرجة كبيرة فظهر على مصنوعات اليونان المعدنية ذوق مصرى خطته أفلام صناع طيبة . فكثيرا ما كانت ترى على المصنوعات اليونانية رسوم الحيوانات المصرية المختلفة ممثلة فى حركاتها وسكناتها الطبيعية . ثم ظهرت فى بلاد اليونان وفى أوركنوس (Orchomenos) تلك السقف المزخرفة الجميلة التى أبدعتها أيدي أهالى طيبة . واتضح لنا أن الخط الذى استعمل فى كريت قبل

(١) ٩١٨ و ٩١٦ : ٢ (٢) خطابات تل العمارنة ٨٧ و ٦٢ و ٦٤

الخط اليوناني يحوى آثارا من الخط الهيروغليفي المصرى، فثبت بذلك انتشار الخط المصرى الى تلك الجهات . والفضل فى نشر المدنية المصرية فى تلك الجهات يرجع الى أهالى الجزر اليونانية المعروفين عند المصريين باسم خفتيو (Keftiuew) وقد أحضر هؤلاء القوم معهم مصنوعات يونانية كثيرة كان لها بعض التأثير فى المصنوعات المصرية . وقد كثروا هؤلاء القوم الى طيبة وقتئذ حتى صارت رؤيتهم فى الشوارع شيئا اعتياديا . ولما أخذت الفضة ترد بكثرة الى مصر مع الأجانب الشماليين رخصت قيمتها عن قيمة الذهب بعد ما كانت أثنى منه بمقدار الضعف أيام الهيكسوس . بعد ذلك أخذت نسبة قيمة الذهب الى الفضة تزداد تدريجيا من $\frac{2}{3}$: ١ حتى بلغت ١٢ : ١ فى عهد البطالسة (أى القرن الثالث قبل المسيح) .

وبديهي أن مثل هذه الأعمال التجارية احتاجت الى حماية ونظام خصوصا وأن القرصنة وقتئذ كانت منتشرة وخطيرة . فالقرصان الليسيون Lycian عبثوا كثيرا بمراقى شرق البحر الأبيض المتوسط ونهبوا بجزيرة موانى قبرص ، ثم غلوا فى اجرامهم فأنزلو بعضا منهم على شاطئ الدلتا للنهب والسرقة (١) . لذلك عين أمنتجب الثالث خفرا حربيا للسواحل يطوف على شواطئ الدلتا لمنع القرصان من الدنو من مصر ولا يسمح بالدخول فى مصبات النيل إلا للسفن التجارية القانونية . وقد أشرف رجال الشرط على جمع الضرائب المفروضة على البضائع الخارجة فى مواضع مخصوصة ما عدا الخاص منها بالملك فقد أعفى (٢) . والظاهر أن إيراد هذه الضرائب كان كبيرا جدا ولم نهند الآن الى معرفة قيمته بالضبط . أما الطرق البرية فقد حرس بالنظام نفسه وكل أجنى يرى داخل المملكة بسبب غير مصرح به كان جزاؤه الطرد الى حيث أتى . أما التجارة القانونية فكانت مصونة نافقة ليست مثقلة بالضرائب .

واستمرت تجارة الرقيق الأبيض — وعلى الأخص السورى — منذ أيام تحوتمس الثالث . وكتب الملك هو الشخص الذى كان يوزع الرقيق على أنحاء القطر ويثبتهم فى سجل العبيد الذين يدفعون الضرائب للخرانة الملكية (٣) . وبديهي أنه كلما كثرت الأجانب بمصر امتزج دمهم بالدم المصرى وقد ثبت هذا من رسوم آثار تلك العصور . ومما ساعد أيضا على تغيير أحوال البلاد وقتئذ زيادة ثروة خزانة فرعون لمدة قرن تقريبا ، تلك الزيادة التى كان لها تأثير سيئ فى التاريخ التالى ، فأصبح الفراعنة يغدقون فى أعيادهم (كعيد رأس السنة مثلا) الهدايا الثمينة التى كانت تبهر ملوك الأهرام اذا هم شاهدوها . فقد ورد مثلا على الآثار أن وزير المالية أحضر مرة أمام جلالة الملك "عجلات مموهة بالفضة والذهب وتماثيل من العاج والابنوس وقلائد من الأحجار الكريمة المختلفة وأسلحة حربية وأشغالا يدوية متباينة الأنواع" . وقد شملت هذه الأشغال اليدوية ثلاثة عشر تمثالا للملك وسبعة تماثيل لأبى الهول بوجه الملك وثمانى قلائد بديعة وستائة وثمانين درعا ثمينًا ومائتين وثلاثين

(٢) ٩١٦: ٢ و ٣٢: ٢ — ٤ خطابات تل الهاربة ٢٩ و ٣٢ و ٣٣

(١) خطابات تل الهاربة ٢٨

(٣) ٩١٦: ٢ و ٣١: ٢ — ٢٦

كثافة من الصنع نفسه وثلاثمائة وستين سيفا من البرنز ومائة وأربعين خنجرا من البرنز المنقوش بالمعادن الثمينة وثلاثين عصا من الآبنوس مكسوّة أطرافها بالفضة والذهب ومائتين وعشرين سوطا من العاج والآبنوس وسبعة صناديق دقيقة الصنع ومظلات كثيرة ومقاعد وأواني عديدة وما الى ذلك من الأشياء الصغيرة^(١) . قارن هذا بما كان متبعا قديما لما كان الملك يهب أمراءه المخلصين قطع الأراضي ليزرعوها ويحسنوا ادارتها رغبة في ترقية الزراعة وزيادة خيرات القطر، أما الآن فقد تغيرت الحال اذ أصبح الملك ينعم على رعيته بالثروة التي لا تحتاج الى عناء أو تعب لتشجيرها . من ذلك ظهر الترف والنعيم في طيبة بعد ما كانت مثال البساطة والحدّ والمعيشة الطبيعية ، وليلاحظ أن هذا التغير شمل أفراد المملكة كافة من الملك الى الفقير وأعظم دليل على ذلك ما يشاهد من التغير في الملبس . فبعد ما كانت طبقات الأمة (حتى الملك) تكفى برداء قصير يستمر ما بين السرة والركبتين أصبح القوم الآن يرتدون الملابس الطويلة الجيدة النسيج والتمينة والواسعة الأكم . ثم استبدل لباس الرأس البسيط القديم شعر صناعي يوضع على الرأس ويسدل على الكتفين . أما الأقدام فبعد ما كانت دائما عارية



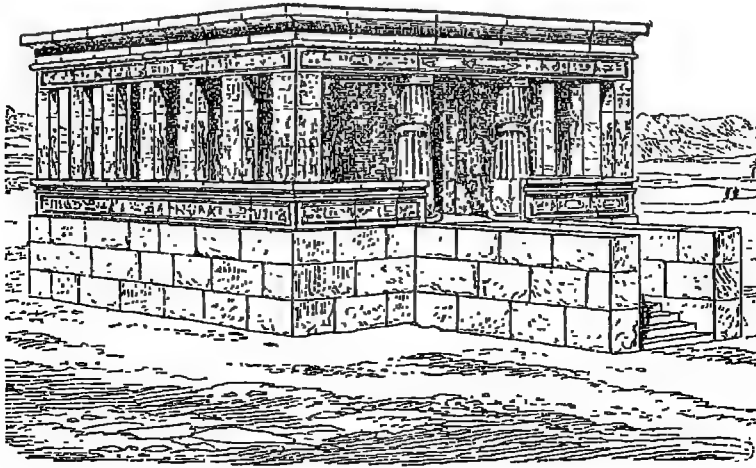
شكل ١٢٤ - شكل يمثل ملابس عهد الامبراطورية

أصبحت الآن تلبس الخلف البديع ذا الطرف المدبب أحيانا . ولو فرض أن شخصا من عهد أمنمحت أو سيزوستريس مشى في شوارع طيبة لا بد أنه يدهش وتعتره حيرة ويتساءل عن البلد الذي هو فيه فان لبسه كان غريبا جدا وتغير استعماله تماما في عهد الامبراطورية الا فيما بين أفراد طائفة الكهنة . واذا أراد القارئ أن يتصوّر مبلغ هذه الدهشة فليتصوّر ظهور رجل من عهد الملكة إليزابيث في شوارع لندره الحالية . والجق

يقال ان طيبة في عهد أمنحتب الثالث امتازت بأبنيتها الشاحخة وبيوتها الفاخرة ذات الحدائق الياينة والمصايف النظرة حول المعابد الواسعة ، مما لم تشهد عین مصرى في أى زمن سابق (شكل ١٢٤) .

والمعروف أن استغلال ثروة بلاد النوبة وآسيا واستخدام أسراهما رقا كثيرا من البناء المصرى بطيبة من حيث الانتقان والجودة . وقد شجع أمنحتب الثالث هذا الفن كثيرا فأعطى مهندسيه كل ما طلبوه ليرفعوا هذا الفن الى الدرجة القصوى ، ولذلك ظهر بين هذه الطائفة أفراد نوابغ نخص بالذكر منهم المهندس أمنحتب الذى ذاعت شهرته في العالم حتى صار مضربا للأمثال بعد وفاته بألف ومائتى سنة لما أدمجت حكمه ضمن " أمثال السبعة الرجال العظام " في العهد اليونانى . وفي عهد البطالسة اعتبر هذا المهندس إلهًا وعرف وقتئذ باسم " أمنحتب بن حابو " (٢) .

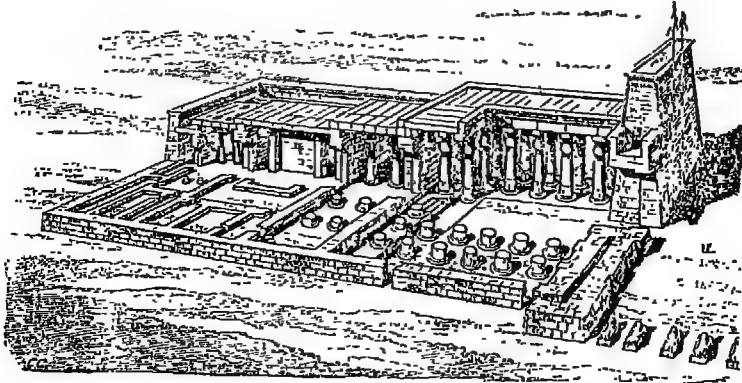
والمعروف أن المهندسين المصريين في عهد أمنحتب الثالث ابتكروا ذوقا جديدا في البناء وتفاصيل في العمارة تأخذ بالألباب ، ولا غرابة في ذلك فمهندس العمارة وقتئذ كان لديه كل ما يحتاج اليه من مواد البناء والمسال والرجال ، وهكذا تمكن من إقامة العمارات الضخمة التي بهرت العقول بحجمها وبنائها . وتنقسم معابد ذلك الوقت من حيث عمارتها الى قسمين الكبير والصغير ، وليس يعنى من هذا التقسيم أن المعابد الصغيرة أقل قيمة وجمالا لأن النوعين كانا غاية في الظرف والاتقان . أما المعابد الصغيرة فعبارة عن قاعة مستطيلة تشبه قدس الأقداس يتراوح طولها بين ثلاثين وأربعين قدما ويقرب ارتفاعها من أربع عشرة قدما وتنتهى في طرفها بباب يحيط به رواق . وأرض هذا المعبد مرتفعة عن سطح الأرض بما يقرب من نصف ارتفاع المعبد (شكل ١٢٥) . ويشاهد على جانبي الباب



شكل ١٢٥ - معبد صغير محاط بمعبد شيدته أمنحتب الثالث على جزيرة الفنتين بأسوان
رجمه سنة ١٨٢٢ ميلادية مدير أسوان التركي وقتئذ ليستعمل أبحاره للبناء .
(مأخوذ عن وصف بعثة نابليون العلوية)

عمودان رشيقتان خلفهما القاعة المستطيلة تحيط بها من الخارج عمد بدبعة مفصولة عنها بممر فسيح ، ولذلك كان لمنظر هذا البناء تأثير عظيم في نفوس ناظره . وهذا النوع في اعتبار رجال الفن برهان ساطع على تقدم فن البناء وقتئذ حتى أن بعثة نابليون الأثرية دهشت جدا لما وقع بصورها على هذا النوع من المعابد وأيقنت من فورها أنها أصل لعمارة المعابد اليونانية الذي تحيط به العمد من الخارج (Peripteral) ، ولا غرابة في ذلك فكثير من البناء اليوناني يرجع في الأصل الى البناء المصري . أما نوع المعبد الآخر وهو المعروف بالكبير (شكل ١٢٦) فقد بلغ أعظم درجاته وقتئذ وهو يختلف كثيرا عن النوع الصغير ، فعمده مقامة في الداخل لا من الخارج وقدس الأقداس محاط بعدة حجرات كسابق العهد إلا أنها أكبر حجما لتناسب ثروة البلاد وكثرة إيراد المعابد وقتئذ . وتوجد أمام قدس الأقداس قاعة كبيرة سقفها قائم على عمد شاذخة أمامها حوش كبير يحيط به رواق ذو عمد أيضا . وفي مقدمة هذا الحوش صرح كبير مزدوج جدره مائلة الى الداخل يدلوه أفرز مجوف وبين جزأى الصرح باب المعبد الكبير . ولا يشيد هذا المعبد عادة من الأحجار الضخمة التي يتراوح

طولها بين ثلاثين وأربعين قدما وزتها بين مائة ومائتي طن ، بل تستعمل لذلك أحجار متوسطة الحجم من النوع الرملى أو الجيرى . وجرت العادة أن تحلى جدر المعابد — عدا الأعمدة — بالرسوم البارزة فتشاهد على خارج المعبد مناظر تمثل الملك يحارب أعداءه وعلى داخله يشاهد الملك عابدا المعبودات ، ومعظم هذه الرسوم ملونة بالألوان الزاهية . ويتكون باب المعبد من مصراعين مصنوعين من خشب الأرز اللبناى ومطعمين بالبرز ، وعلى جانبي الباب مستنان كبيرتان تعلوان الصرح وهناك أيضا تماثلان كبيران للسك على جانبي الباب مصنوعان من حجر واحد ظهرهما ملاصق لجدار الصرح ووجههما مقابل لزانبي المعبد . والمعروف أن هذا الترتيب والنظام كان متبعاً قديما في المعابد فلما حكم أمنتخب الثالث أقتن مهندسوه وأبدعوا حتى كانوا منها أنموذجا جديدا من أبدع ما عرف في فن العارة لا يزال مستعملا بكثرة الى عهدنا هذا .



شكل ١٢٦ - رسم هندسى يمثل تفاصيل المعابد ذات الصروح في عهد الامبراطورية . وقد روى رسم نصف المعبد ونصف الصرح المقابل للقارئ لانه يظهر محتويات المعبد (ماخوذ عن پرو وشيبد)

وكانت الأقصر وقتئذ معتبرة احدى ضواحي طيبة وفيها معبد صغير لآمون شيدته ملوك الأسرة الثانية عشرة . فلما أتى أمنتخب الثالث هدمه وأقام محله معبدا جديدا تحيط به عدة حجرات أمامها قاعة كبيرة كالتي شيدها تحوتمس الأول في الكرنك . بعد ذلك شيد مهندسو أمنتخب الثالث أمام هذا البناء إيوانا بديعا يحوى أروقة ذات عمد يعتبر الآن أجمل ما خلفه لنا تاريخ مصر القديم من العائر (شكل ١٢٨) . ثم ازداد هؤلاء المهندسون ثقة بأنفسهم فشيّدوا إيوانا آخر أمام الإيوان السابق وأكبر منه ويظن أيضا أنهم صمموا وقتئذ على إقامة إيوان ثالث أمام هذا الأخير . وبدأ المهندسون بتشييد الإيوان الثانى بأن نصبوا أولا صفّا من العمد الشاخطة على جانبي محور الإيوان فكانت أعلى من أى بناء شيدته المصريون سابقا (شكل ١٣٠) . وليلاحظ أن كبر حجم هذه العمد كان متمشيا مع حسن منظرها فروعها البديعة صنعت على مثال زهر البردى اللينع الجميل (شكل ١٣٠) . بعد ذلك شيد المهندسون عمدا آخر أقصر طولاً على جانبي عمد الخور فنجم عن ذلك ارتفاع سقف محور الإيوان (وهو الصحن) على سقف جانبيه . ثم فتحت منافذ في الجدار القائم بين سقف الصحن العالى وسقف

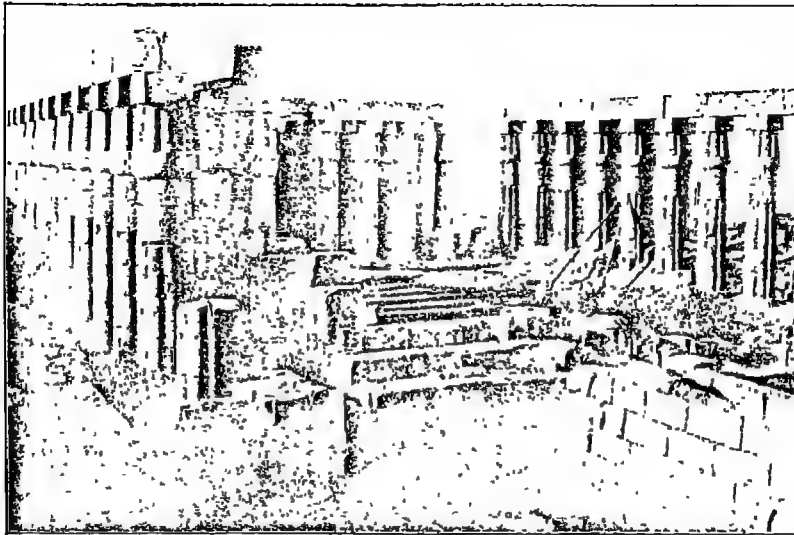
الجلانين المنخفض فنشأ عن ذلك أساس عمارة المحاكم الرومانية (Basilica) والكائس الكبيرة في عهدنا هذا . ومن دواعي الأسف أن أمنتحتب الثالث توفي قبل أن يتم بناء هذا الايوان الكبير ، فلم تولى ابنه لإخناطون الملك بعده لم يهتم بها لشدة بغضه لآمون . بعد ذلك أتى فراعنة آخرون شيّدوا جدارا حول عمد الصحن من أحجار عمد الجلانين التي لم تكن نصبت وقتئذ ، ولا يزال هذا البناء باقيا الى عهدنا هذا ويعتبر أقدم بناء من هذا النوع العالم كله مدين له .

وأخذ أمنتحتب الثالث يقيم بطيبة العمارات الضخمة العديمة المثال فشيّد صرحا شامخا أمام معبد الكرنك حاويا أنواع التحف ونصب على جانبيه شواهد حجرية مطعمة باللازورد وبكيات كبيرة من الذهب والفضة وما يقرب من ألف ومائتي رطل من الحجر الملكي (Malachiste) ^(١) . وأنشأ شارعا فسيحا يصل الى هذا البناء مبتدئا من النهر وعلى جانبيه مستلطان عظيمتان ^(٢) . وأقام المهندس أمنتحتب أمام ذلك تمثالا للملك مصنوعا من صخرة واحدة من الحجر الرملى ارتفاعه سبع وستون قدما مقطوع من محاجر قرب القاهرة ، وقد أحصر هذا التمثال الى طيبة جيش من الأهالى بطريق النيل ويعتبر هذا أكبر تمثال عمل حتى ذلك العهد ^(٣) . وشيّد أيضا معبدا لموت (Mut) معبودة طيبة في مكان المعبد الذى أسسه أسلافه من قبل وذلك جنوبى الكرنك ، وحفر بجواره بحيرة مقدسة وزرع حديقة غناء فيما بين الكرنك ومعبد الأقصر فكان طولها حوالى ميل ونصف ، وأنشأ بين هذين المعبدتين طريقا فسيحا أقام على جانبيه تماثيل حجرية لكباش (شكل ٤ وشكل ١٣٩) يحمل كل منها بين رجليه الأماميتين تمثال جلالته ، ولا بد أن يكون منظر هذا الترتيب الهندسى بديعا ومؤثرا للغاية لأن هذه العمارات كانت وقتئذ زاهية الألوان كثيرة العمد والأبواب الملبسة بالذهب ، أما أراضيها فكانت مكسوة بالفضة ، وتشرف على الجميع مسلات شامخة مكسوة بالمعادن اللامعة بين أغصان الأشجار والتخيل الكثيف ولذلك كان المنظر غاية في الأبهة والجمال يعجز القلم عن وصفه . ولا تزال آثار هذه العمارات باقية تشهد بعزها السابق ومجدها القديم ومنها يتضح أن مقام طيبة عظم وقتئذ فصارت جدية بأن تكون عاصمة امبراطورية كبيرة وأول مدينة أثرية في العهد القديم . أما شاطئها الغربى الذى يحوى مقابر الفراعنة السالفين فلم تعثره تغيرات كالتى حصلت للكرنك ولمعبد الأقصر . وفى ذلك الاقليم كانت تشاهد أيضا معابد الملوك السابقين منتشرة على خط متعرج يبدأ بمعبد أمنتحتب الأول الوضع شمالا ويمتد الى مسافة طويلة جنوبا حيث ينتهى الى معبد أمنتحتب الثالث الذى فاق المعابد كلها هناك . وشيّد له الملك صرحا عظيما نصب أمامه تماثيلين حجرين ضخمين مصنوعين من صخرة واحدة ارتفاع كل منهما سبعون قدما تقريبا . ونصب أيضا مستلطين أمام الصرح ثم أوصل هذه العمارة بالنيل بطريق متسع نصب على جانبيه عدة تماثيل لابن آوى . وقد أكثر جلالته من تماثيله المقامة بين عمد الحوش ونصب أيضا لوحا حجريا عظيما ^(٤) من الحجر الرملى يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدما مطعما بالذهب والأحجار الكريمة يشير الى "المكان الملكى" الذى كان جلالته يقف فيه محفوقا بالاحترام وقت الاحتفالات الدينية . وأقام جلالته أيضا حجرا أثريا آخر ^(٥) يبلغ ارتفاعه عشر أقدام أثبت عليه كل ما عمله المعبود

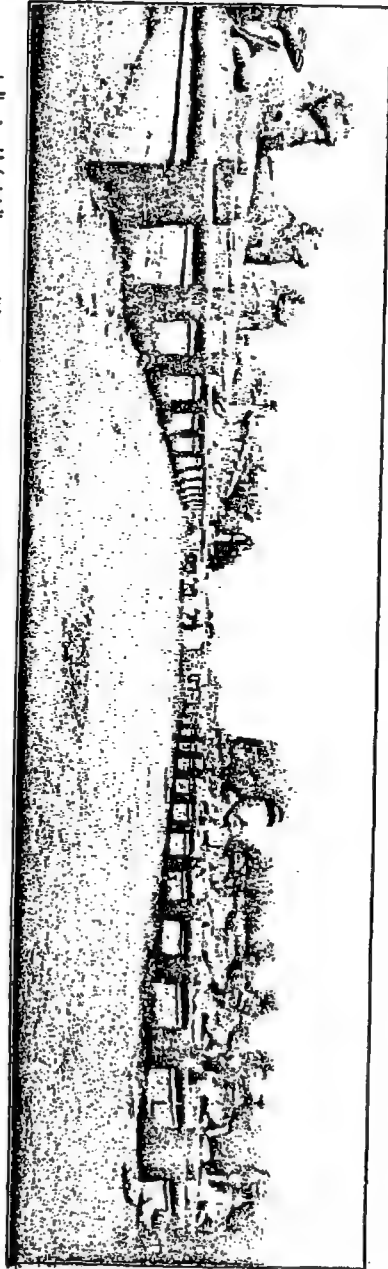
(١) ٩٠٣: ٢ (٢) ٥٧: ١٠٣: ٢ (٣) ٩١٧: ٢ (٤) ٩٠٤: ٢ ملاحظة (٥) ٨٧٨: ٢ ملاحظة



شكل ١٢٧ - جزء من إناث وجد بجزيرة كريت عليه نقوش محمورة .
يشاهد عليه رسم لاحتفال وفي وسط الاحتفال كاهن مصري
يعزف بآلة موسيقية في مقدمة فتان كريت . ويرجع
تاريخ هذا الإناث إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد



شكل ١٢٨ - ساحة أمتحطب الثالث ذات العمدة التي على شكل باقات براعم البردي (معبد الأقصر)



شكل ١٢٩ - مرفئ أمام مسجد الكرك العظم مقام على جانبه عاتيل كاش عديدة . ويعد هذا المرفئ مدخل المعب (القريب من الناطل) إلى نهر النيل
(البعد من القارة) . (مأخوذ عن المشرجون دود)

آمون . ثم زخرف بسطاء جدر وأرض معبده بالذهب والفضة فزاد كثيرا من هيئته . يتضح من ذلك أن حسن الذوق ومهارة الأشغال اليدوية بلغت وقتئذ درجة لم يقفها المصريون بعد ذلك . و ضخامة تلك الأعمال والمصنوعات تدهش كل من يراها ، خذ مثلا أبواب الصروح المصنوعة من خشب الأرز فقد كانت أعقابها وزخرفها المصنوعة من البرنز تزن بضعة أطنان ، زد على ذلك أنها كانت تتطلب لصنعها قوالب تفوق الوصف من حيث الضخامة . وللاحظ أن الحياة البرنزية لتلك الأبواب المزخرفة برسم المعبود الجميل والمطعمة بالمعادن الكريمة بمهارة كانت تتطلب وحدها كفاية عظيمة في الفنون الجميلة والأشغال الآلية مما ينذر استعماله في عهدنا هذا .

وبلغ فن الحفر وقتئذ درجة عظيمة لم يبلغها سابقا ، فقد بذل عمال هذا الفن الجميل كل ما في وسعهم من الجهد والالتقان مهتمين بصغريات الأمور . ومع ما تتطلبه هذا العمل من المجهود العظيم فإن مثالي الأسرة الثامنة عشرة لم يألوا جهدا في مراعاة عادة أجدادهم القديمة في تلخيص معالم الشخص على مثاله بقدر الامكان . ويمتاز فن الحفر في هذا العصر (شكل ١٣٦ و ١٣٧ و ١٥١) ببراعته ورقته وحسن تصرفه ، الشيء الذي كان ينقص أحسن تماثيل العصور السالفة ، ومع ذلك كانت تماثيل الأسرة الثامنة عشرة أبعد عن الحقيقة من تماثيل المملكة الوسطى مثلا ، ولم يكن الالتقان والابداع في هذا الفن الجميل مقصورا على التماثيل الصغيرة بل شمل أيضا التماثيل الضخمة ، وقد لاحظنا أن هناك تماثيل ضخمة قليلة الالتقان بالنسبة لغيرها . وقد أظهر الحفاريون مهارة في عمل النقوش والرسوم البارزة فالناظر مثلا الى الصورة الفوتوغرافية للحجر الأثري الموجود بدار التحف ببرلين (شكل ١٣٣) يتبين له فيه رسم بارز للجنازة كاهن من منف ممثل فيه نجلا المتوفى سائرين وراء الجثة تبدو على محياهما علامات الحزن والأسى الشديدين ، ويلاحظ في الجنازة أيضا رسم كبار كهنة الحكومة يبدو عليهم عظم التأثير مراعاة للظروف ثم منظر مخالف لذلك يمثل أحد الكبار المتأنق الملبس ينظم شعره المعطر المستعار . وبديهي أن الحفار الذي لم يبق لنا من أعماله إلا جزء من هذا اللوح كان ماهرا غزير الماداة حاد الذهن والنظر الى معالم الحياة على اختلافها ، فقد تمكن من ايضاح وجدان الأسى والحزن لأقارب المتوفى وأداء الموظفين للواجب مراعى في الوقت نفسه اهتمام القوم وقتئذ بالتأنق في الملبس وجمال الهندام . لذلك لا غرابة اذا لاحظنا أن هذه الوثيقة التي يرجع تاريخها الى ما قبل عهدنا بنحو خمسة وثلاثين قرنا أصبحت الآن تأخذ بالباب ناظرها من حيث تخيلات صانعها وما أثبتت من أحوال المعيشة فيها . ولا تنحصر قيمة هذا اللوح الحجري في أنه يحوى مجموعة من الرسوم من أجل ما عرف في البلاد الشرقية القديمة بل لأنه يمثل فنا جميلا كان معدوما تماما في بلاد العالم القديمة إلا القطر المصري ، ولذلك يعتبر هذا اللوح من أقدم أنموذجات الحفر الحجري التي تتمثل فيها مظاهر الحياة المتباينة وملاحح الوجود المتنوعة بأجلى بيان وأرق درجة ، وقد نسب البعض هذا الرق في الحفر الى اليونانيين لكننا بعد ما شاهدنا هذا اللوح لا يسعنا الا أن نجزم بعدم صحة هذا الرأي وأن نشهد للصيريين بأنهم أول من مارسوا هذا النوع من الفنون الجميلة .

ومن أعظم الوسائل لتشجيع أرباب الفنون الجميلة وقتئذ على ابتكار المجموعات البديعة التي غابت عن سلفهم في العصور السابقة ما شاهدوا على فراعتهم من الشجاعة والاقدام ، خذ مثلا المناظر الحربية المحلى بها مقدم عجلة تحوتمس الرابع الملكية (شكل ١٣٥) فانه يحوى مجموعة رسوم شتى ليس لها نظير فيما سبق ، والمعروف أن هذا النوع من الفن استمر استعماله أيام الأسرة التاسعة عشرة أيضا . وبالرغم من صعوبة تمثيل الحياة الوحشية في مثل هذه الظروف فان الصانع تمكن من رسم الحيوانات بمهارة لم يصل اليها المصريون قبل ذلك الوقت أو بعده . ويوجد بدار التحف بلنדרه تماثيلان لأسدين يرجع تاريخهما الى عهد الملك أمنحتب الثالث (شكل ١٣٣) وصفهما الأستاذ راسكن (Ruskin) بأنهما أبجل ما صنع أهالى الزمن القديم من حيث اتقان الجسم واطهار الشم بوضوح . ومع استيفاء ما يستحقه هذان التمثالان من المديح فان القارئ ليدعش اذا علم أنهما ما صنعا الا لحية محراب سحيق بيجهة صلب (Soleb) (١) شمالى النوبة . وطبعا اذا كانت هذه درجة اتقان التماثيل التي وضعت في معبد نوبى سحيق فماذا عسى أن يكون اتقان التماثيل التي كان يحلى بها معبد فرعون بطيبه ! وللأسف أن هذه الآثار العظيمة التي دلت على أقصى ما بلغته الصناعة المصرية من الجودة والاتقان انعدمت وأضحت في خبر كان ، ولم يبق من هذه الآثار الضخمة الا تماثلان عظيمان ألتفهما الطقس بمرور الزمن كانا منصوبين سابقا على جانبي مدخل معبد أمنحتب الثالث ، ولا يزال هذان التماثلان يلقيان نظرها على سهل طيبه الغربى كما فعلا من قديم الزمان (شكل ١٣١) وتشاهد على أحدهما نقوش يونانية خطها الزوار اليونانيون الذين أتوا في عهد الرومان لسماع صوت ذلك التمثال الذى ينبعث منه كل صباح . وعلى بعد مائة خطوة خلف هذين التماثيل يوجد شاهد حجرى عظيم محطم نصفين كان مغطى بالذهب والأحجار الكريمة وموضوعا في "محل الملك الخاص" ولا تزال عليه نقوش هيروغليفية باقية للآن هذه ترجمتها : "لقد عمل جلالتي كل هذه الأعمال لتعيش الملايين من الستين ، وأنا متأكد أنها ستمتكت كذلك على وجه الأرض" (٢) . وسأبقى الكلام فيما بعد على ما أصاب هذا المعبد الملكى العظيم من أعمال التدمير التي ارتكبها خلفاء أمنحتب الثالث العديدين الذمة الذين حكوا القطر بعده نحو مائتى سنة . وأجود رسوم تلك العصور كانت داخل القصور ولذلك تلفت كلها لأن معظمها كان مصنوعا على الخشب أو اللبن وانما يستدل من البقايا الموجودة من رسم الحيوانات والطيور بمناظرها الطبيعية على توقد ذهن الصانع ومهارته القصوى أيام إختناطون الذى جلس على العرش الفرعونى بعد أمنحتب الثالث . ورغبات ملوك عهد الامبراطورية لإجادة رسم الخطط الحربية أثرت في نفوس الفنانين كثيرا فأجهدوا أنفسهم وقدحوا زناد قرائحهم حتى أظهروا الاشياء جلية ، ومع أنه قد فقدت تلك المناظر الحربية التي نقشت على جدر المعابد فمن الممكن أن نتصور غاسنها وتأثيرها في النفوس بالإمعان في الرسوم الحربية التي على مقدمة عجلة تحوتمس الرابع الحربية .

من ذلك يتضح أن شاطئ طيبه الغربى كان مزدانا بالآثار والأبنية البديعة وبالأخص الشارع المتسع الذى أنشأه أمنحتب الثالث مبتدئا من النيل وفيه تماثيل ابن آوى العديدة . وعلى الجهة

الشمالية خلف معبد هذا الملك وبالقرب من الصخور الجبلية بنى قصر الملك الذى ضم كثيرا من الأخشاب ذات الرسوم والألوان الزاهية ، وكان طلق الهواء مزدان الوجهة بسوار عالية تنتهى بأعلام طويلة ملونة بعض اللون ، وفوق مدخل القصر شرفة عظيمة ذات مضاجع مزركشة مجلّة على عمد رشيقة كان يظهر فيها الملك لمشاهدة رعيته فى ظروف مخصوصة (شكل ١٣٩) . وتمتاز المصنوعات الجميلة التى حليت بها أمثال هذه القصور بكونها منتهى ما وصلت اليه المهارة فى حسن الذوق لعالم تلك العصور، وهذه الحقيقة مشاهدة على الآثار العديدة الموجودة بدور التحف بأوربا ، تلك الآثار التى تثبت لنا عظم شأن محتويات القصور الفرعونية وقتئذ ونفائس رسومها وبديع أنماطها . فالأواني الذهبية والفضية البديعة المزخرفة بالرسوم الآدمية والحيوانية والنباتية والمخلّاة الحفّات بالأزهار الساطعة الزاهية التى كانت تستعمل على مائدة الملك بين الأكواب البلورية والأوعية الزجاجية والخزفية السمراء اللون البديعة المطلية بالرسوم الزرقاء الجميلة ، كل هذه تشهد لمحتويات قصور الفراغة بعظم القيمة ونفائس الأثاث . و جرت العادة وقتئذ أن تكتسى جدر القصور بالبسط البديعة ذات الألوان الزاهية وقد وصفها بعض الأخصائيين بأنها تضارع أجود المنسوجات الحالية امتقانا . أما الأرض فكانت تحلى برسوم كثيرة تمثل حياة الحيوان المختلفة (شكل ١٣٨) . وقد حليت الجدر أحيانا ببلاط أزرق جميل لامع ذى رسوم ذهبية بديعة . أما كسوة الأمكنة الفسيحة فلم يستعمل لها إلا البلاط اللامع الملون الموافق للذوق . ولهذا الأسباب قارن الأثريون عصر هذه الفنون الجميلة بعصر لويس الخامس عشر لما كان فيه القصر الملكى مثال الرقى والتقدم فى الفنون الجميلة .

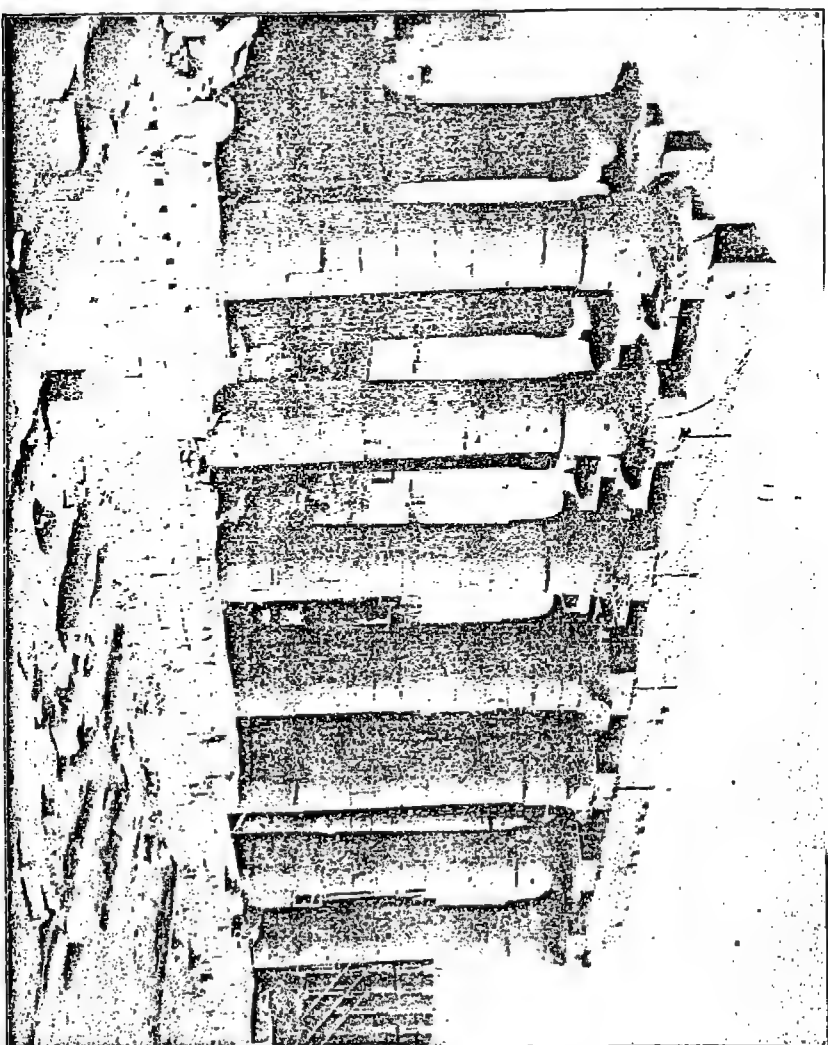
وخصص أمنتحتب الثالث جزءا كبيرا من قصره لزوجه تى (Tiy) حفر بيجواره بحيرة كبيرة يقرب طولها من ميل وعرضها من ألف قدم . وقد احتفل الملك فى عيد ميلاده السنوى الثانى عشر بفتح السدود لإرسال المياه الى تلك البحيرة ثم طاف عليها بمركبه الملكى مصحوبا بملكته تى فى احتفال مهيب يشهد بديقه كثيرا ما ورد فى حكايات ألف ليلة وليلة الخاصة بهارون الرشيد . والمعروف أن الموسيقى ارتقت كثيرا وقتئذ عما كانت عليه فى الأزمنة السالفة فكبر حجم الناي حتى قارب طول الانسان واحتوى على عشرين وترا ، ثم أدخل استعمال القيثارة من آسيا فأصبح جوق الموسيقى التام مكونا من ناي وقيثارة وعود ومزمارين . وأراد الملك أن يقيم تذكارا لفتح بحيرة قصره المذكورة فأمر بصنع عدّة أحمجة بشكل جعل نقش عليها باختصار أخبار هذا الاحتفال^(١) . وقد كثرت الاحتفالات والأفراح فى طيبة وقتئذ حتى أصبحت مضرب الأمثال فى الفرح والسرور والرفاهية كما كانت روما وبابل فى عهديهما الامبراطورى . ثم ان الأعياد الدينية التى كانت تقام فى الشهر السابع كل سنة من حكم أمنتحتب الثالث عظمت من حيث الزينة والفرح ، فسمى هذا الشهر "بشهر أمنتحتب" وبقي معروفا بهذا الاسم مدة طويلة بعد وفاة هذا الملك . ولا يزال هذا الشهر معروفا بهذا الاسم المحترف بين أهالى مصر الحديثين الذين يجهلون نسبة ذلك الى هذا الامبراطور العظيم .

ولا بد أن آداب اللغة المصرية بلغت وقتئذ درجة عظيمة من الرقي ومع البحث لم نهند لنصوص كثيرة منها . وقد ألمعنا سلفا الى مدحة آمون لتحتوس الثالث وسيأتى الكلام عاجلا على مدحة إخناتون للعبود الشمسى ومنها يمكن القارئ أن يتصور شيئا من أدبيات تلك العصور . ولم نعثر الآن على قصص أو روايات أو أغان لتلك الأزمنة، وكل ما اهتدينا اليه من هذا القبيل يرجع تاريخه الى عهد الأسرة التاسعة عشرة وما بعدها .

واعتماد الملوك أن يستريحوا بالسفر فى رحلات للصيد وقد مارس هذا النوع من الرياضة وأغرم به كثيرا أمنتحتب الثالث ، فاذا أبلغه حراسه اقتراب قطيع من الغنم الوحشى من تلال غربى الدلتا فانه يترك قصره فى منف ويركب ليلا سفينته حتى يبلغ محل ذلك القطيع بغرا فيجد فى انتظاره هناك جنودا عديدين مع أهل القرى المجاورة ، فيحيط هؤلاء القوم بالقطيع ويطاردونه حتى يدخلوه محلا فسيحما محاطا بسور كما هى العادة المتبعة فى العصور السابقة . وقد أحصى عدد الغنم الذى حصر ضمن ذلك السور مرة فبلغ مائة وسبعين حيوانا وحشيا . عند ذلك هجم الملك فى عجلته على القطيع فقتل منه فى اليوم الأول ستة وخمسين وحشا . بعد ذلك بأربعة أيام هجم دفعة أخرى بفخندل ما يقرب من عشرين وحشا . وقد أهتم أمنتحتب الثالث برحلة الصيد فنقش أخبارها على عدة جعل^(١) . وبعد ما أمضى عشر سنوات فى ممارسة صيد السباع وزع الهدايا على رجال قصره المنقوش عليها ما ترجمته " عدد الأسود المفترسة التى اصطادها جلالته برماحه من السنة الأولى الى السنة العاشرة من حكمه ١٠٢ " ^(٢) وقد جاء هذا الكلام بعد ديباجة ملكية معتادة حاوية لاسمه واسم زوجته الملكيين ، وقد عثر حديثا على ثلاثين أو أربعين من هذه الهدايا على شكل جعل لا تزال موجودة الآن .

من ذلك يتضح أن فرعون مصر أخذ يظهر لرعيته على غير عادته ، فقد شغلته الملاحى الديوية حتى صار القصر الملكى ملكا للرعية وصار اسم الملكة يظهر بجانب اسم الملك على المستندات الرسمية جميعها رغما من انقطاع صلة الملكة بالبيت الفرعونى . ولما توثقت العلاقة بين مصر والبلاد الآسيوية اضطر فرعون مصر أن يعدل عن مركزه الإلهى الدينى الذى لا يتناسب إلا مع الذهن المصرى القديم ، فظهر بمظهر آدمى اعتيادى فى مزاج ملوك بابل ومثانى فاعتبره هؤلاء الملوك " أخا " لهم ولذلك أصبح مركز فرعون مخالفا تماما لمركزه القديم السالف الممتاز بالمعكوف عن الرعية . ولا غرابة فى ذلك فصيد الأسود والثيران وغيرها أبعد عنه كثيرا من الصفات الإلهية التى توهمها قومه فيه ، وقد شبه هذا الانتقال المدهش فى صفات الفراعنة بتدوين امبراطور الصين أو حاكم التبت أعمالها الشخصية على عدة " مديات " تعطى للرعية . لكنه يلاحظ أن أمنتحتب الثالث لم يتجرد تماما من العوائد القديمة المتبعة فقد شيد معبدا بمنف كان يعبد فيه^(٣) وكبر معبد صلب (Soleb)^(٤) حيث عبد فيه آمون ، وكانت زوجته تعبد فى معبد سدينجه بالنوبة . لذلك كان أمنتحتب الثالث إله النوبة

(١) ٢: ٨٦٢ - ٤ (٢) ٢: ٨٦٥ (٣) ٢: ٣٥٤ - ملاحظة (١) (٤) ٨٩٣ ملاحظة



شكل ١٢٠ - عدد حسن مبدأ منجب الآلات الذي لم يكل بناؤه . وكان يجب أن يقام على جانبي هذا الصحن حصان آكران ذرا الأعمدة
مستوية . أما المخطط الصغير المقام على جانبي هذا الصحن فقد شيده خلفاء إخصاطون الذين هجروا عن إتمام مشروعه العظيم

مع اقلاعه عن الأصول المتبعة القديمة في القصر الملكي والديانة . ولم نتأكد للآن اذا كان هذا التغير الحديث ، الذى لا بد أن يتعارض يوما ما مع حرص البلاد الشرقية على أنظمتها القديمة ، أتى قصدا أو عقوا .

والمعروف أن الأمور سارت في مجراها المريح لكن عوامل النزاع أخذت تعمل طى الخفاء ، كما أن الخطر الخارجى الذى هدد كيان المملكة المصرية أخذ يتجسم على غير علم من فرعون ، ولذلك كان مركز أمنتحتب الثالث بطيه وقتئذ أشبه شئ بمركز القياصرة . وفى السنة الثلاثين من حكمه احتفل بعيد تعيينه وليا لعهد المملكة المصرية وقد وافق هذا التاريخ معاد جلوس جلالته على العرش أيضا ، ويظن أن المستنين اللتين أقيمتا أمام معبده صنعتا خصيصا لذلك الاحتفال . وبما زاد الاحتفال عظمت وجلالا ما قدمه رئيس المالية للملك من المقادير الجسيمة لدخل المستعمرات الممتدة من النوبة الى النهرين وقد نعته الرئيس المالى بقوله " أن الدخل هذا العام أكثر من دخل كل سنة سابقة " وقد قابل الملك هذا الخبر بملء الارتياح . ثم أمر باستعراض موظفى ديوان المالية وأنعم عليهم بالهدايا الجزيلة^(١) . ومر احتفال السنة الرابعة والثلاثين بدون اضطراب . بعد ذلك احتفل بعيد السنة السادسة والثلاثين وكانت تتجلى فيه مظاهر الكمال ، ولم تمنعه شيخوخته من الاشتراك شخصيا في الاحتفال ومقابلة مهنثيه وأعيان مملكته^(٢) .

في ذلك الوقت ظهرت اضطرابات في جهات المملكة الشمالية تناخص في أن ملك خيتا (الحيثيين ؟) غزا مملكة متانى ثم ان ملك الأخيرة المدعو دشراتا أرسل قوة الى خيتا حاربهم وهزمتهم . بعد ذلك أهدى دشراتا جلالة أمنتحتب الثالث عجلة وجوادين وأسيرين من الغنيمة التى استولى عليها من جيش خيتا^(٣) . والمعروف أن الاضطرابات لم تقتصر على ذلك بل شملت أيضا بعض المستعمرات المصرية ، فقد ورد أن أكزى (Akizzi) ملك قطنا (Katna) أى حصص ؟ الوالى المصرى أخبر أمنتحتب الثالث أن جيوش خيتا توغلوا في قسمه بوادى الأوزونط واستولوا على تمثال آمون رع المنقوش عليه اسم أمنتحتب الثالث وأحرقوا المدينة عند رجوعهم^(٤) . وجاء أيضا أن ملك مقاطعة نوخاشى الشمالية (حلب ؟ Nukhashshi) المدعو حدد نيرارى (Hadaadnirari) أرسل الى أمنتحتب الثالث خطابا يستشير فيه لحماية مصر من هجمات الحيثيين الذين غزوا بلاده معلنا في الوقت نفسه ولاءه وخضوعه لفرعون مصر^(٥) . والمعروف أن هذه الاضطرابات كلها حصلت من عدم اخلاص الولاة لمصر لأنهم اتبعوا طرق الخيانة وطمعوا في أرض المقاطعات المجاورة ليضموها الى مقاطعاتهم كما يستتج ذلك من أعمال والى مصر المدعو أزيرو (Aziru) ووالده المدعو أبداشيرتا (Abdashirta) فقد كانا رئيسين لحركة ثورية كبيرة زحفت شمالا واستولت على قطنا ونوخاشى من الجنوب ودمرت البلاد التى مرت بها . وقد اشتركت معهما في هذه الاجراءات المخلة بالنظام مقاطعات أخرى هددت مقاطعة دمشق المعروفة وقتئذ

(١) ٨٧٢ - ٨٧٠ : ٢ (٢) ٨٧٣ : ٢ (٣) خطابات تل الهارنة ١٦ و ٣٠ - ٣٧ (٤) شرحه ١٣٨ على الظهر ٢ : ١٨٥ - ٣١ (٥) شرحه ٣٧

باسم أوبى (Ubi) وسرعان ما أخطر كل من أكرى (Akizzi) ملك قطنا ورب دى (Rib-Addi) ملك بيلوس (جيبيل) فرعون مصر بتلك الخيانة . بعد ذلك أرسل أكرى (Akizzi) خطابا إلى أمنحتب الثالث ملتصقا مساعدته هذه ترجمته :

”كما أن دمشق الواقعة في مقاطعة أوبى تبتهل إلى قدميك لتساعدك كذلك قطنا (حمص) تتضرع إلى قدميك لتشملها بعنايتك وحمايتك“ .

لكن الحالة كانت أخطر مما تصوورها فرعون مصر ، فهو لم يتأكد من خبر زحف الحيثيين المذكور لأنه على أثر هذا النبأ أرسل أكرى خطابا إلى أمنحتب الثالث هذه ترجمته :

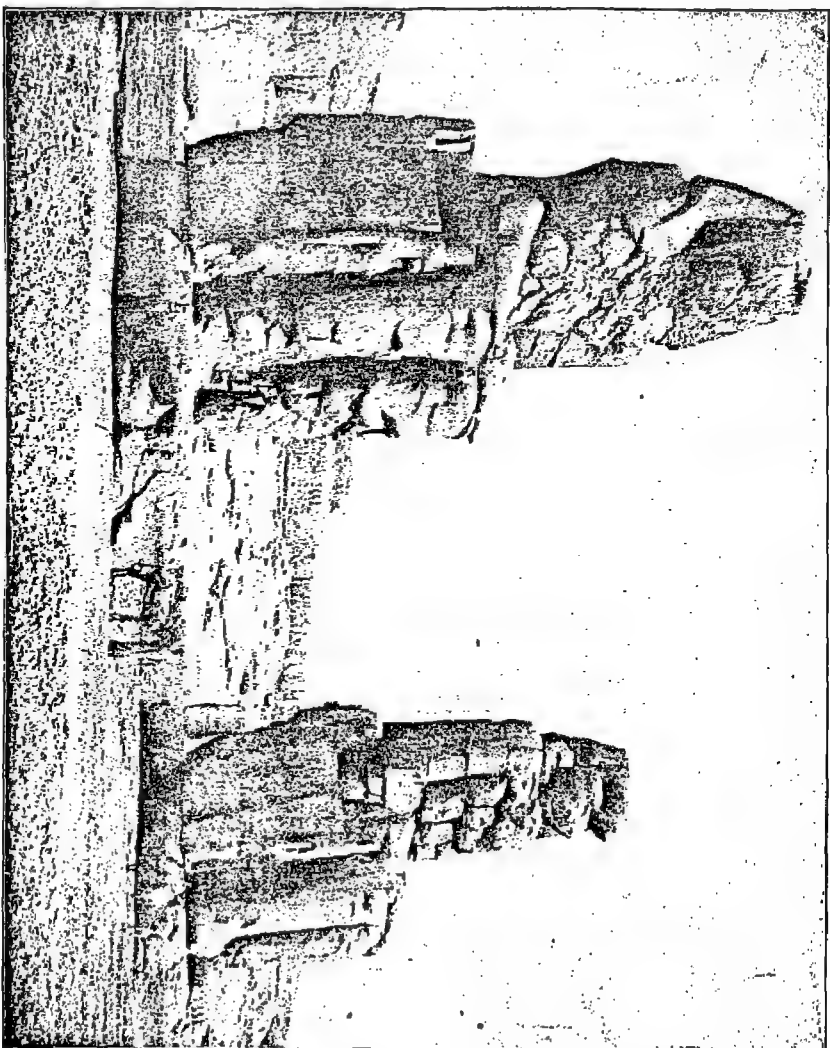
”بقدر محبتي لك أيها الملك ان ملوك نوحاشي (حلب ؟) ونى (Niy) وسنزار (Senzar) وكينانات (Kinanat) تحبك أيضا ، كيف لا وهم كلهم خدم جلالتك“ .

أمام هذه الأقوال لم يزحف أمنحتب الثالث بجنوده شخصيا إلى تلك الجهات كما فعل تحوتس الثالث بل اكتفى بإرسال جنوده : وقد تمكنت هذه القوة أولا من إخضاع الثوار بسهولة بمساعدة أهالي البلاد التي كانت تحت الخطر الحيثي^(١) . لكن هذه القوات المصرية لم تتمكن من مكافحة الحيثيين بجهة بلاد النهرين جنوبا حيث استولوا على مركز حربي غاية في الأهمية وقت هجومهم على سوريا . ولا يخفى أن طول غياب ملك مصر عن سوريا قلل كثيرا من هيئته هناك ، زد على ذلك أن الاضطرابات لم تسكن طويلا بل بدأت بالظهور فعلا جهة صيدون (صيدة) بعد ما تركها أمنحتب الثالث راجعا إلى مصر . ومما زاد الطين بلة أن بدو الصحراء الآسيوية المدعويين بالخايري (Khabiri) أغاروا على سوريا وفلسطين كعادتهم القديمة لكن غارتهم هذه المرة كانت سلبية أشبه بهجرة . من ذلك يتضح لنا أن مستعمرات مصر الآسيوية أضحت في خطر عظيم قبيل وفاة أمنحتب الثالث ، ونستدل على ذلك من خطاب رب أدى (Rib-Addi) وإلى جيبيل (بيلوس) الذي أرسله إلى ابن أمنحتب الثالث إخطاؤون هذه ترجمته :

”منذ رجوع والدك من صيدون (صيدة) — منذ ذلك الوقت — وقعت البلاد في أيدي البدو الخايري (Khabiri)“^(٢) .

في مثل هذه الظروف العصيبة توفي أمنحتب الثالث الذي يحق لنا أن نلقبه ”بالمملك المجيد“ . وقد أرسل ملك متاني إلى خليفه تمشال إشتار (Ishtar) إله نينوى لليرة الثانية يأمل طرد الأرواح الخبيثة الحالة به واسترجاع قوته وصحته السابقتين^(٣) . ومن دواعي الأسف أن هذه الطريقة لم تنفذه فنفذ القضاء إرادته في ”المملك المجيد“ حوالي عام ١٣٧٥ قبل الميلاد بعد ما حكم حوالي ست وثلاثين سنة على عرش مصر ودفن مع آبائه الفراعنة العظام بوادي مقابر الملوك بطيبة .

(١) شرحه ٨٣ و ٢٨ و ٣٣ و ٩٤ و ١٣ و ١٨ (٢) شرحه ٦٩ و ٧١ و ٧٣ (٣) شرحه ٢٠



شكل ١٢١ - تماثيل ضخمة من الحجر الرملي ببلان أصبحت الثالث وبعرفان الآن بجبال غبون . ويقع حضان التماثيل في سهل طيب البرق وكذا عاقلين قداما بجيد كير خاص للقديم القرايين رافا به الصبرات لا تسحب الثالث . لكن لما حكم مفتاح هدم المذهب . وتصادف خلف التماثيل حوض طيب الدرية حار به كثيرا من المقابر القديمة

الفصل الثامن عشر

ثورة إخناتون الدينية

قلما احتاجت أمة في محتها الى حاكم قوى احتياج مصر اليه بعد موت أمنحتب الثالث . ومن دواعى الأسف أنها رزقت في هذه الحقبة بملك خيالى فيلسوف لا يليق لمكالفة الخطر الذى يتطلب رجلا ذا شكمة قوية ومواهب حربية كبيرة مثل تحتمس الثالث . وليس يخاف أن أمنحتب الرابع ابن أمنحتب الثالث والملكة تى كان قويا شجاعا فى بعض الأمور لكنه عجز عن فهم خطورة الحال فى أمور أخرى . وقد ألمعنا سابقا الى الخطر المحدق الذى اعترض هذا الملك عند ما جلس على العرش المصرى ، ذلك الخطر المركب الذى يتطلب خبرة ومهارة بالأمور الأسبوية وأخلاق أهلها وملوكها ، لكنه لم ينظر الى ذلك الخطر الا من الوجهة الفلسفية لأنه كان محاطا وقتئذ بأمة تى وزوجته نفرتى (Nofretete) — التى يغلب أنها من أصل أسبوى — وكذا الكاهن المحبوب آى (Aye) زوج مرضعه . والمرجح أن الملكتين تى ونفرتى استعملتا من النفوذ ما جعل لهما مركزا كبيرا فى سياسة الدولة ، فكان أمنحتب الرابع كثيرا ما يظهر لرعيته مصحوبا بزوجته وأمه أكثر مما فعله والده قبله . والظاهر أن آراء هذا الملك الفلسفية وتخيالاته العالية العظيمة التى ميزته على سواء من الملوك قابلت صدرا رحبا من الملكتين تى ونفرتى ، ومن ذلك يتضح لنا أن الملكة المصرية التى كانت فى أشد الحاجة الى رجل سياسى عمنك قادر على تسهيل مصاعبها رزئت بملك شاب كثير التعلق بكاهن وبملكيتين عظيمتى المواهب الفكرية . ومن دواعى الأسف أن هؤلاء الأخلاء الثلاثة لم يفهموا ملكهم خطورة الحالة وما يقتضيها حلها من الاستعداد والامراع ، فبدلا من أن يحشد الملك الجيوش ويرسلها الى بلاد النهرين التى كانت فى أشد الحاجة اليها انغمس فى الأمور الدينية والفلسفية قلبا وقالبا ظنا منه أن ذلك أهم بكثير من المحافظة على جميع المستعمرات الأسبوية ، ومن ثم أصبح لهذا الملك مركز ظاهر وشخصية بارزة بين ملوك العالم على توالى الأجيال وصار أعظم الفراعنة فلسفة وأكبر الملوك شخصية على مدى التاريخ البشرى .

وبدبى أن علو شأن الامباطورية المصرية وارتفاع منزلتها بين العالم لم يقتصر على مظاهر الحياة الخارجية كالعادات والأخلاق والثروة وإتقان الحرف ووسائل الجمال ، بل شمل أيضا رقى الفكر وحدثة الذهن . ومعلوم أن هذا الرقى والتقدم الفكرى كان متجها غالبا منذ أقدم العصور الى الأمور الدينية لا الى الأمور الدنيوية . وقد شاهدنا أعراض هذا التقدم بين كهنة مصر قبل غزو مملكتهم للبلاد الأسبوية فقد فسروا معبوداتهم وقتئذ بأساليب نرافية وفلسفية كما فعل اليونانيون فى أواخر تاريخهم وأوجدوا المعانى والمجازات الفلسفية لتلك الخرافات مما لم يكن معروفا فى العصور الغابرة .

فأصبحنا نرى مركز المعبود وصفاته مفهومة ضمنا من قرائن أخبار الخرافة الدينية الخاصة به ، فالمعبود بتاح (Ptah) مثلا كان معتبرا سابقا لإله العمارة والصناعة الذى يرجع اليه فى كل التصميمات البنائية والصناعية تصوره كهنته بعد ذلك رئيس مصنع معبده بمنف حيث كانت تصنع التماثيل الجميلة والأدوات البديعة وهذا يا المعابد العظيمة، بعد ذلك تخيلوه بمنزلة أكبر من ذلك فتصوروا المعبد مثالا للعالم فأصبح بتاح فى اعتبارهم رئيسا لصناع العالم أو بعبارة أخرى صاحب كل الترتيبات والتصميمات البنائية والصناعية ، ثم علا مركزه فى أعين الكهنة فاعتبروه القوة الفكرية المحركة لكل ما يجرى فى هذا الكون فنسبوا اليه فكرة خلق هذا الكون وقالوا انه اذا أراد شيئا قال له كن فيكون . بعد ذلك اعتبروا المعبودات والأهالى فى هذا العالم وما يصنعونه نتيجة فى الأصل لوصى هذا المعبود ، وقد أنشأ أحد كهنة هذا المعبود قصيدة قصيرة أوضح بها كيفية رقى هذا الفكر الدينى اليك ترجمتها :

”بتاح العظيم فؤاد ولسان المعبودات

بتاح هو المعبود الذى يبدأ منه الجمال والمنطق ،

فكل ما يصدر من ذهن أو فهم المعبودات أو الأهالى أو الحيوانات أو الأفاعى أو جميع المخلوقات المفكرة والآمرة هو نتيجة ارادة هذا المعبود (بتاح) .

.....

فالفؤاد هو الذى يخرج كل نتيجة ناجحة الى حيز الوجود .

أما اللسان فهو الذى يفسر ما يحول بالفؤاد .

وأما المعبودات فقد أوجدها الفؤاد فى زمان كانت كل مملكة مقدسة يصدرها الفؤاد عن طريق اللسان“ (١) .

واستعمل المصريون كلمة ”قلب“ بمعنى ”الفؤاد“ كما استعمل ذلك أيضا العرب والعبرانيون وبعض الأوروبيين ، لكن هناك وجها للتحلاف بسيطا يتلخص فى أن المصريين اعتبروا القلب والأعضاء مركز الفؤاد خلافا لسواهم من الأمم . وبدى أن هذه الأفكار الدينية والفلسفة العقلية لم تنحصر فى أفراد الكهنة بل ظهرت أيضا بين كبار القوم . خذ مثلا ما أورد إنتف أمين قصر تحتمس الثالث على شاهد قبره الجبرى من أن رقيه وعلو منزلته كان نتيجة اطاعته العمياء لمبا يوحيه اليه ضميره . قال إنتف ان الناس تحدثوا ”بأن ما يحول بالصدر وحى من الإله (٢)“ وقد استعمل فى هذا التعبير كلمة ”صدر“ بمعنى اللب ، وقد يستعمل بدل ”صدر“ لفظ ”البطن“ أو ”المعى“ فى هذا المقام باعتبار هذه الأعضاء مركزا للفؤاد ، وعليه فقد اعتقد المصرى بوجود قوة مدبرة مهيمنة على المخلوقات والمعبودات جميعها وأن هذه القوة اذا أرادت تغيير الكون تقول له كن فيكون . وبدى أن هذه الآراء نواة الايمان المعروف عند الغربيين بعقيدة لوجوس (Logos Doctrine) . ويرجح جدا أن فلاسفة اليونان استمدوا كثيرا من آرائهم الدينية من المصريين . والمعروف أن هذه

(١) راجع مقالة مؤلف بخصوص هذا الصالحام بمجلة Zeltschrift für Aegyptische Sprache XXXIX, 39 ff.

٧٧٠ : ٣- (٢)

التطورات الفكرية لم تقتصر على معبود واحد بل شملت أيضا سائر المعبودات . وأنها أيضا قديمة يرجع تاريخها الى وقت اقتصار المملكة المصرية على وادى النيل لما كانت آراء القوم بمعبوداتهم خاصة بما هو موجود بالقطر المصرى دون سواه . والرأى السائد أن المعبودات حكمت مصر قبل البشر ثم أتى الفراعنة فورثوا الملك عن المعبودات ، لذلك لم تتعد آراء المصريين انحصار بمعبوداتهم حدود وادى النيل من البحر الأبيض المتوسط حتى الشلال الأول . فلما اتسعت حدود المملكة المصرية فى عهد الامبراطورية اتسعت أملاك المعبودات فى نظر القوم حتى وصلت الى حدود مستعمرات النوبة وسوريا . وبعبارة أخرى أن نفوذ المعبودات المصرية امتد جنبا الى جنب مع سيف فرعون الظافر ، ولذلك اعتبر الأهلالي فرعونهم الشخص "الذى يرجع العالم للإله الذى أنعم عليه بالعرش الفرعونى" (١) . وساد الرأى بين الفراعنة والكهنة أن هذا العالم كله ملك خاص للمعبود فكان هذا سببا فى نقش جميع أخبار حروب الفراعنة على جدر المعابد والهياكل بشكل هندسى وتحيط النقوش الحربية باب المعبد (٢) . وتتلخص العقيدة الدينية الرسمية فى أن "الملك هو الذى يتسلم المملكة من الإله ليسلمها اليه وهو أيضا الذى يطلب الاكثار من المستعمرات لتتسع بذلك أملاك الإله" . بهذه الطريقة امتزجت الآراء الدينية قلبا وقالبا بالتقلبات الدنيوية فاندفعت الحكومة تحت هذا العامل الشديد للتوسع فى الاستعمار والاكثار من الجزية ، وبديهي أن هذه التغيرات هى التى أوجدت فى نفوس القوم وقتئذ فكرة وجود قوة مدبرة خالقة لهذا الكون تتسلم منه جزيته . ولا يخفى أن انتشار النفوذ الفرعونى على الأقطار الأجنبية ساعد كثيرا على إرهاب الديانة المصرية وتوسيع نطاقها ، فبعد ما كان القوم يعتقدون فى عهدهم الخرافى القديم أن معبوداتهم تهيمن على وادى النيل فقط أصبح كهنة عهد الامبراطورية يعتقدون تعميم سيطرة معبودهم على سائر بلاد العالم ، ومن ثم نشأت عقيدة التوحيد . ولا غرابة فى ذلك فقد شاهد هؤلاء الكهنة بلاد العالم خاضعة ومنظمة ومحكومة مائى سنة تقريبا تحت النفوذ المصرى فنسوا عقيدتهم الدينية القديمة الضيقة وأخذوا يفكرون فى إله عظيم تشمل قوته وسلطته هذا الكون جميعه .

لقد ذكرنا الكثير مما يتعلق باعتقاد الأهالي فى إله الكون لكننا لم نتعرض لذكر اسم ذلك الإله لأن كهنة مصر نحتل صفات هذا الإله لمعبوداتها الكثيرة ، فكهنة منف مثلا اعتقدوا أن بتاح خالق الكون الأعظم ، كما أن كهنة طيبة نسبوا الى معبودهم آمون ألوهية هذا العالم وحجبتهم فى ذلك أن آمون معبود الدولة الرسمية ، أما كهنة عين شمس فنسبوا خالق هذا الكون لمعبودهم قائلين ان فراعنة مصر أبناء الشمس (رع) وورثته على الأرض . ولما كانت معبودات أقسام مصر الأخرى معتبرة صورا أخرى لرع نسب كهنة هذه المعبودات المتعددة تأليه هذا الكون لآلهتهم . لكن مركز رع كان أمث من مركز المعبودات الأخرى خصوصا وأن آمون لم يستول مرة على مركز رع السامى فى القطر . زد على ذلك أن المكتابات الرسمية لا تزال تبدأ كما كانت من قديم الزمان بالدعاء للمعبود رع حرخوتى (Re-Harakhte) . ويستدل من حكايات القوم وقتئذ أنهم اعتقدوا أن رع حرخوتى

هو حاكم هذا الكون . ومع هذا كله لم يميز معبود في عهد الامبراطورية على سواء استثناء اللهم الا اذا اعتبرنا أن رع كان له بعض التمييز بالنسبة لشدة نفوذ كهنته ، لكنه لما أتى عهد أممحتب الثالث ظهر على الآثار اسم قرص الشمس القديم وهو آتون مستعملا بدل رع بعد ما كان مهمل الاستعمال ، وقد شوهد هذا الاسم بكثرة في نصوص ذلك العهد الدينية ، من ذلك أن أممحتب الثالث سمي سفيته التي ساح بها على بحيرته الجميلة "أشعة آتون" (١) . ومعلوم أيضا أن بعض حرسه الخاص كان ينتسب اسما الى آتون . ويرجح أن هذا الملك شيد معبدا لآتون بعين شمس وأن بعض معاصريه اعتبروا آتون (أى قرص الشمس) "المعبود الواحد" الذى لا شريك له .

ومن المؤكد أن فرعون مصر وقتئذ قاوم مصاعب كبيرة في نشر مذهبه الدينى ، فقد تحم عليه أن يخوض غمار معارك دينية هائلة مع طائفة الكهنة القوية ذات التاريخ القديم ، كل هذا حصل في عصر كانت فيه العقائد الدينية أهم ما يحافظ عليه الانسان في دنياه . ولقد مضى أممحتب الرابع في طريقه بلا تردد ولا وجل فنشر مذهبه تحت اسم آتون مدعيا جهرة أن هذا الاسم هو أحد أسماء المعبود رع واليك ترجمة ما قاله بخصوص هذا المذهب :

"هاهى ذه كلمات رع أمامك لقد علمنى والدى العظيم معناها الحقيقى ففهمها قلبى وعرفها وجهى ففقهتها أنا " (٢) .

بهذه الكيفية أسند الملك مذهبه الدينى الى رع مدعيا أنه هو الذى أظهر سر هذه الديانة وجعل نفسه "كاهن آتون الأكبر" متبعا في ذلك سنة وجود كاهن رع الأكبر "بعين شمس" (٣) لكن يلاحظ أنه على الرغم من وجود بعض العلاقة بين مذهب إخناتون وعبادة رع فإن الأول تعدى اختصاص الثنائى كثيرا بدليل ما جاء على الآثار من استعمال آتون بمعنى "الإله" أو "المعبود" الذى يقابله في اللغة المصرية القديمة لفظ "نتر" (Nuter) (٤) . وجاء أيضا أن الإله شىء والكوكب الشمسى شىء آخر ، واليك ترجمة تفسير آتون الوارد على الآثار :

"ان المعبود هو حرارة الشمس (آتون) " .

وجاء في عبارة أخرى "أن هذا المعبود سيد آتون أى الشمس" ومنه يتضح أن مذهب الملك كان يشير الى إله الحياة المرموز له بالأشعة المنبعثة من الشمس التى تودع الحياة في المخلوقات ، لذلك رمز لهذا الإله بقرص الشمس ذى الأشعة المنبعثة نحو الأرض ، تلك الأشعة التى تخيلها إخناتون منبهة بأيد قايضة على رمز الحياة . وقد أنجبت أذهان فلاسفة اليونان مثل هذه الآراء المهمة في مبدأ مدنيهم لما اجتهدوا في تفسير الكون وعلاقته بالخالق . نعم ان إخناتون وفلاسفة اليونان الأقدمين جهلوا تماما التأثير الطبيعى والكيميائى الذى لأشعة الشمس على الكون والذى نعرفه نحن الآن ، لكن

(١) ٨٦٩ : ٣ (٢) ٩٤٥ : ٢ (٣) ٢ : ١٩٣٤ : ٢ (٤) ٢ : صحيفة ٤٠٧ ملاحظة (٥)



شكل ١٣٢ — منظر جنازة كاهن عظيم من منف مأخوذة من مقبرة عتف ، يرجع تاريخها إلى الأسرة الثامنة عشرة ، وهي بارزة الرسوم ، وشاهد في القسم الأيمن لجدار الأضلاع رجال مشيعون للجنازة وهم خلف العرش . ويرى في الجزء الأعلى القدم يبدون أكراس المائت (دار عتف برلين)

هذا لا ينفي أن مذهب إخناتون مؤسس على دعامة صادقة مثمرة . والمعروف أن إله إخناتون كان مخالفا لما اعتقده الأهالي وقتئذ لكنهم لم يصعب عليهم اعتناق المذهب في سائر أنحاء الإمبراطورية وفهم معانيه . وهو في الحقيقة أسير فهمها من معرفة معاني رموز المعبودات المصرية القديمة الصعبة الإدراك للغاية (شكل ١٣٩ وشكل ١٤٠) .

ولم يرق في نظر إخناتون أن يشيد لإلهه معبدا كالمعبودات المصرية الأخرى فصمم في أوائل حكمه أن يرسل بعثة إلى محاجر السلسلة تحت إشراف عدّة أمراء لاحتضار الأحجار الرملية الجيدة اللازمة من تلك الجهات^(١) . واختار أن يقيم معبد آتون في حديقة آمون التي أنشأها والده بين معبدى الكرنك والأقصر ، فبنى هناك معبدا كبيرا شامحا وحلاه بالرسوم الزاهية البارزة . ثم أطلق على طيبيه اسم "مدينة نور آتون" كما أطلق على المعبد المذكور اسم "نور آتون العظيم" . وسمى قدس الأقداس بذلك المعبد "جيم آتون" وهو تعبير لا تزال نجهل معناه الآن^(٢) . ومع إبادة عبادة المعبودات الأخرى وقتئذ^(٣) أضمر كهنة آمون الحقد والطمع وتملكتهم الضغينة لما رأوا جزءا عظيما من أوقاف معبدهم حوّل الى معبد آتون الذى يجهلونه والذى أخرجه إخناتون الى الوجود . زد على ذلك أنهم منعوا من التدخل في شؤون الدولة السياسية بعد ما كان رؤسائهم يعينون في عهد أمنتحتب الثالث رؤساء لمالية الدولة كرئيسهم المدعو بتاح موس (Ptahmose) الذى عين في منصب وزير الدولة الأكبر . وقد حصل مثل هذا الرق لكهنة آمون في عهد الملكة حتشبسوت لما قام رئيس كهنة آمون المدعو حابوسنب (Hapuseneb) بمركز وزير مع احتفاظه بمركزه الدينى ، ومعلوم أن رئيس كهنة آمون كان معتبرا رئيسا لطائفة كهنة الدولة . ويرجح أن هذا التدخل الكهنوتى العظيم في شؤون الإمبراطورية السياسية هو الذى شدد عزيمته إخناتون على انتزاعه من هذه الطائفة ، وعلى كل حال فإن الملك لم يكن ألبادئ بذلك فقد سبقه والده أمنتحتب الثالث اليه بأن عين وزيرا لم يكن رئيسا لكهنة آمون خلفا للوزير بتاح موس ، فلما أتى إخناتون كان هذا الوزير الجديد المدعو ريع موس (Ramose) في مركزه فأغدق إخناتون عليه الهدايا الجزيلة^(٤) ، لذلك انضم هذا الوزير الى الملك وفؤاده مغمم بالاخلاص كما انضم اليه غيره من كبار الدولة فعمد اليهم الملك في الاشراف على بعثة الأنحجار اللازمة لبناء معبد آتون . لكن طائفة كهنة آمون كانت قوية وغنية حتى أنها صرحت بتحوّس الثالث ملكا على مصر بنفوذها ، فلا يستبعد حينئذ أن يتحين أفرادها مثل هذه الفرصة فيعزلون هذا الفيلسوف الشاب ويكيدون له بلا تردد . قد يكون هذا حقيقيا لكن المعروف أن أمنتحتب الرابع لم يكن فردا عاديا بل كان سليل بيت المجد والشرف صعب المراس قوى الشكيمة عنيدا صلب الارادة . وقد وجد له معاضدين كثيرين مثل كهنة منف وعين شمس الذين شجعوه على القضاء على عبادة آمون التي لم تعرف في شمالي مصر الا منذ عهد الملكة الوسطى . على أثر ذلك تولد النزاع الذى أدى الى حرب انتهت بسحق آمون . واستحال على إخناتون

(١) ٢ : ١٣٥ (٢) ٢ : صحيفة ٣٨٨ ملاحقة (ب) (٣) ٢ : ١٣٧ (٤) ٢ : ٩٤٤ - ٩٤٧

بعد ذلك أن يعيش في طيبة فصمم بعد بناء معبده الجليد أن ينفصل تماما عن عبادة آمون وأن يجعل آتون إله الامبراطورية الوحيد الحقيقي . فأخذ ينفذ تصميمه بسرعة ظاهرا وباطنا فأمر الحكومة بوضع يدها على أملاك الكهنة جميعا بما فيها من أملاك كهنة آمون وبالامتناع عن التدخل في عبادة المعبودات على اختلافها ونحو جميع أسماء هذه المعبودات من جميع الآثار الموجودة وقتئذ . وقد نفذت هذه الاجراءات بمخافتها وبالأخص ضد آمون ، فحذف اسم هذا المعبود من كل شيء حتى المقابر الملكية القديمة بطيبة وجميع التماثيل التي نصبها ملوك الامبراطورية في عزها ومجدها حول الكرنك وداخله . ثم محو من تماثيل أجداده ووالده كل ما له علاقة بآمون بدون مراعاة لكرامتهم ومنزلتهم السابقة . ثم محو اسم والده أمنتحتب من معابد طيبة كلها لاشتماله على اسم آمون وذلك منعا لظهور اسم هذا المعبود في الأماكن الرفيعة بالمعابد . ولا يزال اللوح الحجري البديع الذي أقامه أمنتحتب الثالث^(١) في معبده بطيبة وعليه ذكر العبارات التي شيدها لآمون شاهدا على شدة حق أمنتحتب الرابع على هذا المعبود فقد طمس نقوش الحجر بلا رافة حتى تعسرت قراءتها . ثم أمر بمحو لفظ معبودات من الآثار المصرية كافة ومن جدر معابد طيبة وبذل مجهودا عظيما في ذلك^(٢) ولما لاحظ أن اسم "أمنتحتب" يعني "آمون الطيب" كره سماعه وكره نقشه على الآثار فاستبدل به "إخناطون" يعني "روح آتون" .

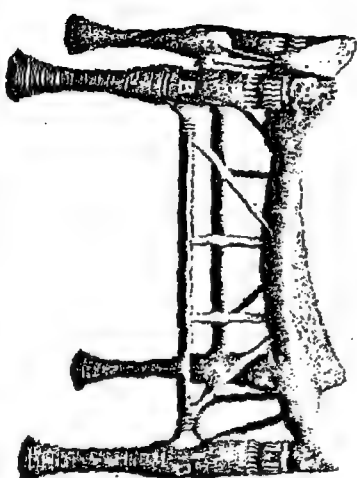
على أثر ذلك أصبحت المعيشة بطيبة غير متيسرة لكثرة أتباع مذهب آمون القديم بالرغم من الاجراءات التي اتخذها إخناطون لآبادة هذا المذهب فكان الملك اذا ألقى بنظره على شاطئ طيبة الغربي وجد مقابر ومحاريب آبائه وأجداده في حالة دمار ونحراب أنز حملته الشنيعة عليها . زد على ذلك أن صروح الكرنك ومسلاته الشاخخة كانت تذكره دائما بمذهب أجداده وما فعلوه لاعلاء شأن آمون . وأدهى من هذا وذلك ما كان يحول في نفس إخناطون من الألم كلما رأى معبد والده العظيم الذي أقامه بالأقصر لاعلاء شأن آمون والذي لم يتم بناء صحته قبل وفاته . كل هذه العوامل جعلت إخناطون يفكر في الخروج من هذا المأزق فصمم على تشييد ثلاثة مراكز لعبادة آتون في أجزاء الامبراطورية الثلاثة وهي القطر المصري والنوبة وآسيا ، وأن يكون مركز هذه العبادة بالقطر المصري حيث يكون عرش فرعون . وقد أنجز الملك هذا المشروع بنجاح رغم ما تتطلبه من طول الزمن فأسس معبدا لآتون بالنوبة سماه "جيم آتون" بالقرب من الشلال الثالث مقابل بلدة دبلو (Dulgo) الحديثة أى في وسط تلك المستعمرة الجنوبية^(٣) . وان اسم "جيم آتون" يشير الى وجود بعض النسب لمعبد آتون بطيبة . ثم أنشأ بسوريا مركزا لعبادة آتون لا يزال مجهولا لنا ولا يمكن أن يكون أحط منزلة من معابد أجداده التي شيدها لآمون هالك . وفي السنة السادسة من حكمه (أى بعد تغيير اسمه الملكي بمدة قصيرة) انتقل الى مركز عبادة آتون بمصر وعاصمة ملكه الجديدة الواقعة بسفح الجبل

(١) ٢ : ٨٧٨ (٢) راجع Zeitschrift für Ägyptische Sprache 10, 109-110 and 11 p. 388 note 1

(٣) ٢ : صحيفة ٣٣٨ ملاحظة (ب) وأيضا كتابي المسمى Monumenta of Sudanese Nubia المطوع بشيكاجو عام ١٩٠٨



شكل ١٢٣ — تمثال أسد وبه بعد أسيحف التان بيهه
مليب . قلة التويرن بعد فالتان الى بته (دار تحف لدرة)



شكل ١٢٤ — كرسي من عهد الامير اطورية مصتبح من
الابنيزن وعظم بالماح (دار تحف لدرة)



شكل ١٢٥ — مقدم حرم به تحفوس الراج الريمه عليها ملقيه بن ابيص فوطا رسوم بارزة لطايع حرميه
كتفها المشر تيرودور ديقدر بيليه (دار تحف القامير)

على بعد مائة وستين ميلا جنوبى الدلتا وثلاثمائة ميل تقريبا شمالى طيبة . فى هذا المكان تبعد سلسلة الجبال الشرقية عن نهر النيل بما يقرب من ثلاثة أميال ثم تقترب منه بعد ذلك شمالا وجنوبا بعد مسافة طولها خمسة أميال ، ومن هذا الوصف يتضح لنا أن هذه البقعة كانت محاطة بسلسلة جبال من ثلاث جهات أما الجهة الغربية فكان يحدها نهر النيل . وقد اختار إخناتون هذا المكان مركزا لعبادة آتون وسماه "أخت آتون" (Akhetaton) - أى سماء آتون - ويعرف الآن بتل العمارنة . وأصدر أمره بضم الأراضى القريبة من ذلك المكان شرقى النيل وغربيه الى أوقاف آتون وعين حدود تلك الأراضى بأربعة عشر حجرا لم نهتد إلا على واحد منها (شكل ١٤٠) وهذا الحجر لا يقل طوله عن ست وعشرين قدما وهو منحوت فى الصخور الجبلية ومنقوش بنصوص توضح حدود الأراضى المقدسة حول هذه المدينة^(١) . يتضح من ذلك أن هذا المكان كان فسيحا يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب حوالى ثمانية أميال ويتراوح طوله بين جبال الشرق والغرب بين اثنى عشر وسبع عشرة ميلا ، وقد عثر على القسم الملكى الخاص بهذا المكان منقوشا على أحجاره الشمالية والجنوبية هذا ترجمته :

"رفع جلالته يده الى السماء نحو خالقه آتون قائلا : هذا قسمى الأزلى وهذا شاهدى الأبدى . هذا الحجر يعين حدود الأرض لقد شيدت "أخت آتون" لتكون مسكنا لوالدى وأظهرت حدود "أخت آتون" الجنوبية والشمالية والغربية والشرقية . ولن أتعدى حدود "أخت آتون" الجنوبية متجها نحو الجنوب كما أننى لن أتعدى حدود "أخت آتون" الشمالية سائرا نحو الشمال لقد صنع الآله دائرته هذه لنفسه وجعل فى وسطها مذبحه الذى أقدم عليه القرابين لأجله^(٢) .

ولم نعرف للآن معنى عبارة "عدم تعدى الحدود الجنوبية والشمالية" ويظن البعض أن المقصود بها مجرد الإيضاح لحدود المركز الأربعة وأن هذا تعبير بينه المالك اعترافا بعدم تملكه للأراضى الخارجة عن حدوده ، وأجاز بعضهم كون ذلك قسما القصد منه عدم مغادرة ذلك المركز . وعليه فلا يبعد أن يكون إخناتون قد أمضى باقى حياته فى "أخت آتون" وعلى كل حال فالمعنى الأصلى للعبارة لا يزال غامضا . وللاحظ أننا لم نعثر للآن على شواهد حجرية مبنية لحدود الأراضى تحتوى على مثل هذه الصيغة القسمية . وقد وقف جلالته الملك ذلك المكان على آتون بأمر ملكى هذا ترجمته :

"هذا الاقليم المبين الحدود الممتد من سلسلة الجبال الشرقية الى سلسلة الجبال الغربية المقابلة "لأخت آتون" تابع لوالدى "آتون" معطى الحياة الى الأزل . وكل الجبال والصخور والمستنقعات والتلال والغيطان والمياه والمدن والشواطئ والأهالى والأغنام والأشجار وكل مخلوقات والذى "آتون" قد وقفتماعلى والذى آتون الى الأزل"^(٣) . وعثر على نقوش فى حجر آخر ذكر فيها أن هذه الأشياء وقفت لمعبد آتون بمدينة "أخت آتون" كقرايين الى أبد الآبدين^(٤) . ولم تقتصر وقفية آتون على هذا بل شملت أيضا بعض الأقاليم السودانية^(٥) وربما شملت سوريا

(١) ٩٧٢-٩٤٩: ٢ (٢) ٩٥٤: ٢ (٣) ٩٦٦: ٢ (٤) ٩٧٢: ٢ (٥) ٩٥٧: ٢

أيضا وكان القصد من بناء "أخت آتون" انشاء عاصمة جديدة للامبراطورية المصرية لأن إخناتون قال ما ترجمته :

"سيأتى الى هذا المكان عامة الناس من سائر الجهات . وتكون "أخت آتون" الجميلة عاصمة ثانية أقابل فيها كل الرسل والأقوام الوافدين من الشمال والجنوب والغرب والشرق" (١) .

وقد عهد الملك الى المهندس بك (Bek) مأمورية احضار الأحجار من اقليم الشلال الأول لبناء معابد أخت آتون (٢) التي لا يقل عددها عن الثلاثة (٣) واحدا للوالدة الملكة تى وآخر للأميرة بكت آتون — أى خادمة آتون — وثالث للملك نفسه وهو معبد الحكومة الرسمى (٤) . أما قصر الملك وقصور الأمراء فقد شيدت حول هذه المعابد . ووصف أحد الأمراء مدينة "أخت آتون" بقوله :

"أخت آتون بلدة جميلة جدا فهى سيدة المدن فى الاحتفالات وافرة الثروة . تقدم فى وسطها الهدايا للعبود رع . اذا رآها القلب سارع اليه الفرح ، كيف لا وهى مدينة بدیعة جميلة حتى ليخيل الى ناظرها أنها اللجنة كثيرة الأهالى . اذا أشرق عليها آتون أغدق عليها أشعته محتضنا (بأشعته) ابنه المحبوب الأذى سيل آتون واقف الأقاليم على الذى أجلسه على العرش ومرجع الأرضى لخالقها" (٥) .

ولما وصل أول دخل من أوقاف معبد آتون الى مدينة "أخت آتون" احتفل لذلك إخناتون احتفالا عظيما وركب عجلته فى موكب نغم مصحوبا بكرماته الأربع وكبار دولته ، فقابلهم القوم عند معبد آتون بهتاف عظيم وصياح "أهلا وسهلا" ثم امتلأ المذبح العالى بالقرابين الغالية وغصت حجر المخازن بالدخل العظيم (٦) . وقد اشترك جلالة فى الاحتفال شخصا (٧) وأنشدت زوجته أنشودة السلام الى المعبود آتون بصوت رخيم وهى قابضة بيديها الجيلتين على آلتين موسيقيتين (Sistrum) (٨) . وأراد إخناتون أن يعين رئيسا لكهنة آتون وأن يتمتع هو عن القيام بأعباء ذلك المركز فعمل احتفالا كبيرا وقف فى أثناءه على شرفة قصره مصحوبا بزوجه ثم استقبل الزوار وأعلن اختيار مرى رع (Merire) الضابط الكبير رئيسا لكهنة آتون واليك ترجمة خطابه الرسمى :

"استمع لى يا مرى رع ! لقد عينتك بدلا منى رئيسا لكهنة آتون بمعبد آتون بمدينة أخت آتون . لقد أنعمت عليك بهذا المركز قائلا "انك ستعيش من خيرات فرعون سيدك فى معبد آتون" (٩) .

وقد قام مرى رع بهذه المهمة خير قيام وكافاه الملك على ذلك بالذهب مكافأة علنية جريا على عادة الفراعنة الأقدمين نحو خدمهم المخلصين . وقد عثر على نقوش ورسوم فوق أحد أبواب المعابد تشير الى أن الملك كان مصحوبا بزوجه وكرميته لما أعطى مرى رع مكافأة الأمانة والاخلاص وأن جلالة خاطب الحاضرين وقتئذ قائلا :

(١) ٩٥٥: ٢ (٢) ٩٧٣: ٢ ملاحظة (٣) ١٠١٦: ٢ - ١٠١٨ (٤) شرح (٥) ١٠٠٠: ٢
(٦) ٩٨٢: ٢ (٧) ٩٩٤: ٢ و ١٧: ١٨ - (٨) ٩٩٥: ٢ و ٢١: ٢ ملاحظة (٩) ٩٨٥: ٢



شكل ١٣٧ — صورة لتمثال امنحتب بن حمي
(دارتحف القاهرة)



شكل ١٣٦ — تمثال يوضح الهيئة
الملكية في عهد الإمبراطورية
(دارتحف القاهرة)



شكل ١٣٨ — صورة بط-عائم بين زهر اللوطس . وهي قطعة من أرض قصر امنحتب الثالث بفرب عليه
(مأخوذة من تينوس)

”أغدقوا عليه الذهب فوق الصدر والظهر والرجلين فقد أطاع كل أوامر فرعون في الاحتفالات العظيمة التي عقدها جلالة في هذه الأمكنة الجميلة بحراب معبد آتون الذي بناه فرعون بمدينة ”أخت آتون“ (١).

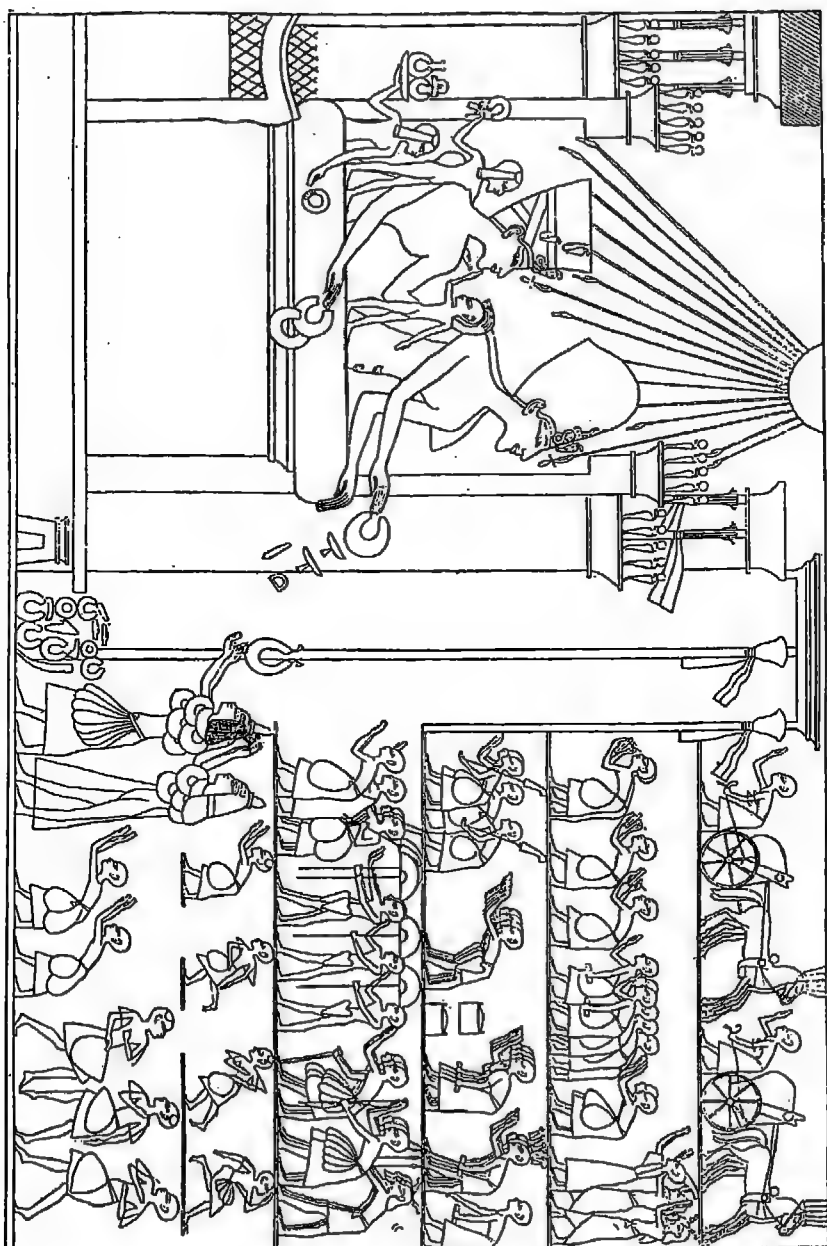
من ذلك يتضح لنا أن مري رع أطاع أوامر الملك كلها وقت الصلوات الدينية في ”تلك الأمكنة الجميلة“ بمعبد آتون. وقد أخذت البراهين الواحد تلو الآخر تدل على أن الترتيبات والمشروعات جميعها التي عملت بمدينة ”أخت آتون“ والمجهودات التي بذلت لاعلاء شأن آتون الديني كانت من مبتكرات إخناتون نفسه. ولا غرابة في ذلك فالملك الذي لا يتأخر لحظة عن محو اسم والده عن آثاره رغبة في محو عبادة آمون (عدوه اللدود) لا بد أن يكون قوى العزيمة شديد البأس لا يتردد أبدا في انجاز مشروعاته واجبار أكابر مملكته على الانقياد لأوامره. وقد عرف إخناتون جيدا من تاريخ أجداده أن اسداء العطايا والمكافآت لأمثال مري رع أمر ضرورى للتفانى في خدمته كما يرغب ويستسى (شكل ١٣٩) (٢). وجاء في رواية كاهن آتون المدعو آي الذي كان يعنى بيجاد إخناتون والذي أسعده الحظ بعد ذلك بالاقتران بمرسية الملك أن جلالة الملك ضاعف له العطايا الفضية والذهبية. وقد خاطب هذا الكاهن جلالة الملك قائلا ”ما أكرس سرور الرجل الذى يدين بدينك، فهو فرح كلما يحظى بمشاهدتك الى الأزل“ (٣). وأغدق جلالة الهدايا أيضا على قائد الجيش المدعو ماي (Mai) بمثل السخاء الذى جاد به على آي حتى افتخر هذا القائد قائلا لقد ضاعف (أي إخناتون) لى الهدايا بعدد الرمال، فجعلنى رئيس الموظفين ورئيس الأهالى. لقد رافقنى سيدى لاتباعى سته واطاعنى كلامه بدون تردد. أى سيدى! ان عيني تنظر الى محاسنك كل يوم فتبصر ك عاقلا مثل آتون متمعا فى العدالة! ما أسعد المرء المطيع لارشاداتك“ (٤).

لا مشاحة في أن بعض كبار القوم كانوا يحلون آراء إخناتون تماما ويدينون بها قلبيا. وهناك قوم آخرون تظاهروا بذلك فقط مدفوعين الى ذلك بعوامل ”الخبز والسمك“ على رأى قدماء المصريين.

ولما كان أعظم ما يهيه فرعون لأفراد رعيته أن يحفر لهم مقابر فى صخور الجبال الشرقية، أمر إخناتون عماله بحفر مقابر بدية بالصخور الشرقية لكل فرد من أتباعه المخلصين. زد على ذلك أن إخناتون لم يبطل اجراءات الموتى المتبعة من قديم الزمان، فكان يتحتم على كل فرد أن يدفن نفسه فى قبره أو ”بته الأزل“ كما هو معروف عندهم حيث تقدم اليه القرابين بعد وفاته ليعيش منها فى الآخرة (٥). وتمتاز قبور هذا العهد بخلوها من الرسوم المفردة المثلة للزبانية والوحوش الضخمة ومن السحر والتعازيم الخاصة بالانتصار على أعداء الآخرة وغير ذلك مما يشاهد كثيرا على جدر مقابر طيبة قبل عهد إخناتون. وبديهى أن هذا الاصلاح النفسانى الشريف كان نتيجة مجهودات إخناتون، تلك المجهودات التى أخفت من الوجود خرافات الكهنة السخيفة من أذهان المصريين الذين انقادوا لها

(١) ٩٨٧: ٣ (٢) راجع شرح شكل ١٣٩ (٣) ٩٩٤: ٢ و ١٦: ١٧ (٤) ١٠٠: ٢-٣

(٥) ٩٩٦: ٢



شکل ۱۳۹ — اینسائرون و سلطه یوزغان الإمام علی الکاهن آی زوزجه

أولاً أيما انقياد . وبفحص مقابر عهد إخناتون يرى فيها كثير من مناظر الحياة الدنيوية مرسومة على جدرانها وهي عادة خاصة ببلدة آخت آتون . أما مقابر كبار موظفي الحكومة فمزودة بالرسوم البديعة الخاصة بالمقابلات الملكية التي حظى بها أصحابها في دنياهم . وقد استنتجنا من هذه الرسوم معلوماتنا عن أحوال المعيشة بمدينة "آخت آتون" وعرفنا أيضاً أن أمراء تلك العصور كانوا كثيرى الغرام برسم ملكهم وعلاقته الشديدة بمذهب آتون ، لذلك كثيراً ما عثرنا في مقابر هؤلاء القوم على رسم إخناتون وزوجته يعلوهما قرص الشمس آتون الذى تنبعث منه أشعة عديدة تنتهى بأيدى حاضنة لجلالة الملك^(١) . ومما يجدر ملاحظته أن المعبودة موت (Mut) لم تعد ترسم على الآثار بشكل نسر مرفرف الأجنحة لدفع الأذى عن رأس فرعون كالعادة المتبعة منذ عهد الأسر الطيبة . وكثيراً ما يشاهد الأمراء مرسومين على جدران هذه المقابر متضرعين إلى إلههم ليشملهم الملك برضاه قائين "إن إخناتون خلق من أشعة المعبود"^(٢) ومخاطبين المعبود بهذه العبارة "أنت الذى خلقتنى (أى إخناتون) من أشعتك"^(٣) . وقد كثرت استعمال هذه التعبيرات الخاصة بعبادة آتون على آثار تلك العصور بالطريقة التى استعملت بها التعبيرات والتوسلات الخاصة بالآلهة المصرية العتيقة .

من ذلك يتضح أن هم الحاشية الملكية انحصر في الاعتقاد بمذهب ملكهم والاجتهاد في فهم معانيه . أما الحفلات الرسمية فأصبحت خلواً من العوائد القديمة والتوسلات الخاصة بالمعبودات العتيقة، وقد استعوضت عنها مدحة آتون وإجلال مذهب إخناتون وغرام الملك بنشر ذلك المذهب . وقد عمت هذه التغيرات فبلغت رؤساء سوريا الذين أكثروا في كتاباتهم من الإلماع إلى مذهب إخناتون متظاهرين باتباعه^(٤) لهذا الملك من التأثير الكبير فيهم . وقد اهتدنا إلى تعاليم مذهب إخناتون منقوشة على جدران مقابر تلك العصور^(٥) . وعثرنا بمقابر سرية القوم على أنشودتين وضعهما إخناتون للمعبود آتون لتلاوتهما في المعابد والتوسل بهما في خلوته . وتعتبر هاتان الأنشودتان أهم ما خلفه لنا التاريخ من تلك العصور لأنهما يوضحان لنا قيمة مذهب ذلك الملك الفيلسوف الذى صحى بكثير لأجله . وقد لقب هاتان الأنشودتان "بدعاء إخناتون والملكة نفر نفرو آتون (Nefernefruaton) للمعبود آتون" وهما يختلفان في الأسلوب والمقدار . فالأنشودة الطويلة هى أجمل ذوقاً وأعذب كلاماً وأجدر أن تحفظ ضمن آداب عصرنا هذا . واليك ترجمة هذه الأنشودة بقدر ما يمكن من الدقة ، وقد جعلت لأجزائها المختلفة عناوين يتمشىان مع معانيها وقارتها في الوقت نفسه بما جاء في المزامير بالمزمور الرابع والمائة ومنه يتضح للقارئ شدة الشبه بين الاثنين من حيث الآراء وتسلسل المعاني :

جلال آتون

بزوغك جليل في أفق السماء يا آتون يا حى يا مبدئ الحياة !
إذا ما صعدت في أفق السماء الشرق أفضت على الأرضى جمالك .

(١) ١٠١٢: ٢ وشكل ١٣٩ (٢) ١٠٠٠: ١ و ٩٩١ و ٩٨٥: ٣ (٣) ١٠١٠: ٢ و ١٠١١: ٣

(٤) خطابات تل العمارنة ١٤٩ و ٦ ملاحظة وغير ذلك . (٥) ٩٧٧: ٣ و ١٠١٨

ما ذلك إلا لأنك جميل عظيم، نير في السموات العليا، تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك .

- أنت رع . أنت الذى أسرهم وقيدتهم بحبك .
- أنت بعيد عن الأرض لكك على اتصال معها بأشعتك .
- أنت عال لكن آثارك واضحة في ضوء النهار .

الليل

إذا ما غربت في أفق السماء الغربى أظلمت الأرض فأصبحت كالميتة .
 فيقصد السكان النوم في حجراتهم مغطى الروس هادئ الأنوف غير مبصرين فتسرق أمتعتهم من تحت رؤوسهم دون أن يشعروا .
 أما الأسود فتخرج من أبحارها وكذا النعابين اللدافة .
 ويسود الظلام (؟) الكون وتسكن الأرض . وما ذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح في أفقه .

النهار والانسان

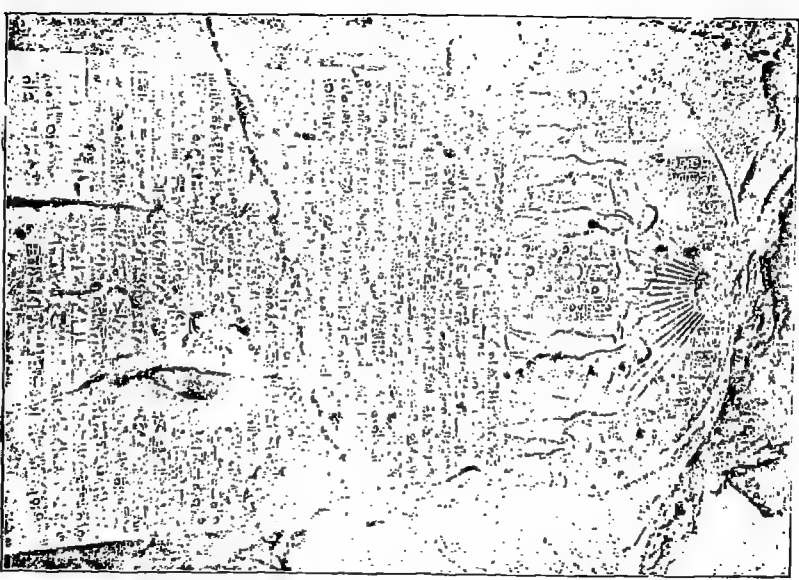
إذا ما ظهرت في الأفق وأشرقت في النهار كآتون أضاءت الأرض .
 إذا ما بزغت أشعتك خفى الظلام وشمل الفرح قطرى مصر .
 كيف لا وقد أيقظتهم فيغسلون ويكتسبون ويتهللون بأذرعهم اليك وقت شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم .

النهار والحىوان والنبات

البهاائم كلها مستريحة في مراعيها . والأشجار والنبات جميعها يانعة . والعصافير تنفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهاالا اليك . والأغنام ترقص على أرجلها . والطيور تحلق في الجو تنسم الحياة إذا ما أشرقت عليها .



شكل ١٤١ — إخناتون يقبل الأوطار من زوجته . ناسل هذا الرسم بأرز وماتون بالأركان الزاوية . ويستنتج من الرسم أن هيئة رسم الأشخاص التي كانت شائعة في الملكة القديمة فريت الآن بالهيئة العلمية الصاعدة . حتى أنك ترى إخناتون متكئا ساكلا على عصاه (دار تحف برلين)



شكل ١٤٠ — شاهد حجري منين جلود مبدية عن المازية . وشاهد في أعلاه رحان بأركان لأن إخناتون ممسوبا بزوجه وأبنيه الجميع (بعدد قوس الشمس النبتة منه أئمة تنهى أن تحسن المائدة) الملكية وتقدم لها رمز الحياة

النهار والمياه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه .
وكل طريق عمومي يصبح مسلوكا لأنك
ظهرت في الأفق . أما السمك فيقفز أمامك
في النهر ، هكذا تحترق أشعتك البحر الخضم .
هذا البحر الكبير الواسع الأطراف . هناك
ديابات بلا عدد . صغار حيوان مع كبار .
هناك تجرى السفن . لو يائنان هذا خلقته
يلعب فيه .

(مزمو ١٠٤ آية ٢٥ - ٢٦)

خلق الانسان

أنت خالق الجنين في أمه . أنت خالق نطفة الانسان . أنت واهب الحياة للجنين في رحم أمه
وملطفه حتى لا يتكدر فيبك كيف لا وأنت المربي في الرحم . أنت معطي نفس الحياة كل مخلوقاتك .
..... أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

خلق الحيوان

أنت الذي تهب الحياة للفرخ في البيضة فيصبح ، فاذا أتممت خلقه ثقب بيضته ونرج منها صائحا
جهده وانبا بقدميه .

الخلق عموما

ما أكثر مخلوقاتك التي نجهلها . أنت الإله
الأحد ، لا شريك لك في الملك ^(١) . خلقت
الأرض بارادتك . ولما كنت وحيدا في هذا
الكون خلقت الانسان والحيوان الكبير
والصغير والمخلوقات التي تدب على الأرض
أو تطير بأجنحتها . أنت الذي أحلت كل
إنسان في سوريا والنوبة ومصر في موضعه
وأعنت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ
نصيبه ويعيش أيامه المحدودة . لقد اختلفت
ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من
مميز الخلق .

(١) يفلب في الأناشيد الأخرى أن تكون هذه الجملة "أنت الإله الأحد الذي لا إله غيره" .

رى الأراضى

أنت خالق النيل فى الدار الآخرة . أنت أوجدته برغبتك فيه لتحافظ على حياة الأهالى . أنت سيد الجميع لأنهم ضعاف . أنت سيد كل أسرة لأنك تشرق لأجلها . أنت شمس النهار المهييب فى الأراضى السحيقة كلها والواهب لها الحياة . خلقت لهم نيلا فى السماء ليسقط عليهم ماءه فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروى غيطانهم بين مدنهم .

ما أبدع مشروعاتك أيها السيد الأزلى !
فنيل السماء (مخصص) للغرباء وللدواب من كل البلاد .
والنيل الذى يأتى مصر خاصة يأتيا من الدار الآخرة .
أشعرك تغذى الجنان . فاذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك .

الفصول

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك ،
فالشقاء يعطيهم البرودة والصيف يهب لهم الحرارة .
أنت الذى رفعت السماء عاليا لتنظر ما خلقت فى وحدتك شارقا حيا كآتون ساطعا مثلا لثام
راجعا ثانية الى حيث ابتدأت .

جمال الضوء

أنت مبدع الجمال من نفسك .
فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهر كلها عيون تبصرك أمامها .
كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض .

تضرعات الملك

أنت فى قلبى ، لا يعرفك سوى ابنك إخطاطون الذى جعلته عاقلا بأرائك وقوتك .
العالم كله فى قبضتك كما خلقته .
اذا ما أشرقت (عليه) حيي واذا أفلت مات .
أنت الوجود ومسبب الحياة للإنسان .



شكل ١٤٣ — صورة رس عمال إخناتون
جميلة للغاية مصنوعة من الحجر الجيري أرسلت
حديثاً إلى دار متحف اللوفر بباريس



شكل ١٤٢ — جسم تمثال مصنوع من الحجر الجيري
لأبنة إخناتون



شكل ١٤٤ — حياة المستنقعات. جزء من رسوم أرض قصر إخناتون بتل العمارنة
(مأخوذة عن هيري)

أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تقرب. والشعل كله يبطل اذا ما أقلت في الغرب. فاذا ما أشرقت جعلت كل ذلك ينمو... للملك. لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك وسليتك الملك العائش في الحق سيد الأرضين نفر - خپرو - رع، وان - رع (ابن رع) (Nefer-khepru-Re, Wan-Re) العائش في الحق سيد التيجان إخناتون طال أجله. (وأيضاً) للزوجة الملكية العظيمة خلتته سيدة القطرين نفر - نفرو - آتون (نفرتي) (Nefer nefru aton, Nofretete) العائشة والياعة الى أبد الآبدين .

لا شك أن القارئ استنتج من هذا الدعاء أن واضعه كان واسع الاطلاع عالم بالأمور الاجتماعية العالمية من شلالات النوبة الى أقصى حدود سوريا ، معتبرا هذه الأقاليم وحدة لا تتجزأ ، الشيء الذي لم يعتد المؤرخون نسبته الى أهالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وبديهي أن مثل هذا التغير نتيجة ظهور روح جديدة في مصر بدل الروح الرجعية العتيقة ، والفضل في ذلك يرجع طبعا الى إخناتون بدليل ما أوردناه من السطور السالفة التي تشهد له بسمو الذاكرة في ذلك العهد السحيق . وقد توصل هذا الملك العظيم بثاقب فكره الى معرفة إله العالم خالق الكون والى الايمان برحمته ورأفته بمخلوقاته حتى الحقيق منها ، فقد أبصر في رفرة أجنحة الطيور بين سيقان اللعل بالمستنقعات المصرية نوعا من التسبيح لخالقها ، كما تصوّر قفز السمك في الغدير حمدا لبارئها . واعتقد هذا الملك أيضا أن الإله الأحد هو الذي يناعى النبات ويغذى الفرج ويشرف على فيضات النيل الشديد وقد سماه "أب وأم جميع مخلوقاته" ومنه يتضح لنا أن الملك عرف لطف الإله العالمى وحلمه . وأشار الينا إخناتون أن تعتبر بحياة اللعل فقيا اثبات صدق مذهبه وأن سيادة الإله التامة على كل الشعوب كلها مصحوبة بعطف وحنو أبوى بدون تمييز بين القومية والعنصر . وأظهر جلالته للمصرى المتغطرس رأفة الخالق لشعوبه كلها فذكر سوريا وبلاد النوبة قبل مصر في تعداد تلك الشعوب . ولا شك أن هذه العقلية الغربية هي التي جعلت الأثرين يعتبرون إخناتون أقدم رسول معروف في التاريخ الآدمي . كيف لا وقد كان الملوك السابقون يعتقدون أن الإله الأعظم هو الذي يهب النصر ويسحق الأهالي ويسوقهم حاملين الجحزية أمام عجلة فرعون . أما إخناتون فقد رأى في الإله رأفة ورحمة خلّقه جميعا على السواء ، ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد في التاريخ . ولا شك أن القارئ لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحداية الله وبرحمته ورأفته ووجود سره المكنون في كل مخلوقاته ، وهذا يتمشى تماما مع الروح الصوفية الموجودة في هذه العقيدة . واليك ترجمة بعض ما جاء بهذه العقيدة :

"ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة ! انها سر مكنون ! أيها الإله الأحد الذي لا شريك له في الملك !".

ومع اعتراف إخناتون لحد بعيد بعطف الخالق على مخلوقاته لم ينعت به صفات روحانية وخلقية سوى ما اتصف به آمون من قديم الزمن . زد على ذلك أنه بالرغم من معرفة إخناتون للطف الله بعباده لم يهتد تماما الى معرفة صفة الحق جل شأنه ولا الى رغبته تعالى في وجود هذه الصفة في نفوس بنى آدم . وكل ما ذكره إخناتون بهذا الخصوص في تعاليمه التي وجدت مبثورة بين الأناشيد ونقوش

مقابر أمراء عصره هو الاصرار المستمر على اتباع "الحق" بما لم يكن معروفا سابقا . فقد اعتاد جلالته أن يعقب اسمه بعبارة "العائش في الحق" مما يشير الى شدة تعاظمه بالحق وهو أمر ثابت من أخبار معيشته اليومية . وامتاز هذا الملك باعتقاده أن المعيشة العادية البسيطة البعيدة عن الكلفة هي أقرب الأمور للحق والصواب وأن كل ما أوجده الطبيعة هو صواب لا خطأ فيه ، لذلك لم ير هو وأسرته فائدة من الاحتجاب عن رعيته . وكان شقيقا جدا بأطفاله ويظهر في كل الاحتفالات مصحوبا بزوجته وأعضاء أسرته كأنه كاتب وضيع في معبد آتون . وقد رسم نفسه وهو يعامل أعضاء أسرته ببساطة وبدون تكلف . وكان كلما اشترك في حفلات دينية صاحب زوجته وأطفاله ليشاركوا فيها . كل ذلك لأنه اعتقد أن الطبيعة فطرت على الحق والصواب ، ومن ثم أجهده نفسه في اعلان صدق هذا الرأي كلما اقتضت الظروف الاقلاع عن عادات أجداده السابقين .

وبدعى أن مثل هذه التطورات الدينية صحبتها تطورات صناعية فنية . وقد كان إخناتون كثير الاهتمام بالأخيرة ، واليك ترجمة ما أورده حفار جلالته المدعوبك (Bek) واصفا نفسه "بأنه تلقى علومه من جلالته الملك نفسه" (١) ومنه يتضح أن الحفارين الملكيين تعلموا فنهم على الأسلوب الحديث في القصر الملكي ، وقد ذكروا هذا معلنين افتخارهم به ، ولذلك بلغت الفنون الجميلة شأوا عظيما في مشابقتها للطبيعة بما لم يكن معهودا سابقا (شكل ١١٩ و ١٠٧ و ١٠٨) ، فترى الحيوانات مرسومة بمجالاتها الطبيعية الوقتية فالكلب عايد والطير محلق في الجو والثور الوحشي عائم في المستنقعات (شكل ١٤٤) مما كان يتمشى مع عقيدة إخناتون في حقيقة الطبيعة وصوابها . ولم يستثن من ذلك التغير في الرسم جلالته الملك نفسه فقد رسم جلالته على الآثار حاليا من الكلفة الفرعونية القديمة محافظا على حالته الطبيعية الحقيقية (شكل ١٤١ و ١٤٢) حتى ينحلي الى الناظر في تلك الرسوم لأول وهلة أنه أمام رسوم من العصر اليوناني (شكل ١٤٢) . ولم تقتصر هذه الحرية على رسم شخص واحد بل تعدته الى عدة أشخاص في مجموعة واحدة لأول مرة في تاريخ الفنون الجميلة المصرية . وقد عثرنا على قطع حجرية بقصر إخناتون بتل العمارنة مرسوم عليها جلالته راكبا عجلته مطاردا أسدا جريحا وهي خطوة صادقة جديدة لم تعرف سابقا في فن الرسم لكنها لم تدم طويلا فقد انعدمت من الوجود بسرعة بعد ذلك العهد . وهناك بعض نقط في رسوم تلك العصور لا تزال غامضة لنا من بعض الوجوه فقد رسمت الأطراف السفلى مثلا متضخمة بهيئة مخصوصة غامضة المعنى ، وقد فسر ذلك بعض الأثريين بأن إخناتون كان مصابا بعاهاات جسمية كالمرسومة على الآثار ، لكن هذا التفسير لا يوضح جميع أسرار النقط الغامضة . ولا يبعد أن يكون هذا التغير الجسمي المشاهد في إخناتون نتيجة مرض ظهرت أعراضه عليه من جراء الانهماك في أمور الدولة السياسية . وسنتكلم الآن على نتيجة التطور الفكري الذي أحدثته إخناتون في دولته وعلى الرزايا والمصائب التي حلت بالقطر من أجل الاقلاع عن القوانين النافذة القديمة والتقاليد التاريخية العريقة .

الفصل التاسع عشر

سقوط إخناتون وتفكك عرى الإمبراطورية

لشد ما شغل إخناتون بالأمور الدينية والفلسفية مقاوما نفوذ كهنة آمون القوى على توالى الزمن ، ثم أدركه العجز عن ممارسة شؤون دولته الخارجية وتقدير التبعة الملقاة على عاتقه ، والظاهر أنه لم يتحقق خطورة مركزه السياسى إلا بعد فوات الفرصة . وتفصيل ذلك أنه لما اعتلى عرش مصر اعترفت مملكة الحيثيين وممالك وادى الفرات بسلطة مصر على آسيا ، فأرسل دشراتا ملك أرض متانى خطابا الى والدته إخناتون المدعوة تى طلب فيه منها أن تؤثر فى إخناتون ليحافظ على العلاقات الودية مع متانى كما فعل والده أمنحتب الثالث من قبل ^(١) . وأرسل دشراتا فى الوقت نفسه الى إخناتون خطابا عزاه فيه بمناسبة وفاة والده أمنحتب الثالث ، راجيا فيه أيضا أن يرسل له مقدارا عظيما من الذهب كالمعادة المتبعة ^(٢) . وقد أرسل ملك بابل المدعو برابور ياش (Burraburyash) خطابا تعزية أيضا الى إخناتون لكننا لم نعثر عليه ، وكل ما اهتمينا اليه هو الاذن بالمرور المعطى لرسول بابل وفيه رجاء من بابل للملك كنعان بالسماح لحامله بسرعة المرور ببلادهم فى سيره نحو مصر ^(٣) . وكان لبرابور ياش نجل ^(٤) مقيم بقصر إخناتون الملكى اقترن بابنة جلالتة فأرسل حموها ملك بابل الى زوجة ابنه كريمة إخناتون هدية ملكية عبارة عن قلادة من الجواهر الثمينة يزيد عدد جواهرها على الألف ، وسرى فيما يلى أن هذا الزواج لم يدم طويلا .

فى تلك الأثناء كانت قوة الحيثيين تنمو وتشتد باطراد فى شمالي سوريا يؤيدها أهالى ذلك الاقليم تحت طلى الخلفاء . ولأن لم نعرف أصل الحيثيين بالضبط ولذلك لا يزال أصلهم موضع بحث وتمحيص بين علماء الآثار الشرقية . ويعتبر هذا العهد الذى نحن الآن بصددده أول عهد ظهرت فيه الأمة الحيثية فى تاريخ العالم المتمدن ، وقد عثر حديثا على آثار لهؤلاء القوم فى البلاد الممتدة من شاطئ آسيا الصغرى غربا الى نهر الفرات وسهول سوريا شرقا وحماة (Hamath) جنوبا . والمعروف أن هؤلاء القوم غير ساميين مجهولو الروابط العنصرية يرجع تاريخهم الى ما قبل الهجرة الهندية الجرمانية التى جابت معها العنصر الفاريجى (Phrygians) حوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد (راجع صحيفة ٣٢٢) . ويستنتج من الآثار المصرية أن الحيثيين قوم حلقوا لحاهم وضمفروا شعور رؤوسهم فكل ضفيرتان طويلتان مسبلتان أمام أذنيه ومرسلتان الى كفيه . أما آثارهم فتمثلهم بلحى كشيفة (شكل ١٤٦) لابسين على رؤوسهم مغفرة طويلة قصيرة الحافة . أما لباسهم لموافق لبرد

(١) خطابات تل العمارنة ٢٢ (٢) شرحه ٢١ (٣) شرحه ١٤ (٤) شرحه ١٥٨

بلادهم مصنوع من الصوف الكثيف وهو طويل ضيق ساتر للجسم من الكتفين حتى الركبتين وأحيانا الى الكعبين . ولوحظ أن هؤلاء القوم لبسوا أحذية طويلة بأقدامهم مدنية المقدم . والمعروف عنهم أنهم لم يبرعوا في حفر الأحجار لكننا عثرنا على كثير منها عظيم الفائدة مبعثرا على تلال آسيا الصغرى (شكل ١٤٥ و ١٤٦) . وأتقن الحيثيون بعض الصناعات المفيدة كصناعة الخزف وعلى الأخص النوع الأحمر المنقوش الذي انتشر استعماله في إقليم كبادوسيا (Cappadocia) الى بلاد اليونان غربا وبلاد فلسطين وسوريا شرقا ولاكش (Lachish) وجازر جنوبا . وقد بلغت هذه المصنوعات جهة جازر حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد . وامتاز الحيثيون بنحطهم الكتابي واهتمامهم به فكان ملوكهم يأخذون معهم كتابهم الخاصين في غدواتهم وروحاتهم^(١) ، وتوصل بعض الأثريين الى حل بعض رموز هذا الخط لكنه لا يزال مجهولا في معظمه . وفي الخطابات الرسمية كان هؤلاء القوم يستعملون لها الخط المسماى بالابل ولذلك يرجح أنهم استخدموا عندهم كتابة ومترجمين ماهرين في خط ولغة بابل . وقد عثر على كثير من آثار خيتا على شكل ألواح منقوشة بالخط المسماى جهة بوغاز كوى (Boghaz-Köi) وسيأتى الكلام عليها . واشتهر الحيثيون ببساتهم وعنادهم في الحرب ، وكانت مشاتهم تحوى الكثير من الأجانب المأجورين وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب والسيف والرمح وفي أغلب الأحيان بالبلط أيضا . وتتميزت هؤلاء القوم بتنظيم وحدات جيوشهم فتمكنوا من اعادة القتال وقت التحامهم بأعدائهم ، لكن أهم فرقهم كانت فرقة العجلات والسبب في ذلك أنهم أتقنوا صنع العجلات حتى فاقوا المصريين من حيث المتانة . زد على ذلك أن لكل عجلة ثلاثة رجال : سائق ومحارب بالقوس ومدافع بالدرع ، أما عجلة الحرب المصرية فكان تحوى سائقا ومحاربا فقط . ودلتنا آثار تحوتمس الثالث أن مملكة الحيثيين كانت مقسمة سابقا الى عدة امارات وأن احدى هذه الامارات قويت على سواها فلقبها تحوتمس "بالمملكة الحيثية الكبرى" وكانت عاصمتها مدينة خاتى (Khatti) التي كشفت حوالى عام ١٩٠٧ تحت أبنية مدينة بوغاز كوى الحديثة الواقعة شرقي أنقرة وشرقي نهر هاليس المعروف باسم كسل إرمالك بآسيا الصغرى الشرقية . وقد عثر على آثار أثبتت وجود علاقات تجارية بين الامبراطورية المصرية ومملكة الحيثيين حوالى ذلك الوقت أو بعده بقليل^(٢) ولما عظمت هذه العلاقة بين المملكتين خاف ملك قبرص على مركزه التجارى أن يتضعضع^(٣) . والمعروف أنه لما جالس إخناتون على عرش مصر أرسل سبلل (Seplel) ملك الحيثيين تهنة له على منصبه السامى ، واستدل من لغة هذا الخطاب وأسلوبه أن العلاقة بين مملكة الحيثيين والامبراطورية المصرية كانت حسنة^(٤) . لذلك يرجح أن الغارات الأولى التي صدّها دشارنا ملك متانى لم تحصل بعلم ملك الحيثيين ، خصوصا وأن هذا الأخير أرسل هدايا عظيمة الى إخناتون بعد انتقاله الى مدينة آخت آتون بجهة تل الهارنة^(٥) . والظاهر أن إخناتون لم يهتم كثيرا بعلاقاته الودية مع هؤلاء القوم بدليل ما جاء بخطاب ملك الحيثيين لإخناتون يسأله فيه عن سبب قطع الخطابات والمراسلات

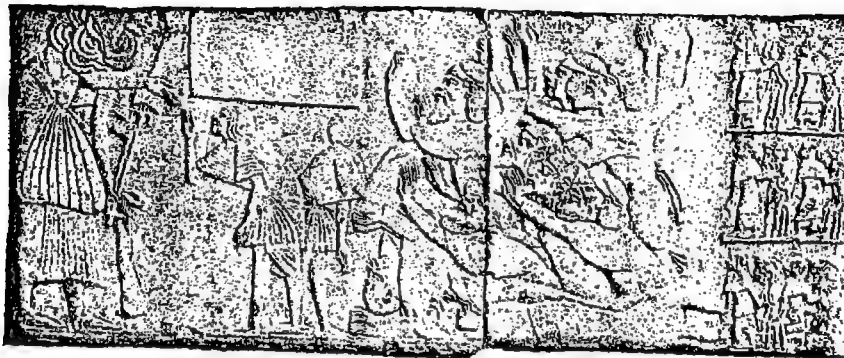
(١) ٣٣٧ : ٣ (٢) خطابات تل الهارنة ٣٥ (٣) شرحه ٤٩٠٢٥ ملاحظة (٤) شرحه ٣٥ (٥) ٢ : ٩٨١



شکل ۱۴۶ - ملک خیتی قابض علی رخ وصورلمان
رسم بارز وجد بجهت سنجرل شمالی سوویا
(دار تحف برلین)



شکل ۱۴۵ - جندی حیثی مسلح
بیلطه - رسم بارز وجد بجهت سنجرل
بشالی سوویا (دار تحف برلین)



شکل ۱۴۷ - مؤلف مصری یقایل مهاجرین سامین • رسم بارز فی مقبره حور عجب
(دار تحف لیدن)

الودية التي كان أمنتب الثالث يهتم بها كثيرا^(١) ولا غرابة في ذلك فان إخناتون كان على يقين من أن مملكة الحيثيين عدوه اللدود وأقوى ند للامبراطورية المصرية على حدود سوريا الشمالية . ولا يحتمل أن إخناتون كان قادرا على مقاومة التيار الحيثي الشديد المتدفق ببلاد سوريا من آسيا الصغرى ، وعلى كل حال فانه لم يقيم بأقل مجهود في هذه السبيل . وبما زاد الطين بلة أنه لما ولي إخناتون الملك أخذ أهالي آسيا يشقون عصا الطاعة على ولاية مصر هناك بعد ما كان أمنتب الثالث كابجا جماعهم . واليك ترجمة خطاب أرسله أحد الولاة المصريين بتلك الجهات الى إخناتون متأخرا يظهر حقيقة الحال وخطورة المركز :

”حقيقة أن والدك لم يطف ولم يتفقد أراضي هؤلاء الأمراء . . . فلما اعتليت عرش والدك وضع أبناء الملك أبداشيرتا (Abdashirta) أيديهم على أرض جلالتك منضمين الى ملوك متافى وبابل وخيتا“^(٢) .

بعد ذلك انضم ولاية مصر العصابة الى أبداشيرتا وابنه أزيرو (Aziru) حاكم مقاطعة آمورية (Amorite) بأعلى نهر الأورونط (العاصي) . وفي الوقت نفسه قام وال سورى يدعى إناكاما (Itakama) فاستولى على كدش وأعلن استقلاله عن مصر . فتبع ذلك استيلاء الحيثيين على إقليم أمكي (Amki) القريب من شمالى أعلى نهر الأورونط فيما بين أنطاquia وبلاد الأمانوس (Amanos)^(٣) . عند ذلك قام ثلاثة ولاية محلصين لفرعون مصر وجمعوا قوة حربية ساروا بها نحو العصابة لاختضاعهم فقابلهم إناكاما في قوته الحثية وهزمهم ، فأرسل هؤلاء الأمراء الثلاثة خبرا سريعا الى إخناتون شاكين له سوء تصرف إناكاما^(٤) . بعد ذلك قام والى أمور المدعو أزيرو فاستولى على بلاد فينقيا وساحل سوريا الشمال حتى وصل الى مدينة أوجاريت (Ugarit) عند مصب نهر الأورونط^(٥) فقتل حكامها واستولى على خيراتها^(٦) أما صميره (Simyra) — بطرون؟ — وبيلوس (جبيل) فقد قاوما أزيرو ولما استولى الحيثيون على — نوحاشي (حلب)؟ — بأعلى نهر الأورونط استولى أزيرو على مدينة نى على نهر الفرات وقتل حاكمها^(٧) . عند ذلك أصبحت ثونب (بعلبك؟) في خطر الوقوع بأيدي الأعداء ولذلك أرسل سراتها خطابا مؤثرا الى إخناتون طلبوا فيه النجدة هذا ترجمته :

”الى ملك مصر سيدنا . من أهالى ثونب (بعلبك؟) خدمك . عليك تكون بصحة وعافية . نحن كلنا نسجد تحت قدميك . سيدى . ! مدينة ثونب تتسأل الآن قائلة : لم يجرؤ أحد على سلب ثونب في عهد تحتمس الثالث دون أن يسلبه ذلك الملك . ألا فيعلم سيدنا ملك مصر أن معبودات مصر لا تزال بثونب ويمكن جلالتك أن تتأكد صدق ذلك من كبار قومك . لقد أوشكنا نفصل من مملكة سيدنا ملك مصر . . . اذا تأخرعنا وصول الجنود والعجلات من مصر . ان أزيرو سيعامانا كما عامل مدينة نى وحيثئذ يعمننا الكدر كما يصيب جلالة ملك مصر الأسى

(١) خطابات تل العمارنة ١٤٠٣٥ ملاحظة (٢) شرحه ٨٨ (٣) شرحه ١٢٥ و ١٢٥ (٤) شرحه ١٣١ و ١٣٣ (٥) شرحه ١٢٣ (٦) شرحه ١١٩ و ٨٦ (٧) شرحه ١٢٠

لما يأتيه أزيرو . ان هذا الأخير سيرفع يده في المستقبل ليقا تل قوات جلالة سيدنا . اذا دخل أزيرو بلدة صميرة (بطرون ؟) يفعل بنا ما يشاء ونحن في بلاد جلالة الملك سيدنا . حيثئذ يندم جلالة الملك على ذلك كثيرا . أن ثونب (بعلبك ؟) تبكى ياسيدى بكاء مرا ولا مغيث لها . لقد ثابروا على ارسال المخاطبات لسيدنا ملك مصر مدة عشرين سنة فلم تصل إلينا منه كلمة واحدة^(١) . بعد ذلك حشد أزيرو جيوشه بسرعة واستولى على صميرة (بطرون ؟) فسلمت له ثونب (بعلبك ؟) على أثر ذلك نهائيا .

في أثناء هذه الثورة العظمى كتب رب أدى (Rib-Addi) والى بيلوس (جيبيل) المخلص لفرعون مصر خطابا وصف فيه حالة البلاد الأسبوية المحزنة وما وصلت إليه من العصفان ، راجيا مساعدته السريعة ليتمكن من طرد أزيرو من صميرة لأنه كان متأكدا أن سقوط هذه المدينة يعنى حتما سقوط بيلوس^(٢) . وقد ألمعنا سابقا الى وجود معبد مصرى بمدينة بيلوس . لكن إخناتون لم يرسل المساعدة فأخذت الحالة تسوء والولاية يتعادون في عصيانهم على مصر ، فلم زمريدا (Zimrida) والى صيدون (صيدة) بلده الى جنود أزيرو^(٣) بعد ما تحالف معه على الاستيلاء على بلدة صور (Tyre) بشرط اقتسام خيراتها . عند ذلك أرسل أبى ملكى (Abi-Milki) والى صور يسأل ملك مصر التجدة بسرعة^(٤) . والغريب أن ولاية سوريا المصرين لم يسألوا من إخناتون الا قليلا من المدد ويظهر أن هذا كان كافيا لاحتداد الثورة وقتئذ لولا وجود الحيثيين وتحريكهم للفتنة طى الخفاء ، لذلك عجبت الجنود اليسيرة التى ظن أنها كافية أولا عن مكافحة الخطر . بعد ذلك وردت الأخبار بأن أزيرو استولى على الحصون الخارجية لمدينة صميرة فأرسل رب أدى (Rib-Addi) خطابا الى إخناتون ألح فيه بطالب إرسال المساعدة بسرعة^(٥) وذكر أنه ذاق المر من غارات الآموريين خمس سنوات منذ عهد أمنتحتب الثالث . فعهد إخناتون الى عدة رسل مصرية في اجراء التحقيق في حالة صميرة وكان ذلك بلا جدوى لأن المدينة سقطت في آخر الأمر في أيدي الأعداء ، وسرعان ما قتل أزيرو والى صميرة المصرى فى قصره^(٦) وأتلف القصر أيضا ثم زحف بجنوده على بيلوس . فأرسل رب أدى الى إخناتون خطابا سرد له فيه هذه الحوادث الفظيعة معلنا إياه بأن مركز الالى المصرى فى كوميدى (Kumidi) شمالي فلسطين أصبح فى خطر^(٧) . أما أزيرو فكان رجلا ماكرا استعمل بعض رجال حاشية فرعون لأغراضه بأسيا كما يستنتج من خطابه الذى أرسله الى توتو (Tutu) أحد موظفى القصر المائكى ملتصا فيه أن يستغفر له فرعون عن ذنبه^(٨) ومتظاهرا فى الوقت نفسه بالطاعة للوالى المصرى المدعو (Khai) خاى المجاور له بأسيا^(٩) . ولم يكتف أزيرو بذلك بل ذر الرماد فى عينى إخناتون إذ بعث إليه بخطاب كله كذب ورياء ادعى فيه أنه لا يمكنه الحضور الى قصر فرعون مصر لسرد الحقيقة عن نفسه على حسب الأمر الفرعونى لأن الحيثيين استولوا على مدينة نوخاشى (حلب) وأنه يخشى على ثونب

(١) شرحه ٤١ (٢) راجع هذا الكتاب صحيفة ٢١٣ (٣) شرحه ١٥٠ (٤) شرحه ١٥١ (٥) شرحه ٨٥

(٦) شرحه ١١٩ و ١٢٠ (٧) شرحه ٩٤ (٨) شرحه ٤٤ - ٥ (٩) شرحه ٤٦



خريطة رقم ٧ - امبراطورية مصر وآسيا

(بعلبك ؟) أن تسقط في يد الأعداء^(١) . وقد ألمعنا سابقا الى ما كانت تخشاه ثونب من حضور أزيرو الى حلب . ولما أرسل إخناتون الى أزيرو أمرا باصلاح كل ما حطمه بمدينة صميرة (بطرون ؟) رد هذا عليه قائلا انه أتلف هذه المدينة (صميرة) ليمنع وقوعها في أيدي الحيثيين وأنه في حالة ضيق شديد لحماية بلاد فرعون في نوخاشي (حلب) ضد الحيثيين أيضا ومع ذلك فانه سيقوم بالترميمات المطلوبة في خلال سنة^(٢) . بعد ذلك وردت على إخناتون رسائل مؤكدة بأن البلاد التي استولى عليها أزيرو ستدفع الجزية نفسها التي كانت تدفعها لمصر من قبل^(٣) . مثل هذه المراسلات الرسمية التي تعترف بسيادة فرعون على سوريا وفلسطين طمأنت طبعا خاطر إخناتون قليلا على خطورة الحالة مع أن الحقيقة على نقيض هذا بالمرّة ، وعليه أرسل إخناتون خطابا الى أزيرو يسمح له بالانتظار سنة ليتم اصلاح صميرة على حسب طلبه ، لكن أزيرو تجنب مقابلة رسول إخناتون المدعو خاني (Khani) فاضطر الرسول أن يرجع خطاب فرعون ثانيا الى مصر دون تسليمه لأزيرو^(٤) . وهذه الحوادث تثبت لنا شدة تساهل إخناتون ومسالته بعكس ما كان لأجداده من الصلابة والبطش . بعد ذلك أرسل أزيرو الى إخناتون خطابا اعتذر فيه عن عدم إمكانه مقابلة رسوله قائلا انه كان مشغولا في حملة ضد الحيثيين في الشمال وأنه أسرع بكل قدرته لمقابلة الرسول حالما سمع بوصوله لكنه وجده رجع ثانيا الى مصر ! وقد اعتذر كعادته أيضا عن عدم إمكانه اصلاح صميرة في المدة التي عينها الملك^(٥) .

في كل هذه المدة كان رب أدى والى بيلوس يعمل كل ما في وسعه لمقاومة أزيرو ويرسل الى فرعون مصر الخطاب تلو الخطاب طالبا النجدة ضد أزيرو المذكور . والحق يقال ان الرسائل التي كانت ترد على القصر الفرعوني من ولاية سوريا وفلسطين كانت غامضة المعنى كثيرا يتعسر على قارئها تمييز الولاية المخلصين لفرعون من العاصيين عليه في الخلفاء . خذ مثلا ما حصل من سوء التفاهم وقتئذ فقد أرسل بيخورو (Bikhuru) والى الجليلي (Galilee) قوة بدوية قتلت كل رجال رب أدى ظنا منه أن هذا الأخير كان عاصيا على فرعون في حين أنه في الحقيقة كان من أصدق ولاته وأنهم على أرض مصر . لذلك أصبح رب أدى في حالة يرثى لها يتهدد الضنك والذل ، فأرسل الى إخناتون رسالتين وصف فيهما حالته المحزنة وطلب المساعدة^(٦) قائلا ان أهالي بيلوس ناروا عليه^(٧) لأن مندوب الملك هناك تصرف تصرفا معيبا في اتحاد الثورة وأنه (رب أدى) قاوم حصار بلده ثلاث سنوات وقد أصبح الآن مسنا ومثقل الكاهل بالمرض^(٨) . بعد ذلك فزرب أدى الى بيروت ليحضر من واليها النجدة فلما رجع الى بيلوس وجدها مغلقة ووجد أخاه اغتم فرصة غيابه فاعتصب مركزه وسلم عياله الى أزيرو^(٩) . ثم سقطت بيروت في يد الأعداء وتمكن رب أدى على أثر ذلك من الرجوع ثانيا الى بيلوس والاستيلاء على منصة الحكم فيها^(١٠) . واتضح لنا بعد ذلك أن أزيرو

(١) شرحه ٤٥ و ٤٧ (٢) شرحه ٢٦ و ٢٧ و ٣٤ (٣) شرحه ٤٩ و ٣٦ و ٤٠ (٤) شرحه ٥٠

(٥) شرحه ٥١ (٦) شرحه ٧٧ و ١٠٠ (٧) شرحه ١٠٠ (٨) شرحه ٧١ و ٢٣ (٩) شرحه ٩٦

(١٠) شرحه ٦٥ و ٦٧



شكل ١٤٨ - صورة لـ هورمحب (Harmhab) تملكه موظفا يكافئ الملك بالذهب . مأخوذة عن مقبرة هورمحب ويقع الملك في الرسم خارج الصورة الى اليمين . ويشاهد في الصورة خدم هورمحب يضعون القلائد حول عنقه وعدم آخرون يحضرون قلائد أخرى الى الشمال . ويرى بالجزء الأيسر الرسم أسرى سور يورن يحرقون حرم مصري ليقتلهم هورمحب بإزالة الملك ، ولا يبدو أن يكون الاحتفال من أجل ذلك . ويشاهد تكتلة هذا الرسم في الجهة اليسرى في شكل ١١٩ بهذا الكتاب (دار تحف لبنان)

ذهب الى مصر واضطر أن يذهب أمام إخناتون لكنه مع ذلك لم ترد على رب أدى أقل مساعدة من مصر . في ذلك الوقت كانت بلاد الساحل الآسيوى كلها فى أيدى الأعداء وكانت سفنهم مهيمنة على البحار مانعة عنه الغذاء والمدد الحربى الآتين من مصر^(١) . وقد ألح على رب أدى زوجته وأعضاء أسرته أن يفعم عرى اتصاله مع مصر وينضم الى أزيرو لكنه استمر مواليا لفرعون وأرسل اليه خطابا طالبا ثمانية جندى ليسترد يروت وليستدر بها الرزق يسيرا^(٢) خصوصا وأن الحيثيين ينهبون إقليمه وبدو أزيرو يحشدون تحت أسوار مدينته (جيل)^(٣) . بعد ذلك لوحظ أن الرسائل التى كان يرسلها رب أدى الى إخناتون امتنع ورودها فاستتج من ذلك طبعا أن بيلوس سقطت فى أيدى الأعداء وأن رب أدى قتل على الأرجح كما قتل غيره من ولاة مصر هناك ، وقد انتهى بموته آخر ولاء مصرى فى شمالى مستعمرات مصر الآسيوية .

واستقل كذلك جنوبى مستعمرات مصر الآسيوية بسبب اشتعال نيران الاضطراب والثورة كالتى التهمت سوريا . وتفصيل ذلك أن بدو الخايرى (Khabiri) — وهم عراميون ساميون — قادوا الثورة كما فعل الحيثيون شمالا ، ولذلك لوحظ متطوعون منهم ضمن جنود ولاة فلسطين . وقد أبلغنا سابقا الى أن أزيرو أرسل بعض هؤلاء البدو ضد رب أدى ليقاتلوه بمجهة بيلوس ، لكن ذلك لم يمكن الولاة الموالين لفرعون أن يستخدموا البدو أنفسهم لأغراضهم أيضا . وجاء فى خطاب أرسله الولى الخائن إناكاما (Itakama) الى فرعون اتهم شنيع لولاة فرعون بفلسطين بأنهم سلموا كدش ودمشق الى بدو الخايرى^(٤) وبهذه الطريقة بسط هؤلاء البدو نفوذهم على فلسطين ، فأرسلت مجتدو وعسقلون وجازر رسائل الى فرعون مستنجدة ضد هؤلاء الثوار . ثم اتحدت جازر وعسقلون ضد أبدخيا (Abdkhiba) الولى المصرى بيت المقدس الحصن المنيع فأرسل هذا الولى الرسائل الكثيرة السريعة الى إخناتون مبينا الخطر راجيا المساعدة على صد بدو الخايرى ورؤسائهم^(٥) . وبلغت الثورة وسوء النظام وقتئذ درجة سرقت فيها قوافل الملك علنا تحت جدر أيالون (Ajalon)^(٦) واليك ترجمة خطاب والى بيت المقدس الى إخناتون :

”ستضيع جميع أرض جلالتك التى نارت على . أما إقليم شيرى (Seir) الواصل الى جنتى — كرمل (Ginti-Kirmil) فقد شق عصا الطاعة على وكذلك أمراؤه . لقد كانت سفن جلالتك الساعد القوى فى بسط سلطتك على بلاد النهرين وكدش ، أما الآن فقد احتل بدو الخايرى بلاد فرعون . ولم يبق لسيدى وال مطيع فالكل عصاة ليحترس الملك على قطائمه وبلاده وليرسل المدد لأنه اذا لم تصل جنود هذه السنة ذهبت ممتلكات جلالة فرعون سدى واذا تعمس ارسال جنود هذه السنة فليرسل جلالة فرعون ضابطا يلأزمى للحضور أنا واخوتى كي نموت مع سيدنا الملك“^(٧) . ويظهر أن أبدخيا كان صديقا لكاتب إخناتون الخبير بالخط المسمارى لأنه ذكر فى آخر خطابه حاشية هذا ترجمتها :

(٤) شرحه ١٤٦

(٣) شرحه ١٠٢ و ١٠٤

(٢) شرحه ٦٨

(١) شرحه ١٠٤

(٧) خطابات تل العمارنة ١٨١

(٦) شرحه ١٨٠ و ٥٥ ملاحظة

(٥) شرحه ١٧٩ — ١٨٥

”الى كاتب سيدى الملك . أنا أبدخيا خادمك . أطاع جلالة سيدى فرعون على هذه الكلمات : ان جميع أراضى سيدى فرعون سائرة نحو الضياع“ (١) . وأخذ الفلسطينيون يهاجرون رعبا من فظائع بدو الخاييرى فتركوا بلادهم واعتصموا بالجبال ، والتجأ بعضهم الى مصر حيث وصفهم الضباط المصرى المنوط بهم بقوله :

”لقد أتلقت أمتعتهم وحطمت مدنهم وأحرقت حاصلاتهم وضرب الجوع أطنابه فى بلادهم وهم فوق الجبال كالأغنام ها قد جاء بعض الأسويين الذين لا يدرون كيف يعيشون . لقد أتوا طالبين مأوى عند فرعون ؟ كما حصل أيام آباء آبائك من قديم الزمان ها قد عهد اليك فرعون فى حمايتهم لتحمى حدود بلادهم“ (٢) (شكل ١٤٧) .

ولقد كانت مشكلة هؤلاء الضباط الذين عهد اليهم إختاطون فى حلها مستحيلة ، لأن الضباط ينجوروا (Bikhuru) الذى أوفد لإرجاع النظام واخضاع بدو الخاييرى عجز عن القيام بمهمته . وقد ألعنا سابقا الى أنه أساء فهم حقائق الأمور هناك فأرسل قوة لمحاربة رب أدى أخلص ولاية فرعون . وقد تقدم ينجوروا أولا شمالا حتى وصل الى مدينة كوميدى (Kumidi) شمالى الجليل (Galilee) ثم اضطر أن يتقهقر ثانيا كما ظن (رب أدى) (٣) . ثم بلغ هذا الضابط بيت المقدس الا أنه اضطر بعد ذلك أن يتقهقر الى غزة (٤) والغالب أنه أعدم فى آخر الأمر (٥) . وبهذه الكيفية خرجت معظم سوريا وفلسطين من أيدى المصريين ، وقد يئس ولاية مصر فى جنوبى فلسطين من علاج الحالة والاحتفاظ بنفوذ فرعون فقتل بعضهم وانضم الباقون الى الأعداء . ثم زادت الاضطرابات فاعتدى على قوافل ملك بابل المدعو برايور ياش (Burraburyash) نهبا ملك عكا (Akko) وأحد جيرانه . فكتب برايور ياش مسرعا الى إختاطون راجيا تعويض ما لحق قافلته من الخسارة ومعاقبة الخيانة ليستتب الأمن ، والا تصبح تجارته مع مصر معرضة دائما لمثل هذه الأخطار (٦) . وقد حصل ذلك بالفعل لأن المستعمرات المصرية بآسيا ضاعت عن آخرها فى تلك الأزمنة .

لقد قام ولاية إختاطون المخلصون بسوريا وفلسطين بما يقتضيه واجبهم بانذاره بالخطر المحدق بمستعمراته الأسوية ، فأرسلوا له الخطابات الكثيرة والرسل المخصوصة والأبناء والاخوة ليظهروا له حقيقة الخطر الداهم ، لكن إختاطون لم يظهر ما يجب من الاهتمام حتى أنه كان يحجم عن الرد عليهم أو يرسل مددا ضعيفا بقيادة ضابط مصرى ، وأخيرا عجزوا عن مكالفة الخطر الحربى ذلك الخطر الذى كان يستدعى ذهاب إختاطون شخصيا مصحوبا بكل قوى الامبراطورية المصرية . والغريب أنه فى ذلك الوقت العصيب كانت معابد آخت آتون تدوى بالدعوات والصلوات لآتون إله الامبراطورية . وجاء أنه فى السنة الثانية عشرة من حكم إختاطون أقيم احتفال نغم كالمعتاد ، تسلم جلالة الملك فيه جزية مستعمراته فى آخت آتون وهو محمول فى هودجه فوق أَدَاف

(١) شرحه ١٧٩ (٢) ١١ : ٣ (٣) خطابات تل العمارنة ٩٤ (٤) شرحه ١٨٢ (٥) شرحه ٩٧ (٦) خطابات تل العمارنة ١١

ثمانية عشر جندياً^(١) . وللاحظ أن أمراء آسيا كانوا دائماً يفكرون وبذكرون الغزوات والحملات المصرية السابقة التي قام بها أجداد إخناتون حتى بعد انفصالهم من مصر . لذلك كتب هؤلاء الأمراء الرسائل اليسيرة الى إخناتون مؤكدين له ولاءهم وخضوعهم اسماً فتخيل جلالتهم أن مستعمراته الآسيوية لم تزل كما كانت عليه ، والحقيقة أن ذلك كله لم يكن الا من طريق ذر الرماد في العيون . بعد ذلك أخذ الخطر يهدد قصر إخناتون نفسه بدرجة لا تقبل في الشدة عن الزوبعة التي عصفت بمستعمراته الآسيوية ، لكنه ثبت لها وقاومها واستمر ينشر عقيدته الجديدة بكل جهده ، فأكثر من معابد آتون بسائر أنحاء البلاد فشيّد علاوة على المعبد العظيم بطيبة ثلاثة معابد أخرى على الأقل في مدينتي آخت آتون وجم آتون ببلاد النوبة ومعابد أخرى بمدينة عين شمس ومنف والأشمونين وأرمنت والقيوم^(٢) . واهتم كثيراً بتحسين الصلوات بالمعابد وابداع التوسلات القديمة لأجل معبوده آتون ، فغير في صفات معبوده الذي وصفه أولاً "بحرارة الشمس" قائلاً عنه انه "النار المنبعثة من آتون" فتجتم عن ذلك أن كمين النار الذي أحدثته هذه التغيرات الدينية العظيمة استمر يتأجج خفية في البلاد . وتفصيل ذلك أن عقيدة آتون غيرت كثيراً من عقائد القوم القديمة المحبوبة لديهم وعلى الأخص الجزء المختص منها بالحياة الأخروية ، فبعد أن كان الناس يعتقدون بدفاع أزوريس رافة بهم في الآخرة ويستعملون لذلك الوسائل السحرية للوقاية من الأعداء العديدين وقتئذ أصبح اتباع هذا الاعتقاد محظوراً . ثم اجتهد بعضهم في وضع آتون في مركز الآلهة المصرية القديمة لكنهم لم يفلحوا لأن عقيدة إخناتون فلسفية منطقية عارية عن الخرافات والخرعبلات التي اعتادها القوم ، مثال ذلك نسبتهم معبوداتهم الى بعض النبات أو عين ماء الخ . لهذا كله تعسر على القوم ادراك أسرار عقيدة إخناتون السامية ، وثاية ما وصلوا اليه أن هذا الملك أبطل عبادة معبوداتهم القديمة واستبدل بها معبوداً جديداً صعب عليهم تصوّره أو معرفته . وبديهي أن مثل هذا التغير الديني لا يدوم طويلاً في بلاد كصر . وقد حصل مثل ذلك أيام ثيودوسيوس (Theodosius) لما حاول ابطال عبادة الأصنام بمصر واستبدل بها النصرانية بعد وفاة إخناتون بألف وثمانمائة سنة تقريباً ، ولما غاب ثيودوسيوس عكف المصريون ثانياً على عبادة أصنامهم بعدة قرون وعلى الأخص أهالي الوجه القبلي . ويتضح من ذلك أن حياة شخص واحد لا تكفي لمناوأة بعقيدة متأصلة في النفوس وإحلال غيرها مكانها ، وعليه فقد كانت عقيدة إخناتون قليلة الانتشار بأعناق الامبراطورية المصرية ومقصورة على إخناتون نفسه وحزبه ، بفناء هذا على تقيض ما صبت إليه نفس هذا الملك وطعم هو فيه .

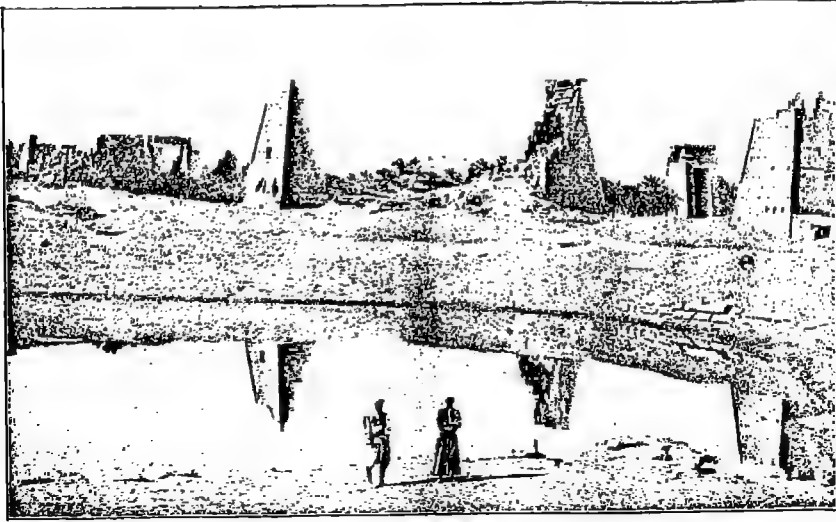
وبما زاد في خطورة الحفاء السري في نفوس الأهالي نحو مذهب إخناتون بغض كهنة آمون الشديد له أيضاً ، وهذا كما لا يخفى عامل قوى لا يستهان به لاسيما أن هؤلاء الكهنة أصبحوا يرون معابدهم الثمانية بطييه مهجورة ومقفلة وأوقاف معبودهم بسوريا وفلسطين في يد الحكومة ومُسندة

(١) ١٠١٤: ٢ — ١٥

(٢) ١٠١٧: ٢ — ١٨ وأيضاً ملاحظاتي بمجلة Zeitschrift für Ägyptische Sprache, 40, 110-113

الى آتون غالبا . لذلك كانت مدة حكم إخناتون غاصة بمشاحنات ومؤامرات سرية وجهرية من مكاييد الكهنة نلخع هذا الملك . ثم ان خسارة مستعمرات مصر الآسيوية قوت حزب الكهنة ضد الملك وسببت انفصال الرجال الأقوياء عن إخناتون والانضمام الى كهنة آمون . ثم زاد البغض في نفوس الأهالى الذين خدم أجدادهم في البلاد الآسيوية تحت لواء تحوتمس الثالث خصوصا وأن ذكرى انتصارات وغنائم تحوتمس المذكور كانت كافية لاثارة حزازات الحزب الحربى الامبراطورى ضد إخناتون وتحريضهم على عزل هذا الملك واستناد الملك الى كفء لممارسة الحالة واسترداد ما فقدته البلاد . نعم ان إخناتون عين قوادا حريين لقيادة جيشه ومكافحة الحالة كما ألعنا سابقا، لكن عقيدة هذا الملك السلمية كانت عقبة كئودا أمام الأخصاء لصعوبة فهمها وأمام العامة لكراهيتهم لها . وقد وجد بين ضباط إخناتون قائد يدعى حورمحب (Harmhab) كان محبوبا لدى مليكه^(١) فاجتهد هذا القائد في ضم الحزب الحربى اليه وكذا كهنة آمون الذين كانوا يتوقون الى وجود من ينفذ رغبتهم نحو إخناتون . وما ساعد على ذلك أيضا أن جميع الأهالى تألموا مما لحق عاداتهم وعقائدهم الدينية القديمة من الاهانة في عهد هذا الملك ولذا اشترك الأهالى والكهنة والحزب الحربى في عزل إخناتون الفيلسوف المذكور صاحب الآراء والعقيدة غير المفهومة لمعظم الناس . وما زاد الطين بلة أن إخناتون لم يرزق ولدا فعاوض صهره المدعو سا كرع (Sakere) زوج ابنته المدعوة مريت آتون (Meritaton) ومعناه محبوبة آتون . والظاهر أن إخناتون لم يكن قوى البنية كما يستدل من نحافة وجهه وأعراض الاستسقاء البطنى — مرضان أصيب بهما لما قاساه من مسئوليات ومصاعب . وانتهى الأمر بجلوس سا كرع على عرش مصر واشتراكه هو وحموه في الملك . لكن إخناتون لم يدم طويلا ففى عام ١٣٥٨ قبل الميلاد أى بعد ما حكم البلاد سبع عشرة سنة تقريبا قام عليه الأهالى وعزلوه . ودفن هذا الملك في قبره الذى أعدّه لنفسه وألتراد أسرته في الوادى المنعزل الذى يبعد عن أخت آتون ببضعة أيام . وقد دفنت في هذا القبر أيضا كريمة إخناتون المدعوة مکت آتون (Meketaton) قبله بمدة^(٢) . ونقل أصدقاء هذا الملك تابوته الى طيبة بعد وفاته حيث عثر عليه حديثا بمقبرة الملكة تى والدته . وقد فخص الأستاذ اليوت سميث هيكل إخناتون العظمى (لأن التابوت المذكور لم يحو الا عظاما فقط) وقرر أن صاحبه توفى وهو فى سن ثلاثين سنة . لكن المعروف أنه حكم ست عشرة سنة على الأقل ! أما الأستاذ سيت (Sethe) فلا يوافق الأستاذ اليوت سميث في هذا الرأى . ويوجد تابوت هذا الملك العبقرى في دار التحف بالقاهرة وعليه نقوش تصف إخناتون بأنه ”الطفل الجميل لآتون الحى العائش الى الأزل والمتصف بالحق والعدالة فى السماء وفى الأرض“ (ماخوذة باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم للجامعة كمبردج صحيفة ١٢٧) .

وهكذا انتهى أمر شخص له فى تاريخ الشرق القديم استعداد غريب ، وقد لقبه بنو قومه بعد ذلك ”بجرحم أخت آتون“^(٣) . أما نحن فمع لومنا له على تعصبه الدينى الشديد فى نشر عقيدته ومحو



شكل ١٤٩ - صرح حورمحب: جنوبي الكرنك. وتُشاهد بحيرة الكرنك المقدسة بجزء الصورة الأسفل



شكل ١٥١ - الجزء الأعلى لتمثال خونسو.
يرجع تاريخه إلى آخر الأسرة الثامنة عشرة
أو أول الأسرة التاسعة عشرة
(دارمحف القاهرة)



شكل ١٥٠ - صورة تمثل حورمحب
بالدار الآخرة يقوم بفلاحة الأرض
مأخوذة عن مقبرته وفيها يشاهد أن
رسم الصل فوق الجنية حصل بعد الفراغ
من الرسم (دارمحف بولونيا)

اسم والده من الآثار وما نجم عن ذلك من ضياع مستعمرات مملكته لا تزال تذكره بأنه كان فقي شجاعا قابل صعوبات العقائد القديمة بعزيمة صادقة فامتاز بذلك عن سائر الفراعنة الرجعيين ، كل ذلك رغبة منه في نشر تعاليمه العالية التي نبت عن ادراكها عقول الأهلالي . ولم يظهر في العالم من مثله بعده الا لما انقضى على وفاته نحو ثمانمائة سنة وذلك بين بنى اسرائيل . لكن هذا لا يمنع عصرنا هذا من تقدير قيمة إخناتون حق قدرها لعبقريته وجرأته في نشر آرائه الفلسفية الباهرة في عصر صحيح وفي أحوال سيئة لقي من أجلها الخسارتين خسارة جسمه وخسارة ملكه .

أما ساكرع فلم يكن كفئا لإدارة شؤون الدولة ولذلك لم يدم على العرش طويلا . وكل ما عرف عن حكمه أنه عاش مدة يسيرة غامضة في مدينة أخت آتون ثم تبعه في الحكم توت عنخ آتون — ومعناه النائب الحى لآتون — وهو صهر ثان لإخناتون تزوج بكرمته الثانية المدعوة عنخ سنپ آتون (Enkhsnepaaton) ومعناه العائشة بنفوذ آتون . وفي عهد هذا الملك قوى نفوذ كهنة آمون كثيرا حتى اضطروا أن يهجر آتون عاصمة حيه بعد مدة من الزمن وأن ينضم الى الكهنة وينتقل بجاشيته الى طيبة التي استمرت مهجورة من عطف الفراعنة عشرين سنة تقريبا . أما أخت آتون فاستمرت مدة يسيرة بعد ذلك ثم هجرت هي وقصرها الملكي حتى لم يبق في شوارعها شخص واحد ، فصعدت أسقف منازلها وتهدمت جدر عماراتها ، ثم أتى حزب طيبة فهدمها كلها انتقاما وتشفيا كما سيتضح للقارئ فيما بعد . وهكذا أضحت مدينة آتون الجميلة قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، وهي تعرف الآن بتل العارنة ولا تزال باقية كما تركها عدواؤها الألدان — الزمن وكهنة آمون ، وأصبح الانسان الآن يحول في شوارعها القديمة فيرى بعض جدرها بالنجا يضع الأقدام فتدور في غيلته غدوات وروحان أتباع آتون الأقدمين الذين عمروها من قبل . وقد عثر عام ١٨٨٥ ميلادية في هذه المدينة المهجورة على ثلثمائة خطاب ذكرنا بعضها عند الكلام على مراسلات ملوك وحكام آسيا وانهيار مستعمرات مصر الأسبوية ، ويوجد بين هذه المراسلات نحو ستين خطابا برسلة من الوالى التعس رب أدنى حاكم ببلوس ، وتعرف هذه المراسلات الآن بخطابات تل العارنة . والمعروف أن مدن آتون لم تدم طويلا بعد ذلك فقد لحقها التلف والدمار ما عدا مدينة جم آتون النوبية فقد استعمل معبدها فيما بعد لعبادة آمون فصار معروفا بعد ذلك باسم ”معبد آمون سيد جم آتون“ وهكذا حافظت أقصى مدن النوبة على أقدم معبد أقيم للتوحيد معروف للآن (١) .

ولما رجع توت عنخ آتون الى طيبة استمر يعبد آتون وقام ببعض الإصلاح بمعبد آتون هناك ، لكنه اضطروا في آخر الأمر أن يسمح لكهنة آمون بإعادة عبادة آمون واستعمال المواقيت القديمة بالأقصر والكرنك ، فافتتح بنفسه أكبر أعياد آمون المعروف ”بعبد أوت“ (Opet) ورمم معبده أيضا (٢) . وأجبرته الظروف بعد ذلك أن يصلح ما أتلغه إخناتون من محو اسم آمون من الآثار على طول البلاد

(١) راجع صحيفة ٣٤٠ ملاحظة (٣) (٢) راجع نقوش الأقصر البارزة وأيضا شرحه ٣٤ و ١٣٥

حتى مدينة صاب (Soleb) النوبة (١). ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل اضطُر أن يغير اسمه إلى توت عنخ آمون (Tutenkhamon) أى النائب الحى لآمون — تحت تأثير الكهنة طبعا — بفناء هذا برهانا ساطعا على اتياده لحزب كهنة آمون (٢).

والمعروف أن الامبراطورية التى حكمها توت عنخ آمون كانت لا تزال كبيرة تمتد من الدلتا شمالا إلى الشلال الرابع جنوبا . وقد كانت مستعمرة النوبة مصرية الصبغة وقتئذ فصار رؤساؤها يترىون بالزى المصرى الذى أدخله هناك تحوتمس الثالث (٣) . أما الثورة المصرية فلم تؤثر كثيرا فى النوبة لأنها استمرت تدفع الخراج سنويا لخزانة فرعون (٤) . وجاء ضمن نصوص مقبرة هوى (Huy) وإلى كوش وقتئذ ما يثبت ورود جزية إلى مصر من بلاد سوريا (٥) وربما كان هذا مبالغ فيه بالنسبة لما ورد فى خطابات تل العمارنة . والمعروف أن أحد خلفاء إخناتون حارب فى معركة حربية بآسيا ويظن أن هذا الخليفة هو توت عنخ آمون (٦) وعليه فيكون هذا الملك قد تمكن من إخضاع بعض بلاد فلسطين أو غنم بعض الغنائم منها على الأقل ، ولا يبعد أن تكون هذه البلاد التى استرجعت اعتبرت جزءا من سوريا من باب المبالغة كما أن الغنائم التى استولى عليها توت عنخ آمون احتسبت جزية .

ولم يعيش توت عنخ آمون طويلا فتبعه فى الملك الكاهن آى (Ay) القدير زوج مصرية إخناتون المدعوة تى (Tiye) ويقدر حكم توت عنخ آمون بست سنوات على الأقل ولا يحتمل أنه حكم أكثر من ذلك . وفى أكتوبر عام ١٩٢٢ كشف قبر هذا الملك حاويا لأثاثه الكامل تقريبا وبذلك جاء الاستكشاف الأول من نوعه فى علم الآثار . وبفحص محتويات القبر اتضح أنها ذات قيمة عظيمة لا تقدر وأنها تمثل ذلك التقدم الإخناتونى العظيم فى أمور المعيشة والديانة والفنون الجميلة . أما من الوجهة التاريخية فلم نجد بين تلك المحتويات ما يشير بطريق مباشر إلى أحوال البلاد السياسية فى تلك العصور المضطربة ، لكن لوحظ أن اللصوص دخلوا القبر بعد دفن صاحبه فيه بقليل وعليه فلا بد أن الأحوال وقتئذ كانت قليلة النظام وأن سياسة القطر الداخلية كانت مضطربة على الأقل ، والفضل فى كشف هذا القبر يرجع إلى المرحوم الإيرل كارنارفون والمستر هوارد كارت . وتعتبر محتويات هذا القبر أهم ما كشف إلى الآن فى عالم العاديات .

وعثر حديثا جهة بوغاز كوى — عاصمة الحيثيين بآسيا الصغرى — على عدة خطابات طينية منقوشة بالخط المسمارى تشير إلى الأحوال السياسية المصرية بعد وفاة توت عنخ آمون وقد أخذ الأستاذ زيس (Prof. Sayce) فى ترجمتها (Ancient Egypt, 1922, Part III, pp. 66-7) فوجد فى أحدها وصفا لأحد المعتمدين المصريين جاء عن ملكه أنه توفى حديثا وأن هذا الملك كان يدعى بب — خورو — ياس ، وأن ملكة مصر المدعوة دخامون أرسلت رسولا إلى القصر الحيثي

(٤) ٢ : ١٠٣٤ ملاحظة

(٣) ٢ : ١٠٣٥

(٢) ٢ : ١٠١٩

(١) ٢ : ٨٩٦

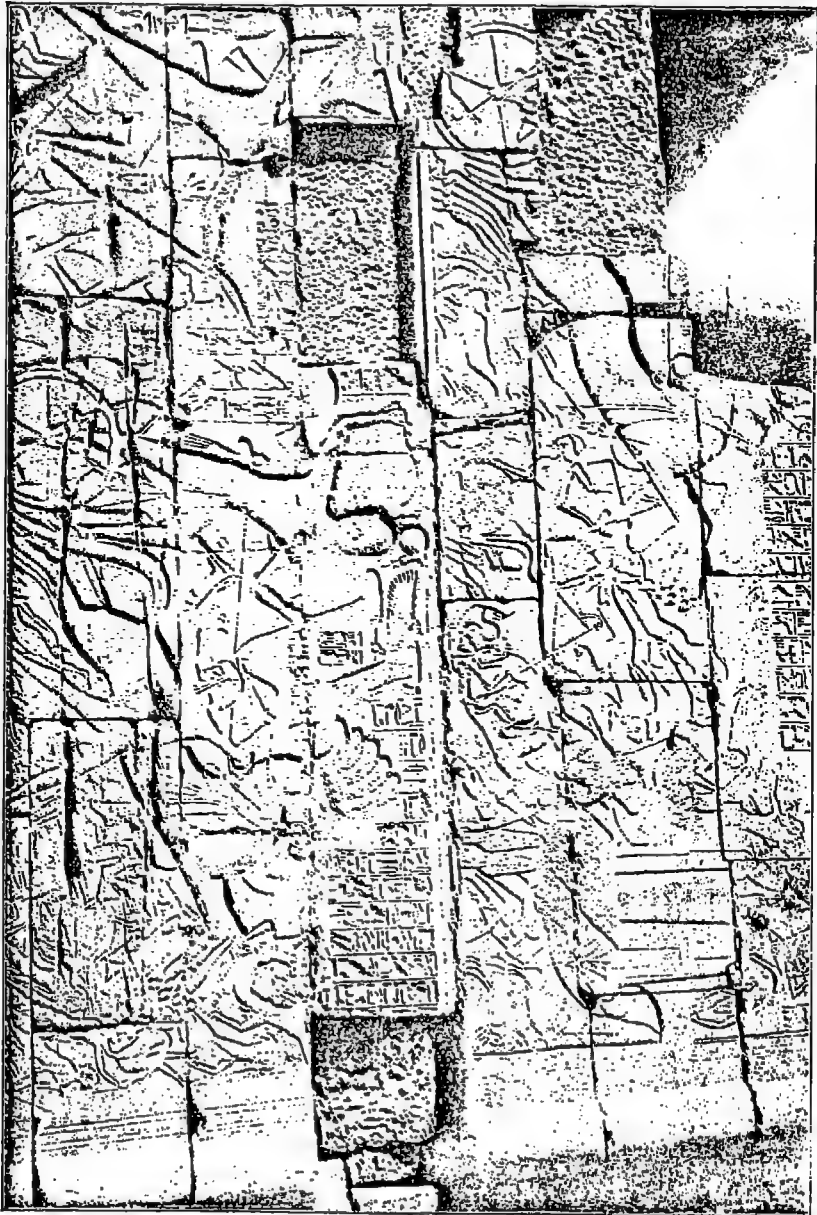
(٦) ٣ : ٢٠٢٠ : ٢ : ٨٥٠٢

(٥) ٢ : ١٠٢٧ ملاحظة

طالبة الاقتران به . ويرى الأستاذ زايس أن بب خوروياس هو توت عنخ آمون المدعو أيضا تب خپورع ، وأن دحامون هي زوجة هذا الملك المدعوة أيضا عنخس آمون ، لكن لم تثبت الآن صحة هذه المقارنة نظرا لقلّة معرفتنا للخط واللغة الحيثية ولذلك يحسن بنا أن نأخذ هذه الاستنتاجات بتحفظ (مأخوذ من دائرة معارف التاريخ القديم للجامعة كبرديج صحيفة ١٢٩ - ١٣٠ القسم المصري للأستاذ برستد، وأوردتها هنا باذن خاص من المؤلف). وقد شيد هذا الكاهن لنفسه قبرا في أخت آتون أخذنا منه مدحة آتون المذكورة سابقا. وقد كان هذا الملك متشعبا كثيرا بأراء إخناتون فشيّد بعض المباني بمعبد آتون بطيبة وبقى حافظا مركزه ضد كهنة آمون مدة من الزمن ثم ترك قبره في أخت آتون وحفر غيره بوادي مقابر الملوك بطيبة ، الا أنه لم يعيش طويلا فتوفي . والظاهر أنه اتبع في الملك بملكين قصيرى العمر لم يترك من الآثار ما يستحق الذكر ، ويقال انهما حكما قبله زمن والحقيقة أننا لا نزال نجعل تاريخهما بالضبط .

بعد ذلك قامت في البلاد حرب أهلية ف وقعت طيبة في أيدي اللصوص الذين نهبوا القبور الملكية . وقد عرفنا الآن أن مقبرة تحوتمس الرابع وقعت فريسة لهؤلاء الأثمة وقتئذ^(١) . وهكذا انهار صرح الأسرة الطيبية المالكة التي امتازت في العالم بعظمتها ووقارها مدة مائتين وخمسين سنة تقريبا ، فاليها ينسب حسن السياسة وإدارة الأمور وطرد الهيكلوس منذ مائتين وثلاثين سنة ثم انشاء أكبر امبراطورية شرقية قديمة معروفة في التاريخ . وكان آخر تاريخ لحكم هذه الأسرة الثامنة عشرة حوالى عام ١٣٥٠ قبل الميلاد . والظاهر أن عظم صيت هذه الأسرة لم يساعد ملوكها الضعاف على الاستمرار في الحكم ولذلك انتقل الحكم منها الى أسرة أخرى . قال مانيتو إن حورمب هو الذى أصلح أحوال المملكة المصرية في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة . ويظهر أن هذا الملك لم يكن ذا علاقة دموية بالأسرة الثامنة عشرة ، لذلك يحق لنا أن نعتبره مرجع عبادة آمون ونظام الحكم القديم ومبدئ العهد الجديد الذى سنتكلم عليه في الفصل التالى .

(١) ٣: ٣٢ ملاحظة (١)



شكل ١٥٢ - قورش بارزة على جدار الكرك على مركبة سيق الأول المصرية . ويرى في القسم الأسفل من النعال الملك سيق هنتك برئيس لوق .
 وفي القسم الأيمن صورة معركة مع الهريين . والجزء الأعلى يمثل الاستيلاء على كدش في جليلة Gathlee . ويشاهد جانب المروية السفلى رسم لولى العهد
 أضيف بعد الفراغ من الرسم الأصلي بقية وقد أوردنا رجا آخر له بشكل رقم ١٥٧

الكتاب السادس

الامبراطورية في عهدها الثاني

الفصل العشرون

انتصار آمون وتنظيم الامبراطورية

ظهر بين أتباع إخناتون رجل كفء ماهر إداري كثير الشبه بتختمس الثالث يدعى حورمحب (Harmhab) وينتمي الى أسرة عريقة من مدينة ألبسترونوبوليس (Alabastronopolis) وقد ألعنا الى هذا في آخر الفصل السابق^(١). وقد عهد لهذا الشخص بكثير من المأموريات المهمة فأنجزها بمهارة فائقة وكوفئ عليها بالعطايا الذهبية لخدمته الممتازة^(٢) (شكل ١٤٨). فن أعماله أنه ندب للعناية بمهاجرى آسيا الذين هربوا الى مصر من فظائع بدو الحاييرى^(٣) فأرسل رسلا الى تلك الجهات لإرجاع الأمن الى نصابه. ثم عهد اليه في جمع الجزية من النوبة في عهد إخناتون وخلفائه^(٤) فأظهر كعادته في كل مأمورياته همة ومقدرة عظيمتين. وقد أظهر حورمحب أيضا مهارة لما صحب أحد خلفاء إخناتون ويرجح أنه توت عنخ آمون^(٥) وقت حملته الحربية بآسيا. وحافظ على مركزه وشرفه في عهد خلفاء إخناتون الضعفاء وكان وقتئذ قائد الجيش العام ورئيس المستشارين الممكيين، فلعب نفسه "كبير الكبراء، وعظيم العظماء، ورئيس الأهالي الأكبر، ورسول الملك، ورئيس جيشه في الأقطار الجنوبية والشمالية، ومصطفى الملك والمشرف على ادارة القطرين لسيدها في حدود النظام، وقائد قواد سيد القطرين"^(٦). ولم يهمل أن انساني نخل مثل هذه الألقاب في أى عصر كان. ولم تتأكد بالضبط شخص الملك الذى تخدمه حورمحب بهذه الألقاب السامية والثابت أن نفوذ حورمحب جعله مسيطرا على مايكه وقتئذ، وكان في الحقيقة حاكم البلاد لأنه "عين بأمر ملكي ليكون رئيس المملكة ووزير العدالة للقطرين كأنه ولى عهد مصر لذلك كان مركزه لا ينازعه فيه أحد...". اذا دخل القصر الملكي سجد له المحجب عند المدخل الملكي، كما كان يستقبله رؤساء المستعمرات الأجنبية (الأقواس التسعة) والبلاد الجنوبية والشمالية، وكانوا يرفعون اليه أيديهم ويعظمونه ويحجلونه كآله... وأمور الامبراطورية تجري بأمره... اذا مر يقوم داخل الرعب نفوسهم فيدعون له بالصحة والعافية ويلقبونه بوالد القطرين"^(٧). واستمرت الحال كذلك عدة سنوات^(٨) حتى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد لما ولى هذا القائد العظيم الملك، وبدى أنه لم يكن ينقصه ساعد شئ لذلك سوى الألقاب والصفات الفرعونية، وكان مركزه الادارى متينا فكان حائرا لثقة الجيش وكهنة آمون بطيبة. من أجل ذلك كان اعتلائه العرش بطيبة سهلا جدا واليك ترجمة ما ذكره حورمحب نفسه :

(١) ٢٧: ٣ (١) (٢) ٩-٥: ٣ (٣) ١٢-١٠: ٣ (٤) ١٢: ٣ (٥) ٢٠: ٣ (٦) شرحه
(٨) ٢٦-٢٥: ٣ (٨) ٩٦١٢٦: ٣

”وبعد مضي أيام عدة أى بعد ما عين ابن حوريس الأكبر (أى حورعبد) رئيسا وولى عهد جميع الأراضى شاء حوريس (معبود البسترونوبوليس) العظيم أن يجعله على عرشه الأزلى فذهب حوريس فرحا الى طيبة محتضنا ابنه الى الكرنك ليقدمه لآمون كى يسند اليه الملك“ (١) .

ووافق وصوله عند ما احتفلت به كهنة طيبة عيد أوبت (Opet) الذى يحتفل فيه بنقل تمثال آمون من الكرنك الى الأقصر (٢) . حينئذ ظهر حورعبد فى الكرنك حيث أعاد له كهنة آمون حيلتهم التى دبروها لتحتوس الثالث وقد كان كل شىء جائزا لتنفيذ هذا المشروع . لكنه لما كان واجبا على كل فرعون أن يكون ذا حق شرعى فى عرش مصر ذهب حورعبد الى القصر الملكى وتزوج بالأمية موتنزم (Mutnezmet) أخت زوجة إخناتون المدعوة نفر-نفرو-آتون وذلك بعد ما خرج من الكرنك وولى فرعوننا وابنا لرع المعبود الشمسى . أما هذه الأميرة فكانت مسنة ورئيسة قسياسات آمون ومن أصل ملكى أيضا وكفى هذا كله لاثبات حق الملك لحورعبد (٣) وحصل هذا القران فكان فى القصر الملكى بالأقصر ولذلك نقل تمثال آمون الى القصر المذكور فاعتمد حورعبد ثانيا فرعوننا لمصر (٤) . بعد ذلك أعلن للآل لقب حورعبد الملكى (٥) وابتدأت حينئذ حياته الملكية .

ولا شك أن المهمة التى أوصلت حورعبد الى مركزه السامى كان لها أثر عظيم فى ادارة الامبراطورية ، فقد بذل كل جهده لارجاع النظام الى نصابه وترتيب الادارة جيدا . وقد لبث بطيبة حوالى شهرين نظم فى أثناءها الادارة وطمأن نفوس الكهنة باشتراكه معهم فى احتفالاتهم الدينية (٦) . ثم أبحر فى سفينة نيلية شمالا ليقوم بالعمل نفسه منظر الأراضى ومحددات إياها كما كانت زمن رع (٧) (أى لما كان رع فرعوننا على مصر) . واهتم كثيرا بالمعابد التى أقفلت فى عهد عبادة آتون فقد ورد عنه أنه طهر المعابد من مستنقعات الدلتا شمالا الى بلاد النوبة جنوبا وأصلح التماثيل وزاد فى عددها ومحاسنها وشيد معابدها وأقام مائة تمثال كاملة مليسة بالأحجار النفيسة . وحدد أراضى الآلهة المجاورة للمعابد ورتب لها المعابد كما فعل فى الأزمنة السابقة ونظم لها القرايين اليومية وعين لها كهنة ومساعدين وحامية من زهرة الجيش المصرى . ثم وهب لها الأراضى والأغنام وكل ما يلزم (٨) . ونصب تمثالا لنفسه وزوجته بمعبد حوريس بمدينة البسترونوبوليس نقش عليه وصف ارتقائه بوضوح من موظف صغير الى مرتبة القراينة (٩) . وهكذا أرجع لآمون كل أوقافه وإيرادات معابده وقام أيضا باصلاح هذه المعابد فعكف الناس على أهتمامهم القديمة العديدة بعد ما كانوا يعبدونها سرا وقت عبادة آتون . ثم أرسل حورعبد حقايريه الى أنحاء البلاد ليتنموا الاصلاحات التى بدأ بها توت عنخ آمون وليثبتوا على الآثار أسماء المعبودات التى أهانها ومحاها إخناتون ، وقد ورد ذكر هذه الاصلاحات كثيرا على جدر الكرنك ولا بد أنها ساعدته كثيرا

(١) ٢٧١ ٣ شرحه (٢) ٢٨١ ٣ (٣) ٢٨١ ٣ (٤) ٣٠١ ٣ (٥) ٢٩١ ٣ (٦) ٢٣١ ٣ (٧) ٣١١ ٣ (٨) شرحه (٩) ٢٢١ ٣ — ٣٢



شكل ١٥٣ - سيني الأول يهدي أزوديس تمثال الصدق - روم بارز ماخوذ من معبدته بالعراية

على نشر نفوذه في أنحاء الامبراطورية لأنها ضمت اليه طائفة الكهنة . أما عبادة آتون فلم تبطل لكنها وقفت أحيانا بسبب تلف معابده في بعض الجهات . ففى طيبة مثلا هدم حورمحب معبد آتون هدمًا تامًا وشيد بأحجاره صرحين عظيمين موسعا بذلك معبد آمون نحو الجهة القبليّة (شكل ١٤٩) . وقد استعمل خلفاؤه ما تبقى من أحجار معبد آتون في اقامة أمثال هذه الأبنية ، ولا يزال بين أحجار وصروح آمون المهتمة بالكرك من النقوش ما يشير الى سبق استعماله في بناء معبد آتون . وورد على هذه الأحجار أسماء الملوك الذين عبدوا آتون والذين صاروا وقت حكم حورمحب محترقين عند الرعية^(١) . ولم يكتف حورمحب بذلك بل أرسل بعثة الى أخت آتون لهدم معبد آتون هناك واحضار أحجاره لبناء عمارات أخرى . بعد ذلك عومل اسم إخناتون بالاضطهاد نفسه الذي عامل به أسماء المعبودات سابقا، فهدمت مقبرة هذا الملك بأخت آتون ونحتت نقوش جدرانها البارزة . وعوملت مقابر أتباعه العظام بالطريقة نفسها . وقصارى القول ان حورمحب صرف جهده في محو آثار إخناتون . وبلغت كراهية هذا الملك حدا عظيما فاذا اقتضت المعاملات القضائية أحيانا مراجعة نصوص أو مواد من عهد إخناتون كان إخناتون ينعت بحرم أخت آتون^(٢) .

ومع شدة حملة حورمحب على اسم وعقيدة إخناتون وإصراره على اصلاح المعابد القديمة وإرجاع النظام العتيق الى أصله لم يدخر جهدا في ارضاء أعدائه بقدر الامكان. خذ مثلا أنه عين أحد أصحاب إخناتون الأقدمين المدعو باتون إم حب (Patonemhab) — على الأرجح — رئيسا لكهنة عين شمس ولكنه أشرك معه أحد أتباعه ليتم ائتلاف آثار إخناتون هناك ويعرقل مساعي باتون إم حب هناك^(٣) . بهذه الطريقة كمل انتصار آمون على آتون ، فبعد ما كان إخناتون وأتباعه ينشدون الدعوات لآتون معتدين بحاسنه وأعماله أصبح حجاب حورمحب يتلون فضائل آمون بالكيفية نفسها . واليك ترجمة ما قاله الأخيرون في آمون :

”ما أبجل عقيدة الشخص المؤمن بهبات آمون ملك المعبودات، لا شك أن كل من يعرفه عاقل وأن كل من يخدمه سعيد الحظ لأن كل من يتبع هذا المعبود يحية“^(٤) .

هكذا فاه كاهن آمون المدعو نفرحوتب (Neferhotep) الذي غمره حورمحب بالعطايا الجزيلة لأجل ذلك^(٥) . ولا يخفى أن أمثال هذا الكاهن هم الذين ساعدوا الملك على التنكيل بأعداء آمون . واليك ترجمة انذار لهم :

”الويل لمن يعتدى عليك يا آمون . ان بلدك يحتمل كل شيء الا المعتدى عليك فانه يذله النعمة على كل من يسمى اليك في أى مكان كل من يعرفك تبقى شمسك شارقة ، أما من يجهلك فشمسه آفلة . لقد أصبحت معابد من اعتدى عليك في ظلام وعم النور أنحاء المعمورة“^(٦) .

(١) صحيفة ٣٨٣ ملا-حظة (أ ٦ ب) (٢) نقوش من (Mer) (٣) ٢٢:٣ (٤) ٧٢:٣ (٥) ٧١:٣

(٦) Birch, Insor, in the Hier., XXVI, see Erman, Handbuch.

ولم تقتصر مهمة حورمحب على تنظيم طائفة الكهنة الذى كان ثليخة مباشرة لرد فعل ثورة إخناتون بل شمل أيضا أمورا أخرى مهمة صعبة المراس . وتفسير ذلك أن ادارة القطر أيام إخناتون وخلفائه كانت مهملة تحت اشراف حكام الأقسام ولذلك اعتراها السوء وعظمت فيها عوامل الفساد التى تحصل فى مثل هذه الظروف . وقد كانت البلاد الشرقية أكثر الأقاليم وقوعا فى هذا الخلل الإدارى ، والسبب فى ذلك أن الموظفين أمنوا اشراف رؤسائهم الشديد عليهم باستعمال نفوذهم فى ابتزاز الأموال من الفقراء ظلما وعدوانا فانتشرت بذلك الرشوة وعمت الخيانة بأنواعها كل أنظمة الحكومة المتباينة . فلما تولى حورمحب الملك أراد علاج هذه العلل فدرسها أولا بدقة ثم دعا كاتبه الخاص بمكتبه وأملى عليه مواد قانونية للعمل بمقتضاها فى كل ماظهر له من النقص^(١) وقد وقعت هذه المواد فى تسعة أقسام^(٢) تناولت منع اضطهاد الموظفين المالىين والاداريين للفقراء عقابا صارما للقسوة . من ذلك ما ورد أن صيرفا اضطهد فقيرا وجاوز بمعاملته حدود القانون فحكم عليه بجردع أنفه وبالنفى الى مدينة ثارو (Tharu) بجوار القنطرة وهى فى بقعة منعزلة على حدود مصر الآسيوية^(٣) . وللاحظ أن هذا الاهمال فى الواجب لم يكن قاصرا على ادارة القطر الداخلية بل شمل أيضا الجيش وضباطه وهو ما يحصل عادة فى الشرق حيث الاضطهاد والظلم يتزلان على الفقراء . خذ مثلا ما ورد من أن بعض رجال الشرط المعهود اليهم فى حفظ السلام والنظام فى جنوبى الامبراطورية المصرية وشمالها اغتصبوا جلود أغنام الملك من الرعاة الموكل اليهم أمر الاحتفاظ بها ، ولم يكتف هؤلاء الاصوص بذلك بل قتشوا بيوت الرعاة واحدا واحدا وأخذوا كل ما وجدوه من جلود دون أن يتركوا منها شيئا^(٤) . لمثل هذه الأسباب سن حورمحب قانونا يحجب بمقتضاه مسئولية هذه الجلود من الرعاة وألقاها على الجنود ، واليك ترجمة هذا القانون :

”كل شرطى علم عنه أنه دخل المساكن لأجل سرقة الجلود يحكم عليه ابتداء من هذا اليوم بمائة جلدة ويجرحه فى خمسة مواضع ثم تسترجع منه الجلود المسروقة“^(٥) .

لكن الصعوبة لم تكن فى ذلك فقط بل فى إيجاد مفتشين صادق الذمة طاهرى الأخلاق ليخطروا الرئاسة بكل اثم أو جريمة يكشفونها ، وجاء عن هؤلاء المفتشين أنهم شاركوا فى السرقة رجال الشرط بدون مراعاة لسبب رحلتهم الطويلة التى قصد بها معرفة الجناة وابطال الفساد . والمعروف أن هذا الفساد الإدارى كان منها عنة تقريبا أيام تحوتمس الثالث الشديد الرقابة لكنه عاد ثانيا بعد وفاته . فلما أتى حورمحب اتبع طريقة تحوتمس الثالث فى ابطال ذلك الضرر^(٦) فسن قانونا لمنع الاختلاس والتهريب وقت جمع الضرائب ، ثم طاف فى أنحاء امبراطوريته متفقددا كيفية تطبيق قانونه المذكور^(٧) وباحثا عن الأشخاص الأكفاء الذين يمكن أن يأتهمهم على أمور الحكم والعدل والقضاء بين الرعية . ولا يخفى أن العدالة كادت تكون مفقودة فى البلاد منذ

(١) ٥٠ : ٣ (٢) ٤٥ : ٣ — ٤٧ (٣) ٥٤ : ٣ (٤) ٥٦ : ٣ (٥) شرحه (٦) ٥٨ : ٣

(٧) ٦٣ : ٣

ثورة آتون . وقد وقع اختيار الملك على وزيرين أعجب بهما كثيرا وعهد اليهما في مهمة القضاء ، فعين أحدهما بمدينة طيبة وأقام الثاني بعين شمس أو منف ، وقد وصفهما بقوله :

”ان هذين القاضيين صادقان كريما الأخلاق شريفا الذمة مطيعان لأوامر القصر الملكي وقانون المحكمة. لقد عينتهما قاضيين على وجهى مصر (القبلى والبحرى) وجعلت مركزهما المدينتين العظيمتين بالوجه القبلى والبحرى“^(١) وقد حذرهما جلالتة من الرشوة قائلا :

” لا تأخذوا الرشوة من أحد ، والا فكيف يمكنكم أن تحكموا بالعدل اذا كنتم أنفسكم جناة على القانون“^(٢) .

وأراد جلالتة أن يبطل الرشوة بين القضاة الفرعيين فأعفى كل موظفى الحفانية من دفع الضرائب ذهباً وفضة وسمح لهم بالاحتفاظ بكل دخلهم من وظيفتهم^(٣) حتى لا يكون لهم عذر في اتباع الوسائل غير الشريفة ، وهذه خطوة جديدة لم يسبق لأحد قبل حورمحب أن يخطوها . ولم يقتصر جلالتة على ذلك بل نظم المحاكم الفرعية في كل البلاد^(٤) ، وسن عقابا صارما لكل عضو في هذه المحاكم يرتكب جريمة الرشوة . واليك ترجمة ما ورد في شأن هذا العقاب :

”كل موظف أو كاهن يقال عنه انه عين في القضاء ليحكم بين القضاة وهو يخفى على القانون يحاكم بتهمة الخيانة العظمى . هكذا رأت ارادة جلالتى بقصد تحسين القانون المصرى“^(٥) .

وأراد جلالتة أن يوطد صلتهم بموظفيه الاداريين ويبعدهم عن الرشوة فزاد مرتباتهم كثيرا ، وصار هؤلاء يتفقدون الادارة في أنحاء البلاد عدة مرات كل شهر ، واعتاد الملك أن يحتفل بهم في قصره قبل سياحتهم أو بعدها مطلقا عليهم من شرفته الملكية ومغدقا عليهم هداياه والعطايا الجزيلة مناديهم كلا باسمه ، وقد أجزل جلالتة العطايا لهم من القمح والشعير حتى لا يحتاج أحد منهم الى شئ ما^(٦) .

كل هذه المعلومات نقشها حورمحب على شاهد حجرى عظيم^(٧) يبلغ طوله ست عشرة قدما وعرضه عشر أقدام نصبه أمام الصرح الذى شيده بالكرك من أحجار معبد آتون كما ألمعنا سابقا . وقد ذكر جلالتة ملاحظة على الأثر هذا ترجمتها :

”لقد سنت جلالتى هذا القانون لضمان رفاة أهالى مصر“^(٨) وختم نقوش الأثر مخاطبا قومه بهذه العبارة :

”استمعوا لأوامرى التى سنتها لأول مرة في التاريخ لأحكم بها جميع الأراضى نظرا لما شاهدته من الظلم الصارى بهذه البلاد“^(٩) .

ويدهى أن هذه الاصلاحات جعلت لحورمحب مركزا عظيما في تاريخ الحكومات العادلة . وقد رزئت هذه البلاد بالظلم والاستبداد بعد ذلك بدرجة صعب مراسها وعلاجها حتى

(١) ٦٣ : ٣ (٢) شرحه (٣) شرحه (٤) ٦٥ : ٣ (٥) ٦٤ : ٣ (٦) ٦٦ : ٣ (٧) ٦٥ : ٣ ملاحظة ٤٥ (٨) ٦٥ : ٣ (٩) ٦٧ : ٣

أتى الاحتلال الانجليزي الحديث فضرب عليه بيد قوية ، ولا تزال ذكرى هذا الظلم باقية في أذهان جميع القراء .

إذا لاحظنا عظم مجهودات حورمحب في اصلاح داخلية البلاد وتنظيم ادارتها وإبطال القحط الذي حل بمستعمراتها استبعدنا عليه القيام بفتوحات أجنبية لضيق الوقت . والحق يقال ان هذا الملك كان خبيراً بالأمر السياسي الأسيوية عالم بالمصاعب هناك ولذلك يظهر أنه فقد الرجاء في اصلاح تلك المستعمرات الخارجية ما دامت داخلية مصر سيئة بالكيفية التي شرحناها للقارئ . وقد عثر على عدة أسماء لمدن وبلاد أسيوية منقوشة على الجدر قرب شاهد حورمحب الحجرى المذكور آنفاً تشير إلى انتصارات حرية حازها هناك ، لكن هذا بعيد الاحتمال وعليه فيستحسن أن تدون تلك الأخبار بتحفظ^(١) خصوصاً وقد ورد ضمنها ذكر الحثيين ، والمعروف من أحوال وأخبار البلاد التي ورد ذكرها على تلك الجدر أن حورمحب عجز بعد ذلك الوقت عن تثبيت قدمه تماماً والاحتفاظ بسلطته المطلقة على بلاد سوريا . ولا يبعد أيضاً أن تكون الحقيقة على تقيض ذلك إذ من الجائز أن تكون المعاهدة التي ذكرها رمسيس الثاني (بعد حورمحب بنحسين سنة) كمعاهدة قديمة كانت من أعمال حورمحب^(٢) . أما في جنوبى المملكة فلم تحصل في عهد حورمحب اضطرابات ذات بال وكل ما روى عن تلك الجهات أنه قامت بها ثورة اعتيادية تطلبت ذهاب حورمحب شخصياً إليها لقمعها^(٣) . وقد أرسل جلالته بعثة إلى بلاد الصومال أحضرت خيرات تلك الجهات المعهودة^(٤) . والمعروف أن مشاكل الامبراطورية الداخلية كانت كثيراً ما تتعارض مع القيام بفتوحات أجنبية كالتى تأقت نفس حورمحب إليها ، ولا غرابة في ذلك فقد تولى جلالته البلاد وهي في أشد الحاجة لهنمه ونشاطه لينتشلها من الإدارة السيئة التي كانت في عهد أسلافه . وإذا لاحظنا ذلك عامنا السبب في بذل جلالته للجهدات التي صرفها حبا في ترقية داخلية مملكته ، تلك المجهودات التي تعادل في أهميتها وفوائدها أعظم أعمال الفاتحين . وقد أظهر جلالته رفقاً وشفقة على رعيته لم يفقه فيها حاكم مصرى بعده حتى وقتنا هذا . ومع ذلك فقد تربى جلالته تربية حرية شرقية لكنه قال مرة لما تولى الملك "اسمعوا ان جلالتي تصرف كل وقتها لاعلاء مصلحة مصر"^(٥) .

ولم نتأكد الآن كم من السنين حكم حورمحب بالضبط لكنه فهم ضمناً من سجلات إحدى القضايا التي حصلت في عهد رمسيس الثاني ما يشير إلى "سنة التاسعة والخمسين من حكم حورمحب وهذا تاريخ مبالغ فيه غالباً ولا يبعد أن يكون قد أضيف إليه حكم إخناتون وخلفائه أيضاً . فإذا كان الرأي الثانى هو الصواب كان حكم حورمحب أقل من التقدير الأول بنحو خمس وعشرين سنة أو بعبارة أخرى يكون قد حكم حوالى ثلاثين سنة^(٦) . وقد شيد حورمحب لنفسه قبراً بديعاً جداً يجهه منف لما كان موظفاً في الحكومة أى قبل توليه الملك (شكل ١١٩ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٠) .

(٥) ٥٠٣

(٤) ٣٧: ٣ ملاحظة

(٣) ٤٠١: ٣ ملاحظة

(٢) ٣٧٧: ٣

(١) ٣٤١: ٣

(٦) نفوش مس (Meu)



شكل ١٥٤ — رسم لسبي الأول في شابه يمثله مهديا تمثال الصدق . رسم باورزماشهرذ من مقبرته بطيبه .
رابع شكل رقم ١٠٩

ولم يهجر هذا الملك قبره المنفى فلم ينشئ له قبرا آخر بوادي الملوك بطيبة . ثم ان جلالة حافظ على ألقابه الرسمية كقائد الجيوش وغيرها المنقوشة على صدر قبره المنفى كما ألعنا سابقا فلما تولى الملك أضاف الى تلك الألقاب أسماءه وألقابه الفرعونية . ثم رسم الصلّ فوق كل رسومه (شكل ١٥٠) مظهرا بذلك صفته الفرعونية^(١) ولا تزال هذه الرسوم واضحة جلية الى وقتنا هذا .

وجنى خلفاء حورمحب ثمار أعماله العظيمة لما تملكوا زمام الملك في البلاد، ولكننا لم نتأكد للآن اذا كان حورمحب قد نجح في تأسيس أسرة ملكية لأنه يستحيل علينا الآن كشف أى علاقة بينه وبين رمسيس الأول الذي عقبه في الملك عام ١٣١٥ قبل الميلاد . ولما كان رمسيس الأول كهلا وقت توليه الملك فهم ضمنا أنه كان ذا حق في إرث العرش الفرعونى لأنه ليس من السهل الاستيلاء على الملك في سن الشيخوخة في تلك الأوقات . والمعروف عن رمسيس الأول أنه لم يقم بأى عمل هام لمملكته ولم يحن ثمار ما غرسه حورمحب قبله وذلك لتقدمه في السن . وكل ما نعرف عنه أنه وضع رسم قاعة العمدة العظيمة بالكرك وبدا بتشييدها لكنه توفي عاجلا فأتتها خلفاؤه بعده . وفي السنة الثانية من حكم هذا الملك أحس بالكهولة والعجز عن ادارة شؤون دولته فأشرك معه في الملك ابنه سبتي الأول ، وكانت سنة ثلاثين سنة تقريبا^(٢) . ويظن أن جلالة تمكن بمساعدة ابنه من شن غارة على النوبة لأن آثار هذه السنة تشير الى "العبيد الذين أسرهم" جلالة وأهداهم الى معبد وادى حلفا بالنوبة^(٣) . وليلاحظ أن هذه النقوش الخاصة بالمعبد المذكور^(٤) هي النقوش الواحدة المؤرخة المعروفة عن هذا الملك للآن . لكن لوحظ ورود اسم سبتي بآخر هذه النقوش ولذلك يرجح أنه هو الذي قام بتلك الأعمال ونصب حجره الأثرى بالنوبة قبل إيايه منها وقتئذ . ودلتنا الآثار أن رمسيس الأول توفي قبل نصب الأثر المذكور بأقل من ستة أشهر (أى في سنة ١٣١٣ قبل الميلاد) وأن سبتي الأول استقل وقتئذ بالملك^(٥) .

ويظهر أن سبتي الأول وضع تصميماته وقام باستعداداته الحربية لاسترجاع المستعمرات الآسيوية وقت اشتراكه مع والده في الحكم الذي يقرب من السنة . ودلينا على ذلك أنه أصلح طريق فلسطين الممتد من حصن نارو (على حدود مصر والذي استعمله حورمحب منفى لمجبريه المجذوعى الأنوف) ورمم وقوى القلاع المشيدة لحراسة آثار وصهاريج المياه على ذلك الطريق^(٦) . والمعروف أن المسافة بين نارو وغزّه كانت تقطع وقتئذ في عشرة أيام سيرا على الأقدام^(٧) . ومنه يتضح لنا شدة احتياج المسافرين الى الماء على طول ذلك الطريق . ولا يبعد أن كانت مصر وقتئذ محافظة على بعض نفوذها بفلسطين لكن المعروف أن الأحوال السيئة التي حلت بتلك البلاد أيام إخناتون لم تعد لها العدة المناسبة . نعم ان إخناتون أرسل الى تلك الجهات حملة بقيادة ضابط مصرى ولكن هذه القوة انهمزمت وفشلت في مهمتها تماما . والثابت أن المعلومات التي تلقاها

(٥) ١٥٧: ٣

(٤) ٧٤١: ٣ ملاحظة

(٣) ٧٨: ٣

(٢) ١٥٧: ٣

(١) ٢١ - ١١٣

(٧) ٤٠٩: ٢

(٦) ٨٦٠: ٣

سيتي الأول عن حالة مستعمرات مصر الآسيوية اتفقت تماما هي وما ورد في خطاب أبدو خيبا (Abdkhiba) وإلى بيت المقدس الذي أرسله إلى إخناتون^(١). ويذكر القارئ أن هذا الخطاب ذكر أن بدو الصحارى المجاورة لفلسطين زحفوا واستولوا على مدن فلسطين لكننا لم نتأكد بالضبط هل حصل ذلك بإعاز من حكام تلك الأقاليم أو من تلقاء أنفسهم هؤلاء البدو. وما يعزز مضمون هذا الخطاب ما وجد من الرسوم على الآثار المصرية المثلة هروب الفلسطينيين في دعر من أعدائهم إلى مصر. واليك ترجمة ما وصل إلى سيتي الأول من الأخبار الخاصة بهؤلاء البدو ومنها يتضح لك شدة موافقتها لما ذكرناه سابقا :

”لقد اتحد رؤساء البدو معا وأخذوا يضعون أيديهم على فلسطين ، وهم الآن يفتكون بالناس ويلعنونهم ويضربونهم ، فصار كل منهم يقتل جاره غير مكترئين لقوانين القصر الملكي“^(٢) .

في أثناء هذه الغارات البدوية أخذ الاسرائيليون يستعمرون فلسطين وكانوا يدفعون الجزية لفرعون ويطيعون أوامرهم ولذلك لم يهتم بهم . أما الآن فتغيرت الأحوال وامتنع هؤلاء القوم عن ذلك ، وفي السنة الأولى من حكم سيتي الأول قاد جلالته جيشه وزحف على آسيا مبتدئا من ثارو ومتبعا طريق سينا الذي أصلحه مارا بقلاعه وحصونه التي رمها^(٣) حتى بلغ جنوبي فلسطين المعروف وقتئذ باسم نجب (Negeb) فقابله هناك بدو تلك الجهة المعروفون بالشاسو أو الشوس فشتت شملهم^(٤) ثم بلغ حدود كنعان (وهو اسم أطلقه المصريون على غربي فلسطين وسوريا) فاستولى هناك على مدينة محصنة محاطة بسور في آخر الأقليم الذي حصلت فيه مشاحته مع البدو^(٥) . وبعد ذلك زحف شمالا فاستولى على بلاد سهل مجدو المعروف بيزرل (Jezreel) وعبر وادي نهر الأردن ونصب هناك حجرا أثريا ذكر فيه انتصاراته التي حازها بيجهة حوران (Hauran)^(٦) . ثم زحف سيتي الأول غربا حتى بلغ جنوبي بلاد لبنان فاستولى على مدينة يانوام (Yenoam)^(٧) المحاطة بالغابات الكثيرة والتي وقفها تحوتمس الثالث بعد غزوته لها على معبد آمون وذلك منذ مائة وخمسين سنة تقريبا . في ذلك الوقت أقبل على جلالته وفد من حكام تلك البلاد أظهر له الخضوع والولاء لمصر وقدم له ما يطلب من الخدم . ولاحظ أن هؤلاء الحكام مضى عليهم حوالي خمسين سنة بعد ترك أممتحتب الثالث لمدينة صيده لم يشاهدوا في أثناءها فرعون مصر يا قائدا لجيشه كما اعتادوا سابقا^(٨) ، ولذلك أراد سيتي الأول أن يختبر ولاءهم فكلفهم احضار كل خشبية من الأرض ليم بها بناء سفينة آمون المقدسة في طيبة وليصنع منها أيضا سوار طويلة لنصبها أمام صروح معبد ذلك المعبد^(٩) عند ذلك أسرع هؤلاء الحكام في حضرة سيتي بجمع تلك الخشب وقد راقب جلالته شخصيا شحنها من الموانئ البحرية التي أخضعها كما فعل سلفه تحوتمس الثالث . ويظن أن سيتي الأول وصل في حملته هذه إلى شمالي صميره أولازا (Ullaza)^(١٠) . وقد قدم ملك قبرص إلى جلالته وقتئذ

(١) راجع من صحيفة ٢٥٧ إلى صحيفة ٢٥٨ (٢) ١٠١: ٣ و ٢: ٣-٩ (٣) ٨٣: ٣ ملاحظة (٤) ٨٥: ٣ ملاحظة (٥) ٨٧: ٣-٨ (٦) ٨١: ٣ (٧) ٨٩: ٣-٩٩ (٨) راجع صحيفة ٢٣٤ (٩) ٩١: ٣-٩٤ (١٠) ٨١: ٣-٩٢

هدايا جزيلة جريا على عادة حكام تلك الجزيرة نحو ملوك مصر . والثابت أن مدينتي صور (Tyre) وأثو (Othu)^(١) خضعتا لسيتي وقتئذ وأن ساحل فلسطين أصبح آمنا وأن الطريق البحري بين مصر وفلسطين أعد للقيام بمحلات حرية في المستقبل .

بعد ذلك رجع سيتي الأول وكانت الاستعدادات والاحتفالات قائمة على قدم وساق انتظارا لوصول جلالته ظافرا من آسيا كما كان يفعل لفرعنة مصر الفاتحين منذ جيلين . وذاع انتصار سيتي هذا في أنحاء البلاد فبلغ مصر قبل وصوله اليها ولذلك هب رجال الحكومة لمقابلة جلالته على حدود مصر ، فاجتمعوا هناك بجهة ثارو (Tharu) على رأس الجسر المشيد على القناة العذبة الموصلة نهر النيل بالبحيرات المرة (راجع صحيفة ١٢١) فأبصروا هناك الجيوش المصرية قادمة يعلوها الغبار وتبدو عليها علامات التعب ينقدمهم فرعونهم را كما تجلته الحرية وسائقا أمامه أسراه من أمراء فلسطين وسوريا ، عند ذلك صاح موظفو الحكومة بصوت واحد شق عنان السماء هاتفين هتاف التحية والتبجيل^(٢) . ولما وصل جلالته الى طيبة أقيمت له احتفالات عظيمة أخرى عرضت فيها الأسرى والغنائم الحرية الجزيلة أمام آمون كما فعل أيام ملوك عهد الامبراطورية الأولى . وليلاحظ أن أهالي طيبة مضى عليهم نيف وخمسون سنة تقريبا لم يشاهدوا في أثنائها مثل تلك الاحتفالات^(٣) . وقد ضحى سيتي في ذلك الاحتفال ببعض الأسرى أمام المعبودات قربانا لهم^(٤) .

وظهر الآن أن هذه الحملة الأسوية كانت كافية لاختضاع جنوبي فلسطين لمصر ، ويرجح أن معظم شمالي فلسطين ضم أيضا وقتئذ الى الامبراطورية المصرية . ثم أراد سيتي الأول أن يقوم بحملة ثانية بآسيا لكن حصل وقتئذ اضطراب كالذي حدث في مبدأ الأسرة الثانية عشرة اضطر جلالته أن يخضعه أولا . وتفصيل ذلك أن الليبيين القاطنين غربي مصبات النيل تحيوا فرصة ضعف مصر فهاجروا الى الوجه البحري وأخذوا يضعون أيديهم على كل ما يمكن تملكه فهددوا حدود الدلتا الغربية . ودلتنا قائمة إرادات سيتي الأول أن جلالته أمضى سنته الثانية كلها في الدلتا^(٥) ويرجح جدا أنه قام وقتئذ بقمع الليبيين . وجاء أن جلالته التقى هؤلاء الأعداء في مكان غربي الدلتا^(٦) لا يزال مجهولا لنا وانتهى الأمر بانتصار جلالته انتصارا باهرا فأقيم له احتفال كبير بطيبة^(٧) أمام المعبود آمون حيث قدم له الغنائم الجزيلة والأسرى العديدين . والظاهر أن جلالته لم يذهب الى طيبة بعد انتصاره على الليبيين مباشرة بل قصد آسيا بعدئذ لإكمال انتصاراته وتوطيد سلطته بسوريا . وعلى كل فال معروف أنه بلغ أرض الجليل (Galilee) واستولى عنوة على مدينة كدش المحاطة بسور حصين . وهذه المدينة الأخيرة غير كدش التي على نهر الأورونط (العاصي) . وليلاحظ أن هذه الأقاليم كانت تعرف وقتئذ بمملكة أمور وقد ألعنا سابقا أن أبد شيرتا (Abdashirta) وأزيرو (Aziru) هم اللذان أسسا هذه المملكة كما جاء في خطاب رب أذي (Rib-Addi)^(٨) . والآن تذكر القارئ أن هذه المملكة الصغيرة المحتوية على كدش وأرض الجليل كانت بمثابة حد فاصل منيع بين شمالي فلسطين جنوبا

(١) ٨٩: ٣ (٢) ١٠٣-٩٨: ٣ (٣) ١١٢-١٠٤: ٣ (٤) ١١٣: ٣ (٥) ٢٨٢: ٣
(٦) ١٣٢-١٢٠: ٣ (٧) ٩-١٣٣: ٣ (٨) راجع سابقا من صحيفة ٢٥٤ الى ٢٥٧

ووادى نهر الأورونط المكون لحدود مملكة الحيثيين الجنوبية شمالا . من ذلك يتضح أنه اذا أراد سبتي الأول أن يهجم على الحيثيين وجب عليه أولا أن يخضع مملكة آمور وهذا هو ما قام به جلالتة فقد استولى على تلك المملكة بما فيها كدش (على الأرجح) ^(١) . بعد ذلك زحف جلالتة شمالا على الحيثيين فانضح لهم أن ملكها المدعو سبيل (Sepilel) الذي تحالف مع مصر في أواخر الأسرة الثامنة عشرة توفي منذ مدة طويلة وأن ابنه المدعو مراسار (Merasar) كان قائما بالملك بدله ^(٢) . في ذلك الوقت التحمت جيوش مصر بجيوش خيشا لأول مرة في التاريخ القديم وكان ذلك في مكان مجهول وعلى نهر الأورونط فدارت رحى القتال بين الفريقين بشدة ركب في أثناءها سبتي الأول عجنته الحرية وحارب أعداءه مع جيوشه حتى انتصر عليهم تماما ^(٣) . ويستدل من قرائن الأحوال أن هذه المعركة لم يشترك فيها جيش الحيثيين الرئيسى لأن سبتي لم يزعم مركز أعدائه بسوريا فقد بقيت كدش (التي على نهر العاصي) بأيديهم . وعليه فالغالب أن كل ما أحدثه سبتي حينئذ هو ارجاع حدود الحيثيين يسيرا الى الشمال ووقف زحفهم وتدخلهم في شؤون فلسطين جنوبا . بعد ذلك رجع جلالتة الى طيبه فقابلته رعيته بالحفاوة والاکرام وهناك قدم جزيته وأسراه هدية لآمون معبود الامبراطورية الأعظم بالكرك ^(٤) . ويتضح من ذلك أن حدود مستعمرات مصر الآسيوية وصلت وقتئذ بوجه التقريب الى حدود فلسطين الشمالية بما في ذلك من مدينة صور (Tyre) وساحل فيذيقا جنوبى نهر ليطانى (Litany) . وليلاحظ أن هذه الفتوحات لم ترجع لمصر إلا ما يقرب من ثلث مستعمراتها السابقة ولذلك كان طيعيا أن يستمر سبتي في فتوحاته السورية . لكنه مع ذلك لم يظهر جلالتة هناك بعد ذلك لسبب لا تزال مجهله ويظن أنه اقتنع وقتئذ بعدم فائدة نضال الحيثيين لشدة رسوخ قدمهم بسوريا . زد على ذلك أن مركز مصر بسوريا أضفى مخالفا لمركز الحيثيين الذين احتلوا تلك البلاد احتلالا ملكيا وحربيا ، أما الفراعنة فلم يعاؤا كثيرا بتدمير تلك الجهات بل كل ما عنوا به هو أخذ الجزية السنوية منها ، ولذلك كان متظرا أن الاستعمار المصرى الضعيف لا يقوى على قلب استعمار الحيثيين القوى . ثم ان مملكة الحيثيين أصبحت مأجمة بالسكان بأكثر مما تسع فكان هؤلاء يهجرون وطنهم نازحين الى سوريا ومنه يتضح أنه لو فرض ونجح المصريون في طرد الحيثيين من جنوبى سوريا فان شمالى سوريا يبقى دائما في حالة حرب مع المصريين . والظاهر أن سبتي اقتنع حينذاك بأن أحوال البلاد تغيرت كثيرا عما كانت عليه أيام نحوتمس الأول فصمم حوالى ذلك الوقت أن يبرم معاهدة ودية مع ملك الحيثيين المدعو متلا (Metella) الذى تولى الملك بعد أبيه مراسار (Merasar) ^(٥) .

ولما آتب سبتي الى وطنه جعل همه توطيد السلام فى المملكة وتشيد المعابد . وقد ألمعنا سابقا الى أن حورحجب أصلح كثيرا بما أتلغه أتباع مذهب آتون . والآن نذكر القارئ أنه لما تولى

(١) ١٤٠: ٣ - ١٤١ (٢) ٣٧٥: ٣ (٣) ١٤٢: ٣ - ١٤٤ (٤) ١٤٥: ٣ - ١٥٢

(٥) ٣٧٧: ٣



شكل ١٥٥ — توفيق أسرار الهائم • رسم في مقبرة باقية في عهد الإمبراطورية

والد سیتی الأول الملك لم يتمكن من عمل شيء يذكر بالنسبة لكبر سنه ، فلما تولى بعده ابنه سیتی وجد كثيرا من هذه الآثار في حاجة الى الاصلاح ، فقام بهذه المسألة بكل احترام وورع . وتوجد على كل معابد آمون المنتشرة على النيل من عمارة بالنوبة جنوبا الى تل بسطه بالدلتا شمالا نقوش أثرية تشير الى "الاصلاحات التي قام بها سیتی الأول لهذه الأماكن المقدسة" (١) . وقد أرسل جلالته البعثات لقطع الأحجار من محاجر مصر بجهة أسوان والسلسلة وجيلين (Gebelen) (٢) واستخدم في ذلك أسرى حروبه كما فعل أسلافه . وفي حالة استخدام المصريين في ذلك كان جلالته يفتخر بمعاملتهم بسخاء ورفق ، خذ مثلا ما ورد عن الألف من العمال الذين استخدموا في قطع الأحجار الرملية من محاجر السلسلة ، فإن كلا منهم كان يتقاضى أربعة أرطال خبزا وحزمتين من الخضراوات وقطعة من اللحم المشوى كل يوم وثوبا من الكتان النظيف مرتين كل شهر (٣) . وبلغت العمارات التي شيدها سیتی الأول في جميع المعابد القديمة درجة فاقت أبنية أرض عصور الامبراطورية ، ومنه استدل أن دخل الخزانة المصرية وقتئذ كانت عظيما وكافيا للقيام بهذه المصاريف الباهظة على صغر حجم الامبراطورية . ولا يخفى أن الامبراطورية المصرية وقتئذ كانت تلك الأقاليم التي بين الشلال الرابع جنوبا ونهر الأردن شمالا .

ومن عمارات سیتی الأول القاعة ذات العمدة العظمى التي أسسها رمسيس الأول أمام صرح أمنتحتب الثالث بمعبد الكرنك ، وقد فاقت هذه القاعة في العظم قاعة أمنتحتب الثالث ذات العمدة التي لم يتم بناؤها في معبد الأقصر . ثم كسى سیتی نقوش أمنتحتب الثالث الحربية التي على صرحه بالأحجار من الخارج وأكمل بناء عمدة صحن المعبد الشمالي وكذا حائطه الشمالي الذي نقش عليه حفره من الخارج نقوشا عظيمة تمثل انتصاراته (شكل ١٥٢) وتبلغ مساحة الحائط المنقوشة من الجدار الى الأفريز حوالي مائتي قدم وتجتمع هذه النقوش نحو باب الدخول في الوسط والمرسوم حوله الملك سیتی راجعا الى مصر مقدما الهدايا والأسرى والفنائم لآمون ومضحيا في نهاية الأمر بالأسرى الى المعبود المذكور . والمشاهد لهذه الرسوم يرى أن جلالته الملك يستعد للدخول والاشتراك في الاحتفال الديني (٤) . ومثل هذه الآثار والرسوم كانت تعمل الملوك الأسرة الثامنة عشرة لكنها بادت الآن فلم يبق منها الا ما ذكرناه خاصا بأمنتحتب الثالث . من ذلك يتضح لنا ما في رسوم سیتی الأول الحربية من الفوائد . وعاجلت سیتی الأول منيته قبل أن يتم القاعة العظمى ونقشها بالرسوم البديعة فاتمها خلفاؤه من بعده . وقد اتبع سنة آبائه ملوك الأسرة الثانية عشرة فشيده لنفسه معبدا بالسهل الغربي بطيبة في الطرف الشمالي لسلسلة معابد الملوك الأقدمين . ولما كان والد سیتی قد توفي قبل أن يشيد له معبدا جعل سیتی معبده هذا مشتركا بينه وبين والده ، ويعرف هذا المعبد الآن بمعبد القرنة (Kurna) والمعروف أن سیتی توفي قبل اتمامه أيضا (٥) .

(٤) ٣ : ٨٠ - ١٥٦

(٣) ٣ : ٢٠٧

(٢) ٣ : ٢٠١ - ٢١٠

(١) ٣ : ٢٠٠

(٥) ٣ : ٢١١ - ٢٢١

وشيد أيضا معبدا جديلا بالعراية لمعبودات مصر العظمى (وهى معبودات تثليث أزوريس وسيتى أيضا) ومحرابا صغيرا أيضا مجاورا له لاقامة الدعوات لمولوك مصر الأقدمين وبالأخص ملوك الأسرة الأولى والثانية الذين دفنوا خلف المحراب المذكور بالصحراء^(١) ونقش على جدر معبده هذا قائمة بأسماء ملوك مصر الأقدمين ابتداء من مينا الى عهده ولا تزال هذه القائمة معتبرة من أهم المستندات التاريخية التى نستمد منها معلوماتنا عن تواريخ هؤلاء الملوك . وقد تلف صرحا هذا المعبد ومع ذلك فان البقية الباقية منه لا تزال تعتبر أنفاس الآثار التى أبدعتها أيدي المصريين المهرة . وسنتناول الكلام عليها من وجهة الفنون الجميلة فيما بعد . وجاء عن سيتى الأول أنه شيد أيضا معبدا بمنف وآخريين شمس ومعابد أخرى بالدلتا لم نعرف عنها الا القليل . ويوجد بأبى سنبل معبد عظيم شيده سيتى لكنه توفى قبل اتمامه^(٢) فأتى بعده رمسيس الثانى وأتمه .

لا يخفى أن هذه المشروعات تطلبت أموالا عظيمة، ثم انه أراد أن يحبس أوقافا ثابتة على معبد العراية فاضطر إلى البحث عن موارد مالية أخرى فاتجه ذهنه الى استخراج الذهب من مناجم جبل الزبارا على ساحل البحر الأحمر . والعقبة الكثود التى كانت دائما تحول دون تمييز تلك المناجم هى صعوبة الطريق الموصل إليها الذى يتبدى من وادى النيل جنوبى ادفو بعدة أميال ، فأراد الملك أن يذل تلك الصعوبة فذهب شخصيا الى ذلك الطريق ووضع الخطط لتمهيدته . ولما بلغ تلك الجهة اضطر أن يتوغل فى الصحراء سبعة وثلاثين ميلا تقريبا حتى وصل الى محطة استعملت قديما أيام الأسرة الثامنة عشرة للاستراحة وهى تبعد عن النيل بمسيرة يومين تقريبا^(٣) ، وهناك أمر بحفر بئر تحت اشرافه فنبعت منه المياه بغزارة^(٤) وفى الحال أصدر أمره بتشيد معبد بجوار ذلك البئر وتأسيس قرية أيضا^(٥) . والظاهر أن الملك أسس عدة محطات أخرى على طول الطريق الى مناجم الذهب المذكورة كما يستدل من أنشودة الرحالة الظماء التى كانوا يترنمون بها وقتئذ واليك ترجمتها :

”أيتها المعبودات الساكنات هذا البئر أمنجن سيتى العمر الأزل لأنه شق لنا الطريق لنسير فيها بعد ما كانت مهجورة فأصبحنا نسير فيها سالمين ونصل أحياء وأضحى الطريق الصعب سهلا جميلا“^(٦) . ولما تم مشروع هذه المناجم وقف سيتى إيراد هذا المشروع على معبد العراية وصب اللعنات الشديدة على كل من يعطل هذه الأوقاف وينقض إرادته^(٧) . والغريب أن هذه الأوقاف عطل تنفيذها بعد وفاته بسنة فلما تولى ابنه رمسيس الثانى الحكم أرجعها الى أصلها^(٨) . وأراد سيتى أن يستغل مناجم ذهب النوبة على الطريقة السالفة فأمر بحفر بئر عمقه مائتا قدم تقريبا على الطريق المبتدئ من جنوبى شرقى كويبان بالنوبة الى وادى علاكى لكنه لم يهتد فى آخره الى الماء فبطل المشروع وحرّم الملك من استغلال ذهب ذلك الإقليم^(٩) .

(١) ٢٤٣ - ٢٢٥ : ٣ (٢) ٤٩٥ : ٣ (٣) ١٧٠ : ٣ (٤) ١٧١ : ٣ (٥) ١٧٢ : ٣ - ٤
(٦) ١٩٥ : ٣ (٧) ١٧٥ : ٣ - ١٩٤ (٨) ٢٦٣ : ٣ (٩) ٢٨٩ : ٣

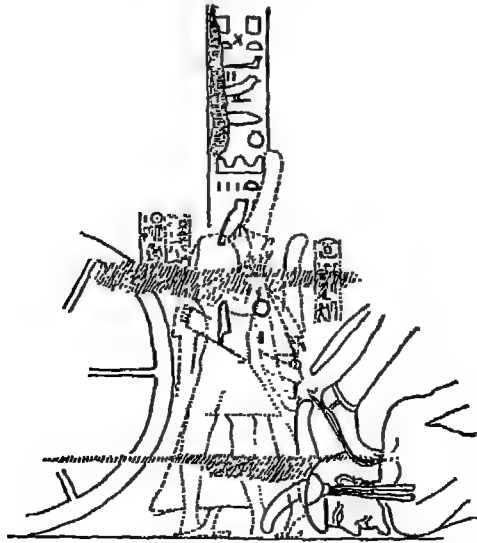
شكل ١٥٦ — الصيد في قارب من القباب فوق مياه البركة. روم في مقبرة بعلبيه في عهد الإمبراطورية رومية أمام الحاكم حرة
ورد شرعها بعلب الكاب



لقد حافظت الفنون الجميلة في عهد ستي على درجتها التي حازتها أيام الأسرة الثامنة عشرة من حيث التأثير والدقة والجمال ، لأن العزيمة ورد الفعل اللذين ظهرا على الامبراطورية أثرا تعاشها من ضعفها السابق لم يقللا كثيرا من درجتهما السابقة ، خذ مثلا قاعة الكرنك العظمى السابقة الذكر فانها لم تقم بالدقة المعهودة في ملوك الأسرة الثامنة عشرة ومع ذلك فهي معتبرة من أعظم آثار المملكة المصرية من حيث الفن ولا تزال في نظر الأثريين معتبرة من أعظم الآثار المصرية المدهشة ببناء وضخامة رغم ما بها من الأغلاط الواضحة . وتعتبر مجموعة رسوم ونقوش عهد ستي من أعظم أمثلة الاجتهاد والدقة اللذين اشتهرت بهما الأسرة الثامنة عشرة . وهذا الوصف ينطبق عليها اجمالا لكننا لو فحصنا كل جزء من هذه الرسوم على حدة لوجدنا فيه أغلاطا تخطيطية عديدة . وهناك بعض رسوم جاءت غاية في الدقة والجمال كرسيم ستي الأول الرفع رحمه الطارد الأمير الليبي أمامه الموجود على حائط الكرنك الشمالي (شكل ١٥٢) . أما أبجل الرسوم البارزة المصنوعة في عهد ستي فهي التي بمعبد العرابية (شكل ١٥٣) ففيها تجتمع الرقة والدقة مع معالم الحياة والشجاعة والمهارة . وتعال هذه الرسوم في الاتقان الرسوم التي على جدر قبر ستي البدع بطيبة (شكل ١٥٤) . ولا تزال الصور الملونة تتم من تقدم واتقان عهد تل العمارنة ، فحدر مقابر طيبة حاوية كثيرا من أمثال هذه الصور البدعية ، مثال ذلك منظر تفقد قطعان الأغنام (شكل ١٥٥) ومنظر القنص في المستنقعات الذي تتجسم فيه وحشية الحيوان كما يشاهد ذلك في (شكل ١٥٦) الذي يمثل قطا نائرا قافزا بأرجله على طائرين وحشين ومسلطا أنيابه على جسد فريسة نائمة في الوقت نفسه .

ولم ترد لنا معلومات عن تاريخ ستي الأول بعد السنة التاسعة من حكمه ويرجح أنه قضى باقي حياته في اقامة العمارات الضخمة وحفر مقبرته المعتبرة أكبر مقبرة عملت بوادي الملوك الى عهده ، وتشاهد فيها طرق وحجرات متشعبة آخذة في الانحدار بما ينيف على أربعائة وسبعين قدما (شكل ١٠٩) . وبعد ثلاثين عاما من تعيينه وليا لعهد المملكة أخذ يحضر المسلات لذلك وأعلن في الوقت نفسه ابنائه لا تزال نجهل اسمه وليا لعهد الامبراطورية ، ثم أراد هذا الأمير أن يشترك هو ووالده فرسم نفسه وهو يحارب الليبيين على حائط الكرنك الشمالي لقاعة والده . ولما لم يكن منتظرا رسم هذا الأمير في هذا المحل من الحائط اضطرب الحفاريون أن يحوا بعض النقوش الأصلية ليتمكنوا من رسم هذا الأمير . ولما بادت الألوان التي كانت تكسو هذه الرسوم اتضحت لنا اشارات لحوادث تاريخية كانت خافية للعيان ، وتتلخص هذه الحوادث في أن رمسيس الثاني أحد أبناء ستي الأول من زوجته المدعوة تويا (Tuya) تأمر في الخفاء على اغتصاب مركز أخيه ولي العهد ، وقام آخر أيام والده بحركة حكومية بغائية استولى بها على العرش . وسيتي الأول توفي قبل الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على توليه عهد المملكة المصرية (حوالي عام ١٢٩٢ قبل الميلاد) فلم يتمكن من نصب مسلتين عملهما لذكرى هذا التعيين . ومنه يتضح أن ستي حكم أكثر من عشرين سنة مستقلا بالملك ، ودفن في تابوت مرمرى بديع داخل قبره الفخيم الذي حفره بالوادي الغربي بطيبة . وقد أسعدنا الحظ فحفظ لنا جثة هذا الملك الى يومنا هذا ولا تزال تبدو عليها ملامح العظمة والأبهة والحلال التي امتاز بها هذا الفرعون وقت اعتلائه العرش المصري (شكل ١٥٨) .

ونفذ رمسيس الثانى كل اجراءاته فى اغتصاب الملك من أخيه الوارد رسمه بالخائط المذكور .
ولآن لم تتأكد اذا كان رسم هذا الأمير نقش فى عهد سيق الأول أو أنه تسلم الملك مدة قصيرة
بعد والده قبل أن يغتصب منه رمسيس الملك . والمعروف على كل حال أن رمسيس اغتصب
الملك من أخيه بدون تردد واعتلى العرش فوراً ثم محاً اسم أخيه ولقبه ورسمه من على الخائط المذكور
(شكل ١٥٢) ورسم نفسه مكانه واضعاً اسمه بدله ولقباً نفسه بولى عهد الملكة كذاباً وبهتاناً
(شكل ١٥٧) . كل هذه الأسرار تشهد واضحة فى رسوم الخائط بعد ما بادت الألوان التى كانت



شكل ١٥٧ — بعض رسوم بارزة لسيق الأول على جدار الكرنك . يشاهد
فى هذا الشكل الابن الأول لسيق الأول مرسوماً بخطوط متقطعة . وقد استنتج
فى استمرار النصوص الهيروغليفية الرأسية الى أعلى الرسم المذكور أن هذا الابن
رسم نفسه هنا بعد الفراغ من الرسم الأمل . أما الشخص المرسوم بخطوط
قطعية فيمثل رمسيس الثانى وقد رسم نفسه كذلك فوق رسم أخيه الكبير الذى
خلعه واغتصب الملك منه

تكسوها، ومن هذه المستندات علمنا خبر المشاحنات التى حصلت بين الأخوين الأميرين المصحوبة
غالباً بمنافسات نسوية وتزاع بين أفراد البلاط الملكى . ولا تزال هذه الرسوم باقية شاهدة على تلك
الحوادث وموضحة لكيفية اعتلاء رمسيس الثانى عرش مصر . ولما استولى هذا الأخير على العرش
الملكى اتبع طرق التفضيل المعتادة ليقنع الرعية بحقه فى العرش فخطب فى أمراء قصره مشيراً الى يوم
أجلسه والده أمام الأمراء ولياً لعهد الملكة^(١) . وبديهي أن الأمراء كانوا على علم تام بحقائق
الأمر لكنهم تظاهروا ساعتئذ بجهلها وأخذوا يمدحون رمسيس كثيراً حتى فاقوا على المعقول ،

(١) ٣ : ٢٦٧ - ٨

واليك مثلاً من مديحهم إياه : قالوا ان قوة جلالته وشهامته بلغت الذروة وقتما قاد جيشه العظيم في السنة العاشرة من عمره !^(١) . ولا شك أن هذا الاطراء صعب التصديق جداً لسخافته من جهة ولبعده عن الصواب من جهة أخرى ، لكن الحق يقال ان رمسيس الثاني أظهر شجاعة عظيمة في شبو يته بها كل أثر لمجهودات أخيه المعزول في المطالبة بالعرش .

ووطد رمسيس الثاني دعائم ملكه بسرمة في طيبة عاصمة البلاد فأسرع حالاً من بلاد الدلتا (على الأرجح) الى طيبة ليحتفل بعيد أوبت (Opet) السنوي العظيم بمعبد آمون الرسمي^(٢) ، وهناك حاز جلالته تعظيم الكهنة فبدأ بأقامة الاحتفالات الدينية لوالده بهمة لا تعرف الملل . ثم أبحر في النيل شمالاً من طيبة الى العرابة^(٣) ولا يبعد أن يكون نزل بها وقت رجوعه الى طيبة ، فوجد معبد والده في حالة سيئة . وتفصيل ذلك أن سبتي توفي قبل اتمامه ولذا كانت القاعات بلا سقف وكانت أحجار العمود والجدران مبعثرة لم يشيد منها الا اليسير . وأدهى من هذا وأمر أنه وجد الأوقاف التي حبسها والده على هذا المعبد قد أساء التصرف فيها من وكل اليه رعايتها^(٤) على الرغم من اللعنات التي أوردتها سبتي في وقفته على من يتدها . كل هذا حصل ولم يمض على وفاة سبتي أكثر من سنة واحدة . وبما لاحظته رمسيس الثاني أيضاً وقتئذ أن مقابر ملوك الأسرة الأولى الذين حكموا مصر نحو ألفي سنة أصبحت في حالة تستدعي الالتفات والعناية^(٥) . لذلك جمع جلالته رجال قصره وقص عليهم رغبته في اتمام هذه الأعمال وعلى الأخص اتمام بناء معبد والده^(٦) . وقد أتم جلالته معبد والده على حسب رغبته وجدّد أوقافه ونظم ادارته وزاد عليها باهدائه الأغنام العديدة وضرائب مربى الطيور والصيداين . وأهدى للمعبد أيضاً سفينة تجارية بالبحر الأحمر وعدة سفن نبيلة أخرى وعبيداً وخداماً وعين أيضاً كهنة وموظفين لإدارة أملاك المعبد المذكور^(٧) . كل هذه اجراءات اعتبرها القوم نتيجة احترام رمسيس لوالده ، لكنها في الحقيقة عادت عليه بالفائدة والنفع بدليل ما نقشه جلالته من الرسوم الضخمة بمعبد والده من أن هذه الأفعال جلبت له رضا سبتي وجعلت سبتي خليل المعبودات يرجوهم ليطلبوا عمر رمسيس ويقوّوا حكمه^(٨) . ومناجاة الأموات لمصلحة الأحياء عقيدة قديمة وجدت على آثار الملكتين القديمة والوسطى ، غير ما ذكره رمسيس سابقاً على معبد والده الذي أتمه رمسيس بعده^(٩) .

والظاهر أن الأوقاف التي حبسها سبتي الأول على الأموات كانت كثيرة حتى أثقلت كاهل مالية رمسيس الثاني فاضطر جلالته أن يبحث عن موارد أخرى للسال . ودلتنا آثار منف أن جلالته اجتمع في السنة الثالثة من حكمه مع وزرائه وشاورهم في تميم مناجم وادى علاكي الذهبية بالنوبة واصلاح الطريق الموصل لذلك الوادى وقد عجز والده عن انجازه^(١٠) . وكان المندوب السامي لكوش حاضراً ذلك الاجتماع فشرح لجلالته صعوبة المشروع وفشل والده في الوصول الى مياه بحفر الآبار في ذلك الطريق وزاد على ذلك قوله : " ان الحالة هناك أصبحت سيئة للغاية ، فالأشخاص

(١) ١٧ : ١٢٨٨ : ٣ (٢) ٢٦٠-٢٥٥ : ٣ (٣) ٢٦١ : ٣ (٤) ٢٦٣ : ٣ (٥) ٢٦٢ : ٣ (٦) ٣ : ٢٦٤-٥
(٧) ٣ : ٢٧٤-٧ (٨) ٢٨١-٢٥١ : ٣ (٩) ٢٨١-٢٧٩ : ٣ (١٠) ٣ : ١٠٢٨١ : ٣ ملاحظة

الذين يعبرون ذلك الطريق يموت منهم ما يقرب من النصف ظمأ، وكانت الحير تموت أيضا للسبب نفسه^(١). لذلك وجب على كل مسافر الى تلك المناجم أن يأخذ كمية من المياه معه تكفيه لذهابه وإيابه، ولهذا السبب وقف احضار الذهب من تلك الجهات^(٢). بعد ذلك أشار الى كوش وأعضاء المجلس على جلالته بطريقة غير مباشرة يستحثونه على أن يقوم بتجربة أخرى للبحث عن مياه بذلك الطريق^(٣). وعهد الى والى كوش في ذلك فقام، هذا بأموريته خير قيام ثم بعث لرئيس خطابا أنباه فيه بأنه عثر على كمية غزيرة من المياه على عمق عشرين قدما تقريبا^(٤). وأمر رئيس والى كوش أن ينصب بجهة كوبان — مبدأ طريق وادي علاكي — حجرا أثريا منقوشا عليه تاريخ هذا المشروع^(٥). ويلاحظ أن هذه الأعمال الداخلية كانت مقدمة لمشروعات عظيمة أخرى صمم عليها رئيس المستقبل لأنه كان طموحا نحو العلا مشربيا نحو استرداد مستعمرات آسيا التي فتحها قبله فراعنة الأسرة الثامنة عشرة.

(١) ٢٨٢: ٣ - ٢٩٣ (١) ٢٨٦: ٣ (٢) ٢٨٨: ٣ - ٩ (٣) ٢٩٢: ٣ (٤) ٢٨٢: ٣ - ٢٩٥ (٥)

الفصل الحادى والعشرون

حروب رمسيس الثانى

ذكرنا سابقا أنه لما تولت الأسرة التاسعة عشرة الحكم كانت مستعمراتها الآسيوية محفوفة بالمخاطر ، وأن رمسيس الأول كان هربا قصير الحكم عاجزا عن القيام بحروب هناك . فلما تولى ابنه سبتي الأول عجز عن اختراق أقاليم الحيثيين وطردهم الى آسيا الصغرى واسترجاع ما فتحه ملوك الأسرة الثامنة عشرة . ثم أتى رمسيس الثانى فوجد الحيثيين واضعين أيديهم على تلك الأقاليم مدة عشرين سنة تقريبا منذ حربهم مع سبتي الأول . والظاهر أن المعاهدة التى أبرمت بين سبتي ومتلا (Metella) ملك الحيثيين ساعدت الأخيرين على بسط نفوذهم على مستعمراتهم وتحصينها جيدا ، ولذلك زحف متلا على وادى الأورونط (العاصى) واستولى على كدش مركز نفوذ سوريا أيام تحوتمس الثالث ، وقد قاومت وقتئذ أكثر من أية جهة بسوريا فلم تخضع إلا بعد كثير عناء . وقد أوردنا سابقا ميزات هذا الحصن الحربية والجغرافية ولا شك أن هذه الميزات استرعت أنظار ملك الحيثيين فجعلها عقبة كئودا فى وجه المصريين هناك .

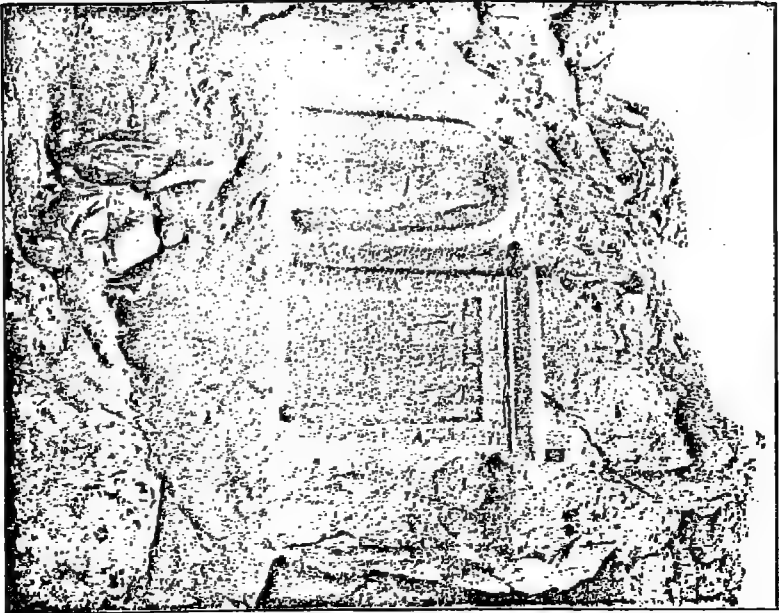
واتبع رمسيس الثانى طريقة تحوتمس الثالث فى غزو الحيثيين فبدأ أولا باخضاع الشاطئ البحرى ليتخذ قاعدة حربية لحركاته المقبلة ، لأن المواصلات البحرية كانت أسهل وأسرع من البرية . ولأن لم تعرف ما فعله رمسيس فى رحلته الحربية الأولى لما نفذ الشطر الأول من مشروعاته وكل ما تعلمه أنه نصب لوحا من الحجر الرملى على نهر الكلب قرب يروت بليت نقوشه تقريبا ولكنه يمكننا أن نميز عليه بصعوبة اسم رمسيس الثانى ، وذكر "السنة الرابعة من حكم جلالتة" (شكل ١٥٩) . ومنه استدل أن تلك الحملة حصلت فى السنة الرابعة من حكمه وأن آخر مكان بلغه جيشه هو ذلك المكان على الساحل الفيلق^(١) . ولكن هذه الحملة كانت لسوء الحظ اندارا كافيا لمتلا لحروب فى المستقبل ، فأخذ هذا يجمع قواته ويستعد بكل جهده ويميز جميع ولاته أن يشتركوا معا فى الدفاع عن كيانهم ضد مصر^(٢) . وقد عثر على نقوش مسارية ببوغاز كوى (عاصمة الحيثيين القديمة) تشير الى أن متلا نفسه كان يحارب رمسيس الثانى شخصيا فى معركة كدش (مأخوذة باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم بجامعة كبريدج صحيفة ١٤١) نانضم اليه ملوك النهرين وأرواد وكاركاميش (Carchemish) وكرد (كثمان) وكدش ونوج وأوجاريت (Ugarit) وحلب وملوك آسيا الصغرى مثل ملك كزودنت (Kezweden) وپدس (Pedes)^(٣) . ولم يكنف متلا

بذلك بل أنفق أموالا باهظة فى استئجار جنود كثيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئه كالليسيين الذين أغاروا مرة على الدلتا وقبرص أيام الأسرة الثامنة عشرة وكذا الميسيين (Mycians) والكليسييين (Cilicians) والدردانيين (Dardanians) وبلاد إرونت (Erwenet) المجهولة^(١) . كل هؤلاء اندمجوا فى سلك جيش الحيثيين فكان أقوى من القزات المصرية فى أى وقت مضى ، والظاهر أن عدده بلغ وقتئذ عشرين ألف جندى وهو مقدار لا يستهان به فى تلك الأزمنة .

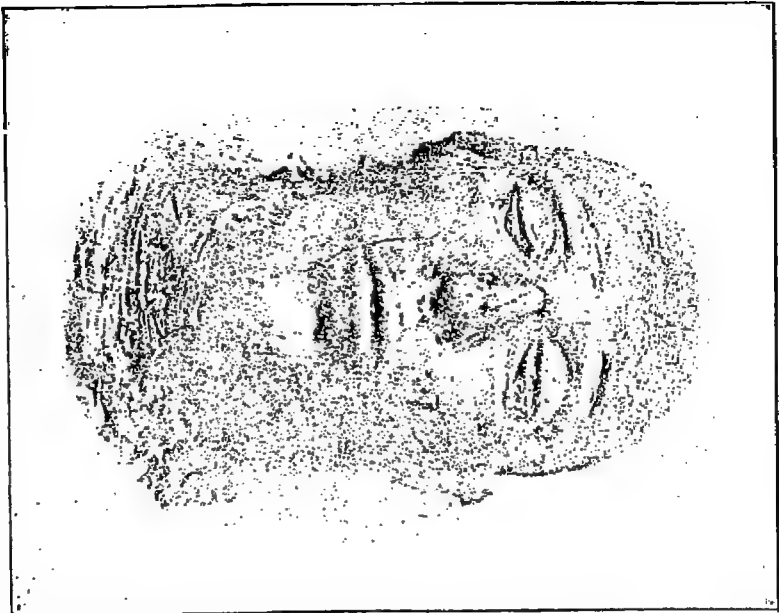
أما رمسيس الثانى فلم يكن أقل اجتهدا من ملك الحيثيين فى استئجار الجنود الأجنبية بالجيش المصرى . وللاحظ أن جنود النوبة كانت معتبرة جزءا من الجيش المصرى منذ عهد الملكة المصرية القديمة فأهالى الماوى مثلا قاموا بأعمال الشرط بعاصمة إخناتون . وهناك أمثلة عديدة مثل هذه قام بها النوبيون نحو الفراعنة . والمعروف من خطابات تل العمارنة أن جنود الشردينيين (Sherden) استعملوا للحفاظ على النظام بسوريا قبل زمن رمسيس الثانى بستين سنة . فلما أتى رمسيس أدخل منهم عددا عظيما فى جيشه وكوّن منهم وحدة حربية كبيرة ولذلك كان الجيش المصرى مقسما الى ثلاثة أقسام : قسم المشاة وقسم العجلات الحربية وقسم الشردينيين (شردن)^(٢) وقال رمسيس انه أسر هؤلاء الشردينيين فى حروبه السابقة والغالب أنه حقيقة فعل هذا مع بعضهم لما سطوا على ساحل الدلتا الغربى للنهب والسرقة^(٣) . ويرجح أن عدد جيش رمسيس كان حوالى العشرين ألفا مع جعلنا عدد الجنود المأجورة فيه . وقسم جلالته جيشه الى أربعة فيالق هى فيلق آمون وفيلق رع وفيلق پتاح وفيلق سوتخ واختار جلالته أن يقود فيلق آمون شخصيا^(٤) .

فى أواخر أبريل للسنة الخامسة من حكم جلالته (حوالى عام ١٢٨٨ قبل الميلاد) زحف جلالته بجيشه العرمم من مدينة ثارو (Tharu) على حدود مصر الشمالية الشرقية وكان متوليا قيادة فيلق آمون بمقدمة الجيش تتلوه فيالق رع وپتاح وسوتخ بهذا الترتيب . أما الطريق الذى سلكه رمسيس الثانى فى زحفه وقتئذ على فلسطين فلا نزال نجمله ، انما المعروف أنه لما بلغ لبنان كان زاحفا على شاطئ فينيقيا الذى أخضعه فى السنة السابقة . وجاء عن جلالته أنه أسس هناك مدينة سميت باسمه لاستعمالها قاعدة لأعماله الحربية فى المستقبل على الأرجح ، ولأن لم تعرف موضع هذه المدينة بالضبط ويرجح أنها قريبة من مصب نهر الكلب بالقرب من الشاهد الجبرى السابق الذكر . فى تلك المدينة جمع جلالته قواده وجنوده البواسل ثم زحف (على الأرجح) فى طريق وادى نهر الكلب . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أنه كان هناك طريق آخر أقل خطرا من هذا الى الجنوب على طريق نهر لى (Litāny) لكن رمسيس لم يتبعه لسبب لا نزال نجمله . بعد ذلك يم جلالته نحو نهر الأورونط متبعا اياه وذلك فى أواخر شهر مايو أى بعد مرور تسعة وعشرين يوما على مغادرته حصن ثارو . وضرب جلالته خيامه فوق آخرقة شمالى الوادى المرتفع بين سلسلى جبال لبنان ،

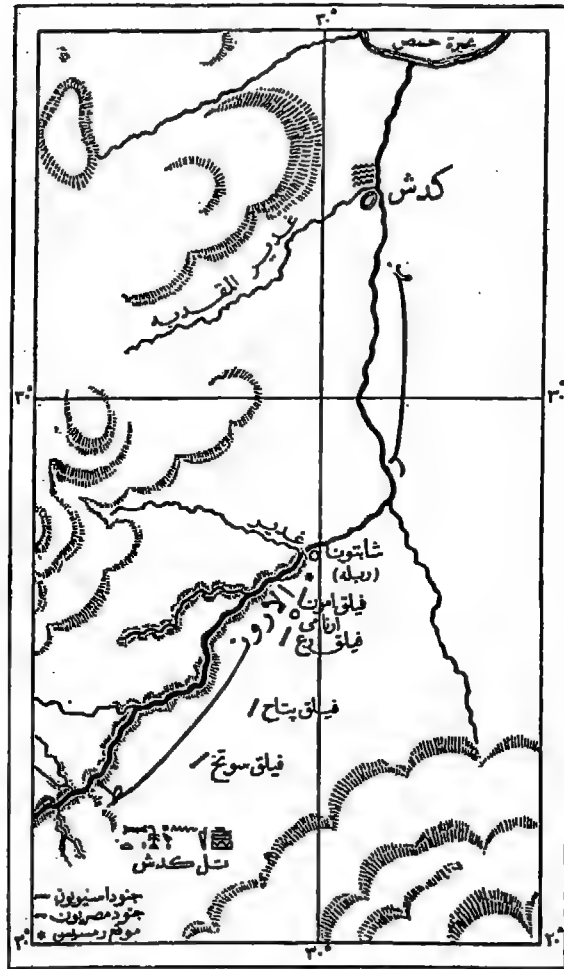
(١) ٣٠٧ : ٣ شرحه (٢) ٤٩١ : ٣ (٣) لمراجعة أصول الكلام التالى لهذا راجع ٣ : ٢٩٨ - ٣٤٨ وأيضاً كتابي بخصوص معركة كدش تابع جامعة شيكاغو سنة ١٩٠٤



شكل ١٥٩ - شامه تيرى لوستيس الثاني (أمين) وأثر لاثور
أخي الدين (أيسر) وهنيتا منور تان في منحود من الحجر الريلي
عند معبد نهر الكعب قرب بيرورت



شكل ١٥٨ - رأس مومياء سقاي الأول
مأخوذة من موميائه بدار تغف بالاقاهرة



خريطة رقم ٨ مركز كَدَش الجغرافي
 تبين موقع تل كَدَش حيث أمضى رمسيس الثاني ليلة قبل المعركة
 ومراكب جنوده في صبيحة يوم القتال

وهذا المكان يشرف على كدش ويبعد عنها بمسيرة يوم واحد ولذلك يجوز أن حصون هذه المدينة كانت ظاهرة لجنود رمسيس فى الأفق حيث يحول نهر الأورونط مجراه مخترقا ذلك الوادى .

فلما طلع نهار اليوم التالى حل رمسيس خيامه وزحف فى مقدمة فيلق آمون تتبعه الفيالق الأخرى وانحدر بقواته على المنحدر الأخير نحو فرع نهر الأورونط القريب من مدينة شابتونا (Shabtuna) المعروفة عند اليهود باسم ربله (Ribleh) . وإذا أمعن القارئ فى جغرافية تلك الجهات يجد أن نهر الأورونط يمتد من الآن أرضا سهله بعد خروجه من الوادى العميق بين سلسلتى الجبال الشاغحة . وسار رمسيس ثلاث ساعات ثم جهز عدته لأن يعبر نهر الأورونط الى الغرب متجها نحو كدش وبهذه الطريقة تمكن جلالته من عبور هذا النهر الواسع قبل أن يهجم على كدش من الجنوب (خريطة رقم ٨) . واقتضى نظام الجيش أن يقدم ضباطه أخبارهم كل يوم لجلالة الملك فكانوا يخبرونه بعدم عثورهم على جيش العدو قائلين له أنهم يريدون وجوده شمالى الجهة التى احتشدوا فيها . عند ذلك ظهر بدويان أدعيا أنهما هربا من جيوش الحيثيين وقالوا ان ملك الحيثيين انسحب بقواته شمالا الى اقليم حلب شمالى تونب (بعلبك) فصديق رمسيس هذه القصة لانطباقها على عدم عثور طلّاع المصريين عن موقع الحيثيين . حيثئذ عبر جلالته النهر مسرعا مصحوبا بفيلق آمون وزحف شمالا متبوعا بفيلق رع وبتاح وسوتخ سائرة الهوينى على هذا الترتيب ورغب جلالته فى حصار كدش ذلك اليوم ، فأسرع مصحوبا بحرسه الخاص فقط غير مسبوق بعجلة واحدة تاركا خلفه فيلق آمون يتبعه ، فبلغ جلالته كدش وقت الظهيرة وكان متلا حاشدا جيشه



خريطة رقم ٩ : معركة كدش
مراكز القوات الحاربة وقت هجوم
الاسيويين

فى الشمال الغربى لكدش . وأصبح مركز رمسيس حرجا للغاية لأن الفيالق المصرية الأربعة كانت متفرقة على مسافة ثمانية أو عشرة أميال من الطريق وكان ضباط فيلق رع وبتاح يستريحون فى ظلال الغابات المجاورة اثر سيرهم الحثيث المتعب . ثم اتضح لمتلا أن رمسيس صدق كلام البدوين اللذين أرسلهما لخداعه فأعد عدته لاغتنام الفرصة فلم يهجم على رمسيس حالا بل سحب قواته الى شرق الأورونط ولكن رمسيس استمر سائرا شمالا غربى كدش وحيثئذ أخذ متلا ينسحب جنوبا شرق المدينة خلصة جاعلا المدينة فاصلا بينه وبين رمسيس كي لا يراه . بهذه الكيفية أحرز متلا موقعا حرجيا يمكنه اذا أحسن استعماله أن يسحق به رمسيس وجميع قواته بغاية السهولة .

فى هذا الوقت العصيب كانت القوات المصرية مجزأة تقريبا الى جزأين : جزء قريب من كدش مؤلف من فيلق آمون ورع ، وجزء آخر مؤلف من بتاح وسوتخ جنوبى كدش لم يعبر فرع شابتونا (ربله) عند مصبه فى الأورونط (خريطة رقم ٩) . ولبعد فيلق سوتخ كثيرا عن حومة الوغى لم يسمع عنه شيء ولم يشترك فى العراك ذلك اليوم . ثم أراد رمسيس أن يستريح فى الشمال الغربى لكدش وهو على الأرجح المكان الذى حشدت فيه قوات الحيثيين فى طلعة اليوم .

فى هذا الموضع ضرب رمسيس خيامه للاستراحة وقت القيلولة . بعد ذلك نزن قصير وصل فيلق آمون وضرب خيامه حول السراى الملكى وأقام الاستحكامات الخارجة حول المعسكر . ثم أخذت عجالات المؤونة ترد تباعا ففصلت منها الثيران وجمعت الثقالات ذات العجلتين فى مكان منفرد ضمن الاستحكامات المذكورة . وكانت الجنود المصرية المتعبة تتلأأ وتسقى خيلها وتجهز فذائها ، فظهر وقتئذ جاسوسان أسويان أحضرتهما الطلائع المصرية الى خيمة رمسيس الملكية فلما ضربا ضربا مؤلما أقرا بأن متلا خبا جميع قوآته خلف المدينة . فاستشاط رمسيس غيظا لذلك واستدعى حالا قواده وموظفيه ووبخهم كثيرا على إهمالهم فى عدم معرفتهم موقع العدو ودقته منهم ثم أمر وزيره فى الحال باحضار فيلق يتاح بناية السرعة ، ويرجح جدا أن الوزير نفسه هو الذى قام بهذه المأمورية شخصيا تخلصا من إهماله وصونا لشرفه . ويستدل من طلب رمسيس لفيلق يتاح فقط أن فيلق سوتخ كان بعيدا لا يمكنه الحضور والاشتراك فى القتال لأنه لم يعبر حتى ذلك الوقت غدير شابوتونا (ربله) . ويستنتج أيضا من رسالة الملك أنه كان عالما بقرب فيلق رع منه واستعداده للقيام بأوامره ، ولكنه لم يدر بجلد رمسيس وقتئذ مقدار خطورة مركزه ولا عظم النكبة الموشكة أن تسقط على فيلق رع التعس . ” وبينما كان جلالتة يولج أمراءه على إهمالهم اذا بملك الحيثيين عبرنهر الأورونط جنوبى كدش قائدا جيشه العرمرم المستجمع من ممالك عديدة ، وكان ظهور هؤلاء الأعداء من جنوبى كدش فشطروا فيلق رع شطرين وهو سائر على غرة غير مستعد للدفاع “ .

هكذا وصف المكاتب الحربى تلك الحادثة المؤلمة وهو غاية فى الإيجاز والوضاحة مما يصعب على مكاتبي الحروب الحديثة أن يأتوا بأبلغ منه .

وكانت جميع قوآت الحيثيين راكبة عجلاتها أما فيلق رع فكان مكنونا من المشاة فقط ولذلك سهل شطره وتشتيته . والظاهر أن القسم الجنوبى لهذا الفيلق أيدد كله ، أما الباى فهرب نحو خيام رمسيس مذعورا تاركا عدوه وأدواته مبعثرة فى الطريق ، فأسر الحيثيون منهم عددا عظيما .

وكان أول ما فعله ضباط فيلق رع أن أرسلوا رسولا الى رمسيس رأسا ليخبره بالكارثة و يظهر لنا أن أول نذير وصل الى جلالتة كان دخول وحدات فيلق رع عليه مذعورين هاربين بينهم نجلا جلالتة ، فألقى هؤلاء أنفسهم داخل معسكر آمون لكنهم كانوا متبوعين بعجلات الحيثيين . عند ذلك أسرع حرس رمسيس المشاة فى تخلص وحدات رع من الأعداء ولكن الخطر كان شديدا فعجلات الحيثيين كانت تنيف على الألفين والخمسمائة . ثم اقترب الحيثيون من المصريين واتسعت مقدمتهم حتى طرقت المعسكر المصرى تماما .



خريطة رقم ١٠ : معركة كش
تبين كيفية فصل قوات رمسيس الثانى
عن بعضها وإحاطة العدو به فى الدور الثانى
للمعركة

وبدئى أن فيلق آمون تلقى جنود رع المذعورين بصدمة كالصاعقة لأنه لم يكن مستعدا للقتال بل كان يحاول الراحة من عناء السفر ولذلك كان أعزل من السلاح عديم الضباط . وهكذا انتشر الذعر بين وحداته فهربت هذه شمالا نحو خيام رمسيس ودب الذعر أيضا فى معظم قوات الملك التى حوله . أما قواته الأخرى الجنوبية فكانت بعيدة تفصلها عنه قوات الحيثيين ولذلك لم يكن هناك أمل فى مساعدتها . من ذلك يتضح للقارئ أن هزيمة رمسيس أوشكت أن تكون تامة لا مناص منها (خريطة رقم ١٠) .

فى تلك البرهة الرهيبة لم يتردد رمسيس لحظة فيما يجب عليه أن يفعله على قصر الوقت الذى لديه ، فحاول جلالته أن يخترق صفوف أعدائه المحيطة به ليلتحق بقواته الجنوبية فاعلى عجلته التى كانت بانتظاره وقاد بنفسه حرسه الخاص وبعض الضباط والجنود القريبين منه وهم بشجاعة نادرة على الحيثيين المتدققين عليه غربا ، فاتضح له أن قوات العدو فى الغرب والجنوب عظيمة جدا لا أمل فى احتراقها فساد جلالته الى معسكره ، وتأكد أن عجالات الحيثيين فى الشرق أضعف قوة لعدم وجود الوقت الكافى لديها

للاستعداد فيه . عند ذلك صوب جلالته قوته المستتية وشدته الفرعونية نحو تلك القوات الشرقية فأوقع بينهم الرعب والذعر وألقاهم فى النهر تحت أعين متلا الواقف على الشاطئ المقابل مصحوبا بمائة ألف من المشاة . فى تلك اللحظة رأى ملك الحيثيين ضباطه العديدين وكتابه الخصوصى وقائد عربته الشخصية وقائد حرسه الخاص وأخاه يلقون جميعا فى النهر تحت هجمات فرعون الشديدة . فأخذ جنود متلا على الشاطئ ينبجون رجالهم الغربى وكان بينهم ملك حلب الذى أسعف من الغرق بصعوبة . وقد ضاعف رمسيس مجهوده على تلك الجهة باستمرار حتى شنت شمل أعدائه هناك .

فى تلك الساعة حصل أمر كثير الحصول بين جنود الشرق نجى رمسيس من الهلاك الكلى . وتفسر ذلك أن الحيثيين الذين اقتفوا أثر المصريين من الجنوب والغرب وجدوا أدوات وأمتعة المصريين مبعثرة أمامهم بكثرة فأخذوا يسلبونها بدلا من الاستمرار فى مطاردة المصريين والقضاء عليهم . والحقيقة أنهم لو فعلوا ذلك لكسروا المصريين شر كسرة وتمكنوا من أسر رمسيس نفسه . واتفق فى الوقت الذى كان هؤلاء الأعداء يسلبون أمتعة المصريين أن وصلت امدادات حربية مصرية آتية من الشاطئ غير الفياق الأربعة السابقة الذكر لالتحاق بجيش رمسيس ، فانقضت هذه القوة على الحيثيين على غزاة وأبادتهم عن آخرهم .

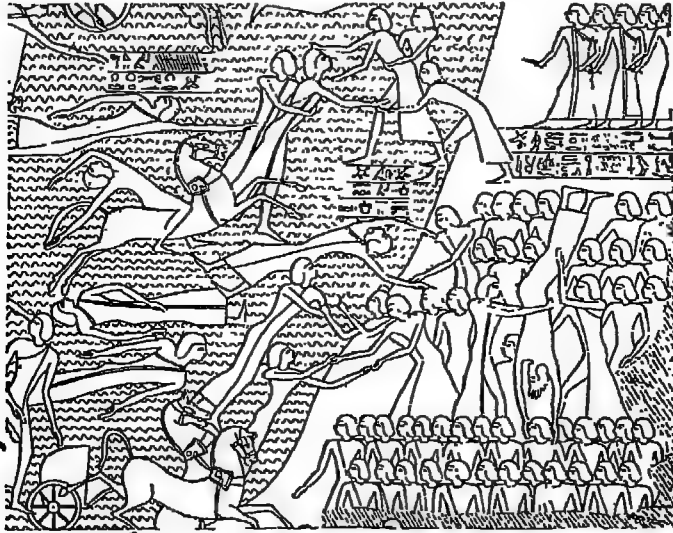
ولا شك أن هجوم رمسيس الشديد بجهة نهر الأورونط والمذبحة العظمى غير المتوقعة التي قامت بها تلك "الامدادات" الآتية بين الشاطئ أضعفا كثيرا من عزيمة الحيثيين وقللا من همهم وأعطيا رمسيس في الوقت نفسه مدة كافية لم شعث جيشه . وأخذت بعد ذلك وحدات آمون الهاربة تعود الى معسكرها وتتضم الى "الامدادات" فقل بذلك خطر مركز رمسيس الحربي وبقى جلالته منتظرا فيلق پتاح .

والمعروف أن المصريين دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال حتى اضطر مثلا أن يمدّ جنده بآنحر رديف عنده وهو المكون من ألف عجلة حربية مسلحة . وبالرغم من هجوم رمسيس على أعدائه ست مرات فإن مثلا لم يرسل جنده المشاة الثمانية الآلاف الذين كانوا معه على شاطئ النهر الشرقي ، ولذلك لم يحارب من الحيثيين إلا قسم العجلات الحربية أما المشاة فلم يشتركوا في الكفاح . وليلاحظ أن مقاومة رمسيس دامت حوالى ثلاث ساعات كان يراقب بشغف في أثناءها وصول قواته الجنوبية القريبة من شابتونا (ربله) . ولما مالت الشمس للغيب لاحت في أفق السماء رءوس حراب فيلق پتاح لأمعة مسرعة مكفهرة فابتسم لها محيا رمسيس إذ علم بقرب نجاحه ، فوقع الحيثيون بين قوتين مصريتين واضطروا بحكم مركزهم أن ينسحبوا الى كدش بعدما تكبدوا خسائر جسيمة على الأرجح . والحق يقال اننا لا نزال نجهد كثيرا عن هذه الحوادث انما الثابت أن الليل لم يحن حتى نجح رمسيس من ورطته واحتفى عدوه داخل كدش . بعد ذلك أحضر الأسرى أمام جلالته فذكر تابعيه أن الفضل في أسر هؤلاء يرجع اليه وحده دون سواه .

وقد طفحت الآثار المصرية بوصف رجوع جنود رمسيس الهاربة اليه ثانيا وما رأى هؤلاء من القتل والفتك الذريع الذى حل بالحيثيين وبالأخص حاشية مثلا الخصوصية والحكومية . ولا مرأى في صدق هذه الروايات لأنه من المؤكد أن الحيثيين خسروا كثيرا اثر هجوم رمسيس عليهم بجهة النهر شمالى كدش واثروا وصول فيلق پتاح . لكن خسارة رمسيس كانت جسيمة أيضا وعلى الأخص خسارة فيلق رع ولذا لا يبعد أن يكون المصريون خسروا أكثر من الحيثيين . ومن هذا يتضح للقارئ أن فوز رمسيس في هذه المعركة ينحصر في نجاحه من الهلاك المحقق به ، أما احتفاظ جلالته بمركز دفاعه مدة القتال وبعده فلا قيمة له بجانب النتيجة المذكورة .

وجاء في احدى الروايات المصرية عن هذه المعركة أن رمسيس كرر هجومه على الحيثيين بشدة عظيمة فأرسل مثلا خطابا الى جلالته رجا فيه الصلح فوافق رمسيس على هذا الطلب ثم رجع متصرا الى مصر . ولم تذكر باقى الروايات شيئا عن حوادث اليوم التالى ولكن يستدل منها أن هم رمسيس كان موجها للتخلص من ورطته وقيادة جنوده المشتتة ثانية الى مصر . ولم يرد في رواية واحدة خبر استيلاء جلالته على كدش ومع ذلك فقد ذكر كثير من الأثرين حصول هذا الأمر بدون دليل تاريخي .

ويجئ نجا رمسيس من الخطر الذى جرّه الى طيشه أخذ يباهى بفعله لانتخلص من هذا المأزق ، فنقش على جميع عماراته الضخمة المهمة أخبار هذه الموقعة الحربية بأسهاب ما اعتبره هو ورجال حاشيته جديرا بالذكر . وتشاهد أخبار هذه المعركة منقوشة نقوشا بارزة زاهية على جدر معبد أبى سبليل والدّر والرماسيوم معبد جلالته بطيبة ومعبد الأقصر والكرنك والعراة وغير ذلك من العمارات التى بليت الآن . ومن أهم الاستكشافات الحديثة التى عملت فى بوغاز كوى بآسنيا الصغرى العثور على نص هذه المعاهدة مكتوبا بالخط المسارى . وعثر أيضا على نصوص مسازية أخرى بتلك الجهة استدلت منها أن النفوذ الحيثى كان مبسوطا على مملكة آمور وواصل الى شمالى فلسطين (مأخوذة باذن من الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم للجامعة كبرج صحيفة ١٥ طبعة سنة ١٩٢٥) .



شكل ١٦٠ - منظر من مناظر النقوش البارزة لمعركة كدش يشاهد فيه الأسير يون هارين نحو نهر الأورونط واخوانهم على الجهة الأخرى النهر يتشلونهم منه . ويرى أيضا ملك حلب مقلوبا ورأسه الى أسفل بواسطة جنده لانخراج ما ابتله من المياه

واهتم حفار هذه النقوش برسم المعسكر المصرى ورجوع أنجال رمسيس بعد هربهم وهجوم رمسيس بشدة على الحيثيين جهة الأورونط ووصول الامدادات المصرية التى أسعفت المعسكر فى آخر الأمر . وقد أكثر أمام رمسيس من رسم قتلى الحيثيين ونقش جوار عظائهم اسم كل منهم ومنه استدلت أن بعضهم كانوا أمراء ومن أسر ملكية . ويرى الشاهد على شاطئ الأورونط الشرقى جنودا حيثيين رافعين شخصيا مقلوبا رأسه الى أسفل محاولين انخراج ما تجرع من مياه النهر ويجوار هذا الشخص نقوش تريحتهما : "الحاكم العين والى حاب قلبه جنده جاعلين أعلاه أسفله بعد ما ألقاه جلاله الملك رمسيس الثانى فى الماء" (شكل ١٦٠) . وهذه النقوش أكثر الآثار المصرية تعلقا بأذهان زوار مصر .

وعثر على روايتين لهذه المعركة مستهلتين بديباجة ملكية يظهر منها أن الروايتين كانتا بمثابة بلاغين وسميين عن سير المعركة . وقد وضع أحد شعراء ذلك العصر قصيدة رنانة ضمنها أخبار تلك المعركة سيأتي الكلام عليها ، وبما يستلقت النظر في نصوص روايات هذه المعركة عبارة "انفراد رمسيس في القتال ودفاعه وحيدا بلا جيش معه" فقد وردت مكررة كثيرا .

ونحن مدينون الى النصوص القديمة في معارفنا عن معركة كدش المعترية أقدم المعارك الحربية المعروفة بالضبط ، وهذا هو السبب في اسهابنا في وصفها أكثر من سواها ، فأتضح للقارئ أن أهالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانوا ملمين بميزات المواقع الحربية وتقسيم القوات الحاربة قبل القتال ، وأن الحثيين برعوا في القيام بحركات خفية دون معرفة المصريين ، وأنهم قسموا جيشهم الى قلب وجناحين ، ولذلك كانت معركة كدش أقدم معركة تاريخية استعمل فيها هذا التقسيم الحربي . وبناء عليه تكون سهول سوريا شاهدة أقدم أنواع هذه الحركات الحربية التي أتقنها نابليون وفاق فيها سواه والتي تعرف الآن "بفن الانتصار قبل العراك" .

ولما وصل رمسيس الثاني الى طيبة اقيم له احتفال عظيم بمعبد الحكومة وكانت معه أبنائه الأربعة ، فقدّم هناك جلالاته للعبودات "أسراه الشماليين الذين أرادوا هزيمة جلالاته ففتك بهم وأحضر أسراهم ليخدموا في مخازن أبيه آمون"^(١) ثم نحل رمسيس لنفسه الألقاب الآتية : "مذل الأراضى والبلدان وحيدا دون سواه"^(٢) .

وبالرغم من مباهاة رمسيس بهذا المديح وإعجابه بوسائله فقد أيقن أن الحالة التي تركها بآسيا خطيرة بالنسبة للجيوش المصرية هناك ، لأن تأثير معركة كدش المعنوى في حكام فلسطين وسوريا كان ضعيفا رغم ما أظهره رمسيس من الشجاعة والاقدام ثم ان رمسيس رجع الى مصر بسرعة دون أن يحاصر كدش . زد على ذلك أنه خسر هناك فيلقا من جيشه . كل هذه أسباب قللت كثيرا من هيبة المصريين بآسيا وعززت جيوشهم في المستقبل للخاطر . ثم ان الحثيين اتخذوا عدم الفصل في معركة كدش مجالا للتحرش فوطدوا نفوذهم بآسيا وبثوا الفتن والقلاقل بالمستعمرات الآسيوية . وقد قلنا فيما سبق أن سبقي الأول استرجع شمالي فلسطين فتانحت امبراطوريته مملكة الحثيين فسهل على الآخرين إشعال الفتنة والثورة في مستعمرات مصر هناك . وقد حصل فعلا أن شبت نيران الثورة تدريجا حتى بلغت الشمال الشرقى للدلتا فاضطر رمسيس أن يبنى امبراطوريته من جديد وأن يسترجع ما فتحه والده . ومعلوماتنا عن تلك العصور يسيرة جدا ، زد على ذلك أن ما ورد اليانا من أخبار تلك الحوادث مشكوك في صحته . وكل ما يمكننا ذكره هنا أن رمسيس جدد حملاته الحربية على آسيا مبتدئا بمدينة عسقلون التي استولى عليها عنوة^(٣) واستمر كذلك الى السنة الثانية من حكمه

حيث وردت الأنباء بأنه زحف على شمالى فلسطين جائلا فى مدن جليله (Galilee) الغربية^(١) ، وهناك التقي مع حراس الحدود الحثيين الذين زحفوا جنوبا بعد معركة كدش ، وكان هذا الالتقاء بالقرب من مدينة دير (Deper) المعروفة عند العبرانيين باسم طابور (Tabor) فاستولى على هذه المدينة عنوة وساعده فى ذلك أنجاله^(٢) وذلك بعد ما أقام بها الحثيون مدة يسيرة . ويرجح أنه أغار أيضا على إقليم حوران (Hauran) وإقليم جليله شرقى البحر حيث ترك هناك حجرا أثريا أثبت عليه غزوته^(٣) . ولم تمض ثلاث سنوات على ذلك حتى بلغ رمسيس الثانى حدود مستعمراته الآسيوية التى تركها منذ أربع سنوات . والحقى يقال أن نتائج أعمال هذا الملك بآسيا تشهد له بكبر الهمة وعظم الكفاية الحربية ، فقد جاء عنه أنه كرر زحفه على وادى الأورونط وطرده الحثيين منه ، وأن قواته حاربت شمالى كدش فاستنجد ضمنا أنه استولى على هذه المدينة . بعد ذلك زحف على تونب فى بلاد النهرين فاستولى عليها ونصب فيها تمثالا لنفسه^(٤) . والمعلوم أن هذه الجهات النائية لبثت مدة طويلة منشقة من الحكم المصرى فلم يكن إخضاعها بعد ذلك أمرا هينا . ثم انها كانت أهلة بالحثيين الذين رضوا أن يكونوا تحت حكم رمسيس على الأكثر . لهذه الأسباب لم تستتب السكينة هناك طويلا بل شبت نار الفتنة بسرعة فاضطر رمسيس الثانى أن يذهب الى تونب ثانية ويطرده الحثيين منها ، وقد تمترض وقتئذ لمخاطر جمة فقد اضطر أن يحارب بدون درع يقيه من السهام . ولما كانت أخبار هذه المعركة قليلة جدا نجد أنفسنا عاجزين عن الخوض فى تفاصيلها^(٥) ولكن يستدل من قائمة البلاد التى أخضعها اثرها أنه استولى على بلاد النهرين وشمالى سوريا (الرتو السفلى) وأرواد وسكان أرخبيل اليونان (خفتيو) وقطنه (حمص) التى بوادى الأورونط^(٦) . وقد أثبتت هذه النتيجة مهارة رمسيس الحربية والسياسية لأنه قوض مملكة الحثيين فى سوريا تماما ، ومع ذلك فانت لا تزال غير متأكدين من صحة إخضاع رمسيس لجميع هذه الجهات الآسيوية الشمالية .

وثابر رمسيس الثانى على حروب آسيا خمس عشرة سنة تقريبا ثم حصل حادث داخلى هام بمملكة الحثيين وقف حروبه هناك فجأة الى الأبد . ويتلخص هذا الحادث فى أن متلا ملك الحثيين توفى فى معركة حربية (أو قتل بيد عدو له) فتنبأ أخوه خيتاسار (Khetasar) الملك بعده^(٧) . ولشدّة حاجة هذا الأخير الى حفظ مركزه واسكات معارضيه عرض على رمسيس الثانى مشروع معاهدة لإبطال الحروب وتوطيد السلام بينهما بآسيا . وفى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى (أى حوالى سنة ١٢٧٢ قبل الميلاد) وصلت رسل خيتاسار الى القصر الفرعونى وكان وقتئذ بالدلتا كما سيتضح فيما يلى . ولا بد أن يكون الطرفان اتفقا سابقا على صورة هذه المعاهدة بمساعى ممثلينها لأن الآثار دلتنا أن الرسل لم يرسلوا وقتئذ إلا للواقعة النهائية على المعاهدة . وقد نقشت هذه المعاهدة على لوح فضى وتشمل ثمانى عشرة مادة رسم أعلاها المعبودة سوتخ محتضنة ملك الحثيين ويجوارها المعبودة عينها محتضنة ملكة الحثيين المدعوة بوتوخيا (Putukhipa) زوج خيتاسار .

(١) ٣٥٦ : ٣ (١) ٣٦٠ - ٣٥٩ ، ٣٥٧ : ٣ (٢) ٣٥٨ : ٣ (٣) ٣٦٥ : ٣ (٤) ٣٦٤ : ٣ (٥) ١٠٠ : ١ ، ٣٧٥ : ٣ (٧) ٣٦٦ (٦)

ويجوار هذه الرسوم وضعت أختام سوتخ معبودة الحيثيين ورع معبود إارنين (Ernen) ورمسيس وخيتاسار . ويرجح أن ملك الحيثيين احتفظ بنسخة أخرى من هذه المعاهدة ، وتعتبر هذه أقدم معاهدة دولية معروفة واليك ترجمة دياجتها :

”معاهدة منقوشة على لوح فضى بين ملك الحيثيين خيتاسار الشجاع بن ميراسار ملك الحيثيين الشجاع ابن ابن سبلل ملك الحيثيين الشجاع (طرف أول) ورمسيس الثانى الملقب أسر معارع استپن رع (Usermare-Setepnere) حاكم مصر الأعظم الشجاع ابن سبتى الأول حاكم مصر الأعظم الشجاع ابن ابن رمسيس الأول حاكم مصر الأعظم الشجاع (طرف ثان) .

هذه المعاهدة الطيبة عملت لحفظ السلام والإخاء واستتباب السكينة بين الطرفين الى الأزل“ (١) .
على ذلك سرد الأحوال والعلاقات القديمة بين مصر ومملكة الحيثيين ثم وصف العلاقات والمعاملات الحديثة ثم الشروط الواجب مراعاتها فى المستقبل وأهمها وقوف غزوات كل فريق لأراضى الآخر وأرجاع العلاقات الودية الى أصلها ومساعدة كل فريق للآخر فى حالة هجوم دولة ثالثة أجنبية عليه والتعاون فى عقاب أشقياء الطرفين فى سوريا (غالبا) وطرد الهاربين السياسيين والمهاجرين التابعين لكل فريق الى بلاده . يعقب ذلك ملحق يحض على استعمال الرأفة فى معاملة هؤلاء الأشخاص والاستمهاد بألف معبود ومعبودة من مملكة الحيثيين وألف معبود ومعبودة من مملكة مصر لهذه المعاهدة ، وقد علمنا منها عدة معبودات حيثة ومحل عبادتها . وتنتهى المعاهدة بصب اللعنات على كل من يخالف شروطها وبطلب الرحمة والسلام لكل من يحترمها . والظاهر أن الملحوظة الأخيرة صيغت فى آخر الأمر .

وقد أمر رمسيس بنقش صورتين من هذه المعاهدة بسرعة على جدران معبدى له بطيبة ديجهما بوصف وصول رسل الحيثيين وأورد بعد ذلك رسم المعبودات والأشخاص الوارد ذكرهم فى اللوح الفضى المذكور (٢) . وقد عثر وينكلر (Winkler) على صور مبدئية لهذه المعاهدة منقوشة بالخبط المسماة على قالب لبن فى بوغاز كوى بآسيا الصغرى .

ولم يرد بهذه المعاهدة بيان حدود المملكتين الحيثة والمصرية بآسيا ولكن يرجح أنها عينت فى معاهدة سابقا . ومن الصعب وصف هذه الحدود بالضبط . ولكنه يستدل من النقوش المسماة التى عثر عليها وينكلر (Winkler) فى بوغاز كوى منذ عام ١٩٠٦ وهى التى أشرنا اليها سابقا (صحيفة ٢٥٢) أن الحيثيين استمروا حاكين آمورا بأعلى الأورونط . لذلك لم يثبت تماما اذا كان رمسيس الثانى وسع حدود مستعمراته كثيرا عن حدود والده ولكن الظاهر أنه أبعداها جهة الشاطئ قرب بيروت لأنه أقام حجرين أثريين ذير الحجر الذى ذكرناه فى السنة الرابعة من حكمه (٣) . ويفهم من نصوص المعاهدة أن رمسيس الثانى تواضع فساوى نفسه بملك الحيثيين ، وهذا لم يمنع رمسيس أن يدعى لنفسه الفوز والنصر ويخل لقب ”قاهر الحيثيين“ كما هى العادة بالبلاد الشرقية (٤) .

(١) ٣٧٣: ٣ (٢) ٣٦٧: ٣ - ٣٩١ (٣) راجع صحيفة ٢٨٣ (٤) ٣٩٢: ٣

منذ ذلك الوقت انتهت الحرب وخيم السلام على المملكتين ، فوقف رمسيس الثانى بآسيا عند حذره . والظاهر أن شروط المعاهدة جاءت فى مصلحة الطرفين كثيرا لأنه بعد إبرامها بثلاث عشرة سنة (حوالى سنة ١٢٥٩ قبل الميلاد) زار ملك الحيثيين مصر وحضر الاحتفال بتأهيل كريمة الكبرى برمسيس الثانى . ودلتنا الآثار أن مجئ ملك الحيثيين الى مصر استدعى اقامة احتفال عظيم بالقصر الملكى تقدمته كريمة جلالتة متبوعة بالهدايا الجزيلة ثم جلالة خيتاسار نفسه ثم ملك كود (Kode) (١) . واختلط وقتئذ حرس الحيثيين بالجنود المصرية بعد ما كانوا ألد الأعداء ثم سميت الأميرة الحيثية باسم مصرى هو معات نفرو رع (Matnefrure) أى الناطرة محاسن رع واحتلت مكانا مبعجلا فى القصر الملكى .

وتشاهد رسوم هذه الزيارة على مدخل معبد رمسيس بأبى سنبل (٢) ، وقد أقيم للأمية بعد ذلك تمثال يجوار تمثال بعلا بتنيس (Tanis) (٣) . ووصف الشعراء الملكيون هذه الاحتفالات فى قصائد رنانة أوضحوا بها طريقة ارسال ملك الحيثيين الى ملك كود ملتصا مرافقته لمصر لتقديم واجبات الاحترام لفرعونها (٤) . وبما جاء فى هذه القصائد أن المعبود بتاح كان وسيلة هذا الفرح وقد وضعت الأشعار مقولة عن لسان هذا المعبود واليك ترجمة ما جاء فى هذا الصدد :

”لقد جعلت مملكة خيتا خاضعة لقصر ك ؛ وألقيت الرعب فى قلوب أهلها فحضروا اليك وجلين حاملين هداياهم ، التى غنمها بسراتهم ، وما يملكونه جزية لصينك الذائع . لقد أحضرت كريمة ملك خيتا الكبيرة فى مقدمتهم لأطيب بها قلب سيد القطرين“ (٥) .

وكان لهذه الحادثة تأثير كبير فى نفوس المصريين فبنى عليها العوام قصة تداولها الأهالى مدة طويلة ولم تنقش على الآثار إلا فى عهد اليونان . وتبدأ نقوش هذه القصة بوصف الزواج بلى ذلك طلب حى رمسيس الثانى ارسال تمثال المعبود خونسو بطيبه الى مدينة بختن (Bekhten) ويظن أنها باكتريا (Bactria) وذلك لطرد الأرواح الخبيثة الخالة بجسم أخت زوجة رمسيس . ولا يبعد أن يكون حصول مثل هذه الأمور أمرا حقيقيا (٦) ، إذ من الثابت أن العلاقات الحسنة بين الحيثيين ورمسيس استمرت بدون انقطاع ، ويحتمل أن رمسيس تزوج بكريمة أخرى من ملك الحيثيين (٧) . وقدبقى السلام نجما بين الطرفين ضاربا أطنابه ، والمعاهدة نافذة المفعول طوال حكم رمسيس الثانى وفى بعض حكم منفتاح (Merneptah) الذى أتى بعده .

ولاشك أن استمرار رمسيس الثانى فى حروبه مع الحيثيين خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة أعلى كثيرا من مكانته وأذاع من صيته الحربى . والمعركة الواحدة التى نعلم تفاصيلها بالضبط تشهد له حقيقة بالبسالة والشجاعة دون المهارة فى القيادة الحربية . والمعروف أنه لما أعلن صلحه مع خيتاسار امتنع عن الحرب امتناعا كليا . وقد حصلت فى النوبة مشاغبات فى السنة الثانية من

(١) ٤١٠ : ٣ و ٤٢٠ و ٤٢٤ (٢) ٤٢٤ - ٣٩٤ : ٣ (٣) ٤١٧ - ٤١٦ : ٣ (٤) ٤٢٥ : ٣ - ٦
(٥) ٤١٠ : ٣ (٦) ٤٢٩ : ٣ - ٤٤٧ (٧) ٤٢٧ : ٣ - ٨

حكمه لكنها أخضعت^(١) ثم تجددت هذه الى ما بعد صلح الحيثيين^(٢) ولأنها لم تكن ذات بال لم يذهب اليها رمسيس شخصيا بل عهد في اقماعها الى غيره من الضباط . ودلتنا الآثار أن رمسيس الثاني حارب الليبيين ويرجح أن هذا كان نتيجة اتحاد الشردينين (Sherden) مع الليبيين لنهب غربي الدلتا . ولا تزال معلوماتنا عن هذه الحرب قليلة تكاد تكون معدومة^(٣) .

وتعتبر حروب رمسيس الثاني بآسيا آخر مجهودات مصر الحربية التي بدأ بها أحمرس الأول لما طرد الهيكسوس . بعد ذلك قام المصريون ببعض الحملات الحربية لاسترجاع المستعمرات الفاسطينية والسورية المفقودة ولكن ذلك كان بمساعدة جنود مأجورة غير مصرية أو نتيجة امتزاج الدم الفرعوني بدم أجنبي . وأصبح الجيش المصرى منذ ذلك الوقت آلة دفاع لصدد هجوم الأجنبي ، ثم عجز الفراعنة عن قيادته ، ولم يحصل ذلك إلا بعد انتهاء حكم الفراعنة المنتسبين الى المعبود رع .

٤٩١:٣ (٣)

٤٩٠ - ٤٤٨:٣ (٢)

٤٧٨:٣ (١)

الفصل الثانى والعشرون

امبراطورية رمسيس الثانى

لما بسطت مصر سيادتها على آسيا اضطرت بحكم الظروف أن تنقل عاصمة ملكها من طيبة الى الوجه البحرى . وأول من نقل العاصمة فى عهد الامبراطورية هو إخناتون الذى اختار مدينة آخت أتون لهذا الغرض . فلما جاء حورمحب — وهو القول الأريج — أرجع الحكم ثانيا الى طيبة . وقد ألعنا سابقا الى أن الظروف الادارية اضطرت سبى الأول أن يمضى بضعة أشهر بالدلتا^(١) . والآن نعلم القارئ أنه لما تولى رمسيس الثانى الملك وأخذ يشن غاراته على آسيا التزم أن ينقل مركز حكومته الى الدلتا ، ومن ثم أضحت طيبة مركزا دينيا فقط لا يؤمها فرعون إلا وقت الاحتفالات الدينية الكبرى . وبدى أن إقامة فرعون بالدلتا رقت كثيرا من حالة مدنها وعظمت من شأنها ، فمدينة تنيس (Tanis) مثلا صار لها مقام عظيم فكبر حجمها وأقيم بها معبد شاخ مصبوغ بالصبغة الرمسية نصب على صرحه تمثال عظيم لرمسيس مصنوع من صخرة جرانيتية واحدة . أما ارتفاع هذا التمثال فيضيف على تسعين قدما وتقرب زنته من تسعمائة طن وكان يبدو للعيان على مسافة أميال عديدة^(٢) . وقد اعتنى رمسيس كثيرا بوادى طميلات وهو على الأرجح فى طريق القناة الموصلة وقتئذ النيل بالبحيرات المرة ، لأنه كان ممزاها ما بين القطر المصرى وآسيا ، فشىد فى منتصفه مدينة يتوم (أو فيثوم) (Pithum) — ومعناها معبد آتوم — وجعلها مخزنا للحبوب وشيد أيضا مع سبى الأول مدينة أخرى غربى يتوم وشمالى عين شمس تعرف الآن بتل اليهودية . وأنشأ رمسيس مدينة ثالثة أيضا شرق الدلتا سماها پررمسيس (Per-Ramses) — أى بيت رمسيس — لم نهند للآن الى موقعها بالضبط ولكن يظن البعض أنها تنيس (Tanis) ، والغالب أنها واقعة على حدود مصر الشرقية لأن بعض شعراء ذلك الوقت وصف غاسنها بأسلوب يفهم منه أنها بين مصر وسوريا . ومما جاء عن هذه المدينة الأخيرة أيضا أنها كانت على اتصال بالبحر الأحمر . وقد أصبحت پررمسيس مقر الحكومة وعاصمة البلاد فحفظت بها المكاتب الرسمية وعبد فيها رمسيس كأحد آلهتها . أما وزير الدولة فكان يقطن عين شمس^(٣) .

ولما ارتقت أقاليم متوسط شرق الدلتا وكثرت أعمال ومآثر رمسيس بها أطلق عليها اسم "أقاليم رمسيس" . وقد ثبت الآن بصفة قطعية أن هذا الاقليم هو الوارد ذكره فى رواية بنى اسرائيل أيام سيدنا يوسف ، تلك الرواية التى يرجع تاريخ حوادثها الى ما قبل الرمامسة بمدة .

وليعلم أن فتوحات رمسيس الآسيوية لم تكن وحدها سبب رخاء ورق شرق الدلتا، بل الفضل في ذلك يرجع أيضا إلى نشاطه وهنئه وإلى أنه نشر لواء العز على البلاد وأفاض عليها السعادة والرفاهية. وقد بليت كل آثار رمسيس بعين شمس ولم يبق من آثاره بمنف إلا النادر^(١). وقد ألمعنا سابقا إلى مآثره بالعبارة لما تكلمنا على معبد والده هناك. والآن نذكر القارئ أنه لم يكتف بأعماله هذه هناك بل شيد لنفسه معبدا قريبا من معبد ستي. وقد أنفق كثيرا على معبد والده بطيبة وفي بناء معبد لنفسه هناك يعرف الآن بالرمسيوم (Ramesseum) وفي إنشاء حوش عظيم وصرح شاخ بمعبد الأقصر. أما القاعة الكبيرة ذات العمدة العظمى بالكرنك التي بدأ بها ستي الأول وأتمها رمسيس الثاني فتعد من أعظم عمارات العالم القديمة والحديثة.

وقصارى القول أن اسم رمسيس الثاني لا يزال منقوشا على جميع معابد مصر العظيمة فوق الحجرات والأحواش والعمد والصرح إلى يومنا هذا. وقد استعمل في بناء عماراته أحجار مبانى أسلافه بلا رافة ولا مبالاة، فهدم مثلا معبد تتي (Teti) أحد ملوك الأسرة السادسة واستعمل أحجاره في تشييد معبده بمنف^(٢)، كما أُلِف أيضا هرم سينوستريس الثاني باللاهون ونزع ما حوله من البلاط وهشم آثاره البديعة ليستعمل ألقاضه في بناء معبده في إهناس (هيراكليو بوليس)^(٣). أما في الدلتا فلم يظهر أدنى عناية أو اهتمام بآثار الملكة الوسطى. وورد عنه أيضا أنه وسع معبد الأقصر بأحجار المعبد الجرانيتي البديع الذي شيده تحوتمس الثالث، جاعلا وجه الأحجار المختومة بختم تحوتمس من الداخل حتى لا ترى من الخارج.

وكتب اسمه على كثير من آثار سلفه ونخلها لنفسه زورا وبهتانا، ومع ذلك فقد شيد آثارا فاقت عمارات سلفه حجما ومشكلا، وملا مقابده تماثيله وبالمسلات الشاحمة المنقوشة وغير ذلك من الأحجار. والرأى السائد الآن أن تماثيل هذا الملك هي أصح التماثيل المصرية، خذ مثلا التمثال الذي ألمعنا إليه قبلا عند الكلام على مدينة تنيس، وزيد فتذكر القارئ أن رمسيس صنع تماثلا آخر لنفسه وضعه على صرح الرمسوم بطيبة أقل حجما وارتفاعا من تمثال تنيس لكنه يزن حوالي ألف طن (شكل ١٦١). والمعهود فيه كثرة نصبه للمسلات في كل عيد طوال حياته ولذلك بلغت مسلاته عددا كبيرا، فقد شيد بتنيس مثلا ما ينيف على أربع عشرة مسلة تهشم كلها الآن. ويوجد في روما الآن ثلاث مسلات على الأقل لرمسيس وفي باريس إحدى المسلتين اللتين نصبهما في الأقصر^(٤).

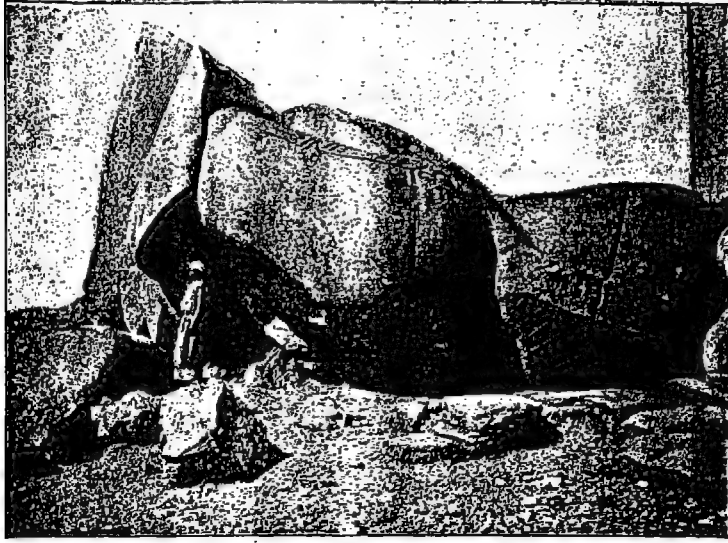
وللاحظ أن النفقات الباهظة التي أنفقها رمسيس لم تقتصر على نصب المسلات وإقامة الهارات، بل شملت أيضا الأوقاف الكثيرة التي حبسها على مستخدمى تلك الهارات. قال جلالة عن معبد العرابة أنه شيده من الحجر الجيري الجميل، وجعل أفاريز أبوابه من الجرانيت، وأبوابه

Annales, III, 29. (٢)

٣٧ - ٥٣ - ٣ (١)

٩ - ٥٤٣ : ٣ (٤)

Petrie, Illahun, p. 4; Kahun, p. 22; Naville, Ahnas, pp. 2, 9-11, pl. I. (٣)



شكل ١٦١ - بعض أجزاء تمثال رمسيس الثانى العظيم البالغ وزنه ألف طن تقريباً
وهو مصنوع من الجرانيت من جزيرة إلفنتين ويمثل الملك جالساً وكان منصوباً
أمام الصرح الثانى بالمرسيوم بعلية



شكل ١٦٢ - مخازن مدينة يثوم وقد ورد ذكر هذه المدينة
فى الأخبار المصرية بأنها شيدت بواسطة المصريين
(مأخوذة عن أندروود وأندروود فيو يورك)

من النحاس الملبس بخليط الذهب والفضة ، وحبس لمعبوده أوقافا يومية عديدة في ابتداء كل فصل وفي كل عيد على توالى الأيام . وملأ المعبد بكل ما يحتاج اليه من ما كل وخزين وبهائم وعجول وثيران وأوز وخيز ونيذ وفاكهة ، كما وظف فيه أيضا كثيرا من العبيد المزارعين وضاعف مساحة أراضيه الموقوفة وزاد من قطعان غنمه وطفحت شونه بالجبوب فبلغت اهراؤها عتات السماء . . . كل هذه القرابين قدمها لمعبوده المقدس بعد ما استولى عليها بسيفه الظافر . ولم يكتف بذلك بل ملأ خزانة ذلك المعبد بالأشجار الكريمة وسبائك الذهب والفضة وكدس مخازنه بما دفعته المستعمرات من الجزية ثم زرع أيضا حدائقه الكثيرة بالأشجار المتنوعة الزكية الواردة من الصومال (١) .

وإذا تصورنا أن كل هذه الأوقاف حبست على معبد واحد فقط ولاحظنا أن معابده سبب الأثرى كانت عديدة وكبيرة ومماثلة لهذا المعبد ، علمنا أن نفقاتها كانت كثيرة جدا واستنزفت أموال الخزانة المصرية (٢) .

ورغم انتقال عاصمة الملك من الجنوب الى الشمال لم يهمل رمسيس اقليم الصعيد على الإطلاق بل وجه اليه عنايته واهتمام حكومته . فكان يعبد في النوبة كلها وقد شيد هناك ستة معابد لمعبودات مصر العظمى وهى آمون وورع وبتاح وكان جلالته يعبد في كل منها كاله عظيم . وقد عبدت زوجته نفر تاري (Nefretiri) بأحد هذه المعابد . ويعتبر معبد أبى سنبل أهم وأجمل آثار رمسيس الثانى بالنوبة ويؤمه الكثير من الزوار في وقتنا هذا . والمعروف أن النوبة أنصبغت في عهد رمسيس الثانى بالصيغة المصرية تماما ، وبالأخص اقليمها الذى هو بين الشلال الأول ، والثانى فقد انتزع منه الحكام النوبيين واستبدل بهم مصريين ، كما شككت هناك أيضا محكمة مصرية للنظر في الدعاوى والشكايات تحت اشراف المندوب السامى المصرى بالنوبة (٣) .

وبدبى أن العمارات الشاحخة التى شيدها رمسيس الثانى تطلبت مجهودات عظيمة وعمالا كثيرين . والمعروف أنه صعب عليه جلب الأسرى من آسيا (لوقوف الحرب هناك) كما فعل أسلافه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ليسخرهم في هذه العمارات ، ونؤكد أن هذه الأبنية شيدت بوسائل السخرة والعسف ، ولذلك لا ريب في صدق رواية العبرانيين من أن رمسيس الثانى استعمل الضغط والقسوة على أجدادهم حتى بنوا له مدينتى پيثوم (شكل ١٦٢) وپرمسيس . ولما زاد الضغط عليهم هربت إحدى قبائلهم تخلصا من العذاب .

أما معاملات مصر مع فلسطين وسوريا فكانت متينة ثابتة أكثر من أى وقت سالف . وقد جاء في خطاب ضابط مصرى كان مرابطا على حدود مصر أيام خلف رمسيس الثانى أن جماعة من بدو إدوم (Edom) مروا بوادى طميلات ليرعوا أغنامهم في مراعى پيثوم كما فعل العبرانيون سابقا أيام يوسف عليه السلام (٤) . وعثر على مذكرة أخرى غير مرتبة لىكتب أحد القواد المصريين

Ermap, Life in Ancient Egypt, ٥٠٤ (٣)

٥٠٤ - ٤٩٢ : ٣ (٢)

٧ - ٥٢٦ : ٣ (١)

٣٨ - ٦٣٦ : ٣ (٤)

المرابطين على حدود مصر بقلعة نارو ببرزخ السويس وجد بها قائمة بالأقوام الذين سمح لهم بالمرور هناك وهي تشمل الرسل الذين أرسلوا ببلغات رسمية الى ضباط حصون فلسطين وإلى ملك صور (Tyre) وإلى الضباط الذين صحبوا مفتاح في غزوته السورية وكذا أسماء الضباط الذين حملوا المراسلات الرسمية أو المرشحين الى سوريا ليلتحقوا بخدمة فرعون (مفتاح) (١). ومع أن الطريق الموصل بمصر بفلسطين لم يكن يحكم التحصين فقد كان محروسا بعثة حصون مهمة على مسافات مختلفة ، مثال ذلك حصن نارو ورمسيس على طول الطريق في القسم الشمالى لبرزخ السويس فيما بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط ، ومن ثم ينحني خط الدفاع حول بحيرة التمساح غربا إلى وادى طميلات . وقد أخبرنا بنو اسرائيل أن خروجهم من مصر كان عن طريق الجزء الجنوبي لبرزخ السويس لخلوه من الحصون العائقة . أما التجارة عن طريق برزخ السويس فكانت عظيمة جدا فاقت ما كانت عليه أيام الأسرة الثامنة عشرة . زد على ذلك أن السفن المصرية التجارية بالبحر الأبيض المتوسط كانت تقوم بجزء كبير من التجارة .

ولنتكلم الآن على الحياة الشخصية في تلك العصور وما حوته من الخيرات ليتصور القارئ عن الامبراطورية المصرية وقتئذ فنقول :

ان مائدة فرعون حوت أندر الزينات وأدوات الترف من قبرص وخيتا وآمور وبابل والنهرين . وكان في حوزته كثير من العجلات الثمينة وعدد وافر من الأسلحة والسيات والسوارى ذات الرؤس الذهبية من صناعة فلسطين وسوريا . وقد حوت الاصطبلات الملكية جياد الخيل الواردة من بابل وأحسن الغنم الوارد من مملكة الحيثيين (٢) . وصار لكل وجيه مصرى سفينة شراعية بالبحر الأبيض المتوسط تحضر له حاجاته من آسيا (٣) كما أضحى لمعبد سبتى الأول بالعرابة سفن خاصة وهبها له رمسيس لجلب دخله من البلاد الشرقية (٤) . وما أكثر الأثاث الأسيوى الجميل الذى اشتملت عليه قصور أعيان المصريين . وليلحظ أن هذه المصنوعات الأسيوية أثرت كثيرا فى الصناعة المصرية فأكسبتها رونقا أسيويا . وكثيرا بالقطر العبيد الأسيويون من شاميين وغيرهم ، ودوت البلاد بالتجار الفينيقيين والأجانب فصار لهم حى مخصوص بمنف تعبد فيه معبوداتهم نحو بعل (Baal) وأستارته (Astarte) ومنذ ذلك الوقت أخذت تلك المعبودات تندمج تدريجا ضمن المعبودات المصرية ، وأخذ الدخيل من الكلمات والعبارات السامية (عبرية كانت أو غيرها) يندمج فى اللغة المصرية ، وصار كتاب تلك العصور يحلون كتاباتهم بها . وقد عثر على كثير من هذه الكلمات الدخيلة فى أوراق البردى التابعة للأسرة التاسعة عشرة ، وذلك قبل ظهور كتاب العهد القديم بنحو أربعمائة أو خمسمائة سنة تقريبا . وبلغ استعمال الكلمات الدخيلة القصر الملكى فسمى رمسيس الثانى كريمة التى كان شديد الولوع بها "بنت أنات" (Bint-Anath) — أى ابنة أنات وهى معبودة سورية — كما سميت الخيل الفرعونية "أنات حرت" (Anath-herte) — ومعناه أنات المتطية .

Ibid., IV, 8, 10-11. (٣)

Pap. Anast., IV, 15, 2-17=III, 8. (٢)

٦٣٥-٦٣٠:٣ (١)

٢٧٤:٣ (٤)

وعظم الاختلاط الدموي بين المصريين والآسيويين في هذه العصور وقد كان في بدايته أيام الأسرة الثامنة عشرة ، فاقترن أهالي تلك البلاد بعضهم ببعض وأصبح للعنصر الآسيوي مقام عظيم بالقصر الملكي والحكومة المصرية . خذ مثلا أن أحد السوريين المدعو ابن عوزن (Ben-'Ozen) رقى في عهد منفتح إلى رئيس شرط القصر الملكي^(١) لكنه لم يشترك قط في إدارة البلاد كما ادعى بعض الأثريين . ثم إن علاقة مصر التجارية مع البلاد الأجنبية عادت بالغنى والجاه الجزيلين على الأجانب الموجودين بمصر فتمكن أحدهم وهو ضابط بحرى سورى يدعى ابن أنات (Ben-Anath) من تأهيل كريمة بأحد أنجال رمسيس الثانى^(٢) ، وفتحت سبل الرقى والتقدم أمام الأجانب الملتحقين بالجيش المصرى ما عدل مراكر الضباط فانها كانت مقصورة على الغربيين والجنوبيين دون الآسيويين ،



شكل ١٦٣ - اثنان من الحرس الملكى لرمسيس الثانى
المكون من سودانيين مأجورين

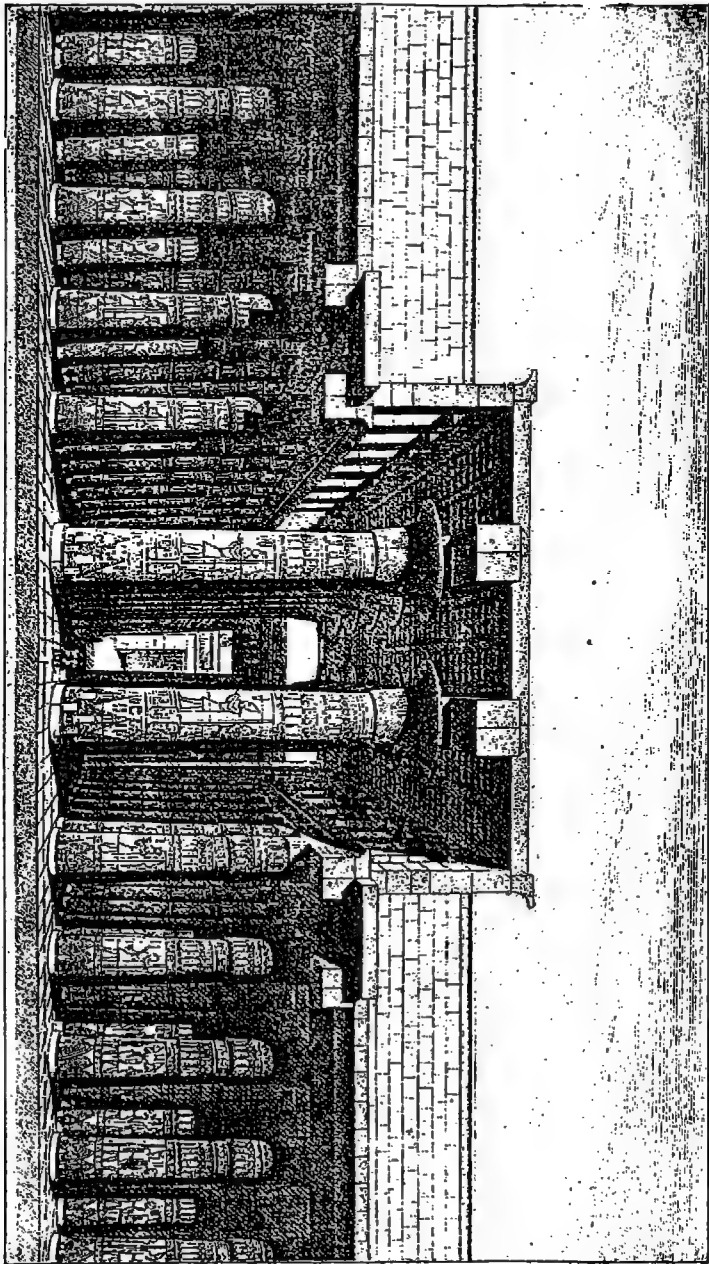
فالتجريدة التى أرسلها رمسيس الثانى مثلاً إلى وادى الحمامات لقطع الأشجار كانت مكونة من خمسة آلاف جندي منها ما ينيف على أربعة آلاف سردينين وليبيين والباقي زنوج، ولم تشمل هذه البعثة على مصرى واحد .

ويرجع تاريخ خدمة الأجانب بالجيش المصرى إلى الأسرة السادسة^(٣) لكن هذا الانخراط الأجنبي في الجيش المصرى هدد كيان الامبراطورية المصرية حتى عجز فرعون ذاته عن ملافاة هذا الخطر . ثم إن الحماس الحربى الذى دب في نفوس المصريين بعد طرد الهيكسوس اضمحل تدريجاً بعد مرور بضعة أجيال ، فمكف القوم على عاداتهم الفطرية السامية وهبطت نخوتهم ، وفي هذا الوقت

Mar. Ab. II, 50; Ost. gen. d'Ab., No. 1186, p. 422; RIH, 32; BT, VI, 487. (١)

Ostracoh, Louvre, Inv. 2262, Devér. Cat., p. 202; Rec. 16, 64. (٢)

Battle of Kadesh, 9. (٣)



شكل ١٦٤ - متفرعة الكرنك المظلي ، وهي الساحة ذات المدبميد آمون ، يرجع تاريخها الى زمن
الأسرة الخامسة عشرة (أماخوذ عن بزر رشيد)

أظهر الليبيون وأهالى شرق البحر الأبيض المتوسط استعدادهم للانخراط فى سلك الجيش المصرى والدفاع عن مصالح مصر نظير أجر معين . أمام هذه الحالة لم يتردد فرعون مصر فى الانتفاع بهذه الفرصة السانحة وهذا هو السر فى زيادة العنصر الأجنبى فى الجيش المصرى .

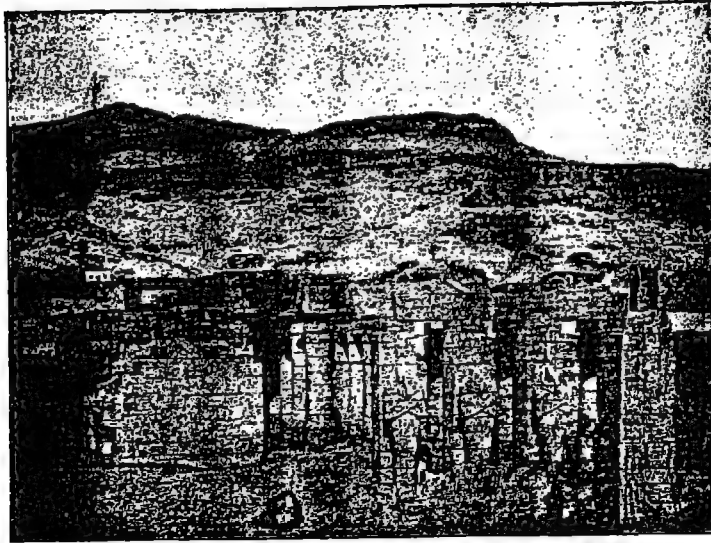
ولا يخفى أن خلفاء تحوتمس الثالث عجّزوا عن استرجاع مستعمراته ، وأن نفوذ رمسيس الثانى كان مبسوطا على فلسطين وجزء من شمالى سوريا ، الذى كان يدفع له الجزية سنويا على الأرجح . أما حدود مصر الجنوبية فكانت واصله الى مدينة نپته (Napata) أسفل الشلال الرابع . واعتاد رمسيس الثانى فى عتفوان شبابه أن يحتفل بوفود عظماء دولته العديدين من ولى العهد الى العمدة ، وهؤلاء كانوا يفدون عليه لابسين حللهم ومتخذين أجمل زيناتهم تتقدمهم جزياتهم من بلدانهم المتباعدة الممتدة من جنوبى النوبة الى حدود مملكة الحيثيين بآسيا^(١) . وقد صرفت هذه الأموال فى المنافع العمومية كالصناعة التى بلغت أعظم درجاتها فى هذه العصور . وهناك تمثال رمسيس الثانى محفوظا بدار التحف بتورين يمثل جلالته فى عتفوان شبابه لا يزال ناطقا ببراعة الحفار المصرى فى تلك العصور . ويعتبر هذا التمثال أثمن قطعة محفوظة بدار التحف المذكورة (شكل ١٦٨) ، ويكاد هذا التمثال يشبه التماثيل الموجودة بأبى سنبل فى المهارة والاتقان (شكل ١٦٧) . وادعى البعض أن الفنون الجميلة فى عهد رمسيس الثانى أخذت تخطو ولكنه يستدل من تمثال بنت أنات كريمة رمسيس المحبوبة ما يشير الى وجود حفارين مهرة وقتئذ ، لأن معالم وجه ذلك التمثال الطبيعية واضحة بشكل جميل واتقان هائل ، وهناك تقادون لا يشاطروننا هذا الرأى .

حقيقة ان عمارات الأسرة الثامنة عشرة ناقصة شيئا من حيث الكمال والجمال كما يتضح من قاعة الكرنك العظمى (شكلى ١٦٤ و ١٦٥) لكنه مما لا مرأى فيه أن هذه القاعة أعظم الممارات تأثيرا فى النفوس . وقد وافق على هذا الأستاذ رسكن (Ruskin) حيث قال "إن أقل ما يقال عن هذه القاعة أنها ضخمة شاهقة لدرجة تؤثر كثيرا فى نفس ناظرها . فإذا وقفت بجوار عمدتها وألقيت بنظرك على تلك العمدة العديدة الشاهقة المعتبرة أعظم أعمال البشر ، وأمعنت فى رؤوسها الباسقة الحاملة لصحن المعبد ، نقول إذا لاحظت أن مسطح قمة كل عمود يسع ما يقرب من مائة رجل وأن جدر هذه القاعة تسع فيما بينها كنيسة نوتردام (Notre Dame) ويبقى منها مكان فسيح ؛ وإذا نظرت الى باب ذلك المعبد العظيم البالغ طول عتبة أربعين قدما وزنتها مائة وخمسين طنا تقريبا ، لا يسعك إلا الإعجاب والافتخار بأعمال ذلك العصر الذى شيد رجاله أعظم قاعة ذات عمد أقامها البشر على ظهر البسيطة الى الآن" .

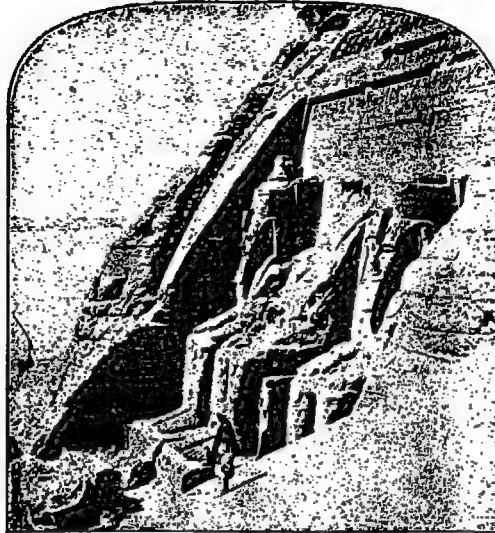
وإذا كان تأثير السائح من ضخامة هذه القاعة أكثر من تأثيره بجمالها ورواقها فليذكر أن العمال الذين شيدوها قد شيدوا أيضا معبد رمسيس المعروف بالرمسيوم الذى لا يقل فى الجمال والكمال عن أحسن عمارات الأسرة الثامنة عشرة (شكل ١٦٦) .

ورغم قصر مساحة أراضى النوبة بين النيل والجبال فقد قطع رمسيس الثانى فى صحور تلك الجهات معابد تشهد من حيث الجمال بتقدم فن العمارة كثيرا فى عهده . وما علينا إلا أن نذكر القارئ بمعبد رمسيس العظيم الذى شيده بأبى سنبل ولا تكاد تمحى ذكراه من ذهن كل من رآه ، ففيه تجسم العظمة وهو مشرف على النهرين صحور تلك الجهة الصامتة (شكل ١٦٧) . نحن لا نذكر أن عمارات رمسيس الثانى لم تكن كلها غاية فى الاتقان وقد ألمعنا الى ذلك سابقا إذ يوجد بينها ما هو بسيط لا يسترعى النفوس وما هو ضخم اعتيادى قليل الاتقان كالمشيد بمعبد الأقصر . وقد زينت عمارات رمسيس الثانى كلها بالنقوش والألوان الزاهية المثبتة لأعماله وشجاعته الحربية وعلى الأخص دفاعه العظيم بجهة كدش (شكل ١٦٩) ، ويتضح من هذا أن الحفار المصرى أجاد أكثر من سواه فى رسم معركة كدش ، وبالأخص لما رسم منحى النهر وما حول كدش من الخندق وهرب العدو وما حول ملك الحيثيين من المشاة واجتياحه بمهارة الاشتراك فى حومة الوغى على عكس فرعون مصر الذى تبدو عليه ملامح القوة والشجاعة . كل هذه الرسوم جاءت ظاهرة واضحة مع عدم مراعاة حافرها بأصول الزمان والمكان ، وهذا النقص الأخير يقلل كثيرا من قيمة الرسوم المصرية خصوصا والشرقية عموما . وهذا لا يمنعنا أن نقول إن الرسوم البارزة التى من هذا النوع بلغت شأوا كبيرا فى عهد رمسيس الثانى إلا أن وحداتها غير واضحة ولا متقنة من حيث النقش والنحت . والحق يقال إن الناظر الى هذه الرسوم اجمالا على العموم يجدها تشهد بطول الباع لصانعها المصرى الذىبقى محتفظا بزعامه الحفر فى البلاد الشرقية نحو ستمائة سنة بعد عهد رمسيس الثانى .

ولم يقتصر تأثير معركة كدش على ترقية الفنون الجميلة من حيث الرسم والحفر ، بل شمل أيضا شعراء القصر الملكى فنظموا القصائد الرنانة عن تلك المعركة وأجادوا فى وصفها ، ويعتبر هذا الوصف من أحسن أدبيات ذلك العصر ، ففيه شبهت جنود العدو الكثيرة المرابطة على التلال بالصراصير ، ثم ذكر بأسباب اندحار القوات المصرية أول المعركة ، ثم وصف أفراد فرعون مصر مقاتلا أعداءه وتضرعه الى آمون على بعده من طيبة طالبا مساعدته ، ثم اجابة هذا المعبود دعاءه بتقوية ذراع رمسيس وشد أعصابه وقوته مما جعله يقوم بما لا مثيل له من ضروب الشجاعة والإقدام . من ذلك يتضح للقارئ أن تلك القصائد حوت وصفا لمواقف متباينة مؤثرة للغاية ، وقد نعت الشاعر قائد عجلة ملك الحيثيين بالجلين والفرع على عكس رمسيس الذى بدت عليه الشجاعة وكان يحس رجاله على القتال غير مباليين ولا وجلين ويوبخهم على إهمالهم . ومما يسترعى نظر القارئ لهذه القصائد ما ورد فيها من أنه لما انتهت المعركة وزال الخطر أقسم جلالته يمينا بأنه سيتولى بنفسه اطعام خيله التى حملته ظافرا على أعدائه . وقد وصلت الينا صورة من قصيدة وضعت لهذه المعركة نسخها كاتب مصرى قديم يدعى پتاءور ("Pentawere" "Pentaur") على قرطاس بردى ظنها الأثريون أولا من بنات أفكاره واتضح بعد ذلك أنه (على الأرجح) ناسخها فقط . ولا تزال هذه القصيدة تعرف باسم قصيدة پتاءور خطأ بين الناس .



شكل ١٦٦ - ازسيوم وهو معبد قيرميسس الثاني ، وترى خلفه محفور وادى النيل
الغربية متقوية في ندوة مواضع ، وهذه النقوب هي مداخل مقابر الجبابة القديمة



شكل ١٦٧ - صورة لمعبد أبي سنبل الصخرى
ماخوذة في اتجاه مستعرضي للدخل المعبد



شكل ١٦٨ - تمثال رمسيس الثاني مصنوع من البرانيت الأسود
(دار تحف تودين)



شكل ١٦٩ - منظر لمركبة كدش الملكية التي حاربها رستيس الثاني . وجدت هضمة السوردة مرسومة رسماً بارزاً على جدار الرستيس ويرى في هذا المنظر رستيس الثاني رسده (مع أنه كان مرافقاً طاجيه بالثأ كيد) حمالاً بعبات الحرب الأسبوية (أعلى رأسه) وأمامه رؤساء جيش ملك الحيثيين سافلين ويجوار كل منهم رقبته مقبوضين على الخنجر . ويحمل المنظر مجرم رستيس الثاني وإلقائه بجراح أندور الأيبي في النهر (رابع خريطة رقم ١٠) . ويرى الماريون ساجين في النهر باصقاهم أصحابهم من العائل القابل (الذين ملك حلب شكل رقم ١٦٠) والذين يزين ملك حلب حيث المانط المهيم يشاهد ملك الحيثيين وألقاه في عريته بين تجازية آلاف من العائاة الأسيريين . ويرى في القسم الأعلى والأيمن للسوردة رسم مدينة كدش حاملة مجندين مائتين

والقارئ لهذه القصيدة يتضح له أن واضعها أخذ يضرب على نغمة جديدة هي تشجيع القوم وتحسيسهم ليقنوا بأفعال ملكهم ، لكن هذا التشجيع أتى بعد أوانه فقد أخذت الروح الاستعمارية تتضاءل في نفوس المصريين ، فلم تحدث تخيلات وأوصاف هذه القصيدة ما كان متظرا منها اذا ما وضعت في الزمن السابق . والظاهر أن هذه القصيدة حوت حقائق الأمور بلا تغيير ولا تبديل بغاءت برهانا على صدق روايات الأسرة التاسعة عشرة . قارن هذا بروايات الملكة الوسطى المحشوة بحرافات ونزعيات والمكتوبة باللغة الدارجة بدون ترتيب ولا سلامة ذوق . وقد اهتمنا الى عدة روايات وقصص من الأسرة الثامنة عشرة تمائل قصص الأسرة التاسعة عشرة لكنها أقل عددا منها . من ذلك القصة الخاصة بالتزاع بين ملك الهيكسوس المدعو أبوفيس (Apophis) وفرعون مصر بطيبة المدعو سكتنرع ، وقد استتجنا من هذه القصة غرضها الأصلي رغم فقد بقيتها ألا وهو وصف طرد الهيكسوس من القطر المصري . وقد ذكرنا هذه القصة سابقا عند الكلام على الهيكسوس^(١) وكثيرا ما تداول الأهالي في عهد الأسرة التاسعة عشرة حكايات عن أفعال ضباط تحوتس الثالث مثل تحوتى واستيلائه على مدينة يافا (Joppa) وتجنّبه بلخده داخل زلع كبيرة محملة على حمار ، ويظن أن هذه القصة الأخيرة هي أصل حكاية على بابا واللصوص الأربعين المعروفة لدى عامتنا اليوم . وهناك قصص أخرى لذيذة لكنها لم تتناول حوادث تاريخية كالسابقة .

وجاء في إحدى الروايات أن أميرا شابا حكمت عليه المعبودات حاتحورات (Hathors) وقت ميلاده أن يموت بتمساح أو شعبان أو بكلب ، فسافر الى سوريا حيث وجد قصرا تسكنه ابنة ملك النهرين وحوله الشبان يحاولون تسلقه ، وذلك لأن والدها وعد أن يؤهلها بمن يتساق جدار القصر ، فحاول الأمير المصري ذلك ونجح وبلغ الأميرة لكنه ادعى أولا أنه ابن ضابط مصرى مخفيا بذلك حقيقته فلما علم ملك النهرين بخبره اغتاظ وامتنع من اعطائه ابنته حتى كاد يقتله ، حينئذ أقسمت الأميرة أنها ستنتحر اذا أعدم الأمير فتكدر والدها من هذا القسم وأخيرا سمح لها باقترانه . وجاء أن الأمير نجى من الموت من تمساح ثم من شعبان وفقدت بقية القصة بعد ذلك ، والمظنون أنها انتهت بموت الأمير من كلب تبعه من مصر طول رحلته الأسبوية . ويلاحظ أن هذه الرواية تحوى أقدم مثال للعقيدة العالمية بأن كل شاب يتحتم عليه قبل الاقتران بزوجه أن يظهر لها ضروب الشجاعة كي يستميل قلبها ، وكثيرا ما تشاهد مثل هذه الأعمال المحزنة في القصص اليونانية المعينة مثل رواية أوديب (Oedipus) وأبي الهول (Sphinx) وسوفليكيس (Sophocles) .

ومن قصص هذا العصر أيضا ما تناولت أمور الفلاحة وهي تعرف بقصة الأخوين تتلخص في أن أخوين عاشا معا في كوخ بأحد الحقول وكان أكبرهما متزوجا وقابضا على زمام البيت أما الأصغر فكان عائشا معه كاهن له ، فصهبت نفس زوجة الكبير الى الصغير فرفض طلبها . عندئذ أرادت أن تكيد له فوشت في حقه عند أخيه الكبير فصمم على الاقتصاص من أخيه وأراد قتله خلسة فتحفر

(١) راجع صحيفة ١٤٠ وصحيفة ١٤٥ من هذا الكتاب

له وراء الباب . وفى مساء اليوم عاد الأخ الصغير بالبهايم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت إحدى هذه الحيوانات الأمر وأسرت إلى راعيها بما يضمه له أخوه الكبير . فلما علم ذلك قهرها ربا خوفا من القتل ثم حصلت بين الاثنين حوادث خرافية لا تتشبه مع ما جاء أولا من مطابقتها للواقع . وبالتأمل لهذه الحكاية يجد القارئ فى جزئها الأول شها بقصة سيدنا يوسف الغرامية التى رواها لنا بنو اسرائيل .

وكانت هذه القصص فى العهد اليونانى فتفرعت منها عدة حكايات يونانية اعتبرها المؤرخون اليونانيون ومائيتو أيضا مراجع تاريخية يعتمد عليها .

أما شعر ذلك الوقت (الامبراطورى) فكان جيدا معنى وروحا ، لكنه كان ناقصا أسلوبا بدرجة أقل من قصائده الحديثة . وتوجد بعض قصائد عن تلك العصور جيدة الأسلوب لا بأس بها يمكننا مقارنتها ببعض القصائد العصرية أحيانا .

وكانت روايات الحب والغرام عند أهالى ذلك العصر ، وبالرغم من خلوها من التخيلات الفكرية فقد أخذت يجامع قلوب قرائها فى عصرنا هذا . وعثر على كثير من القصائد الدينية والأغاني والدعوات لوحظ على بعضها مسحة أدبية واضحة وسيأتى الكلام عليها عند البحث فى ديانة ذلك العصر . ووجدت عدة خطابات لكاتب وموظفين ، وعدة تمرينات مدرسية قام بها تلاميذ المدارس ، وعدة صكوك ومستندات ومذكرات عن المعابد وحساباتها مما اهتم به الأثريون كثيرا وصرفوا فيه طويلا من وقتهم حتى فهموا مضمونها وعرفوا محتوياتها .

وأغلب أدبيات تلك العصور دينية وحكومية ، وهى ليست من مبتكرات الأهالى ولذلك لا يجد القارئ فيها ما يفيد من عقائد العوام . وليلاحظ أن عزل إخطاطون وعكوف الأهالى بعده على عقيدة آمون القديمة حالا دون تقدم ورقى الآراء الدينية . والسبب فى ذلك أن الكهنة أصبحوا شديدى المحافظة على كليات وجزئيات عقائدهم العتيقة ، ولكنه بالرغم من هذه الحركة الرجعية التى حالت دون تقدم الدين من الوجهة الفلسفية قد تقدمت الآراء الدينية بطريق آخر غير السابق . وتفصيل ذلك أن المصريين أخذوا يعتقدون أن مملكتهم عبارة عن معهد دينى عام تقُدس فيه معبوداتهم فى شخص فرعون ، لأنهم اعتبروا الديانة والحكومة جزأين لا يتفصلان . وهكذا بعد ما كانت المعابد تعرف بأسماء "أحسن المحاسن" و "أحسن الآثار" و "هبة الحياة" الخ ، أصبحت الآن تسمى "ماوى سبتى فى معبد آمون" و "ماوى رمسيس بمعبد پتاح" . وأول ما ظهر هذا الاعتقاد الأخير كان أيام الملكة الوسطى لكنه أصبح الآن عاما فصار القوم يعتقدون بأن جميع معابدهم عبارة عن أمكنة شيدت لعبادة فرعون ، وهذا يعنى طبعاً أنهم اعتبروا فرعون إله مصر الأعظم ، واعتبروا مصر مملكة المعبودات تحت رئاسة فرعونها الذى هو رئيس كهنتها أيضا . ولما تضعضت مالية الحكومة تدريجاً بزيادة أوقاف المعابد — لأن أملاك المعابد كانت معفاة من الضرائب — زاد الارتباك المالى

كما ألعنا الى ذلك في عهد سبتي الأول ورمسيس الثاني ، ولم تقف الحال على ذلك بل استمرت هذه الأوقاف تكثر حتى شملت معظم موارد القطر فأصبح أكثر أملاك القطر معنى من الضرائب ، ثم أصبحت المصانع ذات أهمية ثانوية .

ولما كثرت إيرادات المعابد (وبالأخص معبد آمون) عظمت منزلة رئيس الكهنة . وقد تقدم لنا أن رئيس كهنة آمون أصبح بحكم القانون رئيسا على جميع كهنة المملكة ، فصار مركزه بذلك عظيما لا يستهان به ، وقد تمكن هذا الرئيس الكهنوتي بعظم نفوذه في عهد الملك متفتاح من تعيين ابنه خلفا له في وظيفته ، وهكذا تمكن من وضع أعظم طائفة وأقوى حزب في المملكة تحت نفوذ أسرته (١) . ويقال ان هذا المشروع بدئ به في عهد رمسيس الثاني لكن ذلك لم يتأكد للآن . ولا شك أن القارئ قد لاحظ أنه في حالة اعتزال الأسرة الملكية الحكم يكون رئيس كهنة آمون أقوى رجل في المملكة وأكفا شخص للقيام بأمور الدولة . وهذا ما وقع تماما بعد مضي مائة وخمسين سنة من العهد الذي نحن بصددده ، وفي هذه المدة اجتهد رئيس الكهنة أن يؤثر في فرعون ليزيد دخل وأوقاف آمون ، فلم ينته حكم الأسرة التاسعة عشرة حتى أصبح آمون يملك مناجم الذهب النوبية خاصة ؛ ولما وضعت هذه المناجم تحت إشراف وإلى كوش لقب هذا "بحاكم أرض آمون الذهبية" (٢) . وهذا بيان موجز لأصل حكم الكهنة الذي لقبه كهنة المصريين في عهد ديودور الصقلي "بالحكم الذهبي" . ولا يخفى أنه كلما زاد دخل الكهنة انتشر نفوذهم وعظمت مظاهرهم وعلا قدرهم ، ولذلك كانت منزلة فرعون بين رعيته وحجهم إياه مرتبين طبعا على مقدار ميله نحو الكهنة ودرجة استعداده لإجابة طلباتهم .

وجرت العادة أن يكون اظهار شعائر الدين في المملكة اجباريا ، لكن الفراعنة اختلفوا كثيرا في تقديرهم للدين ومظاهره كما اختلفوا أيضا في تقديرهم للأخلاق . خذ مثلا الملك حورحوب ، فقد وقف جهوده على تركيز الأمانة والصدقة بين موظفي حكومته ، كما اشتهر تحوتمس الثالث بحبه للعدالة ودفاعه عنها . ونقش رمسيس الثالث على معبده بطيبة ما يفيد أنه لم يهتد مقابر قديمة ليستعمل أحجارها في تشييد عماراته (٣) ، كما أعلن للإلا أنه اعتلى العرش بحق وجدارة لا عن طمع واغتصاب (٤) . أما رمسيس الثاني فلم يظهر أقل احترام نحو آثار أجداده كما يتطلبه الواجب وتقضيه العادات . ومن هذا يتضح للقارئ أن معظم فراعنة العهد الذي نحن بصددده لم يهتموا إلا بتحقيق أغراضهم بصرف النظر عن مراعاة الاخلاق . واليك ترجمة ما ورد عن رمسيس الرابع في دعواته لأزوريس :

"هب لي الصحة والحياة والعمر الطويل والحكم المديد والأزلية لأعضائي والإبصار لعيني والسمع لأذني والفرح لقلبي . هب لي هذه الأشياء جميعا كل يوم . أطعمني حتى أشبع وأشربني الخمر حتى أسكر واجعل ذريتي ملوكا الى أبد الآبدين . أجب رغباتي ولب طلباتي اذا ما طلبتها منك وليكن ذلك عن رغبة منك . هب لي نيلا كثير المياه والفيضان لأتمكن من تقديم القرابين لك ولكل معبود

ومعبودة في الجنوب والشمال ولتعيش الثيران المقدسة وليعيش كل الناس على اختلاف أوطانهم وكذا بهائمهم وزرعهم الذي أنبتته أرضهم . أنت خالق كل هذه الأشياء فاذن ليس لك أن تتركها لتنفذ فيها قرارات أخرى مخالفة للعدل” (١) .

ووجدت بين الأهالي وقتئذ طائفة نظرت الى الديانة من وجهتها الفلسفية الظاهرة، خلافا لما هو واضح في الدعاء الملوكي السابق ، فكانت هذه الطائفة تتوصل الى آمون بتوسلات تحوى كثيرا من الآراء الفلسفية العالية والنظريات الراقية كالتي حوتها عقيدة آتون . ومن ذلك علمنا أن أفراد هذه الطائفة كانوا أقرب اتصالا ومعرفة برأفة ورحمة معبودهم ودفاعه عنهم . واليك ترجمة ما ورد في دعاء بعضهم :

”يا آمون أنا أحبك وحبك في قلبي لقد ابتعدت عما تغريني به نفسي ، لأن كل من يطبع أوامرِكَ يفوز” (٢) .

وجاء أيضا في عبارة أخرى ما ترجمته أن آمون يسمع كلام الشخص الذي لا ناصر له وقت المحاكمة (٣) . ولما انتشرت الرشوة بالبلاد اعتقد الفقير أن آمون وزيره ينصره ويدافع عنه (٤) . ودلتنا دعوات القوم أنهم أخذوا يقدرون خطاهم وما أتوه من ذنوب ، فقد قال أحدهم مناجيا لمعبوده آمون ما ترجمته : ”لا تعاقبني على ذنوبي“ (٥) وهذا أمر كثير الوجود بين توسلات أهالي تلك العصور . وهكذا تغيرت الحال ، فبعد ما كانت الدعوات تتلى لإصلاح الأخلاق صارت الآن تتلى للإفلاق عن السوء واجتناب المعاصي ، وأضحت الصلوات تتحدر من القلوب ولا تكون مجرد ألفاظ . واليك ترجمة ما قاله بعض الأهالي مناجيا للمعبود تحوت :

”أيها المعبود ! أنت البئر العذبة للظمان في الصحارى ، أنت البئر التي تنقل في وجه المتكلم والتي تفتح لمن يلزم السكوت ، حقيقة أن كل صامت يأتي يجد البئر“ (٦) . لكن كهنة تلك العصور سمعوا عقول الرعية بخرافاتهم السحرية ، ومن دواعي الأسف أن هذه الآراء الساذجة وجدت مكانا خصبا في أذهان الطبقة الوسطى انبتت فيها وأينعت وأودت بكثير من تعاليم الديانة الراقية وارشاداتها الشريفة . وبديهي أن هذه التعاليم وهذه الارشادات هي البقية الباقية من رقى الديانة المصرية ، ولذلك كان هذا العصر أحسن الأزمنة لدرس عقائد الأهالي الدينية . واليك بيان ذلك بالإيجاز :

لما وضعت الحكومة يدها على المعابد لتولى شؤونها دون العامة أبعد هؤلاء بطبيعة الحال وصاروا غير لائقين للخدمة بالمعابد لفقرهم وعدم قدرتهم على تقديم القرابين المناسبة ، فامتنع الفقراء من التدخل في شؤون المعابد الكبرى وأمور المعابد الرسمية العظمى ، وعكفوا على معبوداتهم الصغرى كآله الفرج والطرب ومعبودات الأخطاط ، لأنهم اعتقدوهم سماعيلين لأقوالهم مساعدين لهم في أعمالهم اليومية .

Pap. Anast., II., 8, 6. (٢)

Birch, Inscr. in the Hier. Char., pl. XXVI. (٢)

٤٧٠ : ٤ (١)

Pap. Sallier, I, 8, 2 ff. (٦)

Erman, Handbuch. (٥)

Ibid., 6, ٥-6. (٤)

لهذا السبب أيضا عبد الفقير كل شيء توهم فيه صفات الألوهية . خذ مثلا ما جاء بخطاب أحد أهالي طيبة أرسله الى صديق له أوصى به آمون وموت وخونسو آلهة قسم طيبة العظام وأيضا "باب بكى (Beki) الكبير والثمانية القردة التي في الحوش الأمامي" والشجرتين^(١) . وجاء أيضا أن أهالي طيبة عبدوا أمنتحتب الأول وزوجته نفرتاري (Nefretiri) إلهين لتلك المدينة . ووضع أحدهم يده في حجر مخنئي به ثعبان عظيم ثم أخرجها منه فلما لم يلدغه الحيوان نصب حجرا تذكارا أثبت عليه هذه الحادثة شاكرا فيه أمنتحتب الأول الذي كانت قوته سبب نجاته الوحيد^(٢) . وروى أحد الأهالي مرة أنه أساء الى إحدى المعبودات التي كانت تقطن تلا بطيبة فأصابه مرض شديد ثم منت عليه المعبودة بالشفاء فأقام لذلك حجرا للذكرى أثبت لها فيه الشكر واعترافه بفضلها . وكتب ضابط خطابا الى روح زوجته المتوفاة أودعه يد شخص حديث الوفاة ليسلمه لها في الآخرة رجاها فيه أن تمتنع عن تعذيبه وأن تصطحب معه ، ومن ذلك استنتجنا أن بعض أهالي ذلك العصر اعتقدوا بتعذيب الموتى للأحياء .

ولم تقتصر عبادة الفقراء على آلهة الخطط وما شاكلها بل شملت أيضا معبودات سوريا وغيرها مما عبدها الأسرى الآسيويون . ودلتنا الألواح الحجرية لتلك العصور أن الدعوات وقتئذ اشتملت على الآلهة الآسيوية الآتية وهي : بعل (Baal) وكدش (Kadesh) وأستارته (Astarte) ورشب (Reshep) وأنات (Anath) وسوتخ (Sutekh) وللاحظ أن سوتخ هو معبود مصري قديم وهو في الوقت نفسه صورة أخرى للعبود ست (Set) أدخل في سوريا ثم انتشرت عبادته هناك ، فلما غزا الهيكسوس مصر أرجعوه معهم فصار محبوبا بين الأهالي واختصه أهالي مدينة رمسيس الثاني بمديتهم . وأخذت تظهر في هذا العصر أيضا عبادة الحيوانات بين الأهالي والموظفين الحكوميين .

سارت هذه التغيرات الدينية ببطء مطرد في عهد رمسيس الثاني ، ولقلة معلوماتنا عن أعماله في هذا الصدد استنتجنا أنه لم يقيم غالبا بأعمال ذات بال لصدد ذلك التيار الديني الجديد . زد على ذلك أن نصوص جلالاته صبغت بالصبغة الدينية الواضحة ، وكلها أساليب كهنوتية مصحوبة بالثناء والمدح الاعتياديين بدرجة ينهم على قارئها فهم الغرض الأصلي لكاتب هذه النصوص . ومما يساعدنا على معرفة مقدار اخلاص هذا الملك الديني تمثاله الذي بدار التحف بتورين (شكل ١٦٨) ومومياء المحفوظة بدار التحف بالقاهرة (شكل ١٧٠) فهما يدلان أنه كان طويل القامة مترهفا تبدو عليه ملامح نسوية جذابة مما لا يناسب تماما مع شدته وبأسه المشهور بهما ، ومع ذلك فإن معارك كدش تصفه بأنه شهم قادر على ملاقات الكوارث الشديدة . واستنتج من زحفه الثاني على آسيا ومحاربه ثانيا مع الحيثيين وتوسيعه مستعمراته السورية — لمدة من الزمن على الأقل — أنه كان صلب الرأي ماضي العزيمة . زد على ذلك أنه حارب بأسيا خمسة عشر عاما قام في أثناءها بأعمال حربية عظيمة غطى بها ما لحقه من سوء الحظ في معركة كدش الأولى واستحق بعدها أن يمضي باقي حياته في راحة وسكينة . ومما لا جدال فيه أنه كان كثير الفخار شديد التظاهر بحروبه وانتصاراته على الأتار أكثر

من تحوتمس الثالث بمرآحله . وكان ميالا أيضا للفرح والسرور ولم يمنع نفسه من الانغماس فيها فأكثر من زواجه وورث من ذرية كثيرة جدا بلغت ما يزيد على المائة من الذكور وما يقرب من الخمسين من الإناث ، وقد تزوج هو بكثير من بناته . ويتضح من ذلك أنه أعقب ذرية حافظت على اسمه بين أحفادها نحو أربعمائة سنة حتى صار اسم رمسيس مرادفا لألقاب الامارة وعلو الشأن . ولما عجز رمسيس عن العثور على زوجات يلحق للاقتراح بأبنائه زوج أحدهم بكريمة ربان سفينة سورية كما ألمعنا الى ذلك سابقا . والمعروف أنه كان يفتخر كثيرا بأسرته فرسم أفرادها على جدر المعابد ذكورا وإناثا صفوفا صفوفا ، ورافقه أولاده في حروبه الأولى كقواد لفرق الجيش كما رواه ديودور الصقلي^(١) ، وكان أحب أبنائه اليه المدعو خامويس (Khamwese) الذي عين رئيس كهنة بتاح بمتف ، لكن هذه المحبة شملت أيضا جميع أفراد الأسرة لأنه رسمهم جميعا حتى الزوجات والكريمات على آثاره .

ولما مضى على توليته ثلاثون عاما أقام لذلك احتفالا عظيما عهد ادارته الى نجله المحبوب خامويس الذي كان وقتئذ رئيس سحرة وكهنة بتاح . واستمر القوم يتحدثون برمسيس الثاني في حكاياتهم مدة ألف سنة تقريبا بعد وفاته . وقد عاش بعد الاحتفال السابق عشرين سنة أخرى أقام في أثنائها ما لا يقل عن تسع احتفالات بين كل واحد والآخر مدة تتراوح بين سنة وثلاث سنوات ، ولذلك كانت أعياد هذا الملك أكثر عددا من أعياد أى فرعون سابق^(٢) . وقد أشرنا الى كثرة المسلات التي أقامها في احتفالاته ، وهذه أذاعت صيته كثيرا في جهات القطر من مستنقعات الدلتا شمالا الى الشلال الرابع جنوبا . وقد عظمت مكانته ففاقت مكانة أمنحتب الثالث ، والحق يقال ان جلالة كان آخر الفراعنة النشيطين العاملين الذين شرفوا تاريخ مصر القديم بمتآثرهم العظيمة .

وتوفى أنجال هذا الملك بمرور الزمن الواحد بعد الآخر ومن بينهم النجل العزيز خامويس الذى كان يشرف دائما على نظام احتفالات والده ، ولم يتمكن الا الثالث عشر من أنجاله من إرث أبيه . ولكهولة جلالاته وقتئذ وقلة نشاطه اجتأ اللببون واتحدوا مع أهالى البحر الأبيض المتوسط من لبيين وسردينيين ويونانيين وتوغلو غربى الدلتا حيث سحقهم جلالاته سابقا وأجبرهم على الخدمة فى جيشه . والمعروف أن الليبيين بلغوا فى زحفهم أبواب منف وعبروا رأس الدلتا الجنوبي حتى بلغوا أسوار مدينة عين شمس حيث يقطن وزير الدولة . ولشيخوخة رمسيس واضمحلال سمعه عجز عن مقاومة أعدائه ولم يحرك ساكنا ضد هذا الخطر الذى هدد بكان دولته من الغرب ، واستمر عائشا بعاصمة مملكته شرق الدلتا قليل العناية بأمور دولته الحربية حتى توفى وقد بلغ من العمر نيفا وتسعين سنة (وذلك حوالى عام ١٢٢٥ قبل الميلاد) ، وكانت وفاته فى السنة السابعة والستين من حكمه وقد ترك مملكته مهتدة بأشد المخاطر . أما مومياء هذا الملك فتظهر عليها علامات العز والبذخ وقرب الشبه بتمثال صباه المحفوظ بدار المتحف بتورين .

وقد استمر عشرة من الفراعنة يسمون أنفسهم باسمه بعد وفاته بربع قرن تقريبا وتمنى أحدهم أن يعمر فيحكم مصر سبعة وستين سنة مثل حكم سلفه العظيم^(١) ، وتمثلت في كل أعمال ذريته الشجاعة والعزة بدرجات متباينة . والحق يقال ان ذريته جرت على أثره مدة مائة وخمسين سنة تحتم في أشائها على كل فرعون أن يسمى رمسيس . لكن الأمة المصرية أخذت تضمحل ولذلك كانت همة هؤلاء الرامسة غير كافية لإرجاع شأوها العظيم القديم وتوسيع مملكتها ، وهكذا اقتصر هؤلاء الملوك على أحياء الشعائر الدينية التي أصبحت مطمح أنظار القوم ، وأخذت الامبراطورية المصرية في آخر عهد الرامسة تضمحل لأن معظم المالية أصبح وقفا على المعابد . ومما زاد الطين بلة أن معظم الجيش المصرى كان من الجنود الأجنبية المأجورة في وقت كانت مصر أحوج ما تكون الى الاقتصاد في المصروفات والانتفاع بمواردها جهد الاستطاعة .

الفصل الثالث والعشرون

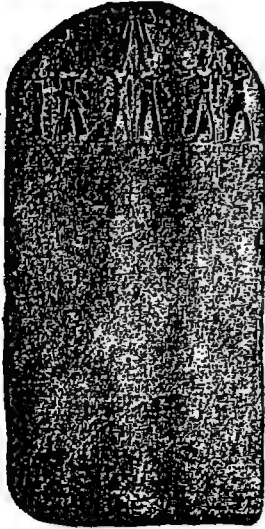
انضمحل الامبراطورية النهابى : منفتح ورمسيس الثالث

اقلبت الامور فاصححت الامبراطورية المصرية مدافعة بعد أن كانت مهاجمة وقد حصل هذا تحت تأثير تغيرات داخلية وخارجية . وقد ألمعنا سابقا أن الامبراطورية المصرية نبذت فكرة الاستعمار جانباً وفقدت الدافع لذلك الذى اكتسبته منذ نحو ثلثائة وخمسين سنة اثر طرد الهيكسوس . وبقى الأهالى يترغون بأعمال قواد تحتمس الثالث ويمتدحونها رغبة فى الاحتفاظ بالروح الاستعمارية التى أكسبتهم المستعمرات الأسبوية لكن ذلك جاء على غير جدوى . هذا وصف مختصر لما أصاب داخلية القطر المصرى من التغيرات . أما ما انتابه خارجاً فيتأخص فى انتشار الفوضى والمنازعات المستمرة على حدود المملكة المصرية ، فقد أخذ سكان البحر الأبيض المتوسط يزحفون على شواطئ مصر للنهب والاستيطان ، ثم اتحدوا مع الليبيين وأهالى آسيا فضغطوا باستمرار كأمواج البحر الزانح على حدود الامبراطورية المصرية ، ولذلك لم يبق لمصر وسيلة إلا الدفاع عن كيانها وهكذا انقضت أيام استعمارها . وقد مكثت كذلك حوالى ستمائة سنة لم تقم فى أثناءها بمحاولة جدية نحو توسيع حدودها . وسنرى فيما يلى أن القراعنة الذين حكموا القطر مدة ستين سنة بعد وفاة رمسيس الثانى بذلوا جهدهم للحفاظ على كيان مملكتهم بدلاً من توسيعها كما فعل أجدادهم العظام سابقاً . ولا بد أن القارئ يتذكر ما قلناه سابقاً من أن هذه العوامل السيئة التى حلت بالقطر المصرى أخذت تسرى سموها فيه أثناء السنوات العشرين الأخيرة من حكم رمسيس الثانى ، لما أخذ هذا الملك يتقدم فى السن ويفقد من قوته . ولما توفى كانت مملكته فى أشد الحاجة الى حاكم شاب قوى نشيط يأخذ بتأديتها ويخرجها من الأخطار المحيطة بها ، لكنها رزئت فى تلك الآونة بآبن رمسيس الثالث عشر المدعو منفتح المسن الفاسد لجزء كبير من قوته ونشاطه ، وهكذا انتقل الملك من هرم الى هرم ، ولا يخفى أن هذه الحوادث نتيجة واحدة لا ثانى لها ألا وهى الضعف والكسل والإهمال فى مقاومة المخاطر . لهذا نرى أن زحف الليبيين وأهالى البحر الأبيض المتوسط كان كالسيل الجارف يتغلب على مصر من الغرب بدون مقاومة تذكر . أما المستعمرات الأسبوية فلم تحصل فيها ثورات اثروا وفاة رمسيس الثانى ، وكانت الحدود المصرية وقتئذ واصله الى أعلى الأورونط وشاملة جزءاً من مملكة آمون على الأقل وهذا الجزء يحوى مدينة تعرف باسم منفتح ، ويظن أن هذه المدينة كانت سماة باسم رمسيس الثانى ، فلما حكم منفتح سماها باسمه . وبقى علاقة منفتح مع الحيثيين ودية والفضل فى ذلك يرجع الى المتاهدة التى عقدتها والده مع هؤلاء القوم منذ نحو ست وأربعين سنة . ودلتنا الآثار أن جلالة أرسل الى الحيثيين سفناً مشحونة بحبوبا لداء المجاعة التى حلت بهم ، ويرجح أنه قبض ثمنها رغم ما يفهم

من الأسلوب الذى دوت به تلك الأعمال من أن جلالتة تبرع بها جودا وسخاء^(١) . وهذا الود وهذا السلام لم يدوما طويلا ففى نهاية السنة الثانية من حكمه تقضى ما اعترف به والده فى معاهدة الحيثيين ويندم على ما أظهره والده نحوهم من العطف والرأفة . والمرجح أن جلالتة تحقق أن الحيثيين الذين حاربوا المصريين بكدش سابقا أخذوا الآن يساعدون أهالى البحر الأبيض المتوسط من ليسيين ودردانيين ، وهم الذين اتحدوا مع الليبيين فى غاراتهم على غربى الدلتا . والظاهر أن الحيثيين حقيقة ساعدوا هؤلاء الأقوام أدبيا على الأقل ان لم يكن ماديا ، ثم زادوا على ذلك فأوقدوا نار الفتنة فى مدن مستعمراته الآسيوية رغبة منهم فى ضمها الى أملاكهم . وعلى أى حال ففى السنة الثالثة من حكم مفتاح (حوالى سنة ١٢٢٣ قبل الميلاد) هبت ثورة عامة بمستعمرات مصر الآسيوية بلغت عسقلون على حدود مصر وجزائر التى بنهاية وادى أياالونا (Ajalon) الموصل الى بيت المقدس ومدينة يانوام (Yenoam) بطرابلس الشام ، والتى حبسها تحوتس الثالث على المعبود آمون منذ مائتين وستين سنة ، واشترك فى هذه الثورة قبائل بنى اسرائيل وأهالى غربى سوريا وفلسطين التى كانت خاضعة لمصر . أما سين حوادث هذه الثورة وكيفية إقاعها فلا نعلم عنها شيئا ، وكل ما وصل إلينا خاصة بها أنشودة النصر التى وضعت لأجل فوز مفتاح على هؤلاء العصاة فى هذه الثورة . والظاهر أنه ذهب شخصيا هنالك فى السنة الثالثة من حكمه وأقع الاضطرابات على الرغم من كبر سنه^(٢) ، ولا يبعد أن يكون قد اقتصر تماما وقتئذ من الحيثيين ، وأن كل ما عمل لإخضاع الثورة لم يتعد نهب أو سلب مدينة أو مدينتين على الحدود . ولقد كانت الصدمة التى وجهها مفتاح للعصاة شديدة للغاية تمكن بها من إذلال فلسطين إذلالا تاما ، وكانت قبائل بنى اسرائيل ضمن المعاقين الذين وقع عليهم القصاص ، والمعروف عن هذه القبائل أنها استوطنت فلسطين فى أواخر حكم الأسرة الثامنة عشرة وأوائل الأسرة التاسعة عشرة كما ألعنا سابقا ، ولا بد أن هذه القبائل اتحدت أيام مفتاح وكونت قوما غر فوا باسم "اسرائيل" وقد جاء ذكرهم فى التاريخ لأول مرة فى عهد هذا الملك . وقد دافقت مدينة جازر عن نفسها كثيرا فى هذه الثورة ضد مفتاح حتى اضطر أن يحاصرها فسلمت له أخيرا فنحل لنفسه بعدئذ لقب "محاصر جازر"^(٣) وكان له فى اخضاعها الشرف . وقد شغله حصار جازر عن محاربة أعدائه غربى الدلتا مدة طويلة فلم يتمكن من قتال هؤلاء إلا فى السنة الخامسة من حكمه . والثبات أن جلالتة لم يرجع من آسيا إلا بعد أن قمع ثورتها وأرجع الأمن الى نصابه ، ولا يحتمل أن يكون وسع حدوده هنالك عما كانت عليه أيام والده .

فى تلك الأحيان أخذت الحال فى غربى الدلتا تتغير من سبيء الى أسوأ لأن الليبيين التحنو (Tehenu-Libyans) استمروا يزحفون على مصر بطريق مستعمراتهم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويحتمل أن تكون طلائعهم وصلت وقتئذ الى قناة عين شمس^(٤) . أما معلوماتنا عن الليبيين فى تلك العصور فقليلة جدا ، والمعروف أن اقلام التحنو متاخم لحدود مصر الغربية ، وبلى ذلك غربا القسم المعمور بقبائل ليو (Lebu) أو ريبو (Rebu) المعروفين عند اليونانيين بالليبيين .

(١) ٢٤: ١٥ ٥٨٠: ٣ (٢) ٣٥-٦٢٩: ٣ (٣) ٦٠٦: ٣ (٤) ٥٧٦: ٣



شكل ١٧١ — نشيد النصر لملك منفتاح
(مرنپتاح) . ويحوى هذا النشيد أقدم
ذكر لى اسرائيل على الآثار



شكل ١٧٠ — رأس مومياة رمسيس الثانى
(دار تحف القاهرة)



شكل ١٧٢ — بعض الأمرى الفلسطينيين (بلست Peleset) الذين استولى عليهم رمسيس الثالث .
رسوم بارزة على الصرح الثانى لمعبد مدينة هابو

أما قدماء المصريين فكانوا يطلقون اسم ليو على سكان البادية الغربية . وغربي بلاد الليبيين قوم يقال لهم المشواش (Meshwesh) قطنوا الصحراء المجهولة الحد وقتئذ ، وقد ذكر هيردوت هؤلاء القوم تحت اسم ماكسين (Maxyes) وهم بلا جدال أصل البربر الذين استعمروا شمالي إفريقيا . والمشواش قوم متمدنون نوعا ماهرون في الفنون الحربية مسلحون جيدا قادرون على القيام بحركات هجومية ضد فرعون مصر ، وقد أخذت قبائلهم في هذا الوقت تتحد تحت سيطرة أمير منهم فكثروا بمملكة قوية طغمت نحو الاستعمار وتبعد عن مأوى فرعون شرق الدلتا بمسيرة عشرة أيام . ولإحاطة أنت جهات غربي الدلتا امتزجت بالدم الليبي وكثرت فيها الأسر الليبية . وتقدم الليبيون غربي مصر حتى بلغوا الشاطئ الغربي لفرع النيل الكنوبي (Canopic) المعروف وقتئذ بالنهر الكبير ، ثم سيطر الليبيون آخرون الواحيتين اللتين هما جنوبي وغربي الفيوم . ووصف مفتاح هؤلاء القوم بأنهم يعضون أوقاتهم بحاريتين ليمثوا بطونهم كل يوم ، وقد أتوا إلى مصر ليحصلوا على ما تحتاج إليه أبقارهم^(١) . ولم يزد عدد الليبيين بالدلتا تجاسروا وتناولوا على فرعون مصر فجمعوا شملهم وكثروا قوة نظامية للاستيلاء على أرض مصر ، وكانوا وقتئذ تحت قيادة ملكهم المدعو ميري (Meruey) وهذا أجبر بدو التحن أن ينضموا إليه ، ثم استعان بقرصان البحر الأبيض المتوسط وأحضر زوجته وأولاده^(٢) كما فعل ذلك أيضا حلفاؤه^(٣) وأخذوا يزحفون على مصر للاستيلاء عليها والاستيطان بها . أما حلفاؤه من قرصان البحر الأبيض المتوسط فكانوا مكونين من سردينين (Sherden) وشكلاشين (Sheklesh) من صقلية وآشين أو الليسين المعروفين باسم (Ekwesh) وهم الذين سطوا على مصر أيام أمنحتب الثالث والأتراك (Tersesh) وهؤلاء الأقوام هم أقدم من أتوا إلى مصر من سكان أوروبا وكانوا ينهبون البلاد بالسطو وقد ورد ذكرهم في نصوص عهد الملكة الوسطى . لكن هؤلاء الأقوام ليسوا أوله الأوربيين الذين أتوا إلى مصر لأن المعروف عنهم أنهم عبروا البحر الأبيض المتوسط كثيرا فيما مضى واليه يعزى أصل الليبيين البيض البشرة . ويظهر من عدد الأسرى والقتلى الليبيين الذين أصيبوا في معركتهم مع مفتاح أن عدد جيشهم كان لا يقل عن عشرين ألف مقاتل .

وعلم مفتاح بالخطر المهدد لكان مملكته فخصن قلاع عين شمس ومنف^(٤) . وفي آخر مارس من السنة الخامسة من حكمه بلغه خبر زحف الليبيين على مصر فاستدعى موظفيه بسرعة وأمرهم بحشد جيوشه وتجهيزها للقتال في ظرف أربعة عشر يوما^(٥) . ورأى في المنام المعبود بتاح في هيئة شيخ عظيم أهدي إليه سيفا وطلب منه أن يبطل الخوف والوجل^(٦) . فلما حل منتصف أبريل كانت الجيوش المصرية معسكة غربي الدلتا وبالغة صفوف الأعداء وذلك وقت المغيب^(٧) بالقرب من بيرع (Perire) وهي مدينة مجهولة الموقع بالضبط لكنها تبعد عن القلاع التي على رأس الطريق المؤتط الدلتا بصحراء ليبيا بعدة أميال^(٨) . وكان لمفتاح بالقرب من بيرع قصر عظيم وسط كروم

(١) ٥٨٠: ٣ (٢) ٥٧٩: ٣ (٣) ٥٩٥: ٣ (٤) ٥٧٩: ٣ (٥) ٥٧٦: ٣

(٦) ٥٨١: ٣ (٧) ٥٨٢: ٣ (٨) ٥٨٣: ٣ - (٩) ٦٠٠: ٣

كثيرة ، وشرق ذلك تمتد حقول الدلتا الجميلة الجزيلة الخيرات والتي كان مزارعوها في ذلك الوقت يحصدونها بهمة ونشاط . فلما وقع نظر الليبيين على هذه الخيرات العظيمة ازدادت همتهم واشربت أعناقهم اليها فاخترقوا صفوف القلاع الغربية وهناك التحموا بجيش منفتح بالقرب من قصره في صباح الخامس عشر من أبريل ، واستمرت المعركة دائرة بشدة مدة ست ساعات انتهت بطرد الليبيين بعد ما تكبدوا خسائر فادحة ، فعقبهم متفتح بجيله كما تفعل الجيوش الحديثة ومنهم شر ممزق واستمر في اقتفائهم حتى بلغ "جبل قرون الأرض" وهو آخر حدود الدلتا الغربية ومنه هرب الليبيون^(١) . أما ميري (Mervey) فقد فر الى بلده يأسا من النصر تاركا جميع أسرته وأثاث منزله في أيدي المصريين^(٢) . وقد استولى المصريون في اقتفائهم أثر أعدائهم على أسرى عديدين كما قتلوا منهم أيضا عددا يماثل ذلك ، وتقدر خسارة الأعداء بتسعة آلاف قتيل ثلثهم تقريبا من سكان البحر الأبيض المتوسط ، أما الأسرى فيقرب عددهم من هذا المقدار أيضا ، وقد وقع بين القتلى أنجال ملك الليبيين الستة^(٣) . وغنم المصريون من هذه المعركة أشياء كثيرة منها تسعة آلاف سيف نحاس وعدد كبير من أدوات الحروب المختلفة البالغ عددها مائة وعشرين ألفا وأسلحة جميلة أخرى وأثاث بديع وجد في خيام ملك الليبيين ورؤساء بلاده ينيف على ثلاثة آلاف قطعة^(٤) . ولما نهب المصريون خيام الأعداء تما ما أضرموا فيها النار فالتهمت كلها^(٥) .

ورجع الجيش المصرى الى قصر منفتح شرق الدلتا فأتت اليه الحير مثقلة بأيدي الأسرى وأمتعهم^(٦) ثم أحضرت الغنيمة وعلائم الانتصار تحت شرفة القصر الملكى فتفقدوها الملك واستقبل جمهور رعيته الجندل^(٧) ، وبعد ذلك جمع أمراء مملكته في القاعة الكبرى من قصره وألقى عليهم خطابا عظيما . وبينما كان جلالته يوجه كلامه نحو أمرائه وصل اليه نبأ من قائد قلاع غربى الدلتا يفيد أنه أن ملك الليبيين هرب مخترقا خط الدفاع المصرى ليلا وأن قومه يتسوا منه تغلموه وملكوا عليهم غيره من خصومه^(٨) . وهكذا سقط الحزب الحربى في ليبيا ووقف كل هجوم من تلك الجهة على مصر في عهد منفتح على الأقل .

ويستدل من شدة الفرج الذى عم أهالى القطر اثر هذا النصر الحربى أن هذا الجندل لم يكن مجرد الفوز العسكرية بل كان أيضا خلاص مصر من الوقوع في أيدي هؤلاء الأعداء ، فقد وقف بذلك سلب غربى الدلتا الذى استمر جيلا تقريبا من هؤلاء الليبيين . لذلك لم يكن هذا النصر دواء لخطر داهم تهدد الامبراطورية المصرية فقط بل كان فرجا وخلاصا من كابوس أثقل كاهل الأهالى وأذاقهم مرارة الحياة ، وإذا لاحظنا هذا اتضح لنا سر شدة فرح المصريين وترنهم بالأنشودة الآتية:

"شمل مصر فرح عظيم وصعدت من بلاد الدميرة (مصر) أصوات السرور ، فأصبح الكل يتحدثون بنصر منفتح على التحنن قائلين ما أحب هذا الملك المنتصر! وما أعظمه بين المعبودات!

(١) ٥٨٤: ٣ و ٦٠٠ (٢) ٥٨٤: ٣ (٣) ٥٨٨: ٣ (٤) ٥٨٩: ٣ (٥) ٥٨٩: ٣ و ٦١٠

(٦) ٥٨٧: ٣ (٧) شرحه . (٨) ٥٨٦: ٣ و ٦١٠

وما أسعد هذا القائد الحاكم! اجلس مسرورا وتكلم أو امش بعيدا حيثما أردت فلا خوف الآن في قلوب الخلق . القلاع تركت وشأنها والآبار فتحت من جديد . وأصبحت الرسل تنتظر حول القلاع مستريحين في ظل جدرانها من حرارة الشمس حتى يتنبه الحراس من الداخل . أما الجنود فصارت تنام مستريحة البال ، وأضحى حرس الحدود يشغل في حقوله كالعادة ، وأصبحت قطعان الأغنام ترعى بدون راع وتعبهر النبل في منتهى فيضانه وقتما تريد . لا أثر الآن لأصوات مثل "قف! ها قد أتى أحد! ها قد أتى شخص يتكلم بلهجة أجنبية!" بل صار الانسان يروح ويفقد مغنيا وانعدام الترح بين الأهالي وأخذت المدن تشيد العمارات من جديد وكل انسان جنى ثمار أتعابه . حقيقة! لقد رجع رع الى مصر! كيف لا فقد ولد ليدافع عنها ويحميها في شخص الملك مفتاح!" .

"لقد خضع الملوك صائحين سلام! فلم يرفع رأسه فرد من القبائل التسع ذات الأقواس .
"لقد أتلقت أرض تحنو ، وأرض الحثيين أسكنت كذلك ، أما أرض كنعان فسلبت بأشد قسوة ،

"وأما عسقلون فأخذت وكذا جازر استولى عليها جلالته . وقد انعدم أثر مدينة يانوام .
"لقد أبيدت اسرائيل واستوصلت وأصبحت فلسطين أرملة (ضعيفة) لمصر . واتحدت البلاد وخيم السلام على الجميع وأصبح الملك مفتاح يوثق بمجاليه كل من يثور على النظام" (١) .

لا شك أن القارئ لاحظ أن الجزء الأخير من هذه الأنشودة يلخص لنا كل انتصارات مفتاح بآسيا وهو الآن مرجعنا الوحيد في حروبه الآسيوية وقد جاء موضعه في الأنشودة خير ختام لها .

بهذه الطريقة تمكن مفتاح على كبر سنه من درء أول زوينة من سلسلة الزواج التي أخذت تهب على بناء الامبراطورية المصرية . والمعروف أنه عاش في الدلتا بعد ذلك خمس سنوات خيم السلام في أثنائها على مملكته . ومما ورد عنه أنه حصن حدوده الآسيوية بقلعة سميت باسمه (٢) وأخضع ثورة نوبية في الجنوب أيضا (٣) .

قال بعض الأثريين أن أحد السوريين المدعو ابن عوزن والذي كان موظفا في القصر الملكي قبض في آخر الأمر على مفتاح وأدار أمور المملكة لكننا لم نجد أساسا لذلك . والظاهر أن سبب سوء هذا الفهم يرجع الى عدم معرفة معنى الألقاب الكثيرة التي أغدقت على هذا السورى وقتئذ ، وقد ألمعنا الى ذلك فيما تقدم (٤) .

وليعلم أن طول حكم رمسيس الثانى وإسرافه في الأموال وجهه الشديد لتشييد العمارات الضخمة منع مفتاح من انجاز كل ما صبت اليه نفسه . زد على ذلك أن أيامه كانت على طولها غاصة بالحروب الحربية والفتوحات فلم يكن لديه وقت لقطع الأحجار وتشيد معبد له بطييه تقدم اليه فيه

(١) ٦١٦:٣ - ٦١٧ Pap. Anast, VI, pl. 4, l. 18-pl. 5, l. 5. (٢) (٣) ٣: صحيفة ٢٥٩

ملاحظة (١) (٤) راجع صحيفة ٣٠٢

القرايين بعد وفاته كما فعل أسلافه ، ولهذا السبب أخذ مفتاح يهدم آثار أجداده بقسوة عظيمة فهدم معبد أمنتحتب الثالث في السهل الغربي لطيبه وحطم جدره وكسر تماثيله ليستعمل من أجزائها أحجارا لبنائه الجديد . فمن هذه الأحجار التي احتكرها هذا الملك لنفسه شاهد جرانيتي ينيف طوله على عشر أقدام مكتوب عليه بيان الممارات التي شيدها أمنتحتب الثالث^(١) (شكل ١٧١) وقد أمر مفتاح بوضع هذا الحجر في عمارته الجديدة مديرا نقوش أمنتحتب الثالث إلى الحائط ثم نقش على الوجه الآخر أنشودة انتصاره على الليبيين السابقة الذكر^(٢) ، ولهذا الأنشودة قيمة أثرية عظيمة لاحتوائها على أقدم ذكر لإسرائيل^(٣) . ولم يقتصر ائتلاف مفتاح لآثار أجداده بل شمل أيضا آثار والده الذي سبق أن وضع له مثالا لمثل هذا الاعتداء قبل وفاته . والغريب أن رمسيس الثاني مع ما أظفه من آثار أجداده نقش على جدر معبد العراية رجاء خلفائه أن يحترموا أعماله وأبنيته ويحفظوها من التبديد ، ولما أتى ابنه بعده لم يظهر أقل احترام لهذا الرجاء الأبوي^(٤) بل استمر يضع اسمه على آثار والده طول حياته .

وتوفي مفتاح عام ١٢١٥ قبل الميلاد بعد ما حكم عشر سنوات ودفن بطيبه بالوادي الذي دفن فيه أجداده ، وقد صرح جثته هناك حديثا فظهر بذلك خطأ الرأي الفائل بفرقه بالبحر الأحمر لما ورد على الآثار من علاقته ببنى اسرائيل .

والحق يقال أن هذا الملك وإن عيب عليه ائتلاف آثار أسلافه فإنه يستحق الإعجاب والمدح لما أناه من الشهامة والإقدام على ضعفه وتقدم سنه لصده الأجانب عن مصر وهم الذين أوشكوا أن يستولوا عليها تماما .

ولا يخفى أن حكم رمسيس الثاني ومفتاح الطاعتين في السن صحبه ضعف وتهاون في إدارة القطر مع تدخل وتآمر على دوائر الحكومة ، لذلك لما توفي مفتاح حصل نزاع داخل على العرش الملكي دام عدة سنوات نجح فيه إثنان أولهما امنمسس (Amenmeses) ومفتاح سبتاح (Merneptah-Siptah)^(٥) . أما الأول فكان ضعيف الحق في المطالبة لأنه ارتكن في دعواه على علاقة قرابة بعيدة تربطه بالبيت المالك ، وكان أيضا معاديا لمفتاح ولذلك لم يدم طويلا فخل محله مفتاح سبتاح الذي وضع يده بسرعة على آثاره وهشم قبره بوادي طيبه الغربي . وسنرى منذ الآن أن التوبة امتد إليها لهيب الثورة فكانت ميدانا للحركات الثورية ضد العرش الملكي ، وقد تكرر هذا الأمر أيضا في عهد الرومان وذلك بعد التوبة عن العاصمة المصرية ولسهولة العمل هناك ضد العرش الفرعوني وسهولة تأسيس حزب كبير يعاضد الحركات الثورية . ولا يبعد أن يكون سبتاح توصل إلى الملك عن طريق التوبة حيث توج ملكا على مصر ، وعلى كل حال فالمعروف أنه ذهب إلى التوبة في أول سنة من حكمه وعين مندوبه السامي هناك وأرسل رسله لتوزيع الهبات على الأهالي^(٦) . بهذه الطريقة وباقتراحه بالأمية تاوسرت (Tewosert) التي يغلب أنها من أصل فرعوني عريق ، تمكن سبتاح من الاستقلال بالملك ست سنوات أرسلت

(١) ٢ : ٨٧٨ ملاحظة (٢) ٣ : ٦٠٢ - ٦١٧ . (٣) راجع صحيفة ٣١٧ (٤) ٣ : ٤٨٦

(٥) ٣ : ٦٤١ (٦) ٣ : ٦٤٢ - ٤

في أنشائها بلاد النوبة جزيتها السنوية بانتظام^(١) وسارت المعاملات الاعتيادية مع امارات آسيا أيضا في مجراها الطبيعي^(٢). أما المندوب السامى الذى عينه سبتاح في النوبة فكان يدعى سبتى وقد لقب كما ألمعنا سابقا "حاكم أرض آمون الذهبية"^(٣). ولنباحظ أن هذه الوظيفة الأخيرة وطدت العلاقة بين المندوب السامى وكهنة آمون ببطية ولذلك لا يبعد أن المندوب السامى اتبع طريقة سبتاح للحصول على عرش مصر مستغنيا على ذلك بنفوذ النوبة. وقد حصل فعلا أن الذى أعقب سبتاح في الحكم هو ملك يقال له سبتى اعتبره القوم الشخص الوحيد ذا الحق الشرعى في العرش الفرعونى من بين خلفاء مفتاح الثلاثة. والظاهر أن هذا الملك كان قويا ناجحا فوجا ما فقد شيد معبدا صغيرا بالكرك وأخر بالاشمونين (هرموبوليس) ، ثم وضع يده على مقبرة سبتاح وتاوسرت ، ثم شيد لنفسه أخيرا قبرا خاصا له. وظهرت في البلاد عوامل داخلية شديدة أضعفت من الحكم لأن البلاد كانت في حاجة الى حاكم قوى شديد ماهر خاذق ، وهذه العوامل تلخص في ظهور أمراء البلاد بشيء من الفطرسه والكبرياء والإكثار من الأجانب في الحاشية الملكية ، وشدة نفوذ الكهنة وتعدد المطالبين بالعرش. ولما كان سبتى الثانى ضعيف الشكيلة بالنسبة لهذه الاعتبارات وقع ضحيتها ، ولا غرابة في ذلك فصار العوامل المذكورة يكفى لأن يذهب بعثة رجال يفوقون سبتى هذا قوة وذكاء.

ولما ترك سبتى الثانى الحكم عجز مسقطوه عن القيام بأعباء الحكم فشبت في البلاد حرب أهلية جزأت القطر وانقسمت تحت تأثيرها الى عدة أجزاء مستقلة ، فقم اليأس وسوء النظام سائر أنحاء المملكة وهو ما يشاهد كثيرا في مثل هذه الأحوال بالبلاد الشرقية. واليك ترجمة ما جاء بالآثار في هذا الصدد: "لقد فقد كل انسان متاعه فلم يبق هناك حاكم يرد الحق الى نهبايه عدة سنوات. وبسقطت مصر في أيدي أمراءها وحكام مدنها ، فصار الجار يقتل جاره قويا كان أو ضعيفا"^(٤).

ولم ننتد لأن الى مدة هذه الاضطرابات لكن الثابت أن الامبراطورية المصرية كانت سائرة بسرعة نحو التفكك والانحلال بالكيفية التى وصفها لنا كتاب العرب أيام الممالك. وما أقوى الشبه بين ما وصفه كتاب العرب أيام القرن الرابع عشر بعد الميلاد وما ورد في قرطاس هريس (Harris) المدون أيام رمسيس الثالث حيث سردت أخبار تلك المجاعة والثورة بالإيجاز^(٥).

وصادف في ذلك الوقت توظف أحد النبوريين في القصر الملكى فرأى البلاد في حالة حفظ شديد واضطرابات كثيرة فاغضب الملك وساس القطر بالقسوة والجبروت منهتوليا على جميع ايراد البلاد. ثم جمع رفقائه وسلب أموالهم وعامل المعبودات كالآدميين فلم يقدم لها قرابين بالمعابد^(٦) ، فضاء الحق وأبطلت أوقاف المعابد.

وبدبى أن الليبيين كانوا وقتئذ على علم تام بما حصل بالقطر المصرى من الدمار والجوع ، فأخذوا مهاجرون الى غربى الدلتا وصار جناتهم ولصوصهم يعيثون في البلاد بين منف والبحر الأبيض

(١) ٦٤٤: ٣ (٢) ٦٥١: ٣ (٣) ٦٤٠: ٣ (٤) ٣٩٨: ٤ (٥) شرحه. (٦) شرحه.



خريطة رقم ١٢ تظهر علاقة مصر الجغرافية مع العالم القديم
مذكورها بعض أسماء حديثة لمواقع وغيرها تسهيلاً للمهر القارئ

المتوسط ثم استولوا على الحقول واستوطنوا شاطئ فرع النيل الكانوبي^(١) . عند ذلك ظهر بين المصريين رجل قوى الشكيمة مجهول الأصل يدعى سننخت (Setnakht) حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد يرجح أنه من سلالة سبتي الأولى ومسييس الثانى نجح فى الاستيلاء على العرش الفرعونى وإثبات حقه ضد كل مدع رغم كثرة أعداء مصر خارجا وداخلا ، واستعمل فى ذلك حنكة ومهارة سياسيتين استحق عليهما جزيل الثناء . بعد ذلك بسط سننخت النظام ووطد الأمن والسكينة فى البلاد وأرجع القوانين الفرعونية الى ما كانت عليه سابقا . ومن دواعى الأسف أن الأخبار التى وردت إلينا عن هذه الأزمة قليلة جدا تتلخص فيما أورده رمسيس الثالث بن سننخت حيث قال ما ترجمته :

”ولما اتفقت كلمة المعبودات على السلم وأجمعت رأيها على العمل معا لما فيه مصلحة البلاد كالعادة ولت ابنها من سلاتها المدعو سننخت حاكما على كل الأراضى فأرجع النظام فى جميع البلاد النائرة وقتل العصاة الذين كانوا بمصر وطهر العرش المصرى العظيم فعرف كل انسان أخاه بعد ما كان مضطرا الى المعيشة بين جدر المنازل (للحماية من العث) . ثم أعاد القربان الى المعابد كما كانت من قديم الزمان“^(٢) .

يتضح من هذه العبارة أن الرجل السورى الذى اغتصب الملك أغضب الكهنة بإبطال أوقافهم ، أما سننخت فاتخذ ارجاع أوقاف الكهنة لأصلها وسيلة للوصول الى العرش لأن طائفة هؤلاء القوم كانت أغنى وأقوى حزب فى البلاد .

وسنرى أن المشاق التى صادفها سننخت فى حكمه كانت صعبة منته من تشييد المعابد والهيكل كسلفه بل حالت أيضا دون انشائه نهرا له بطيبة . لذلك وضع يده على قبر سيتاح وتاوسرت الذى اغتصبه سبتي الثانى سابقا ولم يستعمله . والظاهر أن حكم سننخت كان قصيرا لأن كل الآثار التى عثرنا عليها لهذا الملك ترجع الى السنة الأولى من حكمه . وأقصى تاريخ احدثنا اليه من حكم هذا الملك هو الوارد على ظهر درج بردى خطه كاتب مصرى كان يجرب قلبه وهو يشير الى السنة الأولى من حكم الملك سننخت . وقبل أن يتوفى هذا الملك (عام ١١٩٨ قبل الميلاد) عين ابنه رمسيس الثالث شريكا له فى الملك وولى عهد حكمته .

اعتبر مانيئو رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين رغم ما ذكرناه من انقطاع الصلة الدموية بين الحكام بعد وفاة منفتح وفى عهد سننخت . أما الظروف التى اعتلى فيها رمسيس الثالث الحكم فكانت كثيرة الشبه بظروف منفتح وقت توليته الملك ، ونظرا لحدائثة سن أولها وشجاعته تمكن من علاج المصاعب التى اعترضته أحسن من منفتح ، فأخذ رمسيس الثالث يصلح قوته الحربية بسرعة ويقسمها الى طبقات على حسب لياقة الأفراد للخدمة ، وزيادة على ذلك فقد أدخل على جيشه فرقة السردنيين المأجورين التى لا تزال نجهل عدد أشخاصها — وقد كانت وقت رمسيس الثانى — وفرقة كك (Kehek) وهى قبيلة ليبية^(٣) . وبدهى أن هذه الجنود المأجورة كانت تستخدم ما دامت

(١) ٤٠٢ : ٤

(٢) ٣٩٩ : ٤

(٣) ٤٠٤ : ٢٢ — ٢٠ : ٢٠٤

تسلم أجورها . أما الجنود المصرية فكانت كثيرة التغير والتبدل بدخول طبقة بعد أخرى ولذلك كان معظم اعتماد فرعون على جنوده الأجنبية المأجورة . وقد شغل نظام القطر الداخلي وقت رمسيس الثالث كله فلم يتمكن من علاج الخطر الليبى إلا مكربها كما حصل لهفتاح . وبما زاد الطين بلة أن سكان شواطئ البحر الأبيض المتوسط أخذوا يقدون بكثرة على مصر ، وأخصهم قومان فظيعان يعرفان بالثكاليين (Thekel) و البلس (Pelæset) — المعروفين عند اليهود بالفلسطينيين (شكل ١٧٢) — اشتروا باحداث القلق والاضطراب^(١) . أما أهالى بلس و هم الفلسطينيون فأصلهم من جزيرة كريت ، وأما الثكاليون فالغالب أنهم يونانيو الأضل من جزيرة صقلية . وقد احدث الثكاليون وأهالى بلس مع الدناوين (Denyen) والسردنيين والوشاشيين والشكلاشين وجمعوا كلتهم على الهجوم على مصر ، وزحف القومان الأولان جنوبا وشرقا تحت ضغط الباقين من حرب هذا الاتحاد . ولقلة معرفتنا للغة هؤلاء القوم ومجتمعاتهم وما وصل اليها من رسومهم على الآثار المصرية ، تلك الرسوم الخاصة بملابسهم وأسلحتهم وسفنهم وعددهم ، لا تزال نجعل أصلهم بالضبط . والظاهر أن هجرتهم الجنوبية هذه جاءت دليلا على سبق حصول مثل هذه الهجرات قديما . وقد اتخذ هؤلاء الأعداء طريقين فى هجرتهم أحدهما طريق سوريا فأعلى الأورونت ومملكة آمور^(٢) ، والثاني طريق أسناطيلهم التى سيرها رجال جيسورون منهم عن طريق شاطئ الدلتا ، وقد اتبع هؤلاء الأخيرون أساليب النهب والقرصنة حيثما حلوا^(٣) . ولما وصل الفريق الثانى إلى شاطئ إفريقية وجد فيه الليبيين الذين أظهروا استعدادهم للاتحاد معهم على نهب الدلتا واحتلالها . وسبق القول أن الليبيين غزوا ملكهم المدعى ميري (Meryey) بعد ما هزمه متفتح ، والآب نذكر القارئ أنهم ملكوا عليهم ملكا يدعى ورم (Wermer) ، ولما مات هذا تولى بعده الملك ثير (Themer) ، وهذا الأخير هو الذى قاد الليبيين ضد مصر فى عهد رمسيس الثالث . وكان الهجوم على مصر من غرب الدلتا بطريق البر والبحر ، والتقت الأعداء بجنود رمسيس الثالث بجوار مدينة "رمسيس الثالث معاقب أهل التمحو (أى ليبيا)"^(٤) ، وهناك هزمهم رمسيس وحطم جانبا من سفنهم وأسرا الجانب الآخر ، فرجع الأعداء بعد ما خسروا كثيرا لأن قتلهم بلغوا اثنى عشر ألفا وخمسمائة نسمة ، وأسراهم ألف نسمة على أقل تقدير ، وأغلب القتلى كانوا من القرصان^(٥) .

واحتفل رمسيس الثالث بهذا النصر احتفالا كبيرا كالعادة فقابل فى شرفة قصره أعيان بلادهم الفرحين واستعرض الغنيمة الحربية^(٦) ووهب كثيرا من الأسرى لآمون^(٧) كالعادة المتبعة ، وعيّن البلاد وقبض الأمن والسلام واليك ترجمة ما قاله الملك :

"لقد أمكن كل امرأة الآن أن تسير خارج منزلها كما تريد رائحة قناعها بلا خوف ولا وجل لأنه لم يعد أحد يتعرض لها"^(٨) .

(١) ٤٤ : ٤ (٢) ٣٩ : ٤ (٣) ٤٤ : ٤ (٤) ٥٢ : ٤ (٥) ٥٢ : ٤ (٦) ٤٢ : ٤ و ٥٢ — ٥٧ : ٤ (٧) ٥٧ : ٤ — ٧٣ : ٤ (٨) ٤٧ : ٤ نمر ٧٣ : ٤

$$Y_1 - Y_2 = 8 \quad (7) \quad Y_3 = 2 \quad (8) \quad Y_4 = 2 \quad (9)$$

تمكن رمسيس الثالث من الوصول الى ميناء على شاطئ فينيقيا راقب منها سير المعركة البحرية التي دارت رحاها بين أسطوله وأسطول أعدائه وأدار حركة الدفاع من الشاطئ . أما الأسطول المصري فكان مزودا بخبرة البحارة المصريين المسلحين جيدا ولذلك ألحقوا الهزيمة والتلف بسفن الأعداء قبل أن تصل الى الشاطئ . وما زاد الطين بلة أن رمسيس وضع على الشاطئ المقابل لمكان المعركة قوة برية مصرية مسلحة بالسهام صوبت أسلحتها الفتاكة نحو رجال أسطول العدو فأصلتهم نارا حامية ، وإشترك في القتال فرمى أعداءه بسهامه . بعد ذلك تقدم الأسطول المصري نحو الأسطول الأجنبي ليحتل وحداته ويفتك برجاله ، فانتشر الذعر بين الأعداء وانعدم النظام بينهم (شكل ١٧٣) ففرق من سفنهم ما غرق ، ثم دب الرعب في نفوسهم فوجموا لما أصابهم وألقوا أسلحتهم في البحر ، وكانت سهام جلالته تصيب جسم كل من يصوبها نحوه فتريده في الماء قتيلًا ^(١) .

بعد ذلك سمحت السفن مقلوبة الى الشاطئ وكانت القتلى كومات مكدسة على ظهر السفن من مقدمها الى مؤخرها ، وألقيت جميع أمتعة الأعداء في البحر تذكارا لمصر ^(٢) ، ومن حاول من الأعداء الهرب عائدا نحو الشاطئ تأسره القوات المصرية هناك .

والظاهر أن هاتين الضربتين اللتين صوبتهما رمسيس الثالث نحو أعدائه كانتا كافيتين لبسط نفوذه على بلاد آسيا كلها حتى أمور ، وقد اعترف له أعداؤه بذلك ، وأخذ بعض هؤلاء الأعداء يهاجرون بعد ذلك الى سوريا لكنهم كانوا يطيعون الأوامر المصرية ويدفعون الجزية لفرعون .

بهذه الكيفية نجحت الامبراطورية المصرية بآسيا للمرة الثانية من الخطر الأجنبي ، ثم رجع رمسيس الثالث الى مقره بالدلتا ليشارك في احتفالات النصر العظيمة التي أقيمت له عن جدارة واستحقاق .

ومضت على جلالته مدة قصيرة لم تحصل فيها مشاكل ولا اضطرابات ، ومع ذلك فقد أمضاها في الاستعداد للطوارئ . وقد حصل فعلا ما كان يحاط له جلالته وخلاصه ذلك أن سكان الغرب الأقصى بدءوا بهجرة عظيمة ثانية الى غربي الدلتا ، ويرجع السبب في هذه الهجرة الى قوم المشواشين القاطنين غربي الليبيين . ولما كان الليبيون قد عوقبوا بقسوة في السنة الخامسة لحكم رمسيس الثالث لم يعد لهم غرض في غزو الدلتا ، ولكن المشواشين غزوا بلادهم وأتلفوها ^(٣) ، ثم اضطروهم أن يتحدوا ويحاربوا مصر ^(٤) . بعد ذلك انضم الى هؤلاء الأعداء قوم آخرون ، ثم تولى قيادة الحملة المدعو مششر (Meshesher) ابن ملك المشواشين المدعو كبر (Keper) وكان غرض هؤلاء الأعداء الأول الهجرة والاستيطان بالدلتا ، وقد "صمم هؤلاء الأقوام أن يعيشوا في مصر ويستولوا على تلالها وسهولها" ^(٥) فصاحوا بصوت واحد "لنستوطن مصر ! ثم عبروا الحدود المصرية باستمرار" ^(٦) . كل ذلك حصل في الشهر الثاني عشر من السنة الحادية عشرة من حكم رمسيس الثالث .

ثم أخذ القوم يغزون مصر من الطريق الغربي كما فعلوا أيام متفتح فاصروا قلعة هاتشو (Hatshe) التي تبعد عن حدود الدلتا بنحو أحد عشر ميلا وتقع بقرب ترعة "مياه رع" . في تلك الجهة وتحت

(١) ٧٥: ٤ (٢) ٦٦: ٤ (٣) ٨٧: ٤ (٤) ٩٥: ٤ ٨٦: ٤ (٥) ٩٥: ٤ (٦) ٨٨: ٤



شكل ١٧٣ — صورة معركة بحرية انتصر فيها رستم الثالث على أمالي شمال البحر الأبيض المتوسط . رسوم بارزة على الجدران الشمالية للمبداء مدينة هاتون .
 وقضى السفن المصرية إلى الشمال صالقة المدون تارا حامية حتى أجبرته على الحرب (الال هينين) وأزفقت في المخرج والمخرج . وشاهد إحدى سفن المدون مقابلته .

أسوار قلعة هاتشو هم رمسيس الثالث مع جيشه على أعدائه هجوما مرأ وأخذت حامية القلعة المذكورة تمطر الأعداء في الوقت نفسه نارا حامية حتى دخل رعب فرعون في قلوبهم وعجزوا عن المقاومة ودب الذعر بينهم ففروا هاربين ، لكن قلعة ثانية أصلتهم نارا حامية وقت هربهم قضت عليهم بقسوة عظيمة^(١) . بعد ذلك تعقبهم رمسيس بجيوشه لمسافة أحد عشر ميلا الى حدود الدلتا حتى تأكد من خروجهم تماما من أرض مصر^(٢) ، ثم استراح في حصن هناك يعرف بحصن "مدينة رمسيس الثالث" الذي سبق أشرنا اليه بأنه شيد على قمة "جبل قرون السماء" .

وانتهت هذه المعركة بقتل مششر (Meshesher) قائد المشواشين وأسر والده ملكهم المدعو كبر (Keper)^(٣) ، وقتل ما يبلغ ألفين ومائة وخمسا وسبعين نسمة وأسر ما يبلغ ألفين واثنين وخمسين نسمة بينهم نساء يزيد عددهن على ربع هذا المقدار^(٤) . وإليك ما قاله رمسيس عن معاملته هؤلاء الأسرى : "لقد اعتقلت رؤساءهم في قلاعى باسمى ، ووسمت قوادهم ورؤساءهم الذين وهبهم لتلك القلاع كعبيد باسمى ، وعاملت نساءهم وعيالهم المعاملة نفسها"^(٥) .

وبلغ عدد الأسرى المشواشين الذين سخرؤا عبيدا لخدمة قطع المعبد المسمى "رمسيس الثالث المتصر على المشواشين بجوار مياه رع"^(٦) ألف نسمة تقريبا . واعتبر جلالة هذا النصر العظيم عيدا احتفل به سنويا وسماه "عيد قتل المشواشين"^(٧) . ولقب جلالة نفسه بعد ذلك بالألقاب الآتية : "حامى مصر والمدافع عن الأفطار وغازى المشواشين ومثلف أرض التحو"^(٨) .

هذه هى المرة الثالثة التى صددت فيها القبائل الغربية عن الدلتا ولم يعد عند رمسيس الثالث بعد ذلك مجال للتوف من تلك الجهة ، انما يلاحظ أن قوة الاستعمار عند الليبيين لم تنعدم بالرة . والمعروف أن هؤلاء القوم لم تتحد لهم كلمة بعد ذلك ، لكنهم أخذوا يهاجرون مسالين الى القطر المصرى كما فعلوا قبل حكم الأسر ، وقد فعلوا ذلك تدريجا وبسر قليل لم يقاومهم فرعون مصر ولم يهتم بهم كثيرا لعلمه بضعفهم وعجزهم .

ولقد أحدثت فتنة أهالى شمالى البحر الأبيض المتوسط بالشام تأثيرا سيئا في ولاة مصر رغم انتصار رمسيس الثالث وصدّه للغزاة . ولأن لم يثبت أن كان ملك أمور اتحد مع الغزاة ضد مصر وقتئذ كما فعل أيام الضغط الحيثى أم لا ، لكن المعروف أن رمسيس الثالث حالما انتهى من صدّه الليبيين سافر تورا في جيشه الى أمور ، ولم يصل اليها من أخبار هذه الحملة الا اليسير^(٩) . ومنه استدلل على أن جلالة استولى عنوة هناك على خمس مدن على الأقل : واحدة في أمور ، وثانية يظن أنها كدش لكونها محاطة بالماء ، وثالثة واقعة على تل لا تزال نجعلها . أما الاثنان الباقيتان فتسمى احدهما إرت (Erth)^(١٠) والأخرى مجهولة الاسم ، وقد دافع الحيثيون عنهما . والظاهر أن رمسيس الثالث لم يتوغل كثيرا في الأقطاع الحيثية رغمًا من ضعف مملكة الحيثيين وما انتابها من غارة أهالى جزر البحر الأبيض

(١) ١٠٧ : ٤ (٢) ١٠٢ : ٤ (٣) ١١ : ٤ ١٠٣ ٩٧ ١٢ : ٤ ١١ : ٤ ١٢ : ٤ ١١ : ٤

(٤) ١١١ : ٤ (٥) ٤٠٥ : ٤ (٦) ٢٢٤ : ٤ (٧) ١٤٥ : ٤ (٨) ٨٤ : ٤ (٩) ١١٥ : ٤ ١٣٥

(١٠) ١٢٠ : ٤

المتوسط عليها ، وتعتبر هذه الغزوة الأخيرة من نوعها بين فرعون مصر والحيتيين إذ بعدها انحطت مملكتا مصر والحيتيين بسرعة فلم نسمع بعدئذ في تاريخ مصر شيئا عن الحيتيين بسوريا .

وقد ورد ضمن جداول البلاد^(١) التي غزاها رمسيس الثالث ذكر لعدة مدن في شمال سوريا وعلى نهر القنات كانت فيما سبق تحت حكم الامبراطورية المصرية أيام عزها ومجدها ، ولما كانت هذه الجداول مقولة عن جداول أسلافه لم يعلق عليها الأثريون أهمية كبيرة . والمعروف أن رمسيس الثالث أخذ ينظم مستعمراته الآسيوية بعد ذلك ويرجح أنه لم يبعد حدوده عما كانت عليه أيام منفتاح بذلك كانت مملكة آمور على أعلى الأورونت وأقصى مستعمراته الآسيوية . وأراد أن يزيد اطمئنانه من عدم حصول اضطرابات في المستقبل بسوريا وفلسطين فشيد حصونا كثيرة بتلك الجهات في المواقع الهامة^(٢) . وشيد أيضا معبدا لآمون ببعض جهات سوريا نصب فيه تمثالا عظيما لهذا المعبود الحكومي ، وأجبر أمراء آسيا أن يعلنوا ولاءهم لجلالته بأن يقدموا جزيتهم السنوية أمام ذلك التمثال^(٣) . ثم مهد وسائل النقل بين مصر وسوريا فحفر بئرا عظيما في صحراء أيان (Ayan)^(٤) شرق الدلتا ، ممتما بذلك موارد المياه التي أسسها سبقي الأول هناك من قبل .

بعد ذلك لم تحدث اضطرابات تذكر الا ثورة صغيرة قام بها بدو صير (Seir) ، وقد أخضعت بسهولة ثم عاذ النظام والسلام الى نصابهما حتى توفي رمسيس الثالث^(٥) .

وأثرت معاملات مصر التجارية والادارية بأسيا كثيرا في وسائل التخاطب والمراسلة ، فقبل تلك العصور كانت الخطابات عبارة عن ألواح طينية ينقش عليها مضمون الكلام . أما الآن فقد استبدلت بهذه الألواح الثقيلة أدراج بردية ، وأصبح حكام فينيقيا يقيدون حساباتهم في هذه الأدراج ، ولذلك كثرت كمية البردى الذي كان يصدر من مصانع الدلتا بمصر مقابل مصنوعات فينيقية أخرى^(٦) . ولما استحال على الفينيقيين كتابة حسابهم على الأدراج البردية بالخط المسامري أخذوا يقيمون الخط المصري مقامه تدريجيا . وفي القرن الحادى عشر قبل الميلاد كانت فينيقيا تستعمل أحرف الهجاء المصرية في مخطوطاتها بشكل أحرف ساكنة ، ومن ثم انتشرت هذه الأحرف الى اليونان ومنها الى سائر ممالك أوزبا .

ولا يخفى أن أهم ما يهتم به حكام الشرق هو جمع الجزية فوجه رمسيس الثالث لها في أيامه مزيد اهتمامه ، وقد قال جلالته : "لقد فرضت الخراج على وارداتهم كلها فأصبحت كل مدينة تجمع جزيتها ورسلها كلفة واحدة"^(٧) . وقد حصلت في عهده اضطرابات بسيطة بالنوبة لكنها لم تعكر صفو السلام في الامبراطورية^(٨) ، لأنه قال : "لقد جعلت المرأة المصرية تذهب كما تشاء مكشوفة الأذنين فلا يتعرض لها أجنبي أو غيره . لقد جعلت مشائى ورجال عجلاقي الحربية يعيشون بمنازلهم مدة حكمى ، وصار جنودى السردينيون والكحاكيون يسكنون مدنهم نائمين على ظهورهم بلا وجل ، ولم يعد يبدو

(١) ١٣٥ : ١٣١ : ٤ (٢) ١٤١ : ٤ (٣) ٢١٩ : ٤ (٤) ٤٠٦ : ٤ (٥) ٤٠٤ : ٤
(٦) ٥٧٦ : ٥٨٢ (٧) ١٤١ : ٤ (٨) ١٣٦ : ٨

عدو من بلاد كوش ومن سوريا ، ولذلك كانت أقواس وأسلحة هذه القوات مكدسة في مخازنهم ، أما هم فكانوا مزقودين بالماكولات والمشروبات وقلوبهم طامحة بالسرور ، وكانت زوجاتهم وأولادهم عاشين معهم فلم ينظروا خلفهم لأن قلوبهم كانت مطمئنة ، ولأنني كنت أحبيهم وأدافع عن أعضائهم . لقد أحيت سكان الأراضي كلها ، أجانب ووطنيين ، ذكورا وإناثا . لقد فرجت هم البائس وأرجعت له الأمل والحياة ونجيت من ظالمه القوى . لذلك صار كل إنسان آمنا ببلده ، وكل شخص له دعوى في الحاكم أثلته حقه كاملا . لقد أصلحت الأراضي التالفة وساد الأئس أثناء حكمي " (١) .

وبلغت المعاملات والتجارة بين مصر والبلاد الأجنبية منتهى كمالها كما كانت في أزهى أيام الامبراطورية . وكان لمعابد آمون ورع وبتاح أساطيل تجارية تمخر مياه البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأحمر ، حاملة دخل تلك المعابد من فينيقيا وسوريا والصومال (بونت) (٢) . واستخرج رمسيس الثالث النحاس من مناجحه في أتিকা (Atika) بشبه جزيرة طورسيناء ، فأرسل إلى تلك الجهة أسطولا كبيرا أفلح من إحدى موانئ البحر الأحمر وعاد بكيات عظيمة من النحاس عرضت تحت شرفة قصر رمسيس ليراها جميع رعيته (٣) . وأرسل بعثة أخرى لاستخراج معدن الملائيت الكرم من سيناء فأحضرت كيات عظيمة منه أهدى جزءا كبيرا منها للعبودات (٤) . وأعظم من هذا وذلك الأسطول التجاري الضخم الذي أرسله إلى بلاد الصومال . والظاهر أن القناة التجارية التي كانت مختربة وادى طميلات وواصلت النيل بالبحر الأحمر (راجع صحيفة ١٢١) عطلت فانعدمت التجارة ، ولذلك لما رجع الأسطول المذكور من بونت رسا بميناء البحر الأحمر تجاه قفط (Coptos) ، حيث أنزل بضاعته . وقد نقلت هذه البضاعة على ظهور الحمير إلى قفط ثم شحنت هناك في سفن نيلية إلى مقر رمسيس الثالث بشرقي الدلتا (٥) . وكانت التجارة البحرية في ذلك العصر أكثر مما كانت في كل أزمان الأسرة الثامنة عشرة ، خذ مثلا ما رواه رمسيس الثالث نفسه من أنه شيد لآمون بطبيه في مصنعه سفينة مقدسة طولها مائتان وأربعة وعشرون قدما من كتلة عظيمة من خشب الأرز الوارد من لبنان (٦) .

وبديهي أن هذا التضخم المالي الكبير أعان فرعون كثيرا على القيام بالأعمال النافعة العمومية ، فأكثر من غرس الأشجار في أنحاء القطر كله وعلى الأخص بطبيه ومقر جلالة بالدلتا ، فارتاح لذلك الأهالي كثيرا لأن القطر المصري كما لا يخفى عديم الغابات شديد القيط في زمن الصيف (٧) . وجدد جلالة أيضا عهد العمارات التي كانت عطلت بعد وفاة رمسيس الثاني ، فشيّد في سهل طبيه الغربي معبدا كبيرا بديعا لآمون يعرف الآن بمدينة هابو (٨) بدأ بتشييده في أوائل حكمه (شكلي ١٧٤ و ١٧٥) واستمر على توالى السنين يوسعه من الأمام والخلف ويسجل على جدره أعماله الحربية كل سنة حتى أصبحنا الآن نجد أخبار هذا الملك كلها مدونة على هذا المعبد . وتبتدئ هذه النقوش التاريخية من أقدم قاعاته بالخلف وتستمر تدريجا حتى تنتهي بأحدث صرح وساحة من الأمام . وتشاهد على جدره هذا المعبد رسوم أهالي البحر الأبيض المتوسط يحاربون جنود رمسيس الثالث السرديين

(١) ٤١٠ : ٤ (٢) ٢٢٨ و ٢٧٠ و ٢١١ : ٤ (٣) ٤٠٨ : ٤ (٤) ٤٠٩ : ٤ (٥) ٤٠٧ : ٤
(٦) ٢٠٩ : ٤ (٧) ٢١٣ و ٢١٥ و ٢١٠ : ٤ (٨) ١٨٩ و ٢٠ : ٤ - ١٩٤

الذين اخترقوا صفوفهم واستولوا على عجالتهم ذات الثيران كما تقدم القول . وتشاهد أيضا على جدر هذا المعبد رسوم أقدم معركة حربية بحرية حصلت في المياه المالحة معروفة للآن ، ومنها يتضح للباحث كيفية تسليح البحارة الشماليين وقتئذ ، وكذا أنواع ألبيستهم وصفنهم الحربية وأمتعتهم مما لا تخفى أهميته على أحد . والمعروف أن هؤلاء القوم أقدم أوربيين اشتركوا هم والعالم القديم في معترك الحياة^(١) .

وحفر رمسيس الثالث بحيرة مقدسة كبيرة أمام معبده بمدينة هابو وأنشأ له أيضا حديقة غناء وأكثر من العمارات المجاورة والمخازن، وشيد لنفسه قصرا عظيما متصلا بالمعبد المذكور له أبراج هائلة مقامة بالأحجار الضخمة . ثم أقام سورا عظيما حول ذلك البناء المركب المشرف على الجزء الجنوبي لسهل طيبة الغربى، فأصبح الواقف فوق صرح ذلك المعبد يرى جميع المبادئ المشيدة بالجهة البحرية بسهل طيبة الغربى التى أقامها فراعنة مصر العظام . ويعتبر معبد مدينة هابو آخر المباني الشاخنة التى شيدها فراعنة مصر الكبار من حيث الموقع والقيمة التاريخية . والحق يقال أن رمسيس الثالث هو آخر امبراطور مصرى عظيم في تاريخ مصر القديم . وقد شيد عمارات أخرى غير هذا المعبد بليت كلها تقريبا ، منها المعبد الصغير الذى أقامه لآمون بالكرنك ، ومنه استدل أن رمسيس كان متيقنا بأنه لا يمكنه أن يشيد من المباني ما يناظر ساحات الكرنك العظمى لضخامة الأخيرة وما تتطلبه من تعب وعناء ، ودليلنا على ذلك أنه جعل معبده الصغير المذكور مستعرضا لمحور الكرنك الأصلي ، لكنه في الوقت نفسه جاء مثلا لحسن ذوق رمسيس الثالث في هذا الموضوع (شكل ١٨٣) ^(٢) . وغير ذلك شيد أبنية صغيرة أخرى بالكرنك ^(٣) ، عدا ما أقامه بمعبد موت (Mut) جنوبي الكرنك ^(٤) . وبدأ جلالته أيضا ببناء معبد صغير لخونسو ^(٥) وكذا بعض هياكل صغيرة بمنف وصين شمس لم يبق منها إلا التتر اليسير ^(٦) . وهناك هياكل عديدة أخرى أقامها رمسيس الثالث لمعبودات مصر في جهات القطر كلها لم يبق منها إلا القليل ^(٧) . ومن مآثره أيضا الحى الجميل الذى شيده لآمون بمقر إقامته بالدفنا ، وقد وصفه جلالته بأنه كان محلى بالخدائق العظيمة والمماشى الكثيرة وأنواع النخيل كافة ، غير الطريق المقدس الذى أنشأه وحلاه بالأزهار من جهات القطر كلها ^(٨) . وقد خصص لخدمة هذا الحى ثمانية آلاف عبد ^(٩) وشيد في المدينة نفسها معبدا لسوتخ في الأراضى الموقوفة لمعبد رمسيس الثانى ^(١٠) .

ودلنا أبنية تلك العصور أن فن العمارة أخذ في الانحطاط ، فالخطوط والساحات ذات العمد فقدت عظمتها وأبهتها اللتين امتازت بها ساحات العهد القديم واللتين كانتا تسترعيان نظر كل متطلع . فالناظر مثلا الى الآثار القديمة يتجه نظره من دون شعور الى قممها ليرى ماذا يتهى هذا البناء المدهش الآخذ بالألباب . أما بناء رمسيس الثالث فقليل الزهو والإتقان . وبمقارنة نقوش معبد مدينة

(١) ٨٢ - ٦٩ : ٤ (٢) ١٩٥ : ٤ (٣) ٢١٣ - ١٩٧ : ٤ (٤) ١٩٦ : ٤ (٥) ٢١٤ : ٤
(٦) ٢٦٥ - ٢٥٠ : ٤ (٧) ٣٢٨ - ٣١١ : ٤ (٨) ٢١٥ : ٤ (٩) ٢٢٥ : ٤
(١٠) ٣٦٩ - ٣٦٢ : ٤

هابو البارزة بنقوش معبد سبتي الأول بالكركك يشاهد أن الأولى أقل اتقاناً واعتناء من الثانية ، لكن هذا لا يمنعنا أن نعترف بوجود بعض نقوش بمعبد مدينة هابو لا تقل من حيث الاتقان والجمال عن رسوم معبد سبتي المذكور التي تمثل منتهى التقدم في فن الحفر القديم . خذ مثلاً ما جاء من رسم رمسيس الثالث وهو يصطاد ثوراً وحشياً ، فمع تصوّر عدّة غلطات فيه من حيث الدقة والاتقان فإنه يستحق المدح والإعجاب من حيث الجمع بين الشعور والمناظر المتعددة مما يسترعى النظر (شكل ١٧٦) . وللاحظ أن رسم المعركة الحربية التي حصلت بالقرب من شاطئ سوريا في عهد رمسيس الثالث والتي تقدم الكلام عليها جاء مثلاً واضحاً على الذكاء الفطري والتصور القوى عند راسمها وبرهاناً آخر على البراعة وتأثير الرسم في النفوس ، ولذلك اعتبر هذا الرسم أول خطوة جديدة في الحفر أظهرت ابتكاراً وشجاعة (شكل ١٧٣) .

وقد راعى رمسيس الثالث في فنونه الجميلة قواعد العصور السالفة فسجل أخباره بما يشبه تسجيل أخبار العصور القديمة رسماً وشكلاً . ولما أراد كاتب نقوش جدر معبد مدينة هابو أن يسرد أعمال رمسيس الثالث اتبع الطريقة والأسلوب القديمين ، فأكثر من تكرار الجمل والعبارات الدالة على الشجاعة والإقدام والمهارة الحربية والحكمة السياسية كما فعل كاتب الملوك الأقدمين . فإذا طالع الباحث مثلاً نصوص بعض حروب هذا الملك على جدر معبد مدينة هابو يجد كثيراً من الجمل والعبارات القديمة مكررة بدون مناسبة لمسافة بضعة آلاف من الأقدام المربعة ، بينما القليل من الأخبار التي هي للباحث لب الموضوع ، ولذا كانت نصوص هذا المعبد صعبة الوضوح عسرة الفهم معتلة التراكيب .

والظاهر أن رسوم رمسيس الثالث التي تمثلها وهو يقود جيوشه يجرأة في ساحة قتال ، أو هازماً أعداءه باستمرار وقت هجومهم الشديد على مصر ، لم تثر في نفس الكاهن الذي نقش تلك الرسوم حساسة لأنه استرسل في ذكر الأساليب القديمة بقصد نقشها فقط . والظاهر أن الكاتب كان متبحراً في الدعوات والأغاني وأساليب الكلام القديمة فاستعملها هنا ليظهر مقدرة وشجاعة مليكه الحقيقيين . ولعل اللوم في ذلك لا يقع على الكاتب لأن المعروف عن رمسيس الثالث أنه كان ميالاً بطبعه إلى عوائد وأعمال وأساليب رمسيس الثاني ، ودليلنا على ذلك أنه اختار لنفسه اسماً مكوناً من جزأين : الجزء الأول اسم رمسيس الثاني الملكي والجزء الثاني اسم رمسيس الثاني الشخصي ، ثم انه سمي أولاده وخيله بأسماء أولاد وخيل رمسيس الثاني ، واسترسل في تقليده فاستصحب معه أسداً مستأنساً في حروبه بجوار عجلته . والمعروف أن أعمال رمسيس الثالث كانت نتيجة إجبارية لظروف حكمه ، لأنه لما تولى الحكم وجد نفسه أمام عدّة صعوبات ليس من الهين تذليلها ، وأهمها الخطر الأجنبي الذي هدد كان المملكة من الخارج ، وأنه وإن درأ هذا الخطر لم يستطع حماية الأمة من الهاوية التي أشرفت عليها . وقد كان رمسيس الثالث رجلاً قوياً وكفءاً لمكافحة الخطر الخارجي ، لكنه كان ضعيفاً في معالجة مشاكله الداخلية التي امتاز بها بعض الحكام وأظهروا فيها كفاية عظيمة أحياناً . ودليلنا على ذلك موقفه تجاه المسائل الدينية الموروثة عن الأسرة التاسعة عشرة ، فقد ذكرنا سابقاً أن

سنتخت والده تولى الملك بمساعدة الكهنة كما فعل الفراعنة قبله ، ولما تولى رمسيس الثالث الملك لم يتخلص من نفوذ الكهنة على العرش المصرى بل ترك المعابد والكهنة تهتد بكان الحكومة سياسيا وماليا ، واتبع سياسة سلفه أيضا فأغدى على الكهنة الأموال الطائلة والخيرات الجزيلة ، واليك ترجمة ما قاله جلالته فى ذلك :

”لقد فعلت أفعالا كبيرة وقدمت من الإحسان كثيرا لآلهة والآهات الجنوب والشمال . لقد مؤهت تماثيلهم بالذهب فى المصانع ورممت معابدهم المهتمة وأقمت المنازل والمعابد فى أحواشهم وغرست لهم حدائق غناء وحفرت لهم البحيرات وربت لهم الخيرات المقدسة من شعير وقمح ونيلد وبحور وفاكهة وغنم وطيور . لقد شيدت الهياكل المعروفة باسم ”ظلال رع“ فى أقسامهم وملأتها بالقرابين المقدسة كل يوم“ (١) .

هذا وصف لما فعله جلالته للمعابد الصغيرة بالأرياف . أما معابد المعبودات العظيمة كآمون ورع ويتاح فقد عمل لها أكثر من هذا بمراحل . واليك ترجمة ما قاله جلالته فى هذا الموضوع مخاطبا المعبود آمون :

”لقد صنعت لك مائدة للقرابين من الفضة المطرقة المموجة بالذهب الجميل والمرسوم عليها مناظر ملبسة بذهب كيم (Ketem) حاملة تماثيل الملك المصنوعة من الذهب المطرق . كيف لا يكون ذلك وهى مائدة قرابينك المقدسة التى تقدم أمامك ! لقد عملت لك حماله كبيرة لأوانى حوش معبدك مموجة بالذهب الجميل ومرصعة بالأحجار الكريمة . أما أوعيتي فمن الذهب وهى تحوى النيلد والجلعة الذين يقدمان لك كل صباح لقد صنعت لك موائد كبيرة من الذهب المطرق منقوشة باسم جلالتك الأعظم مع دعائى لك . لقد صنعت لك موائد أخرى من الفضة المطرقة محفور عليها اسم جلالتك الأعظم وكل أوقاف معبدك“ (٢) .

بهذا الإسراف العظيم كان رمسيس الثالث يقدم لمعبوده الهدايا الثمينة (٣) . أما فيما يختص بالسفينة المقدسة التى بناها جلالته لمعبوده فقد وصفها قائلا :

”لقد شيدت لك سفينتك المسماة أسرحت (Userhet) طولها مائة وثلاثون ذراعا مصريا (حوالى ٢٢٤ قدما) على النهر ، من خشب الأرز المستحضر من الأملاك الملكية ، فكان حجمها (أى حجم السفينة) عظيما جدا . وكانت مموجة بالذهب الى سطح الماء كسفينة الشمس وقت ظهورها من المشرق وقما يحى كل انسان برؤيتها . وقد صنعت لك فى وسطها ناووسا عظيما من الذهب الجيد مرصعا بالأحجار النفيسة كالقصر الملكى ، ونصبت على السفينة رءوس خرفان ذهبية من المقدمة الى المؤخرة تعلوها التيجان والأصلال“ (٤) .

ولما أراد رمسيس الثالث أن يصنع ميزانا عظيما يزن به الهدايا المقدمة للمعبود رع بعين شمس استعمل لذلك حوالى مائتين واثنى عشر رطلا ذهبا وحوالى أربعمائة وواحد وستين رطلا من الفضة (٥) .

(٤) ٢٠٩: ٤

(٣) ٢١٠ — ١٩٨: ٤

(٢) ٢٠٢ و ١٩٩: ٤

(١) ٣٦٣: ٤

(٥) ٢٨٥ و ٢٥٦: ٤

ويجد القارئ وصفا مسهباً لهذه الأعمال فى درج هريس البردى^(١) الذى سأتى الكلام عليه . ولكننا نستدل من هذه الهدايا والثروة أن الامبراطورية المصرية كانت وقتئذ غنية جداً ومواردها كثيرة من الأراضى والعبيد والدخل ، ونستنتج منها أيضاً أن أوقاف المعابد الأخرى كانت جسيمة أيضاً مشال ذلك ما ورد عن المعبود خنوم بجهة جزيرة الفيل بأسوان، فان رمسيس الثالث حبس لأجله أوقافاً أرضية على شاطئ النيل تبدئ مساحتها من تلك الجزيرة إلى مدينة تاكومپسو (Takompsu) وهى مسافة يقرب طولها من سبعين ميلاً وتعادل بالمقاسات اليونانية اثنى عشر شونيا لذلك سماها اليونان دوديكا شينوس (Dodekaschoinos)^(٢) .

وتمكناً بهذه الطريقة لأول مرة فى تاريخ مصر القديم أن نقدر دخل المعابد بالضبط ، والفضل فى ذلك يرجع إلى ما ورد بدرج هريس البردى فانه يحوى قائمة يستدل منها أن دخل معابد الامبراطورية كان يبلغ وقتئذ حوالى مائة ألف وسبعة آلاف عبد^(٣) وهذا يعنى أن خدمة المعابد كانت تتطلب ما يتراوح بين $\frac{1}{10}$ و $\frac{1}{8}$ من أهالى القطر ، أو بعبارة أخرى أن نسبة العبيد المسخرين لخدمة المعابد وقتئذ كانت حوالى $\frac{2}{3}$ من سكان القطر . أما الأراضى الموقوفة على المعابد فكانت حوالى ثلاثة أرباع مليون من الأفدنة أو سبع أراضى القطر المزروعة وهى نسبة تعادل ١٤,٥ ٪ من الأراضى المزروعة . ولما كانت أوقاف المعابد الصغيرة كمعبد خنوم مثلاً لم تدرج ضمن قائمة درج هريس ، فلا يبعد أن تكون نسبة الأراضى المحبوسة على جميع معابد القطر حوالى ١٥ ٪^(٤) . ولا يخفى أن هذه المعلومات تمكنتنا على صغرها من تقدير مالى الامبراطورية المصرية ودخلها وقتئذ ، ولا ريب أن هذا التقدير غير تام . والمعروف أن تعداد الأغنام والبهائم التى حبست على المعابد كان قريباً من نصف مليون ، وأن عدد السفن كان ثمانياً وثمانين سفينة ما بين كبيرة وصغيرة ، وأن عدد المصانع كان حوالى ثلاثة وخمسين مصنعا تستهلك فيها المواد الخام الواردة إلى المعابد لتعمل منها المصنوعات . أما المدن المحبوسة على معابد مصر فكانت تبلغ مائة وتسعة وستين مدينة فى سوريا وكوش ومصر^(٥) . وإذا لاحظنا أن مساحة الأرض المزروعة بمصر وقتئذ كانت حوالى عشرة آلاف ميل مربع ، وأن تعداد سكان القطر كان حوالى خمسة ملايين أو ستة من النسات ، لا يسعنا إلا أن نجزم بأن الأوقاف المذورة أثرت كثيراً فى ميزانية البلاد لأنها كانت معفاة من الضرائب للخزانة المصرية^(٦) .

ومما زاد الطين بلة أن الهبات والأوقاف لم توزع على معبودات مصر بنظام واحد أو نسبة مخصوصة . والمعروف أن معظم هذه الهبات كانت تعطى لآمون ، ولذلك أصبح لكهنة هذا المعبود تأثير عظيم وكلمة كبيرة مسمومة وسلطة واسعة على الخزنة المصرية . ولاحظ أن نفقات كهنة آمون لم تكن قاصرة على معابد هذا المعبود بطيبه بل شملت أيضاً محاريبه وتمائله بكل أنحاء القطر^(٧) ، مثال ذلك معبد آمون بسوريا الذى تقدم الكلام عليه^(٨) ومعبدته بالنوبة الحديث^(٩) ، وذلك غير المعابد التى شيدها رمسيس الثانى هناك .

(١) ١٥١: ٤ - ١٤٦: ٤ (٢) ١٥٠ - ١٤٦: ٤ (٣) ١٦٦: ٤ (٤) ١٦٧: ٤ (٥) ٩٧: ٤

(٦) ١٤٦: ٤ (٧) ١٨٩ - ٢٢٦ (٨) ٢١٩: ٤ (٩) ٢١٨: ٤

ولما انتهى رمسيس الثالث من حروبه في السنة الثانية عشرة من حكمه أتم بناء معبد آمون بمدينة هابو ونقش على أحد جدره أخبار الأعياد التي أقامها جلالته واحتفل بها^(١) ، ومما ورد فيها أن عيد آمون الكبير المدعو أوبت الذي احتفل به تحتوس الثالث أحد عشر يوما بلغ في عهد رمسيس الثالث أربعة وعشرين يوما . ودلتنا هذه النقوش أيضا أن آمون كان يقام له كل ثلاثة أيام عيد غير الأعياد الشهرية^(٢) . وبالرغم من هذا كله فقد أطال رمسيس الثالث مدة عيد أوبت بفعلها سبعة وعشرين يوما ، كما جعل عيد تنويحه السنوي عشرين يوما بعد ما كان يوما واحدا^(٣) . وإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة إذا سمعنا أن إحدى طوائف عمال طيبة أيام أحد خلفاء رمسيس الثالث تعطلت عن الشغل أياما بقدر أيام العمل لأجل الأعياد الطويلة^(٤) ، وبديهي أنه كلما كثر عدد الأعياد وطالت مدتها ناءت الخزانة المصرية بالنفقات الباهظة ، ودللتنا على ذلك ضخامة خزائن معبد مدينة هابو وسمك جدرها وارتفاع سقفها مما تطلب ملؤها أموالا طائلة^(٥) . واليك ترجمة ما قاله رمسيس الثالث عن هذا المعبد :

”لقد ملأت خزانته بخيرات مصر من ذهب وفضة وأحجار كريمة بما يعد بمئات الألوف ، أما الشون فكانت طالفة بالشعير والقمح ، وأما أراضيه وأغنامه فكانت عديدة كرمال الشاطئ . لقد فرضت الجزية لهذا المعبد على أراضى الجنوب والشمال وسوريا والنوبة بما يقدر بعشرات الألوف لقد ضاعفت القرابين أمامك يا آمون من خبز ونبيذ وجعة وشحم إوز وثيران كثيرة وعجول وأبقار ووعول بيض وغزلان ، مما يقدم لك منه ذبائح على مذبحك“^(٦) .

وجريا على عادة امبراطرة الأسرة الثامنة عشرة وهب رمسيس الثالث غنائه الحربية الى خزانة آمون^(٧) ، فنجم عن ذلك أن آمون ملك ما ينيف على خمسمائة وثلاثة وثمانين ألفا من الأقدنة من بين ثلاثة أرباع المليون من الأقدنة الموقوفة على سائر معبودات مصر ، ولذلك أصبح آمون أغنى من ريع معبود عين شمس بما يقرب من خمسة أضعاف ، لأن الأخير كان يملك حوالى مائة ألف وثمانية أقدنة . أما أملاك پتاح معبود منف فكانت تقرب من تسع أملاك آمون^(٨) . وهكذا كانت حصصة آمون تنيف على الثلاثين من حصص جميع المعبودات التى تقدر بحوالى ١٥ ٪ من أراضى مصر المزروعة . وقد قلنا فيما سبق أن عدد عبيد معبودات مصر كان يقرب من ٢ ٪ من سكان القطر ، والآن نخبر القارئ أن ١٥ من هذه النسبة كان خاصا بآمون ، وعليه فكان عدد عبيد آمون ينيف على ستة وثمانين ألف وخمسمائة نسمة ، أى سبعة أضعاف عبيد رع^(٩) . وليلحظ أن هذه النسبة العظيمة وهذا الفرق الشاسع كانا مرعيين أيضا فيما يتعلق بالخيرات الأخرى مع سائر المعبودات ، خذ مثلا البهائم الصغيرة والكبيرة التى كانت مقسمة خمسة قطعان فقد كان نصيب آمون منها ينيف على أربعة وأحد وعشرين ألفا ، فى حين أن نصيب المعبودات الأخرى من هذه البهائم كان أقل من نصف مليون . وتملك

(٣) ٢٣٦: ٤ - ٧

(٢) ١٤٤: ٤

(١) ١٣٩: ٤ - ١٤٥

(٦) ١٩٠: ٤

(٥) ٢٥: ٤ - ٣٤

(٤) Erman, Life in Ancient Egypt.

(٩) ١٦٥: ٤

(٨) ١٦٧: ٤

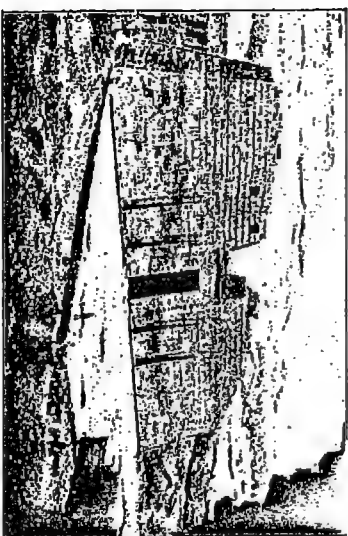
(٧) ٤٠٥ و ٢٢٤: ٤



شكل ١٧٦ - رسيس الثالث يعطى ثورا وحشيا . رسوم بارزة خلف الصرح الأول
بمعبد مدينة هايو



شكل ١٧٤ - معبد رسيس الثالث بمدينة هايو مأخوذ من قبة الصرح
الأماني . ويرى جزء من الساحة الأولى للمعبد ثم الصرح الثاني



شكل ١٧٥ - معبد رسيس الثالث بمدينة هايو . صورة للصرح الأول
مأخوذة من مدخل القصر المشيد بتقديم المعبد

آمون أربعمائة وثلاثا وثلاثين حديقة وغابة من بين حدائق وغابات جميع المعبودات البالغ مجموعها خمسمائة وثلاث عشرة حديقة وغابة. أما عدد السفن الخاصة بمعبودات مصر كلها فكان ثمانيا وثمانين سفينة كانت كلها موقوفة لآمون ما عدا خمس سفن كانت وقفا للمعابد الأخرى. أما المصانع التابعة لآمون فكانت ستة وأربعين مصنعا وذلك من ضمن ثلاثة وخمسين مصنعا خاصا بمعبودات القطر كلها^(١). وكان آمون المعبود الوحيد المالك لمدينة سوريا وكدش وعددها تسع. أما في مصر فكان ربع يملك مائة مدينة وثلاث مدن مقابل ست وخمسين مدينة لآمون فقط. ولجملتنا حجم وأهمية تلك المدن لا يبعد أن تكون مدن آمون الصفوة المختارة من ذلك المجموع، أو على الأقل أحسنه وأكبره زماما، إذا راعينا الأفضلية الظاهرة في الأملاك السابقة. أما دخل آمون السنوي من الذهب المتخلص فكان ستا وعشرين ألف قمحة وهو مقدار لم تستول عليه سائر معبودات القطر، وبديهي أن هذا الذهب كان يستخرج من مناجم الذهب بالنوبة التابعة لآمون منذ أواخر الأسرة التاسعة عشرة والمعروفة وقتئذ بـ"أرض آمون الذهبية" كما سبق القول. واليك بيان ما خص هذا المعبود بالنسبة للمعبودات الأخرى في مواد غير المذكورة هنا :

كان أراد آمون من الفضة سبعة عشر ضعفا ومن النحاس واحدا وعشرين ضعفا ومن الغنم سبعة أضعاف ومن النبز تسعة أضعاف ومن السفن عشرة أضعاف^(٢)، ومن ذلك يتضح لك أيها القارئ أن أملاك آمون أصبحت تلي أملاك الملوك من حيث العظم، وأن نفوذ كهنة آمون وسلطتهم أصبحت لا يستهان بهما حتى عند فرعون. لذلك كان كل ملك لا يتفق آراؤه وآراء كهنة آمون لا يستمر في الحكم طويلا، ولهذا السبب أيضا ظن بعض الأثريين أن كهنة آمون اغتصبوا العرش الفرعوني فيما بعد بثروتهم الطائلة. لكن يلاحظ أن هذا الرأي الأخير لا يتفق تماما هو وما استنتاجناه سابقا، لأن هذه النتيجة أتت من عدة أسباب فيها بسط نفوذ آمون على المعابد الأخرى وعلى دخلها، وترؤس عظيم كهنة هذا المعبود على كهنة القطر منذ الأسرة الثامنة عشرة، وجعل هذا المركز وراثيا تتوارثه الأبناء عن الآباء منذ أيام الأسرة التاسعة عشرة، وصيرورة معبد آمون بطيبة مركزا عاما لحفظ سجلات المعابد الأخرى، أو بعبارة أخرى جعله عاصمة الامبراطورية الدينية، ثم اعطاء كهنته بعض الحق في الإشراف على إدارة الأوقاف الدينية^(٣)، مما سبب امتداد سلطة آمون على جميع أوقاف المعابد بالقطر.

ومن الخطأ القول بأن رمسيس الثالث كان المبدع لهذه الأمور بالقطر كما يدعيه كثير من الأثريين، إذ من المحال على جلالاته أن يبدأ هباته للمعبودات بهذا المنوال بالنبزير العظم، سواء أكان ذلك خاصا بمعبد آمون أم بسواه من المعابد، لأن الغالب أن مجرد ذكر هبة السبعين ميلا من شاطئ النيل النوبي المعروفة عن اليونان باسم دوديكا شينوس (Dodekaschoinos) إلى المعبود خنوم لم يقصد به إلا تسجيل وتأكيده من ناحية رمسيس الثالث لحق كهنة خنوم في تلك الأرض، كما أن الهبات الجزيلة الواردة في درج هريس

(١) ٢٠٢: ٤

(٢) ١٧٠: ٤ - ١٧١

(٣) ١٦٥: ٤

البردى العظيم بأنها من أعمال رمسيس الثالث لا يمكن اعتبارها إلا مجرد سرد لما قدم الى تلك المعاهد الدينية قبل عهده وأن الغرض من ذلك اعتراف جلالته بمشروعية ماتم^(١) . وقد استلجنا من قائمة درج هريس البردى أن الاحصائيات السالفة للهبات الدينية المذكورة كانت أمرا واقعا ووراثيا منذ حكم الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وقد وهب تحوتمس الثالث الى آمون ثلاث مدن بسوريا ، ولما أتت الملوك بعد تحوتمس الثالث سارت على منواله في ذلك كما أن الطمع الكهنوتى استمر يزداد بلا زاجر ولا رادع حتى أتى عهد رمسيس الثالث فوجد نفسه أمام أمر واقع لم يستطع التخلص منه . ومما زاد الطين بلة أن جلالته كان مضطرا بحكم الظروف أن يستميل اليه الكهنة ليكتسب معاضدتهم فلم يجد بدا من إجزال العطاء اليهم جريا على عادة أسلافه . وهكذا عظم عبء الخزانة المصرية فأخذت تضعف تدريجا نتيجة هذا التبذير وعدم الاقتصاد ، ولذلك أصبحنا نرى أن العمال الذين اشتغلوا بجبانة طيبة تحت حكم رمسيس الثالث استمروا مدة محرومين في آخر كل شهر من أن يتناولوا رواتبهم الشهرية وهى خمسون كيسا قمحا ، وقد عزا بعضهم ذلك الى البطء في دفع مرتبات الموظفين ، الأمر الذى كان حاصلا الى زمن قريب بالقطر ، الا أن هذا لا يمنعنا أن ننظر الى المسألة أيضا من وجهة الإفلاس المالى الذى أصاب الخزانة المصرية . وكيف يمكننا أن نغض النظر عن هذا الأمر وقد ورد عن هؤلاء العمال أنهم استمروا بهذه الحالة عدة أشهر اضطروا بعدها الى اتخاذ أقصى الوسائل فتسلقوا جدران الجبانة مدفوعين بعامل الجوع ومهتدين في الوقت نفسه سكان المعابد بنهب شونهم ان لم تصرف لهم استحقاقاتهم . وقد أخبرهم الوزير أحيانا أن سبب تأخير دفع أجورهم هو إفلاس الخزانة ، وأخبرهم أحد الكتبة مرة أخرى أن أجورهم سيعطونها بعد مدة قصيرة وبذلك رجعوا في اليوم التالى الى أشغالهم ، لكنهم لم يلبثوا أن تيقنوا عدم صرف أجورهم فعمدوا الى مكتب رئيسهم صارخين طالبين أجورهم الشهرية^(٢) . وهكذا بينا كان الفقراء يموتون جوعا من إفلاس الخزانة كانت شون ومخازن المعابد تملأ لآخرها بالخيرات ، لأن دخل آمون وحده وقتئذ كان لا يقل عن مائتين وخمسة آلاف مكيال قمحا في أعياده السنوية فقط^(٣) .

لم تكن لدى رمسيس الثالث ومعاصريه حيلة يقاومون بها نفوذ الكهنة الا الأسرى الأجانب التابعين للملك رأسا والموسومين باسمه ، وقد ضم جلالته هؤلاء الى جنوده المأجورة فزادت بذلك قوته وعظم نفوذه^(٤) . وقد ألمعنا سابقا الى أن معظم قوات رمسيس الثالث التى صد بها أعداءه كانت أجنبية ، والآن نذكر القارئ أن نسبة هؤلاء الأجانب بالجيش أخذت تكبر بمرور الزمن وبزيادة المصاعب والمشاكل الكهنوتية الداخلية ، وقد تخرج مركز جلالته لدرجة اضطرت فيها أن يكون حرسه الخاص من الأجانب .

وبجرت العادة منذ عهد الملكة الوسطى أن يكون لدى الملوك والأمراء طائفة "حجباب" يخدمون سادتهم وقت تناول الطعام ويحافظون على مخازن أغذيتهم ، فلما جاء عهد رمسيس الثالث

(١) Erman, Life in Ancient Egypt, 121-128.

(١) ١٥٧: ٤ - ٨

(٢) ١٥٥: ٤

(٣) ١٧٤: ٤

كانت طائفته الملكية مكونة من سورين وأناضولين وليبيين ، وكان الأولون أكثر عددا من الآخرين . واتضح لجلالته وقتئذ فائدة هؤلاء الأقوام ونشاطهم في أداء أشغالهم فعينهم في الوظائف العالية بالحكومة والقصر الملكي على الرغم من أنهم عبيد وأسرى حروب ، وبهذه الكيفية أصبحت حاشية فرعون مماثلة تماما لحاشية سلاطين مصر في القرون الوسطى كما أشار إليه الأستاذ إرمان (Erman) . ودلنا الآثار على وجود أحد عشر "حاجبا" في خدمة رمسيس الثالث منهم خمسة أجنبية ارتقوا في الوظائف والرتب الحكومية حتى صار لهم شأن كبير ونفوذ قوى كما سيتضح ذلك في أخبار المؤامرة التي دبرت لاغتيال رمسيس الثالث^(١) . وهكذا بينما كانت البلاد مكسوة بحلة الفخار والسكون مخفلة بملكها الذي أنقذها من مصائبها ، إذا عوامل الضعف والانحلال تنخر عظام الامبراطورية المصرية وترج بها تدريجا الى مواطن الدمار ، وكيف لا يكون ذلك وشه الكهنة لا حد له ولا يعرف للقناعة معنى كما أن معظم ثروة البلاد أصبحت في أيدي رجال تلك الطائفة . زد على ذلك أن معظم وحدات الجيش المصرى كانت أجنبية مستعدة لخدمة كل من يحزل لها العطاء ، وهذا علاوة على صيرورة حاشية الملك من العبيد الأجانب التي ترتب قيمة أمانتهم وصدقاتهم على ما يتناولونه من أجر . هذه هى عوامل السوء الخطيرة التي كان يكافحها رمسيس الثالث مستعملا بعضها ضد بعض كي يتمكن من بلوغ مآربه وتنفيذ أوامره . وبما زاد الحالة تعقدا واضطرابا كثرة تعدد أفراد الأسرة المالكة كما سيتضح لنا فيما بعد .

ولا شك أن هذه العوامل السيئة كانت تمحز في جسم الامبراطورية المصرية وقد أخذت نتائجها تظهر تدريجا فكانت أولى هذه النتائج عصيان وزير رمسيس الثالث وجمعه لقوة كبيرة وتحصنه بنها (Athribis) ، لكن هذه القوة لم تكن كافية فسلمت بسرعة لقوات رمسيس الثالث الذى استولى على أتريب (بها)^(٢) وأرجع النظام الى أصله .

ولما قرب حلول السنة الثلاثين من حكم جلالته أخذت الامبراطورية تستعد لإقامة الاحتفالات ، فأرسل جلالته وزيره الجديد المدعو تا (Ta) الى الجنوب في السنة التاسعة والعشرين من حكمه لجمع تمائيل المعبودات كي تشترك في الاحتفال العظيم المزمع إقامته بمنف^(٣) . لكن بعد ما مر ما ينيف على السنة حدثت في القطر فاجعة مؤلمة أشد خطرا من السابقة كان جلالته وقتها شيخا هريما ، أما أصل هذه الحادثة فيرجع الى تدير نسوى في القصر الملكي وهى عادة كثيرة الحصول في بلاد الشرق . وخلاصة ذلك أن إحدى الحرم الفرعونى المدعوة تي (Tiy) اعتقدت أن ابنها المدعو بنتاورع (Pentewere) أحق بالملك من ابن حماها الذى كان معينا وليا للعهد وقتئذ^(٤) . فدبرت هذه السيدة مؤامرة لاغتيال رمسيس الثالث تحت رياستها أشركت فيها "الباش أغا" المدعو بيك كامن (Pebkamen) و"حاجبا ملكيا" يدعى مسدسورع (Mesedsure) . وأخذ بيك كامن يستعمل

(١) ٤ : ٤١٩ ملاحظة (٢) ٣٦١ : ٤ (٣) ٤ : ٣٥٥ و ٤١٣ — ٤١٥ (٤) كل الكلام التالى مأخوذ من ٤ : ٤١٦ — ٤٥٦

السحر لينع حرس القصر من العلم بهذه المؤامرة ويسهل المخابرات بين أعضاء المؤامرة الثلاثة داخل القصر وزملائهم خارجه . وأحضر بك كامن لذلك تماثيل صغيرة من الشمع تمثل معبودات وأدميين واجتهد الباش آغا والحاجب الملكي في حض غيرهم على الاشتراك فضموا اليهم عشرة موظفين من مختلف المراتب من الحرم الفرعوني وأربعة حجاب ورئيس خزانة وقائدا يدعى پيس (Peyes) وثلاثة كتاب مختلفي الدرجات ومساعد بك كامن وغيرهم من المرعوسين ، ولا يخفى على القارئ خطورة مثل هذه المؤامرة ولا سيما أن معظم أعضائها من رجال البلاط الملكي . ثم انضم الى هذه المؤامرة ست زوجات لضباط حرس باب الحرم في القصر وهذا سهل كثيرا مبادلة المراسلات والمحادثات بين الحرم وأصدقائه داخل القصر وأقاربهم ومعارفهم خارجه . وكانت من ضمن أصدقاء الحرم الفرعوني أخت قائد فرقة الرماة بالتوبة فأرسلت هذه خطابا الى أخيها دعت فيه الى الانضمام الى مؤامرتهم ففعل ذلك .

ولما تم الاستعداد للقضاء على حياة رمسيس الثالث داخل القصر واحداث ثورة ومنجية خارجه في الوقت نفسه ليتمكن المتآمرون في تلك الأثناء من تملك الأمير يتناورع على العرش وتنفيذ مشروعاتهم ، بلغت أخبار تلك المؤامرة حزب الملك ففشلت حركة الاغتيال ووقفت رسائل الثورة وقبض على أفراد المؤامرة وأرسلوا الى القضاء . وبالرغم مما اعتري هذا الملك المسن من الصدمة العصبية ، ولا يبعد أن يكون قد أصابه من الاعتداء الجسماني من جراء ذلك ما أصابه ، فان جلالاته أصدر أمرا بتشكيل لجنة خاصة لمحاكمة المتهمين . ويستدل من الأمر الملكي القاضي بذلك أن جلالاته لم يكن آملا في المعيشة طويلا بعد تلك الصدمة وإن كان في الوقت نفسه شدد على المحققين ليتبعوا العدل فلا يظلموا شخصا بل يوقعون العقاب على مستحقه . ويعتبر هذا مثالا ساطعا لعدالة ذلك الملك الذي كانت يده مقاليد الأمور يفعل بها كيف يشاء ، مع العلم أيضا أن شخص جلالاته كان المقصود بالقتل . واليك ترجمة بعض ما جاء في هذا الأمر الملكي :

”أنا أمر القضاة (وهنا ترد أسماء حضراتهم ووظائفهم) قائلا أما من خصوص الكلام الذي يدور على ألسنة الناس فلا علم لي به ، فاذهبوا واخفصوا الأمر ، فاذا حققتم وتبينتم المتهمين فأمرهم أن يذبحوا بأيديهم بدون اخطاري . ووقعوا العقاب على كل من يستحقه بدون استشارتي أيضا احترسوا من عقاب البريء . هأنذا أكرر لكم أن كل شخص ارتكب أو اشترك في هذه الجناية يجب أن ينال نصيبه من العقاب . أنا أمين وعروس الى الأبد ، لأثني ضمن الملوك العادلين أمام آمون رع ملك المعبودات وأمام أزوريس حاكم الأزلية “ . ولما كان أزوريس إله الأموات لا يبعد أن رمسيس الثالث اعتقد بجواز وفاته قبل انتهاء التحقيق في هذه الجناية (١) .

وكانت المحكمة مكونة من سبعة عشر عضوا بينهم سبعة ”حجاب“ . ومن هؤلاء السبعة كان أحدهم لييا وأترليسيا وثالث سوريا يقال له مهر بعل (Maharbaal) — أى بعل السريع — ورابع

أجنبيا يغلب أنه أسوى . ويعتبر هذا الخلط في الجنسية برحانا على شدة اعتماد فرعون على أمانة الأجانب حتى في أخرج الظروف . وحصلت في أثناء التحقيق حادثة شذبة أظهرت اهمالا شديدا من القضاة وقت تادية أعمالهم مع شدة اد المتهمين ، وخلاصة ذلك أن القائد المدعو پيس (Peyes) اتحد هو وبعض النسوة المتهمات وأرضوا رجال الشرط المحافظين عليهم فتوجهن الى منزل قاضيين من المحققين حيث قضيا فيهن المنكر رغبة في اكتساب رافة القضاة بهن ، ووجد مع هذين القاضيين قاض ثالث لا علاقة له بالفسق . فلما اتضح هذا الخبر أجرى تحقيق في ذلك حكم بمقتضاه على القاضيين المجرمين وعلى شرطين بجدع أنوفهم وآذانهم وبراءة القاضى الثالث ، وقد اتحد أحد هذين القاضيين بعد ذلك بقليل لما اعتراه من الخزي وضياح الشرف^(١) . واستمر التحقيق في المؤامرة الأصلية يسير بنظام ويستدل من سجلات ثلاثة تحقيقات^(٢) أن اثنين وثلاثين موظفا مختلفي المراتب وجدوا مذنبين ومن ضمنهم الأمير پتاووع الذى لم يكن في الحقيقة سوى آلة في أيدي المجرمين وكذلك القائد الجرىء پيس (Peyes) الذى أغرى القاضيين السابقين . ولم نعتد الآن على أوراق قضية الملكة تى ولذلك لا نعلم ماذا تم في أمرها ، لكن المعروف أنها لم تعامل بأقل مما عومل به سواها الذين أجبروا على الانتحار طوعا لأمر رمسيس الثالث .

في ذلك الوقت حل ميعاد الاحتفال بعيد مرور اثنين وثلاثين عاما على جلوس رمسيس الثالث ، فأقيمت لذلك الزينات والأفراح عشرين يوما جريا على عادة جلالة الذى اتبعها منذ السنة الثانية والعشرين من حكمه^(٣) . بعد ذلك بعشرين يوما توفي رمسيس الثالث (حوالى عام ١١٦٧ قبل الميلاد) قبل أن يعدم المتهمون في مؤامرة اغتياله ، وعليه فيكون جلالة حكم مدة احدى وثلاثين سنة وأربعين يوما .

(١) ٤٠١: ٣ — (٢) ٤١٦: ٤ — ٤٥٦ — (٣) ٢٣٧: ٤

الكتاب السابع

دور الاضمحلال

الفصل الرابع والعشرون

سقوط الامبراطورية

بيع رمسيس الثالث في الحكم تسعة ملوك ضعاف سمووا كلهم باسم رمسيس الكبير لكنهم لم يستحقوا ذلك الاسم العظيم ، وقد أخذت سلطة هؤلاء الملوك تقل بسرعة فبلغت الحضيض في مدة يسيرة . نعم ان نجل رمسيس الثالث وهو رمسيس الرابع اجتهد في مكافحة الظروف السيئة التي أحاطت به بعد وفاة والده حوالى عام ١١٦٧ قبل الميلاد لكنه لم يفلح في مسعاه . والمعروف عن هذا الملك أنه يجرد جلوسه على العرش المصرى دون جميع أعمال والده في الدنيا في درج بردى مستعظما بذلك الآلهة لأجل والده ظنا منه أن هذا العمل ينال رضا والده أيضا عن طريق المعبودات . ويعتبر هذا الدرج البردى الذى دون فيه جلالته أعمال والده من أهم السجلات التاريخية التي عثر عليها للآن وهو يحوى قائمة بالأعمال الخيرية الكبيرة التي فعلها رمسيس الثالث للمعبودات العظمى آمون (معبود طيبة) ورع (معبود عين شمس) وبتاح (معبود منف) وكذا المعبودات الأخرى الصغيرة والأعمال الحربية والعطايا والهبات التي أغدقها على الرعية . ويبلغ طول هذا الدرج مائة وثلاثين قدما وهو يحوى مائة وسبعة عشر نهرا من الكتابة طول كل نهرا اثنا عشرة بوصة تقريبا . ويعرف هذا الدرج الآن بقرطاس هريس (Harris) وهو أكبر قرطاس وصل إلينا من العهد الشرقى القديم^(١) . ولما كانت الأملاك والأوقاف المذكورة بهذا القرطاس والمحبوسة على معبودات مصر عظيمة جدا أيام تولى رمسيس الثالث على مصر استنتج أن جلالته لم يجد بدا من الاعتراف وقتئذ بها كما استنتج أيضا أن معابد مصر استنزفت جزءا عظيما من ثروة مصر كما ألمعنا الى ذلك سابقا . وقد وضع هذا القرطاس العظيم الحاوى لأعمال رمسيس الثالث الخيرية مع مومياءه بمقبرة منفردة بوادى الملوك . ولا مرأى في أن الغرض الأصلي من كتابة هذا القرطاس استجداء الشفقة والرأفة من المعبودات الى رمسيس الثالث ، فالدعوات الكثيرة الواردة بالدرج البردى المذكور مقولة على لسان رمسيس الرابع لأجل والده تكفى لاستدراار رحمة المعبودات للوالد وإطالة مدة حكم الابن كثيرا في مقابلة هذا العمل الخيرى . ولا يبعد أبدا أن يكون السبب الأخير من أقوى العوامل لكتابة ذلك السجل العظيم ، خصوصا وأن فراعنة مصر وقتئذ كانت تتكل كثيرا على تأثير مثل هذه السجلات أكثر من اتكالمهم على أنفسهم . وعليه فالقرطاس المذكور كان هاما جدا وقتئذ . ومما ثبت ما استنتجناه الدعوات التي نقشها رمسيس الرابع لأزوريس بالعرابة في السنة الرابعة من حكمه واليك ترجمتها :

”اجعلنى (أيها المعبود) طويل الحكم بقدر ضعف حكم رمسيس الثانى المعبود العظيم . كيف لا وقد فقته فى الأعمال والخيرات العظيمة لمعبدك حيث قدمت لك القرابين والهدايا المختلفة كل يوم ، فأصبحت الهدايا التى قدمتها لك فى الأربع السنوات من حكمي أكثر من التى قدمها رمسيس الثانى المعبود العظيم فى مدة حكمه البالغ سبعا وستين سنة“ (١) .

بهذه الطريقة تمكن الكهنة من ابتزاز ما رغبوه من الفراعنة مؤكدين لهم فى الوقت نفسه أن معبودهم سيبه لهم حكما طويلا وأن المعبودات ستشملهم برمايتها .

أما الحماية التى تولدت فى نفوس المصريين أثر غزو الهيكسوس فقد انعدمت بل صارت فى خبر كان واستعوضت الآن بعقائد فاسدة دينية وسحرية ، وهكذا تغلب الجهل والضعف على الحكمة والروية . ومن ذلك الوقت سارت سفينة السياسة المصرية فى طريق أعوج خطير يفضى الى الدمار ، لأن السلطة التنفيذية أخذت تخضع تدريجيا للسلطة الدينية فلم تعد هناك صعوبة على رئيس كهنة آمون أن يقتصب الملك وينفرد بالحكم اذا ما سنحت الفرص .

اذا كان الأمر كذلك فليس بالغريب أن يكون كل ما نعرفه عن أعمال رمسيس الرابع يتعلق بارضاء المعبودات فقط . فى السنة الثانية من حكمه توجه جلالته شخصا الى مجاور وادى الحمامات مع بعثة للبحث عن أحجار جيدة لتشييد معبده . وقد استغرقت هذه الرحلة مسير خمسة أيام تقريبا فى الصحراء من وادى النيل . وبعد ذلك بستين أرسل جلالته الى تلك الجهة أيضا تجريدة عظيمة مؤلفة من تسعة آلاف رجل للغرض نفسه ، ودلتنا الآثار أنه مع الاحتياطات العظيمة التى اتخذت لهذه البعثة من حملة للأمتعة واستعمال عشرين عجلات يجر كل منها ستة ثيران فقد توفى منها ما ينيف على تسعمائة نسمة من شدة القيظ والتغيرات الجوية ، وبذلك تكون الخسارة ١٠ ٪ تقريبا من عدد الأنفس (٢) . ولم نهند للآن الى المحل الذى استعملت فيه الأحجار المقطوعة من وادى الحمامات والتى سببت هذه الخسارة الآدمية الجسيمة ، وكل ما بقى من آثار رمسيس الرابع هو امتداد الحجر الخلفية لمعبد خونسوبطيه ، وكذا القاعات الصغيرة ذات العمدة التى بدأ والده بنائها قبل ذلك بمدة يسيرة (٣) . ودام حكم هذا الملك ست سنوات تقريبا لم يقم فيها بأعمال تذكر ثم تولى بعده رمسيس الخامس (وهو ابنه على الأرجح) وذلك عام ١١٦١ قبل الميلاد . وفى عهد هذا الملك وقف العمل فى مجاور ومناجم طور سيناء ، لأن آخراسم فرعونى وجد هناك هو اسم رمسيس الرابع . وتوفى هذا الملك بعد حكم قصير فتبعه فى الملك رمسيس السادس الذى يغلب أنه حفيد رمسيس الثالث من ابن آخر .

ويظن أن رمسيس السادس اغتصب الملك من نجل رمسيس الخامس لكن هذا الملك لم يعيش طويلا فقبعه فى الملك رمسيس السابع ثم رمسيس الثامن وهذان أيضا لم يحكما طويلا . وقد حفر هؤلاء الفراعنة مقابرهم بوادى الملوك بطيه وفوق ذلك لا نعلم شيئا عن أعمالهم (٤) ، وكل ما وصلنا عن أخبار تلك العصور يشير الى اضطهاد عام بكيان الدولة ، لكن نقوش مقبرة بنو (Penno) مندوب

(١) ٤٧١ : ٤ (٢) ٤٥٧ : ٤ — ٤٦٨ (٣) ٤٧٢ : ٤ (٤) ٤٧٣ : ٤ ملاحظة

رئيس السادس بابريم ببلاد النوبة تشير الى أن الحكم المصرى هناك كان يانعا وطيدا بفضل مهارة الحكام المصريين الذين أقالوا السودانين من الوظائف وانفردوا بالحكم من آخر عهد الأسرة الثامنة عشرة . وقد عين بنو أفراد أسرته في الوظائف الكبيرة هناك والظاهر أن كثيرا من الأسر المصرية نزلت وقتئذ الى النوبة فمصرتها . وكان بنو رجال ثريا فنصب تمثالا لرئيس السادس بمعبد رئيس الثانى بالدتر وحبس عليه ايراد ست قطع أرض ، فكافاه الملك على ذلك بهدية ثمينة عبارة عن آيتين فضيتين باهى بهما بنو ونقش خبرهما على قبره^(١) .

والمعروف أن العرش المصرى انتقل بين أيدي الرامسة عدة مرات في ظرف ٢٥ أو ٣٠ سنة بعد وفاة رئيس الثالث وأن آخر ملك في تلك المدة هو رئيس التاسع . وحصلت كل هذه التغيرات في العرش في حياة رئيس كهنة مدينة الكاب الذى كان موظفا في الأعياد التى أقامها رئيس الثالث^(٢) . أما رئيس كهنة آمون بطيبة أيام رئيس التاسع فكان يدعى أمحتب وهو ابن رئيس كهنة آمون في عهد رئيس الثالث والرابع المدعو رئيس نخت^(٣) . ولا يخفى أنه في عهد الرئيسين أمحتب ورئيس نخت تولى عرش مصر ستة رامسة ضعاف لم يستمروا طويلا وكان همهم المحافظة على مركزهم . وزادت ثروة أمحتب رئيس الكهنة في تلك المدة كثيرا فأصلح مائدة الطعام والمطبخ بمعبد الكرنك الذى شيده سيزوستريس الأول منذ ثمانمائة سنة تقريبا^(٤) ، وصرف أمحتب على هذا الإصلاح بسطاء وكرم أظهراه كبيرا في أعين الناس . واستعمل أمحتب فرعون مصر آلة لجمع الخيرات والهدايا ، ففي السنة التاسعة من حكم رئيس التاسع دعا جلالة أمحتب هذا الى الساحة الكبرى الأصلية بمعبد آمون بطيبة فحضر هذا الكاهن مصحوبا بأعوانه وأقرانه وتسلم من مليكه هدايا عظيمة من أوان ذهبية وفضية وحلى وأدهان ثمينة قدمها اليه صف طويل من الجنود الملكية . قارن ذلك بتلك الأيام التى كانت تقدم فيها أمثال هذه الهدايا مكافأة على الإقدام والشجاعة في الحروب السورية ، وهكذا انقلبت الحال فأصبحت هذه الهدايا تعطى للكهنة لضمان سلامة العرش المصرى وإطالة الحكم الفرعونى . والأغرب من هذا ما قاله رئيس التاسع الى أمحتب وقت اغداقه بالهدايا فقد خاطبه بصيغة كلامية لا تقال الا من شخص وضع الى سيد كبير . وأخبر الملك رئيس كهنته أن هناك أموالا كانت تجمعها الخزانة الملكية لتدفعها الى معبد آمون فيجب من الآن فصاعدا أن تورد مباشرة الى خزانة آمون بدلا من توريدها أولا الى خزانة الدولة . وهذه العبارة في الحقيقة غامضة لكن يفهم من مضمونها أن جلالة سمح لكتبة معبد آمون أن يجمعوا أموال المعبد بأنفسهم بدون تدخل الحكومة ، وبعبارة أخرى أن جلالة سمح لنفوذ كهنة آمون بأن يمتد الى بعض شؤون الدولة . وسجل أمحتب المذكور هذه الانعامات الملكية السابقة مرتين على جدر الكرنك وزاد عليها ما شيده من العمارات^(٥) وشمل هذه النقوش برسوم بارزة تمثله بحجم كبير كالملك الذى ينعم عليه بالهدايا والهبات . ويعتبر هذا أول رسم من نوعه في التاريخ المصرى القديم اذ لم يسبق لأى

(١) ٤٨٣-٤٧٤: ٤ (٢) ١٥-٤١٤: ٤ (٣) ٤٨٦: ٤ ملاحظة (٤) ٤٨٨: ٤ ملاحظة

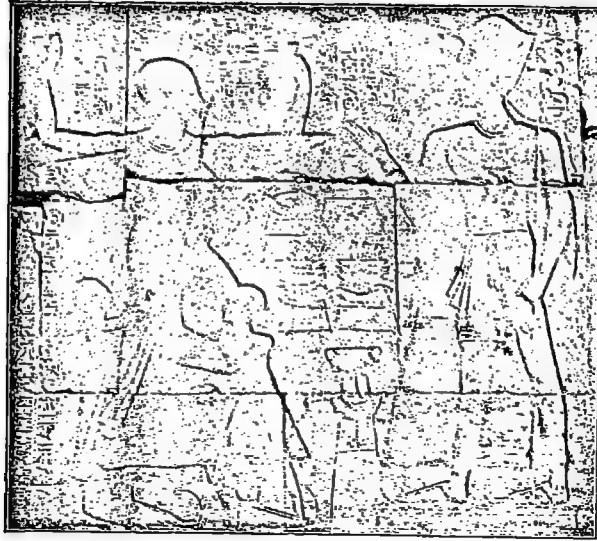
(٥) ٤٩٨-٤٨٦: ٤

موظف مصرى أن يمثل بهذه الكيفية ، لأن العادة المتبعة من قديم الزمان أن أفراد الرعية يسمون دائماً صغار الحجم بالنسبة لقراعتهم ، أما الآن فقد ساوى نفوذ أمنتحتب نفوذ الملك دينا وسياسيا ولذلك رسم مساويا له حجما . ومعلوم أن رئيس كهنة آمون كان له جنود خاصة ، فلما تدخل تدريجا في المالية المصرية وصار له نفوذ عليها تيماسر على مقارنة نفسه بالملك . وطبيعى أننا لا نعثر في الآثار على ما يشير الى وجود حرازات ومشاحنات بين هذا الكاهن وفرعون مصر ، وكل ما بلغنا عن ذلك ما جاء في رواية أفضت بها امرأة مصرية وقت التحقيق معها في سرقة حصلت بمنزل والدها في عهد رمسيس التاسع حيث قالت ان تلك السرقة "حصلت وقت الثورة التي أشعلها رئيس كهنة آمون" (١) .

وتدلنا المكتابات الرسمية الخاصة بيجانة طيبة التي وصلت الينا من عهد رمسيس التاسع على مقدار انحطاط نظام القطر الداخلى وقتئذ (٢) . وقد سبق أن قلنا أن الفراعنة هجروا طيبة واتخذوا الوجه البحرى مركزا لإقامتهم منذ مائتى سنة تقريبا ، لكنهم استمروا رغم ذلك على دفن موتاهم بطيبة . وجرى العادة أن القوم كانوا يدفنون مع موميات قراعتهم الحلى التي كانت يتريا بها هؤلاء الحكام في دنياهم . وقد ألمعنا سابقا الى أن كبار ملوك الامبراطورية اختاروا الوادى الغربى لطيبة وهو فى وسط الصحور الجبلية جبانة لجثثهم المحلاة بما عاد عليهم من الثروة من المستعمرات الآسيوية ، فلما ضعفت القوة الحاكمة وعجزت عن صيانة هذه القبور ومحتوياتها من ألبنى اللصوص كثر نهبها وسلبها ، ففى السنة السادسة عشرة من حكم رمسيس التاسع سلب اللصوص أمتعة بعض المقابر الملكية المقابلة لصحور طيبة الغربية كمقبرة الملك سبك إم ساف (Sebekemsaf) أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة (٣) فاقتحمها هؤلاء الجناة وسرقوا أمتعتها وأثاثها وعثوا بمومياء الملك وزوجته بحثا وراء حليهما الملكى . وقد ضبط اللصوص وقتئذ وعقبوا على ذلك لكن يتضح لنا من مجرى التحقيق أن المحققين أنفسهم لم يكونوا عفاف النفس . بعد ذلك بثلاث سنوات (أى لما أشرك رمسيس التاسع ابنه رمسيس العاشر معه فى الملك قبض على ستة أشخاص بتهمة نبش قبرى سيقى الأول ورمسيس الثانى ، وهذا يدل على أن اللصوص ازدادوا جرأة فتركوا مقابر مهمل طيبة الغربى وولوا وجههم نحو مقابر الوادى الغربى ، وهكذا وقع قبر رمسيس الثانى فريسة السلب والنهب كما فعل صاحبه بأهرام سيزوستريس الثانى باللاهون . بعد ذلك نهبت مقبرة إحدى ملكات سيقى الأول ثم مقبرة أمنتحتب الثالث العظيم . وخلاصة القول أنه لم تمض عشرون سنة على هذه الحالة الا وأصبحت جميع المقابر الملكية بطيبة من ابتداء الأسرة الثامنة عشرة الى آخر الأسرة العشرين منهوبة تقريبا ، ولم نعثر إلا على جثة واحدة نجت من تلك الجرائم الا جثة أمنتحتب الثانى التي وجدت فى تابوتها الأصلي رغم نهب قبرها . وهكذا صارت موميات ومقابر ملوك مصر العظام تسلب وتنهب بلا شفقة ولا احترام ، فى الوقت الذى كانت تتصدع فيه أركان الامبراطورية المصرية التي شيدها هؤلاء الحكام .

ولم تصل الينا معلومات ما عن تاريخ رمسيس العاشر سوى ما تعلق بسرقة المقابر الملكية . أما رمسيس الحادى عشر فنجهل كلية بجميع أخباره . ولما تولى رمسيس الثانى عشر الملك هوى العرش

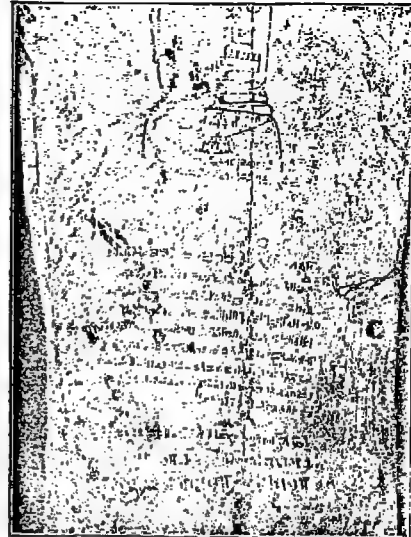
(١) ٤٨٦: ٤ (٢) ٤٩٩: ٤ — ٥٥٦ (٣) راجع اعترافات اللصوص السابقة صحيفة ١٣٨



شكل ١٧٧ - أمانحتب رئيس كهنة آمون يقبل انعام رمسيس التاسع .
يلاحظ أن رسم هذا الكاهن (الى اليسار) يتبادل في الحجم مع رسم الملك
(الى اليمين) الأمر المخالف للعادات القديمة المرمية



شكل ١٧٩ - منجبا الدير البحري وترى فتحة هذا المنجبا
كنقطة سوداء في آخر الطريق المبتدئ من البحر
(أنظر صفحة ٣٥٥)



شكل ١٧٨ - ملاحظات كاتب على تابوت سيني
الأول تشير الى تنقلات المومياء حتى وضعها الأخير
في منجبا الدير البحري في عهد حكم الكهنة ملوك
الأسرة الحادية والعشرين

الفرعونى وحصل في البلاد انقلاب حكومى عظيم لا يزال تحت البحث والاستيضاح . واليك بيان ما وصلنا الى معرفته منه :

قبل أن يتم رمسيس الثانى عشر خمس سنوات على عرش مصر استقل الوجه البحرى بأجمعه تقريبا تحت سلطة أحد أعيان تنيس المدعو نسوبانبدد (Nesubenebbed) المعروف عند اليونان بسمنديس (Smendes)^(١) . وقد كانت حركة انفصال الدلتا كبيرة وكثيرة الشبه بما عمله وزير رمسيس الثالث المجهول الذى شق عصا الطاعة على مليكه جهة بنها (Athribis) ، لكن رمسيس الثالث كان يقظا فأخضع التأثير بسرعة وأزل به القصاص^(٢) . أما رمسيس الثانى عشر فكان ضعيفا قليل النفوذ سجا أن أحوال البلاد تغيرت كثيرا عما كانت عليه أيام رمسيس الثالث ولذلك لم يجد جلالة بدا من التقهقر الى طيبة والاحتفاظ بالوجه القبلى . ويرجح جدا أن انتقال جلالة الى طيبة حصل قبل انفصال الدلتا عنه ، وعلى كل حال فاستقلال الوجه البحرى فصل طيبة عن البحر الأبيض المتوسط وحال بينها وبين آسيا وأوربا ، وبديهي أن الوجه البحرى أصبح معاديا للوجه القبلى وقتئذ . ثم اتنا أشرنا الى أن رئيس كهنة آمون بطيبة كان ذا نفوذ عظيم وثروة طائلة جعلاه بمثابة حاكم قسم طيبة الأعظم دينيا وسياسيا ، ولذلك لما عاد رمسيس الثانى عشر الى طيبة اتحد هو ورئيس كهنة آمون وتعاونوا معا فى بسط نفوذ جلالة على الوجه القبلى وبلاد النوبة .

وقد عرفت سورية بسرعة تغير أحوال البلاد الداخلية المصرية حتى قبل انفصال الوجه البحرى بمدة . لذلك أخذ الشكاليون وأهالى كريت يشنون الغارة ثانية على سوريا بعد ما وقفهم رمسيس الثالث بهجمات وقسوته مدة من الزمن ، فزحف هؤلاء القوم جنوبا طاردين أمامهم أهالى آمور وما بقى من أهالى إحيثيين حتى بلغوا فلسطين حيث التقى بهم بنو إسرائيل بعد ذلك بمدة . وهكذا تمكن الشكاليون من تشكيل مملكة مستقلة جهة دور (Dor) جنوبى كرمل بعد ما هزمهم رمسيس الثالث بنحو خمس وسبعين سنة^(٣) . ولما لم ترد عن هؤلاء القوم إشارة فى أخبار بنى إسرائيل لا يبعد أنهم تفرقوا واختلطوا مع أهالى فلسطين القاطنين بالأراضى الممتدة من بيت شين (Beth-Shean) بوادى الأردن الى الغرب والجنوب بما فى ذلك من سهل يزرل ومجدو حتى ساحل البحر الجنوبى ، فقطعوا بذلك حلقة الاتصال بين قبائل بنى إسرائيل الجنوبية والشمالية ، واستدل من أوانى هؤلاء القوم الخزفية التى عثر عليها بجهة لاكش (Lachish) وجازر أنها من كريت ، فثبت بذلك صحة رواية اليهود من أن الفلسطينيين قوم أتوا من جزيرة كريت^(٤) . ثم ازدادت هجرة الفلسطينيين من كريت فأخذوا يتأهبون لتسحق الاسرائيليين كما فعلوا بأهالى آمور وذلك قبل أن يتمكن رؤساء الاسرائيليين من جمع كلمة أهالى فلسطين وإنشاء أمة سامية منهم . ويرجح جدا أن هؤلاء الفلسطينيين الحريين الذين أتوا من شمالي البحر الأبيض المتوسط امتنعوا عن دفع الجزية لمصر بعد وفاة رمسيس الثالث بقليل (حوالى سنة ١١٦٧ قبل الميلاد) لأنهم وصلوا وقتئذ الى حدود مصر تقريبا .

(١) ٤ : ٥٥٧ و ٥٨١ (٢) راجع صحيفة ٣٣٥ (٣) ٤ : ٥٥٨ (٤) أرميا ٤٧ : ٤ و طاموس ٧ : ٩

ومما يثبت لنا تغير الأحوال بآسيا أنه في عهد رمسيس التاسع (سنة ١١٤٢ - ١١٢٣ قبل الميلاد) اعتقل حاكم بيلوس (جبيل) رسلا مصرية لمدة سبع عشرة سنة دون أن يسمح لهم بالرجوع الى مصر حتى ماتوا (١). ومن ذلك يتضح لنا أن أمراء سوريا لم يعودوا يظهرزون أقل احترام لنفوذ فرعون مصر بعد وفاة رمسيس الثالث بعشرين أو خمس وعشرين سنة. وللاحظ أن هؤلاء الحكام كانوا يقدمون الهدايا والضرائب لآمون في المعبد الذي شيده هذا الفرعون العظيم بسوريا وقت حياته، أما الآن فقد أصبح كل ذلك في خبر كان.

وبلغنا وصف لأحوال سوريا أيام رمسيس الثاني عشر يقول عن لسان رسول مصرى يدعى وينامون (Wenammon) أوفد باذن من المعبود الى بيلوس جنوبي لبنان لإحضار خشب الأرز اللازم لبناء سفينة آمون المقدسة. وكان هذا الرسول خاوى الوفاض لا يملك سوى دراهم ذهبية وفضية معدودة أعطاها لإياه رئيس كهنة آمون المدعو حريحور (Hrihor)، ولقلة هذه النقود أرسل الكاهن مع الرسول تمثالا للمعبود آمون يدعى "آمون الطريق" ليؤثر به في حاكم جبيل بأنه يطيل عمره ويهب له الصحة والعافية فيجمع بذلك الأموال اللازمة لإحضار الخشب المطلوب. وزود حريحور رسوله المذكور بخطاب الى ملك الوجه البحرى المدعو نسيوبانيدد ليسهل له السفر ويجهز له سفينة ربانها سورى لتنقله الى سوريا. ولا يمكن أن يتصور القارئ مثالا أوضح من قصة هذا الرسول وينامون التي تثبت بلا نزاع ما وصلت اليه مصر وقتئذ من الضعف والانحطاط. واليك بيان تلك القصة :

لما أوفد وينامون للقيام بالمهمة المذكورة كان وحيدا لا يملك أوراقا رسمية أو سفنا مصرية رسمية، كما أنه كان قليل المال لا يعتمد في مهته الا على مجد مصر التالذ وعزها السابق. وظن وينامون أن مجرد ذكر ذلك الى حاكم مدينة جبيل يكفى لإقناعه بوجوب مساعدته لتنفيذ مهمته، لكنه لما وصل وينامون الى مدينة دور سرقت تقوده فعهد الى حاكم المدينة التكالى الأصل وقص عليه ما حصل له فرفض مساعدته واضطر وينامون أن يمكث بدور مدة تسعة أيام بلا جدوى. بعد ذلك سافر الى جبيل بطريق صور وقد أخذ معه كيسا مملوا بالنقود الفضية من الشكاليين نظير ما لحقه من الضرر بدور، لكنه لم يكده يهبط جبيل حتى أمره حاكمها المدعو زكر بعل (Zakar Baal) بتركها دون أن يراه. اعتبر هذه المقابلة الجافة المزرية لرسول مصر في بلاد فينيقيا ولم يمض على وفاة رمسيس الثالث خمسون أو ستون سنة. وقد هم وينامون بالعودة الى مصر ثانيا لكن أحد أمناء زكر بعل دفعته النخوة الدينية فقام بين قومه وحثم على معاملة هذا الرسول بالشرف وبإعطائه ما يطلبه وترحيله الى وطنه. ويعتبر هذا أقدم مثل للعاملات الدينية الواردة بسفر العهد القديم من الكتاب المقدس التي تمكن بها وينامون من مقابلة زكر بعل. واليك ترجمة ما قال وينامون عن مقابله لذلك الحاكم :

"لما حل الصباح أرسل الى يطلبنى للثول بين يديه، وكان ذلك وقت تقديم القران بالقلعة الكائنة على شاطئ البحر، فوجدته جالسا فى القاعة العليا سائدا ظهوره الى نافذة الحجر وأمواج البحر

السورى العظيم تتلاطم خلفه على الشاطئ . فسأمت عليه قائلاً "سلام من آمون!" فأجابنى "كم يوما أمضيتها فى سفرك منذ تركت معبد آمون" فقلت له "خمسة أشهر ويوما واحدا الى الآن" .
ثم سألتنى : "إذا كنت صادقاً فأين كتاب آمون ؟ هل هو فى يدك ؟ هل عندك كتاب من رئيس كهنة آمون ؟"

فأجبته : "اننى قد أعطيت ذلك نسوبا نبدد " فاستشاط غيظاً وقال يحق : "ليس معك خطاب ولا مكاتبه ! أين هذه السفينة المصنوعة من خشب الأرز التى أعطاها اياك نسوبا نبدد وأين رجالها السورىون ؟ ان نسوبا نبدد لا يمكن أن يسمح لك بأن تؤدى هذه المهمة مع قبطان سورى يجوز جدا أن يقتلك أو يرميك فى البحر ! خبرنى من أين اذن يمكنهم احضار تمثال معبودك هذا ؟ ثم أين كانوا يعثرون عليك ؟"

فأجبته : "ان لدى نسوبا نبدد سفناً مصرية وبجارة مصريين لكن ليس لديه بجارة سورىون" .
فأجابنى : "عندى حقيقة بهذه الميناء عشرون سفينة تبع نسوبا نبدد وأيضا بمياء صيدا حيث يحتمل أن تذهب اليها عشرة آلاف سفينة تبع بركت إل (Berket-El) يغلب أنه تاجر من مدينة تنيس بالوجه البحرى — وهذه ستسافر الى منزله" .

فسكت فى تلك الساعة الرهيبة ولم أدر بماذا أجيب . ثم سألتنى "لماذا أتيت الى هنا ؟"
فأجبته : "أتيت لأخذ خشباً لسفينة آمون رع العظيمة ملك المعبودات وقد عمل والدك ذلك من قبل . وأنت أيضاً ستقوم بالعمل نفسه" .

فأجابنى : "حقيقة لقد عمل مثل هذا العمل سابقاً . أما الآن فلا أعمل شيئاً ما لم تأجرنى عليه . أن عمالى هم الذين يديرون أشغالى . لقد أرسل الى فرعون مصر ست سفن مشحونة بضائع مصرية أفرغت كلها بالمخازن . فاذا أردت أنت شيئاً منى فلتعطينى أجرة أيضاً" .

بعد ذلك أمر باحضار سجل أعمال والده فقرأت أمامى فوجدت أن والده أرسل ألف دين (Deben) (أى ٢٤٤ رطلا) من كل نوع من الفضة الى مصر ثم قال لى : "إذا كان حاكم مصر هو مالك ثروتى وثنت أنا خادمه فلا يمكن أبداً أن يرسل لى الذهب والفضة ويقول لى أنجز مطالب آمون ! ان النقود التى أرسلها والدى الى مصر سابقاً ليست جزية ! وأنا على يقين بأننى لست خادمك ولا خادم من أرسلك . اعلم أننى لو طلبت شيئاً من لبنان تفتتح السماء فتجد الأخشاب التى ترجوها على الشاطئ ! أرنى القلاع التى أحضرتها معك لتسير السفن التى تحمل الأخشاب لمصر ! أرنى الجبال التى أحضرتها لتوثق بها كل الأخشاب التى أسقطها لك حتى لا تبغثر منك ! ما ذا تعمل اذا رعد آمون فى السماء وقامت فى البحر عليك طاصفة تغرقك وخشبك . . . ! أنا أقرباًن آمون هو المنعم على الأرضى كلها ، وهو الذى أنعم على مصر قبل كل البلاد ، ومنها أتيت الى هنا ، فصناع مصر أتوا الى وكذا العلوم والمعارف أتت الى محل اقامتى من مصر . فما معنى هذا السفر السخيف الذى أمروك بالقيام به !"

فأجبتة : "يا آتم ! سفرى هذا ليس سخيفا . اعلم أنه لا توجد سفينة على نهر الا ويملكها آمون . واعلم أن هذا البحر ملكه أيضا . ولبنان كذلك رغما مما تدعيه بأنها ملكك ! فاشجارها تنبت لأجل سفن آمون المقدسة رب كل سفينة . لقد قال آمون رع الى سيدى حريحور رئيس الكهنة "أرسلنى" فأرسلنى سيدى حاملا هذا التمثال "آمون الطريق" . اسمع ! لقد جعلنى أمكت بهذه المدينة تسعة وعشرين يوما مع علمك بوجود هذا المعبود هنا . ان هذا المعبود لا يزال كما كان رغم معارضتك لإرادته وهو سيد لبنان . أما قولك ان ملوك مصر الأقدمين أرسلوا الذهب والفضة ثمنا لما طلبوه منك ، فاعلم أنهم فعلوا ذلك بدلا من الإناعام عليك "بالحياة والصحة" ، اذ لو كانوا وهبوا لك "حياة وصحة" ما أرسلوا اليك ذهبا وفضة . أما آمون رع فهو إله الحياة والصحة وهو سيد أجدادك الذين أمضوا حياتهم يقدمون له القرابين والهدايا . وأنت أيضا خادم لآمون ، فاذا قلت لآمون سأنجز رغبتك ! سأنجز رغبتك ! ونفذت ذلك تماما فانك تتجج وتعيش طويلا وتتم بصحة جيدة وتكون محبوبا في بلدك وعند كل رعيتك . لا تحفظ لنفسك شيئا هو ملك آمون رع ملك المعبودات . حقيقة ! ان الأسد ليزود عن أملاكه ! احضر لى كاتى وأنا أرسله الى نسوبا بنبد وزوجته تنت آمون (Tentamon) اللذين أعطاهما الوجه البحرى وهما يجيمان طلي قائلين "ليحضر له كل ما يطلبه" فاذا ما وصلت الى الوجه القبلى سددت لك كل ما على من الديون" هكذا أجبتة .

لابد أن القارئ استنتج أشياء كثيرة من هذه القصة الغربية . من ذلك اعتراف الحاكم الفينيقي بجلاء ووضوح ما تدين به بلده من العلوم والحضارة لمصر وما كان لمصر عليها من السلطة والنفوذ . لكن يلاحظ أن هذا الحاكم رفض في الوقت نفسه الاعتراف بسلطة مصر عليه وتصل جهارا من كل سلطة لفرعون على بلده . ومما يجدر ملاحظته أيضا أن ذكر بل تكلم عن "حاكم مصر" ولم يستعمل لفظ "فرعون" اذا أراد الحاضر أما اذا عني الماضي فانه يستعمل اللفظ الأخير . فما معنى هذا ياترى ؟ لا شك أن القارئ أدرك السر في هذا الأسلوب الكلامي لكن هذا لا يمنعنا أن نشرحه له حتى يكون على المسام بجميع مباحثه .

معلوم أن مصر ليست بلادا حربية بطبيعة حالها وقاما يوجد بين أهلها من يحب الكفاح والنضال . فلما حكم القطر فراعة أقوياء مدفوعون بعامل الفتح والاستعمار أثر الضغط الأجنبي اضطرت الرعية أن تنفذ ارادة حكامها . لكنه لما انقضى جيل هؤلاء الفاتحين نمدت الروح العسكرية بالبلاد ورجعت المياه الى مجاريها وأصبح القوم يفتخرون بأعمال أجدادهم بشكل يبعث في النفوس الشفقة والرأفة لما أصاب وطنهم من المحن . ومما يجدر ملاحظته أيضا أن وينامون لم يرتكن في معادته مع حاكم بيلوس إلا على الأمور الدينية المحضة ، فلم يتعرض لأمر سياسى قط مما يتفق هو وعلاقة مصر بآسيا وقتئذ وما آلت اليه أحوال القطر المصرى . وبهذه الكيفية صار الرسول المصرى يطلب من الحاكم الفينيقي ما يلزمه من الخشب شفهيا قائلا له ان تمثال آمون الذى معه "يطيل عمره ويهب له الصحة" اذا هو أنجز ما موريته . قارن هذا بما كانت عليه الحال أيام تحوتمس الثالث وسيتى الأول لما كانت كلمة واحدة منهما كافية لإحضار ما يشاءان، والسرفى ذلك يرجع الى

وجود الجيوش الجارية المستعدة لتنفيذ أوامر فرعونها بلا تردد ولا تذلل . وبديهي أن تمثال "آمون الطريق" كان أقل تأثرا في نفس زكر بعلم من الجيوش الفرعونية في نفوس أسلافه . وليلاحظ أيضا أن هذا الحاكم الفينيقي لم يعط وينامون خشبا الا بعد وصول رسل من مصر بناء على طلب وينامون حاملين بعض أوان فضية وذهبية وبعض أقمشة جميلة وأدراج بردية وجلود وجمال . والظاهر أن زكر بعلم أراد أن يظهر حسن نيته لوينامون فوضع بعض الأخشاب الثقيلة في قرار السفينة قبل مجيء رسل مصر .

ولما هم وينامون بالرحيل الى طيبة وشحن الخشب في سفينته ذكره زكر بعلم بما حصل للرسول المصريين سابقا لما حجوزوا حوالى سبع عشرة سنة في ببلوس حتى توفوا . ولم يكتف الحاكم الفينيقي بذلك بل عرض على وينامون أن يطلعه على قبورهم فرفض وينامون طبعاً هذه الدعوة خوفاً ووجلاً ثم أجاب قائلاً :

"اعلم أيها الحاكم أن تلك الرسل أتت من قبل آدميين . أما أنا فأنتيت من قبل المعبود آمون الذى أصبح الآن راضياً عنك ومعظماً إياك لكرمك" .

بعد ذلك وعد وينامون بدفع الباقي عليه وسار بالسفينة نحو مصر ، لكنه ما كاد يترك الشاطئ حتى اعترضته إحدى عشرة سفينة ثكالية معها أوامر بالقبض عليه لا لسبب سوى استرداد الفضة التي أخذها من الثكاليين وقت مروره بمدينة صور على طريقه لبيلوس . عندئذ فقد وينامون كل رجاء وألقى بنفسه على الشاطئ بائساً فاشفق القوم عليه حتى زكر بعلم نفسه الذى أخذ يطمئنه وأرسل اليه نبيذاً وطعاماً وغانية مصرية تفرج عنه الهموم . وفى اليوم الثانى حجوز أمير بيلوس سفن الثكاليين حتى هرب وينامون في سفينته ، لكن عاصفة هبت على البحر أضلت الرسول المصرى الطريق وقذفت بسفينته على شاطئ قبرص ، فاجتمع عليه أهالى الجزيرة وهما بقتله بجوار قصر الملكة هاتيبا (Hatiba) حاكمة قبرص . ومن حسن حظ وينامون أن صادف انتقال هذه الملكة وقتئذ من قصرها القريب من الحادثة الى قصر آخر فاعترضها وينامون في الطريق ووجد شخصاً قريباً يجيد المصرية فرجاه وينامون أن يفهم الملكة حاله قائلاً : "قل لسيدتى أنه بلغنا حتى في طيبة أن الظلم والحيف حاصل في كل بلد ما عدا قبرص (Alasa) . لكننى تحققت الآن أن الظلم يحصل هنا أيضاً كل يوم" فأجابته الملكة في دهشة "هل هذا صحيح ؟ ماذا تقول أيها الرجل ؟" فأجابها وينامون قائلاً : "كنت مسافراً بالبحر فهبت على عاصفة قذفت بى الى هذه الجزيرة فأراد أهلها قتلى وأنا رسول آمون ولن يذخر قومي جهداً للبحث عنى وتخليصى . أما بحارة حاكم ببلوس الذين معى في السفينة فانى أؤكد أن ذلك الحاكم لا يعدم وسيلة في إيجاد عشرة من بحارة قبرص يقتلهم تشفياً وانتقاماً اذا ما تعرض سكان جزيرتك لهم" . بعد ذلك طلبت الملكة مقابلة بحارة سفينة وينامون وأمرته بالذهاب والنوم مستريحاً .

الى هنا انتهت معلوماتنا عن هذه الرحلة ومنها يلاحظ أن الرسول المصرى عجز عن صيانة نفسه . وقد كان نراعتة مصر السابقون يحققون مع ملك قبرص (الذى كان تابعا لهم) عن كل تعدد يحصل على أى مصرى بتلك الجزيرة . ويلاحظ أيضا أن وينامون لم يذكروا الملكة قبرص شيئا عن فرعون مصر فى حين أنه هدها بانتقام أميريلوس ومصر معا .

ان الانسان لا يكاد يصدق حصول هذه التغيرات فى مدة يسيرة لا تتجاوز أربعين سنة بعد وفاة رمسيس الثالث ذلك الفرعون الذى هزم أساطيل سكان البحر الأبيض المتوسط مجتمعين فى معركة بحرية هائلة فى المكان نفسه الذى أهيى فيه وينامون . وتعتبر رواية وينامون هذه أكبر برهان على انضمام النفوذ المصرى فى تلك الجهات الأجنبية^(١) وعلى سرعة انخراط الدولة الداخلى فى المدة اليسيرة التى حكمها خلفاء رمسيس الثالث الضعاف . ويرجح بعض الأثريين أن ملك آشور المدعو تيجلات پليسر (Tiglath-pileser) اقرب من مصر وقتئذ (حوالى عام ١١٠٠ قبل الميلاد) تخاف منه نسوبا بندد ملك مصر وأرضاه بهدية وتمساح كى يتعد عنه ولا يمس به سوء . هكذا انعدم نفوذ مصر بسوريا تماما أما نفوذها على فلسطين فلم يكن الا اسميا تتناقله السنة رجال حاشية الملك فقط . وسرى أن ملوك مصر حاولوا استرداد تلك البلاد عدة دفعات بعد ما تألفت بها الملكة اليهودية .

لا يخفى أن الانقلابات الداخلية فى القطر ألقت بطييه فى طريق لامناص من ولوجه . أما هذه الانقلابات فعديدة ، منها ارسال رئيس كهنة آمون المدعو حريمحور رسوله وينامون لإحضار خشب الأرز من فينيقيا للمعبود آمون بعد ما كانت الرسل ترسل باذن فرعون . ثم زاد نفوذ هذا الكاهن فى السنة التالية فأرسل بعض رجاله لإصلاح ما أفسدته أيدى النهابين لحتى سبى الأول ورمسيس الثانى فى السنة الأولى من حكم رمسيس العاشر^(٢) . وأكمل حريمحور بناء معبد خونسو (شكل ١٨٣) الذى بنى فيه رمسيس الثالث قدس الأقداس وبعض الحجرات الخلفية . أما عمارات حريمحور التى شيدها بالمعبد المذكور فعبارة عن حوش وإيوان ذى عمد وصرح ، ولا تزال جدر هذه العمارات تشهد بتغيير أحوال مصر الداخلية الادارية ، فالنقوش والدعوات المكتوبة على أعلى جدر إيوان هذا المعبد الكبير سجلت على الطريقة القديمة وعلى الأسلوب المعهود للملكة القديمة . واليك ترجمة بعضها :

” إيجى الملك رمسيس الثانى عشر ا لقد شيد لوالده خونسو المتطيب بطييه هذا الإيوان لأول مرة المسمى حامل التيجان واستعمل فى ذلك الأحجار الجيرية الجميلة فازدان بها المعبد الى أبد الأبدن . ولم لا يكون ذلك وقد شيده رمسيس الثانى عشر ابن الشمس لهذا المعبود “^(٣) . أما أسفل جدر هذا الإيوان فيحوى نقوشا لم يسبق وجود مثلها فى عهد فرعونى واليك ترجمتها :

” رئيس كهنة آمون رع ملك المعبودات قائد قوات جيوش الوجهة القبلى والبحرى الرئيس حريمحور الظافر ، لقد شيد هذا الأثر لأجل خونسو المتطيب بطييه فعمل له بذلك أول معبد من نوصه فى أفق السماء “^(٤) .

(١) ٥٥٧ : ٤ — ٥٩٢ : ٤ (٢) ٦٠٢ : ٤ (٣) ٦٠٩ : ٤ (٤)

لا مرء اذن في أن هذا القائد لجيوش الوجه القبلي والبحرى هو الذى شيد هذا الإيوان . ومن غرائب هذا البناء أيضا أن النقوش البارزة على حافى الباب الموصل ذلك الإيوان بجوش المعبد تمثل المعبود محتفلا به وأمامه رئيس الكهنة حريحور يقود الاحتفال ويحرق البخور للمعبود ، وهو مركز كان يقوم بأعبائه فرعون مصر دون سواء ، ولذلك جاء رسم حريحور بالصفة المذكورة مخالفا العادة المتبعة على الآثار المصرية منذ آلاف السنين . والأدهى من هذا أن الدعوات والتوسلات الاعتيادية التى كان يقولها المعبود لفرعون مصر ذكرت على جدر معبد خونسو مقولة على لسان المعبود وموجهة الى الكاهن حريحور^(١) . وهذه حادثة تذكرنا تماما بما حصل أيام ذهب سلاطين مصر الى بغداد وأحضرت الخليفة الى القاهرة وأبقته بها مدة قصيرة . وقد عثر على نص خطاب أرسله رمسيس الثانى عشر الى والى النوبة فى السنة السابعة عشرة من حكمه استدل منه على أنه كان محتفظا بنفوذه هناك^(٢) . لكن الرسمين الموجودين على باب معبد خونسو السالف الذكر يمثلان الكاهن حريحور فى مركز وال فى عهد رمسيس الثانى عشر بقاء هذا اثباتا لاحتكار هذا الكاهن لسلطة الملك على السودان أيضا^(٣) . وقد سبق أن ذكرنا عند الكلام على تاريخ أواخر أيام الأسرة التاسعة عشرة أن آمون وضع يده على مناجم الذهب بالنوبة^(٤) . والآن يتضح لنا أن حريحور رئيس كهنة هذا المعبود بسط نفوذه على أعلى النيل أيضا . وعثرنا أيضا على نقوش بمعبد خونسو تشير الى أن حريحور شغل وظيفة "مدير مخازن غلال الوجه القبلي والبحرى" وهو المركز الوحيد الذى يلى فى الأهمية مركز رئيس المالية لأن القمح كما لا يخفى أهم مصادر الثروة فى مصر .

يتضح من ذلك أن رئيس كهنة آمون وضع يده على كل الأمور الادارية والدينية تقريبا ولم يبق أمامه شئ يستحق الذكر لأنه أصبح الان قائدا لقوات مصر وواليا على كوش ورئيسا للخزانة ومشرفا على عمارات المعبودات . وبعد مضى سبع وعشرين سنة على حكم رمسيس الثانى عشر الاسمى كان كل شئ تقريبا ناضجا لتسلم حريحور رئيس كهنة آمون تاج العرش المصرى ، ففى احدى الحفلات الدينية اعترف المعبود خونسو بتولية حريحور ملكا على مصر ثم أيده فى ذلك آمون فأصبح هذا القرار أمرا واقعا .

هذه القصة منقوشة باختصار وغموض على باب معبد خونسو^(٥) المذكور آنفا وتعتبر هذه النقوش الآن برهانا ساطعا على انتقال السلطة الحاكمة من فرعون الى رئيس كهنته . والزائر الآن لمعبد خونسو يمر فى الإيوان الداخلى فيجد اسمى حريحور ورمسيس الثانى عشر منقوشين على جدره ، ثم يمر بالحوش الأمامى فلا يجد فيه أثرا لفرعون مصر بل يشاهد حريحور مرسوما بوضوح وجلاء مكتوبا اسمه فى خانة ملكية مسبوقة بالألقاب الفرعونية . ومنذ ذلك الوقت يرق اسم رمسيس مستعملا بين الرعية اثباتا لقراية حامله بالمامسة العظام دون اشارة الى سلطة أو نفوذ كما كانت الحال فى الزمن السابق .

(١) ٦١١: ٤ (٢) ٥٩٥: ٤ — ٦٠٠ (٣) ٦١٥: ٤ (٤) ٦٤٠: ٤ (٥) ٦١٤: ٤ — ٦١٨

الفصل الخامس والعشرون

الكهنة والجنود المأجورة : سيادة الليبيين

أثر استقلال طيبة الديني كثيرا في كان الامبراطورية المصرية لأنه جاء بمثابة انهيار صرح مجدها واثقكاك عرى مملكتها ، وأصبح كهنة آمون يحكمون بأنفسهم لكن لم تتعد سلطتهم قسم طيبة وما حوله . وبالنسبة لبسط نفوذ الكهنة على جميع أنحاء القطر نشأت منازعات ومشاكسات داخلية نجم عنها انقسام القطر وانحلاله ، وقد بدأ التغير منذ عهد نسوبانبدد و حريحور في أواخر القرن الحادى عشر قبل الميلاد واستمر نحو أربعائة وخمسين سنة . وتماضى حريحور في ادعاءاته فقال انه أصبح ملكا ذا سيادة مطلقة، لكن هذا القول بعيد عن الصواب كثيرا^(١) . ولم يكنف بذلك بل ازداد تيجبا وادعى أن نفوذه امتد الى سوريا حتى سجد أمراء تلك الجهات له كل يوم خوفا من سلطته وبأسه العظيمين^(٢) . وقد أفادت الأخبار الواردة ضمن قصة ويتامون الشجاع الخاصة بسياحتة الى مدينتى دور و بيلوس أشياء كثيرة عن أحوال تلك العصور . والمعروف أن حريحور لم يتبع سياسة الشدة والحزم ليخضع بها أمراء سوريا بل اكتفى بحكومة زمنية وروحية بسيطة جدا .

لقد تدخل آمون في شؤون الامبراطورية المصرية أيام حتشبسوت وتحوتمس الثالث فلك الأخير عرش مصر كما أنه كلف حتشبسوت اقامة المسلات وارسال البعثات الى الصومال لإحضار الخيرات له ، لكن هذا التدخل حصل بصفة استثنائية فلم يكن مطردا ولا كثيرا . فلما تولى حريحور الحكم تدخل هذا المعبود في أمور الدولة بشدة لدرجة تحتم أخذ رأيه في كل شؤون الملكة ، فالأمر الذى يوافق عليه آمون كان يحرك له رأس تمثاله الى الأمام بقوة ويشفع ذلك بالنطق الإلهى . وزاد تدخل آمون فصارت وصايا ومواريث أفراد الأسر لرؤساء كهنة آمون تسجل بناء على طلب هذا المعبود^(٣) ، وبهذه الكيفية انصبغت الأمور الأهلية بالصيغة الدينية .

ثم اتسع الخرق فأصبح آمون يصدر أمره بارجاع المعتقلين السياسيين الى وطنهم ويفصل فى الجنايات ويحكم بالإعدام على المجرمين . من ذلك أن موظفا بأحد المعابد اتهم بتبديد أموال معبده فحُكم أمام آمون ودقن الحكم فى سجلات ذكر بأحدها أن الموظف المذكور مذنب وكتب فى آخر أنه برى وترك الأمر للمعبود ، فأصدر هذا حكمه بتناول السجل الواردة فيه براءة المتهم وبذا برئت ساحة الموظف . والسبب فى ذلك أن رئيس الكهنة كانت له مصلحة فى الأمر فدير هذا التدير^(٤) . من ذلك يتضح أن رئيس كهنة آمون حكم البلاد بالشعوزة بلا اعتبار العدل والقانون مستندا فى تنفيذ أوامره الى مساعدة آمون .

ولما كان حريحور طاعنا في السن وقت توليه عرش مصر (عام ١٠٩٠ قبل الميلاد) لم يعيش طويلا بعد رمسيس الثاني عشر، فتبعه في الحكم ابنه پاى عنخ (Payonekh) الذى كان أيضا طاعنا في السن فلم يجسر على الانفراد بالحكم ضد نسو بانبدد الذى أخذ بسط نفوذه لمدة قصيرة على القطر المصرى. قال مانيتو ان نسو بانبدد التنيسى هو المؤسس للأسرة الحادية والعشرين، لكن هذا خطأ تاريخي يرجع سببه الى جهل هذا المؤرخ باستقلال طيبة وقتئذ^(١).

وتوفى پاى عنخ فتبعه في الملك پاى نزم (Paynozem) الأول^(٢) الذى حكم في طيبة واستقل بها. في ذلك الوقت توفى نسو بانبدد فتبعه في حكم تنيس بسبب خنو (Pesibkhenno) الأول وهو على الأرجح ابنه. والمعروف أن پاى نزم عجز عن استرجاع العرش المصرى الذى استولى عليه جده، لكنه استعمل الشدة في حكمه بطيبة فأكل معبد خونسو وأصلح بعض المعابد القديمة^(٣) وجمع جثث ملوك مصر المدفونة بيجانة طيبة الغربية بمقبرة سبتى الأول حفظا لها من عبث اللصوص^(٤) والسبب في ذلك أنه عجز عن ابعاد اللصوص عن تلك المقابر فلجأ الى ما لجأ اليه أخيرا.

وركن پاى نزم بعد ذلك الى طريقة سياسية ماهرة فاقترن بكريمة ملك تنيس المدعو بسبب خنو الأول فلما توفى هذا عام ١٠٦٧ قبل الميلاد اعتلى پاى نزم عرش مصر مستعملا في ذلك حقه المكتسب عن طريق زوجته، فضم بذلك الوجهين القبلى والبحرى تحت سلطته. ثم عين ابنه رئيسا لكهنة آمون بطيبة، لكن هذا النجل توفى فعين ابنا آخر مكانه. وكان لپاى نزم ابن ثالث يدعى من خپررع (Menkheperre) عينه في السنة الخامسة والعشرين من حكمه رئيسا لكهنة آمون^(٥) بعد نضال شديد مع خصومه. ودليلنا على وجود هذا النضال أنه لما عين من خپررع رئيسا لكهنة آمون أصدر آمون أمره بالعفو عن بعض المعتقلين السياسيين باحدى الواحات. ولم نهدت للآن عن سر هؤلاء المعتقلين ويظهر أن العفو صدر ارضاء لأهالى طيبة الذين ظهروا وقتئذ بمظهر الثورة والعصيان كما حصل أيام البطالسة^(٦).

وحكم پاى نزم أربعين سنة تقريبا متخذا تنيس مركزا له. وكان ابنه من خپررع رئيسا لكهنة آمون بطيبة طول هذه المدة. فلما توفى پاى نزم نحل ابنه بعض الألقاب الفرعونية وذلك عام ١٠٣٦ قبل الميلاد^(٧) لكن هذا الابن لم يعتل عرش مصر لأن شخصا آخر يدعى أمن إم أويت (Amenemopet) اغتصب منه العرش. ويرجح كثيرا أن هذا الأخير لم يكن متصلا بعلاقة دموية مع پاى نزم والحقيقة أننا لا نعلم شيئا من أعمال پاى نزم الذى حكم حوالى نصف قرن. إنما الثابت أن هؤلاء الملوك التنيسيين لم يكونوا عظماء ولا محبين للعبارات البضخمة، مع استثناء ما شاهده بسبب خنو من الجدار الشاخ البالغ سمكه ثمانين قدما والقائم حول معبده بتنيس^(٨). ويرجح جدا أن القرن ونصف القرن الذى حكم فيه هؤلاء الملوك التنيسيون كان مقرونا باضمحلال الصناعة

(١) ٦٣١ و ٦٢٧ : ٤ (١) ٦٣١ : ٤ (٢) ٦٣٣ - ٥ (٣) ٦٤٢ : ٤ (٤) ٦٥٠ : ٤ (٥)
(٦) ٦٥٠ - ٥٨ (٧) ٦٦١ : ٤ (٨) Petrie, Tanis I, 19

وتقهقر حالة البلاد الاقتصادية لأن هؤلاء الحكام لم يظهروا استعدادا الى الرق والتقدم والنشاط . ورغم جهلنا بأحوال البلاد الاقتصادية في تلك العصور وقبلها لتمكن من مقارنتها فاننا متيقنون أن ثمن الأراضي كان وقتئذ منخفضا جدا ، فقد بيعت قطعة أرض مساحتها ستة أفدنة ونصف تقريبا بيجية العراية بمبلغ ألف وأربعمائة قمحة فضة^(١) . ومن مآثر نسويانبدد أنه أرسل الى طيبة عددا عظيما من العمال لإصلاح التلف الذي لحق بمعبد آمون أثر فيضان النيل وقتئذ^(٢) لكنه لم يعمل هو ولا أقرانه شيئا يذكر في تنيس عاصمة المملكة المصرية التي كانت تنتقل باطراد من سيء الى أسوأ . وكل ما فعله ملوك تنيس أنهم باهوا وافتخروا بأعمال أجدادهم العظام وتباروا مع رؤساء كهنة آمون في حفظ جنث هؤلاء الأجداد .

ثم توفي أمن إم أويت وتولى بعده سيامون (Siamon) فنقلت في مدته موميات رمسيس الأول وسيتي الأول ورمسيس الثاني من مقبرة سيتي الأول الى مقبرة الملكة إن حابي (Inhapi)^(٣) . أما اضطراب الأمن وانعدام النظام فقد استمر سائدين . ولما تولى إسيب خنو الثاني آخر الملوك التنيسيين على مصر أسرع في نقل الموميات الملكية الى مقبرة حفرها أمتحتب الأول لنفسه ولم يستعملها (على الأرجح) بالقرب من الدير البحري (شكل ١٧٩) وبقيت هذه الموميات مدفونة بتلك المقبرة حتى عثر عليها حديثا . وكتب الكتاب الذي تعهدوا نقل هذه الموميات قديما ملاحظات على توابيتها ذكروا فيها تاريخ النقل كما فعل من سبقهم من الكتاب وقت نقل الموميات السابقة الذي حصل قبل ذلك الوقت بمائة وخمسين سنة تقريبا (شكل ١٧٨)^(٤) . ولا تزال هذه النقوش الباقية على الموميات الملكية وتوابيتها التي كتبت على عدة دفعات وقت النقل من مقبرة لأخرى حفظا لما من عبث للصمصوس برهانا ساطعا على انحطاط الأمن والنظام في تلك العصور المتأخرة . وآخر مرة ختمت فيها هذه المقبرة يرجع تاريخها الى السنوات الأخيرة من حكم الأسرة الثانية والعشرين (أى حوالى سنة ٩٤٠ قبل الميلاد) . وبقيت موميات هؤلاء الملوك العظام بتلك المقبرة محفوظة مدة ثلاثة آلاف سنة تقريبا حتى عام ١٨٧١ أو ١٨٧٢ ميلادية لما توصل اليها بعض لصوص المقابر بالأقصر ، وهم سلالة أجدادهم الذين احترقوا باللصوصية قبلهم أيام رمسيس التاسع ، وقد ألمعنا الى ذلك سابقا لما تكلمنا على محاكمة هؤلاء الأئمة المجرمين . ومما هو جدير بالذكر أن الحكومة الحالية أجبرت اللجنة على الاعتراف بجرمهم بالطريقة نفسها التي اتبعتها حكومة رمسيس التاسع سابقا . وهكذا ظهرت للعالم تلك الموميات بعد ما خبئت لمدة تسعة وعشرين قرنا . وتقدر المدة التي مضت على أقدم هذه الجثث المحنطة بحوالى ثلاثة آلاف سنة . ويمكن القارئ الآن أن يرى هذه الموميات الملكية (لأنها معروضة للزائرين بدار التحف المصرية بالقاهرة) وعند ذلك يتذكر ما قام به أصحابها من الأعمال الخالدة التي ذكرناها والتي يرجع تاريخها الى حوالى ثلاثة آلاف سنة تقريبا .

(١) ٦٨١:٤ (٢) ٦٢٧:٤ ملاحظة (٣) ٦٦٤:٤ (٤) ٦٩١:٤ — ٢

وكانت السياسة الخارجية أيام الأسرة الحادية والعشرين ضعيفة كسياسة الأسرة العشرين والظاهر أن مصر حافظت على نفوذها في النوبة . أما في سوريا فكانت علاقتها تنطبق تماما على الوصف الوارد في قصة وينا مون التمس عند مقابلته لحاكم بيلوس . ولم يكن لمصر سيادة على فلسطين إلا بالاسم تلوكها السن رجال القصر الفرعوني وقد استمرت كذلك مدة قرن تقريبا .

ويلاحظ أنه في الوقت الذي انحط فيه نفوذ مصر بفلسطين أخذت قبائل بني اسرائيل تجمع كلمتها وتبسط نفوذها على البلاد المجاورة فكوت لها وطنا بفلسطين تحت ادارة شاول (Saul) ودادود (David) . ولأن لم تتأكد اذا كان هذا الأمر تم بمساعدة المصريين بقصد اخضاع أعدائهم المستوطنين بشواطئ تلك الجهات ، والسبب في هذا الجهل قلة ما لدينا من الأخبار التاريخية المنبئة بعلاقة مصر السياسية بآسيا وقتئذ . أما أخبار أهالي البحر الأبيض المتوسط فقد انعدم ذكرها على الآثار المصرية فلم نسمع عنهم شيئا . وأما الليبيون فقد بسطوا نفوذهم بسهولة على الوجه البحرى بطريق المهاجرة السلمية . وما ساعد على ذلك زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصرى باطراد . ولما كان جزء الجيش المعسكر بالدلتا لحفظ النظام هناك تحت ادارة رئيس كهنة آمون وتحت قيادة ضباط مشواشين قابضين على قلاع تلك الجهة فقد قوى نفوذ المشواشين هناك . وحصل في عهد الأسرة الحادية والعشرين هناك أن أحد الليبيين (التحنو) المدعو بيواوا (Buyuwawa) استوطن مدينة إهناس (Heracleopolis) فرزق ولدا يدعى موسن (Musen) عين بعد ذلك في وظيفتي معبد إهناس وقائد حرس تلك المدينة . بعد ذلك صارت هاتان الوظيفتان وراثيتين مقصورتين على أفراد هذه الأسرة^(١) . ثم رزق موسن هذا بنجل يدعى شيشنق (Sheshonk) لقب "رئيس المشواش العظيم" وكان قويا ثريا حتى أنه لما توفي ابنه المدعو ناملوت (Namlot) دفنه في العرابة باحتفال عظيم ووقف له خيرات كثيرة من أراض وحدائق وعبيد وخدم وقرايين يومية . بعد ذلك اتضح له حصول تلاعب من الرؤساء الموكول اليهم تنفيذ هذه الخيرات فتوسط لدى ملك (لا تزال نجهل اسمه) من ملوك الأسرة الحادية والعشرين يعاقب المهملين وليصدر بذلك أمرا من آمون بطيبيه^(٢) . ويرجح كثيرا أن يكون القواد الليبيون بالدلتا جروا على هذا المثال حتى أصبح لهم نفوذ يجارى نفوذ شيشنق المذكور ، أو بعارة أخرى حتى استأثروا بالسلطة في أيديهم تدريجا . واستمرت الأسرة الحادية والعشرون في الضعف المطرد مدة حكمها البالغة مائة وخمسين سنة تقريبا كانت في أثنائها ذرية بيواوا بمدينة إهناس تظهر وتعظم ، فتمكن أحد أفرادها وهو شيشنق حفيد شيشنق السالف من قيادة أسرته الليبية ونشر نفوذها (على الأرجح) على الأراضى المجاورة الى قسم منف شمالا وقسم أسيوط جنوبا . وفي عام ٩٤٥ قبل الميلاد تمكن رئيس هذه الأسرة من الاستيلاء على عرش مصر والترجع فيه بمدينة تل بسطه شرق الدلتا^(٣) . ويعتبر هذا التغير الملكى إما نتيجة ضعف آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، وأما نتيجة وفاته وانقراض ذريته .

(١) ٧٨٥ - ٧٩٣ (٢) ٦٦٩ - ٦٨٧ (٣) ٧٨٥ - ملاحظة .

واعتبر ما يتوشق هذا مؤسس الأسرة الثانية والعشرين ، ومن ذلك يتضح أن الليبيين تمكنوا هذه المرة من التربع على العرش المصري بلا تعب ولا حاجة الى امتشاق الحسام بعد مضي مائتي سنة تقريبا من وفاة رمسيس الثالث الذي سحقهم سحقا لما علم بنواياهم الخبيثة نحوه . وبديهي أن انتقال العرش تدريجيا من أيدي الفراعنة الى أيدي ضباط أجنبية صحبه أيضا انتقال تدريجي في ادارة الحكومة الى أيدي الكهنة . لكن حكم الأخيرين تقوّض بسرعة أما حكم الضباط الأجانب فدام مدّة أطول ، بالرغم من أن نفوذ هاتين الطائفتين كان موطدا في البلاد بدرجة متعادلة تقريبا منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة .

ويعجز جلوس شيشنق على عرش مصر حصر هذا الشرف الرفيع في أفراد أسرته ، وتوصل الى ذلك بأن زوّج نجله بكريمة بسبب خنو الثاني التيسى آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، بذلك منح ابنه حقا شرعيا لتولي عرش مصر بعد وفاته وذلك عن طريق زوجته (١) . والمعروف عن شيشنق هذا أنه كان حاكما قويا شجاعا نهض بمصر وعزم على استرجاع عزها القديم وتاريخها المجيد . ولما كانت البلاد في حالة سيئة كان مجهود هذا الملك أشبه بمن يبنى عمارة عظيمة بأقناض عتيقة . زد على ذلك أن القطر كان تحت نفوذ حكام المشواش المثيرين للفتن والقلاقل . ومما حسن الحالة نوعا أن هؤلاء كانوا يهابون شيشنق ويعرفون أصله وكيفية توصله للملك ، لكنهم كانوا أيضا على يقين من أنهم لو اتبعوا خطة شيشنق هذا ربما توصلوا الى العرش المصري أيضا . ولم تهتد لآلئ الى معرفة الأقاليم التي كانت تحت حكم قواد المشواش ، إنما يظن أن معظمها كان بالوجه البحري وأن علاقتهم بفرعون مصر وقتئذ كانت أشبه بعلاقة المالك بسلاطين مصر المسلمين . أما الوجه القبلي فكان منقسما الى إمارتين : إمارة إهناس الواقعة الى أسبوط جنوبا ، وإمارة طيبة الممتدة من أسبوط شمالا حتى الشلال الأول جنوبا ويرجح أنها كانت تشمل النوبة أيضا .

من ذلك يتضح أن القطر المصري انقسم وقتئذ الى ثلاث إمارات أشبه بما حصل في عهد البطالسة والرومان (٢) . أما نفوذ شيشنق فكان مبسوطا على قسم إهناس لكنه كان على وفاق ووداد مع رؤساء كهنة بتاح بمنف . وقبل انتهاء السنة الخامسة من حكمه انضمت طيبة تحت لوائه (٣) لكنها كانت أشبه بمستقلة قادرة على مقاومة الأسرة الحاكمة بالوجه البحري ، وأراد شيشنق أن يستفيد بمساعدة هذه المدينة فعين ابنه رئيس كهنة آمون هناك (٤) والمعروف أن طيبة كانت معفاة من الضرائب كما أن موظفي مالية حكومة الدلتا الإداريين لم يزوروا تلك المدينة رسميا (٥) . وعليه فقطر هذه حالة يسهل شيوب الفتن في إماراته الثلاث في أى وقت يعجز زوال سلطة قائده الأعلى الشديد ألا وهو شيشنق الأول .

وأخذ شيشنق الأول يسط نفوذ مصر على فلسطين حتى جعل سيادته هناك فعلية بعد أن كانت اسمية . والظاهر أن ساليان الحكيم كان واليا وقتئذ تحت النفوذ المصري هناك ويرجح أنه تزوج

(١) ٧٣٨ : ٤ (٢) ٧٤٥ : ٤ - ٧٠٠ (٣) ٧٠٠ : ٤ (٤) ٦٩٩ : ٤ (٥) ٧٥٠ : ٤

بكرية فرعون الذى أوسع له الأقاليم تحت إشرافه بضم مدينة جازر المهمة اليه^(١) ، وقد ألمعنا سابقا الى هذه المدينة لما تكلمنا عن الملك منفتاح قبل العصر الذى نحن بصددده بحوالى ثلثمائة سنة . فى ذلك الوقت عجز بنو اسرائيل عن اخضاع هذه المدينة ، لكن لما شق أميرها الكنعانى عصا الطاعة على شيشنق الأول استولى جلالته عليها عنوة وأحرقها ثم أهداها الى سليمان الذى شيدها من جديد^(٢) . وبديهي أن مثل هذا العمل لا يمكن نسبته الى ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعفاء ، بل المرجح كثيرا أن الذى استولى على مدن عظيمة بفلسطين مثل جازر وأحرقها هو ملك قوى شجاع عظيم ، ولم يتصف بذلك فى تلك العصور سوى شيشنق الأول .

ولما انقسمت مملكة اليهود فى عهد رحبعام (Rehoboam) الذى خلف سليمان رأى شيشنق أن الوقت حان لبسط نفوذه على فلسطين كلها . وفى ذلك الوقت التجأ يربعام (Jeroboam) المدعو الشمالى لرحبعام الى شيشنق الأول طالبا حمايته ، فتوجه شيشنق الى فلسطين وغزاهها وكان ذلك فى السنة الخامسة لحكم رحبعام (حوالى عام ٩٢٦ قبل الميلاد) . والمعروف أن جلالته لم يذهب الى أبعد من حد شاطئ بحر الجليل شمالا وماهنايم (Mahanaïm) التى هى بوادى الأردن شرقا (على الأرجح)^(٣) . وليلاحظ القارئ أن الجنود المصرية مضى عليها الى ذلك الوقت مائتان وسبعون سنة لم تطأ أقدامها الأرض الآسيوية ، فلما وصل شيشنق الى آسيا أرسل قواته اللبية لنهب مدن سهل يزرل (Jezreel) بادئة برهوب (Rehob) شمالا ومخترفة حفرايم (Hapharaim) ومجتو وتناخ وشونم (Shunem) حتى بيت شين (Beth-Shean) شرق وادى الأردن . أما فى الجنوب فسلبت الجنود يرازا (Yerza) وبيت حورن (Beth-Horon) وأيا لونا (Ajalon) وجبيون (Gibeon) وسكو (Socoh) وبيت أنوت (Beth-Anoth) وشرحان (Sharahen) وأراد (Arad) ، والموقعان الأخيران يحددان منتهى ما بلغه اللييون وقتئذ جنوبا .

جاء فى كتاب الملوك الأول بالإصحاح الرابع عشر بالآية الخامسة والعشرين أن شيشنق ملك مصر صعد الى اورشالم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان^(٤) . لكن يستدل من قرائن الأحوال أن حملة شيشنق كانت موجهة الى المملكتين الآسيويتين فلم يقصد بها مملكة يهوذا (Judah) وحدها^(٥) . وادعى شيشنق (شيشق) أنه بلغ أرض متانى (Mittanni) لكن ذلك لابد أن يكون من قبيل الغلو والفخر فقط ، والسبب فى ذلك أن مملكة متانى انعدمت من الوجود فلم يعد لها أثر وقتئذ^(٦) . ومما ادعاه شيشنق أيضا أنه استولى على الجهة المعروفة "بمجل ابراهيم" وهذا الاسم هو أقدم عبارة ورد بها اسم ابراهيم علم بنى اسرائيل (شكل ١٨٠) . وعاد شيشق (شيشق) بعد غزوته بفنائم عظيمة فجدد بذلك عهد

(٢) ١ ملوك ٩ : ١٥ - ١٧

(١) ١ ملوك ٩ : ١٦

(٣) ٤ : ٧٠٩ ملاحظة وأيضا مقال فى : Amer. Jour. of Sem. Lang., XXI, 22-35

(٦) ٤ : ٧١٠

(٥) ٤ : ٧٠٩ - ٧٢٢

(٤) ١ ملوك ١٤ : ٢٥

فراعة مصر الأقدمين، ونقش جلالته على جدر الكرنك بطييه الجزية التي تقاضاها من فلسطين والنوبة (التي خضعنا له وقتئذ) بالقرب من نقوش ملوك مصر العظام^(١) ثم عين جلالته حاكما لليبيا على الواحة الكبرى وعهد الى أحد الرؤساء الليبيين في الإشراف على غربي الوجه البحري وطرق مواصلاته البرية مع الواحات^(٢). وهكذا رجع لمصر لأمد قصير بعض مجدها القديم الذي شاهده زمن الامبراطورية في عهد الأسرة التاسعة عشرة لما أخذت ترد على خزايتها جزية الأقاليم الواسعة الممتدة من شمالى فلسطين شمالا الى أعلى النيل جنوبا، ومن الصحارى الغربية غربا الى البحر الأحمر شرقا. ولما ضخمت المالية شيد شيشق العارات الشاحنة كما فعل فراعة مصر الأقدمون منذ مائتي سنة تقريبا، فاخطت تل بسطه مقره ووسع الكرنك بطييه. وكانت لشيشق نجل يدعى يوپت (Yewepet) عين رئيسا لكهنة آمون بطييه، وقد أرسل هذا الابن بعثة الى جبال السلسلة لقطع الأحجار اللازمة ليشيد بها حوشا عظيما وصرحا شاهجا بالجهة الغربية للكرنك كي يتم بناء هذا المعبد ويكسوه شكلا بدعيا من جهة النيل. وليلاحظ أن جدر جانبي الحوش وعمده أسست سابقا بعد انقراض الأسرة التاسعة عشرة بمدة، أما الصرح فلم يبدأ ببنائه الا في عهد شيشق. ولا يزال هذا الحوش أكبر أحواش المعابد للآن، يبلغ طوله ثلثمائة وأربع عشرة قدما وعرضه مائتين وتسعا وستين قدما. أما الصرح فشيده أمام وجهة هذا الحوش وهو أكبر صرح من نوعه في القطر يبلغ سمكه ستا وثلاثين قدما وارتفاعه مائة وخمسين قدما ووجهته ثلثمائة وسبعين وخمسين قدما (خريطة رقم ١١). وقصد شيشق أن يحتفل ببناء هذا الصرح في عيد مرور ثلاثين عاما على حكمه لكننا لم نهند للآن اذا كان أنجز ذلك أم لا. والمعروف أنه لم يعيش طويلا ليراه كاملا لأن الألواح الخشبية وأدوات البناء لا تزال مكسوة تحت كومات التراب والأحجار الساقطة بمحوار الصرح. ومن الثابت أيضا أن حلية هذا الصرح لم تتم في عهد شيشق. ووجدت نقوش بارزة على الباب الجنوبي للكرنك المعروف "بباب تل بسطه" لللك شيشق قلد فيها ملوك العهد القديم، فرسم نفسه فانكا بالأسويين أمام آمون، ورسم معبود طييه هذا وزوجته معبودة طييه يقدمان له عشرة صفوف من الأسرى يبلغ عدد أفرادها مائة وستة وخمسين فلسطينيا رمز بكل منهم لمدينة من المدن التي استولى عليها جلالته وكتب تحت كل رجل منهم اسم المدينة التي يمثلها^(٣)، ووردت بين هذه الأسماء بعض أعلام لمدن جاء ذكرها بالكتاب المقدس ألعلنا الى أهمها سابقا.

وفي سنة ٩٢٠ قبل الميلاد توفي شيشق الأول وتولى بعده ابنه أوسركن الأول (Osorkon) زوج - اسنة الملك بسبب خنوا آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين. وكان اعتلاء هذا الملك للعرش مطابقا للقوانين والعادات المتبعة، وكانت المملكة التي ورثها هذا الملك عن والده غنية واسعة الثروة حتى تمكن جلالته أن يتبرع لمعابد مصر في السنوات الثلاث الأولى من حكمه تقريبا بما ينيف على أربع مائة وسبعة وثمانين ألف رطل فضة، ولما أضيف هذا المقدار الى ما تبرع به من الذهب بلغ المجموع خمسمائة وستين ألف رطل من المعدنين النفيسين^(٤)، وتعتبر هذه الهبات أعظم برهان على الغنى وبجوحة الحياة بالقطر المصري في مبدأ الحكم الليبي. وأراد أوسركن أن يدعم حكمه بامارة إهناس فشيده

(١) ٤-٧٢٣ (١) (٢) ٤-٧٨٢ (٣) ٤-٧٢٢-٧٠٩ (٤) ٤-٧٢٩-٣٧

قلعة حصينة عند مدخل الفيوم^(١)، واتبع سياسة والده فعين ابنه رئيسا لكهنة آمون بطيبة، وقد توفي له نجلان عينا في هذه الوظيفة وأخيرا عين نجله الثالث المدعو شيشنق أيضا في هذه الوظيفة عينا . وقد ظهر هذا النجل بمظهر الأبهة والجلال ونجل لنفسه الألقاب الفرعونية واحتفظ بمركز رئيس كهنة آمون لابنه^(٢) . وفي سنة ٨٩٥ قبل الميلاد توفي أوسركن بتل بسطه فورثه في الملك ابنه تاكلوت الأول (Takelot) . فلما اعتلى الأخير العرش وجد أخاه شيشنق بطيبة قويا شديدا البأس معاديا له ، ثم توفي تاكلوت الأول بعد مدة يسيرة فتبعه في الملك ابنه أوسركن الثاني الذي بسط نفوذه على طيبة ثانيا وأصلح التلف الذي أصاب معبد الأقصر أثر فيضان النيل العظيم وقتئذ^(٣) . ويستدل من دعوات منقوشة على تمثال لأوسركن الثاني بتتيس أن حالة مصر الداخلية كانت وقتئذ خطيرة للغاية ، فقد جاء في هذه الدعوات أن جلالة تضرع الى المعبود ليخلد ذريته في الحكم ويمنحهم السلطة على رؤساء كهنة آمون رع ملك المعبودات وعلى رؤساء المشواش العظام أو كهنة هرسافيس (Harsaphes)^(٤) ، وهؤلاء الآخرون هم أمراء لبيون استوطنوا إمارة إهناس واليهب ينتمى أوسركن الثاني . ومما جاء أيضا في هذه الدعوات العبارة الآتية ترجمتها :

”اجعل أولادى في الوظائف التى عينتهم بها . ولا تجعل قلب أخ يكبر ويعظم على قلب أخيه“^(٥) ، ومنها يستنتج أن أفراد الأسرة الحاكمة كانوا يومئذ منشقين بعضهم على بعض ومتنافسين ، وأن قواد الجنود المأجورة كانوا دائما على استعداد لإثارة الفتن اذا أصابهم حيف أو رأوا في أنفسهم القوة الكافية لتحسين مركزهم .

ولا جدال في أن الحكام الليبيين تطبعوا تماما بالطباع المصرية ، بغد شيشنق الأول دفن ابنه بالعراية واتبع العادات المصرية نحو الموتى فوقف على قبر ابنه الخيرات على حسب ما تقتضيه الديانة المصرية^(٦) . وبالرغم من احتفاظ الحكام الليبيين بأسمائهم الأصلية فانهم حافظوا على الألقاب والعادات الفرعونية التى ألفها المصريون لمدة تقرب من ألف وخمسمائة سنة . أما القواد الليبيون فحافظوا على ألقابهم الليبية (كرئيس المشواش الأكبر) ، وقد اختصر هذا اللقب بعد ذلك فورد على الآثار بكثرة كرئيس مى (Me) الأكبر . وعبد الليبيون المعبودات المصرية وقدموا لها القرابين كالمصريين^(٧) وذلك رغم أنهم من البربر وأنهم شديداو المخالفة للمصريين . وليس أقوى برهانا على تطبع هؤلاء القوم بالطباع المصرية من الحوش العظيم الذى شيده أوسركن الثاني بتل بسطه احتفالا بمرور ثلاثين عاما على تعيينه وليا لعهد الملكة المصرية جريا على عادة المصريين الأقدمين^(٨) ، لكن هذا لا ينسيتنا الخطر الداخلى الذى أخذ يهدد الليبيين فى تل بسطه ، فأخرج كثيرا من مركزهم . وأشرك أوسركن الثاني ابنه شيشنق الثانى معه فى الحكم لكنه لم يعيش طويلا^(٩) فأشرك معه ابنه الآخر تاكلوت لمدة سبع سنوات توفي بعدها فورثه تاكلوت وذلك عام ٨٦٠ قبل الميلاد ، وعرف هذا بعدئذ بالملك تاكلوت الثانى .

(١) ٨٥٣ : ٤ (٢) ٧٣٨ : ٤ (٣) ٧٤٢ : ٤ — (٤) ٧٤٧ : ٤ (٥) شرحه
(٦) ٦٦٩ : ٤ ملاحظة (٧) ٧٨٢ : ٤ — (٨) ٧٤٨ : ٤ — (٩) ٦٩٧ : ٤ رقم ١٣ ر ٧٧٢

من هذا التاريخ أخذت الأسرة الثانية والعشرون تضمحل تدريجاً كما يشاهد ذلك على آثار أمارة طيبة التي تظهر بوضوح ما حصل بين حكام أقسام القطر وقتئذ من مشاحنات واضطرابات . من ذلك أن رئيس كهنة آمون المدعو أوسركن لما وصل الى طيبة في السنة الحادية عشرة من حكم تاكوت الثاني نقش على جدر الكرنك أعماله وعطاياه للعبد باسمه الخاص^(١) . لكن بالرغم من محاولته إرضاء أهل طيبة وكهنتها وما صرفه عليهم من الهبات والعطايا بمعبد تلك العاصمة الدينية فإن أهالي طيبة قاموا عليه قيامة انتشرت بعد ذلك في الوجه القبلي والبحري هرب على أثرها هذا الرئيس الكهنوتي ولم يرجع الا بعد مضي عدة سنوات أمضاها في حرب وتزاع حتى اصطلع مع بعض أعوان والده ، وبذلك تمكن من الرجوع الى طيبة وسط أسطول نيل عظيم . عند ذلك قابله تمثال آمون في احتفال عظيم ثم أصدر أمره اللاهوتي بالعفو عن أهالي طيبة لما أتوه من ثورة وعصيان . وبعد ذلك قام رئيس الكهنة بالإصلاحات والترميمات لمعبد آمون .

هذه المعلومات وردت مدققة باختصار بين نقوش رئيس كهنة آمون المذكور على جدر الكرنك^(٢) وهي تشير الى أن حكم الثلاثة الملوك الليبيين الآخرين الحاكمين من تل بسطة كان مشحوناً بالانقلابات والاضطرابات مدة مائة سنة تقريباً . وقد تلفت تل بسطة تماماً فلم نعرفها على أخبار تتعلق بهؤلاء الملوك . وللاحظ أن الاضطرابات الداخلية لم تنحصر وقتئذ على ما أوردناه سابقاً بل تعدت ذلك ، فإن إمارتي إهناس وطيبة تشاحتا أيضاً بعضهما مع بعض ، كما تشاحن أيضاً بعض القواد الأجانب بالوجه البحري مع بعض^(٣) ، وهكذا أصبح القطر المصري وقتئذ في حالة أشبه بما كان عليها أيام الممالك لما كانت الضرائب تفرض على أهالي كل بقعة وتجي بالقوة فيثور القوم ثم يمتشق الحسام بمعونة الجنود المأجورة فيرجع الأمن الى نصابه . ومن المؤكد أن نفوذ مصر بفلسطين وقتئذ انعدم . ودلتنا الآثار أن ظهور مملكة نينوى الغنية العظيمة أفزع أحد ملوك تل بسطة ، وهو تاكوت الثاني على الأرجح ، فأرسل هذا ألف مقاتل مددا الى اتحاد آسيا الغربي لمقاومة آشور ، لكن هذا الاتحاد وضعفه شالمنصر (Shalmaneser) الثاني جهة قرقار (Qarqar) على نهر الأورونط وذلك عام ٨٥٤ قبل الميلاد .

ولم نهند للآن الى معرفة نوع العلاقة التي ربطت الثلاثة الملوك الآخرين الذين حكموا في تل بسطة بعد تاكوت الثاني . أما هؤلاء الملوك الثلاثة فهم شيشق الثالث وپمو (Pemou) وشيشق الرابع ، والظاهر أنهم لم يرتبطوا بصلة ما يتاكوت الثاني ، والمعروف عنهم أنهم احتفظوا بمنف وطيبه وأن أسماءهم وجدت فوق بعض الآثار في عدة جهات بالقطر . وقد هشم هؤلاء الملوك آثار مصر العظيمة بقسوة شديدة ، فطم شيشق الثالث تمثال رمسيس الثاني الضخم الذي كان بتنيس واستعمل أجزائه أحجاراً لتشييد صرحه العظيم بتنيس . ولا حاجة بنا أن نذكر أن أمراء الوجه البحري سعوا في الاستقلال بالحكم في عهد هؤلاء الملوك ، وأن عدداً كبيراً منهم قطع علاقته السياسية معهم قبل وفاة شيشق الرابع آخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين (حوالي عام ٧٤٥ قبل الميلاد) .

(١) ٧٥٦ : ٧٠ — ٧٦٣ : ٩ — (٢) ٧٩٠ : ٤ (٣)

ولما توفي شيشنق الرابع ظهر بالدلتا أمير يدعى پدبست (Pedibast) بسط نفوذه على الأمراء الآخرين وانتزع الحكم من ملوك تل بسطه ، وقد اعتبره مانيتو مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين . قال مانيتو ان هذه الأسرة الجديدة حكمت من تيس لكن اسم پدبست يشير بلا مرء الى تل بسطه عاصمة الأسرة المعزولة ، زد على ذلك أن هناك أسبابا تجعلنا نحكم بأن پدبست حكم من تل بسطه كما سيأتى الكلام بعد ، وعليه فلا يبعد أن تل بسطه كانت عاصمة القطر وقتئذ . والمعروف أن پدبست قبض على ناصية الحال بطيبة حتى السنة الثالثة والعشرين من حكمه ، لكنه ورد أنه اضطر في السنة الرابعة عشرة من حكمه أن يقسم الحكم هناك مع أحد حكام شرقى الدلتا المدعويوت (Yewepet) (١) .

وبدار التحف بشينا درج بردى فيه حكاية تشير الى حدوث قلاقل واضطرابات داخلية كالمذكورة ، سببها أمراء مصريون مثل پدبست ويوت . ومما جاء فيه أن أمير تى الأميد المدعوكا استنحبت (Kaamenhotep) ناضل أمير عين شمس الأجنبي المدعويو (Pemou) لأن الأخير استولى على درع حديدى ثمين ملك الأول . وقد عجز پدبست عن حقن الدماء بين أمراء الدلتا الذين أخذوا ينتمون الى أحد هذين الأميرين على حسب ما تراءى لهم (٢) .

ولما تولى أوسركن الثالث الملك بعد پدبست أخذت داخلية القطر تسوء فانقسمت البلاد الى عدة إمارات صغيرة مستقلة من الوجه البحرى شمالا الى الأشمونين جنوبا . وقد اهتمت لنا الآن الى أسماء ثمانية عشر أميرا (٣) تقاطلوا ، قدهورت مصر وانقسمت البلاد بذلك الى عدة أقسام صغيرة كما كانت عليه قبل حكم الأسر ، أى قبل انشاء حكومة ثابتة وطيدة بالقطر المصرى .

لذلك شلت القوة المصرية وانعدم وجودها فلم يعد فيها رجاء لمساعدة بنى اسرائيل ضد آشور . والحق يقال ان نبوءات أنبياء بنى اسرائيل وقتئذ عن مصر لم تكن فى حاجة الى كثير تفكير لأن ضعف القطر المصرى وانحلاله كانا واضحين جليين .

وبلغ من شدة انشقاق أمراء مصر بعضهم على بعض أنه لما اقتربت جنود تجلات پليسر (Tiglath-pilaser) الثالث الآشورى من حدود مصر فيا بين عامى ٧٣٤ — ٧٣٢ قبل الميلاد عجز هؤلاء الأمراء عن اسداء أى معاونة لبنى اسرائيل ، كما أنهم لم يفكروا مطلقا فى قرب ميعاد مجىء جيوش آشور وجواز عبورهم الصحراء الفاصلة مصر عن فلسطين واحتمال ضم مملكة وادى النيل الى آشور . ولكن شاء القادر أن يعتلى عرش مصر قوم أجانب آخرون قبل أن تضرب آشور ضربتها القاضية على بلاد القراءة الأماجد .

(١) ٧٩٤ : ٤ و ٨٧٨ ر ٢

(٢) Wiener Zeitsch. für die Kunde des Morgenlandes, XVII, sequel to Mitth. aus der Samml. der Pap. Erzherzog Rainer, VI, 19 ff.

(٣) ٧٩٦ : ٤ ملاحظة ر ٨٣٠ و ٨٧٨



شكل ١٨٠ - "حفلى إبراهيم" اسم لمكان جنوا في
وارد في قائمة شيشي الأول على جدار الكرك وهذا
النص هو أقدم ذكر لاسم إبراهيم في الآثار



شكل ١٨٢ - شاهد حجرى لملك بسامتيك الأول
وجد بالسرايوم مذكور عليه تاريخ وفاة العجل
أليس وذلك في السنة الحادية والعشرين من عهد
بسامتيك الأول . وكان عمر هذا العجل احدى
وعشرين سنة وتاريخ ميلاده السنة السادسة
والعشرون من حكم طهراته



شكل ١٨١ - شاهد حجرى سنجرول
لأشور أخى الدين يمثل هذا الملك
قابعاً على بعل مدينة صور وعلى طهراته
الجاني على ركبته . وتساهد على الأخير
ملاحم الزوج (دارتحف بولس)

الفصل السادس والعشرون

سيادة إتيوبيا على مصر وانتصار آشور

استمرت مصر تحكم النوبة مدة تزيد على ألف وثمانمائة سنة . أما ما بين الشلالين الأول والثاني فبقى تحت الإدارة المصرية مدة تقرب من ألف سنة . وقد تقدم القول الى أن تلك البلاد انصبغت بالصيغة المصرية تماما فشيء بكل مدينة فيها معبد مصرى عظيم وعبدت بها المعبودات المصرية فى عهد رمسيس الثانى . وبالرغم من محافظة أهالى النوبة على لغتهم فان اللسان المصرى صار اللغة الرسمية وقتئذ بتلك البلاد وازداد انتشارا بين الأهالى بزيادة هجرة المصريين اليها .

منذ ذلك الحين فقه النوبيون الى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها خصوصا لما رأوا المصريين يثرون أعلى النوبة الحصبة ويستقلون مناجم الذهب بأسفل النوبة . زد على ذلك أن موقع بلادهم الجغرافى على الطريق التجارى العظيم بين مصر والسودان أوضح للنوبيين مع الأسباب السالفة عظم شأن بلادهم فأخذوا يبحثون عن حقوقهم الشرعية فيها . وليلاحظ أن الغارات العرضية التى شنها زنوج إفريقيا وغربى الصحراء الشرقية على النوبة لم تؤثر مطلقا فى نمو البلاد ورفقها اقتصاديا .

والمعروف أن شيشنق الأول حافظ على النوبة^(١) كما ورد أن رئيس كهنة آمون فى النصف الأخير لحكم تاكلوت الثانى وهب الى آمون ذهب النوبة^(٢) ولذلك يرجح أن إقليم الشلالات استمر تحت النفوذ المصرى حتى منتصف حكم الأسرة الثانية والعشرين (أى حوالى سنة ٨٥٠ قبل الميلاد) . وقد ذكرنا فيما سبق أن النوبة كانت على اتصال تام بطيبة ومعبد آمون مدة طويلة من الزمن ، مثال ذلك أن معبد آمون كان صاحب الحق فى مناجم الذهب النوبية التى سميت وقتئذ "أرض آمون الذهبية" ابتداء من نهاية حكم الأسرة التاسعة عشرة . وفى أواخر الأسرة العشرين أصبح رئيس كهنة آمون حاكما على النوبة . وفى عهد الأسرة الحادية والعشرين كانت الإمارة الدينية بطيبة تشغل هذه الوظيفة الرفيعة أيضا^(٣) . بهذه الطريقة أخذ حكام طيبة يسيطرون نفوذهم على النوبة مائة سنة منذ أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد . بعد ذلك وضع المصريون يدهم بقوة على ذلك الإقليم مائتين وخمسين سنة . ولبعد النوبة عن مصر اتخذت منفى للعصاة وذلك فى عهد الأسرة الحادية والعشرين التنيسية لما أبعدوا اليها أمراء طيبة المنافسين لهم والذين أفرجوا عنهم بعد ذلك . وفعل تاكلوت الثانى^(٤) هذا العمل أيضا مع ثوار طيبة ثم عفا عنهم بناء على طلب آمون . من هذا يتضح أن شلالات النوبة كانت حاجزا حصينا لكل من يتجسس اليها من طائفة كهنة طيبة وأفراد أسرهم فرارا من قسوة وعسف المصريين .

(١) ٧٦٤ : ٤ ملاحظة

(٢) ٧٩٦ : ٤

(٣) ٧٧٠ : ٤

(٤) ٧٢٤ : ٤

وبما أن مثل هذا الفرار لا يسجل عادة على الآثار نستبعد حصولنا على معلومات بصدده . والمعروف أنه في القرن الثامن قبل الميلاد ظهرت في أفق التاريخ بالنوبة مملكة كاملة عاصمتها نبتة (Napata) الواقعة أسفل الشلال الرابع بقليل . وبديهي أن نبتة كانت حصنا من حصون حدود مصر الجنوبية أيام أمنحتب الثاني — أى قبل العصر الذى نحن الآن بصدده بسبعائة سنة تقريبا — وقد كانت قبل ذلك الوقت محطة تجارية عظيمة على الطريق الموصل مصر بالسودان ، لذلك كانت نبتة أبعد المراكز في المملكة المصرية وأمنها من هجمات الشمال .

وللاحظ أن المملكة النوبية المذكورة جاءت مطابقة تماما لما ذكرناه عن أصلها فقد كانت بمثابة صورة طبق الأصل لإمارة آمون الطيبة وكان آمون معبود هذه المملكة الرسمى شديد التدخل في شؤون حكومتها بخطبه الخاصة وبدرجة فاقت تدخله في مصر حتى صار يعزل الملوك ويولى غيرهم ، ولا يخفى أن مثل هذا النظام حصل تدريجيا . واعتقد اليونانيون خطأ أن إثيوبيا سبب حضارة مصر لأنهم شاهدوا كهنة مصر كثيرى الاعتبار والإعجاب بالنوبة . ومما هو جدير بالذكر أيضا أن ملك إثيوبيا نحل لنفسه جميع الألقاب الفرعونية " كسيد القطرين " مع أنه لم يحكم مصر ، كما أنه أطلق على نفسه اسما مصرية ، لكن ذلك لم يدم طويلا لأنه استبدل به بسرعة اسما نوبيا صميا وبقي الاسم الرسمى الملكى والألقاب الفرعونية مستعملة مدة طويلة . وشيد ملوك إثيوبيا معابدهم على الطراز المصرى وزينوها بالرسوم المصرية والنقوش الهيروغليفية وقدموا فيها قرابين وهدايا كما فعل قدماء المصريين . ثم انهم زخرفوا جدر المعابد بالدعوات كمعبد طيبة ، فثبت بذلك بلا مرأى أن هذه المملكة النوبية مصرية الأصل مصبوغة بالصبغة الطيبية . وبالرغم من ذلك فهناك بعض الأثرين لا يشاطروننا هذا الاستنتاج .

وأول من عرف من ملوك هذه المملكة هو كاشتا (Kashta) ويرجع تاريخه الى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد^(١) . ولا نعرف شيئا من حكم هذا الملك ولا منتهى نفوذه شمالا . والظاهر أن پيعنخى (Piiankhi) نجل هذا الملك حكم حوالى عام ٧٤١ قبل الميلاد وأخذ يستعمر مصر . وسواء أكان هذا صحيحا أم غير صحيح فالثابت أن پيعنخى استولى حوالى عام ٧٢١ أو ٧٢٢ قبل الميلاد على صعيد مصر حتى مدينة إهناس جنوبى الفيوم ووضع جنوده النوبية في المدن المهمة . وفي هذا الوقت كانت سلطة أوسركن الثالث المستوطن بتل بسطه متحصرة في إمارته ومحاطة بأعداء كثيرين من أمراء الوجه البحرى أهمهم تفتنخت (Tefnakhte) أمير صا الحجر غربى الدلتا^(٢) .

وفي السنة الحادية والعشرين من حكم پيعنخى بلنه أن تفتنخت أخضع كل أمراء غربى الوجه البحرى كلهم وشاطئ الصعيد الى مدينة بنى حسن وبسط نفوذه أيضا على أمراء شرق الدلتا ووسطها فأصبح بذلك ملكا على جميع الوجه البحرى والجزء الأسفل من الوجه القبلى .

(٢) الكلام التالى مأخوذ من حجر پيعنخى (٤ : ٧٩٦ - ٨٨٣)

(١) ٤ : ٩٤٠

ولم يقاومه في الوجه القبلى الا إمارة إهناس التى أشرنا الى قوتها وسلطانها ، فحاصرها تفنخت
بجنوده وبامدادات حربية من أمراء الدلتا تحت قيادتهم الشخصية، فانضح ليعنخى وقتئذ أن ميزان
القوى بالوجه القبلى اضطرب فصمم جلالتة أن يستدرج عدوه جنوبى مستنقعات الدلتا الحصينة
الصعبة .

بعد ذلك بلغ يعنخى أن ناملوت (Namlot) أمير الأشمونيين سلم الى تفنخت فأرسل يعنخى
جيشا قويا تحت قيادة ضباط الى الجهات الشمالية بقصد وقف تقدم تفنخت جنوبا وحصار
الأشمونيين . فنفذ جيشه هذه الأوامر . ثم أرسل الملك جيشا ثانيا الى الشمال لمساعدة قواته هناك
فوصل الى مدينة طيبة ثم سار شمالا فتقابل مع أسطول تفنخت النيل واشتبك الفريقان في معركة
حربية انتهت بهزيمة المصريين وأسركثير من سفنهم ورجالهم . بعد ذلك زحف النوبيون شمالا متبعين
في سيرهم بحر يوسف (على الأرجح) حتى بلغوا مدينة إهناس فوجدوا قوات تفنخت منهمكة في حصارها
فهزموا تلك القوات واضطروها للفرار شمالا برا وبحرا . وقد فز جنود تفنخت الشماليون عن طريق
بحر يوسف فاقتنى أثرهم الجيش النوبى في الصباح التالى واضطروهم للفرار الى الدلتا .

وكان ناملوت منضما الى قوات تفنخت فلما انهزم هذا الأخير انفصل عنه وصمم على الذهاب الى
الأشمونيين مدينته والدفاع عنها ضد النوبيين . فبلغ هذا الخبر القوات النوبية فعادت هذه ثانية عن
طريق بحر يوسف الى الأشمونيين وحاصرتها .

ولما بلغت يعنخى هذه الأخبار استشاط غيظا خصوصا لما علم بهرب جيش الوجه البحرى
الى الدلتا . ولما كان وقتئذ آخر السنة عزم جلالتة على الاحتفال بعيد رأس السنة في بلده ثم الذهاب
الى طيبة للاحتفال بها بعيد أوبت وذلك في الشهر الثالث ثم الزحف شخصيا على مصر . في أثناء ذلك
كان قواد النوبيين يستولون على مدن مصر الواحدة تلو الأخرى وأهم هذه المدن اليهنسه (Oxyrhyncus)
ولم تقاومهم الا مدينة الأشمونيين التى استمرت في عنادها كثيرا .

ونفذ يعنخى خطته السالفة فزحف يجنده شمالا في أوائل السنة واحتفل بعيد أوبت بطيبة
في الشهر الثالث ، ثم ولى وجهه شطر الشمال وسار نحو الأشمونيين فوجد جنده يحاصرونها مدة أربعة
أشهر أو خمسة، وشدد جلالتة عليها الحصار وأمطرها وابلا من السهام والمجارة من فوق الاستحكامات
والبروج حتى تصاعدت الروائح الكريهة من موتاهها فأخذت تسلم الى جلالتة . وأراد أميرها أن يرضى
قلب يعنخى نحوه فأرسل اليه هدايا ثمينة ضمنها تاجه الملكى لكن يعنخى كان صلب الرأى فأرسل
ناملوت زوجته الى زوجة يعنخى لتسترحه لزوجها وتيجحت هذه الحيلة وسلم ناملوت على أثرها المدينة
وجميع خيراتا الى الفاتح النوبى نظير السماح له بالبقاء حيا . بعد ذلك تفقد يعنخى قصر ناملوت
وخزائنه وتفقد الخليل فراها جائعة فقال جلالتة ”أقسم برع الذى يحبنى لئن أرى خيلى جائعة ليكون
هذا أصعب على من كل جرم تركبه“ (١) . بعد ذلك سلم ناملوت كل أملاكه الى خزائن يعنخى
وأمون المقدس .

ووصل بيعنخى الى إهناس بعد ما ذاقت الأمرين من حصار تفتخت لها نفج أميرها المدعو بف نف دبست (Pefnefdibast) وحيا بيعنخى ومدحه كثيرا على تخليصه من تفتخت. ثم زحفت القوات النوبية بحرا بطريق بحر يوسف الى الدلتا واستولت في طريقها على المدن المهمة الغربية التي كانت تسقط بمجرد رؤية بيعنخى . ولم تتجاسر مدينة على مقاومة النوبيين الا مدينة كيان فارس في الفيوم (Crocodilopolis) ومنه استنتجنا أن بيعنخى عدل خط سيره فزحف غربا مارا باللاهون بمضيق الفيوم ولم يذهب الى مدينة أطفيج (Aphroditopolis) شرق النيل والبعيدة عن الطريق الموصل الى ميدوم وإتوى ومنف . وقدم ملك النوبة القرايين لكل مدينة مرّ بها وأخذ معه كل ثمن لتقديمها الى خزانة آمون .

ويلغ بيعنخى منف فوجدوها محصنة جيدا بقوات تفتخت الذى اعتبرها جزءا من مملكته منذ زمن بعيد والذى اعتبر نفسه كاهن معبودها الأكبر بتاح ، فطلب بيعنخى من المدينة أن تسلم نفسها لكنها أقفلت أبوابها ثم قامت حاميتها بحركة هجوم خارجا فلم تتيج . فبقى الليل ودخل تفتخت المدينة وحث حاميتها على الدفاع والاعتماد على جدرها ومثوتها الكثيرة وارتفاع مياه فيضان النيل شرق المدينة . وطلب من جنده هناك أن يستمروا على الكفاح حتى يذهب شمالا ليحضر اليها امدادات أخرى .

ولما وصل بيعنخى شمالى منف دهش لثانة حصونها ، فأشار عليه حينئذ بعض ضباطه أن يحاصرها وحيد الآخرون المهجوم والاستيلاء عليها عنوة وذلك باقامة استحكامات وطرق خصوصية . لكن بيعنخى صمم أن يهجم عليها عنوة بلا استحكامات وابتكر لذلك فكرة صائبة تشهد له بالبراعة فى الفنون الحربية . وتفسير ذلك أن جلالة لاحظ أن سور المدينة الغربى رفع عن مستواه حديثا وأن السور الشرقى مهمل نوعا ومحاط بمياه الفيضان . أما ميناء البلد ففى جهتها الشرقية وفيها سفن الأسطول مثبتة بجدر المنازل نظرا لارتفاع منسوب المياه وقتئذ . فأرسل بيعنخى أسطوله بسرعة الى الميناء واستولى على سفنها عنوة وضماها الى أسطوله ثم قاد هذه القوة البحرية بنفسه وهاجم أسوار المدينة الشرقية وتسلفها رجاله فاستولوا على المدينة قبل أن يتمكن أهلها من تعزيز حصونها . بعد ذلك حصلت فى المدينة مذبحه عظيمة روعيت فى أنثائها حرمة المعابد واتهت بنبذ تفتخت بواسطة المعبود بتاح والاعتراف ببيعنخى ملكا على مصر كما كان متظرا .

هكذا خضع إقليم منف بأجمعه الى بيعنخى وعلى أثر ذلك أتى أمراء الدلتا الى جلالة بالهدايا معترفين له بالسلطة والسيادة ، وجزأ جلالة خيرات منف بين خزائن آمون وبتاح . ثم عبر النهر وأدى الصلاة بمعبد قديم بجهة نحرى بابل (Kheraha-Babylon) ثم اتبع الطريق المقدس من هناك حتى بلغ مدينة عين شمس حيث استراح بمرفقها . وجاء فى أخبار جلالة الرسمية أنه دخل قدس الأقداس بمعبد عين شمس وهناك اعترف به رع بأنه ابنه من سلالته الجالس على عرش مصر كالمادة المتبعة منذ حكم الأسرة الخامسة . ووفد على جلالة فى ذلك المكان أوسركن الثالث (أمير تل بسطة)

المتسمى الى الأسرة الثالثة والعشرين وقدم الطاعة ليعنخى واعترف له بسيادة النوبة على مصر . ثم زحف يعنخى الى شرق بنها (أتريب) بالقرب من مدينة تعرف باسم كهني (Keheni) وهناك أقبل عليه أمراء الدلتا مظهريين له الولاء والخضوع وكان عددهم خمسة عشر أميرا وهم أوسركن الثالث (وكان موجودا من قبل) والأمير يويت المسيطر على اقليم تلت رمو (Tentremu) بشرق الدلتا والمشارك سابقا مع يدبست سبق أوسركن الثالث في حكم طيبة وتسعة أمراء مسيطرين على أقاليم تمي الأمديد (Mendes) وسمنود (Sebennytos) وسفط الحنة (Saft el-Henneh) وأبو صير (Busiris) وحسبكا (Hesebka) (وهي القسم الحادى عشر للوجه البحرى) وبغور يوبوليس (Phagroriopolis) وخريحا بابل (Khreha-Babylon) وغير ذلك من مدن الدلتا المجاورة التى لم نعرف مواقعها للآن بالضبط . بعد ذلك حضر قائد قوات الأشمونين الأجنبي المدعو بارقا (Parva) ابن أمير تمي الأمديد وكذا كاهن المعبود حوريس الذى أسس إمارة وسم (Letopolis) كما أسس كهنة إهناش الأسرة الثانية والعشرين . وامنازين هؤلاء الأمراء أمير بنها المدعو پديس (Pediase) فأظهر احتراماً واکراماً عظيمين ليعنخى ودعاه لزيارة بنها واضعاً كل أملاكه تحت تصرف جلالة ، فذهب جلالة على أثر ذلك الى بنها وتسلم هدايا پديس مختاراً لنفسه أجودها ، ثم دعاه الأمير لتفقد اصطبلات أجود خيله لعلمه بحب يعنخى للخيول . وسمح يعنخى هناك لأمراء الدلتا بالذهاب الى أقاليمهم (الا أمير بنها طبعاً) واحضار الهدايا لجلالته ليتباروا في ذلك مع ما قدمه پديس .

أما تفنخت البأس فتحصن في مدينة صغيرة مجهولة المركز تعرف باسم مسد (Mesed) يظن أنها على حدود قسم صا الحجر . وخاف تفنخت من وقوع سفنه وخيراتها في أيدي النوبيين فخرقها فأرسل يعنخى قوة حربية الى مسد فتكت بحاميتها كلها واضطر تفنخت اثر ذلك أن يلجأ الى جزيرة بعيدة بأحد أفرع النيل الغربية حيث تفصله عن يعنخى أميال عديدة من المستنقعات والترع فكانت كأنها محصنة . ثم أرسل تفنخت من هناك هدايا ورسالة الى يعنخى أظهر له فيها الخضوع وطلب منه أن يرسل رسولا من قبله يذهب معه الى معبد مجاور يخاف فيه يمين الطاعة لجلالته ، فسر يعنخى من ذلك كثيراً وهكذا اعترف تفنخت بسلطة يعنخى طائعا مختاراً . ثم ظهر أمير الفيوم وأمير أطفيج (Aphroditopolis) (اللذين لم يتعرض لهما جلالته بأذى وقت زحفه شمالاً) واحضرا معهما الهدايا ليعنخى ، فأصبح هذا الأخير فرعون مصر النوبي الذى خضعت له جهات القطر كلها والذي نزع الملك من أيدي الليبيين ، وبعبارة أخرى أضفى يعنخى حاكم مصر المطلق .

وتشرف أمراء الوجه البحرى بزيارة يعنخى لآخر مرة ثم شئن جلالته سفنه بالهدايا والغنائم العظيمة قاصدا حاصمته الجنوبية في وسط نحيات الأهالى وهتافهم العالى .

لقد أطلنا الكلام على هذه الغزوة لأنها تظهر لنا بأجلى وضوح أحوال مصر وقتئذ وهى سنة طبيعية لتزريق شمل مصر كلها ضعفت سلطة حكومتها المركزية وزاد نفوذ حكام أقسامها ، ومثل هذه الظروف تنتهى غالبا باستقلال الأقسام واغتصاب العرش .

ولما وصل پيعنخى نبته نصب بمعبدها شاهدا جرانيتيا بديعا ^(١) نقش على جهاته الأربع أخبار هذه الرحلة تفصيلا ، وأظهر نفسه فيه كإبن آمون ومذل أعدائه الشماليين ، ويعتبر هذا الوصف أتقن وأصح بيان تاريخي وحربي قديم بعد أخبار حروب تحوتمس الثالث ووصف معركة كدش لمسيس الثانى . ويتضح من وصف الحجر المذكور أن حالة مصر كانت سيئة للغاية . ولما كان النص الهيروغليفى المكتوبة به نقوش هذا الحجر خاليا من الأسلوب الجاف المتبع عادة فى مثل هذه الظروف فإن القارئ يجد سهولة عظيمة فى فهم ومتابعة معانى الأثر وإدراك أفعال أشخاصها ، كما تتضح له أيضا شهامة پيعنخى وجبه للتحيل وظهوره بمظهر الرجال خلافا للعادة القديمة التى تظهر الملوك بمظهر الآلهة . وهذا الحجرانيتى هو مرجعنا الوحيد وأصل معلوماتنا عن غزوة پيعنخى للقطر المصرى .

لم يخضع تفتخت لپيعنخى الا اسميا لأنه ترقب رحيل ذلك النوبى ليجدد عداؤه ، فأنشأ فى الوجه البحرى مملكة مستقلة ونحل لنفسه الألقاب الفرعونية وبقي حاكما على أمراء الدلتا ثمانى سنوات كما فعل أسلافه وقت حكم الأسرة الثانية والعشرين . وكان تفتخت هذا معاصرا لآخر أيام الأسرة الثالثة والعشرين المستوطنة تل بسطه والتى يرجح أنها خضعت لإرادته وحكمه .

والمعروف عن تفتخت أنه كان رجلا عظيما ذا ميزات كثيرة على أمراء الوجه البحرى ولذلك رفع منزلة صا الحجر كثيرا . فلما توفى ورثه فى الملك ابنه بوكوريس (Bocchoris) مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين الصاوية وذلك حوالى عام ٧١٨ قبل الميلاد .

أما فى الصعيد فقد استمر حكم پيعنخى مبسوطا مدة قصيرة أقام فى أثنائها بعض عمارات طغيفة بمعبد موت بطيبة ونقش رسوما تمثل أسطوله فى النيل مبديا فرحه بالانتصارات التى حازها على الأراج فى الجهات الشمالية ، وتشاهد بين وحداته سفينة تفتخت الصاوية الرسمية التى أسرت فى تلك الحرب ، ومنه يتضح أن نفوذ پيعنخى استمر باقيا على صعيد مصر الى مدينة إهناس . ودلتنا النقوش السالفة أن حاكم إهناس كان قائد الأسطول النيلى لپيعنخى ^(٢) .

وطمع پيعنخى فى خيرات آمون فحاول الاستيلاء عليها بطريق شرعى ، فعين أخته وزوجته المدعوة أمنارديس (Amenardis) بدل ابنة أوسركن الثالث المدعوة شپ نوبت (Shepnupet) أميرة طيبة الدينية وقتئذ ^(٣) ، والظاهر أن هذه الحيلة لم تكن الأولى من نوعها لجواز تعدد حصول أمثالها سابقا . ولما انسحبت قوات پيعنخى اجتهد أوسركن الثالث فى إرجاع سلطة أسرته الثالثة والعشرين فبسط نفوذه على طيبة مدة يسيرة وأشرك معه فى ذلك حاكما يدعى تاكلوت الثالث . والظاهر أن حكم پيعنخى وما قام به من الأعمال حصل فى عهد أوسركن الثالث . لكن أمراء صا الحجر أخذوا ينافسون تل بسطه فى الحكم فاعتصب بوكوريس بن تفتخت الصاوى عرش مصر السفلى حوالى عام ٧١٨ قبل الميلاد وأسس بذلك الأسرة الرابعة والعشرين ، وصار بعد ذلك الملك الوحيد لهذه الأسرة بقدر

(١) ٩٤٠ = ٤

(٢) ٨١١ = ٤

(٣) ٨٨٣ - ٧٩٦ = ٤

ما تسمح لنا به معلوماتنا عن تلك العصور . أما الآثار المصرية فلم تفدنا كثيرا عن حكم هذا الملك القصير وكل ما وصل إلينا هو لوح حجرى وجد بالسرانيوم يرجع تاريخه الى السنة السادسة من حكم بوكوريس أقيم وقت الاحتفال بدفن نور آليس بتلك المقبرة^(١) . وجاء في رواية يونانية لا شك في صحتها أن هذا الملك كان عادلا مجتهدا في تنقيح القانون ساهرا على الحق بكل قواه ، ولا غرامة في ذلك فأحوال البلاد الداخلية وقتئذ كانت سيئة للغاية تتطلب أمثال هذه المجهودات . ومن غرائب تاريخ هذا الملك ما ورد في قرطاس بردى مؤرخ في السنة الرابعة والثلاثين من حكم الامبراطور الرومانى أوغسطس من أنه في السنة السادسة من حكم الملك بوكوريس نطق كبش متنبئا بغزوة آشور لمصر قائلا ان المحن ستظل حالة بمصر تسعمائة سنة^(٢) ، ويعتبر هنا التنبؤ آخر ما عرف من مثله في التاريخ القديم ، أما أقدم تنبؤ ورد لنا من هذا القبيل فهو ما أشرنا اليه سابقا لما تكلمنا على إپور (Ipuwer) أيام المملكة الوسطى^(٣) . وعلق ما يتو على حادثة هذا الكبش أهمية كبيرة واعتبرها شيئا مدهشا في تاريخ الملك بوكوريس .

لا يخفى على القارئ أن مصر ظلت محكومة بأمرأاء الأقسام العديدين مدة تزيد على قرن ونصف تقريبا . ويدهى أن انحلال السلطة المركزية الحكومية صحبه اضطحلال عظيم في المالية فانعدمت بذلك تجارة مصر مع البلاد الأجنبية وانحطت الزراعة والصناعة وأصبحت موارد الخيرات في أيدي الأمراء يبترونها لأغراضهم الشخصية . ثم أخذت أنظمة الزراعة تتلف تدريجا وكذا الطرق والجسور وانعدم الأمن في المدن والحقول وهكذا انتقلت موارد ثروة البلاد من سبيء الى أسوأ . ويدهى أنه لا ينتظر أن نثر على اثبات تاريخي لهذه الأحوال لعدم جواز تسجيل مثل ذلك وقتئذ ، ونحن نستنتج ما قلناه مما لحق القطر في العصور التالية . وأصدق رواية لذلك ما جاء بالكتاب المقدس عن حال مصر وقتئذ ، فقد جاء في الاصحاح التاسع عشر من سفر أشعيا ما يأتي :

(١) وحى من جهة مصر . هوذا الرب راكب على مخابة سريعة وقادم الى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها .

(٢) وأهيج مصريين على مصريين فيحارب كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه مدينة مدينة ومملكة مملكة .

(٤) وأغلق على المصريين في يد مولى قاس فيتسلط عليهم ملك عزيز يقول السيد رب ابلخنود .

(١٠) ان رؤساء صوعن (تنيس) أغبياء . حكماء مشيرى فرعون مشورتهم بهيمية .

(١٣) رؤساء صوعن (تنيس) صاروا أغبياء . رؤساء نوب (نبته ؟) اتخذوا . وأضل مصر وجوه أسباطها .

- (١٤) منج الرب في وسطها روح غنى فأضلوا مصر في كل عملها كترنخ السكان في قبته .
 (١٥) فلا يكون لمصر عمل يعمله رأس أو ذنب ، نخلة أو أسلة .
 بديهي أن هذا الوصف لا يمكن أن يؤتى بأصدق منه دقة ومثانة .

في أثناء هذه الاضطرابات الداخلية أخذ فن الحفر في مصر يتقدم في طريق جديد بدرجة مدهشة . ومثل هذا التقدم في الفنون الجميلة حصل في أيام الاضطرابات في عهد أسرة مديسي في إيطاليا فعم هذا التقدم إيطاليا عموما وفلورنس خصوصا حتى استرعى الألباب . ثم ان القارئ الذي يتبع تاريخ الماليك بمصر يجد أن عهدهم المصحوب بقوضى اضطرابات وجنات من قتل وسلب وحيف عمومي بأنحاء القطر ، كان أيضا مقرونا بتقدم عظيم في عمارة المساجد . والحقيقة أن العمارات النوبية تحدث الناس بجمالها وقبوتها . ففي ظروف كهذه في العصر الذي نحن الآن بصده تقدم فن الحفر تدريجيا حتى بلغ أعظم درجاته في عهد الاصلاح الذي تلاه بعد مضي خمسين سنة تقريبا ذاقت مصر في أثناءها مرارة حكم الأجنبي وعسفه . وبديهي أنه لم يبق من هذه العمارات الا القليل كالحلقل الصغير الذي شيده أوسركن الثالث بطيبة حيث يحوى رسوما بارزة لا ينقصها الا رقى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى تصبح أعظم وأرقى ما تخرجه أيدي الصناع الشرقيين .

في ذلك الوقت عصفت ريح التغيرات الأسبوية المذكورة آنفا بسرعة وصارت مصر من أجلها محفوفة بأعظم المخاطر . وتفصيل ذلك أن مملكة الفرات القوية بذلت جهدها لتحفظ بسيادتها على غربي آسيا . وقد ألمعنا سابقا أن نسوبانبد الذي يرجع تاريخه الى حوالى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد كان أول فرعون تيسى أرسل الهدايا الى تجلات پليسر الأول لما اقترب هذا الأخير من حدود مصر . وبعد مضي مائتين وخمسين سنة تقريبا أمدة فرعون مصر اتحاد ولايات آسيا الغربية بمساعدة حربية لسحق قوى شالمنصر (Shalmaneser) الثانى جهة قرقار (Qarqar) وذلك حوالى عام ٨٥٤ قبل الميلاد . فلما أتى دور تجلات پليسر الثالث فى الحكم بأشور جمع موارد مملكته وشن الغارة على غربي آسيا فأخضع سوريا وفلسطين فيما بين سنة ٧٣٤ وسنة ٧٣٢ قبل الميلاد ووصلت جنوده الى حدود مصر . وقد سقطت وقبوت مملكة دمشق العرامية فأصبح غربي آسيا تابعا لأشور بأجمعه . وتوفى تجلات پليسر الثالث فتبعه فى الملك شالمنصر الرابع الذى حكم مدة قصيرة ثار فى أثناءها بنو اسرائيل وغيرهم بمساعدة ملك سوا (Sewa or So)^(١) ، الوارد ذكره فى الآية الرابعة بالإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثانى . ولا يبعد أن يكون سوا هذا أحد أمراء الوجه البحرى المجهولين أو حاكما لولاية موصرى (Musri) شمالى بلاد العرب واسمها شيبه باسم مصر ، ولذلك حصل كثير من سوء الفهم لنصوص تلك الأزمنة ، ولا يبعد أن يكون قد وقع فى هذا الخطأ كتاب النصوص المسمارية السابقة الذكر . وقاومت مدينة السامرة (Samarria) عدة سنوات قبل غزوة آشور ، لكن لما جلس سرجون (Sargon) الثانى العظيم عام ٧٢٢ قبل الميلاد على عرش آشور بعد شالمنصر الرابع استولى على هذه

المدينة ثم نفى رؤساء بني اسرائيل فلحققت الأمة اليهودية وقتئذ الذلة والمسكنة ، وفي تلك اللحظة أيقن أمراء مصر الصغار بمعجزهم عن مقاومة آشور فأوقدوا نار الثورة والاضطراب ضد آشور في ولايات سوريا وفلسطين لجعلها حائرا بينهم وبين آشور . وفي سنة ٧٢٠ قبل الميلاد ظهر سرجون لثمة الثانية غربى آسيا وأخضع ثورة هناك كانت لمصريد فيها على الأرجح ، ثم أكل انتصاره شمالا ثم زحف جنوبا نحو ريف (Raphia) حيث هزم جنود أعدائه وكانت بينهم وحدات مصرية تحت قيادة الضابط سبى (Sabi) (١) . وهذه هي المرة الثانية لوصول الآشوريين الى حدود مصر ولذلك أيقن أمراء مصر وقتئذ بالمهالك . والظاهر أن تجلات بليسر الثالث وسرجون الثانى لم يستويا على مصر لما لهذه الأخيرة من التاريخ القديم المجيد ، كانت آشور في أثنائه تقدم الهدايا لمصر رغبة في التخلص من حكمها . لكن حالة مصر الداخلية السيئة أصبحت أظهر من أن تكتم فانقلبت الأحوال السياسية عندئذ . وجاء في نصوص آشور أنه في عام ٧١٥ قبل الميلاد أرسل فرعون مصر (يرجح أنه بوكوريس) هدية عظيمة الى سرجون الثانى طالبا بذلك رضا آشور وتحويل مطامعها عن القطن المصرى (٢) . وبعد ما مضى على رجوع بيعنخى الى النوبة عشر سنوات أخذ ملوك نبتة يسترجعون سلطتهم على الوجه البحرى الذى كان في حالة بؤس وشقاء . والمعروف أنه لما توفى بيعنخى ورثه في الملك أخوه شاباكا (Shabaka) الذى اقترن بابنته (٣) فصار له بذلك حق شرعى في السدة الملكية علاوة على حقه الطبيعى من حيث مولده . ولم نهند الى أخبار تاريخية مصرية تثبت غزو شاباكا لمصر ، لكن ما يتوذر أن هذا الملك أحرق بوكوريس حيا وبسط نفوذه على الوجه البحرى بأجمعه وقوى مركزه حتى أسس الأسرة الخامسة والعشرين الإيتوبية . واتضح لشاباكا خطورة مركز مصرزاء آشور فأرسل الى سوريا وفلسطين من أوقد الثورة ضد آشور ، ووعد ولاية سوريا بالمساعدة اذا هم ثاروا على سيدهم التينوى ، فانصاع له ولاية يهوذا (Judah) وموآب (Moab) وإدوم (Edom) (٤) ، ارتكانا منهم على مجد مصر القديم جاهلين انحطاطها الداخلى وقتئذ ومؤملين التخلص من الحكم الآشورى الشديد . ولم يفقه من هؤلاء الولاية خطورة الحالة الا النبي السياسى أشعيا حاكم ولاية يهوذا ، فقد أكد أن الاعتماد على مصر لا طائل تحته لأنه اعتقد أن آشور ستستولى على مصر يوما ما (٥) . ولما علمت آشور بهذه المخالفة ضدها أدركتها بسرعة فانفك المتحالفون وأظهروا ولائهم لها في الحال . وقد نجح سرجون في توطيد مركزه رغم ثورات بابل واضطرابات الأقاليم الشمالية ، ثم توفى عام ٧٠٥ قبل الميلاد فتبعه في الملك ابنه سناشريب (Sennacherib) فوجد نفسه حاكما على أول مملكة سامية معروفة لنا في التاريخ مدعمة الأساس قوية الأركان .

ولما تولى سناشريب الملك اشتبك في انحداد اضطرابات بابل المعتادة التى سببها أحد أمرائها المدعو مردوق بالدين (Mardukbaliddin) . وتفصيل ذلك أن هذا الأمير طالب بعرش بابل وسبب لوالد سناشريب متاعب جمة ، فلما عجز عن بلوغ مآربه أرسل رسله الى أعداء آشور الغربيين

Winckler, Ibid., p. 94. (٢)

Winckler, Unters. zur Altoriental. Geschichte, p. 92. (١)

أشعيا : ٢٠

Winckler, Ibid (٤)

(٣) ٩٢٠ : ٤

يخرجهم على الثورة والعصيان ، فانصاع اليه ملك صور النسيط المدعو لولي (Luli) وحزقيال (Hezekiah) ملك يهوذا وأمراء إدوم وموآب وعمون (Ammon) ورؤساء العرب المجاورين لهم . بهذه الكيفية انضمت جميع مستعمرات آشور الآسيوية الغربية بعضها الى بعض ، ثم دخلت مصر هذا التحالف وقزقوارهم أخيراً على محاربة نينوى . لكن قبل أن يبدأ هذا التحالف هجومه ظهر سناشريب بغاة الغرب مارا بفينيقيا مستولياً على قلاعها ما عدا صور ثم زاحفا جنوباً على مدن فلسطين العامة ، فماقب عسقلون على عصيانها ثم زحف على ألتاكو (Altaqu) حيث التقى بجيش التحالف الذي جمعه شاباكا من الولاة الشماليين الذين عبر عنهم سناشريب بملوك موصري ، ولم نهدل لأن الى معرفة عدد هؤلاء الجنود وقتشد لكن سناشريب وصفها بأنها تفوق الحصر ، والمحتمل أنها لم تكن قوية جداً . أما الجنود المصرية التي اشتركت في المعركة فلم تكن بأى حال من الأحوال جديرة بقتال جيش آشور لعدم وجود السلطة المركزية بالفطر ولتفرق كلمة أمراء الوجه البحرى وعدم اعتنائهم بأمورهم الحربية . أما الجيش الآشورى فكان مدترىاً محنكاً لدرجة جعلت آشور الشغل الشاغل فى آسيا الغربية .

والحق يقال ان الجيوش المصرية لم تلتق للآن مع جيوش آشور فى معركة كبيرة . أما الامدادات التى أرسلتها مصر الى سوريا وفلسطين ضد آشور فكانت ضعيفة لا يعابها . ولما التقت القوتان السالفتا الذكر كان سناشريب يقود شخصيا قواته ، وكان طهراقه (Taharka) ابن بيعنخى^(١) موكلًا من شاباكا لقيادة القوات المصرية . ولصيرورة طهراقه فيما بعد ملكا على إثيوبيا نعتة اليهود فى هذه المعركة بملك^(٢) . ويذهبى أن المعركة التى دارت رحاها انتهت بهزيمة المصريين كما هو متظر ، وقد تم هذا بسرعة ، ثم عقبه حصار بيت المقدس وتخريب مقاطعة يهوذا . بهذه الكيفية وقف سناشريب كل مشاحنات الغرب وشتت شمل أعدائه . وبينما هو يحاصر بيت المقدس فشائين قواته وباء ذريع أتى اليهم من مستنقعات الدلتا الموبوءة بالملا ريا لحصد من جيش آشور عددا عظيما . وفى أثناء تلك المحنة وردت على سناشريب أنباء سيئة من بابل تفيد حصول اضطرابات خطيرة هناك ولذلك أسرع الى نينوى قبل أن يستولى على بيت المقدس . وهنا تحققت نبوءة أشعيا بنجاة هذه المدينة وقد طلتها بعد ذلك رواية مقدسة بمساعدة ملاك السيد الرب .

ولا يخفى أن رجوع سناشريب جاء بمثابة انفراج للمكربة الحالة ببيت المقدس ومصر معا . ولا بد أن القارئ قد فقه الآن أن جيش آشور وصل للرة الثالثة الى حدود مصر ثم رجع ثانيا مضطرا لظهور حوادث اجبارية لم تكن فى الحسبان . أما فلسطين وسوريا فقد انعدمت تقتهن باثيوبيا حتى صموا آذانهم عن كل مشروع أشارت به هذه الأخيرة عليهم ، والسبب فى ذلك أنهم عرفوا حقيقة الحال كما عرفها الاسرائيليون قبلهم ، ودليلنا على ذلك ما جاء بخطاب ضباط سناشريب الذى أرسلوه لنواب بيت المقدس التمساء واليك ترجمته :

”لقد اتكلت على عكاز هذه القصبة المروضعة ، على مصر ، واذا توكل أحد عليها دخلت فى كفها وتقيتها . هذا هو فرعون مصر وهذا شأن المتكئين عليه“^(٣)

ويظهر أن شابا كا ظل حاكما أمراء القطر المصري طول حياته ، ويرجح أنه اتفق مع سنشاريب في مخالفة بديل وجود ختمى هذين الملكين يحاور أحدهما الآخر على قالب لبن جهة كيونجيك (Kuyunjik) . وأظهر شابا كا عطفًا ومساعدة نحو طائفة الكهنة والمعابد . ومن مآثر هذا الملك ترميمه لنقوش دينية قديمة على جدر معبد بتاح^(١) تعتبر الآن أهم القطع الأدبية القديمة المعروفة ، ثم أرجع أخته أمنا رديس في وظيفتها السابقة بمعبداً من بطييه بعد ما طردها أوسركن الثالث لمدة قصيرة . ثم اتحد مع أخته هذه وشيد معبداً بالكرك وأرسل لذلك بعثة لقطع الحجر اللازم من محاجر وادي الحمامات . وتوجد بطييه نقوش تشير إلى إصلاح شابا كا للمعابد هناك^(٢) ولذلك يظهر أنه أظهر عطفًا واحترامًا للمعابد مصر كما فعل خراعتة مصر قبله . أما أمنا رديس فحكمت في طييه مستقلة استقلالاً كبيراً . والظاهر أنه بالرغم من المساعدة التي أسداها شابا كا لكهنة مصر فإنه شل نفوذ رئيس كهنة طييه كما سيجيء الكلام على ضعفه وعجزه بعد .

وتوفي شابا كا عام ٧٠٠ قبل الميلاد بعد ما حكم اثنتي عشرة سنة تقريباً ، ويرجح أنه حكم أطول من ذلك في النوبة . وتبعه في الملك نوبي يدعى شاباتاكا (Shabataka) لا تزال نجعل علاقته بالبيت المالكي النوبي بالضبط ، رغم ما أورده مانيتو من أنه ابن شابا كا ، وقد سماه مانيتو تاريخه سبيكوس (Sebichos) . وبقي شاباتاكا حاكماً في هدوء وسكينة لأن مستعمرات آسيا الغربية بقيت ساكنة لا تتحرك ضد آشور ، زد على ذلك أن سنشاريب كان مشغولاً في حروبه مع مستعمراته الشرقية . ولم نعتز الآن على اسم شاباتاكا على الآثار المصرية إلا نادراً ، وإنما يستدل من الحوادث التي تلت حكمه أنه كان ضعيفاً غير كفء لمكافأة أمراء أقاليم مصر وجمع قوتهم كي يستعد لقتال آشور الذي كان ينتظر حصوله آناً قاتناً .

لقد وضح للبيان أن الإثيوبيين ليسوا أكفاء لاستلام مقاليد الحكم ، وقد زاد هذا وضوحاً في أواخر حكم شاباتاكا الذي انتهى حوالي عام ٦٨٨ قبل الميلاد .

ويجدر بنا في هذا المكان أن نستقصي أخبار الأمير طهرافه بن بيعنخي الذي ترك نبتة شابا بالف من العمر عشرين سنة وتوجه إلى مصر مع الملك شابا كا على الأرجح — (٣) فنقول : ان طهرافه هذا ابن امرأة نوبية وتبدو على وجهه ملامح الزواج . والحق يقال ان هذا الأمير قام بأعمال عظيمة تناسب علاقته ببيعنخي ، من ذلك ما ذكرناه آنفاً من أنه قاد الجيوش المتحدة ضد سنشاريب . أما كيفية جلوس هذا الأمير على العرش فلا تزال مجهلة لكن مانيتو أخبرنا أنه قاد جيشاً جراراً من إثيوبيا وقتل شاباتاكا ثم اغتصب العرش الفرعوني . أما الآثار المصرية فلم يعثر على ما يشير إلى مثل هذا الانقلاب فيها ، وكل ما وجد على آثار تيس أن الملك طهرافه طلب من أمه أن تحضر إلى مصر من نبتة بعدما غاب عنها عدة سنوات ودعاها لتسلم مركزها السامي بمصر كالأم الملكية^(٤) . من ذلك يستنتج أن المصريين كانوا في انتظار غزوة آشور للدلتا وأن الإثيوبيين اتخذوا تيس حاصمة لقرىها من آشور .

(١) راجع سابقاً صحيفة ٢٣٦ (٢) ٨٨٩ و ٨٨٦ : ٤ (٣) ٨٩٥ و ٨٩٢ : ٤ (٤) ٨٩٢ : ٤ - ٦

واستمر طهرافه يحكم بلا منازع من جهة آسيا لمدة ثلاث عشرة سنة شيد في أثنائها عمارات صغيرة بتيس ومنف وأخرى أكبر حجما بطيبة ، وأيقن قرب هجوم آشور عليه فأخذ يمدد عتته لذلك . وللاحظ أن آسيا الغربية مضى عليها حوالي عشرين عاما لم ترفها سناشريب الذي قتله أولاده عام ٦٨١ قبل الميلاد . بعد ذلك تولى ابنه آشور أنخى الدين (Esarhaddon) الملك فأخذ يستعد لغزو مصر والقضاء على فرعونها كي يستريح من تدخلها المستمر في شؤون مستعمراته الفاسطيدية والسورية ، فوصل يمحشه العرمرم الى حدود الوجه البحري عام ٦٧٤ قبل الميلاد^(١) وهناك التقى بقوات طهرافه الذي كان أكثر شجاعة واقداما من سلفيه . ودارت رحى القتال بين الطرفين وانتهى الأمر بفوز المصريين على آشور كما ورد على الآثار عام ٦٧٣ قبل الميلاد .

بعد ذلك أخذ آشور أنخى الدين يستعد طي الخفاء لغزو مصر . وفي ذلك الوقت انضم بعل ملك صور الى المصريين ضد آشور ، وذلك على أثر علمه بهزيمتها الأخيرة على الأرجح ، وفي عام ٦٧٠ قبل الميلاد ظهر آشور أنخى الدين ثانيا في غربي آسيا قائدا جيشه وحاصر صور وانضم اليه بعض العرب فدلوه على طريق الصحراء الى مصر ، وقد استخدم جماله لمجلى مياه الشرب وقت اختراق الطريق . بعد ذلك التقى بمجنود طهرافه الذي لم يكن مستعدا جيدا لهذا الكفاح ، فدارت رحى القتال بين الطرفين وانتهت بفوز آشور وتمزيق شمل المصريين . على أثر ذلك تقهقر طهرافه نحو منف لكن آشور أنخى الدين تتبعه بشدة وبسرعة لا تعرف الملل فاستولى على منف وسلبها من كل ثمين ، ثم فر طهرافه جنوبا تاركا الوجه البحري في أيدي آشور أنخى الدين الذي نظمه وضمه الى أملاكه . وذكر آشور أنخى الدين أسماء عشرين أميرا عينهم ملوك النوبة على الدلتا وقال عنهم انهم أتوا اليه وحلقوا له يمين الطاعة فسمح لهم بالبقاء في مراكزهم بشرط أن يستمروا مواليين له . وقد لاحظنا أن في هذه الأسماء المكتوبة بالخط المسماري ما يشير الى تكرار بعضها أو الى انتماء بعض هذه الأسماء المتشابهة الى أسرة واحدة ، وقد سبق ليعتق أن عامل أمثال هذه الأمر سابقا كما ألعنا . وجاء بين هذه الأسماء اسم الأمير نيجاو (Neeho) بن تفتخت نعت بأنه أمير صا الحجر ومنف . وورد ضمن هذه القائمة أيضا اسم أمير طيبة لكن هذا القول يستبعد تصديقه لأن آشور أنخى الدين لم يحتفظ إلا بالسلطة الاسمية على الوجه القبلي . ورجع آشور أنخى الدين الى وطنه متبعا طريق الساحل البحري شمالا مارا بصخور نهر الكلب فنقش عليها لوحا أثريا أثبت عليه انتصاراته الحربية ، وهو يجاور الأثر الحجري الذي تركه رمسيس الثاني المذكورة فيه انتصاراته أيضا (شكل ١٥٩) ، ولما بلغ آشور أنخى الدين شمال سنجرلى (Samal or Senjirly) شمالي سورية نصب فيها أثرا عظيما يمثله قابضا على أسيرين يغلب على أحدهما أنه بعل ملك صور وعلى الآخر أنه طهرافه المسكين لما تبدو عليه من ملامح الزنوج (شكل ١٨١) .

وهكذا يتضح للقارئ أن القطر المصري حكاه الأجنبي في عهد النوبيين ثم في عهد النوبيين ثم أتت آشور بعد ذلك فبسطت نفوذها على مصر . وبديهي أن القوة الثالثة الأجنبية متبينة تماما عن

(١) راجع مصادر الغزوات المقبلة لآشور أنخى الدين بكتاب ونكار ، شرعه ، صحيفة ٩٧ - ١٠٦

النسبتيين وأن اللبيين والنوبيين تمصروا وحكوا مصر كأنهم قراعة . أما آشور فحكمت الدلتا من دون مراعاة شفقة أو عطف نحو المصريين وعاداتهم ولذلك لم يحتمل الأمراء المصريون ذلك العسف الآسيوي ، فحنثوا في يمين ولائهم الذي أقسموه لآشور وأخذوا يتحدثون سرا مع طهرافه ليستعيد الحكم في الدلتا ، على أثر ذلك أتى طهرافه الى الوجه البحرى بعد ما رجع جيش آشور الى وطنه ، فاضطر آشور أخى الدين أن يعيد الكرة على مصر ، لكنه توفى في أثناء زحفه عليها عام ٦٦٨ قبل الميلاد . فلما تولى الملك بعده ابنه آشور بانپال (Ashurbanipal) اتبع خطة والده بسرعة وعهد الى أخذ ضباطه بقيادة الحملة الى مصر ، فلما التحمت جيوش آشور مع جيوش طهرافه فيما بين منف وشرقي الدلتا انهزم طهرافه الذى لم يتحصن بعد ذلك بمنف كما فعل سابقا بل فر نحو طيبة حيث تحصن . لكن الآشوريين جمعوا المدد من الوجه البحرى وزحفوا أربعين يوما حتى بلغوا طيبة فاضطر طهرافه أن يغادرها وأن يتحصن بأعلى النيل . عند ذلك لم يتعقبه جيش آشور بل تركه وشأنه . ولم يثبت للآن اذا كانت آشور استولت على طيبة وقتئذ أم لا ، لكن الثابت أن سلطة آشور بانپال لم تمتد الى الوجه القبلى . ولما أراد آشور توطيد نفوذه بالدلتا أخذ ولاته هناك يراسلون سرا مع طهرافه لينقذهم من نير آشور . وكانت هذه العصاية برياسة نيخاو الذى ولاه آشور أخى الدين على صا الحجر وشارولودارى (Sharuludari) والى تيس وباكرورو (Pakruru) ، والى سبط الحنة (Persepet) وأرسلت عيون آشور بمصر خبر هذه المؤامرة الى آشور بانپال فأمر بارسال هؤلاء الرؤساء مصفدين بالأغلال الى نينوى . عند ذلك احتال نيخاو بدهائه حتى استمال عطف آشور بانپال عليه فصفح عنه وأغدق عليه النعم ثم أرجعه الى مركزه بصا الحجر وعين ابنه واليا على أتريب (بها) لكنه أرسل معه موظفين آشوريين لمراقبته . وقد نجحت هذه الحيلة جيدا فلم يظهر طهرافه ثانيا بالدلتا لعدم مساعدة ولاية الوجه البحرى له ، لكنه بالرغم من ذلك قد أُرِخ كهنة بتاح بمنف تاريخ وفاة عجل من عجول آيس سرا باحدى الطرق المحفورة تحت الأرض بمدفن تلك العجول المعروف بالسرايوم فكتبوا عليه السنة الرابعة والعشرين من حكم طهرافه (عام ٦٦٤ قبل الميلاد) (١) .

ومضى على هذه الحال عدة سنوات كان الوجه القبلى في أثنائها تحت سلطة طهرافه الفعلية . أما رئيس كهنة آمون بطيبة فقد أصبح الآن قليل النفوذ ضعيف السلطة ، والسبب في ذلك أن النفوذ كان هنالك في يد شخص يدعى منت ممت (Mentemhet) الملقب "أمير طيبة" أو "حاكم الجنوب ورئيس كهنة مصر" وذلك رغم كونه الرابع في ترتيب طيبة الكهنوتى ، والظاهر أن زهرة طيبة ذبلت وقتئذ . والمعروف عن هذا الأمير أنه كان قويا ثريا صرف أموالا طائلة في إصلاح ما تلف من المعابد بعد الذى أحدثه الآشوريون (على الأرجح) بالرغم من فقر مصر وبؤسها (٢) . واستولى طهرافه على دخل آمون بطيبة بأن عين أخته المدعوة شبنو پت (Shepnupet) بدل الأميرة أنارديس أميرة طيبة الدينية التى عينها بيعنخى بطريقة مماثلة (٣) . ويعزى الى طهرافه أنه شيد أو أصلح معبدين عظيمين بنبته عاصمة إثيوبيا (٤) التى عظمتم وصار لها منزلة كبيرة تتناسب مع مقام مملكتها السامى وقتئذ .

(١) ٩١٧ : ٤ ملاحظة (٢) ٩٠١ : ٤ ملاحظة (٣) ٩٤٠ : ٤ ملاحظة (٤) ٨٩٧ : ٤ ملاحظة

وبعد ما حكم طهراته نحسا وعشرين سنة أشرك معه في الملك ابن شاباكا المدعو تانوت آمون (Tanutamoni) — بدواع إجبارية على الأرجح — وعينه حاكما على صعيد مصر وذلك عام ٦٦٣ قبل الميلاد. والظاهر أن تانوت آمون استمر في طيبه وقتما كان منت محت أمير طيبه محافظا على سلطته هناك. أما طهراته فرجع إلى نبتة متعبا من كفاحه مع آشور واستقر هناك حتى توفي، وذلك قبل أن تنقضي سنة تقريبا على تولية تانوت آمون (أي عام ٦٦٣ قبل الميلاد). عند ذلك أسرع تانوت آمون إلى نبتة وتسلم عرش النوبة^(١). وقبل ذلك بقليل رأى تانوت آمون فيما يرى النائم حلما فسر بأنه سيستولى يوما ما على وجهي مصر^(٢)، فبدأ حال توليته الملك بتحقيق التمام وذلك سنة ٦٦٣ قبل الميلاد. ولعب على مسرح الحياة مثل الرواية التي مثلها طهراته، فلما بلغ الوجه القبلي حيث الأهل بالمديح والتصفيق، لكنه لما بلغ منف قابله قوّات آشور ومدن أمراء الدلتا الوجهين من آشور، فغلب عليهم واستولى على منف^(٣). والظاهر أن نبحا ونصر صريحا في هذه المعركة وقال هيردوت أن ابنه المدعو بسامتيك (Psamatik) فر إلى سوريا، ففرح تانوت آمون بنصره كثيرا وأرسل بعض غنائمه إلى نبتة ليشيد بها معابد جديدة^(٤). أما ولاية الوجه البحري فانهم لم يسلموا بلادهم لتانوت آمون لخوفهم من آشور، فلم يتمكن تانوت آمون من الالتقاء بجيوشهم أو القبض على بلادهم^(٥)، فرجع إلى منف وقابل هناك أمراء الوجه البحري الذين أظهروا له الود والخضوع بشكل لا يفهم منه أنهم قطعوا صلته مع آشور^(٦).

واقصر تانوت آمون على سيادته على الوجه البحري فاتخذ منف مقرا له محققا بذلك منامه، لكن ولاية آشور بالوجه البحري كانوا قد طيروا خبرا على جناح السرعة إلى آشور بانحال في نينوى حلما غادر تانوت آمون نبتة، ولذلك أتى جيش آشور عام ٦٦١ قبل الميلاد إلى مصر وطرده الإثيوبيين من الوجه البحري نهائيا ففر تانوت آمون بشكل مخز إلى الصعيد، لكن الآشوريين تعقبوه حتى طيبه وسلبوا عاصمة القطر فلم يتركوا فيها شيئا إلا سلبوه، فاستولوا مثلا على التماثيل البديعة والأثاث الجميل والأدوات الغالية التي أهداها الأمير منت محت إلى المعابد. وأخذ الآشوريون خلاف ذلك مسلتين فضيتين زاهيتين زنة كل منهما ٢٥٠٠ تالنت (التالنت يقرب من ٥٧ رطلا) كانتا منصوبتين على مدخل أحد المعابد^(٧) وقد نقلوهما إلى نينوى. ومن هذا يتجلى لنا أن معابد طيبه المهمة كانت محتفظة بثروة عظيمة حتى في ذلك العهد. وانتشر بنا خراب طيبه في الآفاق فبقى ثابتا في ذهن النبي ناحوم وقتما تنبأ بخراب نينوى بعد مضي خمسين سنة على هذه المحنة. وإليك نص ما جاء بالكتاب المقدس بسفر ناحوم بالإصحاح الثالث آية ٨-١٠:

” (٨) هل أنت أفضل من نو آمون (طيبه) الجالسة بين الأنهار رحولها المياه التي هي حصن البحر ومن البحر سورها ؟ (٩) كوش قوتها مع مصر وليست نهاية فوط ولوبيم كانوا معونتك . (١٠) هي أيضا مضت إلى المنفى بالسبي وأطفالها حطمت في رأس جميع الأزقة وعلى أشرفها ألغوا القرعة وجميع عظامها تقيدوا بالقيود “ .

(٤) ٤ : ٩٢٩

(٣) ٤ : ٩٢٥-٨

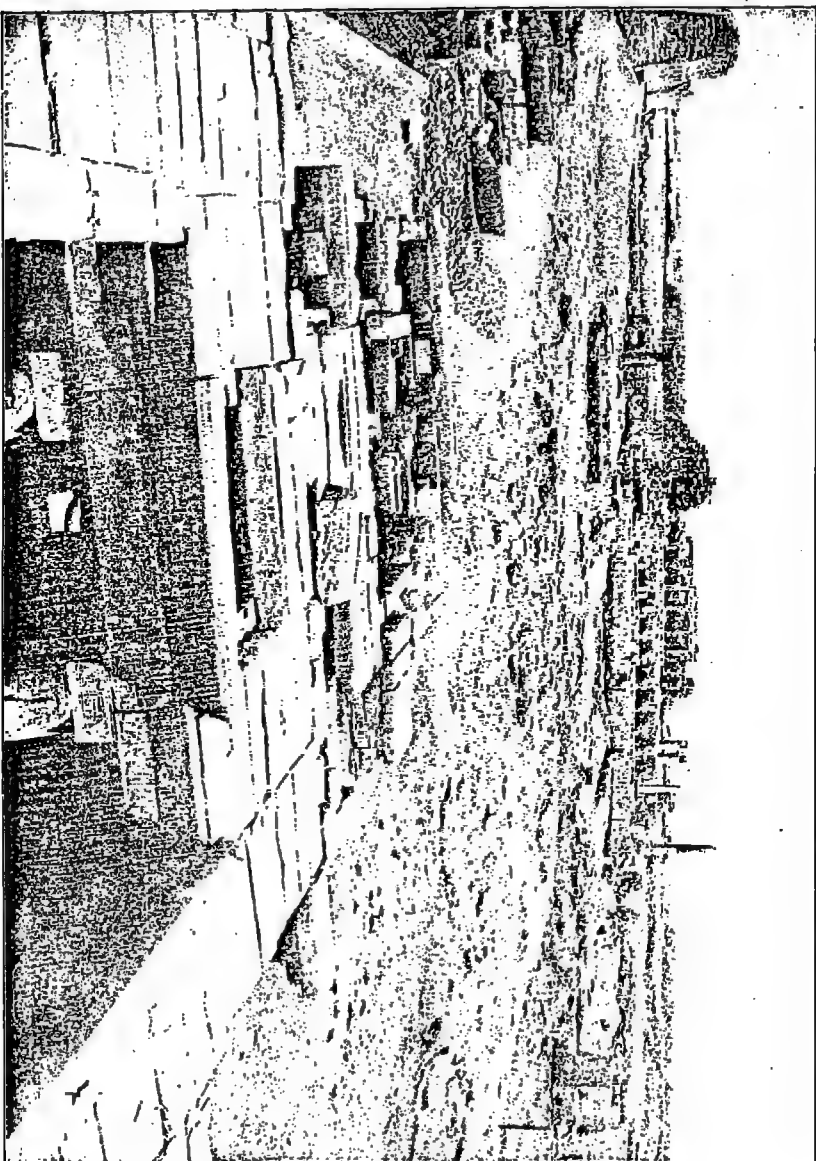
(٢) ٤ : ٩٢٢

(١) ٤ : ٩٢٣ ملاحظة

(٧) Winckler, op. cit.

(٦) ٤ : ٩٣١

(٥) ٤ : ٩٣٠



شكل ١٨٢ - ستر عام لميد الكرك، مأخوذ بآلة التصوير التسمى من جهة الجنوب من صرح معبد خونسو الذي أسسه رمسيس الثالث .
 وتناهد حجر معبد خونسو في الجزء الأعلى الصورة . وتناهد وسط النازل القاعة بقبة يقيها . هي عبارة عن ضوء داخل المبدع عن
 طريق الباب الوارد ذكره في صلب الكتاب في صفحة ٢٥١

منذ ذلك الوقت أخذت طبيه تضحل وتندثر بعد ما كانت مضرب الأمثال في الغنى والجاء ، ولا تزال الى الآن حاوية أعظم الآثار والأطلال من تلك العصور القديمة .

وكان رجوع تانوت آمون الى نبتة نهاية الحكم الإثيوبي بمصر . أما حياة هذا الملك فملوءة بالضعف وقلة الكفاية كأصله . ولا يخفى أن الإثيوبيين بدءوا ملكهم بوسط إفريقية ثم رغبوا في منافسة سياسة غربى آسيا في الوقت الذى كانت فيه آشور مهيمنة على الشرق ، ولم يكن في وادى النيل المساجد التاريخ من يعارضها في الحكم سوى الإثيوبيين الذى لم يحوزوا أقل كفاية في مقاومة ومكافحة آشور . وعجز الإثيوبيون عن ضم سلطة أملاكهم لمملكة آشور وحاولوا كثيرا مقاومتها لكنهم أظهروا في كل محاولة مثالا من الضعف وعدم الكفاية . ونحن لا ننكر أن طهرافه نجح في صد هجوم آشور أخى الدين وحافظ على كيان مملكته مدة يسيرة ، لكن ذلك لم يدم طويلا لأن آشور سرعان ما أرسلت اليه قوة حربية قضت عليه وأقصته بشكل مخز الى أعلى النيل . وقصارى القول أن كفاح آشور في عزها مع إثيوبيا لم يكن بحال من الأحوال كفاح الند للند من حيث المقدرة والقوة والكفاية .

ولما رجع الإثيوبيون الى بلادهم لم يحاولوا الإياب الى مصر بل صرفوا همهم في ترقية النوبة ثم أخذ عدد المصريين في تلك الجهات يقل بمرور الزمن ، فتلاشت تدريجا الصبغة المصرية بها ثم تبدلت البلاد ودخلت في طور البربرية وانتقلت سلطتها تدريجا من الملوك الى الكهنة فأصبحت سلطة الملك اسمية . ثم قويت شوكة الكهنة فكانوا يأمرؤن الملوك أحيانا بالانتحار ويعينون غيرهم بدمهم . وبعد ما كان الملوك يستوطنون نبتة ويشيدون بها العارات ويزينونها اضطر خلفهم أن ينتقل الى أعلى النيل ، ولهذا الانتقال عدة أسباب أولها غزوة بسامتيك الثانى للنوبة في القرن السادس قبل الميلاد . والمعروف أن النوبة أخذت تتسع من ذلك الوقت جنوبا فانضم اليها وادى النيل الأزرق الخصب المعروف عند العرب باسم ألوا (Aloa) فانفصلت بذلك نبتة عن إقليم الشلالات النيلية ، ثم أخذت تجارة النوبة مع الأقاليم الجنوبية تزداد كما كثرت أيضا مستعمراتها بتلك الجهة ولذلك لم يحل عام ٥٦٠ قبل الميلاد حتى كان ملوك النوبة مستوطنين عاصمتهم الجديدة المعروفة عند اليونان باسم مروة (Meroe) .

وبدئى أن انتقال العاصمة جنوبا قطع عنها الصلة بالعالم الشمالى وأدخل إثيوبيا تدريجا عالم الجهل والخيال مع أن اليونان اعتبروها منبع الحضارة .

بعد ذلك امتنع ملوكها من استعمال الخط المصرى القديم واللغة المصرية القديمة فلم تنبغ شمس عهدنا حتى صار أهالى تلك البلاد يستعملون خطا مغالفا للخط الميروغليفى كلية ولأن لم تحل رموز هذا الخط . ولما غزا الرومان تلك البلاد تحطمت أركان المملكة الإثيوبية ولم يمتص على ذلك قرن أو اثنان حتى احتل الأقوام المعروفون باسم بلهيس (Blemmyes) الآتون من الشرق جزءها الشمالى ، أما الجزء الجنوبى فقد احتكرته مملكة الحبش المسيحية التى نشأت حول منابع النيل الأزرق في القرن الرابع بعد الميلاد واحتكرت لنفسها الآن اسم الوطن الأصلى لإثيوبيا .

الكتاب الثامن

دور الإصلاح - النهاية

الفصل السابع والعشرون

دور الإصلاح

يرجح كثيرا أن نبحاوا أمير صا الحجر توفى في كفاح مع ثانوت آمون وأن ابنه المدعو پسامتيك هرب الى الآشوريين كما سبق القول ، وعلى أثر ذلك عينه آشور بانپال أميرا على اقليم والده الأصلي وأضاف اليه أيضا اقليم منف . ومنذ ذلك الوقت صارت مصر في حالة يؤس وخضوع تحت حكم الآشوريين الذين شجعوا هجرة الأجانب اليها ونظموا ترتيب ولائهم .

ومعلوم أن الوجه البحرى كانت تحت رحمة أمرائه الأجانب المأجورين منذ الأسرة الحادية والعشرين . أما الصعيد فلم يكن واضح النظام والتبعية، لكن المعروف أن منت تحت استمر محافظا على سيطرته هناك . وفي وسط هذه الظروف السيئة لم يتصور أحد ما قدر لمصر في عالم الغيب من أيام البشر والسرور في القريب العاجل ، والفضل في فك هذه الكربة يرجع الى پسامتيك الذى بذل كل جهده للاستيلاء على موارد القطر ليحقق بذلك آمال أسرته من الاستقلال بمصر والجلوس على عرشها . ولا غرابة في ذلك فهو من سلالة تفتخت الصاوى الشديد رئيس إمارة صا الحجر في عهد پيعنخى الذى امتاز على كل أفراد أسرته بالقوة والحنكة السياسية كما ظهر لنا من تاريخهم .

وأول خطوة خطاها پسامتيك كانت التخلص من سلطة ولاية آشور بمصر . والظاهر أنه كان عالما بقرب حصول نزاع شديد بين آشور بانپال وأخيه ملك بابل واشترك بلاد. عيلام (Elam) في الأمر . وفي سنة ٦٥٢ قبل الميلاد قامت الحرب المنتظرة فأرسلت بلاد العرب مددها الى بابل ضد آشور فاضطرت هذه الأخيرة الى ارسال جيش قوى لعقابها . ثم حصلت اضطرابات في البلاد شملى نينوى تطلبت ارسال قوات أخرى من آشور لإخضاع أهالى السمييريين (Cimmerians) بقليقيا (Cilicia) واستمرت رحى الحرب الآشورية العظمى دائرة مدة اثنتى عشرة سنة فلم تهدأ إلا في سنة ٦٤٠ قبل الميلاد لما كانت حركة پسامتيك بلغت حدا بعيدا لم يجرؤ آشور بانپال بعد ذلك على ما يظهر أن يخاطر باخضاعها .

لقد ترك لنا اليونانيون عدة حكايات عن عهد پسامتيك اعتبروها صادقة، وهى في الحقيقة تحوى كثيرا من الحوادث الواقعية . من هذه ما رواه هيرودوت عن كيفية جلوس پسامتيك على عرش مصر حيث قال: "أن پسامتيك كان واحدا من اثنى عشر أميرا مصريا اقتسموا مصر فيما بينهم . ففى يوم من الأيام أخبر أحد الكهنة أمراء مصر أن أحدهم لا بد أن يشرب الشراب ذات يوم للتقرب الى

المعبود يتاح في قده من البرز، وبهذا يصير ملكا على الأقاليم المصرية. فلما كان هؤلاء الأمراء مجتمعين للندامة على الشراب تقربا الى تمثال يتاح ولم تكن أقداح الذهب المعروضة بينهم على قدر عددهم اذ كانت تنقص كأسا لسهو حصل من الكاهن المكلف تقديم الأقداح اليهم، فبقى أحدهم وهو إسماتيك بدون قده فتزع مغفّره^(١) من رأسه وكان من البرز وشرب فيه الشراب فذكر رفقاؤه بشرى الكاهن السابق فأكرهوه على أن يساجر الى بعض أجمات الوجه البحري خشية أن يستبد بالملك دونهم . وأقام ببعض الأجمات وبعد وصوله اليها أحضر كاهنا من الكهان وسأله عما سيقع له فأخبره أنه لا بد أن يستبد وحده بملك مصر وأن ينصره على أقرانه رجال من البرز يقدمون عليه من جهة البحر الأبيض المتوسط، فانتظر وعده. واتفق أن ألقت عاصفة بحرية سفنا بتلك الجهة فيها رجال أشداء بن ملأى اليونان (كارين وأيونين) مسلحين بأسلحة من البرز فخرجوا في البر وأخذوا يهبون الوجه البحرى . وتذكر إسماتيك خبر الكاهن فبادر الى الملاحين الوافدين وأكرم تَرْكُم وتحالف معهم على أن ينصروه فدخلوا في خدمته واستعان بهم على شن الغارة على اخوانه فظفر بهم واستبد بالملك وحده .

إذا استئينا ما جاء بهذه الرواية من المبالغات فإن القارئ يجد بها حقائق هامة عن أعمال إسماتيك الأولى . فالأمراء الاثنا عشر هم أمراء الوجه البحرى السابق الكلام عليهم . أما الهنود الأيونيون والكاريون فقد خبرنا عنهم ماير (Meyer) بأنهم أرسلوا من قبل جيجس (Gyges) ملك ليديا الى مصر بقصد الاتفاق معها على التخلص من حكم نينوى بعد ما تحلص من أعدائه السميميين بالتجائه الى آشور سابقا . وجاء في الآثار الآشورية أن هذا الملك أرسل مساعدة حربية الى مصر، وعلى كل فلا بد أن يكون لإسماتيك يد في الاضطرابات ضد آشور وأنه اغتم تلك الفرصة فانتصر على أقرانه أمراء مصر واعلى العرش الفرعونى .

وأُسرع إسماتيك الى لم شعث مملكته ففى سنة ٦٥٤ قبل الميلاد لما كانت الجيوش الآشورية زاحفة على بابل كان إسماتيك قد استولى على طيبة واعترف به متمتحت صديق طهرافه^(٢) ، أما إمارة طيبة فقد تشنت وتفرقت اثر الغزوات الإثيوبية ولذلك لم تعترض إسماتيك هناك اضطرابات أو مشاغبات . وأراد إسماتيك أن يستولى على ما بقى من دخل آمون فعين أخته نيتقريس (Nitocris) بدل شپ نوبت سيدة كهنة طيبة وأخت طهرافه المتوفى . وقد عثرنا على المرسوم الملكي القاضي بذلك وهو النص الوحيد الطويل الذى عثر عليه للآن من آثار إسماتيك الأول . وجاء فى هذا المرسوم أن شپ نوبت تنازلت عن أموالها وأمتعتها الى نيتقريس^(٣) ، ومنه يتضح أن هبوط كهنة آمون كان سرعا، ففى ظرف ستين سنة تقريبا تغير رؤساء كهنة آمون الأقوياء الأشداء واستبدل بهم أميرات مقدسات وهكذا أصبح رئيس كهنة آمون امرأة !^(٤) .

(١) المنغريوزن المبطع زرد يفسح على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ٩٤٩٠-٩٣٧: ٤ (٢)

(٢) ٩٣٩-٩٣٨: ٤ (٤) ٩٨٨: ٤ ملاحظة (د)

إن قضاء إسامتيك على أمراء مصر جاء رحمة ونعمة على القطر الذي كان من أمد يتلظى بنار الفوضى ، وبهذه الكيفية نجحت مصر من حكم هؤلاء الأمراء وأتباعهم الجريبيين الذين يجرؤوا على وطئهم الذل والهوان مدة أربعائة سنة تقريباً ، وصار إسامتيك بفضل هذه الأعمال من أعظم وأكفأ فراعنة مصر . ولقد واجهته مشاكل عديدة خطيرة زيادة على الآفات التي كانت متغلغلة بالقطر من قديم الزمن ، ومع ذلك فقد نجح إسامتيك في حلها وأرجع النظام إلى نصابه ، فساوى إسامتيك في الشرف والمثلة أمتجعت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة وأجمعين الأول طارد الهيكسوس ، وبالرغم من الأعمال التي قام بها إسامتيك فإنه لم يتمكن من استئصال الأمراء كما يدعي البعض لأن بعضهم انغمس إليه فلم ينله الضرر ، وقد عثرنا على أخبار هؤلاء الأمراء على الآثار مثل الأمير منت تحت بطييه فقدة يسمح له إسامتيك أن يبقى حاكماً الجنوب^(١) وكذا أمير إهناس المدعو هور (Hor) القائد فقد سمح له إسامتيك أيضاً بالبقاء في أمارته حيث شيد معبدا عظيماً باسمه بعد وفاة إسامتيك الأول بجبل تقرىبا^(٢) . وعثر على مقبرة بطييه لشخص يدعى پدى امتاوپت (Pediamenemopet) غاية في الجمال والرونق مما يؤكد أن صاحبها كان عظيم النفوذ في مصر في عهد إسامتيك ، ومما يسترعى النظر أن الأمير منت تحت بطييه طلب منه أن يدفع الضرائب إلى نيتقريس كريمة إسامتيك الأول^(٣) . وأهم من هذا وذلك أن منت تحت لم يرثه ابنه المدعو نسوتاح (Nesuptah) بل تبعه رجل يقال له پدى حور (Pedihor) لقب "أمير طييه وحاكم الجنوب"^(٤) . ولا يبعد أن تكون هذه نتيجة سياسة إسامتيك التي كانت ترمي إلى التخلص من نفوذ أمراء مصر ومحو توريث المراكز الحكومية .

يتضح من ذلك أن إسامتيك سمح لبعض الأمراء أن يحتفظوا ببعض نفوذهم ، لكن هؤلاء كانوا قليلي العدد مقيدى السلطة ، بقاء عمله هذا مشابها تماماً لما فعله أمتجعت الأول أيام المملكة الوسطى ، وبهذه الكيفية زال خطر انحلال الأمة المصرية .

وكان من أصعب الأمور على إسامتيك إنشاء قوة حربية ففكر في الأمر فوجد أمامه الليبيين الذين عاشوا بمصر عدة قرون حتى كثرت عددهم وهم كما لا يخفى حربيون لكنهم أصبحوا الآن غديمي الخطر على العرش المصري . وقد غلا هيرودوت في مقدار عددهم والحقيقة أننا لا نزال نجعل ذلك بالضبط كما المعروف عنهم أنهم كانوا مستوطنين بالدلتا . وقد قسمهم هيرودوت إلى قسمين ، قسم يدعى هرموتيبس (Hermotybies) وقسم يقال له كالاسيريس (Calasiries) وهؤلاء لم تستفد منهم الأمة المصرية شيئاً من الوجهة الاقتصادية بل كانوا عتبة كفودا في سبيل إسامتيك ، لذلك لم يجد جلالته بدا من تسليط الجنود اليونانية والكرارية (Carians) عليهم ، وهكذا بعد ما قطعت مصر شوطاً بعيداً إلى مدى في الحياة الجارية أصبحت الآن تستخدم لحمايتها جنوداً أجانب مأجورين تابعين للدول متباينة . وألقب إسامتيك جيشه من يونانيين وكاريين ونسوريين من جهة ، ومن ليبيين وغيرهم من الأجانب

(١) ٩٠٢: ٤ (الآتين) .

(٢) ٥٤٩: ٤ .

(٣) ٩٨٣ - ٩٦٧: ٤ (٢) .

(٤) ٩٩١: ٤ .

المتحصنين من جهة أخرى ، وحشد عسكره الأيونيين والكاريين بالقرب من دفته (Daphnæ) وهي على حدود مصر الشمالية الشرقية التي يخترقها فرع النيل . أما غربي الدلتا فكان محمية بقوة حربية أخرى من هذا النوع بجهة قلعة مريا (Marea) القرية من الاسكندرية . ووضع بسامتيك حامية أخرى بجزيرة الفيل بأسوان لمنع غارات النوبة من الجنوب .

قال هيرودوت أن مائتين وأربعين ألفا من جنود مصر هجرت معسكرها جهة أسوان وعرضت مساعدتها للملك إثيوبيا لاستيائها من لبث ثلاث سنوات بمعسكرها بدون تنقل ، ولا يخفى أن هذا العدد مبالغ فيه كما هي العادة عند هيرودوت ، لكن الرواية في حشد ذاتها تحوى شيئا من الحقيقة لأنها تتشبه مع معلوماتنا عن أحوال القطر في عهد بسامتيك الأول . وقد اختار الملك ألفا من جنود الهرموتيليس وألفا من الكاليسيريس ليكونوا ضمن حرسه الخاص ، أما الجنود الأجانب التي كانت لدى جلالته فكانت كثيرة جدا على حسب ما اقتضته الظروف .

ان رقى مصر وحضارتها في هذا العهد الذي نحن بصدده يختلفان كثيرا عنهما في العصور السالفة . لأن الأمة المصرية فقدت تلك الروح العسكرية التي دبت فيها اثر غزوة الهيكسوس فاستحال على بسامتيك جعلها أمة حربية وصرف مجهوده في توطيد حالة البلاد الاقتصادية ، واتكل لنيل غرضه على الجنود الأجانب المأجورة التي صارت ضرورية لكل حاكم شرقي . لكن بسامتيك كان كثير الاهتمام بإنشاء مملكة حربية بعد ما حسن حالة وطنه الاقتصادية وحشد لها جيشا مصريا عظيما وإن كان معظمه أجنبي الأصل . وبديهي أن دخول العنصر الأجنبي في الجيش كان أمرا لا يمكن التغلص منه . ومعلوم أن الاحتفاظ بجيش كامل في مثل هذه الظروف تطلب ترقية مالية المملكة المصرية بازدياد إيراداتها لأن وجود أحد هذين الأمرين يحتم وجود الآخر . لذلك كان مركز بسامتيك وقتئذ أشبه كثيرا بمركز عمر والخلفاء الأول . وهكذا يتضح أن رقى القطر في مثل هذه الظروف يتعلق كثيرا بكفاية حاكمه ومقدرته في استعمال القوى التي لديه كالجيش والعمال كي ينتظم بذلك دولاب الأمور ويسير نحو النمو والتحسين . ولقد كان بسامتيك اليد المحركة والرأس المدبرة ، أما الأهالي فكانوا يقومون بالأعمال بحرية حيثما يوجههم ، لكنهم كانوا فاقدين الحماسة والغيرة (على عكس ما كانت عليه الحال أيام الخلفاء) . فلما انتظم دولاب الحكومة تبعه عهد الرخاء وانغمس القوم في الرفاهية وعكفوا على التمتع الذي شمل أسلافهم أيام الأسرة الثالثة والعشرين . وبدلا من بذل المجهود في ابتكار الطرق الجديدة لتحسين حال القطر كما فعل أهالي الامبراطورية رجع الأهالي الى اتباع نظام الحكم القديم السابق لعهد الامبراطورية والذي يرجع تاريخه الى ما ينيف على ألف سنة . لذلك عبد القوم ملوك منف الأقدمين وجددوا القربان والهدايا التي كانت توزع على أرواحهم ورموا أهرامهم العظيمة واستعملوا الألقاب والرتب التي تحلى بها أمراء عهد الأهرام في القصر الملكي والحكومة وبدلوا جهذ طاقهم في صبغ حكومتهم بصبغة حكومة أجدادهم الأقدمين . ولم يكتفوا بذلك بل استعملوا الخط الحير وغلنفي في مكاتباتهم وفي احتفالاتهم الرسمية ، ولا بد أن كتابهم لقوا صعوبة عظيمة للرجوع الى ذلك . أما الديانة فقد عمل فيها كل ما يمكن لتطهيرها من العقائد الأجنبية والبدع الحديثة ، فأبطلت عبادة

ست المعبود الأجنبي الذي كان يرمز به للخراب والدمار . وهكذا انفردت الأمة المصرية بنظام عام صعب التغيير كالذى حل بالأمة الاسرائيلية بعد ذلك بقليل . ثم أخذ القوم يستعملون نصوص الأهرام القديمة من جديد وينقشونها على توابيتهم الحجرية الضخمة رغم جهلهم بمعانيها في أغلب الأحيان . ثم نظموا نصوص كتاب الموتى لآخرمرة فصار طوله ستين قدما من الورق البردى ، ومنه تتضح لنا شواهد عديدة لإحياء أدبيات الموتى القديمة . وصار الانسان يشاهد على جدر المعابد والمقابر رسوم أحوال المعيشة في البرارى والحقول وكذا رسوم المعامل ومصانع السفن . وقد أخذت هذه المناظر في الحقيقة من مصاطب عهد المملكة القديمة بدقة يحيل لناظرها من أول وهلة أنها من العهد السحيق ، فقد جاء في الآثار أن رجلا من طيبة يدعى أبا (Aba) أرسل حفاريه الى مقبرة بأسبوط من مخلفات المملكة القديمة ليرسموا له نقوشها على قبره لشبه في اسمه باسم صاحب تلك المقبرة القديمة .

ولا يخفى أن عودة الديانة وأحوال المعيشة والحكومة الخاصة بالعهد القديم لازمتها مصاعب ظاهرة وخفية لأن هذا التغيير شمل حياة القوم وأحوالهم السياسية والاقتصادية ، وهذا أمر لا يحتاج الى بيان لأن التغيرات التي اعترت القوم مدة ألفي سنة بعد المملكة القديمة ليس من الممكن القضاء عليها بسهولة ، ولذلك ترى أنه مع صبغ الأحوال الخارجية بالصبغة الوطنية القديمة فإن الحقائق النابتة الحديثة لا تزال بادية من وراء ذلك الثوب الخارجي ، وهذه الحالة تشابه تماما حالة بنى اسرائيل لما أرادوا الرجوع الى أحوال المعيشة والنظام التي كانوا عليها أيام سيدنا موسى ، فكانت نتيجة هذه المجهودات كلها أن القطر انتعش منها نظريا أكثر منها عمليا . ولم يكن هذا الانتعاش بالصعب في العهد الصاوى لأن المصريين اعتادوا من قديم الزمان أن ينسبوا معظم نصوصهم الدينية وعلاجاتهم الطبية المحبوبة والأمثال والحكم الى عصورهم العتيقة . وبديهى أن هذه النسبة كانت صائبة أحيانا في بعض أمور عهد الامبراطورية ، أما في عهد الأسرة السادسة والعشرين فلم تكن كذلك .

وكان الرجوع الى الذوق القديم في الفنون الجميلة من أصعب الأمور ، والسبب في ذلك أن هذه الفنون ارتقت كثيرا في العهد الإثيوبي فكان الذوق السليم في العهد الصاوى يقظا لكل تغير يعتريه كالذى نحن الآن بصددده . وبالرغم من أن نصوص ورسوم العهد الصاوى كانت تؤخذ من المقابر المصرية القديمة فإن الباحث بعد دقة الفحص والإمعان كثيرا ما يميز رسوم العهد الصاوى من العهد القديم ، والسبب في ذلك أن الأولى تحوى بعض الحرية في اتقان جزئياتها كالتماريح الدقيقة والانحناءات البديعة مما ينقص رسوم المملكة القديمة ، لذلك تجد أن رسوم العهد الصاوى استعاضت عن النقص في النقل سلامة الذوق وطول باع صناعاتها من حيث الاتقان والعناية بدقائق الأجزاء . ويجد الباحث أحيانا أن رسوم الأشخاص في العهد الصاوى مع دقة مراعاتها للأصول المرعية في العهد القديم فانها تحوى أحيانا رسما تنصل فيه راسمه من ذلك القيد كرم الشخص متناسب الكتفين خاليا من تحفظات المملكة القديمة البعيدة عن الصواب . وبديهى أن هذه الحرية في الرسم والكفاية في إظهار تناسق وتناسب أجزاء الصور أعلت كثيرا من متزلة رسوم العهد الصاوى على أمثالها من العهد القديم . ومثل هذا الأمر يشاهد كثيرا في رسوم مقابر العهد الصاوى ، فالناظر إليها يجد

صور الأشخاص مطابقة تماما لصور العهد القديم، لكنه يعثر أحيانا على رسم شخص بخالف لمجاوره ويمتاز عما حوله من الرسوم بتناسب أعضائه واعتدال رأسه وظهور معالم الحياة عليه (شكل ١٨٦). ولم يقتصر هذا التقدم في رسم المسطحات فقط بل شمل أيضا التماثيل والأجسام، ففي هذه الأخيرة نجد الناقد مهارة كبيرة في اظهار معالم الوجه وبروز عظام الرأس وتجايد المحيا بشكل تشريحي دقيق لم يعثر على مثله في أى عصر سابق. لذلك كثيرا ما يجد الباحث شبا عظيميا بين تماثيل هذا العصر وأمثالها في العهد اليوناني، ففي الاثنين تتجسم دقة الصنع ومهارة الإنجاز.

أما صناعة البرنز فقد بلغت في العهد الصاوي متنها من حيث الدقة فقد عمل القوم القوالب الفأرعة للحيوانات الكبيرة (شكل ١٨٥) وللإنسان بشكل بديع ولبسوها بالذهب والفضة وخليط هذين المعدنين (Electrum) مما ينطق لهم بطول الباع في هذا الفرع. وانتشرت صناعة البرنز وقتئذ كثيرا ولذلك تجد معظم آثار البرنز المصرية المحفوظة بدور التحف الآن يرجع تاريخها الى هذا العهد.

أما المصنوعات الأخرى ففاقت أمثالا في أى عهد سابق من حيث الدقة لدرجة جعلت الصناع المصري في ذلك الوقت عديم النظير في العالم، فصناعة الخرف بلغت أعلى أوجها وتوجد منها الآن أنموذجات في جميع دور التحف. ومن الأسف أن عمارات تلك العصور انعدمت تقريبا لكن نستدل من رسوم الحفار المصري أن فن البناء في العهد الصاوي تقدم تقدما عظيما وأن خسارتنا بعدم العثور على شيء منها كبيرة لا تقدر. ويرجح أن عمد معابد البطاسة البدعية الجميلة ترجع في الأصل الى العهد الصاوي.

وفي الوقت الذي كانت فيه الفنون الجميلة تتقدم بسرعة مع المحافظة على مشابها لفنون العهد القديم، كانت إدارة الحكومة أقرب الى النظام الحديث وأقل انصباعا بالأنظمة العتيقة. ولا يزال نجعل أسلوب إدارة الحكومة في العهد الصاوي بالضبط لأن آثار ذلك الزمن الباقية لا تجوى شيئا يذكر من ذلك. أما من الوجهة الجغرافية فالوجه البحري كان دائما مفضلا من حيث الأهمية على الوجه القبلي، لأن التجارة مع العالم الشمال واتصال القطر بالبلدان الشبالية إستلزاما أن تكون للدلتا أهمية تجارية. وقد استوطن بسامتيك هو وخلفاؤه مدينتهم صا الحجر التي اتسع نطاقها وقتئذ وازدادت بالمعابد والقصور على عكس طيبة التي فقدت منزلتها السياسية والدينية، فاستدل من ذلك أن وادي النيل أصبح تابعا في إدارته وكل شؤونه للوجه البحري.

سبق أن ذكرنا أن وراثته المراكم الحكومية أبطاه بسامتيك الأول لكنه سمح لبعض أمراء مصر الأقدمين مثل ميت حت أمير طيبة بالاحتفاظ بمراكزهم طوال حياتهم فقط. وفيما عدا ذلك كانت أراضى القطر كلها ملكا للملك يسخر فيها الأهالي بشرط أن يدفعوا له ٢٠٪ من إيراداتها. أما طائفتا البكينة والجنود فكانتا مغفوتين من الضرائب. وربما كان نظام الحكومة وقتئذ شبيها بنظامها في عهد الإمبراطورية، ويتلخص ذلك في وجود إدارة مركزية يتبعها موظفون لجمع الضرائب وتنفيذ نصوص القانون. والظاهر أن الموظفين نحلوا لأنفسهم ألقابا قديمة لا تتشى تماما مع أشغالهم.

الرسمية ، وأن ترتيبهم وتمرينهم كانا على تقيض ما كان عليه كنية الامبراطورية لجعلهم غالبا بالخط الهيروغليفي القديم ، والسبب في ذلك أن كنية العهد الصاوي استعملوا اختزال الخط الهيراطيقي (الذي ظهر من العهد الإثيوبي) لسهولة كتابته وكثرة موافقته للأعمال الادارية والتجارية ، وقد سمي هذا الخط المختزل وقتئذ بالخط الديموطيقي ولا يزال يعرف بهذا الاسم الآن . واستعمل القوم الخط الديموطيقي في كتابة لغتهم بالأسلوب الدارج وقتئذ واقتصروا في استعمال الخط الهيروغليفي على النصوص القديمة التي يرجع تاريخها الى عدة قرون سابقة ، وبديهي أن مثل هذا الاختزال الكتابي صحبه اصلاح وتغيير في نظام الحكومة . أما من الوجهة الاجتماعية فكان القوم ينقسمون الى عدة طوائف على حسب المهنة ، لكن هذا التقسيم لم يكن واضح الحدود ولا تام الانفصال كما هي الحال في التاريخ المصري القديم .

كان الكهنة الصاويون أكثر نجاحا في الرجوع الى العادات والاعتقادات القديمة من طائفة الموظفين ، والحق يقال ان الفضل في اصلاح ذلك العصر يرجع الى الكهنة . ولا يخفى أن المركز الديني انتقل من مقره الأصلي كما انتقل المركز السياسي لأن طيحه فقدت أهميتها الدينية العظمى وفاقمتها مدن الوجه البحري مثل صا الحجر وبوتو وأتريب (بها) من حيث ثروة المعابد . وتختلف طبقة الكهنة الصاوية عن نظيرتها في المملكة القديمة بامتيازها وانفراد وحدتها وانتقال وظائفها بالوراثة لأفرادها ، ولما كانت هذه الطائفة موضع احترام الرعية اقتضت ضرورة السياسة أن يبرج الكهنة في محبوبة النعم ويعيشوا في كنف الحكومة . والمعروف أن هذه الطائفة لم يعد لها نفوذ سياسي كأيام الامبراطورية لكننا مع ذلك نجد على الآثار ما يناقضه ، فخذ مثلا ما ورد من أن الحكومة انتزعت من أمير طينه (القرية من العراية) دخله القديم من الواحات ومعبر النهر وأضافته الى دجل المعبود أزوريس^(١) . والظاهر أن الحادثة جاءت مستثناة لأن العادة كانت على عكس ذلك كما سيتضح للقارئ فيما يلي ، والسبب في ذلك أن القوم اعتقدوا أن الآلهة لا تحيا من جديد ثم استثنوا من هذه القاعدة أزوريس الذي امتاز بشدة تعلق الأهالي به . أما زوجته إزيس فقد عظم اعتبارها في نظر القوم حتى أصبح لها مذهب خاص ماد عليها في العصور التالية بتبجيل واحترام عموميين . ومن التغيرات الدينية الحديثة وقتئذ أن الحكم لمحتب وزير الملك زوسر الذي يرجع تاريخه الى ٢٥٠٠ سنة قبل العهد الصاوي اعتبر ضمن المعبودات كابن بتاح ، على جهل الكهنة الصاويين بتحقيقة أمره . ولا يخفى أن الديانة الصاوية جاءت نتيجة مباشرة لديانة أواخر عهد الامبراطورية ، فهي بعبارة أخرى تلتخص في الاحتفاظ بالدين ومراعاته في الأعمال الظاهرية وشدة الحرص عليه فيما يتعلق باحتفالاته كما حصل تماما للعقيدة اليهودية التي نشأت في مثل هذه الظروف ، ولهذا السبب أصبحنا نجد الأمراء والموظفين يشيرون المعابد للعبوديات في كل جهات القطر^(٢) ، وصرا نجدهم بعد ما كانوا يحترمون فردا من طائفة حيوانية أصبحوا الآن يقدسون كل أفرادهم.

(٢) ٩٦٧ : ٤ ملاحظة ٩٨٩ وملاحظة ١٠١٥ ملاحظة

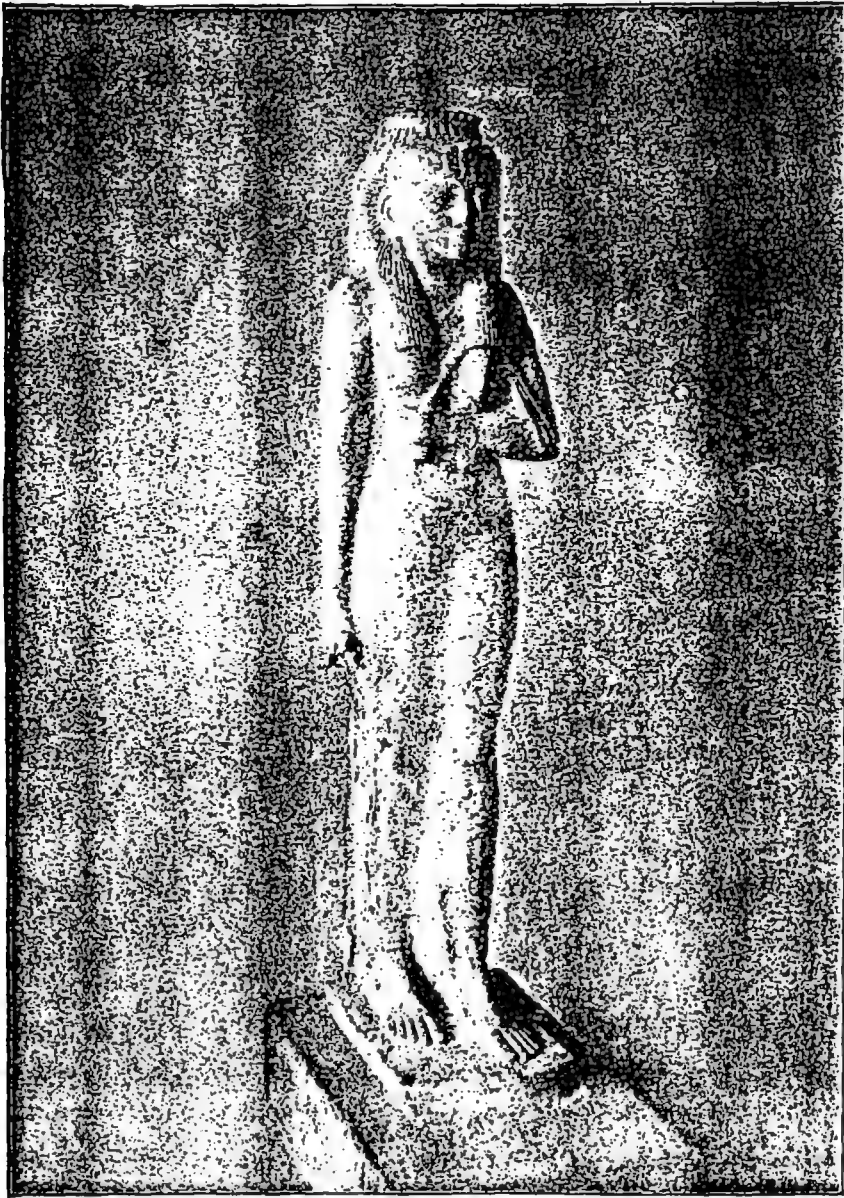
(١) ١٠١٦ : ٤ و ١٠٢٤

الطائفة . وزاد اعتقاد القوم واحترامهم للعجل آيس - أحد أشكال بتاح - فعبوده بعناية كبيرة وصاروا يدفنون جثته باحتفال مهيب في جبانة السرايوم الخاصة بذلك بجوار منف ، أما تقديس هذا العجل فكان في بدايته في عهد المملكة القديمة ، لكنه أصبح له الآن شأن عظيم لدرجة بلغت حد التعصب الديني بين أهالي الاسكندرية في العهد الروماني . والظاهر أن كهنة العهد الصاوى فسروا هذه المظاهر الخارجية بالفاسفة التي فسروا بها خرافاتهم الدينية ، فأوجدوا بذلك شيئا لم يكن موجودا ولا منسوبا لها سابقا ، ويحد القارئ مثلا لذلك عند الكلام على عهد الامبراطورية (١) . والحقيقة أننا لا نعلم تماما اذا كان كهنة العهد الصاوى علموا الأهالي كل المعلومات التي نسبها اليهم اليونانيون ، إنما الثالث أن التعاليم الدينية كانت في عهد الامبراطورية متمشية مع أحوال العالم ، أما في العهد الصاوى فقد اضطر القوم أن يتعلموا لغة وخطا جديدين وأن يفهموا أدبيات قديمة تركها العالم منذ مدد طويلة ، ولهذا السبب اعتقد الأهالي أن الخط الهيروغليفي مقدس فنسبوه الى الآلهة واعتقدوا أيضا أن كل نص مقدس يجب أن يسطر بالخط الهيروغليفي ، وهذا هو السبب في اطلاق هذا الاسم عليه لأن لفظ "هيروغليفي" يعنى باليونانية "الخط المقدس" .

هذه التعاليم الدينية حوّلت أذهان الكهنة الى العالم القديم من حيث حكمه ومعارفه ، والسبب في ذلك أن أهالي العهد الصاوى اعتقدوا أن أهالي العصر القديم بلغوا من العلم ذروة لا يمكن تعديها ، ومثل هذا النظام الرجعي شوهد في تاريخ الصينيين والمسلمين في عصورهم المتأخرة . ومن هذا السبب يتجلى للقارئ السر في شدة ولوع الصاويين بالبحث عن النصوص والقراطيس البردية القديمة التي علاها تراب الأجيال العديدة وفي جمعها وفحصها ثم تنظيمها . ومنه أيضا يتضح للباحث سبب انتصار الماضي على الحاضر وسبب جهل الكهنة المعاصرين لهذه الحركة الرجعية بما هو سائر حولهم في العالم . ويحد القارئ مثلا صادقا لهذا التطور الرجعي في تاريخ مملكة بابل أيام الملك نبوخذ نصر (Nebuchadrezzar) . وقصارى القول أن الباحث في أحوال العالم الصاوى يتخيل له شخص مسن يكر راجعا في أعماله الى ما قام به وقت صباه البعيد الأمد .

ومع أن الإصلاح الداخلى في العهد الصاوى كان رجعيا في معظمه كما تشير اليه كلمة "الإصلاح" إلا أن سياسته الخارجية كانت على النقيض ، والسبب في ذلك أن پسامتيك اهتم كثيرا بالخارج خلافا لما ساد الأمة من الحركة الرجعية وقتئذ ، فزاد ثروة البلاد بتنظيم سلطتها المركزية وتحسين مشروعات الري كما كانت سابقا ، واستعمال تجاربه التي اكتسبها في أوائل حياته ولما شاهده من كثرة التجارة بين أنحاء امبراطورية آشور . وقد كان جلالاته متيقنا تماما بأن التجارة والتعامل مع الأمم الأجنبية من أهم الدعائم لتقدم البلاد الاقتصادى ، فضرب الضرائب المتنوعة على البضائع المختلفة الأمر الذى عاد على مالية القطر بالغنى الجزيل . وأرجع پسامتيك العلاقات التجارية القديمة بين مصر وسوريا كما كانت سابقا فتقاطرت السفن الفينيقية على مصبات النيل وكثر التجار الساميون

(١) راجع سابقا صيفى ٢٣٥ - ٢٣٦ .



شكل ١٨٤ - تمثال من الرمرر لأميرة أماترديس أخت بعتنح بدارتحف القاهرة

الذين صاروا فيما بعد أجدادا للآراميين وكثر عددهم في العهد الفارسي . واستخدم إساميتك اليونانيين أيضا في ترقية تجارة مصر فأفادوه كثيرا في ذلك كما أفادوه في الشؤون الحربية التي تقدم الكلام عليها .

وقد ذكرنا سابقا أن الأقوام الأجانب المعروفين بأهالي البحر الأبيض المتوسط أخذوا يهاجرون الى مصر جنوبا منذ القرن الثامن قبل الميلاد^(١) . وأقدم ذكر لهؤلاء القوم يرجع تاريخه الى نحو مائة سنة تقريبا قبل العهد الصاوي . أما الهجرة اليونانية فقد ابتدأت أولا من أقاصى شمالى أوروبا الى شبه جزيرة اليونان ثم الى الأرخبيل المجاور ومراكزه الصناعية . ولما جاء العهد الصاوي ظهر اليونانيون أمة راقية غنية بحرية تمخر أساطيلها مياه البحار وتتافس مراكبها السفن الفينيقية . بعد ذلك انتشرت المستعمرات والمصنوعات اليونانية بسرعة فعمت سواحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصلت الى البحر الأسود ، والظاهر أن إساميتك هو أول حاكم مصرى شجع في أثناء حكمه هذه المستعمرات التجارية في القطر ، والمعروف أنه لم تمض مدة طويلة على انشائها حتى عم القطر التجار اليونانيون فصارت مصنوعاتهم ترد على مصر وبالأخص غربى الدلتا حيث توجد صا الحجر المقر الملكى . ثم أصبح في منف حى خاص لليونانيين وآخر للكاريين ولا يبعد أن تكون المدن الكبيرة الأخرى حاوية لمثل هذه الأحياء الخاصة بمعاملة التجار الأجانب .

ولما توطدت التجارة بين مصر والولايات اليونانية توثقت عرى الصداقة بين هذين القطرين فكثرت عدد الجنود اليونانية باطراد في الجيش المصرى عدا الذين استعملهم إساميتك في غزواته ، واختلط هؤلاء الجنود مع تجار بلادهم النشيطين كثيرا فشرحوا لهم خيرات مصر ونعيمها فنقل هؤلاء التجار هذه المعلومات الى اليونان حيث نشأت الحكايات الخرافية الكثيرة الخاصة بالعالم المصرى الغريب ، ووصلت أخبار عجائب طيبة الى الأغاني الهومرية في آخر عهدها وظهرت المعبودات المصرية في الخرافات اليونانية الدينية .

وقد عرف اليونانيون تماما في آخر الأمر مظاهر الحضارة المصرية لكنهم لم يدرسوا الخط الهيروغليفى جيدا ليفهموا به نقوش المصريين القدماء الباقية ويعرفوا حقيقة تاريخهم . ثم ظهر بعد ذلك مترجمون كثيرون عالمون باللغة المصرية واليونانية صار لهم شأن بعدئذ فتكونت منهم طائفة مخصوصة تأثر منها المؤرخون كثيرا أمثال هيودوت الذين زاروا القطر المصرى ووضعوا عنه المصنفات . وقد دهش اليونانيون لثبات المصريين وادعاءاتهم اللانهائية ، ومما زاد ذلك ما سمعه هؤلاء القوم من عجائب مصر وعماراتها الشائخة ومعابدها المكنونة السرو ومنظر الخط الهيروغليفى الغريب الشاغل لمسطحات جدران تلك العمارات ووجود نهر النيل الفرد وديانة مصر المدهشة وقوانينها الغريبة التي ظهرت لهم مبنية على أصول صادقة وكذا كثرة الآثار العظيمة المؤثرة في كل أنحاء البلاد حولهم . كل هذه الأمور وعدم امكان معرفة أصل المصريين وقتئذ وتاريخهم القديم حال بين اليونانيين ومعرفة

(١) راجع سابقا من صحيفة ٣٢٢ الى ٣٢٥

أهلوان القطر المصري الحقيقية مع ذكائهم المفرط وحرصهم الكبير . لذلك لم يفهم اليونانيون حقيقة المصري ومذنيته فكلاباتهم في هذا الموضوع غير مطابقة للضوابط على ما أظهره كتابوها من الهزء بعادات المصريين . وبديهي أن اليوناني أدق كثيرا من المصري من حيث اتباع الصدق والبرهان لرواية الحقيقة منع أنه كان شديد الاحترام والتبجيل للمصري . ولما دامت الأيام وأخذت البلاد تمزق في طريقها السياسي تحت أمين اليونانيين أخذ هؤلاء القوم يرقبونها جيدا فعرفوا حقيقة القطر المصري . وقد عثرنا على عدة روايات يونانية شهيرة يرجع تاريخها الى عهد يسائتيك الأول ، لونها نصيبا جيدا لاستنتاج منها معلومات قيمة عن الأسرة السادسة والعشرين التي حكمت بالبلاد ، ذلك لأن إقليم المهلك للتاريخ والمدمر للأثار .

ووقف المصري موقف الحزم والرفعة والطهارة والنبات أمام الجموع الأجنبية التي تدفقت على بلاده تهرجما على كرهه الشديد لهم ورغبته الصادقة في طردهم ، لكنه كان مضطرا لأن يعاملهم بالحسنى لاستمراره الأخير من هذه المعاملة ، وهذا الموقف يشبه تماما مركز الصيني في الوقت الحاضر . من ذلك يتضح أنه في الوقت الذي كان فراغة العهد الصاوي يعجبون باليونانيين وأخلاقهم كانت الرعية المصرية لا تألف هؤلاء القوم ولا تصبو اليهم . وبديهي أن اليونانيين كسبوا كثيرا من اختلاطهم بحضارة القطر المصري ماديا وأدبيا ، وتفسير ذلك أن اليونانيين لما أتوا الى القطر المصري وجدوا فيه العلوم والمعارف مزدهرة فقدحوا أذهانهم الوفاة فيها فيجحت عن ذلك حضارة أرق منزلة وأرفع مقام من الحضارة المصرية . ولا مشاحة فاليونانيون تعلموا في مصر أيضا كثيرا من الفنون السياسية ، وأن وادى النيل أثر كثيرا في مصنوعاتهم منذ عهد الأسرة الثانية عشرة (سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد) على الأقل ، فالناظر مثلا الى تماثيل المعبود الشمسي اليوناني أبولو (Apollon) يجد بها جارية على المثلث المصري واقفة وقدمها اليسرى مقدمة على اليمنى . وقد يتضح لنا أن اليونانيين تعلموا كثيرا من حفاري العهد الصاوي حتى في أرق عصورهم . أما من حيث العلوم والمعارف فالبراهين التي لدينا قليلة كالسابقة ولذلك لا يمكننا أن نجزم بالضبط بمقدار ما اكتسبه اليونانيون من المصريين ، والظاهر أنه الرواية اليونانية القائلة أن اليونانيين استمدوا فلسفتهم من مصر تحوى بعض الصدق . ولا غرابة في صدق هذه الرواية لأن الديانة المصرية القديمة تحوى البذور الكافية لنشوء الفلسفة اليونانية في أذهان أصحابها . والمعروف أن علماء اليونان تأثروا كثيرا بأراء المصريين الخاصة بالكون قبل الخلق وفي زمنها قبل أن يتأثروا بشيء من هذا القبيل في بلادهم^(١) ولا شك أنه القارئ يعلم أن قدماء المصريين في عهد الأسرة الثامنة عشرة كانوا يفكرون في كيفية خلق هذا الكون . أما ثبات المصري في الرأي واعتقاده في الحياة الأخروية وما ترتب عليها من استعدادات القبر فقد أثر كثيرا في آراء اليونانيين والرومانيين كما يستدل من انتشار الديانة المصرية وقتئذ في سائر أنحاء العالم . ولا تزال آثار هذه الديانة تكشف الى وقتنا هذا تحت أكوام التراب على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويرجع تاريخ انتشار

(١) راجع سابقا صيفي ٢٣٥ و ٢٣٦

الحضارة والديانة المصريتين في العالم الغربي الى عهد پسامتيك الأول . ومن دلائل اعجاب اليونانيين بالمصريين أن پرياندر (Periander) حاكم كورنث (Corinth) باليونان سمي وارثه وابن أخيه باسم پسامتيك (Psammetichos) ولم يستعمر هذا الاسم إلا لمكانة هذا الفرعون المصلح العظيم .

وفي سنة ٦٤٠ أحس پسامتيك بقدرته على تجديد غزوات أجداده بآسيا فأراد أن يسترجع سلطة مصر بسوريا وفلسطين وينتزع تلك الأقاليم من آشور ، فبدأ بغزو فلسطين وحاصر مدينة أشدود (Ashdod) عدة سنوات لكنه اضطر أن يقف مشروعاته بالنسبة لغزوة السيثيين (Scythians) الذين أتوا من الشمال بعد ما زحفوا الى آشور ثم اقتربوا من حدود مصر . قال هيرودوت ان پسامتيك أرجع هؤلاء الغزاة ببعض النقود والهدايا ونجى وطنه بهذه الطريقة لكن المرجح أنه قهرهم حقا . وتوفي پسامتيك بعد ما حكم أربعة وخمسين سنة نجى في أثناءها بلاده من الانحطاط والاضمحلال اللذين خيما عليها عدة قرون ، وترك جلالته القطر المصري في رخاء وتعيم لم ير مثلهما من وفاة رمسيس الثالث أى منذ خمسمائة سنة تقريبا .

الفصل الثامن والعشرون

الكفاح النهائي : بابل وفارس

توفي إسامتيك الأول عام ٦٠٩ قبل الميلاد فتولى الملك بعده ابنه نينخاو الذى لم يجد أمامه ما يمنعه من استرداد الامبراطورية المصرية بآسيا ، لأنه فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية المصرية أخذة فى التقدم والرقى كانت مملكة نينوى ساقطة مضحلة . ويرجع ضعف آشور هذا الى غارات السيثيين (Scythians) الآتين من شمالى آسيا ، وإلى اتحاد بابل وأهالى الغرب وأهمهم النبي ناحوم الاسرائيلى الذى تنبأ بسقوط آشور وهو فرح مسرور . وقد كانت آشور ضعيفة جدا فلم يتردد فى مهاجمتها نينخاو حال توليه الملك ولذلك أخذ يحقق مشروعات والده الاستعمارية فشيد أسطولا بحريا ضخما فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . وبدأ بغزوة فلسطين فى السنة الأولى من حكمه فاستولى على غزة وعسقلون عتوة وفرض عليهما العقاب^(١) ثم زحف شمالا وبلغ مقاطعة يهوذا فوجدها تحت حكم الأسرة النبوية وقد مضى على تحريرها من آشور مدة طويلة . عند ذلك ظن ملوك يهوذا أنهم سيتمكنون من صد مصر كما تخلصوا من سناشريب منذ قرن تقريبا ، بجمع ملكهم المدعويوشيا (Josiah) جيوشه وهجم على القوات المصرية بسهولة مجتذو حيث وقعت أول معركة حربية منذ تسعمائة سنة تمكن بها المصريون من اخضاع آسيا . وانتهت هذه المعركة الأخيرة بهزيمة يوشيا التامة أصيب هو فيها بجرح توفي منه بيت المقدس . ثم ظن نينخاو أن آشور ستحاول استرداد أملاكها الضائعة فزحف مسرعا ميمما نهر القرات ، لكن آشور كانت فى حالة الاحتضار ولذلك لم يجد قوة تقاومه هناك ففضل الرجوع الى مصر ولم يهجم على نينوى لعدم استعدادها تماما وقتئذ . بهذه الكيفية تمكن من استرجاع سوريا كلها وجميع مستعمرات مصر التى كانت تابعة لها أيام الامبراطورية فى غزوة واحدة ، وقد بلغ وقتئذ مدينة ربله (Ribleh) على نهر الأورونط بعد ما حارب بمعركة مجتذو بثلاثة أشهر ، ثم أرسل الى يهوهاز (Jehoahaz) ابن يوشيا الذى عينه اليهوديون (Judeans) ملكا عليهم بعد وفاة والده وكنهه فى الحديد وولى مكانه إلياقيم (Eliakim) أحد أبناء يوشيا أيضا وسماه يهوياقيم (Jehoiakim) ثم فرض عليه الجزية وقدرها مائة مثقال (تالنت والتالنت يساوى ٥٧ رطلا) فضة وتالنت واحد من الذهب . أما يهوهاز فأرسل الى مصر حيث توفي . ثم أراد نينخاو كمادات تلك العصور أن يظهر شعوره وسروره لخدمات الميليزيين (Milesians) فى أثناء انتصاراته الحربية فأهدى اليهم درعه الذى لبسه وقت حروبه . وسرعان ما يتبادر الى ذهن القارئ مناقضة هذه الحادثة لما اعتاده قدماء المصريين الذين نسبوا كل انتصاراتهم لآمون وحده ، فان الحال تغيرت الآن واعتقد القوم أن النصر والفوز يأتيان عن طريق مساعدة الجنود الأجنبية . وعثر فى صيدا

على أجزاء شاهد حجري يرجع تاريخه الى عهد نينخاو، عليه نقوش هيروغليفية خاصة به لما كان مسيطرا على سوريا^(١).

لم تدم امبراطورية نينخاو الآشورية طويلا ففى أقل من سنتين تمكن نابوبلاصر (Nabopolassar) ملك بابل بمساعدة سياكساريس (Cyaxares)، ملك ميديا من القضاء على آشور وتحطيم نينوى وشل نفوذها السياسى . بعد ذلك اقتسم ملكا بابل وميديا أملاك آشور فاستولى ملك ميديا على الأملاك الشمالية والشمالية الشرقية واكتفى ملك بابل بالمستعمرات الجنوبية والجنوبية الغربية، وهكذا وقعت سوريا ضمن نصيب نابوبلاصر لكنه كان مسنا فأرسل ابنه المدعو نبوخذ نصر (Nebuchadrezzar) لقتال نينخاو. فلما سمع بذلك فرعون مصر جمع قواته وأسرع لملاقاته على الحدود الشمالية على نهر الفرات ، وذلك عام ٦٠٥ قبل الميلاد ، فالتحم الفريقان بجهة كركيش (Carchemish) حيث انهزم الجيش المصرى المختلط . بعد ذلك لم يتمكن نينخاو من مقاومة بابل مرة أخرى ولا من الدفاع عن فلسطين فتقهقر مسرعا نحو الدلتا يعقبه نبوخذ نصر . وقد تقهقر نينخاو بسرعة فى فلسطين فتأثر أهالى مقاطعة يهوذا منه كثيرا ، وكان اذ ذاك النبي أرميا يقهم أهالى دمشق أحوال الأمم فأخذ يصب على المصريين المتقهقرين هزؤه وسخرته^(٢) وكان منتظرا بل مؤكدا وقتئذ أن اذلال مصر أو غزوتها بأمر كده الشاب أمر محتم ، لكن وفاة والده بيابل أجبرت نبوخذ نصر أن يتفق هو ونينخاو على فض المشاكل التى بينهما خوفا من بقاءه مدة طويلة بعيدا عن بابل لأنه أراد أن يحضر هناك حفلة تتويجه ، وبهذه الطريقة انضمت سوريا وفلسطين الى بابل منذ ذاك الوقت .

لا يخفى أن اتفاق نينخاو وبابل حدد طمع المصريين بآسيا ولذلك صمم ملك مصر على الاحتفاظ بمملكته دون أن يبدى أية حركة حربية بتلك الجهات. وقد جاءت فى التوراة هذه الرواية "ولم يعد أيضا ملك مصر يخرج من أرضه لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر الى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر"^(٣). ولم تقتصر الحال على ذلك بل أن نينخاو لم يتجاسر أن يتدخل فى حصار نبوخذ نصر لبيت المقدس واستيلائه عليه ونفى أسريه يهوذا الشريفة عام ٥٩٦ قبل الميلاد . ومنذ ذلك الوقت اكتفى نينخاو بترقية تجارة مملكته وتوسيع مشروعات والده فى هذه السبيل، فأعاد حفر القناة التى كانت موصلة فرع النيل الشرق بالبحر الأحمر . قال هيرودوت ان مائة ألف نسمة هلكت فى تنفيذ هذا المشروع حتى اضطر نينخاو أن يقفه قبل انجازه . وروى ديودور الصقل أن المهندسين نصحوا بعدم حفر تلك القناة خوفا من غرق مصر لعلو سطح مياه البحر الأحمر عن سطح الدلتا وهو الأقرب الى الصواب . وبدى أن اتصال الملاحة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط عاد على مصر بالمكسب التجارى العظيم كما أنه ساعد كثيرا من الوجهة الحربية . ويستدل على شدة رغبة نينخاو فى ترقية الملاحة ببعثته الفينيقية التى قال عنها هيرودوت أنه أرسلها لارتباد سواحل إفريقية المعروفة وقتئذ باسم ليبيا (Libya) . وكان اعتقاد المصريين قديما أن الأرض تحيط بها المياه من جميع الجهات وهذه المياه تسمى عند اليونان أوكيانوس وأن مياه النيل متصلة بتلك المياه جنوبا وهذه البعثة الفينيقية استغرقت من الوقت ثلاث سنوات .

(١) Proceedings Soc. of Biblical Arch., XVI (1894), pp. 91 f.

(٢) أرميا ١٤٦-١٢ (٣) ٢ ملوك ٢٤ ، ٧

وتوفى نينوا عام ٥٩٣ قبل الميلاد فتبعه فى الملك ابنه پسامتيك الثانى الذى وجد أن القيام بحركات استعمارية بآسيا أمر مستحيل ولذلك لا يبعد أنه فضل المحافظة على نصوص معاهدة والده مع بابل . ولما أيقن باستحالة الاستعمار شمالا وجه همه جنوبا لحاول استرجاع النوبة التى انفصلت عن مصر منذ تأسيس مملكة إثيوبيا فعزا ذلك الإقليم وبلغت مقدمة جيوشه إقليم الشلال الثانى حيث تركت جنوده نقوشا يونانية على أحد تماثيل رمسيس الثانى العظيمة أمام معبد أبى سبيل أثبتوا فيها زيارتهم لتلك الجهة . وقد أشرنا فيما سبق الى أن هذه الغزوة كانت من أسباب انتقال عاصمة النوبة الى أعلى الشلالات (أى مروه) ومع ذلك فإن الاستعمار المصرى هناك لم يدم طويلا فلم ينضم أسهل النوبة مطلقا الى المملكة الصاوية . واستمرت علاقات المودة والصفاء سائمة بين المصريين واليونانيين حتى روى هيرودوت أن الإليني (Eleans) أرسلوا وفدا الى پسامتيك الثانى يحكونه فى ادارة الألعاب الأولمبية وقتئذ . أما فى داخل المملكة فقد بسط پسامتيك الثانى نفوذه على طيبة بأن عين ابنته إنخنس نفراب رع (Enekhnesnefibre) رئيسة دينية بدل عمته المسنة ابنة پسامتيك الأول المدعوة نيتقريس . ثم أنعم بقلب "رئيس كهنة آمون" على ابنته فتسللت دخل نيتقريس التى توفيت بعد ذلك بتسع سنوات . أما كريمته فبقيت حاكمة لطيبة مدة تقرب من سبعين سنة حتى غزوة فارس (١) .

وتوفى پسامتيك الثانى فتبعه فى الملك نجله آپريس (Apris) عام ٥٨٨ قبل الميلاد ويقال له بالمصرية حعبرع (Ha'abre') وبالهيودية هوفرع (Hophra) . وورد عن هذا الملك أنه تطلع الى آسيا وأخذ يحقق آماله أسرته القديمة لاسترداد مستعمرات مصر هناك بسرعة . وقد سبقت الإشارة الى حصار نبوخذ نصر لبيت المقدس فى سنة ٥٩٧ قبل الميلاد أيام نينوا ، والآن نرجح أن هذا الأخير كانت له يد خفية فى إيقاد تلك الفتنة . والمعروف أن هذه المدينة التبعة سلمت لعدوها فى السنة التالية فعقب ذلك نفى ما يترواح بين تسعة وعشرة آلاف نسمة راقية الى بابل حتى لم يبق بيت المقدس "إلا مساكن شعب الأرض" (٢) . بعد ذلك عين نبوخذ نصر صدقيا (Zedekiah) عم يهوياكين (Jehoiachin) ملكا على تلك الأرض الخربة فكث بها تسع سنوات ثم شق عصا الطاعة على بابل . والسبب فى هذه السياسة الخرقاء ظاهر واضح فتاريخ هذا العصيان يوافق يوم تولية آپريس ملك مصر الذى أخذ يؤثر فى صدقيا للاتحاد معا تخلصا من بابل . وكان صدقيا تحت تأثير رسل صور وصيدا وموآب وآمون الذين كانوا ولا يزالون يحرضونه على ذلك ويعدونه بالمساعدة ، فانصاع صدقيا فى آخر الأمر الى نصائح آپريس لكنه أصابه من بابل ما أصاب عصاة حكم آشور لأن محالنى صدقيا لم يساعده بسرعة فى الوقت المناسب . ولا غرابة فى ذلك فقد جعل آپريس هذه المساعدة مستحيلة لأنه هم على صور وصيدا بأسطوله رغبة منه فى محاربة نبوخذ نصر على نهر الفرات كما فعل جدّه نينوا سابقا . وتفصيل ذلك أن آپريس حارب أولا أسطول صور وقبرص وانتصر عليهما ثم أزل جنده بصيدا فسلمت له مدن فينيقيا على أثر ذلك (٣) . والظاهر أن آپريس قصد بهذه الحركة إبعاد اهتمام نبوخذ نصر

(٢) ديودور ١ : ٦٨

(٣) ٢ : ٢٤ : ١٥

(١) ٤ : ٩٨٨ : A-988

عن الولايات الجنوبية التي أرسل إليها جيشا في أوائل عام ٥٨٧ قبل الميلاد، وربما أراد بهذا العمل قطع خط الرجعة على جيش بابل الذي كان محاصرا بيت المقدس وقتئذ . فإذا كان هذا هو الواقع كانت هذه الفكرة غاية في الحكمة وسداد الرأي . لكن الحملة التي قام بها أپريس لم تتوغل ببلاذ آسيا كثيرا لدرجة أفلقت بال بابل ، كما أن نبوخذنصر اختار ربله التي هي إلى الشمال على نهر الأورونط قاعدته الحربية ، فتمكن بذلك من مراقبة حركات جيش مصر بتلك الجهات بدون خوف ولا وجل . زد على ذلك أن أعداء نبوخذنصر كانوا يضعفون كل يوم بتزاعهم الداخلي ولذلك لو فرض أن أپريس زحف على ملك بابل وقتئذ فإن هذا الأخير كان يوسع وقوف ذلك الزحف بسهولة بقوة من ربله . والظاهر أن الآثار الصاوية التي عثر عليها رنان^(١) في أرواد وصور وصيدا يرجع تاريخها إلى هذا العهد القصير الذي كانت فيه فينقيا تحت حكم فرعون . ويرجح أن فرعون مصر كان مسيطرا وقتئذ أيضا لمدة قصيرة على أحد أقاليم لبنان^(٢) .

وفي ربيع عام ٥٨٦ قبل الميلاد ظهرت جيوش أپريس أخيرا في جنوبي فلسطين . فهتدت قوات بابل المحاصرة لبيت المقدس وبذلك نجت تلك المدينة مدة قصيرة ، لكن الجيوش المصرية أظهرت وقتئذ عدم كفايتها لمكالفة جيوش آسيا ويرجح كثيرا أن أپريس تخلى وقتئذ عن فلسطين ، بجاء هذا تأكيداً لتنبؤات أرميا الذي نصح دائماً بالتخلي وعدم الاعتماد على مصر ورمى كل من يقوم بذلك بالغباء وقصر النظر . وهذا الرأي السياسي أنعب أرميا وعرضه لمخاطر كثيرة اضطر في آخرها أن ينجو منها بحياته . وفي صيف عام ٥٨٦ قبل الميلاد سقط بيت المقدس فخربه جيش بابل تخريباً وأسر الدليل صدقيا إلى معسكر نبوخذنصر باربله حيث شاهد مصرع ولديه قبل فقء عينيه . بهذه الطريقة دلت الأمة اليهودية تماما . أما مصر رأس هذه الاضطرابات فلم توجه إليها الضربة القاضية والسبب في تأخير ذلك أن نبوخذنصر صمم أولا على عقاب صور التي استمرت مستقلة ثلاث عشرة سنة إلى أن سلمت له عام ٥٧٣ قبل الميلاد .

وبالرغم من سوء حظ أپريس بآسيا فقد كان عائشا في رفاهية ونعيم لأن مملكته كانت محافظة على رقيها وثروتها كما كانت أيام جدّه الأكبر مؤسسها . وورد أن الصحراء الغربية كانت تدفع جزيتها لمصر وأن حاكم الصحراء الشمالية المدعو وح لب رع نوفر (Wahibrenofer) شيد معبدا في تلك الجهة^(٣) ومع كثرة هذا النعيم فقد كتب على أپريس أن يتوفى في ظروف محزنة غير متظرة وتفصيل ذلك أنه عجز عن التوفيق بين أفراد جيشه المتباين الوحدات ، فقد تمردت الجنود الليبية واليونانية والسورية ثم هجرت الجيش المصري رغبة في الانضمام إلى النوبة كما حصل أيام پسامتيك الأول . ولا نعرف عدد الهاربين بالضبط وإن كان عظيمًا حتى جاء بأخبار تلك العصور الرسمية أن الملك قلى لذلك . ووصل الهاربون

(١) Rougé, letter to Renan, *Revue arch.* n. s., VII, 1863, pp. 194-8.

(٢) Steindorff, *Berichte der phil.-hist. Classe der Königl. Sächsischen Gesellschaft der Wissenschaften* zu Leipzig, 1900, p. 226.

الى الشلال الأول فقابلهم هناك حاكم ذلك الإقليم المدعو نسوهور (Nesuhor) فأقنعهم بمخطئهم وأخيرا أرسلهم الى الملك أپريس الذى عاقبهم على هذا الذنب^(١) . ثم تألبت وحدات الجيش المصرى مرة ثانية ولكن هذا العصيان لم ينته بسلام كالسابق ، وسببه أن بعض اليونانيين استوطنوا جهة سيرين (Gyrene) حيث أسسوا مستعمرة غنية راقية أخذت تنمو وتزداد على حساب ليديا التى هى بينها وبين مصر . ورأى أپريس أن يصعد نمو مستعمرة سيرين فأرسل الى ليديا قوة حربية خالية طبعاً من العنصر اليونانى لمكافحة سيرين . وسار المصريون مستهزئين ومستهترين بأعدائهم لكنهم لما التقوا مع يونانيي سيرين فى آخر الأمر دارت رحى القتال بين الطرفين وانتهت بهزيمة المصريين ، فإغتاز الجنود المصريون من هذا الأمر ووطنوا أن أپريس أرسلهم الى سيرين ليتخلص منهم فقامت الثورة بين وحدات الجيش المصرى وأرسل أپريس على أثرها أحد أقربائه المدعو أحعمس الذى سمى هيرودوت أمازيس (Amasis) ليخمد الهياج . وكان أحعمس هذا زكياً وسياسياً محمكاً فتمكن من انقاذ أپريس من خطر الموقف واستمال الجنود العصاة نحوه فاختاره ملكاً عليهم . وأرسل أپريس رسولا الى أمازيس يطلبه لكن الرسول ردّ باحتقار وسخرية ، فاستشاط أپريس غيظاً من ذلك وأرسل شدة غضبه على الرسول المنكود الحظ على كبر مرتبته وأمر يجمع أنفه وقطع أذنيه . ورأى أتباع أپريس من نبلاء ومساعدين ما حل بزميلهم ظالماً فهجروا أپريس وانضموا الى أمازيس . قال هيرودوت ثم نشبت معركة حربية بين الطرفين انتصر فيها أمازيس بجنوده المصريين العديدين على أپريس وجنوده اليونانيين المأجورين وانتهى الأمر بأسر أپريس . والظاهر أن هيرودوت أخطأ فى فهم الموقف بالضبط فخلط بين هذا التزاع والحرب التى حصلت بين هذين الطرفين بعد ذلك بقليل كما تشير الى ذلك آثار تلك العصور . ومهما كان الأمر فقد استمر أمازيس يعامل أپريس بالحسنى فلم يعزله لكنه وضع يده على زمام الحكم وناصية الحال فقتلها بذلك الحكم مع أپريس لكن الأول كان طبعاً أقوى من الثانى . وقد عثرنا على بعض آثار يرجع تاريخها الى عهد تضامن هذين الحاكمين وقد كتب أمازيس اسمه داخل خانة ملكية لكنه استمر مستعملاً أيضاً ألقابه القديمة التى هى أقل اعتباراً بجانب الخانة المذكورة^(٢) . وفى السنة الثالثة من تضامن هذين الملكين قامت مشاحنة بينهما فاستمال أپريس الى جانبه الجنود اليونانية (كما رواه هيرودوت) واستعان بأسطول بحرى ثم زحف فى الشمال على صا الحجر ، لكن أمازيس أسرع فى الوقت نفسه بجمع جنده وهجم على أپريس وشتت شمل جيشه ومكث أپريس مع جنده بالوجه البحرى ينهبون البلاد ويقطعون السبل فأرسل اليهم أمازيس حملة وكان أپريس ظاهراً وقتئذ يظهر الهارب العاصى ، والمعروف أن أمره انتهى بقتله وهو على ظهر إحدى سفن أسطوله الباقية ، واحتفل أمازيس بيمينازته على الوجه اللائق بالملوك ودفنه بين أجداده العظام بصا الحجر وقدم له الهدايا والقرايين بسخاء^(٣) .

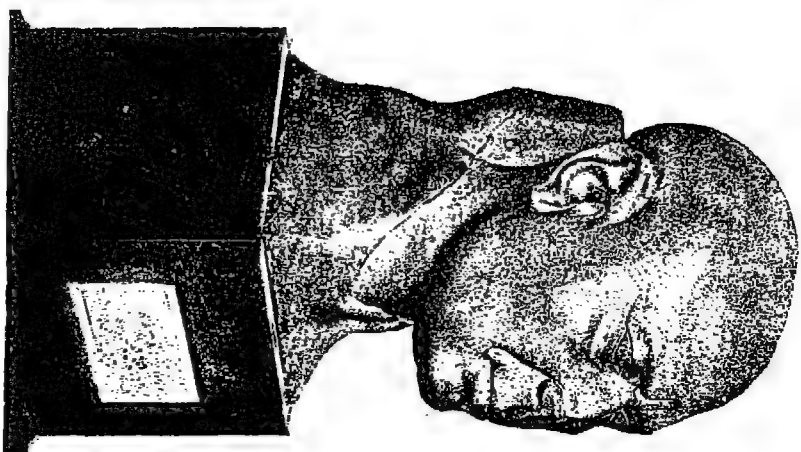
(٢) ٤ : ٩٩٦ ملاحظة

(٢) ٤ : ٩٩٩ ملاحظة

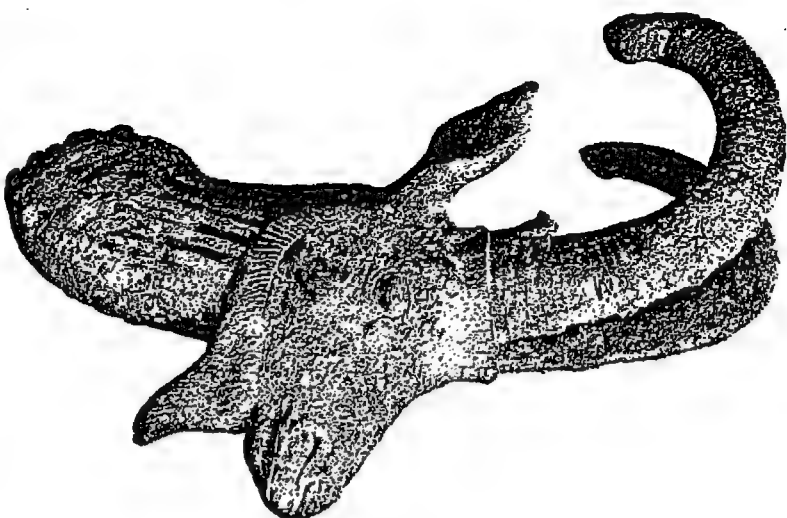
(١) ٤ : ٩٨٩

وربما ينجّل الى القارئ أن أمازيث الذي نال مركزه السامى بتبنيح الشعور الوطنى العام ضدّ اليونانيين أخذ لنفسه خطة ضدّ النفوذ الأجنبي بمصر، لكنه لم يفعل ذلك لأنه كان أحرص وأعقل من الوقوع فى هذه الهفوة . والحقيقة أنه كان يتظاهر باخضاع النفوذ اليونانى لكنه كان يعطيه فى الحقيقة كل ما يلزمه ، مثال ذلك أنه أصدر أمره الى اليونانيين ألا يتزلوا بضائعهم فى أية جهة من الوجه البحرى يرغبون فيها وقصرهم على جهة معينة هى مدينة تقرأتيس (Nauroatis) على فرع النيل الكنوبى فى الدلتا . والراجح أن هذه المدينة كانت مستعمرة يونانية صغيرة فى بادئ الأمر فأصبحت بفضل تأسيس أمازيث لها من جديد وبفضل ورود البضائع اليونانية عليها أهم مركز تجارى بمصر بل بها وبالبحر الأبيض المتوسط . وكانت هذه الميناء يونانية بكل صفاتها كما أن مصنوطاتها كانت مصبوغة بالصبغة اليونانية غالبا وليس عليها الا القليل من المسحة المصرية . والمعروف أيضا عن هذه المدينة أن حركتها التجارية والصناعية وتنسيقها وإدارتها اليومية كانت كاللواكر الصناعية والتجارية ببلاد اليونان، فعلوا ذلك لأن ارتياح اليونانيين بمصر كان موقوفا على نجاح وثروة هذه المدينة . لذلك لما أريد إنشاء معبد كبير بمدينة تقرأتيس وردت لأجله التبرعات من مدن أيونيا (Ionia) الشهيرة مثل كيوس (Chios) وتيوس (Teos) وفوسيا (Phocæa) وكلازوميني (Clazomenæ) وجزيرة رودس (Rhodes) وسنيدس (Cnidus) وهاليكارناساس (Halicarnassus) وفاسيليس (Phaselis) الدورية (Dorian) ومديله الأيولية (Æolian Metylene) ، كل هذه الجهات اشتركت معا فى تشييد معبد تقرأتيس المدعو هيلينيام (Hellenium) فكان بناء ضخما شاهقا حوله حوش كبير يحيط به سور عظيم . ثم ان كلا من أقاليم أيجينا (Ægina) ومليتس (Melitus) وساموس (Samos) القوية كان له معبد خاص بمدينة تقرأتيس . ويبدو لنا من ذلك أنه بالرغم من القيود التى فرضت على اليونانيين فقد كانوا يتمتعون بامتيازات عظيمة . وتدلنا قوانين أمازيث أن جلالة لم يعتبرهم خطرا ولا أعداء لمصر، فقد ورد أنه قدم عليه وفد من الدلفانيين (Delphians) ملتجئين مساعدته فى تشييد معبد بدلا من الذى التهمته النيران عام ٥٤٨ قبل الميلاد، فقابلهم مرحبا وتبرع لهم ببدرات الأموال . زد على ذلك أنه أرسل الهدايا الى معابد ليندوس (Lindos) وساموس (Samos) وسيرين (Cyrene) كما أهدى أيضا درما جميلا الى الاسبارتيين (Spartans) . هكذا وطد جلالة معاملته مع اليونانيين بأوربا وآسيا وزاد فى مودته مع بوليكراتيس (Polycrates) حاكم ساموس الثرى حتى ينجّل أنه عقد معه معاهدة . هذه الأعمال كلها جعلت أمازيث محبوبا جدا عند اليونانيين داخلا وخارجا فكثرت الحكايات عن أخلاقه ومعاملته مع اليونانيين .

ومن دواعى الأسف أن معظم معلوماتنا عن أمازيث تنحصر فى معاملته مع اليونانيين . والمعروف أنه لم يهمل مصالح مصر بدليل حسن تصرفه وقت المصيبة التى لحقت بأفريس وكاد شررها يتطاير الى أنحاء القطر . ومن مآثر هذا الملك أنه شيد بعض ماحقات جميلة بمعابد صا الحجر ومنف وأحضر محرابا جميلا مصنوعا من صخرة واحدة من محاجر الشلال الأول نصبه بمدينة صا الحجر وقد أعجب به هيروdotus كثيرا . أما أهالى القطر فكانوا فى رخاء عظيم حتى قال هيروdotus "أن القطر وقتئذ كان



شکل ۱۸۶ - رأس جری لشخص من العهد المماری مصرع
من جرنای أنصر - راجع صحفة ۲۸۶
(دار تحف برلین)



شکل ۱۸۵ - رأس تیل من البرزکان موضوعا بقلم سفید
برسج تاریخه الی العهد المماری - راجع صحفة ۲۸۶
(دار تحف برلین)

يخوى عشرين ألف مدينة“ . وأصلح أمازيس القانون المدني ”نختم على كل ساكن أن يخبر حاكم مدينته كل سنة بموارد الثروة التي يعيش منها“ وقد أخذ سولون (Solon) هذه المادة عن المصريين وقت زيارته لهم ونفذها في أثينا عند عودته إليها . والظاهر أن ميل أمازيس نحو اليونانيين لم يخف على المصريين لأنه اضطر أن ينقل حامية مدينة دفنه اليونانية (أحد حصنى مصر شمالى وشرق الدلتا)^(١) الى منف القوية النفوذ الكبيرة ، ليرتاح فؤاده من تألبها ويأمن شرها فقد كان قلقا منها لقربها كثيرا من محل إقامته . لكن أمازيس اضطر في آخر الأمر أن يظهر بشوبه الحقيقى لأنه لم يجد بدا من صرف إيراد المعابد على جيشه اليونانى وأسطوله^(٢) ، فاستحال بذلك على كهنة القطر أن يستنزفوا خيرات البلاد كسابق العهد . ولا غرابة في ذلك فأسطول مصر وقتئذ وكثرة جنودها المأجورة كلفت أمازيس أموالا جزيلة حتى اضطر أن يستعين بدخل المعابد . وقد صارت هذه الحركة مبدأ لأثامها فيما بعد في عهد فارس والبطالسة لما ضعفت ثروة الكهنة تدريجيا وفرضت الضرائب على أملاك المعابد ، ولما كانت طائفة الكهنة فاقدة النفوذ السياسى وقتئذ خضعت لتلك الظروف التى شملت أيضا طوائف البلاد الراقية ، لكن أمازيس مضرب الأمثال في الحكمة والترقى تمكن بمواهبه الفكرية من القبض على ناصية الحال والاحتفاظ بقواته حتى اضطر المصريون أن ينصاعوا لرغباته وأوامره .

ومما وطد مركز أمازيس على سواحل البحر الأبيض المتوسط حسن تفاهمه مع اليونانيين . أما في الغرب فكان نفوذه مبسوطا على الواحات وقد شيد معبدا في الواحة البحرية^(٣) . ولم يكن حسن الحظ في تعامله مع الشرق . ثم ان اغتصابه للعرش شجع نبوخذرصار على اذلال مصر لأنه علم بطبيعة الحال أن مثل هذا الاغتصاب لا يحصل الا من انشقاق واضطراب داخلين ، ففي سنة ٥٦٨ قبل الميلاد — أى قبل وفاة أپريس بقليل — ظهر جيش كلد على حدود الدلتا الشرقية ، لكلا لا تعلم ما ذا تم في أمره . والظاهر أن نبوخذرصار أراد وقتئذ غزو مصر فوجدها مغالقة تماما لما كانت عليه تحت الحكم الإثيوپي المضطرب لما التهمت آشور طعنة باردة . والثابت أنه لم يغز مصر وقتئذ ، وطبيعى أن أرميا^(٤) وحزقيال^(٥) اللذين كانا يتوقان الى سقوط فرعون مصر المبعض تكذرا كثيرا لأن الطامة التى انتظراها وتنبأ بها لم تحصل . ونجم من حملة نبوخذرصار أن امتنع أمازيس من التدخل في استعمار سوريا وفلسطين ، لكنه تمكن بأسطوله القوي من اخضاع قبرص وقهرها على دفع الجزية . وللاحظ أن قوة هذا الملك البحرية كانت نواة قوة مصر البحرية في عهد البطالسة لما سيطرت مصر على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

Revilleout, Revue égyptologique, I, 59 ff., III, 105. (٢)

١٠١٤: ٤ (١)

Steindorff, Berichte der phil.-hist. Classe der Königl. Sächs. Gesellschaft der Wissenschaften (٣) zu Leipzig, 1900, p. 228.

١٨-١٠٠٤٠ حزقيال (٥)

١٣-٨٠٤٣ أرميا (٤)

وتوفى نبوخذ نصر عام ٥٦٢ قبل الميلاد فاخفى بذلك نفوذه العظيم وضعفت هبة بابل فقامت فيها الاضطرابات الداخلية واستحال بقاء المعاهدة مع ميديا كما كانت . وفي عام ٥٥٠ قبل الميلاد أسقط كيروس (Cyrus) ملك أنشان (Anshan) الفارسي الأسرة المالكة بميديا وعزل ملكها المدعو أستياجيس (Astyages) فضعف بذلك مركز بابل كثيرا وأحاطت به المخاطر . وظهر كيروس بعد ذلك في العالم الغربي بشكل يدعو الى الإعجاب مع الوجع ، فتحقق أمازيش خطر هذا الملك الفارسي نحو مصر وكافة أمم الغرب . لذلك اتحد أمازيش عام ٥٤٧ قبل الميلاد هو وكريسوس (Croesus) ملك ليديا والاسبارتيين في الغرب ، وملك بابل المدعو نابونيد (Nabuna'id) لصد نفوذ كيروس . وقبل أن يتم هذا التحالف العظيم كان كريسوس هزم وخلع (٥٤٦ - ٥٤٥ قبل الميلاد) فاتجهت قوات فارس نحو الاستعمار والغزو بعد ما قضت قرونا عديدة بين تلال مملكتها ، وأول غرض لفارس وقتئذ كان اخضاع بابل التي سلمت لها عام ٥٣٩ قبل الميلاد . عند ذلك عجز أمازيش عن صد زحف فارس التي بزغت شمسها الآن في أفق التاريخ على أطلال المملكتين الساميتين اللتين نشأتا ببلاد النهرين وأيضا على أطلال ممالك آسيا الصغرى . وكان ضروريا أن يتجه نظر هذه الدولة الجديدة نحو مصر، وكان الحزن والكدر يخالجان قلب أمازيش وهو في آخر أيامه كلما فكر في سيادة كيروس المطلقة . لكنه توفي قبل موت كريسوس وذلك بأحرام ٥٢٦ قبل الميلاد أو أوائل عام ٥٢٥ قبل الميلاد قبل مجيء الطاقة الكبرى المتظرة الى مملكته .

لقد تمكن أمازيش مدة حكمه الطويلة البالغة أربعاً وأربعين سنة من إثبات كفايته السياسية العظيمة للأهل ، ويلاحظ أن هذه المواهب السامية والهمة التي لا تعرف الملل كانتا نتيجة المدنية اليونانية والأصل اليوناني . وامتاز هذا الملك بعدم اهتمامه بالعمارات والأصول الدينية العتيقة التي راعاها فراعنة مصر في سابق الزمان، والتي تجسمت في آثارهم والتي صبغتهم بصبغة واحدة وأزالت من بينهم الفروق لاعتبارهم في نظر الرعية من أصل مقدس . كل هذه الاعتبارات الكهنوتية والعادات الدينية الرسمية التي تحمل بها فراعنة مصر الأقدمون لم يعرها أمازيش اعتبارا كبيرا ، فقد اعتاد مثلا أن يبدأ يومه بإنجاز أعماله العمومية، ثم يدعو الى مائتته بعض خلائه فيرفع عنهم حجاب الكلفة ويدعوهم لمناذمته من دون حشمة ويشرب معهم أحيانا الخمر . ولم يكن كثير الرفاهية بل كان كثيرا ما يضع نفسه تحت المؤثرات والأفراح بدون أن يخرج مركزه، فكان هذا سببا في رفع منزلته في العالم السياسي كثيرا . وما أكثر الحكايات التي رواها اليونانيون عنه بشأن دهائه ومزاحه اللذين تمكن بهما من سياسة الناس وتصريف الأمور بدرجة أدهشت العالم . ولا بد أن القارئ قد لاحظ من أخلاق وسياسة أمازيش أن حالة القطر المصري وقتئذ كانت مناقضة تماما لحالته القديمة التي انعدمت من الوجود، وأن وميض تلك الحضارة القديمة الذي لمع في العهد الصاوي لم يابث أن انطفأ بسرعة وإلى الأزل . والسبب في ذلك أن الحكومة الصاوية كانت في الحقيقة هيكلًا اصطناعيا شديدا وحافظ عليه حكام مهرة، أما الحياة القومية والشعور الوطني اليقظ فكانا معدومين في نفوس الأهالي . لذلك كان سقوط مصر وختام تاريخها الفريد ظاهر القرب قبل وصول قبيز يجيشه الجرار الى أبواب بلوسيوم (Pelusium) بمدة طويلة

وامتاز الملوك الصاويون ببعدهم نظرهم فى المستقبل وجهم للإنشاء والتجديد ومقتهم للأخلاق الرجعية ، ولذلك لم يكن هؤلاء الملوك ولا البطالسة الذين حكموا مصر بعد الفرس مصريى الطباع تماما . ولم يكن الغزو الفارسى الذى حصل عام ٥٢٥ قبل الميلاد والذى اغتصب الملك من پسامتيك الثالث نجل أمازيس سوى تغير فى الهيئة الحاكمة ، أو بعبارة أخرى لم يكن سوى تغير ظاهرى . أما المحاولات المصرية التى حصلت عدة مرات للتخلص من الحكم الفارسى وإرجاع الحكم المصرى فكانت أشبه شىء بتشنجات وقتية تغرى أحد أعضاء الإنسان بعد فقدان صوابه بمدة طويلة . وبسقوط پسامتيك الثالث دخلت مصر فى عالم جديد كانت لها فى انشائه اليد الطولى ، لكنها أصبحت وتشد عاجزة عن القيام بأى عمل جدى . وقد آمنت مصر مأموريتها الكبيرة بنجاح لكنها عجزت عن الاحتجاب عن العالم كنينوى وبابل فبقيت عائشة فى حياتها الاصطناعية تحت حكم الفرس والبطالسة ، ثم أخذت تضمحل حتى صارت فيما بعد مزرعة للمملكة الرومانية يؤمها سياح اليونانيين والرومانيين لمشاهدة آثارها الضخمة . وقد كتب هؤلاء أسماءهم على تلك الآثار كما يفعل السياح الحديثون لشدة إعجابهم بها ، ومع ذلك فإن أهلها المسالمين بطبيعتهم ما زالوا عاكفين على الفلاحة جاعلين وطنهم حديقة العالم دون أن تبدو عليهم علامات اليقظة والانتباه ، فتحققت بذلك حرفيا نبوة حزقيال الرئيس الاسرائيلى حيث قال "ولا يكون بعد رئيس من أرض مصر" (١) .

(راجع "نصوص مصرية قديمة" الجزء الأول من الفقرة ٣٨ الى الفقرة ٧٥)

۱۰

تولية مينا ومبدأ حكم الأسر ٣٤٠٠ قبل الميلاد

عدد ملوكهما ثمانية عشر ملكا مدة حكمهم ٤٢٠ سنة

المدة من حكم زوسر الى سنفرو تبلغ ٨٠ سنة

مدة حكم خوفو... .. ٢٣ سنة

» خفرع ... (١) »

» منكاو رع... .. »

))

» 18 — »

» شپيسكاف ۴ «

» ۲ —)

المجموع ... ٥٥

أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة هي ١٥٠ سنة

(۱) شہ = مجھوں .

الأسرة الخامسة : ٢٧٥٠ - ٢٦٢٥ قبل الميلاد

سنة	مدة حكم أوسركاف ٧
»	» ساحورع... .. ١٢
»	» نفريريكارع ٣٥
»	» شپيسكارع ٧
»	» خائفرع ٣٥
»	» نوسرع ٣٠ (+ ٣٠ سنة)
»	» منكوحور ٨
»	» ددكارع إيسى ٢٨
»	» أونيس ٣٠
	<u>المجموع ١٢٢ (+ ٣ سنة)</u>

أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة هي ١٢٥ سنة

الأسرة السادسة : ٢٦٢٥ - ٢٤٧٥ قبل الميلاد

سنة	مدة حكم حتى الثانى ٣٥
»	» أوسركارع ٣٥
»	» بى الأول... .. ٢١
»	» مرنرع الأول... .. ٤
»	» بى الثانى... .. ٩٠ (+ ٣٥ سنة)
»	» مرنرع الثانى ١
	<u>المجموع ١١٦ (+ ٣ سنة)</u>

والمعروف أن هذه الأسرة حكمت لمدة ١٥٠ سنة

الأسرتان السابعة والثامنة : ٢٤٧٥ - ٢٤٤٥ قبل الميلاد

مدة حكم هاتين الأسرتين هي ٣٠ سنة

الأسرتان التاسعة والعاشر : ٢٤٤٥ - ٢١٦٠ قبل الميلاد

تشمالن حكم ثمانية عشر ملكا إهناسيا ، قدرت مدد حكمهم بـ ٢٨٥ سنة

مدة حكم حوريس ورجل الخ	٥٠	(+ س)	سنة
حوريس نحت نب نقر إنتف الثاني	س		»
حوريس سنجيب توى متو حوتب الأول	س		»
نب حابت رع متو حوتب الثاني	س		»
نب تاو رع متو حوتب الثالث	٢	(+ س)	»
نب حابت رع متو حوتب الرابع	٤٦	(+ س)	»
سنخ كارع متو حوتب الخامس	٨	(+ س)	»
المجموع	١٠٦	(+ س)	سنة

الأسرة الثانية عشرة : ٢٠٠٠ - ١٧٨٨ قبل الميلاد

أمنحت الأول (٣٠ سنة) * ٢٠٠٠ - * ١٩٧٠ } قبل الميلاد منفردا
مع ابنة * ١٩٨٠ - ١٩٧٠ »
مع والده * ١٩٨٠ - ١٩٧٠ »
منفردا * ١٩٣٨ - ١٩٧٠ }
مع ابنة * ١٩٣٨ - ١٩٣٥ »
مع والده * ١٩٣٨ - ١٩٣٥ »
منفردا * ١٩٣٥ - ١٩٠٦ }
مع ابنة * ١٩٠٦ - ١٩٠٣ »
مع والده * ١٩٠٦ - ١٩٠٣ }
منفردا * ١٨٨٧ - ١٩٠٣ }
سيزوستريس الثاني (٣٥ سنة) * ١٩٣٨ - * ١٩٠٣
سيزوستريس الثاني (١٩ سنة) * ١٩٠٦ - * ١٨٨٧
سيزوستريس الثالث (٣٨ سنة) * ١٨٨٧ - * ١٨٤٩
مدة اشتراكه مع ابنة مجهولة
أمنحت الثالث (٤٨ سنة) * ١٨٤٩ - * ١٨٠١ }
مدة اشتراكه مع أبية مجهولة
مدة اشتراكه مع ابنة مجهولة
أمنحت الرابع (٩ سنوات) * ١٨٠١ - * ١٧٩٢ }
مدة اشتراكه مع أبية مجهولة
سبك نفورع (٤ سنوات) * ١٧٩٢ - * ١٧٨٨
المجموع ... ٢٢٨ سنة
١٥ » مدد الاشتراك في الحكم بالتقريب
المجموع الحقيقي ٢١٣ سنة

من الأسرة الثالثة عشرة الى الأسرة السابعة عشرة : ١٧٨٨ * - ١٥٨٠ قبل الميلاد
مدة هذا العهد ٢٠٨ سنة

الأسرة الثامنة عشرة : ١٥٨٠ - ١٣٥٠ قبل الميلاد

أحمس الأول	٢٢	(+ س) سنة ١٥٨٠ - ١٥٥٧ * قبل الميلاد
أمنحتب الأول : ١٠ (+ س) سنة	٥٦	» ١٥٥٧ * - ١٥٠١ * »
تحوتمس الأول : ٣٠ (+ س) »		
تحوتمس الثالث	٥٤	»
من ٣ مايو ١٥٠١ * إلى ١٧ مارس ١٤٤٧ * قبل الميلاد (بما في ذلك حكم تحوتمس الثاني وحشيشسوت) .		
أمنحتب الثاني	٢٦	(+ س) ١٤٤٨ * - ١٤٢٠ »
تحوتمس الرابع	٨	(+ س) ١٤٢٠ - ١٤١١ »
أمنحتب الثالث	٣٦	» ١٤١١ - ١٣٧٥ »
أمنحتب الرابع ١٧ (+ س) سنة (أو إخناتون ١٣٧٥ - ١٣٥٨ قبل الميلاد)	٢٥	» ١٣٧٥ - ١٣٥٠ »
ساكرع		سنة
توت عنخ آمون		س
آي		٣ (+ س) »
المجموع	٢٢٧	(+ ٤ س) سنة
أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة ٢٣٠ سنة		

الأسرة التاسعة عشرة ١٣٥٠ - ١٢٠٥ قبل الميلاد

حرمحب	٣٤	(+ س) سنة ١٣٥٠ - ١٣١٥ قبل الميلاد
رمسيس الأول : ٢		» ١٣١٥ - ١٣١٤ »
سيتي الأول : ٢١ (+ س)		» ١٣١٣ - ١٢٩٢ »
رمسيس الثاني : ٦٧		» ١٢٩٢ - ١٢٢٥ »
منفتاح	١٠ (+ س)	» ١٢٢٥ - ١٢١٥ »
أمن رمسيس : س		» ١٢١٥ »
سيتاح	٦ (+ س)	» ١٢١٥ - ١٢٠٩ »
سيتي الثاني : ٢ (+ س)		» ١٢٠٩ - ١٢٠٥ »
المجموع	١٤٢	(+ ٦ س) سنة
أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة ١٤٥ سنة		

فترة

فوضى وحكم غاصب سوري : ٥ (+ سـ) سنة : ١٢٠٥ - ١٢٠٠ قبل الميلاد

الأسرة العشرون : ١٢٠٠ - ١٠٩٠ قبل الميلاد

ستنتخت	١	(+ سـ) سنة ١٢٠٠ - ١١٩٨ قبل الميلاد
رمسيس الثالث	٣١	» ١١٦٧ - ١١٩٨ »
رمسيس الرابع	٦	» ١١٦١ - ١١٦٧ »
رمسيس الخامس	٤	» ١١٥٧ - ١١٦١ » (+ سـ)
رمسيس السادس	...	» ١١٤٢ - ١١٥٧ »
رمسيس السابع	١٥	» ١١٤٢ - ١١٥٧ »
رمسيس الثامن	...	» ١١٤٢ - ١١٥٧ »
رمسيس التاسع	١٩	» ١١٢٣ - ١١٤٢ »
رمسيس العاشر	١	» ١١٢١ - ١١٢٣ » (+ سـ)
رمسيس الحادي عشر	...	» ١١١٨ - ١١٢١ »
رمسيس الثاني عشر	٢٧	» ١٠٩٠ - ١١١٨ » (+ سـ)
المجموع	١٠٤	(+ ٥ سـ) سنة

أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة ١١٠ سنة

الأسرة الحادية والعشرون : ١٠٩٠ - ٩٤٥ قبل الميلاد

نسويانبدد	...	سنة ١٠٩٠ - ١٠٨٥ قبل الميلاد
حريمحور	...	» ١٠٦٧ - ١٠٨٥ »
إسبب خنو الأول	١٧	» ١٠٢٦ - ١٠٦٧ » (+ سـ)
باي زم الأول	٤٠	» ٩٧٦ - ١٠٢٦ » (+ سـ)
أمنم أوبت	٤٩	» ٩٥٨ - ٩٧٦ » (+ سـ)
سيامون	١٦	» ٩٤٥ - ٩٥٨ » (+ سـ)
إسبب خنو الثاني	١٢	» ٩٤٥ - ٩٥٨ » (+ سـ)
المجموع	١٣٤	(+ ٦ سـ) سنة

أقل مدة معروفة لهذه الأسرة ١٤٥ سنة

الأسرة الثانية والعشرون : ٩٤٥ - ٧٤٥ قبل الميلاد

شيشق الأول ٢١	(+ س) سنة	٩٤٥ - ٩٢٤	قبل الميلاد
أوسركن الأول ٣٦	(+ س) »	٩٢٤ - ٨٩٥	»
ناكلوت الأول ٢٣	(+ س) »	٨٩٥ - ٨٧٤	»
اسركن الثاني ٣٠	(+ س) »	٨٧٤ - ٨٥٣	»
شيشق الثاني	{ -	(توفي عام ٨٧٧ قبل الميلاد في أثناء اشتراكه في الملك مع أوسركن الثاني) .		
ناكلوت الثاني ٢٥	(+ س) سنة	٨٦٠ - ٨٣٤	قبل الميلاد
				(اشترك سبع سنوات في الملك مع أوسركن الثاني) .
شيشق الثالث ٥٢	»	٨٣٤ - ٧٨٤	»
پمو ٦	(+ س) »	٧٨٤ - ٧٨٢	»
شيشق الرابع ٣٧	(+ س) »	٧٨٢ - ٧٤٥	»
المجموع ٢٣٠	(+ س) سنة		
مدة الاشتراك في الحكم بالتقريب ٣٠	»		
المجموع الحقيقي ٢٠٠	(+ س) سنة		
أقل مدة معروفة لهذه الأسرة	٢٠٠ سنة			

الأسرة الثالثة والعشرون : ٧٤٥ - ٧١٨ قبل الميلاد

بديست ٢٣	(+ س) سنة	٧٤٥ - ٧٢١	قبل الميلاد
أوسركن الثالث ١٤	(+ س) »		»
ناكلوت الثالث س	»		»
المجموع ٣٧	(+ ٣ س) سنة		
مدة الاشتراك في الحكم بالتقريب ١٠	»		
المجموع الحقيقي ٢٧	(+ س) سنة		
أقل مدة معروفة لهذه الأسرة	٢٧ سنة			

الأسرة الرابعة والعشرون : ٧١٨ - ٧١٢ قبل الميلاد

يكنز أنف (بوكوريس) ٦	(+ س) سنة	٧١٨ - ٧١٢	قبل الميلاد
أقل مدة معروفة لهذه الأسرة	٦ سنوات			

الأسرة الخامسة والعشرون : ٧١٢-٦٦٣ قبل الميلاد

شاباكا ١٢ سنة ٧١٢ - ٧٠٠ قبل الميلاد

شاباتاكا ١٢ » ٧٠٠* - ٦٨٨ »

طهرافه ٢٦ » ٦٨٨ - ٦٦٣ »

المجموع ٥٠ سنة

أقل مدة معروفة لهذه الأسرة ٥٠ سنة

الأسرة السادسة والعشرون : ٦٦٣ - ٥٢٥ قبل الميلاد

پسامتيك الأول ٥٤ سنة ٦٦٣ - ٦٠٩ قبل الميلاد

نيجاو ١٦ » ٦٠٩ - ٥٩٣ »

پسامتيك الثاني ٥ » ٥٩٣ - ٥٨٨ »

أپريس (هوفرا) ١٩ » ٥٨٨ - ٥٦٩ »

أحتمس الثاني ٤٤ » ٥٦٩ - ٥٢٥ »

پسامتيك الثالث بضعة أشهر ٥٢٥ »

المجموع ١٣٨ سنة

الغزو الفارسي (الأسرة السابعة والعشرون) : ٥٢٥ قبل الميلاد

صارت مصر بعد ذلك ولاية فارسية ثم حاول بعض حكام قصيرى العمر من أهلها تأسيس عدة أسر (من الأسرة الثامنة والعشرين الى الأسرة الثلاثين) ٥٢٥ - ٣٣٢ قبل الميلاد

استيلاء الاسكندر الأكبر على مصر : ٣٣٢ قبل الميلاد

مصر فى عهد الاسكندر وخلفائه البطالسة... .. ٣٣٢ - ٣٠ قبل الميلاد

صارت مصر ولاية رومانية : ٣٠ قبل الميلاد

هذه السلسلة تضم :

- ١ - فتح العرب لمصر
- ٢ - تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣ - الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤ - تاريخ مصر من أقدم المصور إلى الفتح الفارسي
- ٥ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
- ٦ - تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبل الوقت الحاضر
- ٧ - ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
- ٩ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)

- ١٠ - فتوح مصر وأخبارها
- ١١ - تاريخ مصر الحديث مع فزلقة في تاريخ مصر القديم
- ١٢ - قوانين الدواوين
- ١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
- ١٤ - الحكم المصري في الشام
- ١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
- ١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
- ١٧ - مذكراتي
- ١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
- ١٩ - وادي النطرون وربيانه وأديرته ومختصر البطارقة
- ٢٠ - الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية

- ٢١ - الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
- ٢٢ - السلطان فلاوون (تاريخه - أحوال مصر في عهده - منشآت المعمارية
- ٢٣ - صفوة العصر
- ٢٤ - الممالك في مصر
- ٢٥ - تاريخ دولة المماليك في مصر
- ٢٦ - سلاطين بني عثمان

Bibliotheca Alexandrina



0354380

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مذبولي

6 Talat Harb SQ. Tel: 5756421

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ٥٧٥٦٤٢١